مختصر الميزان

في تفسير القرآن

إلياس كلاتري

المجلد الأول

دار الكتب الإسلامية
ايران

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد الأول

إلياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۴۱- ۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. - تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات أسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.
ISBN 964-6066-02-x (دوره)
ISBN 964-6066-04-6 (ج. ۲) ISBN 964-6066-03-8 (ج. ۱)
ISBN 964-6066-06-2 (ج. ۴) ISBN 964-6066-05-4 (ج. ۳)
ISBN 964-6066-08-9 (ج. ۶) ISBN 964-6066-07-0 (ج. ۵)
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه - قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ -، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات أسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.
BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران ۷۹-۵۸۷۹م

کتابخانه
ت کامپیوتری علوم اسلامی
۲۷۸۱۷

دار الأسوة للطباعة والنشر
ایران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية)

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ١٤٢١ هـ.ق.

عدد المطبوع: ٥٠٠٠ دورة

ثمن الدورة: ١٥٠،٠٠٠ ريال

شابک ج۱: ISBN 964-6066-03-8 شابک دوره: ISBN 964-6066-02-x

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ١٣١٤٥/٦٨٤، هاتف ٦٤١٨٢٩٩ و ٦٤١٨٠٩٩، فكس ٦٤١٨٠٢٢
قم: ص.ب. ٣٩٩٩/٣٧١٨٥، هاتف ٥٥٠٨٠ و ٥٢٢١٢، فكس ٦١٧٧٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

إن الأسلوب المُتَّخَذ في القرآن الكريم هو بالصورة التي يشاهد ، فيه جوانب متعددة من المعاني ، بحيث يلاحظ منه سلسلة من المعاني الظاهرية بمجرد مطالعته مطالعة بسيطة . ثم ـ وعلى أثر التدبر فيه والتدقيق في تراكيب الجمل والآيات ، لا سيما على أثر كشف صلات الآيات ببعضها يكتشف منها معاني أعمق وأوسع وأكثر من المعاني الأولى . وان اكتشاف المعاني الجديدة في القرآن باستعمال الأسلوب التفسيري الصحيح لا انتهاء له أبداً .

بناء على هذا فمن الممكن أن تكون الآيات القرآنية موضع بحث وتفسير من جوانب ومستويات عديدة . أي يمكن الاكتفاء بذكر المعاني الإجمالية والبدائية للآيات في بحث تفسيريّ واحد ، أو كتاب تفسير من أجل الإطلاع على معرفة اجمالية لمعاني الآيات ، ويمكن أيضاً المبادرة الى بحث مفصّل واستخراج معاني مفصّلة وعميقة من الآيات بالاضافة إلى المعاني الإجمالية الأولى .

هذه القابلية بهذه الصورة هي إحدى مميزات القرآن الكريم ، ولا يمكن لأيّ كتاب

آخر أن يكون بهذه المواصفات ؛ لأن هذه الكيفية من التركيب هي من العلم الالهي وقدرته اللامتناهية .

بحث حول الأساليب التفسيرية المختلفة

لقد دوّنت تفاسير كثيرة حول القرآن الكريم منذ نزوله حتى يومنا هذا ، ووضعت معاني هذا الكتاب موضع بحث وتحقيق وتبيين من جوانب وصور مختلفة . وقد ظهرت ـ الى جانب ذلك ـ أساليب مختلفة في التفسير والتحقيق واستخراج معاني الآيات واختلاف اساليب التفسير وكتب تفسير القرآن يمكن أن يكون عدة أسباب منها :

١ ـ استعمال الأساليب الخاطئة الناقصة في تفسير آيات القرآن .

٢ ـ استعمال الموازين والمقاييس المختلفة الناتجة عن مواقف المفسرين الفكرية والعلمية والعقائدية .

٣ ـ عدم الاهتمام بالفروق القائمة بين كتاب الله والكتب البشرية في المجالات المختلفة .

٤ ـ القيام بتفسير القرآن من قبل غير أهل الفن وفاقدي القابلية والقدرة الكافية للتفسير .

٥ ـ أسلوب القرآن الخاص الذي يحتوي على جوانب عديدة من المعاني والمفاهيم اللامتناهية الخاصة به وفي تراكيبه الخاصة .

وبصورة عامة ، يجب القول بأنه وإن كان استعمال الأساليب الخاطئة في تفسير القرآن ، ووجود فاقدي الصلاحيات التفسيرية في هذا المجال ، واستعمال المقاييس والموازين الخاصة بالاشخاص في استنباط معاني الآيات قد أوجدت التفاسير المختلفة ؛ فإن أسلوب القرآن الخاص أيضاً يجب أن يعتبر ـ من بعض الجوانب ـ سبباً في ظهور هذه الاختلافات .

إن اتساع معاني القرآن ومفاهيمه وكثرتها من جهة ، والنظرات والمقاصد والقدرات و . . . المختلفة من جهة أخرى قد أدّت إلى أن ينتبه كل واحد من المفسرين إلى عدد من معاني الآيات من بعض جوانبها ، وعرضها باعتبارها معاني الآيات سواء كانت المعاني صحيحة ، والتي يريدها الله تعالى ، أو محتملة وغير صحيحة .

الأسلوب التفسيري الصحيح

يوجد أسلوب تفسيري صحيح واحد فقط بين جميع الأساليب التفسيرية المختلفة ، وهذا الأسلوب هو الذي يؤيده الله تعالى ونبيّ الاسلام الكريم ﷺ ، وهو عبارة عن تفسير القرآن بالقرآن . وأما غيره من الأساليب فغير صحيحة وغير جائزة وإن كان في بعضها مزيج من الأسلوب الصحيح وغيره .

وبصورة عامة ، فإن الكتاب النابع من علم الله تعالى يجب أن يكون أسلوب تفسيره وبيان مواضيعه من جانب الله أيضاً . وبالطبع فإن الأساليب الناتجة عن فكر الأشخاص وعلمهم لا يمكن أن تكون مورد تأييد الله تعالى .

ومن المحتمل أن يكون عدد من المفسرين قد غفلوا عن أصل الموضوع ، وهو أن يكون أسلوب تفسير كلام الله مستنبطاً من نفس كلامه تعالى . وقد يكون البعض منهم قد انتبهوا الى أصل الموضوع ، ولكنهم من الناحية العملية ظنوا بأن أسلوبهم غير الصحيح هو الصحيح الجائز . وبالطبع فإن القِلّة من المفسرين قد استعملوا ـ حسب إمكانهم وقدرتهم الأسلوب الصحيح .

وبالطبع فإن بيان هذا الأسلوب بصورة تامة يحتاج الى بحث مفصل ، وقد أشير الى ذكره هنا فقط وقد أورد مؤلف كتاب « الميزان في تفسير القرآن » بحثاً استدلالياً اجمالياً في هذا المجال في مقدمة كتابه .

الميزان في تفسير القرآن

إن كتاب «**الميزان في تفسير القرآن**» تأليف العالم الجليل الفقيد السعيد المرحوم العلّامة السيد محمدحسين الطباطبائي هو أكثر الكتب التفسيرية التي كتبت في العصر الحاضر أهميّة وقيمة ؛ والأسلوب المتّخذ في هذا الكتاب هو عبارة عن «**تفسير القرآن بالقرآن**» وانّ قوة الإدراك العظيمة ، والاطلاعات الواسعة ، والجهود المضنية ، والضمير النيّر ، والفكر الثاقب ، وأهم من كل هذه العوامل ، استخدام الأسلوب الفني «**تفسير القرآن بالقرآن**» قد أدّت الى أن يوجد هذا البطل في عالم علم التفسير كتاباً لا نظير له بين تفاسير القرآن حتى الآن .

أورد مؤلف «**الميزان في تفسير القرآن**» في مقدمة الكتاب بحثاً إجمالياً حول الأساليب التفسيرية المختلفة ، وبعد تخطئة الأساليب غير الصحيحة المتداولة طيلة التاريخ وإبطالها ، بيّن الأسلوب التفسيري الصحيح ، وقد استدلّ على صحة ذلك بدلائل برهانية دقيقة .

وقد بذل مؤلف هذا الكتاب الموفق القدير السعي الكثير في أن يتجنّب ـ حسب الإمكان فرض نظرة محدودة خاصة على تفسير آيات القرآن ، وبغض النظر عن النظرات المحدودة الخاصة وبالاستعانة بالأسلوب التفسيري الصحيح ، جعل الآيات القرآنية موضع دراسة وتحقيق ، واستخرج معانيها في الجوانب الممكنة .

وقد زعم أنه قد فُسّر القرآن في هذا الكتاب بواسطة القرآن نفسه وفي الواقع فإنه نجح في زعمه هذا ، وأوجد هذا الكتاب التاريخي المبارك .

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إن القرآن الكريم ـ كما أشير في بداية هذه المقدمة ـ له جوانب مختلفة من المعاني ، ومن الممكن أن تكون موضع دراسة وتحقيق وبحث من نواح كثيرة وقد اكتُفي في تفسير الميزان بالبحث اللفظي العادي في بعض الآيات ، وفي بعضها الآخر يدور الى بحوث قرآنية وعلمية وكلامية وفلسفية واجتماعية وتاريخية وروائية و . . . مهمة جداً ومفصلة ، وقد جاءت الى جانب التفسير البسيط للآيات أحياناً ، بحوث بصورة مستقلة أحياناً أخرى ، بحيث لا يستفيد من بعض هذه البحوث سوى أهل الفن فحسب .

بناء على هذا ، ففي خلال دراسة هذا الكتاب ، تقرّر ـ بالنظر الى بحوثه القيّمة المثمرة وحاجة الجيل الصاعد الى التعرّف على القرآن في المستويات المختلفة ـ أن ينظّم كتاب في فهرسة مواضيعه ، وكذلك مختصر عن هذا الكتاب لتمهيد الطريق الى الاستفادة من بحوثه بصورة مفصّلة ومنظّمة ومنسّقة من قبل محققي العلوم القرآنية ، وكذلك الاستفادة من هذا الكتاب من قبل الذين لا يجدون سوى الفرصة من التعرّف الإجمالي على معاني آيات القرآن بصورة مريحة .

فاتُّخِذَت الخطوات ـ في البداية ـ لتنظيم الدليل والفهرست ، والبحث عن موضوع الكتاب ومؤلفه سماحة العلّامة الطباطبائي رحمة الله عليه ، والذي نال موافقته ورضاه . وقد تُرجِم هذا الكتاب الى اللغة العربية تحت عنوان « دليل الميزان في تفسير القرآن » ليتسنّى لأبناء الضاد الاستفادة منه في النصّ العربي وترجمة الفارسية على السواء ، وقد طبع كلاهما وصدرا إلى الأسواق ، وأصبحا موضع استفادة المحققين وهواة التفسير واقبالهم .

وخلال هذا العمل وُضِع التخطيط لاختصار هذا التفسير الذي هو هذا الكتاب الذي

بين يديك : «مختصر الميزان في تفسير القرآن» ثمّ تنسّق بالأسلوب الذي سوف يتّضح في هذه المقدمة ، وأُعدّ للطبع .

ومن أجل أن يتّضح أسلوب العمل في اختصار كتاب الميزان ، يجب الاشارة الى بعض الجوانب المتخذة في تفسير الميزان ، وهذه الجوانب هي عبارة عن :

١ ـ إن مؤلف كتاب الميزان غالباً ما يبادر في البداية الى البحث اللغوي حول المفردات بعد كتابة آية أو آيات مثل :

قوله تعالى : «بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم...» والكلمة والكلم كالتمرة والتمر جنس وفرد ، وتطلق الكلمة على اللفظ الواحد الدالّ على المعنى وعلى الجملة سواء صحّ السكوت عليها ، مثل : زيد قائم ، أو لم يصحّ ، مثل : إن كان زيد قائماً ، هذا بحسب اللغة . (آل عمران / ٤٥ » .

٢ ـ وقد كتب المؤلف بعد البحث اللغوي رأيه حول معاني الآية موضوعة البحث غالباً ، مثل :

قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم...» الخطاب لعامة أهل الكتاب ، والدعوة في قوله تعالى : « تعالوا الى كلمة . . . » بالحقيقة انّما هي الاجتماع على معنى الكلمة بالعمل به ، وانّما تنسب الى الكلمة لتدل على كونها دائرة بألسنتهم . . . . (آل عمران / ٦٤) .

٣ ـ ويدوّن المؤلف غالباً ـ بعد بيان رأيه ـ آراء المفسرين الآخرين إن وجد حول الآية ، ويرى لها وجهاً ـ تارة ، ويردّها تارة اخرى ، وقد يذكرها ولا يعلّق عليها ، مثل : وهذا الذي ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآية . . .

وربما يقال : انّ الاستثناء متّصل ، قوله بالباطل قيد توضيحي . . .

وهذا النحو من الاستعمال وان كان جائزاً معروفاً عند أهل اللسان ، إلّا انّك قد عرفت أن

الأوفق لسياق الآية هو انقطاع الاستثناء . . .

وربما قيل : انّ المراد بالنهي المنع . . . (النساء / ٢٩) .

ومثل : قوله تعالى : « **ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** » ضمير « على حبّه » للطعام على ما هو الظاهر ، والمراد بحبّه تَوَقان النفس اليه لشدّة الحاجة ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون** » . (آل عمران / ٩٢) .

وقيل : الضمير لله سبحانه ، أي يطعمون الطعام حبّاً لله ، لا طمعاً في الثواب ، ويدفعه أنّ قوله تعالى حكاية منهم : « إنّما نطعمكم لوجه الله » يغني عنه .

ويليه في الضعف ما قيل : انّ الضمير للإطعام المفهوم من قوله : « ويطعمون » وجه الضعف انّه إن أريد بحب الاطعام حقيقة معناه ، فليس في حبّ الإطعام في نفسه فضل حتى يُمدحوا به ، وإن أريد به كون الإطعام بطيب النفس وعدم التكلّف ، فهو خلاف الظاهر ، ورجوع الضمير الى الطعام هو الظاهر . (الدهر / ٨) .

ومثل : « **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** » الأخذ كناية عن التعذيب ، والنكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله ، وعذاب الآخرة نكال ، حيث إنّ من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدي اليه من المعصية ، كما أنّ عذاب الاستئصال في الدنيا نكال .

والمعنى : فأخذ الله فرعون الى عذابه ونكله نكال الآخرة والأولى ، وأما عذاب الدنيا فإغراقه وإغراق جنوده ، وأما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت . فالمراد بالأولى والآخرة الدنيا والآخرة .

وقيل : المراد بالآخرة كلمة الآخرة : « **أنا ربكم الأعلى** » وبالأولى كلمته الأولى ، قالها قبل ذلك : « **ما علمت لكم من إله غيري** » فأخذه الله بهاتين الكلمتين ونكله نكالهما ، ولا يخلو هذا المعنى من خفاء .

وقيل : المراد بالأولى تكذيبه ومعصيته المذكوران في أول القصة ، بالأخرى كلمة (أنا ربكم الأعلى) المذكورة في آخرها وهو كسابقه .

وقيل : الأولى أول معاصيه ، والأخرى آخرها . والمعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه . ولا يخلو أيضاً من خفاء . (النازعات / ٢٥) .

ومثل : وقوله تعالى : « فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه » أي فاذا أتممنا قرأته عليك وحياً ، فاتّبع قراءتنا واقرأ بعد تمامها .

وقيل : المراد باتّباع قرآنه ، اتّباعه ذهناً بالإنصات والتوجّه التام اليه ، وهو معنى لا بأس به .

وقيل : المراد فاتّبع في الأوامر والنواهي قرآنه . وقيل : المراد اتّباع قراءته بالتكرار حتّى يرسخ في الذهن . وهما معنيان بعيدان . (القيامة / ١٨) .

ومثل : قوله تعالى : « وثيابك فطهّر » قيل : كناية عن اصلاح العمل ، ولا يخلو من وجه ، فانّ العمل بمنزلة الثياب للنفس بمالها من الاعتقاد ، فاظاهر عنوان الباطن ، وكثيراً ما يكنّى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب .

وقيل : كناية عن تزكية النفس ، وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي .

وقيل : المراد تقصير الثياب ، لأنه أبعد من النجاسة ، ولو طالت وانجرّت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس .

وقيل : المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى : « هنّ لباس لكم » (البقرة / ١٨٧) .

وقيل : الكلام على ظاهره ، والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة والأقرب على هذا أن يجعل قوله : « وربّك فكبّر » اشارة الى تكبير الصلاة ، وتكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارناً للأمر بالدعوة .

ولا يرد عليه ما قيل : إنّ نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً ، وذلك أنّ تشريع الفرائض الخمس اليومية على ما هي عليها اليوم ، وإن كان في ليلة المعراج ، وهي جميعاً عشر ركعات ، ثمّ زيد عليها سبع ركعات ، إلّا أنّ أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة ، كما يشهد به ذكرها في هذه السورة وسورتي العلق والمزمل ، ويدلّ عليه الروايات .

وقيل : المراد بتطهير الثياب التخلّق بالأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة .

وفي معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها ، لإمكان ارجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه ، وأرجح الوجوه المتقدمة أولها وخامسها . (المدثر / ٤) .

٤ ـ بعد البحث في تفسير عدد من الآيات كُتبت بحوث قرآنية وعلمية وكلامية وفلسفية واجتماعية وتاريخية وروائية و . . . مهمة ومفصلة يمكن أن تكون لها صلة ببحوث الآيات ، بصورة مستقلة عن البحث التفسيري في فصل أو فصول مثل :

كلام في أحكام الأعمال من حيث الجزاء . (البقرة / ٢١٦ ـ ٢١٨) .

ومثل : كلام في الإحسان وهدايته والظلم وإضلاله . (البقرة / ٢٥٨ ـ ٢٦٠) .

ومثل : كلام في قدرة الأنبياء والأولياء ، فلسفي وقرآني .

ومثل : كلام في المجتمعات الحيوانية . (الأنعام / ٣٧ ـ ٥٥) .

ومثل : الإعجاز وماهيته ؛ إعجاز القرآن ؛ تحدّيه بالعلم ؛ التحدّي بمن أنزل عليه القرآن ؛ تحدّي القرآن بالإخبار عن الغيب ؛ تحدّي القرآن بعدم الاختلاف فيه ؛ التحدّي بالبلاغة ؛ معنى الآية المعجزة في القرآن وما يفسّر به حقيقتها ؛ تصديق القرآن لقانون العليّة العامة ؛ إثبات القرآن ما يخرق العادة ؛ القرآن يسند ما أسند الى العلة المادية الى الله تعالى ؛ القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الأنبياء في الخوارق ؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس ، يسندها الى أمر الله تعالى ؛ القرآن يسند المعجزة الى سبب غير مغلوب ؛ القرآن يعدّ المعجزة برهاناً على صحة الرسالة ، لا دليلاً عامياً .

(البقرة ٢١ ـ ٢٥) .

ومثل : بدء تكوين الانسان ، تركيبه من روح وبدن ، شعوره الحقيقي ، وارتباطه بالأشياء ، علومه العملية ، جريه على استخدام عنده انتفاعاً ، كونه مدنياً بالطبع ، حدوث الاختلاف بين افراد الانسان ، رفع الاختلاف بالدين ، الاختلاف في نفس الدين ، الانسان بعد الدنيا . (البقرة / ٢١٣) .

ومثل : كلام في المرابطة في المجتمع الاسلامي : الانسان والاجتماع ، الانسان ونموه في اجتماعه ، الاسلام وعنايته بالاجتماع ، اعتبار الاسلام رابطة الفرد والمجتمع ، بماذا يتكون ويعيش الاجتماع الاسلامي ، منطقان : منطق التعقل ومنطق الاحساس ، ما معنى ابتغاء الاجر عند الله والاعراض عن غيره ؟ ما معنى الحرية في الاسلام ؟ ما هو الطريق الى التحول والتكامل في المجتمع الاسلامي ؟ هل الاسلام بشريعته يفي بإسعاد هذه الحياة الحاضرة ، من الذي يتقلد ولاية المجتمع في الاسلام وما سيرته ؟ ثغر المملكة الاسلامية هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعية او الاصطلاحية ، الاسلام اجتماعي بجميع شؤونه ، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخرة .

ومثل : بحث علمي في فصول ثلاثة : النكاح من مقاصد الطبيعة ، استيلاء الذكور على الإناث ، تعدد الزوجات .

ومثل : كلام في الرق والاستعباد ، اعتبار العبودية لله سبحانه ، استعباد الانسان واسبابه ، سير الاستعباد في التاريخ ، ما الذي رآه الاسلام في ذلك ، ما هو السبيل الى الاستعباد ، ما مقدار التحديد ، الى م آل أمر الالغاء ؟ (المائدة / ١١٦ ـ ١٢٠) .

ومثل : كلام في المجازاة والعفو في فصول : ما معنى الجزاء ؟ العفو والمغفرة ، للعفو مراتب ، هل المؤاخذة أو المغفرة تستلزم ذنباً ، رابطة العمل والجزاء ، العمل يؤدي المرابطة الى النفس .

ومثل :كلام في الأسماء الحسنىٰ في فصول : ما معنى الأسماء الحسنىٰ ؟ ما هو حد ما نصفه ؟ الانقسامات التي لها ، نسب الصفات والأسماء إلينا ، ما معنى الأسم الأعظم ؟ عدد الأسماء الحسنىٰ ، هل الأسماء توقيفية ؟ (الأعراف / ١٨٠ ـ ١٨٦) .

مميزات هذا الكتاب

إن أسلوب عملنا في اختصار «الميزان في تفسير القرآن» يتضح بالنظر الى الإيضاحات التالية :

١ ـ لم يضف في هذا المختصر حتى كلمة واحدة الى ماكتبه مؤلف الميزان .

٢ ـ اخترت آراء المؤلف في معاني آيات القرآن بصورة اساسية ، الّا في الموارد التي نقل المؤلف موضوعاً عن الآخرين وقبله ، والذي يكون في الحقيقة مطابقاً لرأيه أو مبتنياً عليه .

٣ ـ جيء بمقدمة تفسير الميزان التي توضح أسلوب المرحوم العلّامة الطباطبائي التفسيري بدون حذف في هذا الكتاب .

٤ ـ ان المواضيع المحذوفة هي في الأساس عبارة عن البحوث المستقلة ، العلمية والكلامية والفلسفية والاجتماعية ، والتاريخية ، والروائية و . . . المدونة بعد التفسير اللفظي والعادي لبعض الآيات .

٥ ـ يتوقف بيان الآيات على البحث الروائي في بعض الموارد ، ولذا فقد جيء بالبحث الروائي المنتخب في هذا الكتاب .

٦ ـ في الموارد التي يبين فيها المؤلف رأيه الخاص بصورة مستقلة بالنسبة لآية من الآيات ثم يبادر الى نقل ودراسة آراء سائر المفسرين ، اخترنا القسم الأول (رأي المؤلف نفسه) وحذفنا آراء الآخرين .

وأما في الموارد التي يكون فيها البحث التفسيري مزيجاً من نقل آراء سائر المفسرين فقد أثبتنا جميع تلك الآراء .

٧ـ في الموارد التي جاء المؤلف ـ بعد تفسير الآية بآراء وتفاسير من سائر المفسرين أيضاً ، ويرى لتلك الآراء وجهاً ، ونقلها على الأقل ولم يرفضها أو لا يراها باطلة ، ففي مثل هذه الموارد اختير أكثرها ، إلّا في الموارد التي لم نر ضرورة في اختيارها .

٨ـ إذا كان إيضاح معاني الآية يتوقف أحياناً على جميع البحث التفسيري فقد اخترنا جميع ذلك البحث ولم نحذف منه شيئاً .

يوم مبعث رسول الله في السابع والعشرين من
شهر رجب سنة ثمان واربعمائة بعد الألف
من هجرته صلّى الله عليه وآله وسلم

طهران ـ الياس كلانتري

مقدمة

الميزان في تفسير القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلوة على من جعله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت وطهرّهم تطهيراً.

مقدمة: نعرّف فيها مسلك البحث عن معاني آيات القرآن الكريم في هذا الكتاب بطريق الاختصار.

التفسير (وهو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها) من أقدم الاشتغالات العلمية التي تعهد من المسلمين، فقد شرع تاريخ هذا النوع من البحث والتنقير المسمى بالتفسير من عصر نزول القرآن كما يظهر من قوله تعالى وتقدس: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزكّيكم ويعلّمكُم الكتاب والحكمة﴾ الآية؛ (البقرة/ ١٥١).

وقد كانت الطبقة الاولى من مفسري المسلمين جماعة من الصحابة (والمراد بهم غير علي عليه السلام، فانّ له وللأئمة من ولده نبأٌ آخر سنتعرّض له) كابن عباس

وعبدالله ابن عمر وأبي وغيرهم اعتنوا بهذا الشأن، وكان البحث يومئذ لا يتجاوز عن بيان ما يرتبط، من الآيات بجهاتها الأدبية وشأن النزول وقليلٍ من الاستدلال بآية على آية وكذلك قليلٌ من التفسير بالروايات المأثورة عن النبي ﷺ في القصص ومعارف المبدء والمعاد وغيرها.

وعلى هذا الوصف جرى الحال بين المفسرين من التابعين كمجاهد وقتادة وابن أبي ليلى والشعبي والسدّي وغيرهم في القرنين الأوّلين من الهجرة، فإنهم لم يزيدوا على طريقة سلفهم من مفسري الصحابة شيئاً غير انهم زادوا من التفسير بالروايات، (وبينها روايات دسّها اليهود أو غيرهم)، فأوردوها في القصص والمعارف الراجعة الى الخلقة كابتداء السماوات وتكوين الأرض والبحار وإرم شدّاد وعثرات الأنبياء وتحريف الكتاب واشياء أُخر من هذا النوع، وقد كان يوجد بعض ذلك في المأثور عن الصحابة من التفسير والبحث.

ثم استوجب شيوع البحث الكلامي بعد النبي ﷺ في زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفة من أمم البلاد المفتوحة بيد المسلمين وعلماء الأديان والمذاهب المتفرقة من جهة.

ونقل فلسفة يونان الى العربية في السلطنة الأموية أواخر القرن الأول من الهجرة، ثم في عهد العباسيين، وانتشار البحث العقلي الفلسفي بين الباحثين من المسلمين من جهة أُخرى ثانية.

وظهور التصوّف مقارناً لانتشار البحث الفلسفي وتمايل الناس الى نيل المعارف الدينية من طريق المجاهدة والرياضة النفسانية دون البحث اللفظي والعقلي من جهة أخرى ثالثة.

وبقاء جمع من الناس وهم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينية من غير بحث إلا عن اللفظ بجهاتها الأدبية من جهة أُخرى رابعة.

ان اختلف الباحثون في التفسير في مسالكهم بعدما عمل فيهم الانشعاب في المذاهب ما عمل، ولم يبق بينهم جامع في الرأي والنظر إلا لفظ لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ﷺ واختلفوا في معنى الأسماء والصفات والأفعال والسماوات وما فيها والأرض وما عليها والقضاء والقدر والجبر والتفويض والثواب والعقاب وفي الموت وفي البرزخ والبعث والجنة والنار، وبالجملة في جميع ما تمسّه الحقائق والمعارف الدينية ولو بعض المسّ، فتفرقوا في طريق البحث عن معاني الآيات، وكل يتّحفّظ على متن ما اتخذه من المذهب والطريقة.

فأما المحدّثون، فاقتصروا على التفسير بالرواية عن السلف من الصحابة والتابعين فساروا وجدّوا في السير حيث ما يسير بهم المأثور ووقفوا فيما لم يؤثر فيه شيء ولم يظهر المعنى ظهوراً لا يحتاج الى البحث أخذاً بقوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾ الآية؛ (آل عمران / ٧). وقد أخطأوا في ذلك فان الله سبحانه لم يبطل حجة العقل في كتابه، وكيف يعقل ذلك وحجيّته انما تثبت به! ولم يجعل حجيّة في أقوال الصحابة والتابعين وانظارهم على اختلافها الفاحش، ولم يدعُ الى السفسطة بتسليم المتناقضات والمتنافيات من الاقوال، ولم يندب الا الى التدبر في آياته، فرفع به أي اختلاف يترائى منها، وجعله هدىً ونوراً وتبياناً لكل شيء، فما بال النور يستنير بنور غيره! وما شأن الهدى يهتدى بهداية سواه! وكيف يتبين ما هو تبيان كل شيء بشيء دون نفسه!.

واما المتكلمون فقد دعاهم الاقوال المذهبية على اختلافها أن يسيروا في التفسير على ما يوافق مذاهبهم باخذ ما وافق وتأويل ما خالف، على حسب ما يجوّزه قول المذهب.

واختيار المذاهب الخاصة واتخاذ المسالك والآراء المخصوصة وان كان معلولاً لاختلاف الانظار العلمية أو لشيء آخر كالتقاليد والعصبيات القومية، وليس هيهنا محل الاشتغال بذلك، الا ان هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمى تطبيقاً لا تفسيراً.

ففرقٌ بين ان يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ أو يقول: ماذا يجب ان نحمل عليه الآية؟ فان القول الاول يوجب ان ينسى كل امر نظري عند البحث، وان يتكى على ما ليس بنظري، والثاني يوجب وضع النظريات في المسئلة وتسليمها وبناء البحث عليها.

ومن المعلوم ان هذا النحو من البحث في الكلام ليس بحثاً عن معناه في نفسه.

وأما الفلاسفة، فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع في ورطة التطبيق وتأويل الآيات المخالفة بظاهرها للمسلّمات في فنون الفلسفة بالمعنى الأعم اعني: الرياضيات والطبيعيات والإلهيات والحكمة العملية، وخاصة المشّائين، وقد تأولوا الآيات الواردة في حقائق ما وراء الطبيعة وآيات الخلقة وحدوث السموات والأرض وآيات البرزخ وآيات المعاد، حتى أنهم ارتكبوا التأويل في الآيات التي لا تلائم الفرضيات والاصول الموضوعة التي نجدها في العلم الطبيعي: من نظام الأفلاك الكلية والجزئية وترتيب العناصر والأحكام

الفلكية والعنصرية إلى غير ذلك، مع انهم نصوا على أن هذه الأنظار مبتنية على اصول موضوعة لا بينة ولا مبينة.

وأما المتصوفة، فإنهم لاشتغالهم بالسير في باطن الخلقة واعتنائهم بشأن الآيات الأنفسية دون عالم الظاهر وآياته الآفاقية اقتصروا في بحثهم على التأويل، ورفضوا التنزيل، فاستلزم ذلك اجتراء الناس على التأويل، وتلفيق جمل شعرية والإستدلال من كل شيء على كل شيء، حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمل ورد الكلمات إلى الزبر والبينات والحروف النورانية والظلمانية إلى غير ذلك.

ومن الواضح أن القرآن لم ينزل هدى للمتصوفة خاصة، ولا أن المخاطبين به هم أصحاب علم الاعداد والأوفاق والحروف، ولا أن معارفه مبنية على أساس حساب الجمل الذي وضعه أهل التنجيم بعد نقل النجوم من اليونانية وغيرها إلى العربية.

نعم قد وردت روايات عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام كقولهم: ان للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة ابطن أو إلى سبعين بطناً الحديث.

لكنهم عليهم السلام إعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن، واعتنوا بأمر التنزيل كما اعتنوا بشأن التأويل، وسنبين في أوايل سورة آل عمران انشاء الله: أن التأويل الذي يراد به المعنى المقصود الذي يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثة في لسان المسلمين بعد نزول القرآن وانتشار الإسلام، وان الذي يريده القرآن من لفظ التأويل فيما ورد فيه من الآيات ليس من قبيل المعنى والمفهوم.

وقد نشأ في هذه الأعصار مسلك جديد في التفسير وذلك أن قوماً من منتحلي الإسلام في أثر توغلهم في العلوم الطبيعية وما يشابهها المبتنية على الحس والتجربة، والاجتماعية المبتنية على تجربة الاحصاء، مالوا إلى مذهب الحسيّين من فلاسفة الأروبة سابقاً، أو إلى مذهب أصالة العمل (لا قيمة للإدراكات الا ترتب العمل عليها بمقدار يعيّنه الحاجة الحيوية بحكم الجبر).

فذكروا: ان المعارف الدينية لا يمكن أن تخالف الطريق الذي تصدقه العلوم وهو أن: (لا أصالة في الوجود إلا للمادة وخواصها المحسوسة) فما كان الدين يخبر عن وجوده مما يكذب العلوم ظاهره كالعرش والكرسي واللوح والقلم يجب أن يؤّل تأويلا.

وما يخبر عن وجوده مما لا تتعرض العلوم لذلك كحقائق المعاد يجب أن يوجه بالقوانين المادية.

وما يتكي عليه التشريع من الوحي والملك والشيطان والنبوة والرسالة والامامة وغير ذلك، إنما هي امور روحية، والروح مادية ونوع من الخواص المادية، والتشريع نبوغ خاص اجتماعي يبني قوانينه على الأفكار الصالحة، لغاية إيجاد الاجتماع الصالح الراقي.

ذكروا: أن الروايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للاعتماد عليها، إلا ما وافق الكتاب، وأما الكتاب فلا يجوز أن يُبنى في تفسيره على الآراء والمذاهب السابقة المبتنية على الاستدلال من طريق العقل الذي أبطله العلم بالبناء على الحس والتجربة، بل الواجب أن يستقل بما يعطيه القرآن من التفسير إلا ما بينه

العلم.

هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه، من اتباع طريق الحس والتجربة، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير، ولا كلام لنا هيهنا في اصولهم العلمية والفلسفية التي اتخذوها اصولاً وبنوا عليها ما بنوا.

وإنما الكلام في أن ما لو ردوه على مسالك السلف من المفسرين (أن ذلك تطبيق وليس بتفسير) وارد بعينه على طريقتهم في التفسير، وإن صرحوا أنه حق التفسير الذي يفسر به القرآن بالقرآن.

ولو كانوا لم يحملوا على القرآن في تحصيل معاني آياته شيئاً، فما بالهم يأخذون الأنظار العلمية مسلمة لا يجوز التعدي عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف اصلاحاً.

وانت بالتأمل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: ان الجميع مشتركة في نقص وبئس النقص، وهو تحميل ما انتجته الابحاث العلمية أو الفلسفية من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقاً وسمي به التطبيق تفسيراً، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازاتٍ، وتنزيل عدة من الآيات تاويلات.

ولازم ذلك (كما أومأنا إليه في أوائل الكلام) أن يكون القرآن الذي يعرّف نفسه بأنه ﴿هدى للعالمين ونور مبين وتبيان لكل شيء﴾ مهدياً إليه بغيره ومستنيراً بغيره ومبيناً بغيره، فما هذا الغير! وما شأنه! وبماذا يهدي إليه! وما هو المرجع والملجاء إذا اختلف فيه! وقد اختلف واشتد الخلاف.

وكيف كان فهذا الاختلاف لم يولده اختلاف النظر في مفهوم (مفهوم اللفظ

المفرد أو الجملة بحسب اللغة والعرف العربي) الكلمات أو الآيات ، فإنما هو كلام عربي مبين لا يتوقف في فهمه عربي ولا غيره ممن هو عارف باللغة واساليب الكلام العربي .

وليس بين آيات القرآن (وهي بضع آلاف آية) آية واحدة ذات اغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحير الذهن في فهم معناها ، وكيف! وهو افصح الكلام ومن شرط الفصاحة خلو الكلام عن الاغلاق والتعقيد ، حتى أن الآيات المعدودة من متشابه القرآن كالآيات المنسوخة وغيرها ، في غاية الوضوح من جهة المفهوم ، وإنما التشابه في المراد منها وهو ظاهر .

وإنما الاختلاف كل الاختلاف في المصداق الذي ينطبق عليه المفاهيم اللفظية من مفردها ومركبّها ، وفي المدلول التصوري والتصديقي .

توضيحة : ان الانس والعادة (كما قيل) يوجبان لنا ان يسبق إلى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها المادية أو ما يتعلق بالمادة فإن المادة هي التي يتقلب فيها ابداننا وقوانا المتعلقة بها ما دمنا في الحيوة الدنيوية ، فإذا سمعنا الفاظ الحيوة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والرضا والغضب والخلق والأمر كان السابق إلى أذهاننا منها الوجودات المادية لمفاهيمها .

وكذا اذا سمعنا الفاظ السماء والأرض واللوح والقلم والعرش والكرسي والملك واجنحته والشيطان وقبيله وخيله ورَجِله إلى غير ذلك ، كان المتبادر إلى افهامنا مصاديقها الطبيعية .

وإذا سمعنا : إن الله خلق العالم وفعل كذا وعلم كذا وأراد أو يريد أو شاء و أو يشاء كذا قيّدنا الفعل بالزمان حملا على المعهود عندنا .

واذا سمعنا نحو قوله: ﴿ ولدينا مزيد ﴾ الآية.

و قوله: ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ وما عند الله خير ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ واليه ترجعون ﴾ الآية؛ قيّدنا معنى الحضور بالمكان.

وإذا سمعنا نحو قوله: ﴿ إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ الآية.

أو قوله: ﴿ ونريد ان نمن ﴾ الآية.

أو قوله: ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ الآية؛ فهمنا: أن الجميع سنخ واحد من الارادة، لِما إن الأمر على ذلك فيما عندنا، وعلى هذا القياس.

وهذا شأننا في جميع الألفاظ المستعملة، ومن حقنا ذلك، فإن الذي أوجب علينا وضع الفاظ إنما هي الحاجة الاجتماعية إلى التفهيم والتفهّم، والاجتماع إنما تعلق به الانسان ليستكمل به في الافعال المتعلقة بالمادة ولو احقها، فوضعنا الألفاظ علائم لمسمياتها التي نريد منها غايات واغراضاً عائدة الينا.

وكان ينبغي لنا ان نتنبه: أن المسميّات المادية محكومة بالتغير والتبدل بحسب تبدل الحوائج في طريق التحول والتكامل كما ان السراج أول ما عمله الانسان كان اناء فيه فتيلة وشيء من الدهن تشتعل به الفتيلة للاستضائة به في الظلمة، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائي ولم يبقى من اجزاء السراج المعمول أوّلا الموضوع بازائه لفظ السراج شيء ولا واحد.

وكذا الميزان المعمول أولا، والميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحرارة مثلا.

والسلاح المتخذ سلاحاً أول يوم، والسلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك.

فالمسميات بلغت في التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً وصفة والاسم مع ذلك باق، وليس إلا لأن المراد في التسمية إنما هو من الشيء غايته، لا شكله وصورته، فما دام غرض التوزين أو الاستضائة أو الدفاع باقياً كان اسم الميزان والسراج والسلاح وغيرها باقياً على حاله.

فكان ينبغي لنا ان نتنبه أن المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغاية والغرض، لا جمود اللفظ على صورة واحدة، فذلك مما لا مطمع فيه البتة، ولكن العادة والانس منعانا ذلك، وهذا هو الذي دعى المقلدة من أصحاب الحديث من الحشوية والمجسمة ان يجمدوا على ظواهر الآيات في التفسير وليس في الحقيقة جموداً على الظواهر بل هو جمود على العادة والانس في تشخيص المصاديق.

لكن بين هذه الظواهر أنفسها امور تبيّن: أن الإتكاء والإعتماد على الانس والعادة في فهم معاني الآيات يشوّش المقاصد منها ويختل به أمر الفهم كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ الآية.

وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾.

وقوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾.

وهذا هو الذي دعى الناس أن لا يقتصروا على الفهم العادي والمصداق المأنوس به الذهن في فهم معاني الآيات كما كان غرض الاجتناب عن الخطاء والحصول على النتائج المجهولة هو الذي دعى الانسان إلى ان يتمسك بذيل البحث العلمي، وأجاز ذلك للبحث ان يداخل في فهم حقائق القرآن وتشخيص

مقاصده العالية، وذلك على احد وجهين، احدهما: ان نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسئلة من المسائل التي تتعرض له الآية حتى نقف على الحق في المسئلة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير ان القرآن لا يرتضيها كما عرفت، وثانيهما: ان نفسر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونتعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى ﴿إنا انزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ الآية.

وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾ الآية.

وكيف يكون القرآن هدىً وبيّنة وفرقاناً ونوراً مبينا للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو اشد الاحتياج! وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ الآية؛ واي جهاد اعظم من بذل الجهد في فهم كتابه! وايّ سبيل اهدى إليه من القرآن!.

والآيات فيهذا المعنى كثيرة سنستفرغ الوسع فيها في بحث المحكم والمتشابه في اوائل سورة آل عمران.

ثم إن النبي ﷺ الذي علّمه القرآن وجعله معلما لكتابه كما يقول تعالى: ﴿نزل به الروح الامين على قلبك﴾ الآية.

ويقول ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم﴾ الآية؛ وعترته واهل بيته ألذين اقامهم النبي ﷺ هذا المقام في الحديث المتفق عليه بين

الفريقين «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». وصدَّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عز من قائل: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهّركم تطهيراً﴾.

وقال: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون﴾ الآية؛ وقد كانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل الينا من اخبارهم في التفسير. وسنورد ما تيسر لنا مما نقل عن النبي ﷺ وائمة أهل بيته في ضمن ابحاث روائية في هذا الكتاب، ولا يعثر المتتبع الباحث فيها على مورد واحد يستعان فيه على تفسير الآية بحجة نظرية عقلية، ولا فرضية علمية.

وقد قال النبي ﷺ: «فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وما حل مصدق، من جعله امامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره انيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرف النصفة، فليرجع رجل بصره، وليبلغ الصفة نظره ينجو من عطب ويخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، يحسن التخلص ويقل التربص». وقال علي عليه السلام (يصف القرآن على ما في النهج): «ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» الخطبة.

هذا هو الطريق المستقيم والصراط السوي الذي سلكه معلموا القرآن وهداته صلوات الله عليهم.

وسنضع ما تيسر لنا بعون الله سبحانه من الكلام على هذه الطريقة في البحث عن الآيات الشريفة في ضمن بيانات، قد اجتنبنا فيها عن أن نركن الى حجة نظرية فلسفية أو إلى فرضية علمية، أو الى مكاشفة عرفانية.

واحترزنا فيها عن أن نضع الا نكتة ادبية يحتاج اليها فهم الاسلوب العربي أو مقدمة بديهية أو عملية لا يختلف فيها الافهام.

وقد تحصل من هذه البيانات الموضوعة على هذه الطريقة من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره:

(١) المعارف المتعلقة باسماء الله سبحانه وصفاته من الحيوة والعلم والقدرة والسمع والبصر والوحدة وغيرها، وأما الذات فستطلع أن القرآن يراه غنياً عن البيان.

(٢) المعارف المتعلقة بافعاله تعالى من الخلق والامر والإرادة والمشية والهداية والاضلال والقضاء والقدر والجبر والتفويض والرضا والسخط، الى غير ذلك من متفرقات الافعال.

(٣) المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الانسان كالحُجُب واللوح والقلم والعرش والكرسي والبيت المعمور والسماء والارض والملائكة والشياطين والجن وغير ذلك.

(٤) المعارف المتعلقة بالانسان قبل الدنيا.

(٥) المعارف المتعلقة بالانسان في الدنيا كمعرفة تاريخ نوعه ومعرفة نفسه

ومعرفة اصول اجتماعه ومعرفة النبوة والرسالة والوحي والالهام والكتاب والدين والشريعة ومن هذا الباب مقامات الانبياء المستفادة من قصصهم المحكية.

(٦) المعارف المتعلقة بالانسان بعد الدنيا، وهو البرزخ والمعاد.

(٧) المعارف المتعلقة بالاخلاق الانسانية، ومن هذا الباب ما يتعلق بمقامات الأولياء في صراط العبودية من الاسلام والايمان والإحسان والإخبات والإخلاص وغير ذلك.

وأما آيات الأحكام، فقد اجتنبنا تفصيل البيان فيها لرجوع ذلك الى الفقه.

وقد أفاد هذه الطريقة من البحث إرتفاع التأويل بمعنى الحمل على المعنى المخالف للظاهر من بين الآيات.

وأما التأويل بالمعنى الذي يثبته القرآن في مواضع من الآيات، فسترى أنه ليس من قبيل المعاني.

ثم وضعنا في ذيل البيانات متفرقات من ابحاث روائية نورد فيها ما تيسر لنا ايراده من الروايات المنقولة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين من طرق العامة والخاصة، وأما الروايات الواردة عن مفسري الصحابة والتابعين، فإنها على ما فيها من الخلط والتناقض لا حجة فيها على مسلم.

وسيطلع الباحث المتدبر في الروايات المنقولة عنهم عليهم السلام، ان هذه الطريقة الحديثة التي بنيت عليها بيانات هذا الكتاب، أقدم الطرق المأثورة في التفسير التي سلكها معلموه سلام الله عليهم.

ثم وضعنا ابحاثاً مختلفة، فلسفية وعلمية وتأريخية واجتماعية وأخلاقية،

حسب ما تيسر لنا من البحث، وقد أثرنا في كل بحث قصر الكلام على المقدمات المسانخة له، من غير تعد عن طور البحث.

نسئل الله تعالى السداد والرشاد فانه خير معين وهاد

الفقير إلى الله
محمد حسين الطباطبائي

سورة الحمد وهي سبع آيات

١ ● بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.
٢ ● أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمينَ.
٣ ● أَلرَّحمٰنِ الرَّحيمِ.
٤ ● مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.
٥ ● إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعينُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ﴾ الناس ربما يعملون عملاً أو يبتدئون في عمل ويقرنونه باسم عزيز من أعزتهم أو كبير من كبرائهم، ليكون عملهم ذاك مباركاً بذلك متشرفاً، أو ليكون ذكرى يذكرهم به، ومثل ذلك موجود أيضاً في باب التسمية فربما يسمون المولود الجديد من الانسان، أو شيئاً مما صنعوه أو عملوه كدار بنوها أو مؤسسة اسسوها باسم من يحبونه أو يعظمونه، ليبقى الإسم ببقاء المسمى الجديد، ويبقى المسمى الأول نوع بقاء ببقاء

الإسم كمن يسمي ولده باسم والده ليحيى بذلك ذكره فلا يزول ولا ينسى.

وقد جرى كلامه تعالى هذا المجرى، فابتدأ الكلام باسمه عز إسمه؛ ليكون ما يتضمنه من المعنى معلماً باسمه مرتبطاً به، وليكون أدباً يؤدب به العباد في الاعمال والافعال والأقوال، فيبتدئوا باسمه ويعلموا به، فيكون ما يعملونه معلماً باسمه منعوتاً بنعته تعالى مقصوداً لاجله سبحانه فلا يكون العمل هالكاً باطلاً مبتراً، لأنه باسم الله الذي لا سبيل للهلاك والبطلان إليه.

وذلك أن الله سبحانه يبين في مواضع من كلامه: أن ما ليس لوجهه الكريم هالك باطل، وأنه: سيقدم الى كل عمل عملوه مما ليس لوجهه الكريم، فيجعله هباءاً منثوراً، ويحبط ما صنعوا ويبطل ما كانوا يعملون، وانه لا بقاء لشيء إلا وجهه الكريم فما عمل لوجهه الكريم وصنع باسمه هو الذي يبقى ولا يفنى، وكل أمر من الامور انما نصيبه من البقاء بقدر ما لله فيه نصيب، وهذا هو الذي يفيده ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ إنه قال: «كل امر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر الحديث». والأبتر هو المنقطع الآخر. فالأنسب ان متعلق الباء في البسملة ابتدىء بالمعنى الذي ذكرناه فقد ابتدء بها الكلام بما انه فعل من الأفعال، فلا محالة له وحدة، ووحدة الكلام بوحدة مدلوله ومعناه، فلا محالة له معنى ذا وحدة، وهو المعنى المقصود افهامه من إلقاء الكلام، والغرض المحصّل منه.

وقد ذكر الله سبحانه الغرض المحصل من كلامه الذي هو جملة القرآن اذ قال تعالى: ﴿قد جائكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله﴾ الآية: (المائدة / ١٦). الى غير ذلك من الآيات التي أفاد فيها: ان الغاية من كتابه وكلامه هداية العباد، فالهداية جملة هي المبتدئة باسم الله الرحمن الرحيم، فهو الله الذي إليه مرجع العباد، وهو الرحمن يبيّن لعباده سبيل رحمته العامة للمؤمن والكافر، مما فيه خيرهم في وجودهم وحياتهم، وهو الرحيم يبين لهم سبيل رحمته الخاصة بالمؤمنين وهو سعادة آخرتهم ولقاء ربهم وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل

شيء وسأكتبها للذين يتقون﴾. (الأعراف / ١٥٦). فهذا بالنسبة الى جملة القرآن.

ثم إنه سبحانه كرّر ذكر السورة في كلامه كثيراً كقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ (يونس / ٣٨). وقوله: ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ (هود / ١٣). وقوله تعالى: ﴿إذا أُنزلت سورة﴾ (التوبة / ٨٦). وقوله: ﴿سورة انزلناها وفرضناها﴾ (النور / ١). فبان لنا من ذلك: أن لكل طائفة من هذه الطوائف من كلامه (التي فصّلها قطعاً قطعاً، وسمى كل قطعة سورة) نوعاً من وحدة التأليف والتمام، لا يوجد بين أبعاض من سورة ولا بين سورة وسورة، ومن هنا نعلم: أن الأغراض والمقاصد المحصلة من السور مختلفة، وأن كل واحدة منها مسوقة لبيان معنى خاص ولغرض محصل لا تتم السورة إلا بتمامه، وعليهذا فالبسملة في مبتدإ كل سورة راجعة الى الغرض الخاص من تلك السورة.

فالبسملة في سورة الحمد راجعة الى غرض السورة والمعنى المحصل منه، والغرض الذي يدل عليه سرد الكلام في هذه السورة هو حمد الله باظهار العبودية له سبحانه بالافصاح عن العبادة والإستعانة وسؤال الهداية، فهو كلام يتكلم به الله سبحانه نيابة عن العبد، ليكون متأدباً في مقام اظهار العبودية بما أدبه الله به.

وإظهار العبودية من العبد هو العمل الذي يتلبس به العبد، والأمر ذو البال الذي يقدم عليه، فالابتداء باسم الله سبحانه الرحمن الرحيم راجع إليه، فالمعنى باسمك أظهر لك العبودية.

فتعلق الباء في بسملة الحمد الابتداء ويراد به تتميم الاخلاص في مقام العبودية بالتخاطب. وربما يقال انه الاستعانة ولا بأس به ولكن الابتداء انسب لاشتمال السورة على الاستعانة صريحاً في قوله تعالى: ﴿واياك نستعين﴾.

وأما الاسم، فهو اللفظ الدال على المسمى مشتق من السمة بمعنى العلامة أو من السمو بمعنى الرفعة وكيف كان فالذي يعرفه منه اللغة والعرف هو اللفظ الدال ويستلزم ذلك أن يكون

غير المسمى، وأما الاسم بمعنى الذات مأخوذاً بوصف من أوصافه فهو من الأعيان لا من الألفاظ وهو مسمى الاسم بالمعنى الأول كما ان لفظ العالم (من اسماء الله تعالى) اسم يدل على مسماه وهو الذات ماخوذه بوصف العلم وهو بعينه إسم بالنسبة الى الذات الذي لا خبر عنه الا بوصف من اوصافه ونعت من نعوته والسبب في ذلك أنهم وجدوا لفظ الاسم موضوعاً للدال على المسمى من الألفاظ، ثم وجدوا أن الأوصاف المأخوذة على وجه تحكي عن الذات وتدل عليه حال اللفظ المسمى بالاسم في أنها تدل على ذوات خارجية. فسموا هذه الاوصاف الدالة على الذوات أيضاً أسماء فانتج ذلك ان الاسم كما يكون أمراً لفظياً كذلك يكون أمراً عينياً، ثم وجدوا ان الدال على الذات القريب منه هو الاسم بالمعنى الثاني المأخوذ بالتحليل، وان الاسم بالمعنى الأول إنما يدل على الذات بواسطته. ولذلك سمو الذي بالمعنى الثاني إسماً، والذي بالمعنى الأول اسم الاسم. هذا ولكن هذا كله أمر أدى إليه التحليل النظري ولا ينبغي أن يحمل على اللغة، فالاسم بحسب اللغة ما ذكرناه.

وقد شاع النزاع بين المتكلمين في الصدر الأول من الاسلام في أن الاسم عين المسمى أو غيره وطالت المشاجرات فيه، ولكن هذا النوع من المسائل قد اتضحت اليوم إتضاحاً يبلغ الى حد الضرورة ولا يجوز الاشتغال بها بذكر ما قيل وما يقال فيها والعناية بابطال ما هو الباطل وإحقاق ما هو الحق فيها، فالصفح عن ذلك اولى.

وأما لفظ الجلالة، فالله أصله الإله، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وإله من أله الرجل يأله بمعنى عبد، او من اله الرجل أو وله الرجل أي تحير، فهو فعال بكسر الفاء بمعنى المفعول ككتاب بمعنى المكتوب سمي إلهاً لأنه معبود أو لأنه مما تحيرت في ذاته العقول، والظاهر انه علم بالغلبة، وقد كان مستعملاً دائراً في الألسن قبل نزول القرآن يعرفه العرب الجاهلي كما يشعر به قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ (الزخرف / ٨٧)، وقوله تعالى: ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ (الأنعام / ١٣٦).

ومما يدل على كونه علماً انه يوصف بجميع الأسماء الحُسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من غير عكس، فيُقال: أللّه الرحمن الرحيم ويقال: رحم الله وعَلم الله، ورزق الله، ولا يقع لفظ الجلالة صفة لشيء منها ولا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها.

ولما كان وجوده سبحانه، وهو إله كل شيء يهدي الى إتصافه بجميع الصفات الكمالية كانت الجميع مدلولاً عليها به بالالتزام، وصحّ ما قيل ان لفظ الجلالة اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال وإلا فهو علم بالغلبة لم تعمل فيه عناية غير ما يدل عليه مادة إله.

واما الوصفان: الرحمن الرحيم، فهما من الرحمة، وهي وصف انفعالي وتأثر خاص يسلم بالقلب عند مشاهدة من يفقد أو يحتاج الى ما يتم به أمره فيبعث الانسان الى تتميم نقصه ورفع حاجته، إلا ان هذا المعنى يرجع بحسب التحليل الى الإعطاء والإفاضة لرفع الحاجة وبهذا المعنى يُتصف سبحانه بالرحمة.

والرحمن، فعلان صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والرحيم فعيل صفة مشبّهة تدل على الثبات والبقاء ولذلك ناسب الرحمن ان يدل على الرحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر وهو الرحمة العامة، وعلى هذا المعنى يستعمل كثيراً في القرآن، قال تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ (طه / ٥). وقال: ﴿**قُل مَن كانَ في الضَلالة فليَمدد له الرحمن مدّاً**﴾ (مريم / ٧٥). الى غير ذلك، ولذلك أيضاً ناسب الرحيم أن يدّل على النعمَةِ الدائمة والرَّحمة الثَّابتَة الباقية التي تقاض على المؤمن كما قال تعالى: ﴿**وكانَ بالمؤمنين رحيماً**﴾ (الأحزاب / ٤٣). وقال تعالى: ﴿**إنه بهم رؤف رحيم**﴾ (التوبة / ١١٧). الى غير ذلك، ولذلك قيل: ان الرحمن عامّ للمؤمن والكافر والرحيم خاص بالمؤمن.

وقوله تعالى: ﴿**أَلْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾، الحمد على ما قيل: هو الثناء على الجميل الاختياري والمدح أعم منه، يقال: حمدتُ فلاناً أو مدحته لكرمه، ويقال: مدحت اللؤلؤ على صفائه ولا

يقال: حمدته على صفائه، واللام فيه للجنس أو الاستغراق والمآل هيهنا واحد.

وذلك ان الله سبحانه يقول: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء﴾ (غافر / ٦٢). فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه، وقال: ﴿ألذي أحسن كل شيء خلقه﴾ (السجدة / ٧). فأثبت الحسن لكل شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب اليه، فالحسن يدور مدار الخلق وبالعكس، فلا خلق إلا وهو حسن جميل باحسانه ولا حسن إلا وهو مخلوق له منسوب اليه، وقد قال تعالى: ﴿هو الله الواحد القهار﴾ (الزمر / ٤). وقال: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ (طه / ١١١). فانباء انه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر ولا يفعل ما فعل باجبار من مجبر بل خلقه عن علم واختيار فما من شيء إلا وهو فعل جميل اختياري له فهذا من جهة الفعل، وأما من جهة الاسم فقد قال تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ (طه / ٨). وقال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ (الأعراف / ١٨٠). فهو تعالى جميل في اسمائه وجميل في أفعاله، وكل جميل منه.

فقد بان أنه تعالى محمود على جميل اسمائه ومحمود على جميل أفعاله، وأنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقة لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فلله سبحانه جنس الحمد وله سبحانه كل حمد.

ثم ان الظاهر من السياق وبقرينة الالتفات الذي في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الآية؛ إن السورة من كلام العبد، وانه سبحانه في هذه السورة يلقّن عبده حمد نفسه وما ينبغي ان يتأدب به العبد عند نصب نفسه في مقام العبودية، وهو الذي يؤيده قوله: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وذلك إن الحمد توصيف، وقد نزه سبحانه نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عبادَ الله المخلصين﴾ (الصافات / ١٦٠). والكلام مطلق غير مقيّد، ولم يرد في كلامه تعالى ما يؤذن بحكاية الحمد عن غيره إلا ما حكاه عن عدة من أنبيائه المخلصين، قال تعالى في خطابه لنوح عليه السلام: ﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم

الظالمين﴾ (المؤمنون / ٢٨). وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ (إبراهيم / ٣٩). وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في بضعة مواضع من كلامه: ﴿وقل الحمد لله﴾ (النمل / ٩٣). وقال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وقالا الحمد لله﴾ (النمل / ١٥). وإلا ما حكاه عن أهل الجنة وهم المطهَّرون من غل الصدور ولغو القول والتأثيم كقوله: ﴿وآخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ (يونس / ١٠).

وأما غير هذه الموارد فهو تعالى وان حكى الحمد عن كثير من خلقه بل عن جميعهم، كقوله تعالى: ﴿والملائكة يسبّحون بحمد ربهم﴾ (الشورى / ٥). وقوله: ﴿ويسبّح الرعد بحمده﴾ (الرعد / ١٣). وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾ (الإسراء / ٤٤). إلا أنه سبحانه شفَّع الحمد في جميعها بالتسبيح بل جعل التسبيح هو الأصل في الحكاية وجعل الحمد معه، وذلك أن غيره تعالى لا يحيط بجمال أفعاله وكمالها كما لا يحيطون بجمال صفاته وأسمائه التي منها جمال الأفعال. قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (طه / ١١٠). فما وصفوه به فقد أحاطوا به وصار محدوداً بحدودهم مقدّراً بقدر نيلهم منه، فلا يستقيم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ينزهوه ويسبّحوه عن ما حدوه وقدروه بأفهامهم، قال تعالى: ﴿ان الله يعلم وانتم لا تعلمون﴾ (النحل / ٧٤)، وأما المخلصون من عباده تعالى فقد جعل حمدهم حمده ووصفهم وصفه حيث جعلهم مخلصين له، فقد بان ان الذي يقتضيه أدب العبودية ان يحمد العبد ربه بما حمد به نفسه ولا يتعدى عنه، كما في الحديث الذي رواه الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» الحديث؛ فقوله في أول هذه السورة: الحمد لله، تاديب بادب عبودي ما كان للعبد ان يقوله لولا ان الله تعالى قاله نيابة وتعليماً لما ينبغي الثناء به.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ العالَمينَ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.﴾ (وقرأ الاكثر ملك يوم الدين) فالرب هو المالك الذي يدبّر امر مملوكه، ففيه معنى الملك، ومعنى الملك

(الذي عندنا في ظرف الاجتماع) هو نوع خاص من الاختصاص وهو نوع قيام شيء بشيء يوجب صحة التصرفات فيه. فقولنا العين الفلانية ملكنا معناه: ان لها نوعاً من القيام والاختصاص بنا يصح معه تصرفاتنا فيها ولولا ذلك لم تصح تلك التصرفات وهذا في الاجتماع معنى وضعيّ اعتباري غير حقيقي وهو مأخوذ من معنى آخر حقيقي نسميه ايضاً ملكاً، وهو نحو قيام اجزاء وجودنا وقوانا بنا فان لنا بصراً وسمعاً ويداً ورجلاً، ومعنى هذا الملك انها في وجودها قائمة بوجودنا غير مستقلة دوننا بل مستقلة باستقلالنا ولنا ان نتصرف فيها كيف شئنا وهذا هو الملك الحقيقي.

والذي يمكن انتسابه اليه تعالى بحسب الحقيقة هو حقيقة الملك دون الملك الاعتباري الذي يبطل ببطلان الاعتبار والوضع، ومن المعلوم ان الملك الحقيقي لا ينفك عن التدبير فان الشيء اذا افتقر في وجوده الى شيء فلم يستقل عنه في وجوده لم يستقل عنه في آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه لان الربَّ هو المالك المدبّر وهو تعالى كذلك.

واما ﴿العالَمينَ﴾: فهو جمع العالم بفتح اللام بمعنى ما يعلم به كالقالب والخاتم والطابع بمعنى ما يقلب به وما يختم به وما يطبع به، يطلق على جميع الموجودات وعلى كل نوع مؤلف الافراد والاجزاء منها كعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان وعلى كل صنف مجتمع الافراد ايضاً كعالم العرب وعالم العجم وهذا المعنى هو الانسب لما يؤل اليه عدّ هذه الاسماء الحسنى حتى ينتهي الى قوله مالك يوم الدين على ان يكون الدين وهو الجزاء يوم القيمة مختصاً بالانسان أو الانس والجن فيكون المراد بالعالمين عوالم الانس والجن وجماعاتهم ويؤيده ورود هذا اللفظ بهذه العناية في القرآن كقوله تعالى: ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران / ٤٢). وقوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان / ١)، وقوله تعالى: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ (الأعراف / ٨٠).

واما ﴿مالِكِ يَوْمِ الدّينِ﴾: فقد عرفت معنى المالك وهو المأخوذ من الملك بكسر

الميم، واما الملك وهو مأخوذ من الملك بضم الميم، فهو الذي يملك النظام القومي وتدبيرهم دون العين، وبعبارة اخرى يملك الامر والحكم فيهم.

وقد ذكر لكل من القرائتين، ملك ومالك؛ وجوه من التأييد غير ان المعنيين من السلطنة ثابتان في حقه تعالى، والذي تعرفه اللغة والعرف ان الملك بضم الميم هو المنسوب الى الزمان يقال: مَلكُ العصر الفلاني، ولا يقال مالك العصر الفلاني الّا بعناية بعيدة، وقد قال تعالى: ملك يوم الدين فنسبه الى اليوم، وقال ايضاً: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (غافر / ١٦).

بحث روائي:

في العيون والمعاني عن الرضا عليه السلام في معنى قوله: بسم الله، قال عليه السلام: يعني أسمُ نفسي بسمة من سمات الله وهي العبادة، قيل له: ما السمة؟ قال: العلامة.

اقول: وهذا المعنى كالمتولد من المعنى الذي اشرنا اليه في كون الباء للابتداء فان العبد اذا وسم عبادته باسم الله لزم ذلك ان يسم نفسه التي ينسب العبادة اليها بسمة من سماته.

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام، وفي العيون وتفسير العياشي عن الرضا عليه السلام انها اقرب الى اسم الله الاعظم من ناظر العين الى بياضها.

اقول: وسيجيء معنى الرواية في الكلام على اسم الاعظم.

وفي العيون عن امير المؤمنين عليه السلام: انها من الفاتحة وان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرئها ويعدّها آية منها، ويقول فاتحة الكتاب هي السبع المثاني.

اقول: وروي من طرق اهل السنة والجماعة نظير هذا المعنى فعن الدارقطني عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اذا قرأتم الحمد فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، فانها امّ القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها.

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام قال: ما لهم؟ قاتلهم الله عمدوا الى اعظم آية في كتاب الله فزعموا انها بدعة اذا اظهروها.

وعن الباقر عليه السلام: سرقوا اكرم آية في كتاب الله؛ بسم الله الرحمن الرحيم، وينبغي الاتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.

اقول: والروايات عن أئمة أهل البيت في هذا المعنى كثيرة، وهي جميعاً تدل على ان البسملة جزء من كل سورة إلا سورة البراءة. وفي روايات اهل السنة والجماعة ما يدل على ذلك.

ففي صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وآله: انزل عليّ آنفاً سورة فقرء: بسم الله الرحمن الرحيم.

عن أبي داود عن ابن عباس (وقد صححوا سندها) قال: ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يعرف فصل السورة. (وفي رواية انقضاء السورة) حتى ينزل عليه، بسم الله الرحمن الرحيم.

اقول: وروي هذا المعنى من طرق الخاصة عن الباقر عليه السلام.

وفي الكافي والتوحيد والمعاني وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في حديث: والله إله كل شيء. الرحمن بجميع خلقه. الرحيم بالمؤمنين خاصة.

وروي عن الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة.

اقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن والكافر واختصاص الرحيم بالمؤمن. أما كون الرحمن اسماً خاصا بصفة عامة والرحيم اسماً عاماً بصفة خاصة فكانه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا ويعم الكافر والمؤمن والرحيم عام للدنيا والآخرة ويخص المؤمنين، وبعبارة اخرى: الرحمن يختص بالافاضة التكوينية التي يعم المؤمن والكافر، والرحيم يعم التكوين والتشريع الذي بابه باب الهداية والسعادة، ويختص بالمؤمنين لان الثبات والبقاء يختص بالنعم التي تفاض عليهم والعاقبة للتقوى.

وفي كشف الغمة عن الصادق عليه السلام قال: فُقد لابي عليه السلام: بغلة فقال لئن ردها الله عليّ لاحمدنه بمحامد يرضيها فما لبث أن أتى بها يسرجها ولجامها فلما استوى وضم اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء وقال الحمد لله ولم يزد، ثم قال ما تركت ولا ابقيت شيئاً جعلت أنواع المحامد لله عز وجل، فما من حمد الا وهو داخل فيها.

قلت: وفي العيون عن علي عليه السلام انه سئل عن تفسيرها فقال: هو ان الله عرّف عباده بعض نعمه عليهم جملا اذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لانها اكثر من ان تحصى أو تعرف، فقال: قولوا الحمد لله على ما انعم به علينا.

اقول: يشير عليه السلام الى ما مر من أن الحمد، من العبد وانما ذكره الله بالنيابة تأديباً وتعليماً[1].

بحث فلسفي:

البراهين العقلية ناهضة على ان استقلال المعلول وكل شأن من شئونه انما هو بالعلة، وان كل ماله من كمال فهو من اظلال وجود علته، فلو كان للحسن والجمال حقيقة في الوجود فكماله واستقلاله للواجب تعالى لانه العلة التي ينتهي اليه جميع العلل، والثناء والحمد هو اظهار موجود ما بوجوده كمال موجود آخر وهو لا محالة علته، واذا كان كل كمال ينتهي اليه تعالى فحقيقة كل ثناء وحمد تعود وتنتهي اليه تعالى، فالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الآية: العبد هو المملوك من الانسان أو من كل ذي شعور بتجريد المعنى كما يعطيه قوله تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا اتي الرحمٰن عبداً﴾ (مريم / ٩٣). والعبادة مأخوذة منه وربما تفرقت اشتقاقاتها أو المعاني المستعملة هي فيها لاختلاف الموارد، وما ذكره الجوهري في الصحاح أن أصل العبودية

---

١. الحمد ١ ـ ٥: بحث فلسفي في العبودية والحمد.

الخضوع فهو من باب الأخذ بلازم المعنى وإلا فالخضوع متعد باللام والعبادة متعدية بنفسها.

وبالجملة فكأنَّ العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكية لربه ولذلك كانت العبادة منافية للاستكبار وغير منافية للاشتراك فمن الجائز ان يشترك ازيد من الواحد في ملك رقبة أو في عبادة عبد. قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (غافر / ٦٠). وقال تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف / ١١٠). فعد الاشراك ممكناً ولذلك نهى عنه، والنهي لا يمكن الاّ عن ممكن مقدور بخلاف الاستكبار عن العبادة فانه لا يجامعها.

والعبودية انما يستقيم بين العبيد ومواليهم فيما يملكه الموالي منهم، واما ما لا يتعلق به الملك من شئون وجود العبد ككونه ابن فلان أو ذا طول في قامته فلا يتعلق به عبادة ولا عبودية، لكن الله سبحانه في ملكه لعباده على خلاف هذا النعت فلا ملكه يشوبه ملك ممن سواه ولا ان العبد يتبعض في نسبته اليه تعالى فيكون شيء منه مملوكاً وشيء آخر غير مملوك، ولا تصرّف من التصرفات فيه جائز وتصرف آخر غير جائز كما ان العبيد فيما بيننا شيء منهم مملوك وهو افعالهم الاختيارية وشيء غير مملوك وهو الاوصاف الاضطرارية، وبعض التصرفات فيهم جائز كالاستفادة من فعلهم وبعضها غير جائز كقتلهم من غير جرم مثلاً. فهو تعالى مالك على الاطلاق من غير شرط ولا قيد وغيره مملوك على الاطلاق من غير شرط ولا قيد فهناك حصر من جهتين، الرب مقصور في المالكية، والعبد مقصور في العبودية، وهذه هي التي يدل عليه قوله: إياك نعبد. حيث قُدِّم المفعول واطلقت العبادة.

ثم ان الملك حيث كان متقوم الوجود بمالكه كما عرفت مما مر، فلا يكون حاجباً عن مالكه ولا يحجب عنه، فانك اذا نظرت الى دار زيد فان نظرت اليها من جهة انها دار امكنك ان تغفل عن زيد، وان نظرت اليها بما انها ملك زيد لم يمكنك الغفلة عن مالكها وهو زيد.

ولكنك عرفت ان ما سواه تعالى ليس له الّا المملوكية فقط وهذه حقيقته فشيء منه في الحقيقة لا يحجب عنه تعالى، ولا النظر اليه بجامع الغفلة عنه تعالى، فله تعالى الحضور المطلق. قال سبحانه: ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ (السجدة / ٥٤) واذا كان كذلك فحق عبادته تعالى ان يكون عن حضور من الجانبين.

اما من جانب الرب عز وجل، فان يُعبد عبادةَ معبودٍ حاضر وهو الموجب للالتفات (المأخوذ في قوله تعالى اياك نعبد) عن الغيبة الى الحضور.

اما من جانب الرب العبد، فان يكون عبادته عبادة عبد حاضر من غير ان يغيب في عبادته فيكون عبادته صوره فقط من غير معنى وجسداً من غير روح؛ أو يتبغض فيشتغل بربه وبغيره. اما ظاهراً وباطناً كالوثنيين في عبادتهم لله ولاصنامهم معاً، أو باطناً فقط كمن يشتغل في عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات والاغراض؛ كأن يعبد الله وهمّه في غيره، أو يعبد الله طمعاً في جنة أو خوفاً من نار فان ذلك كله من الشرك في العبادة الذي ورد عنه النهي، قال تعالى: ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ (الزمر / ٢)، وقال تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾ (الزمر / ٣).

فالعبادة إنما تكون عبادة حقيقة، اذا كان على خلوص من العبد وهو الحضور الذي ذكرناه. وقد ظهر انه انما يتم اذا لم يشتغل بغيره تعالى في عمله فيكون قد اعطاه الشركة مع الله سبحانه في عبادته ولم يتعلق قلبه في عبادته رجاناً أو خوفاً هو الغاية في عبادته كجنة أو نار فيكون عبادته له لا لوجه الله، ولم يشتغل بنفسه فيكون منافياً لمقام العبودية التي لا تلائم الانيّة والاستكبار، وكأن الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للايماء الى هذه النكتة فان فيه هضماً للنفس بالغاء تعينها وشخوصها وحدها المستلزم لنحو من الإنية والاستقلال بخلاف ادخالها

في الجماعة وخلطها بسواد الناس فان فيه احماء التعين واعفاء الاثر فيؤمن به ذلك.

وقد ظهر من ذلك كله: ان اظهار العبودية بقوله: إياك نعبد؛ لا يشتمل على نقص من حيث المعنى ومن حيث الاخلاص الا ما في قوله: إياك نعبد من نسبة العبد العبادة الى نفسه المشتمل بالاستلزام على دعوى الاستقلال في الوجود والقدرة والارادة مع انه مملوك والمملوك لا يملك شيئاً، فكأنه تدورك ذلك بقوله تعالى: وإياك نستعين، أي انما ننسب العبادة الى انفسنا وندّعيه لنا مع الاستعانة بك لا مستقلين بذلك مدعين ذلك دونك، فقوله: إياك نعبد وإياك نستعين؛ لإبداء معنىً واحد وهو العبادة عن اخلاص. ويمكن ان يكون هذا هو الوجه في اتحاد الاستعانة والعبادة في السياق الخطابي حيث قيل اياك نعبد واياك نستعين من دون ان يقال: اياك نعبد اعنّا واهدنا الصراط المستقيم واما تغيير السياق في قوله: اهدنا الصراط.. الآية. فسيجيء الكلام فيه انشاء الله تعالى.

فقد بان بما مر من البيان في قوله: إياك نعبد وإياك نستعين... الآية؛ الوجه في الالتفات من الغيبة الى الحضور، والوجه في الحصر الذي يفيده تقديم المفعول، والوجه في اطلاق قوله: نعبد، والوجه في اختيار لفظ المتكلم مع الغير، والوجه في تعقيب الجملة الاولى بالثانية، والوجه في تشريك الجملتين في السياق، وقد ذكر المفسرون نكات اخرى في اطراف ذلك من ارادها فليراجع كتبهم وهو الله سبحانه غريم لا يقضى دينه.

٦ ● إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

٧ ● صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الخ: اما الهداية فيظهر معناها في ذيل الكلام على الصراط واما الصراط فهو والطريق والسبيل قريب المعنى، وقد وصف تعالى الصراط بالاستقامة ثم بيَّن انه الصراط الذي يسلكه الذين انعم الله تعالى عليهم، فالصراط الذي من شأنه ذلك هو الذي سئُل الهداية اليه وهو بمعنى الغاية للعبادة اي: ان العبد يسئل ربه ان تقع عبادته الخالصة في هذا الصراط.

بيان ذلك: ان الله سبحانه قرر في كلامه لنوع الانسان بل لجميع من سواه سبيلاً يسلكون به اليه سبحانه فقال تعالى: ﴿يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الإنشقاق / ٦) وقال تعالى: ﴿واليه المصير﴾ (التغابن / ٣)، وقال ﴿الا الى الله تصير الامور﴾ (الشورى / ٥٣)، الى غير ذلك من الآيات وهي واضحة الدلالة على ان الجميع سالكوا سبيل، وانهم سائرون الى الله سبحانه.

ثم بيَّن: أن السبيل ليس سبيلاً واحداً ذا نعت واحد بل هو منشعب الى شعبتين منقسم الى طريقين، فقال: ﴿الم اعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدوٌ مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ (يس / ٦١).

فهناك طريق مستقيم وطريق آخر ورائه، وقال تعالى: ﴿فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (البقرة / ١٨٦)، وقال تعالى: ﴿ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (غافر / ٦٠)، فبيَّن تعالى: انه قريب من عباده وان الطريق الاقرب اليه تعالى طريق عبادته ودعائه، ثم قال تعالى في وصف الذين لا يؤمنون: ﴿اولئك ينادون من مكان بعيد﴾ (السجدة / ٤٤). فبيَّن: ان غاية الذين لا يؤمنون في مسيرهم وسبيلهم بعيدة.

فتبيَّن: ان السبيل الى الله سبيلان: سبيل قريب وهو سبيل المؤمنين وسبيل بعيد وهو سبيل غيرهم فهذا نحو اختلاف في السبيل وهناك نحو آخر من الاختلاف، قال تعالى: ﴿ان الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم ابواب السماء﴾ (الأعراف / ٤٠). ولولا طروق من متطرق لم يكن للباب معنى فهناك طريق من السفل الى العلو، وقال تعالى: ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ (طه / ٨١). والهوي هو السقوط الى أسفل، فهناك طريق آخر آخذ في السفالة والانحدار. وقال تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل﴾ (البقرة / ١٠٨). فعرَّف الضلال عن سواء السبيل بالشرك لمكان قوله: فقد ضل، وعند ذلك تقسم الناس في طرقهم ثلثة اقسام: من طريقه الى فوق وهم الذين يؤمنون بآيات الله ولا يستكبرون عن عبادته، ومن طريقه الى السفل وهم المغضوب عليهم، ومن ضل الطريق وهو حيران فيه وهم الضالون، وربما اشعر بهذا التقسيم قوله تعالى: صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والصراط المستقيم لا محالة ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلث اعني: طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين فهو من الطريق الأول الذي هو طريق المؤمنين غير المستكبرين إلا ان قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١). يدل على ان نفس الطريق الأول ايضاً يقع فيه انقسام.

وبيانه: ان كل ضلال فهو شرك كالعكس على ما عرفت من قوله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل﴾ (البقرة / ١٠٨). وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيراً﴾ (يس / ٦٢). والقرآن بعد الشرك ظلماً وبالعكس، كما يدل عليه قوله تعالى: حكاية عن الشيطان لما قضي الأمر: ﴿اني كفرت بما اشركتمون من قبلُ إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾ (إبراهيم / ٢٢). كما يعد الظلم ضلالا في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم

اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام / ٨٢). وهو ظاهر من ترتيب الاهتداء والامن من الضلال أو العذاب الذي يستتبعه الضلال، على ارتفاع الظلم ولبس الايمان به، وبالجملة الضلال والشرك والظلم امرها واحد وهي متلازمة مصداقاً. وهذا هو المراد من قولنا: ان كل واحد منها مُعرّف بالآخر أو هو الآخر فالمراد المصداق دون المفهوم.

اذا عرفت هذا علمت ان الصراط المستقيم الذي هو صراط غير الضالين صراط لا يقع فيه شرك ولا ظلم البتة كما لا يقع فيه ضلال البتة، لا في باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به الله سبحانه، ولا في ظاهر الجوارح والاركان من فعل معصية أو قصور في طاعة، وهذا هو حق التوحيد علماً وعملاً اذ لا ثالث لهما وماذا بعد الحق الا الضلال؟ وينطبق على ذلك قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام / ٨٢). وفيه تثبيت للامن في الطريق ووعد بالاهتداء التام بنائاً على ما ذكروه: من كون اسم الفاعل حقيقة في الاستقبال فليفهم فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انّه تعالى عرف هؤلاء المنعم عليهم الذين نسب الصراط المستقيم اليهم بقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا﴾ (النساء / ٦٨). وقد وصف هذا الايمان والاطاعة قبل هذه الآية بقوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا﴾ (النساء / ٦٦). فوصفهم بالثبات التام قولا وفعلاً وظاهراً وباطناً على العبودية لا يشذ منهم شاذ من هذه الجهة ومع ذلك جعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لاولئك المنعم عليهم وفي صف دون صفهم لمكان مع ولمكان قوله: ﴿وحسن اولئك رفيقا﴾ ولم يقل: فاولئك من الذين.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء

عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ (الحديد / ١٩). وهذا هو الحاق المؤمنين بالشهداء والصديقين في الآخرة، لكان قوله: عند ربهم، وقوله: لهم اجرهم.

فاولئك (وهم اصحاب الصراط المستقيم) أعلى قدراً وأرفع درجة ومنزلة من هؤلاء وهم المؤمنون الذين اخلصوا قلوبهم واعمالهم من الضلال والشرك والظلم، فالتدبر في هذه الآيات يوجب القطع بان هؤلاء المؤمنين و (شأنهم هذا الشأن) فيهم بقية بعد، لو تمت فيهم كانوا من الذين انعم الله عليهم، وارتقوا من منزلة المصاحبة معهم الى درجة الدخول فيهم ولعلهم نوع من العلم بالله، ذكره في قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١). فالصراط المستقيم أصحابه منعم عليهم بنعمة هي ارفع النعم قدراً، يربو على نعمة الايمان التام، وهذا ايضاً نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى على انه كرر في كلامه ذكر الصراط والسبيل لم ينسب لنفسه ازيد من صراط مستقيم واحد، وعد لنفسه سبلا كثيرة فقال عز من قائل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت / ٦٩). وكذا لم ينسب الصراط المستقيم الى احد من خلقه إلا ما في هذه الآية (صراط الذين انعمت عليهم) الآية؛ ولكنه نسب السبيل الى غيره من خلقه، فقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة﴾ (يوسف / ١٠٨). وقال تعالى: ﴿سبيل من أناب اليّ﴾ (لقمان / ١٥). و قال: ﴿سبيل المؤمنين﴾ (النساء / ١١٤)، ويعلم منها ان السبيل غير الصراط المستقيم فانه يختلف ويتعدد ويتكثر باختلاف المتعبدين السالكين سبيل العبادة بخلاف الصراط المستقيم كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿قد جائكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾ (المائدة / ١٦)، فعدّ السبل كثيرة والصراط واحداً وهذا الصراط المستقيم اما هي السبل الكثيرة واما انها تؤدي اليه باتصال بعضها الى بعض واتحادها فيها.

وأيضاً قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦). فبين ان من الشرك (وهو ضلال) ما يجتمع مع الايمان وهو سبيل، ومنه يعلم ان السبيل يجامع الشرك، لكن الصراط المستقيم لا يجامع الضلال كما قال: ولا الضالين.

والتدبر في هذه الآيات يعطي ان كل واحد من هذه السبل يجامع شيئاً من النقص أو الامتياز، بخلاف الصراط المستقيم، وان كلا منها هو الصراط المستقيم لكنه غير الآخر ويفارقه لكن الصراط المستقيم يتحد مع كل منها في عين انه يتحد مع ما يخالفه، كما يستفاد من بعض الآيات المذكورة وغيرها كقوله: ﴿وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ (يس / ٦١). وقوله تعالى: ﴿قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً﴾ (الأنعام / ١٦١). فسمى العبادة صراطاً مستقيماً وسمي الدين صراطاً مستقيماً وهما مشتركان بين السبل جميعاً، فمثل الصراط المستقيم بالنسبة الى سبل الله تعالى كمثل الروح بالنسبة الى البدن، فكما ان للبدن اطواراً في حيوته هو عند كل طور غيره عند طور آخر، كالصبي والطفولية والرهوق والشباب والكهولة والشيب والهرم لكن الروح هي الروح وهي متحدة بها والبدن يمكن ان تطرء عليه اطوار تنافي ما تحبه وتقتضيه الروح لو خليت ونفسها بخلاف الروح فطرة الله التي فطر الناس عليها والبدن مع ذلك هو الروح أعني الانسان، فكذلك السبيل الى الله تعالى هو الصراط المستقيم إلا ان السبيل كسبيل المؤمنين وسبيل المنيبين وسبيل المتبعين للنبي ﷺ أو غير ذلك من سبل الله تعالى، ربما اتصلت به آفة من خارج أو نقص لكنها لا يعرضان الصراط المستقيم كما عرفت ان الايمان وهو سبيل ربما يجامع الشرك والضلال لكن لا يجتمع مع شيء من ذلك الصراط المستقيم، فللسبيل مراتب كثيرة من جهة خلوصه وشوبه وقربه وبعده، والجميع على الصراط المستقيم أو هي هو.

وقد بين الله سبحانه هذا المعنى، اعني: اختلاف السبل الى الله مع كون الجميع من صراطه المستقيم في مثل ضربه للحق والباطل في كلامه، فقال تعالى: ﴿انزل من السماء ماء

فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (الرعد / ١٧). فبين: ان القلوب والافهام في تلقي المعارف والكمال مختلفة، مع كون الجميع متكئة منتهية الى رزق سماوي واحد، وسيجيء تمام الكلام في هذا المثل في سورة الرعد، وبالجملة فهذا ايضاً نعت من نعوت الصراط المستقيم.

واذا تأملت ما تقدم من نعوت الصراط المستقيم تحصل لك ان الصراط المستقيم مهيمنٌ على جميع السبل الى الله والطرق الهادية اليه تعالى، بمعنى ان السبيل الى الله إنما يكون سبيلاً له موصلاً إليه بمقدار يتضمنه من الصراط المستقيم حقيقة، مع كون الصراط المستقيم هادياً موصلا إليه مطلقاً ومن غير شرط وقيد، ولذلك سماه الله تعالى صراطاً مستقياً، فان الصراط هو الواضح من الطريق، مأخوذ من سرطت سرطاً اذا بلعت بلعاً، كأنه يبلع سالكيه فلا يدعهم يخرجوا عنه ولا يدفعهم عن بطنه، والمستقيم هو الذي يريد ان يقوم على ساق فيتسلط على نفسه وما لنفسه كالقائم الذي هو مسلط على أمره، ويرجع المعنى الى انه الذي لا يتغير أمره ولا يختلف شأنه فالصراط المستقيم ما لا يتخلف حكمه في هدايته وايصاله سالكيه الى غايته ومقصدهم قال تعالى: ﴿فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقياً﴾ (النساء / ١٧٤). اي لا يتخلف امر هذه الهداية، بل هي على حالها دائماً، وقال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كانما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وهذا صراط ربك مستقياً﴾ (الأنعام / ١٢٦). أي هذه طريقته التي لا يختلف ولا يتخلف، وقال تعالى: ﴿قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر / ٤٢). أي هذه سنَّتي وطريقتي دائماً من غير

مقابلاتها من الكفر والشرك والجحود والطغيان والمعصية كذلك، قال سبحانه: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون﴾ (الأحقاف / ١٩).

وهذا نظير المعارف الالهية التي تتلقاها العقول من الله فانها مختلفة باختلاف الإستعدادات ومتلونة بالوان القابليات على ما يفيده المثل المضروب في قوله تعالى: ﴿انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها﴾ الآية.

وثانيها: انه كما أن الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل، فكذلك اصحابه الذين مكنهم الله تعالى فيه وتولى امرهم وولاهم امر هداية عباده حيث قال: ﴿وحسن اولئك رفيقاً﴾ (النساء / ٧١). وقال تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون﴾ (المائدة / ٥٥) والآية نازلة في أمير المؤمنين علي عليه السلام بالأخبار المتواترة وهو عليه السلام اول فاتح لهذا الباب من الامة وسيجيء تمام الكلام في الآية.

وثالثها: إن الهداية الى الصراط يتعين معناها بحسب تعين معناه، وتوضيح ذلك ان الهداية هي الدلالة على ما في الصحاح، وفيه ان تعديتها لمفعولين لغة اهل الحجاز، وغيرهم يعدونه الى المفعول الثاني الى، وقوله هو الظاهر، وما قيل: ان الهداية اذا تعدت الى المفعول الثاني بنفسها، فهي بمعنى الايصال الى المطلوب، واذا تعدت بالى فبمعنى إرائة الطريق، مستدلاً بنحو قوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (القصص / ٥٦). حيث إن هدايته بمعنى ارائة الطريق ثابتة فالمنفى غيرها وهو الايصال الى المطلوب قال تعالى: ﴿وهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ (النساء / ٧٠). وقال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى / ٥٢).

فالهداية بالايصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثاني بنفسها، والهداية بارائة الطريق بالى، وفيه ان النفي المذكور لحقيقة الهداية التي هي قائمة بالله تعالى، لا نفي لها اصلا، وبعبارة اخرى هو نفي الكمال دون نفي الحقيقة مضافاً الى انه منقوض بقوله تعالى حكاية عن مؤمن آل

﴿وهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ (النساء / ٧٠). وقال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى / ٥٢).

فالهداية بالايصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثاني بنفسها، والهداية بارائة الطريق بالى، وفيه ان النفي المذكور لحقيقة الهداية التي هي قائمة بالله تعالى، لا نفي لها اصلا، وبعبارة اخرى هو نفي الكمال دون نفي الحقيقة مضافاً الى انه منقوض بقوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد﴾ (غافر / ٣٨). فالحق انه لا يتفاوت معنى الهداية باختلاف التعدية، ومن الممكن ان يكون التعدية الى المفعول الثاني من قبيل قولهم دخلت الدار.

وبالجملة فالهداية هي الدلالة وارائة الغاية بارائة الطريق وهي نحو ايصال الى المطلوب، وانما تكون من الله سبحانه، وسنته سنة الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب ويتحقق به وصول العبد الى غايته في سيره، وقد بيّنه الله سبحانه بقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام﴾ (الأنعام / ١٢٥). وقوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ (الزمر / ٢٣). وتعدية قوله تلين بإلى لتضمين معنى مثل الميل والاطمينان، فهو ايجاده تعالى وصفاً في القلب به يقبل ذكر الله ويميل ويطمئن اليه، وكما أن سبله تعالى مختلفة، فكذلك الهداية تختلف باختلاف السبل التي تضاف اليه فلكل سبيل هداية قبله تختص به.

والى هذا الاختلاف يشير قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت / ٦٩). اذ فرق بين ان يجاهد العبد في سبيل الله، وبين أن يجاهد في الله، فالمجاهد في الاول يريد سلامة السبيل ودفع العوائق عنه بخلاف المجاهد في الثاني فانه إنما يريد وجه الله فيمده الله سبحانه بالهداية الى سبيل دون سبيل بحسب استعداده الخاص به، وكذا يمده الله تعالى بالهداية الى السبيل بعد السبيل حتى يختصه بنفسه جلّت عظمته.

ورابعها: ان الصراط المستقيم لما كان امراً محفوظاً في سبل الله تعالى على اختلاف مراتبها ودرجاتها، صح ان يهدي الله الانسان اليه وهو مهدي فيهديه من الصراط الى الصراط، بمعنى أن يهديه الى سبيل من سبله ثم يزيد في هدايته فيهتدي من ذلك السبيل الى ما هو فوقها درجة، كما أن قوله تعالى: إهدنا الصراط (وهو تعالى يحكيه عمن هداه بالعبادة) من هذا القبيل، ولا يرد عليه: ان سؤال الهداية ممن هو مهتد بالفعل سؤال لتحصيل الحاصل وهو محال وكذا ركوب الصراط بعد فرض ركوبه تحصيل للحاصل ولا يتعلق به سؤال، والجواب ظاهر.

وكذا الايراد عليه: بأن شريعتنا أكمل وأوسع من جميع الجهات من شرائع الامم السابقة، فما معنى السؤال من الله سبحانه أن يهدينا الى صراط الذين أنعم الله عليهم منهم؟ وذلك ان كون شريعة أكمل من شريعة أمرٌ، وكون المتمسك بشريعة اكمل من المتمسك بشريعة امر آخر ورائه، فان المؤمن المتعارف من مؤمني شريعة محمد ﷺ (مع كون شريعته اكمل وأوسع) ليس بأكمل من نوح وابراهيم عليهما السلام مع كون شريعتهما اقدم وأسبق، وليس ذلك إلا ان حكم الشرائع والعمل بها غير حكم الولاية الحاصلة من التمكن فيها والتخلق بها، فصاحب مقام التوحيد الخالص وان كان من اهل الشرائع السابقة أكمل وأفضل ممن لم يتمكن من مقام التوحيد ولم تستقر حيوة المعرفة في روحه ولم يتمكن نور الهداية الالهية من قلبه، وإن كان عاملا بالشريعة المحمدية ﷺ التي هي اكمل الشرائع وأوسعها، فمن الجائز أن يستهدي صاحب المقام الدافي من أهل الشريعة الكاملة ويسأل الله الهداية الى مقام صاحب المقام العالي من أهل الشريعة التي هي دونها.

ومن أعجب ما ذكر في هذا المقام، ما ذكره بعض المحققين من اهل التفسير جواباً عن هذه الشبهة: ان دين الله واحد وهو الاسلام، والمعارف الاصلية وهو التوحيد والنبوّة والمعاد وما يتفرع عليها من المعارف الكلية واحد في الشرائع، وانما مزية هذه الشريعة على ما سبقها من

الشرائع هي ان الاحكام الفرعية فيها اوسع واشمل لجميع شئون الحيوة، فهي اكثر عناية بحفظ مصالح العباد، على أن أساس هذه الشريعة موضوع على الاستدلال بجميع طرقها من الحكمة والموعظة والجدال الاحسن، ثم ان الدين وان كان ديناً واحداً والمعارف الكلية في الجميع على السواء غير أنهم سلكوا سبيل ربهم قبل سلوكنا، وتقدموا في ذلك علينا، فامرنا الله النظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا اليه هذا.

أقول: وهذا الكلام مبنى على اصول في مسلك التفسير مخالفة للاصول التي يجب أن يبتنى مسلك التفسير عليها، فانه مبني على أن حقائق المعارف الاصلية واحدة من حيث الواقع من غير اختلاف في المراتب والدرجات، وكذا سائر الكمالات الباطنية المعنوية، فأفضل الأنبياء المقربين مع أخس المؤمنين من حيث الوجود وكماله الخارجي التكويني على حد سواء، وإنما التفاضل بحسب المقامات المجعولة بالجعل التشريعي من غير ان يتكي على تكوين. كما ان التفاضل بين الملك والرعية إنما هو بحسب المقام الجعلي الوضعي من غير تفاوت من حيث الوجود الإنساني هذا.

ولهذا الأصل أصل آخر يبنى عليه، وهو القول بأصالة المادة ونفي الاصالة عما ورائها والتوقف فيه إلا في الله سبحانه بطريق الاستثناء بالدليل، وقد وقع في هذه الورطة من وقع، لاحد امرين: إما القول بالاكتفاء بالحس اعتماداً على العلوم المادية وإما إلغاء التدبر في القرآن بالاكتفاء بالتفسير بالفهم العامي.

وللكلام ذيل طويل سنورده في بعض الابحاث العلمية الآتية إنشاء الله تعالى.

وخامسها: ان مزية اصحاب الصراط المستقيم على غيرهم، وكذا صراطهم على سبيل غيرهم، إنما هو بالعلم لا العمل، فلهم من العلم بمقام ربهم ما ليس لغيرهم، اذ قد تبين مما مر: ان العمل التام موجود في بعض السبل التي دون صراطهم، فلا يبقى لمزيتهم إلا العلم، واما ما هذا العلم؟ وكيف هو؟ فنبحث عنه انشاء الله في قوله تعالى: ﴿انزل من السماء ماء فسالت

أودية بقدرها﴾ (الرعد / ١٧).

ويشعر بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١)، وكذا قوله تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ (الملائكة / ١٠)، فالذي يصعد اليه تعالى هو الكلم الطيب وهو الاعتقاد والعلم، واما العمل الصالح فشأنه رفع الكلم الطيب والامداد دون الصعود اليه تعالى، وسيجيء تمام البيان في البحث عن الآية[1].

بحث روائي:

في الكافي عن الصادق عليه السلام في معنى العبادة قال: العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حباً، فتلك عبادة الأحرار، وهي افضل العبادة.

وفي نهج البلاغة: ان قوماً عبدو الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وفي العلل والمجالس والخصال، عن الصادق عليه السلام: ان الناس يعبدون الله على ثلاثة اوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكني اعبده حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام، لقوله عز وجل: ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾. ولقوله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، فمن احب الله عز وجل احبه، ومن احبه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسه الّا المطهرون.

---

١. الحمد ٦ـ٧: بحث روائي حول الصراط المستقيم.

اقول: وقد تبين معنى الروايات مما مر من البيان، وتوصيفهم عليهم السلام عبادة الأحرار تارة بالشكر وتارة بالحب، لكون مرجعها واحداً، فان الشكر وضع الشيء المنعم به في محله، والعبادة شكرها ان تكون لله الذي يستحقها لذاته، فيعبد الله لأنه الله، أي لأنه مستجمع لجميع صفات الجمال والجلال بذاته، فهو الجميل بذاته المحبوب لذاته، فليس الحب إلا الميل الى الجمال، والانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى هو معبود لانه هو، وهو معبود لأنه جميل محبوب، وهو معبود لانه منعم مشكور بالعبادة يرجع جميعها الى معنى واحد.

وروي بطريق عامي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: إياك نعبد.. الآية، يعني: لا نريد منك غيرك ولا نعبدك بالعوض والبدل: كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك.

اقول: والرواية تشير الى ما تقدم، من استلزام معنى العبادة للحضور وللاخلاص الذي ينافي قصد البدل.

وفي تحف العقول عن الصادق عليه السلام في حديث: ومن زعم انه يعبد بالصفة لا بالادراك فقد أحال على غائب، ومن زعم انه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف، ومن زعم انه يضيف الموصوف الى الصفة فقد صغر بالكبير، وما قدروا الله حق قدره. الحديث.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم يعني ارشدنا الى لزوم الطريق المؤدي محبتك، والمبلغ الى جنتك، والمانع من أن نتبع اهواءنا فنعطب، او ان نأخذ بارائنا فنهلك.

وفي المعاني ايضاً عن علي عليه السلام في الآية، يعني، ادم لنا توفيقك الذي اطعناك به في ماضي ايامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل اعمارنا.

اقول: والروايتان وجهان مختلفان في الجواب عن شبهة لزوم تحصيل الحاصل من سؤال الهداية للمهدي، فالرواية الاولى ناظرة الى الاختلاف مراتب الهداية مصداقاً والثانية الى

اتحادها مفهوماً.

وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام: الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير واستقام، وفي الآخره طريق المؤمنين الى الجنة.

وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام في معني صراط الذين الآية: اي: قولوا: اهدنا صراط الذين انعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، لا بالمال والصحة، فانهم قد يكونون كفاراً او فساقاً، قال: وهم الذين قال الله: ﴿ومن يطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن اولئك رفيقاً﴾.

وفي العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سئل، اذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جل جلاله بدء عبدي باسمي وحق علي ان اتم له اموره، وابارك له في احواله، فاذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم ان النعم التي له من عندي وان البلايا التي دفعت عنه بتطولي، أشهدكم أني اضيف له الى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخره كما دفعت عنه بلايا الدنيا، واذا قال الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي اني الرحمن الرحيم اشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه ولأجزلن من عطائي نصيبه، فاذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: أشهدكم، كما اعترف بأني أنا المالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، ولاتقبلن حسناته ولأتجاوزن عن سيئاته، فاذا قال: إياك نعبد، قال الله عز وجل: صدق عبدي، إياي يعبد اشهدكم لأثيبنه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فاذا قال: وإياك نستعين قال الله تعالى: بي استعان عبدي وإلي التجأ، اشهدكم لأعيننه على أمره، ولأغيثنه في شدائده ولآخذن بيده يوم نوائبه، فاذا قال: إهدنا الصراط المستقيم الى آخر السورة، قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سئل، وقد استجبت لعبدي واعطيته

ما امّل وآمنته مما منه وجل.

اقول: وروي قريباً منه الصدوق في العلل عن الرضا عليه السلام، والرواية كما ترى تُفسر سورة الفاتحة في الصلوه فهي تؤيد كما مر مراراً أن السورة كلام له سبحانه بالنيابة عن عبده في ما يذكره في مقام العبادة واظهار العبودية من الثناء لربه واظهار عبادته. فهي سورة موضوعة للعبادة، وليس في القرآن سورة تناظرها فيى شأنها واعنى بذلك:

اولا: ان السورة بتمامها كلام تكلم به الله سبحانه في مقام النيابة عن عبده فيما يقوله اذا وجه وجهه الى مقام الربوبية ونصب نفسه في مقام العبودية.

وثانياً: انها مقسمة قسمين، فنصف منها لله ونصف منها للعبد.

وثالثاً: أنها مشتملة على جميع المعارف القرآنية على ايجازها واختصارها فان القرآن على سعته العجيبة في معارفه الاصلية وما يتفرع عليها من الفروع من اخلاق واحكام في العبادات والمعاملات والسياسات والاجتماعيات ووعد ووعيد وقصص وعبر، يرجع جمل بياناتها الى التوحيد والنبوة والمعاد وفروعاتها، والى هداية العباد الى ما يصلح بـه اولاهـم وعـقباهم، وهذه السورة كما هو واضح تشتمل على جميعها في أوجز لفظ وأوضح معنى.

وعليك ان تقيس ما يتجلى لك من جمـال هذه السورة التي وضعها الله سبحانه في صلوة المسلمين بما يضعه النصاري في صلوتهم من الكلام الموجود في انجيل متى: (٦ـ٩ـ١٣) وهو ما نذكره بلفظه العربي، «أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيتك كما في السماء كذلك على الارض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجّنا من الشرير آمين».

تأمل في المعاني التي تفيد الفاظ هذه الجمل بعنوان انها معارف سماوية، وما يشتمل عليه من الادب العبودي، إنا تذكر أولاً: أن اباهم (وهو الله تقدس اسمه) في السموات !! ثم تدعو في حق الاب بتقدس اسمه واتيان ملكوته ونفوذ مشيّته في الارض كما هي نافذة في السماء، ولكن

من الذي يستجيب هذا الدعاء الذي بشعارات الاحزاب السياسيه اشبه ؟ ثم تسئل الله اعطاء خبز اليوم ومقابلة المغفرة بالمغفرة، وجعل الاغماض عن الحق في مقابل الاغماض، وماذا هو حقهم لو لم يجعل الله لهم حقاً؟ وتسئله ان لا يمتحنهم بل ينجيهم من الشرير، ومن المحال ذلك، فالدار دار الامتحان والاستكمال وما معنى النجاة لولا الابتلاء والامتحان ؟ ثم اقض العجب مما ذكره بعض المستشرقين[1] من علماء الغرب وتبعه بعض المنتحلين: أن الاسلام لا يربو على غيره في المعارف، فان جميع شرائع الله تدعو الى التوحيد وتصفية النفوس بالخُلق الفاضل والعمل الصالح، وإنما تتفاضل الأديان في عراقة ثمراتها الاجتماعية !!

بحث آخر روائي:

في الفقيه وتفسير العيّاشي عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام قال: هي الطريق الى معرفة الله، وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فاما الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمُه في الآخرة فتردى في نار جهنم.

وفي المعاني ايضاً عن السجاد عليه السلام قال: «ليس بين الله وبين حُجّته حجابٌ، ولا لله دون حجته سترٌ، نحن ابواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سره.

وعن ابن شهر اشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثوري عن السّدي، عن اسباط ومجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم، قال: قولوا معاشر العباد!

---

١. القسيس الفاضل كوستا ولبون في تاريخ تمدن الاسلام.

ارشدنا الى حب محمّد ﷺ واهل بيته عليهم السلام.

اقول: وفي هذه المعاني روايات أُخَر، وهذه الاخبار من قبيل الجري، وعد المصداق للآية، واعلم ان الجري (وكثيراً ما نستعمله في هذا الكتاب) اصطلاحٌ مأخوذ من قول أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ففي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن وما فيها حرفٌ إلّا وله حدٌّ ولكن حدٍ مُطَّلَعٌ، ما يعني بقوله: ظهر وبطن؟ قال: ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بَعدُ، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع الحديث.

وفي هذا المعنى روايات أُخَر. وهذه سليقة أئمه أهل البيت فإنهم عليهم السلام يُطبقون الآية من القرآن على ما يقبل ان ينطبق على من الموارد وان كان خارجاً عن مورد النزول. والاعتبار يساعده، فان القرآن نُزِّلَ هدى للعالمين يهديهم الى واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بيَّنه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو شرعه من حكم عملي لا يتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع.

وما ورد من شأن النزول (وهو الأمر او الحادثة التي تعقب نزول آية او آيات في شخص او واقعة) لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضي الحكم بانقضائها ويموت بموتها لأن البيان عامٌّ والتعليل مطلقٌ، فان المدح النازل في حق افراد من المؤمنين أو الذم النازل في حق آخرين معللاً بوجود صفات فيهم، لا يمكن قصرهما على شخص مورد النزول مع وجود عين تلك الصفات في قوم آخر بعدهم وهكذا، والقرآن ايضاً يدل عليه، قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه﴾ (المائدة / ١٦). وقال: ﴿وانه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ (السجده / ٤٢). وقال تعالى: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

(الحجر / ٩).

والروايات في تطبيق الآيات القرآنية عليهم عليهم السلام او على اعدائهم اعني: روايات الجري، كثيرة في الأبواب المختلفة، وربما تبلغ المئين، ونحن بعد هذا التنبيه العام نترك ايراد أكثرها في الأبحاث الروائية لخروجها عن الغرض في الكتاب، إلّا ما تعلق بها غرض في البحث فليتذكر.

سورة البقرة وهي مأتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

١ ● الٓمٓ.

٢ ● ذٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقينَ.

٣ ● الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقيمُونَ الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ.

٤ ● وَالَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

٥ ● أُولٰئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

بيان:

لما كانت السورة نازلة نجوماً لم يجمعها غرض واحد إلا ان معظمها تنبيء عن غاية واحدة محصلة وهو بيان ان من حق عبادة الله سبحانه أن يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله من

غير تفرقة بين وحي ووحي، ولا بين رسول ورسول ولا غير ذلك، ثم تقريع الكافرين والمنافين وملامة اهل الكتاب بما ابتدعوه من التفرقة في دين الله والتفريق بين رسله، ثم التخلص الى بيان عدة من الاحكام كتحويل القبلة واحكام الحج والارث والصوم وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، سيأتي بعض ما يتعلق من الكلام بالحروف المقطعة التي في اوائل السور، في اول سورة الشورى انشاء الله، وكذلك الكلام في معنى هداية القرآن ومعنى كونه كتاباً.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ الخ؛ المتقون هم المؤمنون، وليست التقوى من الاوصاف الخاصة لطبقة من طبقاتهم اعني: لمرتبة من مراتب الايمان حتى تكون مقاماً من مقاماته نظير الاحسان والاخبات والخلوص، بل هي صفه مجامعة لجميع مراتب الايمان اذا تلبس الايمان بلباس التحقق، والدليل على ذلك انه تعالى لا يخص بتوصيفه طائفة خاصة من طوائف المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم والذي اخذه تعالى من الاوصاف المعرّفة للتقوى في هذه الآيات التسع عشرة التي يبين فيها حال المؤمنين والكفار والمنافقين، خمس صفات، وهي الايمان بالغيب، واقامة الصلوة، والانفاق مما رزق الله سبحانه، والايمان بما انزله على انبيائه، والايقان بالآخرة، وقد وصفهم بانهم على هدى من ربهم فدل ذلك على ان تلبسهم بهذه الصفات الكريمة بسبب تلبسهم بلباس الهداية من الله سبحانه، فهم انما صاروا متقين اولي هذه الصفات بهداية منه تعالى، ثم وصف الكتاب بانه هدى لهؤلاء المتقين بقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ فعلمنا بذلك: ان الهداية غير الهداية، وان هؤلاء وهم متقون محفوفون بهدايتين، هداية اولى بها صاروا متقين، وهداية ثانية اكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوى وبذلك صحت المقابلة بين المتقين وبين الكفار والمنافقين، فانه سبحانه يجعلهم في وصفهم بين ضلالين وعمائين، ضلال

اول هو الموجب لاوصافهم الخبيثة من الكفر والنفاق، وضلال ثان يتأكد به ضلالهم الاول، ويتصفون به بعد تحقق الكفر والنفاق كما بقوله تعالى في حق الكفار: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة﴾ (البقرة / ٧)، فنسب الختم الى نفسه تعالى والغشاوة الى انفسهم، وكما يقوله في حق المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ (البقرة / ١٠) فنسب المرض الاول اليهم والمرض الثاني الى نفسه على حد ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم﴾ (الصف / ٥). وبالجملة المتقون واقعون بين هدايتين، كما ان الكفار والمنافقين واقعون بين ضلالين.

ثم ان الهداية الثانية لما كان بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فان الفطرة اذا سلمت لم تنفك من ان تتنبه شاهدة لفقرها وحاجتها الى امر خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس او وهم او عقل الى امر خارج يقف دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس منه يبدء الجميع واليه ينتهي ويعود، وانه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج اليه الخلقة كذلك لا يهمل هداية الناس الى ما ينجيهم من مهلكات الاعمال والاخلاق، وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهي اصول الدين، ويلزم ذلك استعمال المخضوع له سبحانه في ربوبيته، واستعمال ما في وسع الانسان من مال وجاه وعلم وفضيلة لاحياء هذا الامر ونشره، وهذان هما الصلاة والانفاق.

ومن هنا يعلم: ان الذي اخذه سبحانه من اوصافهم هو الذي يقضي به الفطرة اذا سلمت وانه سبحانه وعدهم انه سيفيض عليهم امراً سماه هداية، فهذه الاعمال الزاكية منهم متوسطة بين هدايتين كما عرفت، هداية سابقة وهداية لاحقة، وبين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد وصلاح العمل، ومن الدليل على ان هذه الهداية الثانية من الله سبحانه فرع الاولى، آيات

كثيرة كقوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة﴾ (إبراهيم / ٢٧). وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ (الحديد / ٢٨). وقوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم﴾ (محمد ﷺ / ٧). وقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الصف / ٧). وقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (الصف / ٥). الى غير ذلك من الآيات.

والامر في ضلال الكفار والمنافقين كما في المتقين على ما سيأتي انشاء الله.

وفي الآيات اشارة الى حيوة اخرى للانسان كامنة مستبطنة تحت هذه الحيوة الدنيوية، وهي الحيوة التي بها يعيش الانسان في هذه الدار وبعد الموت وحين البعث، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٣) وسيأتي الكلام فيه انشاء الله.

وقوله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، الايمان تمكن الاعتقاد في القلب ماخوذ من الامن كأن المؤمن يعطي لما امن به الامن من الريب والشك وهو آفة الاعتقاد، والايمان كما مر معنى ذو مراتب، اذ الاذعان ربما يتعلق بالشيء نفسه فيترتب على اثره فقط وربما يشتد بعض الاشتداد فيتعلق ببعض لوازمه، وربما يتعلق بجميع لوازمه فيستنتج منه ان للمؤمنين طبقات على حسب طبقات الايمان.

وقوله سبحانه: ﴿بِالْغَيْبِ﴾، الغيب خلاف الشهادة وينطبق على ما لا يقع عليه الحس، وهو الله سبحان وآياته الكبرى الغائبة عن حواسنا، ومنها الوحي، وهو الذي اشير اليه بقوله: ﴿والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك﴾ فالمراد بالايمان بالغيب في مقابل الايمان بالوحي والايقان بالاخرة، هو الايمان بالله تعالى ليتم بذلك الايمان بالاصول الثلاثة للدين، والقرآن يؤكد القول عدم القصر على الحس فقط ويحرص على اتباع سليم

العقل وخالص اللب.

وقوله سبحانه: ﴿وبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، العدول في خصوص الاذعان بالاخرة عن الايمان الى الايقان، كانه للاشارة الى أن التقوى لا تتم إلا مع اليقين بالاخرة الذي لا يجامع نسيانها، دون الايمان المجرد، فان الإنسان ربما يؤمن بشيء ويذهل عن بعض لوازمه فيأتي بما ينافيه. لكنه اذا كان على علم وذكر من يوم يحاسب فيه على الخطير واليسير من اعماله لا يقتحم معه الموبقات ولا يحوم حوم محارم الله سبحانه البتة قال تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦)، فبين تعالى: ان الضلال عن سبيل الله انما هو بنسيان يوم الحساب؛ فذكره واليقين به ينتج التقوى.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، الهداية كلها من الله سبحانه. لا ينسب الى غيره البتة الا على نحو من المجاز كما سيأتي انشاء الله، ولما وصفهم الله سبحانه بالهداية وقد قال في نعتها: ﴿فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره﴾ (الأنعام / ١٢٥)، وشرح الصدر سعته وهذا الشرح يدفع عنه كل ضيق وشح، وقد قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر / ٩)، عقب سبحانه ههنا أيضاً قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية[1][2].

٦ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

---

١. البقرة ١ ـ ٥: بحث فلسفي حول الادراكات الحسية والبراهين العقلية.

٢. البقرة ١ ـ ٥: بحث فلسفي في العلم.

٧ ● ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر وتمكن الجحود من قلوبهم، ويدل على وصف حالهم بمساواة الإنذار وعدمه فيهم، ولا يبعد أن يكون المراد من هؤلاء الذين كفروا هم الكفار من صناديد قريش وكبراء مكة الذين عاندوا ولجّوا في أمر الدين ولم يألوا جهداً في ذلك ولم يؤمنوا حتى أفناهم الله عن آخرهم في بدر وغيره، ويؤيده أن هذا التعبير وهو قوله: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾، لا يمكن استطراده في حق جميع الكفار وإلا انسد باب الهداية والقرآن ينادي على خلافه، وايضاً هذا التعبير إنما وقع في سورة يس (وهي مكية) وفي هذه السورة (وهي سورة البقرة أول سورة نزلت في المدينة) نزلت ولم تقع غزوة بدر بعد، فالأشبه أن يكون المراد من الذين كفروا، ههنا وفي سايرالموارد من كلامه تعالى: كفار مكة في اول البعثة إلا أن تقوم قرينة على خلافه، نظير ما سيأتي ان المراد من قوله تعالى: الذين آمنوا، فيما أطلق في القرآن من غير قرينة هم السابقون الأولون من المسلمين، خُصُّوا بهذا الخطاب تشريفاً.

وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ ﴾ الخ؛ يشعر تغيير السياق: (حيث نسب الختم الى نفسه تعالى والغشاوة اليهم انفسهم) بأن فيهم حجاباً دون الحق في أنفسهم وحجاباً من الله تعالى عقيب كفرهم وفسوقهم، فأعمالهم متوسطة بين حجابين: من ذاتهم ومن الله تعالى، وسيأتي بعض ما يتعلق بالمقام في قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ﴾.

واعلم ان الكفر كالايمان وصف قابل للشدة والضعف فله مراتب مختلفة الآثار

كالايمان[1].

٨ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ.

٩ ● يُخادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا انْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ.

١٠ ● في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُون.

١١ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ.

١٢ ● أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لا يَشْعُرُونَ.

١٣ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلٰكِنْ لا يَعْلَمُونَ.

١٤ ● وَإِذا لَقُوا الَّذين آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلىٰ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.

١٥ ● اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

١٦ ● أُولٰئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدىٰ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدينَ.

---

١. البقرة ٦ ـ ٧: بحث روائي حول وجوه الكفر.

١٧ ● مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا اضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ.

١٨ ● صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ.

١٩ ● أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللّهُ مُحيطٌ بِالْكَافِرِينَ.

٢٠ ● يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيهِ وإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَاموا وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ الى آخر الآيات، الخدعة نوع من المكر، والشيطان هو الشرير ولذلك سمي إبليس شيطاناً.

وفي الآيات بيان حال المنافقين، وسيجيء إنشاء الله تفصيل القول فيهم في سورة المنافقين وغيرها.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً﴾ الخ؛ مثل يمثل به حالهم، انهم كالذي وقع في ظلمة عمياء لا يتميز فيها خير من شر ولا نافع من ضار فتسبب لرفعها بسبب من أسباب الاستضائة كنار يوقدها فيبصر بها ما حولها فلما توقدت وأضائت ما حولها أخمدها الله بسبب من الاسباب كريح أو مطر أو نحوهما فبقي فيما كان عليه من الظلمة تورط بين ظلمتين: ظلمة كان فيها وظلمة الحيرة وبطلان السبب.

وهذه حال المنافق، يظهر الايمان فيستفيد بعض فوائد الدين باشتراكه مع المؤمنين في مواريثهم ومناكحهم وغيرهما حتى اذا حان حين الموت وهو الحين الذي فيه تمام الاستفادة من الايمان ذهب الله بنوره وأبطل ما عمله وتركه في ظلمة لا يدرك فيها شيئاً ويقع بين الظلمة الاصلية وما أوجده من الظلمة بفعاله.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الخ: الصيب هو المطر الغزير، والبرق معروف، والرعد هو الصوت الحادث من السحاب عند الإبراق، والصاعقة هي النازلة من البروق.

وهذا مثل ثان يمثل به حال المنافقين في إظهارهم الايمان، انهم كالذي أخذه صيب السماء ومعه ظلمة تسلب عنه الابصار والتمييز، فالصيب يضطره الى الفرار والتخلص، والظلمة تمنعه ذلك، والمهولات من الرعد والصاعقة محيطة به فلا يجد مناصاً من أن يستفيد بالبرق وضوئه وهو غير دائم ولا باق متصل كلما أضاء له مشى واذا أظلم عليه قام.

وهذه حال المنافق فهو لا يحب الايمان ولا يجد بداً من اظهاره، ولعدم المواطأة بين قلبه ولسانه لا يستضيء له طريقة تمام الاستضائة، فلا يزال يخبط خبطاً بعد خبط ويعثر عثرة بعد عثرة فيمشي قليلا ويقف قليلاً يفضحه الله بذلك ولو شاء لذهب بسمعه وبصره فيفتضح من اول يوم.

٢١ ● يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

٢٢ ● الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٢٣ ● وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وأَدْعُوا شُهَدَائَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

٢٤ ● فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ.

٢٥ ● وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيْها خَالِدُونَ.

بيان:

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾ الخ: لما بين سبحانه: حال الفرق الثلاث: المتقين والكافرين، والمنافقين، وان المتقين على هدى من ربهم والقرآن هدى لهم، وان الكافرين مختوم على قلوبهم؛ وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأن المنافقين مرضى وزادهم الله مرضاً وهم صم بكم عمى (وذلك في تمام تسع عشرة آية) فرّع تعالى على ذلك أن دعى الناس إلى عبادته وأن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين والمنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خالدون. وهذا السياق يعطي كون قوله: لعلكم تتقون متعلقاً بقوله: اعبدوا، دون قوله: خلقكم، وان كان المعنى صحيحاً على كلا التقديرين.

وقوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، الانداد جمع ند كمثل، وزناً ومعنى وعدم تقييد قوله تعالى: وانتم تعلمون بقيد خاص وجعله حالا من قوله تعالى:

فلا تجعلوا، يفيد التأكيد البالغ في النهي بأن الإنسان وله علم ما كيفما كان لا يجوز له أن يتخذ لله سبحانه أنداداً والحال انه سبحانه هو الذي خلقهم والذين من قبلهم ثم نظم النظام الكوني لرزقهم وبقائهم.

وقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ أمر تعجيزي لإبانة إعجاز القرآن، وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه، إعجازاً باقياً بمر الدهور وتوالي القرون وقد تكرر في كلامه تعالى هذا التعجيز كقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء / ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتريه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (هود / ١٣). وعلى هذا فالضمير في مثله عائد الى قوله تعالى: مما نزلنا، ويكون تعجيزاً بالقرآن نفسه وبداعة أسلوبه وبيانه.

ويمكن أن يكون الضمير راجعاً الى قوله: عبدنا، فيكون تعجيزاً بالقرآن من حيث ان الذي جاء به رجل امي لم يتعلم من معلم و لم يتلق شيئاً من هذه المعارف الغالية العالية والبيانات البديعة المتقنة من أحد من الناس فيكون الآية في مساق قوله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ (يونس / ١٦)، وقد ورد التفسيران معاً في بعض الأخبار.

واعلم: ان هذه الآية كنظائرها تعطي إعجاز أقصر سورة من القرآن كسورة الكوثر وسورة العصر مثلا، وما ربما يحتمل من رجوع ضمير مثله الى نفس السورة كسورة البقرة أو سورة يونس مثلا يأباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام اذ من يرمي القرآن بأنه افتراء على الله تعالى إنما يرميه جميعاً ولا يخصص قوله ذلك بسورة دون سورة، فلا معنى لرده بالتحدي بسورة البقرة أو بسورة يونس لرجوع المعنى حينئذ الى مثل قولنا: وان كنتم في ريب من سورة الكوثر او الاخلاص مثلا فأتوا بسورة مثل سورة يونس وهو بين الإستهجان

هذا[١].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ﴾. سوق الآيات من أول السورة وإن كانت لبيان حال المتّقين والكافرين والمنافقين (الطوائف الثلث) جميعاً لكنه سبحانه حيث جمعهم طرّاً في قوله: يا أيها الناس أعبدوا ربكم، ودعاهم الى عبادته تقسّموا لا محالة الى مؤمن وغيره فإن هذه الدعوة لا تحتمل من حيث إجابتها وعدمها غير القسمين: المؤمن والكافر وأما المنافق فإنما يتحقق بضم الظاهر الى الباطن، واللسان الى القلب فكان هناك من جمع بين اللسان والقلب إيماناً أو كفراً ومن اختلف لسانه وقلبه وهو المنافق، فلما ذكرنا (لعلّه) أسقط المنافقون من الذكر، وخصّ بالمؤمنين والكافرين ووضع الإيمان مكان التقوى.

ثم إن الوقود ما توقد به النار وقد نصت الآيه على أن نفس الإنسان، فالإنسان وقود وموقود عليه، كما في قوله تعالى ايضاً: ﴿ثم في النار يسجرون﴾ (المؤمن / ٧٢) وقوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾ (اللمزة / ٧)، فالإنسان معذّب بنار تقوده نفسه، وهذه الجملة نظيرة قوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾ (البقرة / ٢٥)، ظاهرة في أنه ليس للانسان هناك إلّا ما هيّأه من هيهنا، كما عن النبي ﷺ: «كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون» الحديث؛ وإن كان بين

---

١. البقرة ٢١ ـ ٢٥: بحث مفصل حول: الاعجاز وماهيته؛ اعجاز القرآن؛ وجوه اعجاز القرآن؛ تحديه بالعلم، التحدى بمن انزل عليه القرآن؛ تحدي القرآن بالاخبار عن الغيب؛ تحدى القرآن بعدم الاختلاف فيه؛ التحدي بالبلاغه؛ معنى الآية المعجزة في القرآن وما يفسر به حقيقتها؛ تصديق القرآن لقانون العلية العامة؛ اثبات القرآن ما يخرق للعادة؛ القرآن يسند ما أسند الى العلة المادية الى الله تعالى؛ القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الانبياء في الخوارق؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس، يسندها الى امر الله تعالى؛ القرآن يسند المعجزة الى سبب غير مغلوب؛ القرآن يعد المعجزة برهاناً على صحة الرسالة لا دليلاً عامياً.

الفريقين فرق من حيث أن لأهل الجنة مزيداً عند ربهم. قال تعالى: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥).

والمراد بالحجارة في قوله: وقودها الناس والحجارة، الأصنام التي كانوا يعبدونها، ويشهد به قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآية (الأنبياء / ٩٨)، والحصب هو الوقود.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، قرينة الأزواج تدل على أن المراد بالطهارة هي الطهارة من أنواع الأقذار والمكاره التي تمنع من تمام الإلتيام والالفة والانس من الاقدار والمكاره الخَلقية والخُلقية.

٢٦ ● إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرَادَ اللَّهُ بِهٰذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ.

٢٧ ● الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدونَ فِي الْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾ البعوضة الحيوان المعروف وهو من أصغر الحيوانات المحسوسة وهذه الآيه والتي بعدها نظيرة ما في سورة الرعد ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله

ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ (الرعد / ١٩، ٢٠، ٢١). وكيف كان فالآية تشهد على أن من الضلال والعمى ما يلحق الإنسان عقيب أعماله السيئة غير الضلال والعمى الذي له في نفسه ومن نفسه حيث يقول تعالى: وما يضلّ به إلّا الفاسقين، فقد جعل إضلاله في تلو الفسق لا متقدماً عليه هذا.

ثم إن الهداية والإضلال كلمتان جامعتان لجميع أنواع الكرامة والخذلان التي ترد منه تعالى على عباده السعداء والأشقياء، فإن الله تعالى وصف في كلامه حال السعداء من عباده بأنه يحييهم حيوة طيبة، ويؤيدهم بروح الإيمان، ويخرجهم من الظلمات الى النور ويجعل لهم نوراً يمشون به، وهو وليّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهو معهم يستجيب لهم اذا دعوه ويذكرهم اذا ذكروه، والملائكة تنزّل عليهم بالبشرى والسلام الى غير ذلك.

ووصف حال الأشقياء من عباده بأنه يضلهم ويخرجهم من النور الى الظلمات ويختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ويطمس وجوههم على أدبارهم ويجعل في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون، ويجعل من بين أيديهم سداً من خلفهم سداً فيغشيهم فهم لا يبصرون، ويقيّض لهم شياطين قرناء يضلونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، ويزيّنون لهم أعمالهم، وهم أوليائهم، ويستدرجهم الله من حيث لا يشعرون، ويملي لهم أن كيده متين، ويمكر بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، الفسق كما قيل من الألفاظ التي أبدع القرآن إستعمالها في معناها المعروف، مأخوذ من فسقت التمرة اذا خرجت عن قشرها وجلدها ولذلك فسر بعده بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الآية؛ والنقض إنما يكون عن إبرام، ولذلك أيضاً وصف الفاسقين في آخر الآية بالخاسرين والإنسان إنما يخسر فيما ملكه بوجه، قال تعالى: ﴿إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ (الشورى / ٤٥)، وإياك أن تتلقى هذه الصفات التي أثبتها سبحانه في كتابه للسعداء من عباده أو

الأشقياء مثل المقرّبين والمخلصين والمخبتين والصالحين والمطهّرين وغيرها، ومثل الظالمين والفاسقين والخاسرين والغاوين والضالّين وأمثالها أوصافاً مبتذلة أو مأخوذة لمجرد تزيين اللفظ، فتضطرب بذلك قريحتك في فهم كلامه تعالى فتعطف الجميع على واد واحد، وتأخذه هجاناً عامياً وحديثاً ساذجاً سوقياً بل هي أوصاف كاشفة عن حقائق روحية ومقامات معنوية في صراطي السعادة والشقاوة، كل واحد منها في نفسه مبدأ لآثار خاصة ومنشأ لأحكام مخصوصة معينة، كما أن مراتب السنّ وخصوصيات القوى وأوضاع الخلقة في الإنسان كل منها منشأ لأحكام وآثار مخصوصة لا يمكننا أن نطلب واحداً منها من غير منشأه ومحدده، ولئن تدبّرت في مواردها من كلامه تعالى وأمعنت فيها وجدت صدق ما ادّعيناه[1][2][3].

٢٨ ● كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٢٩ ● هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّماءِ فَسَوّيهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ وَهُوَ بِكُلِ شَيءٍ عَليمٌ.

بيان:

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْواتاً﴾. الآية قريبة السياق من قوله

---

١. البقرة ٢٦ ـ ٢٧: بحث في الجبر والتفويض.

٢. البقرة ٢٦ ـ ٢٧: بحث رواتي في الجبر والتفويض.

٣. البقرة ٢٦ ـ ٢٧: بحث فلسفي حول الافعال وارادة الانسان وكيفية استنادها الى الله تعالى.

تعالى: ﴿قالوا ربنا أمتنا إثنتين وأحييتنا إثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (المؤمن / ١١)، وهذه من الآيات التي يستدلُّ بها على وجود البرزخ بين الدنيا والآخرة، فإنها تشتمل على إماتتين، فلو كان إحديهما الموت الناقل من الدنيا لم يكن بدّ في تصوير الإماتة الثانية من فرض حيوه بين الموتين وهو البرزخ، وهو إستدلال تام اعتني به في بعض الروايات ايضاً، وربما ذكر بعض المنكرين للبرزخ أن الآيتين أعني قوله: كيف تكفرون... الآية، وقوله: قالوا ربنا.. الآية، متحدتا السياق، وقد اشتملتا على موتين وحيوتين، فدلولهما واحد، والآية الأولى ظاهرة في أن الموت الأول هو حال الإنسان قبل ولوج الروح في الحيوة الدنيا، فالموت والحيوة الاوليان هما الموت قبل الحيوة الدنيا والحيوة الدنيا، والموت والحيوة الثانيتان هما الموت عن الدنيا والحيوة يوم البعث، والمراد بالمراتب في الآية الثانية هو ما في الآية الأولى، فلا معنى لدلالتها على البرزخ، وهو خطأ فان الآيتين مختلفتان سياقاً اذ المأخوذ في الآية الأولى موت واحد وإماتة لا يتحقق لها مصداق من دون سابقة حيوة بخلاف الموت، فالموت الأول في الآية الأولى غير الإماتة الاولى في الآية الثانية، فلاح في قوله تعالى: أمتنا إثنتين وإحييتنا إثنتين، الإماتة الأولى هي التي بعد الدنيا والإحياء الأول بعدها للبرزخ والإماتة والإحياء الثانيتان للآخرة يوم البعث، وفي قوله تعالى: وكنتم أمواتاً فأحياكم إنما يريد الموت قبل الحيوة وهو موت وليس بإماتة والحيوة هي الحيوة الدنيا، وفي قوله تعالى: ثم إليه ترجعون حيث فصّل بين الإحياء والرجوع بلفظ ثم تأييد لما ذكرنا هذا.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً﴾، بيان حقيقة الإنسان من حيث وجوده فهو وجود متحوّل متكامل يسير في مسير وجوده المتبدّل المتغير تدريجاً ويقطعه مرحلة مرحلة، فقد كان الإنسان قبل نشأته في الحيوة الدنيا ميتاً ثم حيي بإحياء الله ثم يتحول بإماتة وإحياء وهكذا وقد قال سبحانه: ﴿وبدأ خق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء

مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾ (السجدة / ٩)، وقال تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون / ١٤)، وقال تعالى: ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد. بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفّكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾ (السجدة / ١١)، وقال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ (طه / ٥٥). والآيات كما ترى (وسنزيدها توضيحاً في محالّها) تدلُّ على أن الإنسان جزء من الأرض غير مفارقها ولا مباين معها، إنفصل منها ثم شرع في التطوّر بأطواره حتى بلغ مرحلة أُنشيء فيها خلقاً آخر، فهو المتحوّل خلقاً آخر والمتكامل بهذا الكمال الجديد الحديث، ثم يأخذ ملك الموت هذا الإنسان من البدن نوع أخذ يستوفيه ثم يرجع الى الله سبحانه، فهذا صراط وجود الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوّيهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ﴾، سيأتي الكلام في السماء في سورة حم السجدة انشاء الله تعالى.

٣٠ ● وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمـاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ.

٣١ ● وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاٰئِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُوني بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٣٢ ● قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا مـا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ.

٣٣ ● قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ الخ: سيأتي الكلام في معنى القول منه تعالى وكذا القول من الملائكة والشيطان انشاء الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، الى قوله: ونقدس لك مشعر بأنهم انما فهموا وقوع الافساد وسفك الدماء من قوله سبحانه: اني جاعل في الارض خليفة، حيث أن الموجود الارضي بما انه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها واصلاحاتها في مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتم الحيوة فيها الا بالحيوة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها الا بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء، ففهموا من هناك أن الخلافة المرادة لا تقع في الارض الا بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفضي بالآخرة الى الفساد والسفك، والخلافة وهي قيام شيء مقام آخر لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤنه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، والله سبحانه في وجوده مسمى بالاسماء الحسنى متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزه في نفسه عن النقص ومقدس في فعله عن الشر والفساد جلت عظمته، والخليفة الارضي بما هو كذلك لا يليق بالإستخلاف ولا يحكي بوجوده المشوب كل نقص وشين الوجود الالهي المقدس المنزه عن جميع النقائص وكل الأعدام، فأين التراب ورب الأرباب، وهذا الكلام من الملائكة في مقام تعرف ما جهلوه واستيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليس من الاعتراض والخصومة في شيء. والدليل على ذلك

قولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: انك أنت العليم الحكيم حيث صدر الجملة بأن التعليلية المشعرة بتسلم مدخولها فافهم. فملخص قولهم يعود الى ان جعل الخلافة انما هو لأجل ان يحكي الخليفة مستخلفة بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والارضية لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مرّ من الحكاية حاصلة بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك، فنحن خلفائك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائدة جعل هذه الخلافة الارضية لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: اني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب وأن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلّا كانت الملائكة بانباء آدم إياهم بها عالمين وصائرين مثل آدم مساوين معه، ولم يكن في ذلك اكرام لآدم، ولا كرامة حيث علمه الله سبحانه أسماء ولم يعلمهم، ولو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك ما يقنعهم أو يبطل حجتهم، وأي حجة تتم في أن يعلم الله تعالى رجلاً علم اللغة ثم يباهي به ويتم الحجة على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون بأن هذا خليفتي وقابل لكرامتي دونكم؟ ويقول تعالى أنبئوني باللغات التي سوف يضعها الآدميون بينهم لإفهام والتفهيم إن كنتم صادقين في دعويكم أو مسئلتكم خلافتي، على أن كمال اللغة هو المعرفه بمقاصد القلوب والملائكة لا تحتاج فيها الى التكلم، وانما تتلقى المقاصد من غير واسطة، فلهم كمال فوق كمال التكلم، وبالجملة فما حصل للملائكة من العلم بواسطة انباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقه العلم بالأسماء بتعليم الله تعالى فأحد الأمرين كان ممكناً في حق الملائكة وفي مقدرتهم دون الآخر، وآدم انما استحق الخلافة الإلهية بالعلم وبالأسماء دون انبائها اذ الملائكة انما قالوا في مقام الجواب: سبحانك لا علم لنا

إلّا ما علمتنا، فنفوا العلم.

والاسماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها﴾، جمع محلى باللام وهو يفيد العموم على ما صرحوا به. مضافاً الى انه مؤكد بقوله: كلها، فالمراد بها كل اسم يقع لمسمى ولا تقييد ولا عهد، ثم قوله: عرضهم، دال على كون كل اسم أي مسماة ذا حيوة وعلم وهو مع ذلك تحت حجاب الغيب، غيب السموات والارض. واضافة الغيب الى السموات والارض وان امكن ان يكون في بعض الموارد اضافة من، فيفيد التبعيض لكن المورد وهو مقام اظهار تمام قدرته تعالى واحاطته وعجز الملائكة ونقصهم يوجب كون اضافة الغيب الى السموات والارض اضافة اللام، فيفيد أن الاسماء امور غائبة عن العالم السماوي والارضي، خارج محيط الكون، واذا تأملت هذه الجهات اعني عموم الاسماء وكون مسمياتها أولي حيوه وعلم وكونها غيب السموات والارض قضيت بإنطباقها بالضرورة على ما اشير اليه في قوله تعالى: ﴿وان من شيء إلّا عندنا خزائنة وما ننزله الا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١)، حيث أخبر سبحانه بأنه كل ما يقع عليه اسم شيء فله عنده تعالى خزائن مخزونة باقية عنده غير نافدة، ولا مقدّرة بقدر، ولا محدودة بحد، وأن القدر والحد في مرتبة الانزال والخلق، وأن الكثرة التي في هذه الخزائن ليست من جنس الكثرة العددية الملازمة للتقدير والتحديد بل تعدد المراتب والدرجات، وسيجيء بعض الكلام فيها في سورة الحجر انشاء الله تعالى.

فتحصّل ان هؤلاء الذين عرضهم الله على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السموات والارض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الاشخاص، وانما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الاسم من عند هؤلاء انما هو بهذا القسم من النزول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وكان هذان القسمان من الغيب النسبي الذي هو بعض السموات والأرض، ولذلك قوبل به قوله: أعلم غيب السموات والارض، ليشمل قسمي الغيب أعني الخارج عن العالم الارضي والسماوي وغير الخارج عنه.

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تقييد الكتمان بقوله: كنتم، مشعر بأن هناك امراً مكتوماً في خصوص آدم وجعل خلافته، ويمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالى في الآيه التالية: ﴿فسجدوا إلّا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

فيظهر أن ابليس كان كافراً قبل ذلك الحين، وأن إبائه عن السجدة كان مرتبطاً بذلك فقد كان أضمره هذا.

ويظهر بذلك أن سجدة الملائكة وإباء ابليس عنها كانت واقعة بين قوله تعالى: قال اني أعلم ما لا تعلمون وبين قوله: اعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، ويظهر السر أيضاً في تبديل قوله: اني أعلم ما لا تعلمون ثانياً بقوله: اني أعلمّ غيب السموات والارض[1].

٣٤ ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكافِرِينَ.

بيان:

وقوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يستفاد منه جواز السجود لغير الله في الجملة اذا كان تحيّة وتكرمة للغير وفيه خضوع لله تعالى بموافقة أمره، ونظيره قوله تعالى في قصه

١. البقرة ٣٠ـ٣٣: بحث روائي حول الاسماء التي علمها الله لآدم عليه السلام.

يوسف عليه السلام: ﴿ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً قال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقاً﴾ (يوسف / ١٠٠)، وملخص القول في ذلك أنك قد عرفت في سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولويّة المولى، أو عبدية العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينا يقعد، والمشي خلفه حينا يمشي وغير ذلك، وكلما زادت الصلاحية المزبورة إزدادت العبادة تعيّناً للعبودية، وأوضح الأفعال في الدلالة على عز المولوية وذلك العبودية السجدة، لما فيها من الخرور على الأرض، ووضع الجبهة عليها، واما ما ربما ظنه بعض: من أن السجدة عبادة ذاتية، فليس بشيء، فإن الذاتي لا يختلف ولا يتخلف. وهذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داع التعظيم والعبادة كالسخرية والاستهزاء فلا يكون عبادة مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه وهو عبادة نعم معنى العبادة أوضح في السجدة من غيرها، واذا لم يكن عبادة ذاتية لم يكن لذاته مختصاً بالله سبحانه، بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالى. فلو كان هناك مانع لكان من جهة النهي الشرعي أو العقلي والممنوع شرعاً أو عقلاً ليس إلّا إعطاء الربوبية لغيره تعالى، وأما تحية الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربوبية، بل لمجرد التعارف والتحية فحسب، فلا دليل على المنع من ذلك، لكن الذوق الديني المتخذ من الإستيناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير مورده تعالى، وان لم يقصد به إلّا التحية والتكرمة فقط، وأما المنع عن كل ما فيه إظهار الاخلاص لله، بإبراز المحبة لصالحي عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم فما لم يقم عليه دليل عقلي أو نقلي أصلاً، وسنعود الى البحث عن هذا الموضوع في محل يناسبه إنشاء الله تعالى[1].

---

١. البقرة ٣٤: بحث روائي حول سجود الملائكة لآدم عليه السلام.

٣٥ ● وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْث شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمينَ.

٣٦ ● فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعضٍ عَدُوٌّ ولكُمْ في الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتاعٌ إِلىٰ حينٍ.

٣٧ ● فَتَلَقّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ.

٣٨ ● قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٣٩ ● وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ﴾، على أن قصة سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم. لم يقع قصة الجنة إلّا في ثلث مواضع:

احدها: هيهنا من سورة البقرة.

الثاني: في سورة الاعراف قال الله تعالى: ﴿ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

والثالث: في سورة طه. قال الله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له

عزماً. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلا مِنْها رَغَداً﴾ الرغد الهناء وطيب العيش وأرغد القوم مواشيهم تركوها ترعى كيف شاءت، وقوم رغد، ونساء رغد، أي ذووا عيش رغيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وكأن النهي انما كان عن أكل الثمرة وانما تعلق بالقرب من الشجرة ايذاناً بشدة النهى ومبالغة في التأكيد ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ (الأعراف / ٢٢).

وقوله تعالى: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾ (طه / ١٢١)، فكانت المخالفة بالأكل فهو المنهى عنه بقوله: ولا تقربا.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونا مِنَ الظّالِمينَ﴾، من الظلم لا من الظلمة على ما إحتمله بعضهم وقد إعترفا بظلمهما حيث قالا على ما حكاه الله تعالى عنهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾.

إلا أنه تعالى بدّل في سورة طه هذه الكلمة أعني قوله: فتكونا من الظالمين من قوله: فتشقى والشقاء هو التعب ثم فسر التعب وفصله، فقال: ﴿ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ الآيات.

قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ﴾، الظاهر من هذه الجملة كنظايرها وإن لم يكن أزيد من وسوسة الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا (بني آدم) على نحو القاء الوسوسة في القلب من غير رؤية الشخص.

لكن الظاهر من أمثال قوله تعالى في سورة طه: ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ يدل على أنه تعالى أراهما الشيطان وعرفهما إياه بالشخص والعين دون الوصف وكذا قوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ الآية؛ حيث أتى بالكلام في صورة حكاية الخطاب، ويدل ذلك على متكلم مشعور به.

وكذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين﴾ والقسم إنما يكون من مقاسم مشعور به.

وكذا قوله تعالى: ﴿وناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين﴾، كل ذلك يدل على أنه كان يتراءى لهما وكانا يشاهدانه. ولو كان حالهما عليهما السلام مثل حالنا من عدم المشاهدة حين الوسوسة لجاز لهما أن يقولا: ربنا اننا لم نشعر وخلنا أن هذه الوساوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، ولا قصد لمخالفة ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.

وبالجملة فهما كانا يشاهدانه ويعرفانه، والأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله كذلك يعرفونه ويشاهدونه حين تعرّضه بهم لو تعرض على ما وردت به الروايات في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى وايوب واسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم هذا.

وكذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ حيث ينبئ عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجرة في الجنة، فقد كان دخل الجنة وصاحبها وغرهما بوسوسته ولا محذور فيه اذ لم تكن الجنة جنة الخلد حتى لا يدخلها الشيطان، والدليل على ذلك خروجهم جميعاً من هذه الجنة.

وأما قوله تعالى خطاباً لإبليس: ﴿فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج منها﴾ (الأعراف / ١٣)، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكة، أو الخروج من السماء من جهة كونها مقام قرب وتشريف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الآية: ظاهر السياق أنه خطاب لآدم وزوجته وإبليس وقد خص إبليس وحده بالخطاب في سورة الأعراف حيث قال: ﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ الآية؛ فقوله تعالى: إهبطوا كالجمع بين الخطابين وحكاية عن قضاء قضى الله به العداوة بين إبليس لعنه الله وبين آدم وزوجته

وذريتهما، وكذلك قضى به حيوتهم في الأرض وموتهم فيها وبعثهم منها.

وذرية آدم مع آدم في الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ الآية؛ وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية؛ من سورة الأعراف.

إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهة أنه خليفة أرضي، فكان المسجود له آدم عليه السلام وحكم السجدة لجميع البشر، فكان إقامة آدم عليه السلام مقام المسجود له معنوناً بعنوان الأنموذج والنائب.

وبالجملة يشبه أن تكون هذه القصة التي قصها الله تعالى من إسكان آدم وزوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجرة كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله الى الدنيا من السعادة والكرامة بسكونه حظيرة القدس، ومنزل الرفعة والقرب، ودار نعمة وسرور، وانس ونور، ورفقاء طاهرين، واخلاء روحانيين، وجوار رب العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب وعناء ومكروه وألم بالميل الى حيوة فانية، وجيفة منتنة دانية، ثم أنه لو رجع بعد ذلك الى ربه لأعاده الى دار كرامته وسعادته ولو لم يرجع اليه وأخلد الى الأرض واتبع هواه فقد بدل نعمة الله كفراً واحل بنفسه دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، التلقي هو التلقن، وهو أخذ الكلام مع فهم وفقه وهذا التلقي كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته.

ومن ذلك يظهر أن التوبة توبتان: توبة من الله تعالى وهي الرجوع الى العبد بالرحمة، وتوبة من العبد وهي الرجوع الى الله بالإستغفار والإنقلاع من المعصية.

وتوبه العبد، محفوفة بتوبتين من الله تعالى، فان العبد لا يستغني عن ربه في حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصية اليه يحتاج الى توفيقه تعالى وإعانته ورحمته حتى يتحقق منه

التوبة، ثم تمس الحاجة الى قبوله تعالى وعنايته ورحمته، فتوبة العبد اذا قبلت كانت بين توبتين من الله كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ (التوبة / ١١٩).

وقراءة نصب آدم ورفع كلمات تناسب هذه النكتة، وإن كانت القراءة الاخرى (وهي قراءة رفع آدم ونصب كلمات) لا تنافيه ايضاً.

وأما أن هذه الكلمات ما هي؟ فربما يحتمل انها هي ما يحكيه الله تعالى عنها في سورة الأعراف بقوله: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف / ٢٣)، إلّا أن وقوع هذه الكلمات أعني قوله: ﴿قالا ربنا ظلمنا﴾ الآية؛ قبل قوله: ﴿قلنا إهبطوا﴾ في سورة الأعراف ووقوع قوله: ﴿فتلقى آدم﴾ الآية؛ بعد قوله: قلنا اهبطوا، في هذه السورة لا يساعد عليه.

لكن هيهنا شيء: وهو أنك عرفت في صدر القصة أن الله تعالى حيث قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، قالت الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ الآية؛ وهو تعالى لم يرد عليهم دعويهم على الخليفة الأرضي بما رموه به ولم يجب عنه بشيء إلّا أنه علم آدم الأسماء كلها.

ولولا أنه كان فيما صنعه تعالى من تعليم الأسماء ما يسد باب إعتراضهم ذلك لم ينقطع كلامهم ولا تمت الحجة عليهم قطعاً. ففي جملة ما علمه الله تعالى آدم من الاسماء أمر ينفع العاصي اذا عصى والمذنب اذا أذنب، فلعل تلقيه من ربه كان متعلقاً بشيء من تلك الأسماء فافهم ذلك.

وإعلم أن آدم عليه السلام وإن ظلم نفسه في القائها الى شفا جرف الهلكة ومنشعب طريقي السعادة أعني الدنيا، فلو وقف في مهبط فقد هلك، ولو رجع الى سعادته الأولى فقد أتعب نفسه وظلمها، فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كل تقدير، إلّا أنه عليه السلام هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير

خطيئة.

فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والمذلة والمسكنة والحاجة والقصور وله في كل ما يصيبه من التعب والعناء والكد روح وراحة في حظيره القدس وجوار رب العالمين، فلله تعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلّا المذنبون، وله في أيام الدهر نفحات لا يرتاح بها إلّا المتعرّضون.

فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فورائها تشريع الدين وتقويم الملة.

ويدل على ذلك ما تراه أن الله تعالى يكرر في كلامه تقدم التوبة على الإيمان. قال تعالى: ﴿فاستقم كما امرت ومن تاب معك﴾ (هود / ١١٢)، وقال: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن﴾ (طه / ٨٢)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾. وهذا أول ما شرّع من الدين لآدم عليه السلام وذريته، أوجز الدين كله في جملتين لا يزاد عليه شيء الى يوم القيامة.

وأنت اذا تدبرت هذه القصة (قصة الجنة) وخاصة ما وقع في سورة طه وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضائين منه تعالى في آدم وذريته، فأكل الشجرة أوجب حكمه تعالى وقضائه بالهبوط والإستقرار في الأرض والحيوة فيها تلك الحيوة الشقية التي حذرا منها حين نهيا عن إقتراب الشجرة هذا.

وأن التوبة ثانياً: تعقب قضاء وحكماً ثانياً منه تعالى بإكرام آدم وذريته بالهداية الى العبودية فالمقضي أولاً كان نفس الحيوة الأرضية، ثم بالتوبة طيب الله تلك الحيوة بأن ركب عليها الهداية الى العبودية، فتألفت الحيوة من حيوة أرضية، وحيوة سماوية.

وهذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط في هذه السوره حيث قال تعالى: ﴿وقلنا

إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ الآية؛ وقال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى﴾ الآية.

وتوسيط التوبة بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبة وقعت ولما ينفصلا من الجنة وإن لم يكونا أيضاً فيها كاستقرارهما قبل ذلك.

يشعر بذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ الآية؛ بعدما قال لهما: لا تقربا هذه الشجرة فأتى بلفظه تلكما وهي إشارة الى البعيد بعدما أتى بلفظة هذه وهي إشارة الى القريب وعبر بلفظة نادى وهي للبعيد بعدما أتى بلفظة قال وهي للقريب فافهم.

واعلم أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وقلنا إهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين﴾ الآية؛ وقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ الآية؛ أن نحوة هذه الحيوةبعد الهبوط تغاير نحوها في الجنة قبل الهبوط، وان هذه حيوة ممتزجة حقيقتها بحقيقة الارض ذات عناء وشقاء يلزمها أن يتكون الانسان في الأرض ثم يعاد بالموت اليها ثم يخرج بالبعث منها.

فالحيوة الارضية تغاير حيوة الجنة فحيوتها حيوة سماوية غير أرضية.

ومن هنا يمكن ان يجزم أن جنة آدم كانت في السماء، وإن لم تكن جنة الآخرة جنة الخلد التي لا يخرج منها من دخل فيها.

نعم: يبقى الكلام في معنى السماء ولعلنا سنوفق لإستيفاء البحث منه، إن شاء الله تعالى.

بق هنا شيء وهو القول في خطيئة آدم فنقول ظاهر الآيات في بادي النظر وإن كان تحقق المعصية والخطيئة منه عليه السلام كما قال تعالى: فتكونا من الظالمين، وقال تعالى: وعصى آدم ربه فغوى، الآية، وكما إعترف به فيما حكاه الله عنهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ الآية.

لكن التدبر في آيات القصة والدقة في النهي الوارد عن أكل الشجرة يوجب القطع: بأن النهي المذكور لم يكن نهياً مولوياً وانما هو نهي إرشادي يراد به الإرشاد والهداية الى ما في مورد التكليف من الصلاح والخير لا البعث والإرادة المولوية.

ويدل على ذلك اولا: أنه تعالى فرّع على النهي في هذه السورة وفي سورة الأعراف أنه ظلم حيث قال: ﴿لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ ثم بدله في سورة طه من قوله: فتشقى مفرعاً إياه على ترك الجنة. ومعنى الشقاء التعب ثم ذكر بعده كالتفسير له: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ الآيات.

فأوضح أن المراد بالشقاء هو التعب الدنيوي، الذي تستتبعه هذه الحيوة الأرضية من جوع وعطش وعراء وغير ذلك.

فالتوقي من هذه الامور هو الموجب للنهي الكذائي لا جهة اخرى مولوية فالنهي إرشادي، ومخالفة النهي الإرشادي لا توجب معصية مولوية، وتعدياً عن طور العبودية وعلى هذا فالمراد بالظلم أيضاً في ما ورد من الآيات ظلمهما على انفسهما في القائها في التعب والتهلكة دون الظلم المذموم في باب الربوبية والعبودية وهو ظاهر.

وثانياً: أن التوبة، وهي الرجوع من البعد اذا استتبع القبول من جانب المولى أوجب كون الذنب كلا ذنب، والمعصية كأنها لم تصدر. فيعامل مع العاصي التائب معاملة المطيع المنقاد، وفي مورد فعله معاملة الإمتثال والانقياد.

ولو كان النهي عن أكل الشجرة مولوياً وكانت التوبة توبة عن ذنب عبودي ورجوعاً عن مخالفة نهي مولوي كان اللازم رجوعهما الى الجنة مع انهما لم يرجعا.

ومن هنا يعلم أن استتباع الأكل المنهى للخروج من الجنة كان إستتباعاً ضرورياً تكوينياً، نظير إستتباع السم للقتل والنار للإحراق، كما في موارد التكاليف الإرشادية لا استتباعاً من قبيل المجازاة المولوية في التكاليف المولوية. كدخول النار لتارك الصلوة، وإستحقاق الذم

واستيجاب البعد في المخالفات العمومية الإجتماعية المولوية.

وثالثاً: أن قوله تعالى: ﴿قلنا إهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ الآيات.

وهو كلمة جامعة لجميع التشريعات التفصيلية التي أنزلها الله تعالى في هذه الدنيا من طرق ملائكته وكتبه ورسله، يحكي عن اول تشريع شرّع للانسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم وذريته، وقد وقع على ما يحكي الله تعالى بعد الأمر الثاني بالهبوط ومن الواضح ان الأمر بالهبوط أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنة واقتراف الخطيئة، فلم يكن حين مخالفة النهي واقتراب الشجرة لا دين مشروع ولا تكليف مولوي فلم يتحقق عند ذلك ذنب عبودي، ولا معصية مولوية.

ولا ينافي ذلك كون خطاب اسجدوا للملائكة ولإبليس وهو قبل خطاب لا تقربا، خطاباً مولوياً لان المكلف غير المكلف.

فإن قلت: اذا كان النهي نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً فما معنى عدّه تعالى فعلهما ظلماً وعصياناً وغواية؟

قلت: اما الظلم فقد مر أن المراد به ظلمهما لأنفسهما في جنب الله تعالى، وأما العصيان فهو لغة عدم الإنفعال أو الإنفعال بصعوبة كما يقال: كسرته فأنكسر وكسرته فعصى، والعصيان وهو عدم الإنفعال عن الأمر أو النهي كما يتحقق في مورد التكاليف المولوية كذلك يتحقق في مورد الخطابات الإرشادية.

وأما تعين معنى المعصية في هذه الأزمنة عندنا جماعة المسلمين في مخالفة مثل صل، أم صم، أو حج، أو لا تشرب الخمر، أو لا تزن ونحو ذلك فهو تعين بنحو الحقيقة الشرعية أو المتشرعة لا يضر بعموم المعنى بحسب اللغة والعرف العام هذا.

وأما الغواية فهو عدم إقتدار الإنسان مثلاً على حفظ المقصد وتدبير نفسه في معيشته بحيث يناسب المقصد ويلائمه.

وواضح أنه يختلف بإختلاف الموارد من إرشاد ومولوية.

فإن قلت: فما معنى التوبة حينئذ وقولها: «وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين؟».

قلت: التوبة كما مر هي الرجوع. والرجوع يختلف بحسب إختلاف موارده.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده وإرادته أن يتوب اليه، فيرد اليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذي نهاه الطبيب نهياً إرشادياً عن أكل شيء معين من الفواكه والمأكولات وانما كان ذلك منه مراعاة لجانب سلامته وعافيته فلم ينته المريض عن نهيه فإقترفه فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز ان يتوب الى الطبيب ليشير اليه بدواء يعيده الى سابق حاله وعافيته، فيذكر له ان ذلك محتاج الى تحمل التعب والمشقة والعناء والرياضة خلال مدة حتى يعود الى سلامة المزاج الأولية بل الى اشرف منها وأحسن، هذا.

وأما المغفرة والرحمة والخسران فالكلام فيها نظير الكلام في نظائرها في إختلاف بحسب إختلاف مواردها، هذا[1].

٤٠ ● يَا بَنِي إِسرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي اوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.

---

١. البقرة ٣٥ ـ ٣٩: بحث رواتي حول جنّة آدم وانها هل كانت جنة من جنان الدنيا ام من جنان الآخرة؛ موضوع تكوين آدم عليه السلام في التوراة؛ الشجرة الملعونة؛ عصمة الانبياء عليهم السلام. كيفية خروج آدم عليه السلام من الجنة؛ خلق حواء.

٤١ ● وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ.

٤٢ ● وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٤٣ ● وَأَقِيمُوا الصَلوٰةَ وآتُوا الزَّكوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.

٤٤ ● أَتَأْمُرُونَ النَّاسِ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، أصل العهد الحفاظ، ومنه اشتقت معانيه كالعهد بمعنى الميثاق واليمين والوصية واللقاء والمنزل ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿فارهبون﴾، الرهبة الخوف، وتقابل الرغبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، أي من بين أهل الكتاب، أومن بين قومكم ممَّن مضى وسيأتي، فإن كفار مكة كانوا قد سبقوهم الى الكفر به.

٤٥ ● وَاسْتَعِينُوا بِالصَبْرِ وَالصَّلوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ.

٤٦ ● الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وأَنَّهُم إِلَيْهِ راجِعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَبْرِ وَالصَّلوٰةِ﴾، الإستعانة وهي طلب العون إنما يتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات والنوازل، واذ لا معين في الحقيقة إلّا الله سبحانه

فالعون على المهمات مقاومة الإنسان لها بالثبات والاستقامة والاتصال به تعالى بالانصراف إليه، والاقبال عليه بنفسه، وهذا هو الصبر والصلوة، وهما أحسن سبب على ذلك. فالصبر يصغر كل عظيمة نازلة، وبالاقبال على الله والالتجاء إليه تستيقظ روح الايمان، وتتنبه: ان الإنسان متّكٍ على ركن لا ينهدم، وسبب لا ينفصم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ﴾. الضمير راجع الى الصلوة، وأما إرجاعه الى الاستعانة لتضمن قوله: استعينوا، ذلك فينافيه ظاهراً قوله: إلّا على الخاشعين، فإن الخشوع لا يلائم الصبر كثير ملائمة، والفرق بين الخشوع والخضوع مع أن في كليهما معنى التذلل والانكسار أن الخضوع مختص بالجوارح والخشوع بالقلب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾. هذا المورد، أعني مورد الاعتقاد بالآخرة على أنه مورد اليقين لا يفيد فيه الظن والحسبان الذي لا يمنع النقيض، قال تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ (البقرة / ٤). ويمكن أن يكون الوجه فيه الأخذ بتحقق الخشوع فان العلوم التدريجية الحصول من أسباب تدريجية تتدرج فيها النفس المدركة من تنبه وشك ثم ترجح أحد طرفي النقيض ثم انعدام الاحتمالات المخالفة شيئاً فشيئاً حتى يتم الادراك الجازم وهو العلم، وهذا النوع من العلم اذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس وقلقها وخشوعها إنما تبتدي الخشوع الذي معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمي وتمامه، ففي وضع الظن موضع العلم إشارة الى أن الانسان لا يتوقف على زيادة مؤنة على العلم أن تنبه بأن له ربّاً يمكن ان يلاقيه ويرجع إليه وذلك كقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجّج سراتهم في الفارسيّ المسرّد

وإنما يخوّف العدو باليقين لا بالشك ولكنه أمرهم بالظن لأن الظن يكفيهم في الانقلاع عن المخالفة، بلا حاجة الى اليقين حتى يتكلف المهدد الى ايجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم، وعلى هذا فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه

فليعمل عملاً صالحاً﴾ (الكهف / ١١٠)، وهذا كله لو كان المراد باللقاء في قوله تعالى: ملاقو ربهم، يوم البعث ولو كان المراد به ما سيأتي تصويره في سورة الأعراف إن شاء الله فلا محذور فيه أصلاً.

٤٧ * يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالَمِينَ.

٤٨ * وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي﴾. الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شؤونه، وقواه المقننة الحاكمة والمجرية مبتنية على حوائج الحيوة، وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانية والمكانية، فربما بدَّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضاً فإن الجرم والجناية عندهم يستتبع العقاب، وربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كان يلحّ المحكوم الذي يرجى عقابه على القاضي ويسترحمه أو يرتشيه فينحرف في قضائه فيجزي أي يقضي فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعاً يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلاً وبدلاً اذا كانت حاجة الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة الى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعة العقاب ونحو ذلك. تلك سنّة جارية وعادة دائرة بينهم، وكانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد أن

الحيوة الآخرة نوع حيوه دنيوية يطرّد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي، فيقدمون الى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة، ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها، ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وتوجد اليوم في المتاحف بين الآثار الارضية عتائق كثيرة من هذا القبيل، ويوجد عقائد متنوعة شبيهة بتلك العقائد بين الملل الإسلامية على اختلاف السنتهم والوانهم، بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لوناً بعد لون، جيلا بعد جيل، وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية، والاقاويل الكاذبة، فقد قال عز من قائل: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩)، وقال: ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة / ١٦٦)، وقال: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم انهم فيكم شراء، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤)، وقال: ﴿هناك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (يونس / ٣٠)، الى غير ذلك من الآيات التي بين فيها: ان الموطن خال عن الأسباب الدنيوية، وبمعزل عن الإرتباطات الطبيعية، وهذا اصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل والأوهام على طريق الإجمال، ثم فصل القول في نفي واحد واحد منها وإبطاله فقال: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا تقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ (البقرة / ٤٨)، وقال: ﴿يوم لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة﴾ (البقرة / ٢٥٤)، وقال: ﴿يوم لا يغني مولى من مولى شيئاً﴾ (الدخان / ٤١)، وقال: ﴿يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم﴾ (المؤمنون / ٣٣)، وقال: ﴿ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم

مستسلمون﴾ (الصافات / ٢٦)، وقال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (يونس / ١٨)، وقال: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ (المؤمن / ١٨)، وقال: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ (الشعراء / ١٠١)، الى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والاسباب يوم القيامة هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يثبتها بعض الإثبات، قال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ (السجدة / ٣)، وقال تعالى: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ (الأنعام / ٥١)، وقال تعالى: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ (الزمر / ٤٤)، وقال تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ (البقرة / ٢٥٥)، وقال تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم إستوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الامن بعد اذنه﴾ (يونس / ٣)، وقال تعالى: ﴿وقالوا إتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين إيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن إرتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ (الأنبياء / ٢٨)، وقال: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦)، وقال: ﴿ولا يملكون الشفاعة الا من إتخذ عند الرحمن عهداً﴾ (مريم / ٨٧)، وقال تعالى: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولاً، يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ (طه / ١١٠)، وقال تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له﴾ (سبأ / ٢٣)، وقال تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ (النجم / ٢٦)، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كالآيات الثلاثة

الأولى وبين ما يعممها لغيره تعالى باذنه وارتضائه ونحو ذلك. وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصالة لله وحده من غير شريك، وبعضها تثبتها لغيره باذنه وارتضائه. وقد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبة بين هذه الآيات كالنسبة بين الآيات النافية لعلم الغيب عن غيره، واثباته له تعالى بالإختصاص ولغيره بارتضائه. قال تعالى: ﴿قل لا يعلمُ من في السموات والأرض الغيب﴾ (النمل / ٦٥)، وقال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو﴾ (الأنعام / ٥٩) وقال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من إرتضى من رسول﴾ (الجن / ٢٧)، وكذلك الآيات الناطقة في التوفي والخلق والرزق والتأثير والحكم والملك وغير ذلك فانها شائعة في اسلوب القرآن، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى، ثم يثبته لنفسه، ثم يثبته لغيره باذنه ومشيته، فتفيد ان الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها وإستقلالها، وإنما تملكها بتمليك الله لها إياها، حتى أن القرآن تثبت نوعاً من المشية في ما حكم فيه وقضى عليه بقضاء حتم، كقوله تعالى: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلّا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ (هود / ١٠٨)، فقد علق الخلود بالمشية وخاصة في خلود الجنة مع حكمه بأن العطاء غير مجذوذ، اشعاراً بأن قضائه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده ولا يبطل سلطانه وملكه عز سلطانه كما يدل على قوله: ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ (هود / ١٠٧)، وبالجملة لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده ويوجب له الفقر، ولا ممنع يضطره الى حفظ ما منعه وإبطال سلطانه تعالى.

ومن هنا يظهر أن الآيات النافية للشفاعة، إن كانت ناظرة الى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الإستقلال في الملك، والآيات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الإصالة، ولغيره تعالى باذنه وتمليكه، فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى باذنه فلننظر ماذا يفيد كلامه في معنى

الشفاعة ومتعلقها؟ وفيمن تجري؟ وممن تصح؟ ومتى تتحقق؟ وما نسبتها الى العفو والمغفرة منه تعالى؟ ونحو ذلك في أمور[١][٢][٣][٤].

٤٩ ● وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنائَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفي ذٰلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

٥٠ ● وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَونَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

٥١ ● وَإِذْ واعَدْنا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ.

٥٢ ● ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِك لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٥٣ ● وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

٥٤ ● وَإِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ.

---

١. البقرة ٤٧ ـ ٤٨: بحث حول الشفاعة؛ ما هي الشفاعة؟؛ اشكالات الشفاعة؛ فيمن تجري الشفاعة؟؛ متى تنفع الشفاعة؟

٢. البقرة ٤٧ ـ ٤٨: بحث روائي حول الشفاعة.

٣. البقرة ٤٧ ـ ٤٨: بحث فلسفي حول النفس وسعادتها وشقاوتها.

٤. البقرة ٤٧ ـ ٤٨: بحث اجتماعي حول القانون وضمان تنفيذه وموضوع الجزاء والشفاعة؛ طريقة المحكومات التي تلت زمن الرسول الكريم ﷺ حول احكام الله تعالى.

٥٥ ● وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللّٰـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

٥٦ ● ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بعد مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٥٧ ● وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

٥٨ ● وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقريَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ.

٥٩ ● فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذين ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ.

٦٠ ● وَإِذِ اسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللّٰهِ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

٦١ ● وإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ أَدْنى بالَّذي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وباءُوا بَغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ

بِآياتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيرِ الحَقِّ ذلكَ بِما عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسائَكُمْ﴾، أي يتركونهنّ احياء للخدمة من غير أن يقتلوهنّ كالأبناء فالإستحياء طلب الحيوة ويمكن أن يكون المعنى ويفعلون ما يوجب زوال حيائهنّ من المنكرات، ومعنى يسومونكم يولّونكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ﴾، الفرق مقابل الجمع كالفصل والوصل، والفرق في البحر الشقع والباء للسببية أو الملابسة أي فرقنا لإنجائكم البحر أو لملابستكم دخول البحر.

قوله تعالى: ﴿وإِذْ واعَدْنا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، وقصّ تعالى القصة في سورة الأعراف بقوله: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ (الأعراف / ١٤٢)، فعد المواعدة فيها أربعين ليلة أما للتغليب أو لأنه كانت العشرة الأخيرة بمواعدة أخرى فالأربعون مجموع المواعدتين كما وردت به الرواية.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ﴾ البارىء من الأسماء الحسنى كما قال تعالى: ﴿هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى﴾ (الحشر / ٢٤)، وقع في ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها في هذه الآية ولعله خصّ بالذكر هيهنا من بين الأسماء الملائمة معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق والموجد، من برء يبرء براءاً اذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الانسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذي أمركم بهذا الفناء والزوال بالقتل هو الذي برءكم فالذي أحب وجودكم وهو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم وكيف لا يحب خيركم

وقد برئكم، فاختيار لفظ البارىء باضافته اليهم في قوله: الى بارئكم، وقوله عند بارئكم للاشعار بالاختصاص لإثارة المحبة.

وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ ظاهر الآيه وما تقدمها أن هذه الخطابات وما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم ومعاصيهم إنما نسبت الى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعة ذات قوميه واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض، وينسب فعل بعضهم الى آخرين. لمكان الوحدة الموجودة فيهم، فما كل بني اسرائيل عبدوا العجل، ولا كلهم قتلوا الأنبياء الى غير ذلك من معاصيهم وعلى هذا فقوله تعالى: واقتلوا أنفسكم، إنما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل كما يدل على أيضاً قوله تعالى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل. وقوله تعالى: ذلكم خير لكم عند بارئكم تتمة الحكايه من قول موسى كما هو الظاهر، وقوله تعالى: فتاب عليكم يدل على نزول التوبة وقبولها، وقد وردت الرواية أن التوبة نزلت ولما يقتل جميع المجرمين منهم.

ومن هنا يظهر أن الأمر كان أمراً إمتحانياً نظير ما وقع في قصه رؤيا ابراهيم عليه السلام وذبح اسماعيل: ﴿يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ (الصافات / ١٠٥)، فقد ذكر موسى عليه السلام فتوبوا الى بارئكم واقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، وأمضى الله سبحانه قوله عليه السلام وجعل قتل البعض قتلاً للكل وأنزل التوبة بقوله: فتاب عليكم.

قوله تعالى: ﴿رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾، الرجز العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْثَوا﴾، العيث والعثى أشد الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقِثَّائِها وَفُومِها﴾، القثاء الخيار والفوم الثوم او الحنطة.

قوله تعالى: ﴿وَباؤُوا بِغَضَبٍ﴾، أي رجعوا.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ﴾، تعليل لما تقدمه.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِما عَصَوْا﴾، تعليل للتعليل فعصيانهم ومداومتهم للإعتداء هو

الموجب لكفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ (الروم / ١٠)، وفي التعليل بالمعصية وجه سيأتي في البحث الآتي.

٦٢ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ.

بيان:

تكرار الإيمان ثانياً وهو الإتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآية هم المتصفون بالإيمان ظاهراً المتسمون بهذا الاسم فيكون محصّل المعنى أن الأسماء والتسمي بها مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجراً ولا أمناً من العذاب كقولهم: لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وإنما ملاك الامر وسبب الكرامة والسعادة حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ولذلك لم يقل من آمن منهم بإرجاع الضمير الى الموصول اللازم في الصلة لئلا يكون تقريراً للفائدة في التسمي على ما يعطيه النظم كما لا يخفى وهذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعادة والكرامة تدور مدار العبودية، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئاً، ولا وصف من أوصاف الكمال يسبق لصاحبه وينجيه إلا مع لزوم العبودية، الأنبياء ومن دونهم فيه سواء، فقد قال تعالى في أنبيائه بعدما وصفهم بكل وصف جميل: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام / ٨٨)، وقال تعالى في أصحاب نبيّه ومن آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم وعلو قدرهم:

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح / ٢٩)، فأتى بكلمة منهم وقال في غيرهم ممن اوتي آيات الله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ (الأعراف / ١٧٦)، الى غير ذلك من الآيات الناصّة على أن الكرامة بالحقيقة دون الظاهر[1].

٦٣ ● وإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الْطُّوْرَ خُذُوا ما آتيناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

٦٤ ● ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرِينَ.

٦٥ ● وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِيْنَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ.

٦٦ ● فَجَعَلناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.

٦٧ ● وَإِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللّٰهِ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْجاهِلِيْنَ.

٦٨ ● قَالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤمَرُون.

٦٩ ● قَالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ الناظِرِيْنَ.

---

١. البقرة ٦٢: بحث تاريخي حول الصابئين وعقائدهم واعمالهم.

٧٠ ● قالُوا ادْعُ لنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وإِنَّا إِنْشاءَ اللهُ لَمُهْتَدونَ.

٧١ ● قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ولا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ.

٧٢ ● وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها وَاللّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

٧٣ ● فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذٰلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتىٰ وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٧٤ ● ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ وإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، الطول هو الجبل كما بدّله منه في قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة﴾ (الأعراف / ١٧١)، والنتق هو الجذب والإقتلاع. وسياق الآية حيث ذكر أخذ الميثاق أولاً والأمر بأخذ ما أُوتوا وذكر ما فيه أخيراً ووضع رفع الطور فوقهم بين الأمرين مع السكوت عن سبب الرفع وغايتها يدل على أنه كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما اوتوه وإلا لم يكن لأخذ الميثاق وجه. فما ربما يقال: أن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آية معجزه

وأوجب إجبارهم وإكراههم على العمل. وقد قال سبحانه: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة / ٢٥٦)، وقال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس / ٩٩)، غير وجيه فإن الآيه كما مر لا تدل على أزيد من الإخافة والإرهاب ولو كان مجرد رفع الجبل فوق بني اسرائيل إكراهاً لهم على الإيمان او العمل، لكان أغلب معجزات موسى موجبة للإكراه، نعم هذا التأويل وصرف الآية عن ظاهرها، والقول بأن بني اسرائيل كانوا في أصل الجبل فزلزل وزعزع حتى أظل رأسه عليهم، فظنوا أنه واقع بهم فعبّر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبني على أصل إنكار المعجزات وخوارق العادات، وقد مر الكلام فيها ولو جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور، ولا لبلاغة الكلام وفصاحته أصل تتكي عليه وتقوم به.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. لعلَّ كلمة ترجٍّ واللازم في الترجي صحته في الكلام كان قائماً بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام، كأن يكون المقام مقام رجاء وإن لم يكن للمتكلم والمخاطب رجاء فيه وهو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبة الامر فالرجاء في كلامه تعالى إما بملاحظة المخاطب أو بملاحظة المقام. وأما هو تعالى فيستحيل نسبة الرجال إليه لعلمه بعواقب الامور، كما نبه عليه الراغب في مفرداته.

قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ أي صاغرين.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْناها نَكالاً﴾ أي عبرة يعتبر بها، والنكال هو ما يفعل من الإذلال والإهانة بواحد ليعتبر به آخرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الخ: هذه قصة بقرة بني اسرائيل، وبها سميت السورة سورة البقرة. والأمر في بيان القرآن لهذه القصة عجيب فان القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ الى آخره؛ ثم قال: ﴿وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها﴾ ثم أنه أخرج فصل منها من وسطها وقدم

أولاً ووضع صدر القصة وذيلها ثانياً، ثم إن الكلام كان مع بني اسرائيل في الآيات السابقة بنحو الخطاب فانتقل بالإلتفات الى الغيبة حيث قال: واذ قال موسى لقومه ثم التفت الى الخطاب ثانياً بقوله: واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ خطاب للنبي ﷺ وهو كلام في صورة قصة وانما هي مقدمة توضيحية للخطاب التالي لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الامر والغاية المقصودة منها بل اطلقت إطلاقاً ليتنبه بذلك نفس السامع وتقف موقف التجسس، وتنتشط اذا سمعت أصل القصة، ونالت الارتباط بين الكلامين، ولذلك لما سمعت بنو اسرائيل قوله: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة تعجبوا من ذلك ولم يحملوه إلّا على أن نبي الله موسى يستهزء بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقرة وما يسألونه من فصل الخصومة والحصول على القاتل قالوا أتتخذنا هزواً وسخرية.

وانما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعة والسمع وإستقرار ملكة الإستكبار والعتو فيهم، وقولهم: إنا لا نحوم حول التقليد والمذموم، وانما نؤمن بما نشاهده ونراه كما قالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وانما وقعوا فيما وقعوا من جهة استقلالهم في الحكم والقضاء فيما لهم ذلك، وفيما ليس لهم ذلك فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينة الرب بالحس الباصر وقالوا: ﴿يا موسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ (الأعراف / ١٣٨)، وزعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم، ويلعب كلعبهم، فرموه بالإستهزاء والسفه والجهالة حتى رد عليهم، وقال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، وانما استعاذ بالله ولم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلك منه ﷺ أخذ بالعصمة الإلهية التي لا تتخلف لا الحكمة الخلقية التي ربما تتخلف.

وزعموا أن ليس للانسان أن يقبل قولاً إلّا عن دليل، وهذا حق، لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلاً ولا يكفي في ذلك الإجمال ومن أجل ذلك طالبوا

تفصيل أوصاف البقرة لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصة الأحياء فإن كان ولابد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كاملة البيان ولذلك قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، وهذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة فشدد الله عليهم، وقال موسى انه يقول إنها بقرة لا فارض، أي ليست بمسنة إنقطعت ولادتها ولا بكر أي لم تلد عوان بين ذلك، والعوان من النساء والبهائم ما هو في منتصف السن أي واقعة في السن بين ما ذكر من الفارض والبكر، ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، ولا يشددوا على أنفسهم ويقنعوا بما بين لهم فقال: فافعلوا ما تؤمرون، لكنهم لم يرتدعوا بذلك بل قالوا أُدع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول انها بقرة صفراء فاقع شديد الصفرة في صفاء لونها تسر الناظرين وتم بذلك وصف البقرة بياناً، واتضح أنها ما هي وما لونها وهم مع ذلك لم يرضوا به، وأعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب وانقباض وقالوا أُدع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا انشاء الله لمهتدون، فأجابهم ثانياً بتوضيح في ماهيتها ولونها وقال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول أي غير مذللة بالحرث والسقي تثير الأرض بالشيار ولا تسقي الحرث فلما تم عليهم البيان ولم يجدوا ما يسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من يعترف بالحقيقة بالإلزام والحجة من غير أن يجد الى الرد سبيلا، فيعترف بالحق إضطراراً، ويعتذر عن المبادرة الى الإنكار بأن القول لم يكن مبيناً من قبل، ولا بياناً تاماً. والدليل على ذلك قوله تعالى: فذبحوها وما كادوا يفعلون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها ﴾، شروع في أصل القصة والتدارء هو التدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا نفساً ـ وكل طائفة منهم يدفع الدم عن نفسها الى غيرها ـ واراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ﴾، أول الضميرين راجع الى النفس باعتبار أنه قتيل، وثانيهما الى البقرة، وقد قيل: إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التورية الذي نقلناه، والمراد بإحياء الموتى العثور

بوسيلة تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظر ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ولكم في القصاص حيوة﴾ (البقرة / ١٧٩)، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا. وأنت خبير بأن سياق الكلام وخاصة قوله تعالى: فقلنا إضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى، يأبى ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ القسوة في القلب بمنزلة الصلابة في الحجر وكلمة أو بمعنى بل، والمراد بكونها بمعنى بل إنطباق معناه على موردها، وقد بين شدة قسوة قلوبهم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ﴾، وقوبل فيه بين الحجارة والماء لكون الحجارة يضرب بها المثل في الصلابة ككون الماء يضرب به المثل في اللين فهذه الحجارة على كمال صلابتها يتفجر منها الأنهار على لين مائها وتشقق فيخرج منها الماء على لينه وصلابتها، ولا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحق، ولا قول حق يلائم الكمال الواقع.

قوله تعالى: ﴿وإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾، وهبوط الحجارة ما نشاهد من إنشقاق الصخور على قلل الجبال، وهبوط قطعات منها بواسطة قطعات منها بواسطة الزلازل، وصيرورة الجمد الذي يتخللها في فصل الشتاء مائاً في فصل الربيع الى غير ذلك، وعد هذا الهبوط المستند الى أسبابها الطبيعية هبوطاً من خشية الله تعالى لأن جميع الأسباب منتهية الى الله سبحانه فإنفعال الحجارة في هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر الله سبحانه اياها بالهبوط. وهي شاعرة لأمر ربها شعوراً تكوينياً، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤)، وقال تعالى: ﴿كل له قانتون﴾ (البقرة / ١١٦)، والإنفعال الشعوري هو الخشية فهي هابطه من خشية الله تعالى. فالآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ (الرعد / ١٣)، وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً

وضلالهم بالغدوّ والآصال﴾ (الرعد / ١٥)، حيث عد صوت الرعد تسبيحاً بالحمد وعد الظلال ساجدة لله سبحانه الى غير ذلك من الآيات التي جرى القول فيها بجرى التحليل كما لا يخفى.

وبالجملة فقوله: وإن منها لما يهبط، بيان ثان لكون قلوبهم أقسى من الحجارة فإن الحجارة تخشى الله تعالى، فتهبط من خشيته، وقلوبهم لا تخشى الله تعالى ولا تهابه[1][2].

٧٥ ● أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

٧٦ ● وإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

٧٧ ● أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ.

٧٨ ● وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

٧٩ ● فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ.

---

١. البقرة ٦٣ ـ ٧٤: بحث فلسفي حول المعجزة وموضوع الرجوع من الفعل الى القوة؛ احياء الموتى؛ المسخ.

٢. البقرة ٦٣ ـ ٧٤: بحث علمي واخلاقي حول بني اسرائيل. الانتصار في الحياة المادية، سبب عدم تأثير البحوث الاخلاقية في بعض الناس؛ موضوع التقليد.

٨٠ ● وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إِلَّا أَيّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ.

٨١ ● بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون.

٨٢ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُون.

بيان:

السياق وخاصة ما في ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار، وخاصة كفار المدينة: لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثة ظهيراً لرسول الله ﷺ وعندهم علم الدين والكتاب، ولذلك كان الرجاء في إيمانهم أكثر من غيرهم، وكان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجاً فيتأيد بذلك ويظهر نوره، وينشر دعوته، ولما هاجر النبي الى المدينة وكان من أمرهم ما كان تبدل الرجاء قنوطاً، والطمع يأساً، ولذلك يقول سبحانه: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، الخ؛ يعني أن كتمان الحقائق وتحريف الكلام من شيمهم، فلا ينبغي أن يستبعد نكولهم عما قالوا ونقضهم ما أبرموا.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، فيه التفات من خطاب بني اسرائيل الى خطاب النبي والذين آمنوا ووضعهم موضع الغيبة وكان الوجه فيه أنه لما قصّ قصة البقرة وعدل فيها من خطاب بني اسرائيل الى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التورية كما مر، اريد إتمام البيان بنحو الغيبه بالإشارة الى تحريفهم كتاب الله تعالى فصرف لذلك وجه

الكلام إلى الغيبة .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا﴾ الخ؛ لا تقابل بين الشرطين وهما مدخولا اذا في الموضعين كما في قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن﴾ (البقرة / ١٤)، بل المراد بيان موضعين آخرين من مواضع جرائمهم وجهالتهم.

احدهما: أنهم ينافقون فيتظاهرون بالإيمان صوناً لأنفسهم من الإيذاء والطعن والقتل.

وثانيهما: أنهم يريدون تعميه الأمر وإبهامه على الله سبحانه العالم بسرهم وعلانيتهم وذلك أن العامة منهم، وهم أولوا بساطة النفس ربما كانوا ينبسطون للمؤمنين، فيحدثونهم ببعض ما في كتبهم من بشارات النبي أو ما ينفع المؤمنين في تصديق النبوة، كما يلوح من لحن الخطاب فكان أولياؤهم ينهونه معللا بأن ذلك مما فتح الله لهم، فلا ينبغي أن يفشى للمؤمنين، فيحاجوهم به عند ربهم كأنهم لو لم يحاجوهم به عند ربهم لم يطلع الله عليه فلم يؤاخذهم بذلك ولازم ذلك أن الله تعالى إنما يعلم علانية الأمر، دون سره وباطنه وهذا من الجهل بمكان، فردالله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ الآية؛ فإن هذا النوع من العلم ـ وهو ما يتعلق بظاهر الأمر دون باطنه ـ إنما هو العلم المنتهي الى الحس يفتقر الى بدن مادي مجهز بآلات مادية مقيد بقيود الزمان والمكان مولود لعلل اخرى مادية وما هو كذلك مصنوع من العالم لا صانع العالم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ﴾. الأمي من يقرأ ولا يكتب منسوب الى الام لأن عطوفة الام وشفقتها كانت تمنعها أن ترسل ولدها الى المعلم وتسلمه الى تربيته، فكان يكتفي بتربية الأم، والاماني جمع امنية، وهي الأكاذيب، فحصل المعنى انهم بين من يقرأ الكتاب ويكتبه فيحرفه وبين من لا يقرأ ولا يكتب ولا يعلم من الكتاب الا اكاذيب المحرفين.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ﴾، الويل هو الهلكة والعذاب الشديد والحزن والحزى والهوان وكل ما يحذره الإنسان اشد الحذر والإشتراء هو الابتياع.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ الخ: الضمائر إما راجعة الى بني اسرائيل أو لخصوص المحرفين منهم ولكل وجه وعلى الأول يثبت الويل للامميين منهم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ الخ: الخطيئة هي الحالة الحاصلة للنفس من كسب السيئة، ولذلك أتى باحاطة الخطيئة بعد ذكر كسب السيئة وإحاطة الخطيئة توجب ان يكون الإنسان المحاط مقطوع الطريق الى النجاة كأن الهداية لإحاطة الخطيئة به لا تجد اليه سبيلا فهو من أصحاب النار مخلداً فيها ولو كان في قلبه شيء من الإيمان بالفعل، أو كان معه بعض ما لا يدفع الحق من الأخلاق والملكات، كالانصاف والخضوع للحق، أو ما يشابهها لكانت الهداية والسعادة ممكنتي النفوذ اليه، فإحاطة الخطيئة لا تتحقق الا بالشرك الذي قال تعالى فيه: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨)، ومن جهة اخرى إلا بالكفر وتكذيب الآيات كما قال سبحانه: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩)، فكسب السيئة، وإحاطة الخطيئة كالكلمة الجامعة لما يوجب الخلود في النار.

٨٣ ● وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لَا تَعْبُدونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً، وَذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ.

٨٤ ● وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.

٨٥ ● ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارىٰ تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ في الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ الْعَذابِ وَما اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.

٨٦ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيٰوةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

٨٧ ● وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ.

٨٨ ● وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ.

بيان:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَني إِسرائيلَ﴾، الآية في بديع نظمها تبتدي أولا بالغيبة وتنتهي الى الخطاب حيث تقول: ﴿ثم توليتم إلّا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾، ثم إنها

تذكر أولا الميثاق وهو أخذ للعهد، ولا يكون إلّا بالقول، ثم تحكي ما أخذ عليه الميثاق فتبتدئ فيه بالخبر، حيث تقول: لا تعبدون إلّا الله، وتختتم بالأنشاء حيث تقول وقولوا للناس حسناً، الخ. ولعل الوجه في ذلك كله أن الآيات المتعرضة لحال بني إسرائيل لما بدئت بالخطاب لمكان إشتمالها على التقريع والتوبيخ وجرت عليه كان سياق الكلام فيها الخطاب ثم لما تبدل الخطاب بالغيبة بعد قصة البقرة لنكتة داعية إليها كما مر حتى انتهت الى هذه الآية، فبدئت أيضاً بالغيبة لكن الميثاق حيث كان بالقول وبنى على حكايته حكى بالخطاب فقيل: لا تعبدون إلّا الله، الخ؛ وهو نهي في صورة الخبر. وإنما فعل ذلك دلالة على شدة الاهتمام به، كأن الناهي لا يشك في عدم تحقق ما نهى عنه في الخارج، ولا يرتاب في أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهي عن نهيه، فلا يوقع الفعل قطعاً وكذا قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين﴾، كل ذلك أمر في صورة الخبر.

ثم إن الانتقال الى الخطاب من قبل الحكاية أعطى فرصه للانتقال الى أصل الكلام، وهو خطاب بني إسرائيل لمكان الإتصال في قوله: وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ثم توليتم، الخ؛ وانتظم بذلك السياق.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، امر او خبر بمعنى الامر والتقدير واحسنوا بالوالدين إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين، أو التقدير: وتحسنون بالوالدين إحساناً، الخ؛ وقد رتب موارد الإحسان أخذاً من الأهم والأقرب الى المهم والأبعد فقرابة الانسان أقرب إليه من غيرهم، والوالدان وهما الأصل الذي تنكي عليه وتقوم به شجرة وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام، وفي غير القرابة أيضاً اليتامى احق بالإحسان لصغرهم وفقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين. هذا وقوله: واليتامى، اليتيم من مات أبوه، ولا يقال لمن ماتت أمه يتيم. وقيل اليتيم في الإنسان إنما تكون من جهة الأب، وفي غير الإنسان من سائر الحيوان من جهة الأم وقوله تعالى: والمساكين، جمع مسكين وهو الفقير العادم

الذليل. وقوله تعالى: حسناً مصدر بمعنى الصفة جئ به للمبالغة. وفي بعض القرائات حسناً، بفتح الحاء والسين صفة مشبهة. والمعنى قولوا للناس حسناً، وهو كناية عن حسن المعاشرة مع الناس، كافرهم، ومؤمنهم ولا ينافي حكم القتال حتى تكون آية القتال ناسخة له لأن مورد القتال غير مورد المعاشرة فلا ينافي الأمر بحسن المعاشرة كما أن القول الخشن في مقام التأديب لا ينافي حسن المعاشرة.

قوله تعالى: ﴿لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ﴾، خبر في معنى الإنشاء نظير ما مر في قوله: لا تعبدون الا الله، والسفك الصبّ.

قوله تعالى: ﴿تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾، التظاهر هو التعارف، والظهير العون مأخوذ من الظهر لأن العون يلي ظهر الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ﴾، الضمير للشأن والقصة كقوله تعالى: قل هو الله أحد.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ﴾، أي ما هو الفرق بين الاخراج والفدية حيث أخذتم بحكم الفدية وتركتم حكم الإخراج وهما جميعاً في الكتاب، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنا﴾، التقفية الإتباع وإتيان الواحد قفاً الواحد.

قوله تعالى: ﴿وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ﴾، سيأتي الكلام فيه في سورة آل عمران.

قوله تعالى: ﴿وَقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف من الغلاف أي قلوبنا محفوظة تحت لفائف وأستار وحجب، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ (السجدة / ٥)، وهو كناية عن عدم امكان استماع ما يدعون اليه.

٨٩ ● وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكافِرينَ.

٩٠ ● بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللّٰهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ.

٩١ ● وإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللّٰهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَينا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللّٰهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ.

٩٢ ● وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ.

٩٣ ● وَإِذْ أَخَذْنا ميثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الخ: السياق يدل على أن هذا الكتاب هو القرآن.

وقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على وقوع تعرض بهم من كفار العرب، وأنهم كانوا يستفتحون أي يطلبون الفتح عليهم ببعثة النبي ﷺ وهجرته وأن ذلك الإستفتاح قد استمر منهم قبل الهجرة، بحيث كان الكفار من العرب أيضاً يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: كانوا، وقوله: فلما جاءهم ما عرفوا، أي عرفوا أنه هو بإنطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه كفروا.

وقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾ بيان لسبب كفرهم بعد العلم وأن السبب الوحيد في ذلك هو البغي والحسد، فقوله بغياً، مفعول مطلق نوعي. وقوله أن ينزل الله، متعلق به، وقوله تعالى: فباؤا بغضب على غضب، أي رجعوا بمصاحبته أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراة من قبل، والمعنى أنهم كانوا قبل البعثة والهجرة ظهيراً للنبي ﷺ ومستفتحاً به وبالكتاب النازل عليه، ثم لما نزل بهم النبي ﷺ ونزل عليه القرآن وعرفوا أنه هو الذي كانوا يستفتحون به وينتظرون قدومه هاج بهم الحسد، وأخذهم الإستكبار، فكفروا وأنكروا ما كانوا يذكرونه كما كانوا يكفرون بالتوراة من قبل، فكان ذلك منهم كفراً على كفر.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، أي يظهرون الكفر بما ورائه، وإلا فهم بالذي انزل إليهم وهو التوراة أيضاً كافرون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، الفاء للتفريع، والسؤال متفرع على قولهم: نؤمن بما انزل علينا، أي لو كان قولكم: نؤمن بما أنزل علينا حقاً وصدقاً فلم تقتلون أنبياء الله، ولم كفرتم بموسى بإتخاذ العجل، ولم قلتم عند أخذ الميثاق ورفع الطور: سمعنا وعصينا.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، الإشراف هو السقي، والمراد بالعجل حب العجل، وضع موضعه للمبالغة كأنهم قد أشربوا نفس العجل وبه يتعلق قوله في قلوبهم، ففي الكلام استعارتان أو استعارة ومجاز.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ﴾، بمنزلة أخذ النتيجة مما أورد عليهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى، والاستكبار بإعلام المعصية، وفيه معنى الاستهزاء بهم[1].

٩٤ • قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللّٰهِ خالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صادِقِينَ.

٩٥ • وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظالِمِينَ.

٩٦ • وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلىٰ حَيٰوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ.

٩٧ • قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٩٨ • مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ.

٩٩ • وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ﴾ الخ؛ لما كان قولهم: لن تمسنا النار إلّا أياماً معدودة، وقولهم: نؤمن بما أنزل علينا في جواب ما قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله يدلان بالالتزام على

---

١. البقرة ٨٩ ـ ٩٣: بحث روائي حول اليهود وتنبؤهم بظهور نبي الاسلام ﷺ؛ القسم، الحق والباطل.

دعويهم أنهم ناجون في الآخرة دون غيرهم وأن نجاتهم وسعادتهم فيها غير مشوبة بهلاك وشقاء لأنهم ليسوا بزعمهم بمعذبين إلّا أياماً معدودة وهي أيام عبادتهم للعجل، قابلهم الله تعالى خطاباً بما يظهر به كذبهم في دعويهم وانهم يعلمون ذلك من غير تردد وإرتياب فقال تعالى لنبيه: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ أي سعادة تلك الدار فإن من ملك داراً فإنما يتصرف فيها بما يستحسنه ويحبه ويحل منها بأجل ما يمكن وأسعده وقوله تعالى: ﴿عند الله﴾ أي مستقراً عنده تعالى وبحكمه وإذنه، فهو كقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ٩)، وقوله تعالى: ﴿خالصة﴾ أي غير مشوبة بما تكرهونه من عذاب أو هوان لزعمكم أنكم لا تعذبون فيها إلّا أياماً معدودة، قوله تعالى: ﴿من دون الناس﴾ وذلك لزعمكم بطلان كل دين إلّا دينكم، وقوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (الجمعة / ٦) وهذه مؤاخذة بلازم فطري بيّن الأثر في الخارج بحيث لا يقع فيه أدنى الشك وهو إن الإنسان بل كل موجود ذي شعور اذا خير بين الراحة والتعب إختار الراحة من غير تردد وتذبذب واذا خير بين حيوة وعيشة مكدرة مشوبة وأخرى خالصة صافية إختار الخالصة الهنيئة قطعاً ولو فرض إبتلائه بما كان يميل عنه الى غيره من حيوة شقية ردية أو عيشة منغصة لم يزل يتمنى الاخرى الطيبة الهنيئة فلا ينفك عن التحسر له في قلبه وعن ذكره في لسانه وعن السعي إليه في عمله.

فلو كانوا صادقين في دعويهم أن السعادة الخالصة الاخروية لهم دون غيرهم من الناس وجب أن يتمنوه جناناً ولساناً وأركاناً ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء والكفر بموسى ونقض المواثيق والله عليم بالظالمين.

قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن العمل فإن معظم العمل عند الحس يقع بواسطة اليد فيقدم بعد ذلك الى من ينتفع به أو يطلبه ففيه عنايتان نسبة التقديم الى الأيدي

دون أصحاب الأيدي وعد كل فعل عملاً للأيدي.

وبالجملة أعمال الأنسان وخاصة ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره وارتكز في باطنه والأعمال الطالحة والأفعال الخبيثة لا يكشف إلّا عن طوية خبيثة تأبى أن تميل الى لقاء الله والحلول في دار أوليائه.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، كالدليل المبين لقوله تعالى: ولن يتمنوه أبداً أي ويشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، أنهم أحرص الناس على هذه الحيوة الدنيا التي لا حاجب ولا مانع عن تمني الدار الآخرة إلّا الحرص عليها والإخلاد اليها، والتنكير في قوله تعالى: على حيوة للتحقير كما قال تعالى: ﴿وما هذه الحيوة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت / ٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الظاهر أنه عطف على الناس والمعنى ولتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

قوله تعالى: ﴿وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، الظاهر أن ما نافية وضمير هو إما للشأن والقصة وأن يعمر مبتدأ خبره قوله: بمزحزحه أي بمبعده، وإما راجع الى ما يدل عليه قوله: يود أحدهم، أي وما الذي يوده بمزحزحه من العذاب. وقوله تعالى: أن يعمر بيان له ومعنى الآية ولن يتمنوا الموت وأقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحيوة الحقيرة الرديه الصارفة عن تلك الحيوة السعيدة الطيبة تجدهم أحرص على الحيوة من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثاً ولا نشوراً يود أحدهم لو يعمر أطول العمر وليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر وهو عمر بالاخره محدود منته الى أمد وأجل.

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، أي اطول العمر وأكثره، فالألف كناية عن الكثرة وهو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الافرادي عند العرب والزائد عليه يعبر عنه بالتكرير والتركيب كمئة آلاف ومائة ألف وألف ألف.

قوله تعالى: ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ ﴾، البصير من أسمائه الحسنى ومعناه العلم بالمبصرات فهو من شعب إسم العليم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ ﴾ الخ: السياق يدل على أن الآية نزلت جواباً عما قالته اليهود وأنهم تأبوا واستنكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ، وعللوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحي إليه. والشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم في القرآن وفي جبريل معاً في الآيتين وما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به اولا: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله. وثانياً: أن القرآن مصدق لما في ايديهم من الكتاب الحق ولا معنى للإيمان بأمر والكفر بما يصدقه. وثالثاً: أن القرآن هدى للمؤمنين به، رابعاً: أنه بشرى وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية ويغمض عن البشرى ولو كان الآتي بذلك عدواً له.

وأجاب عن قولهم: إنا عدو جبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلّا إمتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال وسائر الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكذلك رسل الله لا شأن لهم إلّا بالله ومن الله سبحانه فبغضهم وإستعدائهم بغض وإستعداء لله ومن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لهم، والى هذين الجوابين تشير الآيتان.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ ﴾، فيه إلتفات من التكلم الى الخطاب وكان الظاهر أن يقال على قلبي، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه وتبليغه لرسول الله ﷺ إلّا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئاً وهو مأمور بالتبليغ.

قوله تعالى: ﴿ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه الدلالة

على علة الحكم كانه قيل: فإن الله عدو لهم لأنهم كافرون والله عدو للكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ﴾، فيه دلالة على علة الكفر وأنه الفسق فهم لكفرهم فاسقون ولا يبعد أن يكون اللام في قوله: الفاسقون للعهد الذكري، ويكون ذلك إشارة الى ما مر في أوائل السورة من قوله تعالى: وما يضل به إلّا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، الآية.

وأما الكلام في جبريل وكيفية تنزيله القرآن على قلب رسول الله ﷺ وكذا الكلام في ميكال والملائكة فسيأتي فيما يناسبه من المحل إنشاء الله[1].

١٠٠ ● أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

١٠١ ● وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿نَبَذَهُ﴾، النبذ الطرح.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، المراد به رسول الله ﷺ لا كل رسول كان يأتيهم مصدقاً لما معهم، لعدم دلالة قوله: ولما جائهم على الإستمرار بل إنما يدل على

---

١. البقرة ٩٤ - ٩٩: بحث روائي حول ملاقاة عدد من اليهود مع الرسول الكريم ﷺ: كيفية نوم النبي ﷺ؛ كيفية ادراك النبي ﷺ في النوم.

الدفعة، والآية تشير الى مخالفتهم للحق من حيث كتمانهم بشارة التوراة وعدم إيمانهم بمن يصدق ما معهم.

١٠٢ ● وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرِيهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ.

١٠٣ ● وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطينُ عَلى مُلْكِ﴾ الخ؛ قد اختلف المفسرون في تفسير الآية إختلافاً عجيباً لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد. فاختلفوا في مرجع ضمير قوله: إتبعوا، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان، أو الذين في عهد رسول الله ﷺ أو الجميع؟ واختلفوا في قوله: تتلوا، هل هو بمعنى تتبع الشياطين وتعمل به أو بمعنى تقرأ، أو بمعنى تكذب؟ واختلفوا في قوله: الشياطين، فقيل هم شياطين الجن وقيل شياطين

الإنس وقيل هما معاً، واختلفوا في قوله: على ملك سليمان، فقيل معناه في ملك سليمان، وقيل معناه في عهد ملك سليمان وقيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء في معنى على، وقيل معناه على عهد ملك سليمان، واختلفوا في قوله: ولكن الشياطين كفروا، فقيل إنهم كفروا بما إستخرجوه من السحر الى الناس وقيل إنهم كفروا بما نسبوه الى سليمان من السحر، وقيل إنهم سحروا فعبّر عن السحر بالكفر، واختلفوا في قوله: يعلمون الناس السحر، فقيل إنهم القوا السحر إليهم فتعلموه، وقيل إنهم دلوا الناس على إستخراج السحر وكان مدفوناً تحت كرسي سليمان فاستخرجوه وتعلموه، واختلفوا في قوله: وما أنزل على الملكين فقيل ما موصولة والعطف على قوله: ما تتلوه، وقيل ما موصولة والعطف على قوله: السحر أي يعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل ما نافية والواو إستينافيه أي ولم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود، واختلفوا في معنى الإنزال فقيل إنزال من السماء وقيل بل نجود الأرض وأعاليها، واختلفوا في قوله: الملكين، فقيل كانا من الملائكة السماء، وقيل بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام أن قرأناه، بكسر اللام كما قرئ كذلك في الشواذ، أو ملكين بفتح اللام أي صالحين، أو متظاهرين بالصلاح، إن قرأناه على ما قرأ به المشهور، وإختلفوا في قوله: ببابل، فقيل هي بابل العراق وقيل بابل دماوند، وقيل، من نصيبين الى رأس العين، وإختلفوا في قوله: وما يعلمان، فقيل علّم بمعناه الظاهر، وقيل علّم بمعنى اعلم، واختلفوا في قوله: فلا تكفر، فقيل لا تكفر بالعمل بالسحر، وقيل لا تكفر بتعلمه، وقيل بهما معاً، واختلفوا في قوله: فيتعلمون منهما، فقيل أي من هاروت وماروت، وقيل أي من السحر والكفر، وقيل بدلا مما علماه الملكان بالنهي الى فعله، واختلفوا في قوله: ما يفرقون به بين المرء وزوجه، فقيل أي يوجدون به حباً وبغضاً بينهما، وقيل إنهم يغرون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك فيفرق بينهما إختلاف الملة والنحلة وقيل إنهم يسعون بينهما بالنميمة والوشاية فيؤل الى الفرقة، فهذه نبذة من الإختلاف في تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآيه وجمله،

وهناك إختلافات اخر في الخارج من القصة في ذيل الآية وفي نفس القصة، وهل هي قصة واقعة أو بيان على سبيل التمثيل؟ أو غير ذلك؟ واذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الإحتمالات في البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات الى كمية عجيبة وهي ما يقرب من الف الف ومائتين وستين الف احتمال ($٤ \times ٣^٩ \times ٢^٤$)!.

وهذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآية بين مذاهب وإحتمالات تدهش العقول وتحير الألباب، والكلام بعد متكٍ على اريكة حسنه متجمل في أجمل جماله متحل بحلي بلاغته وفصاحته وسيمر بك نظيرة هذه الآية وهي تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ (هود / ١٧).

والذي ينبغي أن يقال: أن الآية بسياقها تتعرض لشأن آخر من شئون اليهود وهو تداول السحر بينهم، وأنهم كانوا يستندون في أصله الى قصة معروفة أو قصتين معروفتين عندهم فيها ذكر من أمر سليمان النبي والملكين ببابل هاروت وماروت، فالكلام معطوف على ما عندهم من القصة التي يزعمونها إلّا أن اليهود كما يذكره عنهم القرآن أهل تحريف وتغيير في المعارف والحقائق فلا يؤمنون ولا يؤمن من أمرهم أن يأتوا بالقصص التاريخية محرفة مغيرة على ما هو دأبهم في المعارف يميلون كل حين الى ما يناسبه من منافعهم في القول والفعل وفيما يلوح من مطاوي جمل الآية كفاية، وكيف كان فيلوح من الآية أن اليهود كانوا يتناولون بينهم السحر ينسبونه الى سليمان زعماً منهم أن سليمان عليه السلام انما ملك الملك وسخر الجن والإنس والوحش والطير، واتى بغرائب الامور وخوارقها بالسحر الذي هو بعض ما في أيديهم، وينسبون بعضه الآخر الى الملكين ببابل هاروت وماروت فرد عليهم القرآن بأن سليمان عليه السلام لم يكن يعمل بالسحر، كيف والسحر كفر بالله وتصرف في الكون على خلاف ما وضع الله العادة عليه وأظهره على خيال الموجودات الحية وحواسها؟ ولم يكفر سليمان عليه السلام وهو نبي معصوم، وهو قوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ وقوله

تعالى: ﴿ولقد علموا لمن إشتريه ماله في الآخرة من خلاق﴾ فسليمان عليه السلام أعلى كعباً وأقدس ساحة من أن ينسب اليه السحر والكفر وقد استعظم الله قدره في مواضع من كلامه في عدة من السور المكية النازلة قبل هذه السورة كسورة الانعام والانبياء والنمل وسورة (ص) وفيها أنه كان عبداً صالحاً ونبياً مرسلا آتاه الله العلم والحكمة ووهب له من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده فلم يكن بساحر بل هو من القصص الخرافية والأساطير التي وضعتها الشياطين وتلوها وقرؤها على أوليائهم من الإنس وكفروا بإضلالهم الناس بتعليم السحر. ورد عليهم القرآن في الملكين ببابل هاروت وماروت بأنه وإن انزل عليهما ذلك ولا ضير في ذلك لأنه فتنة وامتحان إلهي كما ألهم قلوب بني آدم وجوه الشر والفساد فتنة وامتحاناً وهو من القدر، فهما وإن أنزل عليهما السحر إلّا أنهما ما كانا يعلمان من أحد إلّا ويقولان له إنما نحن فتنة فلا تكفر باستعمال ما تتعلمه من السحر في غير مورده كإبطال السحر والكشف عن بغي أهله وهم مع ذلك يتعلمون منهما ما يفسدون به اصلح ما وضعه الله في الطبيعة والعادة، فيفرقون به بين المرء وزوجه إبتغاءً للشر والفساد ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، فقوله تعالى: واتبعوا أي اتبعت اليهود الذين بعد عهد سليمان بتوارث الخلف عن السلف ما تتلوا، أي تضع وتكذب الشياطين من الجن على ملك سليمان والدليل على أن تتلوا بمعنى تكذب تعديه بعلى وعلى أن الشياطين هم الجن كون هؤلاء تحت تسخير سليمان ومعذبين بعذابه، وبذلك كان عليه السلام يحبسهم عن الإفساد. قال تعالى: ﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾ (الأنبياء / ٨٢). وقال تعالى: ﴿فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ (سبأ / ١٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، أي والحال أن سليمان لم يسحر حتى يكفر ولكن الشياطين كفروا، والحال انهم يضلون الناس ويعلمونه السحر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾، اي واتبعت اليهود ما انزل بالإخطار والإلهام على الملكين

ببابل هاروت وماروت، والحال انهما ما يعلمان السحر من أحد حتى يحذراه العمل به ويقولا انما نحن فتنة لكم وامتحان تمتحنون بنا بما نعلمكم فلا تكفر باستعماله.

قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما﴾، أي من الملكين وهما هاروت وماروت، ما يفرقون به أي سحراً يفرقون بعمله وتأثيره بين المرء وزوجه.

قوله تعالى: ﴿وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، دفع لما يسبق الى الوهم إنهم بذلك يفسدون أمر الصنع والتكوين ويسبقون تقدير الله ويبطلون أمره فدفعه بأن السحر نفسه من القدر لا يؤثر إلّا باذن الله فما هم بمعجزين، وانما قدم هذه الجملة على قوله: ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، لأن هذه الجملة أعني: ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وحدهما مشتملة على ذكر التأثير، فأردفت بأن هذا التأثير بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرىٰهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، علموا ذلك بعقولهم لأن العقل لا يرتاب في أن السحر أشنع منابع الفساد في الاجتماع الأنساني وعلموا ذلك أيضاً من قول موسى فإنه القائل: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه / ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ﴾، اي إنهم مع كونهم عالمين بكونه شراً لهم مفسداً لآخرتهم غير عالمين بذلك حيث لم يعملوا بما علموا فإن العلم اذا لم يهد حامله الى مستقيم الصراط كان ضلالاً وجهلاً لا علماً، قال تعالى: ﴿أفرأيت من إتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ (الجاثية / ٢٣).

فهؤلاء مع علمهم بالأمر ينبغي أن يتمنى المتمنى لهم العلم والهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الخ؛ أي اتعبوا الايمان والتقوى، بدل اتباع اساطير الشياطين، والكفر بالسحر، وفيه دليل على أن الكفر بالسحر كفر في مرتبة العمل كترك الزكوة، لا كفر في مرتبة الاعتقاد، ولو كان السحر كفراً في الإعتقاد لقال تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا لمثوبة﴾ الخ؛ واقتصر على الإيمان ولم يذكر التقوى فاليهود آمنوا ولكن لما لم يتقوا

ولم يرعوا محارم الله، لم يعبأ بإيمانهم فكانوا كافرين.

قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾. أي من المثوبات والمنافع التي يرومونها بالسحر ويقتنونها بالكفر هذا[1][2][3].

١٠٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ.

١٠٥ ● ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أول مورد في القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظة يا أيها الذين آمنوا، وهو واقع في القرآن خطاباً في نحو من خمسة وثمانين موضعاً والتعبير عن المؤمنين بلفظة الذين آمنوا بنحو الخطاب او بغير الخطاب مما يختص بهذه الأمة. وأما الامم السابقة فيعبر عنهم بلفظة القوم كقوله: ﴿قوم نوح وقوم هود﴾ وقوله: ﴿قال يا قوم

---

١. البقرة ١٠٢ ـ ١٠٣: بحث روائي حول سليمان عليه السلام ووفاته؛ السحر؛ هاروت وماروت وكوكب الزهرة، موضوع صحة الروايات وسقمها.

٢. البقرة ١٠٢ ـ ١٠٣: بحث فلسفي حول الاعمال الخارقة للعادة، تأثير العلم الجازم؛ احضار الارواح؛ قدرة النفس، الفرق بين الاعمال الخارقة للعادة من قبل الناس العاديين وبين معاجز الأنبياء عليهم السلام.

٣. البقرة ١٠٢ ـ ١٠٣: بحث علمي حول العلوم الغريبة مثل: السيميا، اللاميا، الهيميا، الريميا؛ علم الاعداد والاوفاق؛ الخافية، التنويم المغناطيسي؛ احضار الارواح.

أرأيتم إن كنت على بينة﴾ الآية؛ وقوله: ﴿اصحاب مدين وأصحاب الرس﴾، وبني إسرائيل. ويا بني إسرائيل، فالتعبير بلفظة الذين آمنوا مما يختص التشرف به بهذه الامة، غير أن التدبر في كلامه تعالى يعطي أن التعبير بلفظة الذين آمنوا يراد به في كلامه تعالى غير ما يراد بلفظة المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون﴾ (النور / ٣١)، بحسب المصداق، قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدنالتي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المؤمن / ٧، ٨)، فجعل استغفار الملائكة وحملة العرش أولاً للذين آمنوا ثم بدله ثانياً من قوله: للذين تابوا واتبعوا، والتوبة هي الرجوع، ثم علق دعائهم بالذين آمنوا وعطف عليهم آبائهم وذرياتهم ولو كان هؤلاء الحكي عنهم بالذين آمنوا هم أهل الايمان برسول الله ﷺ، كيف ما كانوا، كان الذين آمنوا شاملاً للجميع من الآباء والأبناء والازواج ولم يبق للعطف والتفرقة محل وكان الجميع في عرض واحد ووقعوا في صف واحد. ويستفاد هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى: ﴿ان الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل إمرء بما كسب رهين﴾ (الطور / ٢١)، فلو كان ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان مصداقاً للذين آمنوا في كلامه تعالى لم يبق للالحاق وجه، ولو كان قوله: ﴿واتبعتهم ذريتهم﴾ قرينة على ارادة اشخاص خاصة من الذين آمنوا وهم كل جمع من المؤمنين بالنسبة الى ذريتهم، المؤمنين لم يبق للالحاق أيضاً وجه، ولا لقوله، وما ألتناهم من عملهم من شيء، وجه صحيح الا في الطبقة الأخيرة التي لا ذرية بعدهم يتبعونهم بإيمان فهم يلحقون بآبائهم، وهذا وان كان معنى معقولاً الا أن سياق الآية وهو سياق التشريف يأبى ذلك لعود المعنى على ذلك التقدير الى مثل معنى قولنا: المؤمنون بعضهم من بعض أو بعضهم يلحق ببعض وهم جميعاً في صف واحد من غير شرافة

للبعض على البعض ولا للمتقدم على المتأخر فأن الملاك هو الإيمان وهو في الجميع واحد وهذا مخالف لسياق الآية الدال على نوع كرامة وتشريف للسابق بالحاق ذريته به. فقوله: وإتبعتهم ذريتهم بايمان، قرينة على إرادة أشخاص خاصة بقوله: الذين آمنوا، وهم السابقون الأولون في الإيمان برسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في يوم العسرة فكلمة الذين آمنوا كلمة تشريف يراد بها هؤلاء. ويشعر بذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿للفقراء والمهاجرين، الى أن قال: والذين تبوّءوُ الدار والايمان من قبلهم، الى ان قال: والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا إغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ (الحشر / ١٠)، فلو كان مصداق قوله: الذين آمنوا، عين مصداق قوله: الذين سبقونا بالإيمان، كان من وضع الظاهر موضع المضمر من غير وجه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا﴾، أي بدلوا قول (راعنا) من قول (انظرنا) ولئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفراً وللكافرين عذاب أليم ففيه نهي شديد عن قول راعنا وهذه كلمة ذكرتها آية أُخرى وبينت معناها في الجملة وهي قوله تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن موضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعناً في الدين﴾ (النساء / ٤٦)، ومنه يعلم ان اليهود كانت تريد بقوله للنبي ﷺ راعنا نحواً من معنى قوله: اسمع غير مسمع ولذلك ورد النهي عن خطاب رسول الله ﷺ بذلك وحينئذ ينطبق على ما نقل: أن المسلمين كانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك اذا القى اليهم كلاماً يقولون راعنا يا رسول الله ـ يريدون أمهلنا وانظرنا حتى نفهم ما تقول ـ وكانت اللفظة تفيد في لغة اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك يظهرون التأدب معه وهم يريدون الشتم ومعناه عندهم اسمع لا اسمعت فنزل: من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا، الآية؛ ونهى الله المؤمنين عن الكلمة وأمرهم أن يقولوا ما في معناه وهو انظرنا فقال: لا تقولوا راعنا وقولوا

أنظرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾، يريد المتمردين من هذا النهي وهذا أحد الموارد التي أُطلق فيها الكفر على ترك التكاليف الفرعية.

قوله تعالى: ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾، لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصة كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقة مسوقة لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشارة الى العلة، وهو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهلية الكتاب مع أن ذلك ضنّة منهم بما لا يملكونه، ومعارضة مع الله سبحانه في سعة رحمته وعظم فضله، ولو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين في بعض الخصائل، وهم على غيظ من الإسلام، وربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقة كقوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً أو نصارى﴾ (البقرة / ١١١)، وقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ (البقرة / ١١٣).

١٠٦ • مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٠٧ • أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، النسخ هو الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل اذا ازالته

وذهبت به. قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول ولا نبي الا إذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ (الحج / ٥١)، ومنه أيضاً قولهم: نسخت الكتاب اذا نقل من نسخة الى اخرى فكأن الكتاب أُذهب به وأُبدل مكانه ولذلك بدّل لفظ النسخ من التبديل في قوله تعالى: ﴿واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (النحل / ١٠١)، وكيف كان فالنسخ لا يوجب زوال نفس الآية من الوجود وبطلان تحققها بل الحكم حيث علق بالوصف وهو الآية والعلامة مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى: ألم تعلم، الخ؛ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو اذهاب اثر الآية من حيث أنها آية، اعني إذهاب كون الشيء آية وعلامة مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله وهذا هو المستفاد من إقتران قوله: ننسها بقوله: ما ننسخ، والإنساء إفعال من النسيان وهو الإذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الإذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها.

ثم أن كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن اتيان مثله، والأحكام والتكاليف الإلهية آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى، والموجودات العينية آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه، وأنبياء الله واوليائه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول والفعل وهكذا، ولذلك كانت الآية تقبل الشدة والضعف قال الله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (النجم / ١٨).

ومن جهة اخرى الآيه ربما كانت في انها آية ذات جهة واحدة وربما كانت ذات جهات كثيرة، ونسخها وإزالتها كما يتصور بجهته الواحدة كاهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض اذا كانت ذات جهات كثيرة، كالآية من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعي وتبقى

من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾. قرء بضم النون وكسر السين من الإنساء بمعنى الاذهاب عن العلم والذكر وقد مر توضيحه، وهو الكلام مطلق او عام غير مختص برسول الله ﷺ بل غير شامل له أصلاً لقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلّا ما شاء الله﴾ (الأعلى / ٧)، وهي آية مكية وآية النسخ مدنيه فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى: فلا تنسى وأما اشتماله على الإستثناء بقوله: إلا ما شاء الله فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى: ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ (هود / ١٠٩)، جيء بها لإثبات بقاء القدرة مع الفعل على تغيير الأمر، ولو كان الاستثناء موقوفاً لبيان الوقوع في الخارج لم يكن للامتنان بقوله: فلا تنسى معنى، اذ كل ذي ذكر وحفظ من الإنسان وسائر الحيوان كذلك يذكر وينسى وذكره ونسيانه كلاهما منه تعالى وبمشيته، وقد كان رسول الله ﷺ كذلك قبل هذا الإقراء الإمتناني الموعود بقوله: سنقرئك يذكر بمشيّة الله وينسى بمشيّة الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلّا إثبات إطلاق القدرة أي سنقرئك فلا تنسى أبداً والله مع ذلك قادر على إنسائك هذا. وقرء قوله: ننسأها بفتح النون والهمزة من نسيء نسيئاً اذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا. ما ننسخ من آية بإزالتها أو نؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها ولا يوجب التصرف الإلهي بالتقديم والتأخير في آياته فوت كمال أو مصلحة، والدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهي يكون دائماً على الكمال والمصلحة هو قوله: بخير منها أو مثلها فأن الخيرية إنما يكون في كمال شيء موجود أو مصلحة حكم مجعول ففي ذلك يكون موجود مماثلاً لآخر في الخيرية أو أزيد منه في ذلك فافهم[1].

---

١. البقرة ١٠٦ـ١٠٧: بحث روائي حول النسخ والناسخ والمنسوخ.

١٠٨ ● أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ.

١٠٩ ● وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١١٠ ● وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وآتُوا الزَّكوةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

١١١ ● وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارىٰ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

١١٢ ● بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

١١٣ ● وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

١١٤ ● وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللّٰهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرابِها أُولٰئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ.

١١٥ ● وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، سياق الآية يدل على أن بعض المسلمين ـ ممن آمن بالنبي ـ سئل النبي اموراً على حد سؤال اليهود نبيهم موسى ﷺ والله سبحانه وبّخهم على ذلك في ضمن ما يوبّخ اليهود بما فعلوا مع موسى والنبيين من بعده، والنقل يدل على ذلك.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي مستوى الطريق.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، نقل أنه حي بن الأخطب وبعض من معه من متعصبي اليهود.

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، قالوا: إنها آية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، فيه كما مر إيماء الى حكم سيشرّعه الله تعالى في حقهم، ونظيره قوله تعالى: في الآية الاتية ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين﴾، مع قوله تعالى: ﴿إن المشركين نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ (التوبة / ٢٩)، وسيأتي الكلام في معنى الأمر في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، شروع في إلحاق النصارى باليهود تصريحاً وسوق الكلام في بيان جرائمهم معاً.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، هذه كرّة ثالثة عليهم في بيان أن السعادة لا تدور مدار الإسم ولا كرامة لأحد على الله إلّا بحقيقة الإيمان والعبودية. اوليها قوله: ﴿إن

الذين آمنوا والذين هادوا﴾ (البقرة / ٦٢)، وثانيتها، قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾ (البقرة / ٨١)، وثالثتها، هذه الآية ويستفاد من تطبيق الآيات تفسير الايمان بإسلام الوجه الى الله وتفسير الإحسان بالعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أي وهم يعملون بما أُوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك والكتاب يبين لهم الحق والدليل على ذلك قوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ فالمراد بالذين لا يعملون غير أهل الكتاب من الكفار ومشركي العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء أو أن اهل الكتاب ليسوا على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ﴾، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكة قبل الهجرة فإن هذه الآيات نزلت في اوائل ورود رسول الله ﷺ المدينة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ﴾، يدل على مضى الواقعة وإنقضائها لمكان قوله: كان، فينطبق على كفار قريش وفعالهم بمكة كما ورد به النقل أن المانعين كفار مكة، كانوا يمنعون المسلمين عن الصلوة في المسجد الحرام والمساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، المشرق والمغرب وكل جهة من الجهات حيث كانت في الله بحقيقة الملك التي لا تقبل التبدل والانتقال، لا كالملك الذي بيننا معاشر أهل الاجتماع، حيث ان ملكه تعالى مستقر على ذات الشيء محيط بنفسه وأثره، لا كملكنا المستقر على أثر الاشياء ومنافعها، لا على ذاتها، والملك لا يقوم من جهة انه ملك إلّا بمالكه فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها وهو معها، فالمتوجه الى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى.

ولما كان المشرق والمغرب إضافيتين شملتا سائر الجهات تقريباً اذ لا يبقى خارجاً منهما إلّا نقطتا الجنوب والشمال الحقيقتان ولذلك لم يقيد إطلاق قوله فأينما، بهما بأن يقال: أينما تولوا

منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: ولله المشرق والمغرب بمنزلة قولنا: ولله الجهات جميعاً وإنما اخذ بها لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس وغروبها وسائر الأجرام العلوية المنيرة.

قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فيه وضع علة الحكم في الجزاء موضع الجزاء، والتقدير ـ والله أعلم ـ فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك، ويدل على هذا التقدير تعليل الحكم قوله تعالى: إن الله واسع عليم، أي إن الله واسع الملك والاحاطة عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالو احد من الإنسان أو سائر الخلق الجسماني لا يتوجه إليه إلّا اذا كان في جهة خاصة، ولا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلّا من جهة خاصة كقدامه فقط، فالتوجه الى كل جهة توجه الى الله، معلوم له سبحانه.

واعلم أن هذا توسعة في القبلة من حيث الجهة لا من حيث المكان، والدليل عليه قوله: ولله المشرق والمغرب.

١١٦ ● وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ.

١١٧ ● بَدِيعُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ يعطي السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقالة هم اليهود والنصارى: اذ قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن

وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعني قولهم: اتخذ الله ولداً أول ما قالوها تشريفاً لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحبائه ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين فأضرب عن قولهم بقوله: بل له ما في السموات، الخ؛ ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه، فإن اتخاذ الولد هو أن يجزي موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصيّره بتربية تدريجية فرداً من نوعه مماثلا لنفسه، وهو سبحانه منزه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذلة وجودية، فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له مماثلاً نوعياً بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقاً سابقاً، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج الى تربية وتدريج، فقوله: له ما في السموات والأرض كل له قانتون برهان تام، وقوله: بديع السموات والأرض اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون برهان آخر تام، هذا. ويستفاد من الآيتين:

اولاً: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والأرض.

وثانياً: ان فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، ان كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢)، وقال تعالى: ﴿وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر / ٥٠)، وتفصيل القول في هذه الحقيقة القرآنية، سيأتي إنشاء الله في ذيل قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً﴾ (يس / ٨٢)، فانتظر.

قوله تعالى: ﴿سُبْحانَهُ﴾ مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلّا مضافاً وهو مفعول

مطلق لفعل محذوف أي سبحته تسبيحاً، فحذف الفعل وأُضيف المصدر الى الضمير المفعول وأُقيم مقامه. وفي الكلمة تأديب إلهي بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾، القنوت العبادة والتذلل.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمٰواتِ﴾، بداعة الشيء كونه لا يماثل غيره مما يعرف ويؤنس به.

قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾، تفريع على قول كن وليس في مورد الجزاء حتى يجزم[1].

١١٨ ● وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

١١٩ ● إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ هم المشركون غير أهل الكتاب ويدل عليه المقابلة السابقه في قوله تعالى: وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، قالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهم يتلون الكتاب كذلك، قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، الآية؛ ففي تلك الآيه الحق أهل الكتاب في قولهم بالمشركين والكفار من العرب، وفي هذه الآية الحق

١. البقرة ١١٦ ـ ١١٧: بحث علمي وفلسفي حول افتراق الموجودات عن بعضها.

المشركين والكفار بهم، فقال: وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا، الآية؛ كذلك قال الذين من قبلهم ـ وهم أهل الكتاب واليهود من بينهم ـ حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام، فهم والكفار متشابهون في أفكارهم وآرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك وبالعكس، تشابهت قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جواب عن قول الذين لا يعلمون، الخ؛ والمراد ان الايات التي يطالبون بها مأتيه مبينة، ولكن لا ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله، وأما هؤلاء الذين لا يعلمون، فقلوبهم محجوبة بحجاب الجهل، مؤفة بآفات العصبية والعناد، وما تغني الآيات عن قوم لا يعلمون. ومن هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وآله والإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيراً ونذيراً، فلتطب به نفسه، وليعلم ان هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع في هدايتهم ونجاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، يجري مجرى قوله: ﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة / ٦).

١٢٠ ● وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

١٢١ ● الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

١٢٢ ● يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي

فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ.

١٢٣ ● وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارىٰ﴾، رجوع الى الطائفتين بعد الالتفات الى غيرهم، وهو بمنزلة جمع أطراف الكلام على تفرقها وتشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات والتوبيخات لهم يرجع الى رسوله ويقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم ونظموها بآرائهم، ثم أمره بالرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي ان الاتباع إنما هو لغرض الهدى ولا هدى إلّا هدى الله والحق الذي يجب أن يتبع وغيره ـ وهو ملتكم ـ ليس بالهدى، فهي أهوائكم ألبستموها لباس الدين وسميتموها بإسم الملة. ففي قوله: قل ان هدى الله، الخ؛ جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم اضيف الى الله فأفاد صحة الحصر في قوله: ان هدى الله هو الهدى على طريق قصر القلب، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، وأفاد ذلك كونها أهواءاً لهم، واستلزم ذلك كون ما عند النبي علماً، وكون ما عندهم جهلا، واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ فانظر الى ما في هذا الكلام من اصول البرهان العريقة، ووجوه البلاغة على إيجازه، وسلاسة البيان وصفائه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يمكن أن تكون الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله: أولئك يؤمنون به جواباً للسؤال المقدر الذي يسوق الذهن إليه قوله تعالى: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، الخ؛ وهو انهم اذا لم يكن مطمع في إيمانهم، فمن ذا الذي يؤمن

منهم؟ وهل توجيه الدعوة إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب والحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بكتابهم فيؤمنون بك، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أياما كان، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب الذي هو القرآن. وعليهذا: فالقصر في قوله: أولئك يؤمنون به قصر افراد والضمير في قوله: به على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام والمراد بالذين اوتوا الكتاب قوم من اليهود والنصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، وبالكتاب التوراة والإنجيل، وان كان المراد بهم المؤمنين برسول الله ﷺ وبالكتاب القرآن، فالمعنى، ان الذين آتيناهم القرآن، وهم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

قوله تعالى: ﴿يا بَني إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا﴾، الى آخر الآيتين ارجاع ختم الكلام الى بدئه، وآخره الى اوله، وعنده يختتم شطر من خطابات بني اسرائيل.

١٢٤ ● وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

بيان:

فقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ﴾ الخ: اشارة الى قصة اعطائه الإمامة وحبائه بها، والقصة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره وتولد إسماعيل، وإسحق له وإسكانه إسماعيل وأمه بمكة، كما تنبه به بعضهم ايضاً، والدليل على ذلك قوله عليه السلام على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: إني جاعلك للناس إماماً، ومن ذريتي، فإنه عليه السلام قبل مجئ الملائكة ببشارة إسماعيل، وإسحق، ماكان يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالى: ﴿ونبئهم

عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال: إنا منكم وجلون، قالوا: لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم، قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون؟ قالوا، بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾ (الحجر / ٥٥)، وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالى في قصة بشارته أيضاً اذ قال تعالى: ﴿وامرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، قالت، يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ (هود / ٧٣)، وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطييب أنفسهما فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذريّة، وقول ﷺ: ومن ذريتي، بعد قوله تعالى: إني جاعلك للناس إماماً، قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له ادنى دربة بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

على أن قوله تعالى: واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلك للناس إماماً، يدل على أن هذه الإمامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات وليست هذه الا أنواع البلاء التي ابتلى عليه السلام بها في حيوته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضية ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿قال يا بنيّ اني أرى في المنام أني أذبحك، الى ان قال: ان هذا لهو البلاء المبين﴾ (الصافات / ١٠٦).

والقضية انما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل، واسحق، ان ربي لسميع الدعاء﴾ (إبراهيم / ٤١).

ولنرجع الى الفاظ الآيه فقوله: واذ ابتلى ابراهيم ربه، الابتلاء والبلاء بمعنى واحد تقول: ابتليته وبلوته بكذا، أي امتحنته واختبرته، اذا قدمت اليه أمراً أو أوقعته في حدث فاختبرته

بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتداء إلّا بعمل فإن الفعل هو الذي يظهر به الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ (ن / ١٧)، وقال تعالى: ﴿ان الله مبتليكم بنهر﴾ (البقرة / ٢٤٩).

فتعلق الابتلاء، في الاية بالكلمات ان كان المراد بها الأقوال انما هو من جهة تعلقها بالعمل وحكايتها عن العهود والأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة / ٨٣)، أي عاشروهم معاشرة جميلة وقوله: بكلمات فأتمهن، الكلمات وهي جمع كلمة وإن أُطلقت في القرآن على العين الخارجي دون اللفظ والقول، كقوله تعالى: ﴿وكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾ (آل عمران / ٤٥)، إلا أن ذلك بعناية إطلاق القول كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٥٩).

وجميع ما نسب إليه تعالى من الكلمة في القرآن اريد بها القول كقوله تعالى: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ (الأنعام / ٣٤)، وقوله: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ (يونس / ٩٦)، وقوله: ﴿يحق الحق بكلماته﴾ (الأنفال / ٧)، وقوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ (يونس / ٩٦)، وقوله: ﴿ولكن حقت كلمة العذاب﴾ (الزمر / ٧١)، وقوله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا إنهم أصحاب النار﴾ (المؤمن / ٦)، وقوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم﴾ (الشورى / ١٤)، وقوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ (التوبة / ٤١)، وقوله: ﴿قال فالحق، والحق أقول﴾ (ص / ٨٤)، وقوله: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون﴾ (النحل / ٤٠)، فهذه ونظائرها أُريد بها القول بعناية أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما في الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما في

الانشاء ولذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾ (الأنعام / ١١٥)، وقوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ (الأعراف / ١٣٦)، كأن الكلمة اذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل وتعود صدقاً.

وهذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعيّة لها حكم، والمعنايات الكلامية اللفظية حكم آخر. فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول وكلام له لاشتماله على غرض القول والكلام وتضمنه غاية الخبر والنبأ، والأمر والنهي. وإطلاق القول والكلمة على مثل ذلك شائع في الاستعمال اذا اشتمل على ما يؤديه القول والكلمة، تقول: لأفعلن كذا وكذا، لقول قلته وكلمة قدمتها، ولم تقل قولاً، ولا قدمت كلمة، وإنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعة شفيع أو وهن إرادة، ومنه قول عنترة:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات والعزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، وبالاستراحة إن غلب.

اذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى: بكلمات، قضايا ابتلى بها وعهود إلهية اريدت منه، كابتلائه بالكواكب والأصنام، والنار والهجرة وتضحيته بابنه وغير ذلك ولم يبين في الكلام ما هي الكلمات لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: قال إني جاعلك للناس إماماً، من حيث ترتبه على الكلمات تدل على انها كانت أموراً تثبت بها ليافته ﷺ لمقام الإمامة.

فهذه هي الكلمات وأما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: أتمهن راجعاً الى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه ﷺ ما أُريد منه، وامتثاله لما أمر به، وإن كان الضمير راجعاً إليه تعالى

كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما اريد منه، ومساعدته على ذلك. وأما ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: قال إني جاعلك للناس إماماً، الى آخر الآيات فمعنى لا ينبغي الركون اليه اذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، أي مقتدى يقتدى بك الناس. ويتبعونك في أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الذي يقتدي ويأتم به الناس، ولذلك ذكر عدة من المفسرين، أن المراد به النبوة، لأن النبي يقتدي به امته في دينهم، قال تعالى: ﴿وما ارسلنا من رسول، الا ليطاع بإذن الله﴾ (النساء / ٦٣)، لكنه في غاية السقوط.

اما اولا: فلأن قوله: إماماً، مفعول ثان لعامله الذي هو قوله: جاعلك واسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى الماضي، وانما يعمل اذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله، إني جاعلك للناس إماماً، وعد له عليه السلام بالإمامة في ما سيأتي، مع أنه وحي لا يكون إلّا مع نبوّة، فقد كان عليه السلام نبياً قبل تقلده الإمامة. فليست الإمامة في الآية بمعنى النبوّة (ذكره بعض المفسرين).

واما ثانياً: فلأنا بيّنا في صدر الكلام: أن قصة الامامة، إنما كانت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشارة له بإسحق وإسماعيل، وإنما جائت الملائكة بالبشارة في مسيرهم الى قوم لوط وإهلاكهم، وقد كان إبراهيم حينئذ نبياً مرسلاً، فقد كان نبياً قبل أن يكون إماماً، فإمامته غير نبوّته.

ومنشأ هذا التفسير وما يشابهه الابتذال الطاري على معاني الألفاظ الواقعة في القرآن الشريف في أنظار الناس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن ومن جملة تلك الألفاظ لفظ الإمامة، ففسره قوم: بالنبوة والتقدم والمطاعية مطلقاً، وفسره آخرون بمعنى الخلافة أو الوصاية، أو الرئاسة في امور الدين والدنيا ـ وكل ذلك لم يكن ـ فإن النبوة معناها: تحمّل النبأ من جانب الله، والرسالة معناها تحمل التبليغ، والمطاعية والاطاعة قبول الإنسان ما يراه أو

يأمره غيره وهو من لوازم النبوّة والرسالة، والخلافة نحو من النيابة، وكذلك الوصاية، والرئاسة نحو من المطاعية وهو مصدرية الحكم في الاجتماع وكل هذه المعاني غير معنى الإمامة التي هي كون الإنسان بحيث يقتدى به غيره بأن يطبق أفعاله وأقواله على أفعاله وأقواله بنحو التبعية، ولا معنى لأن يقال لنبي من الأنبياء مفترض الطاعة إني جاعلك للناس نبياً، أو مطاعاً فيما تبلغه بنبوتك، أو رئيساً تأمر وتنهى في الدين، أو وصياً، أو خليفة في الأرض تقضي بين الناس في مرافعاتهم بحكم الله.

وليست الإمامة تخالف الكلمات السابقة وتختص بموردها بمجرد العناية اللفظية فقط، اذ لا يصح أن يقال لنبي ـ من لوازم نبوته كونه مطاعاً بعد نبوته ـ إني جاعلك مطاعاً للناس بعدما جعلتك كذلك، ولا يصح ان يقال له ما يؤل اليه معناه وان اختلف بمجرد عناية لفظية، فإن المحذور هو المحذور، وهذه المواهب الإلهية ليست مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقية، فلمعنى الإمامة حقيقة وراء هذه الحقائق.

والذي نجده في كلامه تعالى: إنه كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية تعرض التفسير، قال تعالى في قصص إبراهيم عليه السلام: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (الأنبياء / ٧٣)، وقال سبحانه: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السجدة / ٢٤)، فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله، وهذا الأمر هو الذي بين حقيقته في قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣)، وقوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر / ٥٠)، وسنبين في الآيتين ان الأمر الإلهي وهو الذي تسميه الاية المذكورة بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهر من قيود الزمان والمكان خال من التغير والتبدل وهو المراد بكلمة ـ كن ـ الذي ليس إلّا وجود الشيء العيني، وهو

قبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجهي الأشياء، فيه التغير والتدريج والانطباق على قوانين الحركة والزمان، وليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله إنشاء الله العزيز.

وبالجملة فالامام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إياهم الى المطلوب بأمر الله دون مجرد إرائة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي الى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (إبراهيم / ٤)، وقال تعالى: في مؤمن آل فرعون. ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد﴾ (المؤمن / ٣٨). وقال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (التوبة / ١٢٢). وسيتضح لك هذا المعنى مزيد اتضاح.

ثم انه تعالى بين سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ الاية؛ فبين ان الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله ـ وقد أطلق الصبر ـ فهو في كل ما يبتلي ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين. وقد ذكر في جملة قصص إبراهيم عليه السلام قوله ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥). والآية كما ترى تعطي بظاهرها: أن إرائة الملكوت لابراهيم كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه. ويتبيَّن به أنَّ اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿كلَّا لو تعلمون علم اليقين لترونَّ الجحيم﴾ (التكاثر / ٦). وقوله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهن ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ الى أن قال ـ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليِّين، وما أدريك ما عليُّون كتاب مرقوم يشهده المقرّبون﴾ (المطففين / ٢١)، وهذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبيّ وهو المعصية والجهل والريب والشك، فهم أهل اليقين بالله، وهم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم.

وبالجملة فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت ـ متحققاً بكلمات من الله سبحانه ـ وقد مرّ أن الملكوت هو الأمر الذي هو الوجه الباطن من وجهي هذا العالم، فقوله تعالى: يهدون بأمرنا، يدل دلالة واضحة على أن كل ما يتعلق به أمر الهداية ـ وهو القلوب والأعمال ـ فللإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمريّ حاضر عنده غير غائب عنه. ومن المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد، خيرها وشرّها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة. وقال تعالى أيضاً: ﴿يوم تدعو كل اناس بإمامهم﴾ (الإسراء / ٧١)، وسيجيء تفسيره بالإمام الحسق دون كتاب الاعمال، على ما يظن من ظاهرها، فالإمام هو الذي يسوق الناس الى الله سبحانه يوم تبلى السرائر، كما أنه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحيوة الدنيا وباطنها، والآية مع ذلك تفيد أن الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنة، وعصر من الأعصار، لمكان قوله تعالى: كل اناس، على ما سيجيء في تفسير الآية من تقريبه.

ثم إن هذا المعنى أعني الإمامة، على شرافته وعظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، اذ الذي ربّما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء، فإنما سعادته بهداية من غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحقُّ أن يتّبع أم من لا يهدي إلا أن يُهدى﴾ (يونس / ٣٥)، وقد قوبل في الآية بين الهادي الى الحق وبين غير المهتدي إلا بغيره، أعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي الى الحق مهتدياً بنفسه، أن المهتدي بغيره لا يكون هادياً الى الحق البتة.

ويستنتج من هنا أمران: أحدهما: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال والمعصية، والا كان غير مهتد بنفسه، كما مرّ، كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة، وايتاء الزكوة وكانوا لنا عابدين﴾ (الأنبياء / ٧٣)، فأفعال الإمام خيرات يهتدي إليها لا بهداية من غيره بل باهتداء من نفسه

بتأييد إلهي، وتسديد رباني والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فعل الخيرات﴾ بناء على أن المصدر المضاف يدل على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات فلا يدل على التحقيق والوقوع، بخلاف قوله: ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات﴾ فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحي باطني وتأييد سماوي. الثاني: عكس الأمر الأول وهو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماماً هادياً الى الحق البتة.

وبهذا البيان يظهر: ان المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وان كان منه في برهة من عمره، ثم تاب وصلح.

وقد سئل بعض أساتيذنا رحمة الله عليه: عن تقريب دلالة الآية على عصمة الامام.

فأجاب: ان الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالماً في جميع عمره، ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره، ومن هو ظالم في أول عمره دون آخره، ومن هو بالعكس هذا. وإبراهيم عليه السلام أجل شأناً من أن يسئل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته، فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما، وهو الذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره إنتهى وقد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الاول: ان الامامة لمجعولة.

الثاني: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

الثالث: أن الأرض وفيه الناس، لا تخلوا عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيداً من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

السادس: أنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج اليه الناس في امور معاشهم ومعادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي امهات مسائل الإمامة، تعطيها الآية الشريفة بما ينضم اليها من الآيات والله الهادي.

فان قلت: لو كانت الإمامة هي الهداية بأمر الله تعالى، وهي الهداية الى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع﴾ الآية؛ كان جميع الأنبياء أئمة قطعاً، لوضوح أن نبوة النبي لا يتم إلا باهتداء من جانب الله تعالى بالوحي، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد ونحوهما، وحينئذ فوهبة النبوة تستلزم موهبة الإمامة، وعاد الإشكال الى أنفسكم.

قلت: الذي يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآية أن الهداية بالحق وهي الإمامة تستلزم الاهتداء بالحق، وأما العكس وهو أن يكون كل من اهتدى بالحق هادياً لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبين بعد، وقد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحق، من غير أن يقرنه بهداية الغير بالحق في قوله تعالى: ﴿وهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده﴾ (الأنعام / ٩٠)، وسياق الآيات كما ترى يعطي أن هذه الهداية أمر ليس من شأنه أن يتغير ويتخلف، وأن هذه الهداية لن ترتفع بعد رسول الله عن أمته، بل عن ذرية إبراهيم منهم خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَرآء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ (الزخرف / ١٨)، فأعلم قومه ببرائته في الحال

وأخبرهم بهدايته في المستقبل، وهي الهداية بأمر الله حقاً، لا الهداية التي يعطيها النظر والاعتبار، فإنها كانت حاصلة مدلولاً عليها بقوله: إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني، ثم أخبر الله: أنه جعل هذه الهداية كلمة باقية في عقب إبراهيم، وهذا أحد الموارد التي أطلق القرآن الكلمة فيها على الأمر الخارجي دون القول، كقوله تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها﴾ (الفتح / ٢٦).

وقد تبيّن بما ذكر: أن الإمامة في ولد إبراهيم بعده، وفي قوله تعالى: ﴿قال ومن ذريتي. قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ إشارة الى ذلك، فإن إبراهيم عليه السلام إنما كان سئل الإمامة لبعض ذريته لا لجميعهم، فاجيب: بنفيها عن الظالمين من ولده، وليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عن الظالمين نفياً لها عن الجميع، ففيه إجابة لما سئله مع بيان أنها عهد، وعهده تعالى لا ينال الظالمين.

قوله تعالى: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمينَ﴾، في التعبير إشارة الى غاية بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهي، فهي من الإستعارة بالكناية [1].

١٢٥ ● وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

١٢٦ ● وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

---

١. البقرة ١٢٤: بحث روائي في ابراهيم وامامته: العبودية، النبوة، الرسالة: الامامة.

١٢٧ ● وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْمٰعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

١٢٨ ● رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ.

١٢٩ ● رَبَّنا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾، إشارة الى تشريع الحجّ والأمن في البيت، والمثابة هي المرجع، من ثاب يثوب اذا رجع.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾ كأنه عطف على قوله: جعلنا البيت مثابة، بحسب المعنى، فإن قوله: جعلنا البيت مثابة، لما كان إشارة الى التشريع كان المعنى واذ قلنا للناس ثوبوا الى البيت وحجوا إليه، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وربما قيل إن الكلام على تقدير القول، والتقدير: وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، والمصلى اسم مكان من الصلوة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه ﷺ مكاناً للدعاء والظاهر ان قوله: جعلنا البيت مثابة، الخ: بمنزلة التوطئة اشير به الى مناط تشريع الصلوة ولذا لم يقل: وصلوا، في مقام ابراهيم، بل قال: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فلم يعلق الامر بالصلوة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرا﴾، العهد هو الأمر والتطهير إما تخليص البيت لعبادة الطائفين، والعاكفين، والمصلين، ونسكهم فيكون من

الاستعارة بالكناية، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعبادة العبّاد، وذلك تطهير وإما تنظيفه من الأقذار والكثافات الطارئة من عدم مبالات الناس والركع السجود جمع راكع وساجد وكان المراد به المصلون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾، هذا دعاء دعا به إبراهيم يسئل به الأمن على أهل مكة والرزق وقد اجيبت دعوته، وحاشا لله سبحانه أن ينقل في كلامه دعاء لا يستجيبه ولا يردّه في كلامه الحق فيشتمل كلامه على هجاء لغو لغى به لاغ جاهل، وقد قال تعالى: ﴿والحق أقول﴾ (ص / ٨٤)، وقال تعالى: ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ (الطارق / ١٤).

وقد نقل القرآن العظيم عن هذا النبي دعوات كثيرة دعا بها، وسئلها ربه كدعائه لنفسه في باديء أمره، ودعائه عند مهاجرته الى سورية ودعائه ومسئلته بقاء الذكر الخير، ودعائه لنفسه وذريته ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، ودعائه لأهل مكة بعد بناء البيت، ودعائه ومسئلته بعثة النبي من ذريته، ومن دعواته ومسائله التي تجم آماله وتشخص مجاهداته ومساعيه في جنب الله وفضائل نفسه المقدسة، وبالجملة تعرف موقعه وزلفاه من الله عز اسمه، وسائر قصصه وما مدحه به ربه، يستنبط شرح حيوته الشريفة، وسنتعرض للميسور من ذلك في سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾، لما سئل عليه السلام لبلد مكة الأمن، ثم سئل لأهله أن يرزقوا من الثمرات، استشعر: أن الأهل سيكون منهم مؤمنون وكافرون، ودعائه للأهل بالرزق يعم الكافر والمؤمن، وقد تبرء من الكافرين وما يعبدونه، قال تعالى: ﴿فلما تبين أنه عدو لله تبرء منه﴾ (التوبة / ١١٤)، فشهد تعالى له بالبرائة والتبرى عن كل عدو لله، حتى أبيه، ولذلك لما استشعر ما استشعره من عموم دعوته قيدها بقوله من آمن منهم ـ وهو يعلم أن رزقهم من الثمرات لا يتم من دون شركة الكافرين، على ما يحكم به ناموس الحيوة الدنيوية

الاجتماعية ـ غير أنه خص مسئلته ـ والله أعلم بما يحكم لسائر عباده، ويريد في حقهم، فاجيب ﷺ بما يشمل المؤمن والكافر، وفيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجري على حكم العادة وقانون الطبيعة من غير خرق للعادة، وإبطال لظاهر حكم الطبيعة، ولم يقل: وارزق من آمن من أهله من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامة للبلد لكرامة البيت المحرم، ولا ثمرة تحصل في واد غير ذي زرع، وقع فيه البيت، ولولا ذلك لم يعمر البلد، ولا وجد أهلا يسكنونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾، قرء فامتعه من باب الإفعال والتفعيل والامتاع والتمتيع بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ الخ؛ فيه إشارة الى مزيد اكرام البيت وتطييب لنفس إبراهيم ﷺ، كأنه قيل: ما سئلته من اكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته وزيادة، ولا يغتر الكافر بذلك أن له كرامة على الله، وانما ذلك اكرام لهذا البلد، واجابة لدعوتك بأزيد مما سئلته، فسوق يضطر الى عذاب النار، وبئس المصير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، القواعد جمع قاعدة وهي ما قعد من البناء على الارض، واستقر عليه الباقي، ورفع القواعد من المجاز بِعَدّ ما يوضع عليها منها، ونسبه الرفع المتعلق بالمجموع الى القواعد وحدها. وفي قوله تعالى: من البيت تلميح الى هذه العناية المجازية.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، دعاء لابراهيم واسماعيل، وليس على تقدير القول، أو ما يشبهه، والمعنى يقولان: ربنا تقبل منا، الخ؛ بل هو في الحقيقة حكاية المقول نفسه، فإن قوله: يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل حكاية الحال الماضية، فهما يمثلان بذلك تمثيلاً كأنهما يشاهدان وهما مشتغلان بالرفع، والسامع يراهما على حالها ذلك ثم يسمع دعائهما بألفاظهما من غير وساطة المتكلم المشير الى موقفهما

وعملها، وهذا كثير في القرآن، وهو من أجمل السياقات القرآنية ـ وكلها جميل ـ وفيه من تمثيل القصة وتقريبه الى الحس ما لا يوجد ولا شيء من نوع بداعته في التقبل بمثل القول ونحوه.

وفي عدم ذكر متعلق التقبل ـ وهو بناء البيت ـ تواضع في مقام العبودية، واستحقار لما عملا به والمعنى ربنا تقبل منا هذا العمل اليسير انك أنت السميع لدعوتنا، العليم بما نويناه في قلوبنا.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، من البديهي أن الاسلام على ما تداول بيننا من لفظه، ويتبادر الى أذهاننا من معناه أول مراتب العبودية، وبه يمتاز المنتحل من غيره، وهو الأخذ بظاهر الاعتقادات والأعمال الدينية، أعم من الإيمان والنفاق، وابراهيم عليه السلام ـ وهو النبي الرسول أحد الخمسة أولي العزم، صاحب الملة الحنيفية ـ أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله الى هذا الحين، وكذا ابنه اسماعيل رسول الله وذبيحه، أو يكونا قد نالاه ولكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك وأرادا البقاء على ذلك، وهما في ما هما فيه من القربى والزلفى، والمقام مقام الدعوة عند بناء البيت المحرم، وهما أعلم بمن يسئلانه، وأنه من هو، وما شأنه، على أن هذا الإسلام من الامور الاختيارية التي يتعلق بها الأمر والنهي كما قال تعالى: ﴿اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (البقرة / ١٣١)، ولا معنى لنسبة ما هو كذلك الى الله سبحانه أو مسئلة ما هو فعل اختياري للانسان من حيث هو كذلك من غير عناية يصح معها ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، يدل على ما مر من معنى الإسلام أيضاً، فإن المناسك جمع منسك بمعنى العبادة، كما في قوله تعالى:

---

١. البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩: بحث حول معنى الاسلام الذي اراده ابراهيم عليه السلام من الله لذريته: الدعاء.

﴿ولكل امة جعلنا منسكاً﴾ (الحج / ٣٤)، أو بمعنى المتعبد. أعني الفعل المأتي به عبادة وإضافة المصدر يفيد التحقق، فالمراد بمناسكنا هي الافعال العبادية الصادرة منها والأعمال التي يعملانها دون الأفعال. والاعمال التي يراد صدورها منها. فليس قوله: أرنا بمعنى علمنا أو وقفنا، بل التسديد بارائة حقيقه الفعل الصادر منها. كما أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات، وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة﴾ (الأنبياء / ٧٣)، وسنبينه في محله: ان هذا الوحي تسديد في الفعل. لا تعليم للتكليف المطلوب. وكأنه إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، أولي الأيدي والأبصار. انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ (ص / ٤٦).

فقد تبين ان المراد بالإسلام والبصيرة في العبادة، غير المعنى الشائع المتعارف. وكذلك المراد بقوله تعالى: وتب علينا، لان إبراهيم وإسماعيل كانا نبيين معصومين بعصمة الله تعالى، لا يصدر عنهما ذنب حتى يصح توبتهما منه، كتوبتنا من المعاصي الصادرة عنا.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الخ؛ دعوة النبي ﷺ وقد كان ﷺ يقول: «أنا دعوة ابراهيم»[1][2].

١٣٠ ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ.

---

١. البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩: بحث روائي حول تطهير بيت الله، سفر ابراهيم الى مكة لمقابلة اسماعيل ﷺ بناء الكعبة: الحجر الاسود: معنى ان الشيء من الجنة او جهنم؛ شرف الانبياء، والامور المنسوبة لهم والاماكن المقدسة كالكعبة والحجر الاسود؛ معنى الامة.

٢. البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩: بحث علمي حول دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه الى قرب ربه...

١٣١ ● إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ.

١٣٢ ● وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

١٣٣ ● أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهاً واحداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

١٣٤ ● تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾. الرغبة اذا عدّيت بمن أفادت معنى الإعراض والنفرة، واذا عديت بفي أفادت: معنى الشوق والميل، وسفه يأتي متعدياً ولازماً، ولذلك ذكر بعضهم أن قوله: نفسه مفعول لقوله: سفه، وذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول، والمعنى على أي حال: إن الإعراض عن ملة إبراهيم من حماقة النفس، وعدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها ومن هذه الآية يستفاد معنى ما ورد في الحديث أن العقل ما عبد به الرحمن.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا﴾. الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وتمييزه عن غيره اذا اختلطا، وينطبق هذا المعنى بالنظر الى مقامات الولاية على خلوص العبوديه وهو أن يجري العبد في جميع شئونه على ما يقتضيه مملوكيته وعبوديته من التسليم الصرف لربه، وهو التحقق بالدين في جميع الشئون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبودية في امور

الدنيا والآخرة وتسليم ما يرضيه الله لعبده في جميع اموره كما قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ١٩)، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين﴾ الآية؛ فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: اصطفيناه، فيكون المعنى أن إصطفائه إنما كان حين قال له ربه: أسلم: فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى: اذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين، بمنزلة التفسير لقوله: أصطفيناه.

وفي الكلام التفات من التكلم الى الغيبة في قوله: اذ قال له ربه أسلم، ولم يقل اذ قلنا له أسلم، والتفات آخر من الخطاب الى الغيبة في المحكي من قول إبراهيم: قال أسلمت لرب العالمين، ولم يقل: قال أسلمت لك اما الاول، فالنكتة فيه: الإشارة الى أنه كان سراً استسر به ربه اذ أسره إليه فيا خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالاً بالمتكلم فاذا غاب المتكلم عن صفة حضوره انقطع المخاطب عن مقامه وكان بينه وبين ما للمتكلم من الشأن والقصة ستر مضروب، فأفاد: أن القصة من مسامرات الانس وخصائص الخلوة.

واما الثاني: فلأن قوله تعالى: اذ قال له ربه، يفيد معنى الاختصاص باللطف والإسترسال في المسارة لكن أدب الحضور كان يقتضي من إبراهيم وهو عبد عليه طابع الذلة والتواضع أن لا يسترسل، ولا يعد نفسه مختصاً بكرامة القرب متشرفاً بحظيرة الانس، بل يراها واحداً من العبيد الأذلاء المربوبين، فيسلم لرب يستكين اليه جميع العالمين فيقول: أسلمت لرب العالمين.

والإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد، من السلم، وأحد الشيئين اذا كان بالنسبة الى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم وسلم واستسلم له، قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ (البقرة / ١١٢)، وقال تعالى: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً﴾ (الأنعام / ٧٩)، ووجه الشيء ما يواجهك به، وهو بالنسبة إليه تعالى تمام

وجود الشيء، فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهي أو غير ذلك، ومن هنا كان له مراتب بحسب الواردات بمراتبها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، الصلاح، هو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه الى عمل الإنسان وربما نسب الى نفسه وذاته، قال تعالى: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ (الكهف / ١١٠)، وقال تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ (النور / ٣٢).

وصلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير انه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه.

فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى: ﴿صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ (الرعد / ٢٢)، وقال تعالى: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ (البقرة / ٢٧٢).

ومنها: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد الى الله سبحانه قال تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر / ١٠)، فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة اليه: أن صلاح العمل معنى تهيؤه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامة ويكون عوناً ومدداً لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ (الحج / ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وكلا نمد هؤلاء، وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠)، فعطائه بمنزلة الصورة، وصلاح العمل بمنزلة المادة[2].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾، إي وصى بالملة.

---

١. البقرة ١٣٠ ـ ١٣٤: بحث حول مراتب الاسلام.

٢. البقرة ١٣٠ ـ ١٣٤: بحث في صلاح النفس والذات.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾، النهي عن الموت وهو أمر غير اختياري للانسان، والتكليف إنما يتعلق بأمر اختياري انما هو لرجوعه الى أمر يتعلق بالاختيار، والتقدير احذروا أن يغتالكم الموت في غير حال الإسلام، أي داوموا وألزموا الإسلام لئلا يقع موتكم إلا في هذا الحال، وفي الآية إشارة الى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ١٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾، في الكلام إطلاق لفظ الأب على الجدّ والعمّ والوالد من غير مصحّح للتغليب، وحجة فيما سيأتي إنشاء الله تعالى في خطاب إبراهيم لآزر بالأب.

قوله تعالى: ﴿إِلَهاً واحداً﴾، في هذا الإيجاز بعد الإطناب بقوله: إلهك وإله آبائك، الخ؛ دفع لإمكان إبهام اللفظ أن يكون إلهه غير إله آبائه على نحو ما يتخذه الوثنيون من الآلهة الكثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، بيان للعبادة وأنها ليست عبادة كيفما اتّفقت بل عبادة على نهج الإسلام وفي الكلام جملة أن دين إبراهيم هو الإسلام والموروث منه في بني إبراهيم كإسحاق ويعقوب وإسماعيل، وفي بني إسرائيل، وفي بني إسماعيل من آل إبراهيم جميعاً هو الإسلام لا غير، وهو الذي أتى به إبراهيم من ربّه فلا حجة لأحد في تركه والدعوة الى غيره[1].

١٣٥ ● وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

---

١. البقرة ١٣٠ ـ ١٣٤: بحث روائي في مراتب الاسلام والايمان؛ العيش الهني؛ الحياة في الدنيا؛ الحياة في الآخرة.

١٣٦ ● قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

١٣٧ ● فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

١٣٨ ● صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.

١٣٩ ● قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّٰهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ.

١٤٠ ● أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ قُلْ أَأَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً مِنَ اللّٰهِ وَما اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

١٤١ ● تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقالوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا﴾، لما بين تعالى أن الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كان هو الإسلام الذي كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أن الاختلافات والانشعابات التي يدعو اليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، امور إخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم لكونهم

في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه ـ وهو دين التوحيد ودين الوحدة، بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع. مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

فإن من طبيعة هذه الحيوة الأرضية الدنيوية التغير والتحول في عين الجرى والاستمرار كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملل وشعباتها، وربما يوجب ذلك تغييراً وانحرافاً في المراسم الدينية، وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين، أو خروج ما هو منه والأغراض والغايات الدنيوية ربما تحل محل الأغراض الدينية الإلهية (وهي بلية الدين)، وعند ذلك ينصبغ الدين بصبغة القومية فيدعو الى هدف دون هدفه الأصلي ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي، فلا يلبث حتى يعود المنكر (وهو ما ليس من الدين) معروفاً يتعصب له الناس لموافقته هوساتهم وشهواتهم والمعروف منكراً ليس له حام يحميه ولا واق يقيه ويؤل الأمر الى ما نشاهده اليوم من...

وبالجملة فقوله تعالى: وقالوا كونوا هوداً أو نصارى، إجمال تفصيل معناه وقالت اليهود كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، كل ذلك لتشعبهم وشقاقهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جواب عن قولهم أي قل، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً فإنها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبيائكم. إبراهيم، فمن دونه. وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين ولو كان في ملته هذه الانشعابات، وهي الضمائم التي ضمها إليها المبتدعون، من الاختلافات لكان مشركاً بذلك، فإن ما ليس من دين الله لا يدعو الى الله سبحانه، بل الى غيره وهو الشرك،

فهذا دين التوحيد الذي لا يشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، لما حكى ما يأمره به اليهود والنصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق (والحق يقول) وهو الشهادة على الإيمان بالله، والإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم، وهو الإسلام وخص الإيمان بالله بالذكر وقدمه وأخرجه من بين ما انزل على الأنبياء لأن الإيمان بالله فطري، لا يحتاج الى بينة النبوة، ودليل الرسالة.

ثم ذكر سبحانه ما انزل إلينا وهو القرآن أن المعارف القرآنية وما انزل الى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر ما أُوتي موسى وعيسى وخصهما بالذكر لأن المخاطبة مع اليهود والنصارى وهم يدعون إليهما فقط ثم ذكر ما أُوتي النبيون من ربهم، ليشمل الشهادة جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك: لا نفرق بين أحد منهم.

واختلاف التعبير في الكلام، حيث عبر عما عندنا وعند إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالإنزال وعما عند موسى وعيسى والنبيين بالإيتاء وهو الإعطاء، لعل الوجه فيه أن الأصل في التعبير هو الإيتاء، كما قال تعالى بعد ذكر إبراهيم، ومن بعده، ومن قبله من الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ (الأنعام / ٨٩)، لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح في الوحي والإنزال كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ (لقمان / ١٢)، وقال: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة﴾ (الجاثية / ١٦)، ولما كان كل من اليهود والنصارى يعدون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من أهل ملتهم، فاليهود من اليهود، والنصارى من النصارى، واعتقادهم أن الملة الحق من النصرانية، أو اليهودية، هي ما أُوتيه موسى وعيسى، فلو كان قيل: وما اوتي إبراهيم وإسماعيل لم يكن بصريح في كونهم بأشخاصهم صاحب ملة بالوحي والانزال واحتمل أن يكون ما أُوتوه، هو الذي أُوتيه موسى وعيسى عليهما السلام نسب إليهم بحكم التبعية كما نسب

إيتائه الى بني إسرائيل، فلذلك خص إبراهيم ومن عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال، وأما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وما أُوتي النبيون شيئاً يجب دفعه.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾، الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل والسبط كالقبيلة الجماعة يجتمعون على أب واحد، وقد كانوا اثنتي عشرة أسباطاً أُمما وكل واحدة منهم تنتهي الى واحد من أولاد يعقوب وكانوا اثني عشر، فخلف كل واحد منهم أُمة من الناس.

فإن كان المراد بالأسباط الامم والأقوام فنسبة الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، وإن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أُنزل اليهم الوحي وليسوا بأخوة يوسف لعدم كونهم أنبياء، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى﴾ (النساء / ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام والجدال، فإنه لو قيل لهم أن آمنوا بما آمنا به أمكن أن يقولوا كما قالوا، بل نؤمن بما أُنزل علينا ونكفر بما ورائه، لكن لو قيل لهم، إنا آمنا بما لا يشتمل إلا على الحق فآمنوا انتم بما يشتمل على الحق مثله، لم يجدوا طريقاً للمراء والمكابرة، فإن الذي بيدهم لا يشتمل على صفوة الحق.

قوله تعالى: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، الشقاق النفاق والمنازعة والمشاجرة والافتراق.

قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وعد لرسول الله بالنصرة عليهم، وقد أنجز وعده وسيتم هذه النعمة للامة الإسلامية اذا شاء، واعلم: ان الآية معترضة بين الآيتين السابقة واللاحقة.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾، الصبغة بناء نوع من

الصبغ أي هذا الإيمان المذكور صبغة إلهية لنا، وهي أحسن الصبغ لا صبغة اليهودية والنصرانية بالتفرق في الدين، وعدم إقامته.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، في موضع الحال، وهو كبيان العلة لقوله: صبغة الله ومن أحسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾، إنكار، لمحاجة أهل الكتاب. المسلمين في الله سبحانه وقد بين وجه الإنكار، وكون محاجتهم لغواً وباطلا، بقوله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون، وبيانه: أن محاجة كل تابعين في متبوعهما ومخاصمتهما فيه انما تكون لأحد أُمور ثلاثة: اما لاختصاص كل من التابعيه بمتبوع دون متبوع الآخر، فيريدان بالحاجة كل تفضيل متبوعه وربه على الآخر، كالمحاجة بين وثني ومسلم، واما لكون كل واحد منهما أو احدهما يريد مزيد الاختصاص به، وابطال نسبة رفيقه، او قربه او ما يشبه ذلك، بعد كون المتبوع واحداً، واما لكون أحدهما ذا خصائص وخصال لا ينبغي أن ينتسب الى هذا المتبوع وفعاله ذاك الفعال، وخصال تلك الخصال لكونه موجباً، لهتكه او سقوطه او غير ذلك، فهذه علل المحاجة والمخاصمة بين كل تابعين، والمسلمون وأهل الكتاب انما يعبدون الهاً واحداً، وأعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الاخرى شيئاً والمسلمون مخلصون في دينهم لله، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب في محاجتهم، ولذلك أنكر عليهم محاجتهم اولاً ثم نفى واحداً واحداً من اسبابها الثلاثة، ثانياً.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الى قوله كَانُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ﴾، وهو قول كل من الفريقين، ان ابراهيم ومن ذكر بعده منهم، ولازم ذلك كونهم هوداً أو نصارى أو قولهم صريحاً انهم كانوا هوداً أو نصارى، كما يفيد ظاهر قوله تعالى: ﴿يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل الا من بعده أفلا تعقلون﴾ (آل عمران / ٦٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، فإن الله اخبرنا واخبركم في الكتاب أن

موسى وعيسى وكتابيها بعد ابراهيم ومن ذكر معه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، أي كتم ما تحمل شهادة أن الله أخبر بكون تشريع اليهودية أو النصرانية بعد إبراهيم ومن ذكر معه، فالشهادة المذكورة في الآية، شهادة تحمل، أو المعنى كتم شهادة الله على كون هؤلاء قبل التوراة والانجيل، فالشهادة شهادة أداء، المتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، أي ان الغور في الأشخاص وأنهم ممن كانوا لا ينفع حالكم، ولا يضركم السكوت عن المحاجة والمجادلة فيهم، والواجب عليكم الاشتغال بما تسألون غداً عنه، وتكرار الآية مرتين لكونهم يفرطون في هذه المحاجة التي لا تنفع لحالهم شيئاً، وخصوصاً مع علمم بأن إبراهيم كان قبل اليهودية والنصرانية. وإلا فالبحث عن حال الأنبياء، والرسل بما ينفع البحث فيه كمزايا رسالاتهم وفضائل نفوسهم الشريفة مما ندب الى القرآن حيث يقص قصصهم ويأمر بالتدبر فيها.

١٤٢ ● سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيٰهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

١٤٣ ● وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

١٤٤ ● قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَما اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

١٤٥ ● وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

١٤٦ ● الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

١٤٧ ● ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

١٤٨ ● وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ أَيْنَما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٤٩ ● وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَما اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

١٥٠ ● وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

١٥١ ● كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيٰهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، هذا تمهيد ثانياً لما سيأمر تعالى به من اتخاذ الكعبة قبلة وتعليم للجواب عما سيعترض به السفهاء من الناس وهم اليهود تعصباً لقبلتهم التي هي بيت المقدس ومشركوا العرب الراصدون لكل امر جديد يحتمل الجدال والخصام. وقد مهد لذلك اولا بما ذكره الله تعالى من قصص ابراهيم وانواع كرامته على الله سبحانه وكرامة ابنه اسماعيل ودعوتهما للكعبة ومكة وللنبي والأمة المسلمة وبنائهما البيت والامر بتطهيره للعبادة، ومن المعلوم ان تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة من اعظم الحوادث الدينية واهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجرة النبي الى المدينة وأخذ الاسلام في تحقيق اصوله ونشر معارفه وبث حقائقه، فما كانت اليهود وغيرهم تسكت وتستريح في مقابل هذا التشريع، لانهم كانوا يرون انه يبطل واحداً من اعظم مفاخرهم الدينية وهو القبلة واتباع غيرهم لهم فيها وتقدمهم على من دونهم في هذا الشعار الديني، على ان ذلك تقدم باهر في دين المسلمين، لجمعه وجوههم في عباداتهم ومناسكهم الدينية الى نقطة واحدة يخلصهم من تفرق الوجوه في الظاهر وشتات الكلمة في الباطن واستقبال الكعبة اشد تأثيراً واقوى من امثال الطهارة والدعاء وغيرهما في نفوس المسلمين، عند اليهود ومشركي العرب وخاصة عند اليهود كما يشهد به قصصهم المقتصة في القرآن، فقد كانوا امة لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعة أصالة ولا لغير الحس وقعاً، اذا جائهم حكم من احكام الله معنوي قبلوه من غير تكلم عليه واذا جائهم امر من ربهم صوري متعلق بالمحسوس من الطبيعة كالقتال والهجرة والسجدة وخضوع القول وغيرها قابلوه

بالانكار وقاوموا عليه ودونه أشد المقاومة.

وبالجملة فقد أخبر الله سبحانه عما سيعترضون به على تحويل القبلة وعلم رسوله ما ينبغي أن يجابوا ويقطع به قولهم.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، أراد بهم اليهود والمشركين من العرب ولذلك عبر عنهم بالناس وإنما سفههم لعدم استقامة فطرتهم وثقوب رأيهم في أمر التشريع، والسفاهة عدم استقامة العقل وتزلزل الرأي.

قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾، تولية الشيء أو المكان جعله قدام الوجه وأمامه كالاستقبال، قال تعالى فلنولينك قبلة ترضيها، الآية، والتولية عن الشيء صرف الوجه عنه كالاستدبار ونحوه، والمعنى ما الذي صرفهم أو صرف وجههم عن القبلة التي كانوا عليها وهو بيت المقدس الذي كان يصلي اليه النبي والمسلمون أيام إقامته بمكة وعدة شهور بعد هجرته إلى المدينة وإنما نسبوا القبلة إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم في الصلوة اليها ليكون أوقع في إيجاد التعجب وأوجب للاعتراض، وإنما قيل ما وليهم عن قبلتهم ولم يقل ما ولى النبي والمسلمين لما ذكرنا من الوجه، فلو قيل ما ولى النبي والمسلمين عن قبلة اليهود لم يكن التعجب واقعاً موقعه وكان الجواب عنه ظاهراً لكل سامع بأدنى تنبيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسايرالجهات الأصلية والفرعية كالشمال والجنوب وما بين كل جهتين من الجهات الأربعة الأصلية، والمشرق والمغرب جهتان إضافيتان تتعينان بشروق الشمس أو النجوم وغروبها، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال والجنوب الحقيقيتان، ولعل هذا هو الوجه في وضع المشرق والمغرب موضع الجهات.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الامم في استعداداتها للهداية إلى الكمال والسعادة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. الظاهر أن المراد كما سنحول القبلة لكم لنهدينكم إلى صراط مستقيم كذلك جعلناكم امة وسطاً، وقيل إن المعنى ومثل هذا الجعل العجيب جعلناكم أمة وسطاً (وهو كما ترى)، وأما المراد بكونهم أمة وسطاً شهداء على الناس فالوسط هو المتخلل بين الطرفين لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك الطرف، وهذه الامة بالنسبة إلى الناس ـ وهم أهل الكتاب والمشركون ـ على هذا الوصف فإن بعضهم ـ وهم المشركون والوثنيون ـ إلى تقوية جانب الجسم محضاً لا يريدون إلا الحيوة الدنيا والاستكمال بملاذها وزخارفها وزينتها، لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، ولا يعبأون بشيء من الفضائل المعنوية والروحية، وبعضهم كالنصارى إلى تقوية جانب الروح لا يدعون إلا إلى الرهبانية ورفض الكمالات الجسمية التي أظهرها الله تعالى في مظاهر هذه النشأة المادية لتكون ذريعة كاملة إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان، فهؤلاء أصحاب الروح أبطلوا النتيجة بابطال سببها واؤلئك اصحاب الجسم ابطلوا النتيجة بالوقوف على سببها والجمود عليها، لكن الله سبحانه جعل هذه الامة وسطا بأن جعل لهم ديناً يهدي منتحليه إلى سواء الطريق وسط الطرفين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل يقوي كلا من الجانبين ـ جانب الجسم وجانب الروح ـ على ما يليق به ويندب إلى جمع الفضيلتين فإن الإنسان مجموع الروح والجسم لا روح محضاً ولا جسم محضاً، ومحتاج في حيوته السعيدة إلى جمع كلا الكمالين والسعادتين المادية والمعنوية، فهذه الامة هي الوسط العدل الذي به يقاس ويوزن كل من طرفي الإفراط والتفريط فهي الشهيدة على سائر الناس الواقعة في الأطراف والنبي ﷺ وهو المثال الأكمل من هذه الامة ـ هو شهيد على نفس الأمة فهو ﷺ ميزان يوزن به حال الآحاد من الأمة، والأمة ميزان يوزن به حال الناس ومرجع يرجع إليه طرفا الإفراط والتفريط، هذا ما قرره بعض المفسرين في معنى الآية، وهو في نفسه معنى صحيح لا يخلو عن دقة إلا أنه غير منطبق على لفظ الآية فإن كون الامة وسطاً إنما

يصحح كونها مرجعاً يرجع إليه الطرفان، وميزاناً يوزن به الجانبان لا كونها شاهدة تشهد على الطرفين، أو يشاهد الطرفين. فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى والشهادة وهو ظاهر، على أنه لا وجه حينئذ للتعرض بكون رسول الله شهيداً على الامة إذ لا يترتب شهادة الرسول على الأمة على جعل الأمة وسطا، كما يترتب الغاية على المغيى والغرض على ذيه.

على أن هذه الشهادة المذكورة في الآية، حقيقة من الحقائق القرآنية تكرر ذكرها في كلامه سبحانه، واللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى، قال تعالى: ﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (النساء / ٤١)، وقال تعالى: ﴿ويوم نبعث من كل امة شهيد ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾ (النحل / ٨٤) ﴿وقال تعالى ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين والشهداء﴾ (الزمر / ٦٩)، والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع على اطلاقها هو الشهادة على اعمال الامم، وعلى تبليغ الرسل أيضاً، كما يومي إليه قوله تعالى: ﴿ولنسئلن الذين ارسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ (الأعراف / ٦)، وهذه الشهادة وإن كانت في الآخره يوم القيمة لكن تحملها في الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى ـ حكاية عن عيسى عليه السلام ـ: ﴿وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ (المائدة / ١١٧) وقوله تعالى: ﴿ويوم القيمة يكون عليهم شهيداً﴾ (النساء / ١٥٩)، ومن الواضح أن هذه الحواس العادية التي فينا، والقوى المتعلقة بها منا لا تتحمل إلا صور الأفعال والأعمال فقط، وذلك التحمل أيضاً إنما يكون في شيء يكون موجوداً حاضراً عند الحس لا معدوماً ولا غائباً عنه وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران، وبالجملة كل خفي عن الحس ومستبطن عند الإنسان ـ وهي التي تكسب القلوب، وعلى يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر كما قال تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ (البقرة / ٢٢٥)، فهي مما ليس في وسع الإنسان

إحصائها والإحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلاً عن الغائبين إلا رجل يتولى الله أمره ويكشف ذلك له بيده. ويمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦)، فإن عيسى داخل في المستثنى في هذه الآية قطعاً ـ وقد شهد الله تعالى في حقه بأنه من الشهداء ـ كما مر في الآيتين السابقتين، فهو شهيد بالحق وعالم بالحقيقة.

والحاصل أن هذه الشهادة ليست هي كون الامة على دين جامع للكمال الجسماني والروحاني فإن ذلك على أنه ليس معنى الشهادة خلاف ظاهر الآيات الشريفة.

بل هي تحمل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء، ورد وقبول، وانقياد وتمرد، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله من كل شيء، حتى من أعضاء الإنسان، يوم يقول الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.

ومن المعلوم أن هذه الكرامة ليست تنالها جميع الامة. إذ ليست إلا كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منهم. وأما من دونهم من المتوسطين في السعادة، والعدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك، فضلا عن الإجلاف الجافية، والفراعنة الطاغية من الامة. وستعرف في قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اؤلئك رفيقاً﴾ (النساء / ٦٩)، إن أقل ما يتصف به الشهداء ـ وهم شهداء الأعمال ـ أنهم تحت ولاية الله ونعمته وأصحاب الصراط المستقيم، وقد مر إجمالاً في قوله تعالى: ﴿صراط الذين انعمت عليهم﴾ (فاتحة الكتاب / ٧).

فالمراد بكون الامة شهيدة أن هذه الشهادة فيهم، كما أن المراد بكون بني إسرائيل فضلوا على العالمين، أن هذه الفضيلة فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعث فيه ومنه، فكون الامة شهيدة هو أن فيهم من يشهد على الناس

ويشهد الرسول عليهم[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾. المراد بقوله لنعلم: اما علم الرسل والانبياء مثلاً، لان العظماء يتكلمون عنهم وعن اتباعهم، كقول الأمير، قتلنا فلاناً وسجنا فلاناً، وإنما قتله وسجنه اتباعه لأنفسه، واما العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلقة والايجاد، دون العلم قبل الايجاد.

والانقلاب على العقبين كناية عن الاعراض، فان الانسان ـ وهو منتصب على عقبيه ـ اذا انقلب من جهة الى جهة، انقلب على عقبيه، فجعل كناية عن الاعراض نظير قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ (الأنفال / ١٦)، وظاهر الآية انه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين: من تغيير القبلة ونسخها، ومن جهة الصلوت التي صلوها الى القبلة، ما شأنها؟

ويظهر من ذلك ان المراد بالقبلة التي كان رسول الله عليها، هو بيت المقدس الكعبة، فلا دليل على جعل بيت المقدس قبلة مرتين، وجعل الكعبة قبلة مرتين، اذ لو كان المراد من القبلة في الآية الكعبة كان لازم ذلك ما ذكر.

وبالجملة كان من المترقب ان يختلج في صدور المؤمنين: أولا، انه لما كان من المقدر ان يستقر القبلة بالآخرة على الكعبة فما هو السبب. أولا: في جعل بيت المقدس قبلة؟ فبيّن سبحانه ان هذه الاحكام والتشريعات ليست إلا لأجل مصالح تعود الى تربية الناس وتكميلهم، وتمحيص المؤمنين من غيرهم، وتمييز المطيعين من العاصين، والمنقادين من المتمردين، والسبب الداعي الى جعل القبلة السابقة في حقهم أيضاً هذا السبب بعينه، فالمراد بقوله الا لنعلم من يتبع الرسول، الا لنميز من يتبعك، والعدول من لفظ الخطاب الى

---

١. البقرة ١٤٢ ـ ١٥٢: بحث من الاشكالات والرد عليها حول الشهادة على الاعمال (لتكونوا شهداء على الناس) الامة الوسط.

الغيبة لدخالة صفة الرسالة في هذا التميز. والمراد بجعل القبلة السابقة: جعلها في حق المسلمين، وان كان المراد أصل جعل بيت المقدس قبلة فالمراد مطلق الرسول، والكلام على رسله من غير التفات، غير انه بعيد من الكلام بعض البعد.

وثانياً: ان الصلوات التي كان المسلمون صلوها الى بيت المقدس كيف حالها، وقد صليت الى غير القبلة؟ والجواب: ان القبلة قبلة ما لم تنسخ، وان الله سبحانه اذا نسخ حكماً رفعه من حين النسخ، لا من أصله، لرأفته ورحمته بالمؤمنين، وهذا ما أشار اليه بقوله: وما كان الله ليضيع أعمالكم، ان الله بالناس لرؤف رحيم. والفرق بين الرأفة والرحمة، وبعد اشتراكهما في أصل المعنى، ان الرأفة يختص بالمبتلى المفتاق، والرحمة أعم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾. الآية تدل على ان رسول الله قبل نزول آية القبلة ـ وهي هذه الآية ـ كان يقلّب وجهه في آفاق السماء، وان ذلك كان انتظاراً منه، أو توقعاً لنزول الوحي في أمر القبلة، لما كان يحب ان يكرّمه الله تعالى بقبلة تختص به، لا انه كان لا يرتضي بيت المقدس قبلة، وحاشا رسول الله من ذلك، كما قال تعالى: فلنولينك قبلة ترضيها، فان الرضا بشيء لا يوجب السخط بخلافه بل اليهود على ما في الروايات الواردة في شأن نزول الآية كانوا يعيّرون المسلمين في تبعية قبلتهم، ويتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك، فخرج في سواد الليل يقلب وجهه الى السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه، وكشف همه فنزلت الآية، ولو نزلت على البقاء بالقبلة السابقة لكانت حجة له ﷺ على اليهود، وليس ولم يكن لرسول الله ولا للمسلمين عار في استقبال قبلتهم، اذ ليس للعبد إلا الاطاعة والقبول، لكن نزلت قبلة جديدة، فقطع تعييرهم وتفاخرهم، مضافاً الى تعيين التكليف، فكانت حجة ورضى.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. الشطر البعض، وشطر المسجد الحرام هو الكعبة، وفي قوله تعالى

شطر المسجد الحرام دون ان يقال: فول وجهك الكعبة، أو يقال: فول وجهك البيت الحرام، محاذاة للحكم في القبلة السابقة، فانها كانت شطر المسجد الأقصى، وهي الصخرة المعروفة هناك، فبدلت من شطر المسجد الحرام ـ وهي الكعبة ـ على ان اضافة الشطر الى المسجد، وتوصيف المسجد بالحرام يعطي مزايا للحكم، تفوت لو قيل: الكعبة أو البيت الحرام.

وتخصيص رسول الله بالحكم أولا بقوله فول وجهك، ثم تعميم الحكم له ولغيره من المؤمنين بقوله وحيث ما كنتم يؤيد ان القبلة حولت، ورسول الله قائم يصلي في المسجد ـ والمسلمون معه ـ فاختص الامر به، أولا في شخص صلوته ثم عقب الحكم العام الشامل له ولغيره، ولجميع الأوقات والأمكنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وذلك لاشتمال كتابهم على صدق نبوة رسول الله ﷺ، أو كون قبلة هذا النبي الصادق هو شطر المسجد الحرام، وايا ماً كان فقوله: اوتوا الكتاب، يدل على اشتمال كتابهم على حقية هذا التشريع، اما مطابقة أو تضمناً، وما الله بغافل عما يعملون من كتمان الحق، واحتكار ما عندهم من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾، تقريع لهم بالعناد واللجاج، وان ابائهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم، وعدم تبينه لهم، فانهم عالمون بأنه حق علماً لا يخالطه شك، بل الباعث لهم على بث الاعتراض وإثارة الفتنة عنادهم في الدين وجحودهم للحق، فلا ينبغهم حجة، ولا يقطع إنكارهم آية، فلو أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك لعنادهم وجحودهم، وما أنت بتابع قبلتهم، لانك على بينة من ربك، ويمكن أن يكون قوله: وما أنت نهياً في صورة خبر، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وهم اليهود يستقبلون صخرة بيت المقدس أينما كانوا، والنصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبلة ذاك البعض، ولا ذاك يقبل قبلة هذا اتباعاً للهوى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، تهديد للنبي، والمعنى متوجه الى امته، وإشارة الى انهم في هذا التمرد إنما يتبعون أهوائهم وانهم بذلك ظالمون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. الضمير في قوله يعرفونه، راجع الى رسول الله ﷺ دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الابناء، فان ذلك إنما يحسن في الانسان، ولا يقال في الكتاب، ان فلاناً يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على ان سياق الكلام ـ وهو في رسول الله، وما اوحي اليه من أمر القبلة، اجنبي عن موضوع الكتاب الذي اوتيه أهل الكتاب، فالمعنى ان أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبنائهم، وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

وعليهذا ففي الكلام التفات من الحضور الى الغيبة في قوله يعرفونه، فقد أخذ رسول الله غائباً، ووجه الخطاب الى المؤمنين بعدما كان ﷺ حاضراً، والخطاب معه، وذلك لتوضيح: ان امره ﷺ واضح ظاهر عند أهل الكتاب، ومثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعة لكنه يخص واحداً منهم بالمخاطبة إظهاراً لفضله، فيخاطبه ويسمع غيره، فاذا بلغ الى ما يخص شخص المخاطب من الفضل والكرامة، عدل عن خطابه الى مخاطبة الجماعة، ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانياً الى ما كان فيه أولا من توجيه الخطاب إليه وبهذا يظهر نكتة الالتفات.

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، تأكيد للبيان السابق وتشديد في النهي عن الامتراء، وهو الشك والارتياب، وظاهر الخطاب لرسول الله ﷺ ومعناه للامة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، الوجهة ما يتوجه

إليه كالقبلة، وهذا رجوع الى تلخيص البيان السابق، وتبديل له من بيان آخر يهدي الناس الى ترك تعقيب أمر القبلة، والاكثار من الكلام فيه، والمعنى ان كل قوم فلهم قبلة مشرعة على حسب ما يقتضيه مصالحهم وليس حكماً تكوينياً ذاتياً لا يقبل التغيير والتحويل، فلا يهم لكم البحث والمشاجرة فيه، فاتركوا ذلك واستبقوا الخيرات وسارعوا اليها بالاستباق، فان الله سيجمعكم الى يوم لا ريب فيه، وأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير.

واعلم ان الآية كما انها قابلة الانطباق على أمر القبلة لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين، وفيها اشارة الى القدر والقضاء، وجعل الاحكام والاداب لتحقيقها وسيجيء تمام بيانه فيما يخص به من المقام إنشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ذكر بعض المفسّرين أنّ المعنى ومن أيّ مكان خرجت، وفي أيّ بقعة حللت فولّ وجهك وذكر بعضم أنّ المعنى ومن حيث خرجت من البلاد، ويمكن أن يكون المراد بقوله ومن حيث خرجت؛ مكة، التي خرج رسول الله ﷺ منها كما قال تعالى: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ (محمد / ٣)، ويكون المعنى أنّ استقبال البيت حكم ثابت لك في مكة وغيرها من البلاد والبقاع، وفي قوله وأنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون تأكيد وتشديد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، تكرار الجملة الاولى بلفظها لعله للدلالة على ثبوت حكمها على أي حال، فهو كقول القائل، اتق الله اذا قمت واتق الله اذا قعدت، واتق الله اذا نطقت، واتق الله اذا سكت، يريد: التزم التقوى عند كل واحدة من هذه الأحوال ولتكن معك، ولو قيل اتق الله اذا قمت واذا قعدت واذا نطقت واذا سكت فاتت هذه النكتة. والمعنى استقبل شطر المسجد الحرام من التي خرجت منها وحيث ما كنتم من الأرض فولّوا

وجوهكم شطره.

قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم الذي فيه أشد التأكيد على ملازمة الامتثال والتحذّر عن الخلاف:

احديها: أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبيّ الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالى: وإن الذين أُوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، الآية، وفي ترك هذا الحكم الحجة لليهود على المسلمين بأن النبي ليس هو النبي الموعود لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حجتهم إلا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتّباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتّباع الأهواء، والله لا يهدي القوم الظالمين واخشوني.

وثانيتها: أن ملازمة هذا الحكم يسوق المسلمين الى تمام النعمة عليهم بكمال دينهم، وسنبيّن معنى تمام النعمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ (المائدة / ٤).

وثالثتها: رجاء الاهتداء الى الصراط المستقيم، وقد مرَّ معنى الاهتداء في الكلام على معنى قوله تعالى: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ (فاتحة الكتاب / ٦)[1][2].

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾، ظاهر الآية أن الكاف للتشبيه وما مصدرية، فالمعنى: أنعمنا عليكم بأن جعلنا لكم البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا له بما دعا من الخيرات والبركات قبلة. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويعلمكم الكتاب

---

١. البقرة ١٤٢ ـ ١٥١: بحث حول «اتمام النعمة».

٢. البقرة ١٤٢ ـ ١٥١: بحث روائي حول تغيير القبلة من بيت المقدس الى مكة؛ الآية «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»؛ الامّة الاسلامية؛ القول والعمل والايمان.

والحكمة ويزكيكم مستجيبين لدعوة إبراهيم، اذ قال هو وابنه إسماعيل ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، وفيهم امتنانٌ عليهم بالإرسال كالامتنان بجعل الكعبة قبلة، ومن هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولا منكم، هو الأمة المسلمة، وهو أولياء الدين من الامة خاصة بحسب الحقيقة، والمسلمون جميعاً من آل إسمعيل ـ وهم عرب مضر ـ بحسب الظاهر، وجميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا﴾، ظاهره آيات القرآن لمكان قوله يتلو، فإن العناية في التلاوة الى اللفظ دون المعنى، والتزكية هي التطهير، وهو إزالة الأدناس والقذرات، فيشمل إزالة الاعتقادات الفاسدة كالشرك والكفر، وإزالة الملكات الرذيلة من الأخلاق كالكبر والشحّ، وإزالة الأعمال والأفعال الشنيعة كالقتل والزنا وشرب الخمر وتعليم الكتاب والحكمة، وتعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصلية والفرعية[1][2].

١٥٢ ● فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ.

بيان:

لما امتن الله تعالى على النبي والمسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمة لا تقدر بقدر

---

١. البقرة ١٤٢ ـ ١٥١: بحث علمي حول القبلة؛ الجداول الموضوعة في الزيجات لبيان عرض البلاد وطولها؛ الاشتباه المتقدمين في تشخيص الطول والعرض كرامة باهرة للنبي ﷺ في محرابه المحفوظ في مسجد بالمدينة؛ استخراج قبلة بقاع الارض.

٢. البقرة ١٤٢ ـ ١٥١: بحث اجتماعي في الطبيعة الانسانية ودورها في تشكيل المجتمع الانساني؛ التوجه العبادي الى الله سبحانه؛ آثار استقبال القبلة بالنظر الى الفرد والى المجتمع.

ومنحة على منحة ـ وهو ذكر منه لهم ـ اذ لم ينسهم في هدايتهم الى مستقيم الصراط، وسوقهم الى أقصى الكمال، وزيادة على ذلك، وهو جعل القبلة، الذي فيه كمال دينهم، وتوحيد عبادتهم، وتقويم فضيلتهم الدينية والاجتماعية فرّع على ذلك دعوتهم الى ذكره وشكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم، وقد قال تعالى: ﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾ (الكهف / ٢٤). وقال تعالى: ﴿لأن شكرتم لازيدنكم﴾ (إبراهيم / ٧)، والآيتان جميعاً نازلتان قبل آيات القبلة من سورة البقرة.

ثم إن الذكر ربما قابل الغفلة كقوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ (الكهف / ٢٨). وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافه، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه، ومنه قوله تعالى: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الآية؛ وهو حينئذ كالنسيان معنى ذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق في آثارهما وإن لم تتحقق أنفسهما، فإنك اذا لم تنصر صديقك ـ وأنت تعلم حاجته الى نصرك فقد نسيته، والحال أنك تذكره، وكذلك الذكر.

والظاهر أن إطلاق الذكر على الذكر اللفظي من هذا القبيل، فإن التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلباً، قال تعالى: ﴿قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ (الكهف / ٨٣). ونظائره كثيرة، ولو كان الذكر اللفظي أيضاً ذكراً حقيقة فهو من مراتب الذكر، لأنه مقصور عليه ومنحصر فيه، وبالجملة: الذكر له مراتب كما قال تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد / ٢٨)، وقال: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول﴾ (الأعراف / ٢٠٥)، وقال تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكراً﴾ (البقرة / ٢٠٠)، فالشدة إنما يتصف به المعنى دون اللفظ، وقال تعالى: ﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل

عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ (الكهف / ٢٤)، وذيل هذه الآية تدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة مما هو فيه، فيؤل المعنى الى أنك اذا تنزلت من مرتبة من ذكره الى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربك وارج بذلك ما هو أقرب طريقاً وأعلى منزلة، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبين صحة قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فان الحضور ذو مراتب.

ولو كان لقوله تعالى: فاذكروني ـ وهو فعل متعلق بياء المتكلم حقيقة من دون تجوز أفاد ذلك، أن للانسان سنخاً آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم، اذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد وتوصيف للمعلوم من العالم، وقد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾ (الصافات / ١٦٠)، وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (طه / ١١٠)، وسيجيء بعض ما يتعلق بالمقام في الكلام على الآيتين إنشاء الله.

١٥٣ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

١٥٤ ● وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ.

١٥٥ ● وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ.

١٥٦ ● الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

١٥٧ ● أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الآية، قد تقدم جملة من الكلام في الصبر والصلوة في تفسير قوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (البقرة / ٤٥)، والصبر: من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن، ويكرر الأمر به حتى بلغ قريباً من سبعين موضعاً من القرآن حتى قيل فيه: ﴿إن ذلك من عزم الامور﴾ (لقمان / ١٧)، وقيل: ﴿وما يلقّيها إلا الذين صبروا وما يلقّيها إلّا ذو حظ عظيم﴾ (فصلت / ٣٥)، وقيل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر / ١٠).

والصلوة: من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن حتى قيل فيها: ﴿إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (العنكبوت / ٤٥)، وما أوصى الله في كتابه بوصايا إلّا كانت الصلوة رأسها وأولها.

ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر، وإنما لم يصف الصلوة، كما في قوله تعالى: وأستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة، الآية، لأن المقام في هذه الآيات، مقام ملاقات الأهوال، ومقارعة الأبطال، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الاية السابقة، فلذلك قيل لا إن الله مع الصابرين، وهذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد / ٤)، فإنها معية الإحاطة والقيمومة، بخلاف المعية مع الصابرين، فإنها معية إعانة فالصبر مفتاح الفرج.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الآية، ربما يقال: إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم

الآخر وأذعنوا بالحيوة الاخرة. ولا يتصور منهم القول ببطلان الإنسان بالموت، بعدما أجابوا دعوة الحق وسمعوا شيئاً كثيراً من الآيات الناطقة بالمعاد، مضافاً الى أن الآية إنما تثبت الحيوة بعد الموت في جماعة مخصوصين، وهم الشهداء المقتولون في سبيل الله، في مقابل غيرهم من المؤمنين، وجميع الكفار، مع أن حكم الحيوة بعد الموت عام شامل للجميع فالمراد بالحيوة بقاء الاسم، والذكر الجميل على مر الدهور، وبذلك فسره جمع من المفسرين.

ويرده أولا: أن كون هذه حيوة إنما هو في الوهم فقط دون الخارج، فهي حيوة تخيلية ليس لها في الحقيقة إلّا الاسم، ومثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه، وهو تعالى يدعو الى الحق، ويقول: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ (يونس / ٣٢)، وأما الذي سئله إبراهيم في قوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الاخرين﴾ (الشعراء / ٨٤)، فإنما يريد به بقاء دعوته الحقة، ولسانه الصادق بعده، لاحسن ثنائه وجميل ذكره بعده فحسب.

وثانيا: ان ذيل الآية ـ وهو قوله تعالى: ولكن لا تشعرون ـ لا يناسب هذا المعنى، بل كان المناسب له أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، وثناء الناس عليهم بعدهم، لأنه المناسب لمقام التسلية وتطييب النفس.

وثالثاً: أن نظيرة هذه الآية ـ وهي تفسرها ـ وصف حيوتهم بعد القتل بما ينافي هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران / ١٩٦)، الى آخر الآيات ومعلوم أن هذه الحيوة حيوة خارجية حقيقية ليست بتقديرية.

ورابعا: ان الجهل بهذه الحيوة التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في اواسط عهد رسول الله ﷺ فإن الذي هو نص غير قابل للتأويل انما هو البعث للقيمة، واما ما بين الموت الى المحشر ـ وهي الحيوة البرزخية ـ فهي وان كانت من جملة ما بينه القرآن

من المعارف الحقة، لكنها ليست من ضروريات القرآن، والمسلمون غير مجمعين عليه بكل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة وان الانسان يبطل وجوده بالموت وانحلال التركيب، ثم يبعثه الله الى القضاء يوم القيمة، فيمكن ان يكون المراد بيان حيوة الشهداء في البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك، وان علم به آخرون.

فمعنى الآية ـ والله اعلم ـ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات، ولا تعتقدوا فيهم الفناء والبطلان كما يفيده لفظ الموت عندكم، ومقابلته مع الحياة، وكما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا باموات بمعنى البطلان، بل احياء ولكن حواسكم لا تنال ذلك ولا تشعر به، وإلقاء هذا القول على المؤمنين ـ مع انهم جميعاً أو أكثرهم عالمون ببقاء حيوة الانسان بعد الموت، وعدم بطلان ذاته ـ انما هو لإيقاظهم وتنبيههم بما هو معلوم عندهم، يرتفع بالالتفات اليه الحرج عن صدورهم، والاضطراب والقلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبة القتل، فانه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند اولياء القتيل الا مفارقة في ايام قلائل في الدنيا وهو هيّن في قبال مرضاة الله سبحانه وما ناله القتيل من الحيوة الطيبة، والنعمة المقيمة، ورضوان من الله اكبر، وهذا نظير خطاب النبي بمثل قوله تعالى: الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، الآية؛ مع انه ﷺ اول الموقنين بآيات ربه، ولكنه كلام كنبيٍّ به عن وضوح المطلب، وظهوره بحيث لا يقبل أي خطور نفساني لخلافه[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، لما أمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلوة، ونهاهم عن القول بموت من يقتل منهم في سبيل الله بل هم أحياء بيَّن لهم السبب الذي من أجله خاطبهم بما

---

١. البقرة ١٥٣ـ١٥٧: بحث في نشأة البرزخ؛ تجرد النفس.

خاطب، وهو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالي ولا يصفو لهم الأمر في الحيوة الشريفة، والدين الحنيف إلا به، وهو الحرب والقتال، لا يدور رحى النصر والظفر على مرادهم إلّا أن يتحصنوا بهذين الحصنين ويتأيدوا بهاتين القوتين، وهما الصبر والظفر، ويضيفوا الى ذلك ثالثاً وهو خصلة ما حفظها قوم إلّا ظفروا بأقصى مرادهم وحازوا الغاية القصوى من كمالهم، واشتد بأسهم وطابت نفسهم، وهو الإيمان بأنّ القتيل منهم غير ميت ولا فقيد، وأن سعيهم بالمال والنفس غير ضائع ولا باطل، فإن قتلوا عدوهم فهم على الحيوة، وقد أبادوا عدوهم وما كان يريده من حكومة الجور والباطل عليهم ـ وإن قتلهم عدوهم فهم على الحيوة ـ ولم يتحكم الجور والباطل عليهم، فلهم إحدى الحسنيين على أي حالٍ.

وعامة الشدائد التي يأتي بها هو الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس فذكرها الله تعالى، وأما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإن تأثير الحرب في قلة النسل بموت الرجال والشبان أظهر من تأثيره في نقص ثمرات الأشجار، وربما قيل: إن المراد ثمرات النخيل، وهي التمر والمراد بالأموال غيرها وهي الدواب من الإبل والغنم.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اعاد ذكر الصابرين ليبشرهم اولا، ويبيّن كيفية الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانياً، ويظهر به حق الامر الذي يقضي بوجوب الصبر ـ وهو ملكه تعالى للانسان ـ ثالثاً، ويبيّن جزائه العام ـ وهو الصلوة والرحمة والاهتداء ـ رابعاً.

فأمر تعالى نبيه اولا بتبشيرهم، ولم يذكر متعلق البشارة لتفخيم امره فانها من الله سبحانه فلا تكون الا خيراً وجميلا، وقد ضمنها رب العزة، ثم بيّن ان الصابرين هم الذين يقولون: كذا وكذا عند إصابة المصيبة، وهي الواقعة التي تصيب الانسان، ولا يستعمل لفظ المصيبة الا في النازلة المكروهة، ومن المعلوم ان ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجملة من غير حضور معناها بالبال، ولا مجرد الاخطار من غير تحقق بحقيقة معناها، وهي ان الانسان مملوك لله

بحقيقة الملك، وان مرجعه الى الله سبحانه وبه يتحقق أحسن الصبر الذي يقطع منابت الجزع والأسف، ويغسل رين الغفلة[1].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الآية: التدبر في الآية يعطي أن الصلوة غير الرحمة بوجه، ويشهد به جمع الصلوة وإفراد الرحمة، وقد قال تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ (الأحزاب / ٤٣)، والآية تفيدكون قوله: وكان بالمؤمنين رحيماً، في موقع العلة لقوله: هو الذي يصلي عليكم، والمعنى انه انما يصلي عليكم، وكان من اللازم المترقب ذلك، لأن عادته جرت على الرحمة بالمؤمنين، وأنتم مؤمنون فكان من شأنكم أن يصلي عليكم حتى يرحمكم، فنسبة الصلوة الى الرحمة نسبة المقدمة الى ذيها وكالنسبة التي بين الالتفات والنظر، والتي بين الإلقاء في النار والإحراق مثلاً، وهذا يناسب ما قيل في معنى الصلوة: أنها الانعطاف والميل، فالصلوة من الله سبحانه إنعطاف الى العبد بالرحمة ومن الملائكة إنعطاف الى الإنسان بالتوسط في إيصال الرحمة، ومن المؤمنين رجوع ودعاءً بالعبودية وهذا لا ينافي كون الصلوة بنفسها رحمة ومن مصاديقها، فإن الرحمة في القرآن على ما يعطيه التدبر في مواردها هي العطيه المطلقة الإلهية، والموهبة العامة الربانية، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ (الأعراف / ١٥٦)، وقال تعالى: ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ (الأنعام / ١٣٣)، فالإذهاب لغناه والاستخلاف والإنشاء لرحمته، وهما جميعاً يستندان الى رحمته كما يستندان الى غناه فكل خلق وأمر رحمةٌ، كما أن كل خلق وأمر عطية تحتاج الى غنى،

---

١. البقرة ١٥٣ـ١٥٧: بحث في الاخلاق: تهذيب الاخلاق واكتساب الفاضلة منها والمسالك المختلفة فيها؛ مسلك في تهذيب الاخلاق مخصوص بالقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠)، ومن عطيته الصلوة فهي أيضاً من الرحمة غير أنها رحمةٌ خاصة، ومن هنا يمكن أن يوجه جمع الصلوة وإفراد الرحمة في الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، كأنه بمنزلة النتيجة لقوله: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، ولذلك جدّد إهتدائهم جملة ثانية مفصولة عن الأولى، ولم يقل: صلوات من ربهم ورحمةٌ وهدايةٌ، ولم يقل: وأولئك هم المهديون بل ذكر قبولهم للهداية بالتعبير بلفظ الاهتداء الذي هو فرع مترتب على الهداية، فقد تبدو أن الرحمة هدايتم إليه تعالى، والصلوات كالمقدمات لهذه الهداية واهتدائهم نتيجة هذه الهداية، فكل من الصلوة والرحمة والاهتداء غير الآخر وإن كان الجميع رحمة بنظر آخر.

فمثل هؤلاء المؤمنين في ما يخبره الله من كرامته عليهم مثل صديقك تلقاه وهو يريد دارك، ويسئل عنها يريد النزول بك فتلقاه بالبشر والكرامة، فتورده مستقيم الطريق وأنت معه تسيره، ولا تدعه يضل في مسيره حتى تورده نزله من دارك وتعاهده في الطريق بمأكله ومشربه، وركوبه وسيره، وحفظه من كل مكروه يصيبه فجميع هذه الامور إكرام واحدٌ لأنك إنما تريد إكرامه، وكل تعاهد تعاهدٌ وإكرام خاص، والهداية غير الإكرام، وغير التعاهد، وهو مع ذلك إكرامٌ فكل منها تعاهد، وكل منها هداية وكل منها إكرام خاص، والجميع إكرامٌ. فالإكرام الواحد العام بمنزلة الرحمة، والتعاهدات في كل حين بمنزلة الصلوات، والنزول في الدار بمنزلة الاهتداء.

والاتيان بالجملة الاسمية في قوله: وأولئك هم المهتدون، والابتداء باسم الإشارة الدالّ على البعيد، وضمير الفصل ثانياً وتعريف الخبر بلام الموصول في قوله: المهتدون كل ذلك

لتعظيم أمرهم وتفخيمه ـ والله أعلم ـ[١][٢][٣][٤].

١٥٨ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

بيان:

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ـ الى قوله ـ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يشير الى كون المكانين معلّمين بعلامة الله سبحانه، يدلان بذلك عليه، ويذكّر انه تعالى واختصاصهما بكونهما من الشعائر دون بقية الأشياء جميعاً يدل على أن المراد بالشعائر ليست الشعائر التكوينية بل هما شعيرتان بجعله تعالى إياهما معبدين يعبد فيهما، فهما يذكّران الله سبحانه، فكونهما شعيرتين يدلّ على أنه تعالى قد شرع فيهما عبادة متعلقة بهما، وتفريع قوله: ﴿فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما﴾ إنّما هو للإيذان بأصل تشريع السعي بين الصفا والمروة، لا لإفادة الندب، ولو كان المراد إفادة النّدب كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التّطوف، لا أن ينفي ذمّه، فإن حاصل المعنى أنّه لمّا كان الصّفا والمروة معبدين

---

١. البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧: بحث روائي في البرزخ وحياة الروح بعد الموت.

٢. البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧: بحث فلسفي في النفس: هل النفس مجردة عن المادة؟

٣. البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧: بحث اخلاقي في علم الاخلاق (وهو الفن الباحث عن الملكات الانسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانيه والانسانية)؛ اصول الاخلاق الفاضلة (العفة والشجاعة والحكمة والعدالة) وفروعاتها؛ النظرية العجيبة التي ذهب اليها الاشتراكيون من الماديين والنظرية غير حديثة؛ الحسن والقبح مطلق ونسبي.

٤. البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧: بحث روائي في الاحكام العقلية والاحكام الشرعية.

ومنسكين من معابد الله فلا يضرّكم أن تعبدوه فيها. وهذا لسان التشريع، ولو كان المراد إفادة النّدب كان الأنسب أن يفاد أنّ الصّفا والمروة لمّا كانا من شعائر الله فإن الله يحبّ السعي بينهما ـ وهو ظاهر ـ والتعبير بأمثال هذا القول الّذي لا يفيد وحده الإلزام في مقام التشريع شائع في القرآن، كقوله تعالى في الجهاد: ﴿ذلكم خير لكم﴾ (الصف / ١١)، وفي الصوم ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ (البقرة / ١٨٤)، وفي القصر ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلوة﴾ (النساء / ١٠١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّٰهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، إن كان معطوفاً على مدخول فاء التفريع في قوله تعالى: فمن حجّ البيت أو اعتمر، كان كالتعليل لتشريع التطوّف بمعنى آخر أعمّ من العلة الخاصّة الّتي تبين بقوله: إنّ الصّفا والمروة، وكان المراد بالتطوّع مطلق الإطاعة لا الإطاعة المندوبة، وإن كان استينافاً بالعطف الى اول الآية كان مسوقاً لإفادة محبوبية التطوف في نفسه ان كان المراد بتطوع الخير هو التطوف او مسوقاً لافادة محبوبية الحج والعمرة ان كانا هما المراد بتطوع الخير هذا.

والشاكر والعليم اسمان من اسماء الله الحسنى، والشكر هو مقابلة من احسن إليه إحسان المحسن بإظهار لساناً أو عملا كمن ينعم إليه المنعم بالمال فيجازيه بالثناء الجميل الدالّ على نعمته أو باستعمال المال في ما يرتضيه، ويكشف عن إنعامه، والله سبحانه وإن كان محسناً قديم الإحسان ومنه كلّ الإحسان لا يد لأحد عنده حتى يستوجبه الشكر إلّا أنّه جلّ ثنائه عدّ الأعمال الصالحة الّتي هي في الحقيقة إحسانه الى عباده إحساناً من العبد إليه، فجازاه بالشكر والإحسان وهو إحسان على إحسان قال تعالى: ﴿هل جزاء الاحسان إلّا الإحسان﴾ (الرحمن / ٦٠)، وقال تعالى: ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءاً وكان سعيكم مشكوراً﴾ (الدهر / ٢٢)، فإطلاق الشّاكر عليه تعالى على حقيقة معنى الكلمة من غير مجاز.

١٥٩ ● إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

١٦٠ ● إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

١٦١ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

١٦٢ ● خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾. الظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالهدى ما تضمنه الدين الإلهي من المعارف والأحكام الذي يهدي تابعيه الى السعادة، وبالبينات الآيات والحجج التي هي بينات وأدلة وشواهد على الحق الذي هو الهدى، فالبينات في كلامه تعالى وصف خاصّ بالآيات النازلة، وعليهذا يكون المراد بالكتمان ـ وهو الإخفاء ـ أعم من كتمان أصل الآية، وعدم إظهاره للناس، وأو كتمان دلالته بالتأويل أو صرف الدلالة بالتوجيه، كما كانت اليهود تصنع ببشارات النبوة ذلك فما يجهله الناس لا يظهرونه لهم، وما يعلم به الناس يؤوّلونه بصرفه عنه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾، أفاد أن كتمانهم إنما هو بعيد البيان والتبين للناس، لا لهم فقط، وذلك أن التبين لكل شخص شخص من أشخاص الناس أمر لا يحتمله

النظام الموجود المعهود في هذا العالم، لا في الوحي فقط، بل في كل إعلام عمومي وتبيين مطلق، بل إنما يكون باتصال الخبر الى بعض الناس من غير واسطة والى بعض آخرين بواسطتهم، بتبليغ الحاضر الغائب، والعالم الجاهل، فالعالم يعد من وسائط البلوغ وأدواته، كاللسان والكلام: فاذا بين الخبر للعالم المأخوذ عليه الميثاق بعلمه مع غيره من المشافهين فقد بين للناس، فكتمان العالم علمه هذا كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم وهو السبب الوحيد الذي عده الله سبحانه سبباً لاختلاف الناس في الدين وتفرقهم في سبل الهداية والضلالة، وإلّا فالدين فطري تقبله الفطرة وتخضع له القوة المميزة بعدما بين لها، قال تعالى: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطره الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (الروم / ٣٠)، فالدين فطري على الخلقة لا يدفعه الفطرة أبداً لو ظهر لها ظهوراً ما بالصفاء من القلب، كما في الأنبياء، أو ببيان قولي، ولا محالة ينتهي هذا الثاني الى ذلك الأول فافهم ذلك.

ولذلك جمع في الآية بين كون الدين فطرياً على الخلقة وبين عدم العلم به فقال: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وقال: لكن أكثر الناس لا يعلمون، وقال تعالى: ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أُوتوه من بعد ما جائتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ (البقرة / ٢١٣)، فأفاد أن الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب إنما هو ناش عن بغي العلماء الحاملين له، فالاختلافات الدينية والإنحراف عن جادة الصواب معلول بغي العلماء بالإخفاء والتأويل والتحريف، وظلمهم، حتى أن الله عرف الظلم بذلك يوم القيمة كما قال: ﴿ **وأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً** ﴾ (الأعراف / ٤٤)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: ﴿ **أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللّٰاعِنُونَ** ﴾، بيان لجزاء بغي الكاتمين لما أنزله الله من الآيات والهدى، وهو اللعن من الله، واللعن من كل لاعن، وقد كرر اللعن لأن

اللعن مختلف فإنه من الله التبعيد من الرحمة والسعادة ومن اللاعنين سؤاله من الله، وقد أطلق اللعن منه ومن اللاعنين وأطلق اللاعنين، وهو يدل على توجيه كل اللعن من كل لاعن إليهم والاعتبار يساعد عليه فإن الذي يقصده لاعن بلعنه هو البعد عن السعادة، ولا سعادة بحسب الحقيقة، إلّا السعادة الحقيقية الدينية، وهذه السعادة لما كانت مبينة من جانب الله، مقبولة عند الفطرة، فلا يحرم عنها محروم إلّا بالرد والجحود، وكل هذا الحرمان إنما هو لمن علم بها وجحدها عن علم دون من لا يعلم بها ولم تبين له، وقد أخذ الميثاق على العلماء أن يبثوا علمهم وينشروا ما عندهم من الآيات والهدى، فاذا كتموه وكفوا عن بثه فقد جحدوه فأولئك يلعنهم لله ويلعنهم اللاعنون، ويشهد لما ذكرنا الآية الآتية: إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ـ الى قوله ـ أجمعين، الآية؛ فإن الظاهر أن قوله: ان للتعليل أو لتأكيد مضمون هذه الآية، بتكرار ما هو في مضمونها ومعناها وهو قوله: الذين كفروا وماتوا وهم كفار.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَبَيَّنُوا﴾ الآية استثناء من الآية السابقة، والمراد بتقييد توبتهم بالتبين أن يتبين أمرهم ويتظاهروا بالتوبة، ولازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس وأنهم كانوا كاتمين والا فلم يتوبوا بعد لأنهم كاتمون بعد بكتمان أنهم كانوا كاتمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، كناية عن إصرارهم على كفرهم وعنادهم وتعنتهم في قبول الحق فإن من لا يدين بدين الحق لا لعناد واستكبار بل لعدم تبينه له ليس بكافر بحسب الحقيقة، بل مستضعف، أمره الى الله، ويشهد بذلك تقييد كفر للكافرين في غالب الآيات والتكذيب وخاصة في آيات هبوط آدم المشتملة على أول تشريع شرع لنوع الإنسان، قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى﴾ ـ الى قوله ـ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩)، فالمراد بالذين كفروا في الآية هم المكذبون المعاندون ـ وهم الكاتمون لما أنزل الله ـ وجازاهم الله تعالى بقوله: أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وهذا حكم

من الله سبحانه أن يلحق بهم كل لعن لعن به ملك من الملائكة أو أحد من الناس جميعاً من غير استثناء، فهؤلاء سبيلهم سبيل الشيطان، اذ قال الله سبحانه فيه: ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ (الحجر / ٣٥)، فجعل جميع اللعن عليه فهؤلاء ـ وهم العلماء الكاتمون لعلمهم ـ شركاء الشيطان في اللعن العام المطلق ونظرائه فيه، فما أشد لحن هذه الآية وأعظم أمرها! وسيجيء في الكلام على قوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ (الأنفال / ٣٧)، ما يتعلق بهذا المقام إنشاء الله العزيز.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي في اللعنة، وقوله: لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، في تبديل السياق بوضع العذاب موضع اللعنة دلالة على أن اللعنة تتبدل عليهم عذاباً.

١٦٣ ● وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ.

١٦٤ ● إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٦٥ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ.

١٦٦ ● إِذْ تَبَرَّءَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ.

١٦٧ ● وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّءَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قد مر معنى الإله في الكلام على البسملة من سورة الحمد في أول الكتاب، وأما الوحدة ففهومها من المفاهيم البديهية التي لا نحتاج في تصورها الى معرف يدلنا عليها، والشيء ربما يتصف بالوحدة من حيث وصف من أوصافه، كرجل واحد، وعالم واحد، وشاعر واحد، فيدل به على أن الصفة التي فيه لا تقبل الشركة ولا تعرضها الكثرة، فان الرجولية التي في زيد مثلاً ـ وهو رجل واحد ـ ليست منقسمة بينه وبين غيره، بخلاف ما في زيد وعمرو مثلاً ـ وهما رجلان ـ فانه منقسم بين اثنين كثير بهما، فزيد من جهة هذه الصفة ـ وهي الرجولية ـ واحد لا يقبل الكثرة، وإن كان من جهة هذه الصفة وغيرها من الصفات كعلمه، وقدرته، وحيوته، ونحوها ليس بواحد بل كثير حقيقة، والله سبحانه واحد، من جهة أن الصفة التي لا يشاركه فيها غيره، كالالوهية فهو واحد في الالوهية، لا يشاركه فيها غيره تعالى، والعلم والقدرة والحيوة، فله علم لا كالعلوم وقدرة وحيوة لا كقدرة غيره وحيوته، وواحد من جهة أن الصفات التي له لا تتكثر ولا تتعدد إلّا مفهوماً فقط، فعلمه وقدرته وحيوته جميعها شيء واحد هو ذاته، ليس شيء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته ويقدر بحيوته وحيّ بعلمه، لا كمثل غيره في تعدد الصفات عيناً

ومفهوماً، وربما يتصف الشيء بالوحدة من جهة ذاته، وهو عدم التكثر والتجزي في الذات بذاته، فلا تتجزى الى جزء وجزء، والى ذات واسم وهكذا، وهذه الوحدة هي المسماة بأحدية الذات، ويدل على هذا المعنى بلفظ أحد، الذي لا يقع في الكلام من غير تقييد بالإضافة إلا اذا وقع في حيز النفي أو النهي أو ما في معناهما كقولنا ما جائني أحد، فيرتفع بذلك أصل الذات سواء كان واحداً أو كثيراً، لأن الوحدة مأخوذة في أصل الذات لا في وصف من أوصافه بخلاف قولنا: ما جائني واحد فان هذا القول لا يكذب بمجيء اثنين أو أزيد لأن الوحدة مأخوذة في صفة الجائي وهو الرجولية في رجل واحد مثلاً فاحتفظ بهذا الإجمال حتى نشرحه تمام الشرح في قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الإخلاص / ١)، إنشاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، جيء به لتأكيد نصوصية الجملة السابقة في التوحيد ونفي كل توهم أو تأويل يمكن أن يتعلق بها، والنفي فيه نفي الجنس، والمراد بالإله ما يصدق عليه الإله حقيقة وواقعاً، وحينئذ فيصح أن يكون الخبر المحذوف هو موجود أو كائن، أو نحوهما، والتقدير لا إله بالحقيقة والحق بموجود، وحيث كان لفظة الجلالة مرفوعاً لا منصوباً فلفظ إلّا ليس للاستثناء، بل وصف بمعنى غير، والمعنى لا إله غير الله بموجود.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَـنُ الرَّحِيمُ﴾، قد مر الكلام في معناهما في تفسير البسملة من سورة الفاتحة وبذكر الاسمين يتم معنى الربوبية، فإليه تعالى ينتهي كل عطية عامة، بمقتضى رحمانيته، وكل عطية خاصة واقعة في طريق الهداية والسعادة الاخروية بمقتضى رحيميته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية؛ السياق كما في أول البيان يدل على أن الآية مسوقة للدلالة والبرهنة على ما تضمنته الآية السابقة أعني قوله

تعالى: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الآية؛ فإن الآية تنحل بحسب المعنى الى أن لكل شيء من هذه الأشياء إلهاً، وأن إله الجميع واحد وأن هذا الإله الواحد هو إلهكم، وأنه رحمن مفيض للرحمة العامة، وأنه رحيم يسوق الى سعادة الغاية ـ وهي سعادة الآخرة ـ فهذه حقائق حقة، وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار الى آخر ما ذكر في الآية آيات دالة عليها عند قوم يعقلون.

ولو كان المراد إقامة الحجة على وجود إله الإنسان أو أن إله الإنسان واحد لما كان الجميع إلا آية واحدة دالة على ذلك من طريق اتصال التدبير، ولكان حق الكلام في الآية السابقة أن يقال: وإلهكم واحد لا إله إلا هو، فالآية مسوقة للدلالة على الحجة على وجود الإله وعلى وحدته بمعنى أن إله غير الإنسان من النظام الكبير واحد وأن ذلك بعينه إله الإنسان.

وإجمال الدلالة أن هذه السموات التي قد علتنا وأظلتنا على ما فيها من بدائع الخلقة، والأرض التي قد أقلتنا وحملتنا مع عجيب أمرها وسائر ما فيها من غرائب التحولات والتقلبات كاختلاف الليل والنهار، والفلك الجارية، والأمطار النازلة، والرياح المصرفة، والسحب المسخرة امور مفتقرة في نفسها الى صانع موجد، فلكل منها إله موجد (وهذا هو الحجة الاولى).

ثم إن هذه الأجرام الجوية المختلفة بالصغر والكبر والبعد والقرب (وقد وجد الواحد في الصغر على ما بلغه الفحص العلمي ما يعادل: ٣٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠/٠ من سانتيمتر مكعب والواحد في الكبر ما يعادل الملايين من حجم الأرض وهو كرة يعادل قطرها ٩٠٠٠ ميلاً تقريباً، واكتشف من المسافة بين جرمين علويين ما يقرب من ثلاثة ملايين سنة نورية، والسنة النورية من المسافة تعدل ٣٦٥ × ٢٤ × ٦٠ × ٦٠ × ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر تقريباً)، فانظر الى هذه الأرقام التي تدهش اللب وتبهت الفكر واقض ما أنت قاض في غرابة الأمر وبداعته تفعل البعض منها في البعض، وتنفعل البعض منها عن البعض أينما كانت وكيفما

كانت بالجاذبة العامة، وإفاضة النور والحرارة وتحيى بذلك سنة الحركة العامة والزمان العمومي، وهذا نظام عام دائم تحت قانون ثابت، حتى أن النسبية العمومية القاصية بالتغير في قوانين الحركة في العالم الجسماني لا تتجافى عن الاعتراف بأن التغيير العمومي أيضاً محكوم قانون آخر ثابت في التغير والتحول، ثم إن هذه الحركة والتحول العمومي تتصور في كل جزء من أجزاء العالم بصورة خاصة كما بين الشمس التي لعالمنا مع منظومتها ثم تزيد ضيقاً في الدائرة كما في أرضنا مع ما يختص بها من الحوادث والأجرام، كالقمر والليل والنهار، والرياح والسحب والأمطار، ثم تتضيق الدائرة، كما في المكونات الأرضية: من المعادن والنبات والحيوان وساير التراكيب، ثم في كل نوع من أنواعها، ثم تتضيق الدائرة حتى تصل النوبة الى العناصر، ثم الى الذرات، ثم الى أجزاء الذرات حتى تصل الى آخر ما انتهى الفحص العلمي الميسور للإنسان الى هذا اليوم، وهي الإلكترون، والبروتون، ويوجد هناك نظير المنظومات الشمسية جرم مركزي وأشياء يدور حولها دوران الكواكب على مدارتها التي حول شمسها وسبحها في أفلاكها.

ففي أي موقف من هذه المواقف وقف الإنسان شاهد نظاماً عجيباً ذا تحولات وتغيرات، يحفظ بها أصل عالمه، وتحيى بها سنة إلهية لا تنفد عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، لا استثناء في جريها وإن كان واحداً، ولا اتفاق في طيها وإن كان نادراً شارداً، لا يدرك ساحلها ولا يقطع مراحلها، وكلما ركبت عدة منها أخذاً من الدقيق الى الجليل وجدتها لا تزيد على عالم واحد ذا نظام واحد، وتدبير متصل حتى ينتهي الأمر الى ما انتهى اليه توسع العلم الى اليوم بالحس المسلح والارصاد الدقيقة، وكلما حللتها وجزيتها راجعاً من الكل الى الجزء حتى تنتهي الى مثل المليكول وجدته لا تفقد من العالم الواحد شيئاً ذا نظام واحد وتدبير متصل، على أن كل اثنين من هذه الموجودات متغاير الواحدين ذاتاً وحكماً شخصاً.

فالعالم شيء واحد والتدبير متصل، وجميع الأجزاء مسخرة تحت نظام واحد وإن كثرت

واختلفت أحكامها، وعنت الوجوه للحي القيوم، فإله العالم الموجد له والمدبر لأمره واحد (وهذا هو البرهان الثاني).

ثم إن الإنسان الذي هو موجود أرضي يحيى في الأرض ويعيش في الأرض ثم يموت ويرجع الى الأرض لا يفتقر في شيء من وجوده وبقائه الى أزيد من هذا النظام الكلي الذي لمجموع هذا العالم المتصل تدبيره، الواحد نظامه، فهذه الأجرام العلوية في إنارتها وتسخينها، وهذه الأرض في اختلاف ليلها ونهارها ورياحها وسحبها وأمطارها ومنافعها التي تجري من قطر الى قطر من رزق ومتاع هي التي تحتاج اليها الإنسان في حاجته المادية وتدبير وجوده وبقائه ـ والله من ورائهم محيط ـ فإلهها الموجد لها المدبر لأمرها هو إله الإنسان الموجد له والمدبر لأمره (وهذا هو البرهان الثالث).

ثم ان هذا الإله هو الذي يعطي كلاً ما يحتاج اليه في سعادته الوجودية وما يحتاج اليه في سعادته في غايته وآخرته لو كان له سعادة اخروية غائية فإن الآخرة عقبى هذا الدار، وكيف يمكن أن يدبر عاقبة الأمر غير الذي يدبر نفس الأمر؟ (وهذا هو البرهان على الإسمين الرحمن الرحيم).

وعند هذا تم تعليل الآية الاولى بالثانية وفي تصدير الآية بلفظة، إن؛ الدالة على التعليل إشارة الى ذلك ـ والله العالم ـ.

فقوله تعالى: إن في خلق السموات والأرض، اشارة الى ذوات الأجرام العلوية والأرض بما تشتمل على تراكيبها من بدائع الخلق وعجائب الصنع، من صور تقوّم بها أسمائها، ومواد تتألف منها ذواتها، وتحول بعضها الى بعض، ونقص او زيادة تطرئها، وتركب أو تحلل يعرضها، كما قال: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ (الرعد / ٤١)، وقال: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وهو النقيصة والزيادة والطول والقصر العارضان لهما من جهة اجتماع عاملين من العوامل الطبيعية. وهي الحركة اليومية التي للأرض على مركزها وهي ترسم الليل والنهار بمواجهة نصف الكرة وأزيد بقليل دائماً مع الشمس فتكتسب النور وتمص الحراة، ويسمى النهار. واستتار الشمس عن النصف الآخر وأنقص بقليل فيدخل تحت الظل المخروطي وتبقى مظلماً وتسمى الليل. ولا يزالان يدوران حول الأرض، والعامل الآخر ميل سطح الدائرة الاستوائية أو المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركة الانتقالية الى الشمال والجنوب، وهو الذي يوجب ميل الشمس من المعدل الى الشمال أو الجنوب الراسم للفصول، وهذا يوجب استواء الليل والنهار في منطقة خط الاستواء وفي القطبين. أما القطبان فلهما في كل سنة شمسية تامة يوم وليلة واحدة كل منهما يعدل نصف السنة، والليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب وبالعكس. وأما النقطة الاستوائية فلها في كل سنة شمسية ثلاثمائة وخمس وستون ليلاً ونهاراً تقريباً، والنهار والليل فيها متساويان، وأما بقية المناطق فيختلف النهار والليل فيها عدداً وفي الطول والقصر بحسب القرب من النقطة الاستوائية ومن القطبين، وهذا كله مشروح مبين في العلوم المربوطة بها.

وهذا الاختلاف هو الموجب لاختلاف ورود الضوء والحرارة، وهو الموجب لاختلاف العوامل الموجبة لاختلاف حدوث التراكيب الأرضية والتحولات في كينونتها مما ينتفع باختلافها الإنسان انتفاعات مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، والفلك هو السفينة يطلق على الواحد والجمع، والفلك والفلكة كالتمر والتمرة والمراد بما ينفع الناس المتاع والرزق تنقلها من ساحل الى ساحل ومن قطر من أقطار الأرض الى قطر آخر.

وفي عد الفلك في طي الموجودات والحوادث الطبيعية التي لا دخل لاختيار الإنسان فيها

كالسماء والأرض واختلاف الليل والنهار دلالة على أنها أيضاً تنتهي مثلها الى صنع الله سبحانه في الطبيعة فان نسبة الفعل الى الإنسان بحسب الدقة لا تزيد على نسبة الفعل الى سبب من الأسباب الطبيعية، والاختيار الذي يتبجح به الإنسان لا يجعله سبباً تاماً مستقلاً غير مفتقر الى إرادة الله سبحانه ولا يجعله أقل احتياجاً اليه تعالى بالنسبة الى سائر الأسباب الطبيعية، فلا فرق من حيث الاحتياج الى إرادة الله سبحانه بين أن يفعل قوة طبيعية في مادة، فتوجد بالفعل والانفعال والتحريك والتركيب والتحليل صورة من الصور كصورة الحجارة مثلا، وبين أن يفعل الإنسان بالتحريك والتقريب والتبعيد في المادة صورة من الصور كصورة السفينة مثلاً في أن الجميع تنتهي الى صنع الله وايجاده لا يستقل شيء مستغنياً عنه تعالى في ذاته وفعله.

فالفلك أيضاً مثل سائر الموجودات الطبيعية تفتقر الى الإله في وجودها وتفتقر الى الإله في تدبير أمرها من غير فرق. وقد أشار تعالى الى هذه الحقيقة بقوله: ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾ (الصافات / ٩٦)، حيث حكاه من إبراهيم فيما قاله لقومه في خصوص الأصنام التي اتخذوها آلهة فان من المعلوم أن الصنم ليس إلّا موجوداً صناعياً كالفلك التي تجري في البحر، وقال تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ (الرحمن / ٢٤)، فعدها ملكاً لنفسه، وقال تعالى: ﴿وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بإذنه﴾ (إبراهيم / ٣٢)، فعد تدبير أمرها راجعاً اليه[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾، فان حقيقته عناصر مختلفة يحملها ماء البحار وغيره ثم يتكاثف بخاراً متصاعداً حاملاً للحرارة حتى ينتهي الى زمهرير الهواء فيتبدل ماء متقاطراً على

١. البقرة ١٦٣ ـ ١٦٧: كلام في استناد مصنوعات الانسان إلى الله سبحانه.

صورة المطر أو يجمد ثانياً فيصير ثلجاً أو برداً فينزل لثقله الى الأرض فتشربه وتحيى به أو تخزنه فيخرج على صورة ينابيع في الأرض بها حيوة كل شيء فالماء النازل من السماء حادث من الحوادث الوجودية جار على نظام متقن غاية الإتقان من غير انتقاض واستثناء ويستند إليه انتشاء النبات وتكون الحيوان من كل نوع.

وهو من جهة تحدده بما يحفه من حوادث العالم طولاً وعرضاً تصير معها جميعاً شيئاً واحداً لا يستغني عن موجد يوجده وعلة تظهره فله إله واحد، ومن جهة أنه مما يستند إليه وجود الإنسان حدوثاً وبقاء يدل على كون إلهه هو إله الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، وهو توجيهها من جانب الى جانب بعوامل طبيعية مختلفة، والأغلب فيها أن الأشعة النورية الواقعة على الهواء من الشمس تتبدل حرارة فيه فيعرضه اللطافة والخفة لأن الحرارة من عواملها فلا يقدر على حمل ما يعلوه أو يجاوره من الهواء البارد الثقيل فينحدر عليه فيدفعه بشدة فيجري الهواء اللطيف الى خلاف سمت الدفع وهو الريح، ومن منافعه تلقيح النبات ودفع الكثافات البخارية، والعفونات المتصاعدة، وسوق السحب الماطرة وغيرها، ففيه حيوة النبات والحيوان والإنسان.

وهو في وجوده يدل على الإله وفي التيامه مع سائر الموجودات واتحاده معها كما مر يدل على إله واحد للعالم، وفي وقوعه طريقاً الى وجود الإنسان وبقائه يدل على أن إله الإنسان وغيره واحد.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، السحاب البخار المتكاثف الذي منه الأمطار وهو ضباب بالفتح ما لم ينفصل من الأرض فاذا انفصل وعلا سمي سحاباً وغياً وغماماً وغير ذلك، والتسخير قهر الشيء وتذليله في عمله، والسحاب مسخر مقهور في سيره وإمطاره بالريح والبرودة وغيرهما المسلطة عليه بإذن الله، والكلام في كون السحاب آية نظير الكلام في غيره مما عد معه.

واعلم: أن اختلاف الليل والنهار والماء النازل من السماء والرياح المصرفة والسحاب المسخر جمل الحوادث العامة التي منها تتألف نظام التكوين في الأرضيات من المركبات النباتية والحيوانية وغيرهما فهذه الآية كالتفصيل بوجه لإجمال قوله تعالى: ﴿وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ (فصلت / ١٠).

قوله تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، العقل ـ وهو مصدر عقل يعقل ـ إدراك الشيء وفهمه التام، ومنه العقل اسم لما يميز به الإنسان بين الصلاح والفساد وبين الحق والباطل والصدق والكذب وهو نفس الإنسان المدرك وليس بقوة من قواه التي هي كالفروع للنفس كالقوة الحافظة والباصرة وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾، الند كالمثل وزناً ومعنى، ولم يقل من يتخذ لله أنداداً كما عبر بذلك في سائر الموارد كقوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ (البقرة / ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ (إبراهيم / ٣٠)، وغير ذلك لأن المقام مسبوق بالحصر في قوله: وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو، الآية، فكان من اتخذ لله أنداداً قد نقض الحصر من غير مجوز واتخذ من يعلم أنه ليس بإله إلهاً اتباعاً للهوى وتهويناً لحكم عقله ولذلك نكره تحقيراً لشأنه، فقال ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً.

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وفي التعبير بلفظ يحبونهم دلالة على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكة، وأفراداً من الإنسان الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته كما يشهد به ما في ذيل الآيات من قوله: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ (البقرة / ١٦٦)، وكما قال تعالى: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران / ٦٤) وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة / ٣١)، وفي الاية دليل على أن الحب يتعلق بالله تعالى حقيقة خلافاً لمن قال: إن الحب ـ وهو

وصف شهواني ـ يتعلق بالأجسام والجسمانيات، ولا يتعلق به سبحانه حقيقة وأن معنى ما ورد من الحب له الإطاعة بالايثار بالأمر والانتهاء عن النهي تجوزاً كقوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران / ٣١).

والاية حجة عليهم فإن قوله تعالى: أشد حباً لله يدل على أن حبه تعالى يقبل الاشتداد، وهو في المؤمنين أشد منه في المتخذين لله انداداً، ولو كان المراد بالحب هو الاطاعة مجازاً كان المعنى والذين آمنوا أطوع لله ولم يستقم معنى التفضيل لأن طاعة غيرهم ليست بطاعة عند الله سبحانه فالمراد بالحب معناه الحقيقي[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، ظاهر السياق أن قوله: اذ مفعول يرى، وان قوله: أن القوة لله الى آخر الآية؛ بيان للعذاب، ولو للتمني. والمعنى ليتهم يرون في الدنيا يوماً يشاهدون فيه العذاب فيشاهدون أن القوة لله جميعاً وقد اخطأوا في إعطاء شيء منه لأندادهم وأن الله شديد في عذابه، واذاقته عاقبة هذا الخطأ فالمراد بالعذاب في الآية ـ على ما يبينه ما يتلوه ـ مشاهدتهم الخطأ في إتخاذهم انداداً يتوهم قوة فيه ومشاهدة عاقبة هذا الخطأ ويؤيده الآيتان التاليتان: اذ تبرأ الذين إتبعوا من الذين اتبعوا فلم يصل من المتبوعين الى تابعيهم نفع كانوا يتوقعونه ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب فلم يبق تأثير لشيء دون الله، وقال الذين اتبعوا لو أن لما كرة، وهو تمني الرجوع الى الدنيا فنتبرأ منهم أي من الأنداد المتبوعين في الدنيا كما تبرأوا منا في الاخرة، كذلك يريهم الله أي الذين ظلموا باتخاذ الأنداد أعمالهم، وهي حبهم واتباعهم لهم في الدنيا حال كونها حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار.

قوله تعالى: ﴿وما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، فيه حجة على القائلين بانقطاع

---

١. البقرة ١٦٣ ـ ١٦٧: بحث في الحب وحب الانداد.

العذاب من طريق الظواهر [١][٢][٣].

١٦٨ ● يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

١٦٩ ● إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.

١٧٠ ● وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ.

١٧١ ● وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ الى آخر الآيتين. الحلال مقابل الحرام الممنوع اقتحامه، والحل مقابل الحرمة، والحل مقابل الحرم، والحل مقابل العقد، وهو في جميع موارد استعماله يعطي معنى حرية الشيء في فعله وأثره، والطيب ـ مقابل الخبيث ـ ما يلائم النفس والشيء، كالطيب من القول لملائمته السمع،

---

١. البقرة ١٦٣ ـ ١٦٧: بحث روائي في توحيد الله سبحانه.

٢. البقرة ١٦٣ ـ ١٦٧: بحث فلسفي في الحب: الحب تعلق وجودي وانجذاب خاص بين العلة المكملة وبين المعلول المستكمل؛ الحب ذو مراتب مختلفة من الشدة والضعف فانه رابطة وجودية؛ ان الله سبحانه أهل للحب بأي جهة فرضت.

٣. البقرة ١٦٣ ـ ١٦٧: بحث فلسفي في انقطاع العذاب والخلود.

والطيب من العطر يلائم الشامة، والطيب من المكان يلائم حال المتمكن فيه. والخطوات بضمتين جمع خطوة، وهي ما بين القدمين للماشي، وقرء خطوات بفتحتين وهي جمع خطوة وهي المرة، وخطوات الشيطان هي الامور التي نسبته الى غرض الشيطان ـ وهو الإغواء بالشرك ـ نسبة خطوات الماشي الى مقصده وغرضه، فهي الامور التي هي مقدمات للشرك والبعد من الله سبحانه، والأمر هو تحميل الآمر إرادة نفسه على المأمور ليأتي ما يريده، والامر من الشيطان وسوسته وتحميله ما يريده من الإنسان عليه باخطاره في قلبه وتزيينه في نظره والسوء ما ينافره الإنسان ويستقبحه بنظر الاجتماع فاذا جاوز حده وتعدى طوره كان فحشاء ولذلك سمي الزنا بالفحشاء وهو مصدر كالسراء والضراء.

وقد عمم تعالى الخطاب لجميع الناس لأن الحكم الذي يقرعه سمعهم ويبينه لهم مما يبتلي به الكل، أما المشركون: فقد كان عندهم امور مما حرموه على أنفسهم افتراء على الله كما روي أن ثقيفاً وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج كانوا قد حرموا على أنفسهم أشياء من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة، هذا في العرب، وفي غيرهم أيضاً يوجد أشياء كثيرة من هذا القبيل، وأما المؤمنون: فربما كان يبقى بعد الإسلام بينهم امور خرافية طبق ناموس توارث الأخلاق والآداب القومية والسنن المنسوخة بنواسخ غير تدريجية كالأديان والقوانين وغيرهما فان كل طريقة جديدة دينية أو دنيوية اذا نزلت بدار قوم فانما تتوجه أول ما تتوجه الى اصول الطريقة القديمة وأعراقها فتقطعه فان دامت على حيوتها وقوتها ـ وذلك بحسن التربية وحسن القبول ـ أماتت الفروع وقطعت الأذناب وإلّا فاختلطت بقايا من القديمة بالحديثة والتئمت بها وصارت كالمركب النباتي، ما هو بهذا ولا ذاك.

فقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾، يفيد الإباحة العامة من غير تقييد واشتراط فيه إلّا أن قوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان، الخ؛ يفيد: أن هيهنا اموراً

تسمى خطوات الشيطان ـ متعلقة بهذا الأكل الحلال الطيب ـ إما كف عن الأكل اتباعاً للشيطان، وإما إقدام عليه اتباعاً للشيطان، ثم ذكر ضابط ما يتبع فيه الشيطان بأنه سوء وفحشاء، وقول ما لا يعلم على الله سبحانه واذا كان الكف غير جائز إلّا برضى من الله تعالى فالفعل أيضاً كذلك فليس الأكل مما في الأرض حلالاً طيباً إلّا أن يأذن الله تعالى ويشرعه وقد شرعه بهذه الآية ونظائرها ولا يمنع عنه بنهي أو ردع كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم﴾ الآية؛ فرجع معنى الآية ـ والله أعلم ـ الى نحو قولنا كلوا مما في الأرض من نعم الله المخلوقة لكم فقد جعله الله لكم حلالاً طيباً ولا تتركوا بعضاً منها كفاً وامتناعاً فيكون سوء وفحشاء وقولاً بغير علم أي تشريعاً ليس لكم ذلك وهو اتباع خطوات الشيطان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، السوء والفحشاء يكونان في الفعل، وفي مقابلة القول، وبذلك يظهر: أن ما يأمر به الشيطان ينحصر في الفعل الذي هو سوء وفحشاء، والقول الذي هو قول بغير علم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾، الإلفاء الوجدان أي وجدنا عليه آبائنا، والآية تشهد بما استفدناه من الآية السابقة في معنى خطوات الشيطان.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾، جواب عن قولهم، وبيانه أنّه قول بغير علم ولا تبين، وينافيه صريح العقل فان قولهم: بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا، قول مطلق أي نتبع آبائنا على أي حال وعلى أي وصف كانوا، حتى لو لم يعلموا شيئاً ولم يهتدوا ونقول ما فعلوه حق، وهذا هو القول بغير علم، ويؤدي الى القول بما لا يقول به عاقل لو تنبه له ولو كانوا اتبعوا آبائهم فيما علموه واهتدوا فيه وهم يعلمون: إنهم علموا واهتدوا فيه لم يكن من قبيل الاهتداء بغير علم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، المثل هو الكلام السائر والمثل هو الوصف كقوله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ (الفرقان / ٩)، والنعيق صوت الراعي لغنمه زجراً يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق نعيقاً اذا صاح بها زجراً، والنداء مصدر نادى ينادي مناداة، وهو أخص من الدعاء ففيه معنى الجهر بالصوت ونحوه بخلاف الدعاء، والمعنى ـ والله أعلم ـ ومثلك في دعاء الذين كفروا كمثل الذي ينعق من البهائم بما لا يسمع من نعيقه إلّا دعاءً ونداءً ما، فينزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غير أن يعقل شيئاً فهم صمّ لا يسمعون كلاماً يفيدهم، وبكم لا يتكلمون بما يفيد معنى، وعمى لا يبصرون شيئاً فهم لا يعقلون شيئاً لأن الطرق المؤدية الى التعقل مسدودة عليهم[1].

١٧٢ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

١٧٣ ● إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٧٤ ● إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

---

١. البقرة ١٦٨ ـ ١٧١: بحث اخلاقي واجتماعي في الآراء والعقائد: العقائد الخرافية ودور الخيال فيها.

١٧٥ ● أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

١٧٦ ● ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾، خطاب خاص بالمؤمنين بعد الخطاب السابق للناس فهو من قبيل انتزاع الخطاب من الخطاب، كأنه انصراف عن خطاب جماعة ممن لا يقبل النصح ولا يصغي الى القول، والتفات الى من يستجيب الداعي لإيمانه به، والتفاوت الموجود بين الخطابين ناش من تفاوت المخاطبين، فان المؤمنين بالله لما كان يتوقع منهم القبول بدل قوله: ما في الأرض حلالاً طيباً من قوله: طيبات ما رزقناكم، وكان ذلك وسيلة الى أن يطلب منهم الشكر لله وحده لكونهم موحدين لا يعبدون إلّا الله سبحانه، ولذلك بعينه قيل: ما رزقناكم ولم يقل: ما رزقتم أو ما في الأرض ونحوه، لما فيه من الإيماء أو الدلالة على كونه تعالى معروفاً لهم قريباً منهم حنيناً رؤفاً بهم، والظاهر أن يكون قوله: من طيبات ما رزقناكم، من قبيل إضافة الصفة الى الموصوف لا من قبيل قيام الصفة مقام الموصوف فان المعنى على الأول كلوا من رزقنا الذي كله طيب، وهو المناسب لمعنى التقرب والتحنن الذي يلوح من المقام، والمعنى على الثاني كلوا من طيب الرزق لا من خبيثه، وهو بعيد المناسبة عن المقام الذي هو مقام رفع الحظر، والنهي عن الامتناع عن بعض ما رزقهم الله سبحانه تشريعاً من عند أنفسهم وقولاً بغير علم.

قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لم يقل واشكروا لنا بل

اشكروا الله ليكون أدل على الأمر بالتوحيد ولذلك أيضاً قيل: إن كنتم إياه تعبدون فدل على الحصر والقصر ولم يقل إن كنتم تعبدونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، الإهلال لغير الله هو الذبح لغيره كالأصنام.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي غير ظالم ولا متجاوز حده، وهما حالان عاملهما الاضطرار فيكون المعنى فمن اضطر الى أكل شيء مما ذكر من المنهيات اضطراراً في حال عدم بغيه وعدم عدوه فلا ذنب له في الأكل. وأما لو اضطر في حال البغي والعدو كأن يكونا هما الموجبين للاضطرار فلا يجوز له ذلك، وقوله تعالى: إن الله غفور رحيم، دليل على أن التجوز تخفيف ورخصة منه تعالى للمؤمنين والّا فمناط النهي موجود في صورة الاضطرار أيضاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، تعريض لأهل الكتاب اذ عندهم شيء كثير من المحللات الطيبة التي حرمها كبرائهم ورؤسائهم في العبادات وغيرها ـ وعندهم الكتاب الذي لا يقضي فيه بالتحريم ـ ولم يكتموا ما كتموه إلّا حفظاً لما يدر عليهم من رزق الرئاسة وابهة المقام والجاه والمال.

وفي الآية من الدلالة على تجسم الأعمال وتحقق نتائجها ما لا يخفى فإنه تعالى ذكر أولاً أن اختيارهم الثمن القليل على ما أنزل الله هو أكل النار في بطونهم ثم بدل اختيار الكتمان وأخذ الثمن على بيان ما أنزل الله في الآية التالية من اختيار الضلالة على الهدى ثم من إختيار العذاب على المغفرة ثم ختمها بقوله: فما أصبرهم على النار، والذي كان منهم ظاهراً هو الإدامة للكتمان والبقاء عليها فافهم.

١٧٧ ● لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ

الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، البر بالكسر التوسع من الخير والإحسان، والبر بالفتح صفة مشبهة منه، والقبل بالكسر فالفتح الجهة ومنه القبلة وهي النوع من الجهة، وذووا القربى الأقرباء، واليتامى جمع يتيم وهو الذي لا والد له، والمساكين جمع مسكين وهو أسوأ حالاً من الفقير، وابن السبيل المنقطع عن أهله، والرقاب جمع رقبة وهي رقبة العبد، والبأساء مصدر كالبؤس وهو الشدة والفقر، والضراء مصدر كالضر وهو أن يتضرر الإنسان بمرض أو جرح أو ذهاب مال أو موت ولد، والبأس شدة الحرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ عدل عن تعريف البر بالكسر الى تعريف البر بالفتح ليكون بياناً وتعريفاً للرجال مع تضمنه لشرح وصفهم وإيماء الى أنه لا أثر للمفهوم الخالي عن المصداق ولا فضل فيه، وهذا دأب القرآن في جميع بياناته فانه يبين المقامات ويشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب.

وبالجملة قوله ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، تعريف للأبرار وبيان لحقيقة حالهم،

وقد عرّفهم أولا في جميع المراتب الثلاث من الاعتقاد والأعمال والأخلاق بقوله: (من آمن بالله) وثانياً بقوله: (أولئك الذين صدقوا) وثالثاً بقوله: (وأولئك هم المتقون).

قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾، منصوب على المدح إعظاماً لأمر الصبر، وقد قيل إن الكلام اذا طال بذكر الوصف بعد الوصف فـذهبهم ان يعترضوا بين الأوصـاف بالمدح والذم، واختلاف الإعراب بالرفع والنصب.

١٧٨ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

١٧٩ • وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾، في توجيه الخطاب الى المؤمنين خاصة إشارة الى كون الحكم خاصاً بـالمسلمين، وأما غيرهم من أهل الذمة وغيرهم فالاية ساكتة عن ذلك.

ونسبة هذه الآية الى قوله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس﴾ (المائدة / ٤٨)، نسبة التفسير، فلا وجه لما ربما يقال، إن هذه الآية ناسخة لتلك الآيه فلا يقتل حر بعبد ولا رجل بمرأة.

وبالجملة القصاص مصدر؛ قاص يقاص؛ من قص أثره اذا تبعه ومنه القصاص لمن يحدّث بالآثار والحكايات كأنه يتبع آثار الماضين فتسمية القصاص بالقصاص لما فيه مـن مـتابعة

الجاني في جنايته فيوقع عليه مثل ما اوقعه على غيره.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، المراد بالموصول القاتل، والعفو للقاتل إنما يكون في حق القصاص فالمراد بالشيء هو الحق، وفي تنكيره تعميم للحكم أي أيّ حق كان سواء كان تمام الحق أو بعضه كما اذا تعدد أولياء الدم فعفى بعضهم حقه للقاتل فلا قصاص حينئذ بل الدية، وفي التعبير عن ولي الدم بالأخ إثارة لحس المحبة والرأفة وتلويح الى أن العفو أحب.

قوله تعالى: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، مبتدء خبره محذوف أي فعليه أن يتبع القاتل في مطالبة الدية بمصاحبة المعروف، من الاتباع وعلى القاتل أن يؤدي الدية الى أخيه ولي الدم بالإحسان من غير مماطلة فيها إيذائه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، أي الحكم بانتقال القصاص الى الدية تخفيف من ربكم فلا يتغير فليس لولي الدم أن يقتص بعد العفو فيكون اعتداء فمن اعتدى فاقتص بعد العفو فله عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَيٰوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، إشارة الى حكمة التشريع، ودفع ما ربما يتوهم من تشريع العفو والدية وبيان المزية والمصلحة التي في العفو وهو نشر الرحمة وإيثار الرأفة ان العفو اقرب الى مصلحة الناس، وحاصله أن العفو ولو كان فيه ما فيه من التخفيف والرحمة، لكن المصلحة العامة قائمة بالقصاص فإن الحيوة لا يضمنها إلّا القصاص دون العفو والدية ولا كل شيء مما عداهم، يحكم بذلك الإنسان اذا كان ذا لب وقوله لعلكم تتقون، أي القتل وهو بمنزلة التعليل لتشريع القصاص[1].

---

١. البقرة ١٧٨ ـ ١٧٩: بحث علمي في القصاص.

١٨٠ * كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ.

١٨١ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

١٨٢ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾، لسان الآية لسان الوجوب فإن الكتابة يستعمل في القرآن في مورد القطع واللزوم ويؤيده ما في آخر الآية من قوله حقاً، فإن الحق أيضاً كالكتابة يقتضي معنى اللزوم لكن تقييد الحق بقوله على المتقين، مما يوهن الدلالة على الوجوب والعزيمة فإن الأنسب بالوجوب أن يقال: حقاً على المؤمنين، وكيف كان فقد قيل إن الآية منسوخة بآية الإرث، ولو كان كذلك فالمنسوخ هو الفرض دون الندب وأصل المحبوبية، ولعل تقييد الحق بالمتقين في الآية لإفادة هذا الغرض.

والمراد بالخير المال، وكأنه المال المعتد به، دون اليسير الذي لا يعبأ به والمراد بالمعروف هو المعروف المتداول من الصنيعة والإحسان.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، ضمير إثمه راجع الى التبديل، والباقي من الضمائر الى الوصية بالمعروف، وهي مصدر يجوز فيه

الوجهان وإنما قال على الذين يبدلونه، ولم يقل عليهم ليكون فيه دلالة على سبب الإثم وهو تبديل الوصية بالمعروف وليستقيم تفريع الآية التالية عليه.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، الجنف هو الميل والانحراف، وقيل: هو ميل القدمين الى الخارج كما أن الحنف بالحاء المهملة انحرافهما الى الداخل، والمراد على أي حال الميل الى الإثم بقرينة الإثم، والآيه تفريع على الآية السابقة عليها، والمعنى (والله أعلم) فإنما إثم التبديل على الذين يبدلون الوصية بالمعروف، ويتفرع عليه: ان من خاف من وصية الموصي أن يكون وصيته بالإثم أو مائلاً اليه فأصلح بينهم برده الى ما لا إثم فيه فلا إثم عليه لأنه لم يبدل وصيته بالمعروف بل إنما بدل ما فيه إثم أو جنف.

١٨٣ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

١٨٤ ● أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

١٨٥ ● شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ

عَلىٰ مٰا هَدٰيكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اه. الإتيان بهذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم وهو الايمان، يجب عليهم اذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههم ربهم به من الحكم وإن كان على خلاف مشتهياتهم وعاداتهم، وقد صدرت آية القصاص بذلك أيضاً لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص وإن كان سائر الطوائف من الملليين وغيرهم يرون القصاص.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ اه. الكتابة معروفة المعنى ويكنى به عن الفرض والعزيمة والقضاء الحتم كقوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (المجادلة / ٢١)، وقوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ (يس / ١٢)، وقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ (المائدة / ٤٥)، والصيام والصوم في اللغة مصدران بمعنى الكف عن الفعل: كالصيام عن الأكل والشرب والمباشرة والكلام والمشي وغير ذلك، وربما يقال: انه الكف عما تشتهيه النفس وتتوق اليه خاصة ثم غلب استعماله في الشرع في الكف عن امور مخصوصة، من طلوع الفجر الى المغرب بالنية، والمراد بالذين من قبلكم الامم الماضية ممن سبق ظهور الاسلام من امم الانبياء كامة موسى وعيسى وغيرهم، فإن هذا المعنى هو المعهود من اطلاق هذه الكلمة في القرآن أينما اطلقت، وليس قوله: كما كتب على الذين من قبلكم، في مقام الاطلاق من حيث الاشخاص ولا من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع امم الانبياء كان مكتوباً عليهم الصوم من غير استثناء ولا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الذي كتب علينا من حيث الوقت والخصوصيات والأوصاف، فالتنظير في الآيه إنما هو من حيث اصل الصوم والكف لا من حيث خصوصياته.

والمراد بالذين من قبلكم، الامم من الملبين في الجملة، ولم يعين القرآن من هم، غير أن ظاهر قوله: كما كتب، أن هؤلاء من أهل الملة وقد فرض عليهم ذلك، ولا يوجد في التوراة والانجيل الموجود عند اليهود والنصارى ما يدل على وجوب الصوم وفرضه، بل الكتابان إنما يمدحانه ويعظمان أمره، لكنهم يصومون أياماً معدودة في السنة الى اليوم بأشكال مختلفة: كالصوم عن اللحم والصوم عن اللبن والصوم عن الأكل والشرب، وفي القرآن قصة صوم زكريا عن الكلام وكذا صوم مريم عن الكلام.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، كان أهل الاوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء ثائره غضبها اذا أجرموا جرماً أو عصوا معصية، واذا أرادوا إنجاح حاجة وهذا يجعل الصيام معاملة ومبادلة يعطي بها حاجة الرب ليقضي حاجة العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد، وإن الله سبحانه أمنع جانباً من أن يتصور في حقه فقر أو حاجة أو تأثر أو أذىً، وبالجملة هو سبحانه بريء من كل نقص، فما تعطيه العبادات من الاثر الجميل، أي عبادة كانت وأي أثر كان، إنما يرجع الى العبد دون الرب تعالى وتقدس، كما ان المعاصي أيضاً كذلك، قال تعالى: ﴿ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها﴾ (الإسراء / ٧)، هذا هو الذي يشير اليه القرآن الكريم في تعليمه بإرجاع آثار الطاعات والمعاصي الى الانسان الذي لا شأن له إلّا الفقر والحاجة، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني﴾ (فاطر / ١٥) ويشير اليه في خصوص الصيام بقوله: لعلكم تتقون، وكون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهارة والرفعة، والارتقاء الى مدرجة الكمال والروحانية فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم وينقبض عن الجماح في شهوات البدن ويتقدس عن الاخلاد الى الارض، وبالجملة أن يتقي ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك وتعالى فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم والكف عن الشهوات، وأقرب من ذلك وأمس لحال عموم الناس من أهل

الدنيا وأهل الآخرة ان يتقي ما يعم به البلوى من المشتهيات المباحة كالأكل والشرب والمباشرة حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات واجتنابها. وتتربى على ذلك إرادته في الكف عن المعاصي والتقرب الى الله سبحانه، فإن من أجاب داعي الله في المشتهيات المباحة وسمع وأطاع فهو في محارم الله ومعاصيه أسمع وأطوع.

قوله تعالى: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾، منصوب على الظرفية بتقدير، في، ومتعلق بقوله: الصيام. وقد مر أن تنكير أيام واتصافه بالعدد للدلالة على تحقير التكليف من حيث الكلفة والمشقة تشجيعاً للمكلف. وقد مر ان قوله: شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن، الخ؛ بيان للأيام فالمراد بالأيام المعدودات شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. الفاء للتفريع والجملة متفرعة على قوله: كتب عليكم. وقوله: معدودات اه، أي إن الصيام مكتوب مفروض، والعدد مأخوذ في الفرض. وكما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد. فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التي هي أيام شهر رمضان كعارض المرض والسفر، فإنه لا يرفع اليد عن صيام عدة من أيام أُخر خارج شهر رمضان تساوي ما فات المكلّف من الصيام عدداً، وهذا هو الذي أشار تعالى إليه في الآية الثالثة بقوله: ولتكملوا العدة، فقوله تعالى: أياماً معدودات. كما يفيد معنى التحقير كما مرّ يفيد كون العدد ركناً مأخوذاً في الفرض والحكم.

ثم إن المرض خلاف الصحة والسفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التي يأوي اليها ويكنّ فيها، وكأن قوله تعالى: او على سفر. ولم يقل: مسافراً للإشارة الى اعتبار فعلية التلبس حالاً دون الماضي والمستقبل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، الاطاقة كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقة في الفعل، ولازمه وقوع الفعل بجهد ومشقة. والفدية هي البدل

وهي هنا بدل مالي وهو طعام مسكين أي طعام يشبع مسكيناً جائعاً في أوسط ما يطعم الانسان، وحكم الفدية أيضاً فرض كحكم القضاء في المريض والمسافر لمكان قوله: وعلى الذين، الظاهر في الوجوب التعييني دون الرخصة والتخيير.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، التطوع تفعل من الطوع مقابل الكره وهو إتيان الفعل بالرضا والرغبة، ومعنى باب التفعل الاخذ والقبول فمعنى التطوع التلبس في إتيان الفعل بالرضا والرغبة من غير كره واستثقال سواء كان فعلاً إلزامياً أو غير إلزامي، واما اختصاص التطوع استعمالاً بالمستحبات والمندوبات فما حدث بعد نزول القرآن بين المسلمين بعناية ان الفعل الذي يؤتى به بالطوع هو الندب واما الواجب ففيه شوب كره لمكان الالزام الذي فيه.

وبالجملة التطوع كما قيل: لا دلالة فيه مادة وهيئة على الندب وعليهذا فالفاء للتفريع والجملة متفرعة على المحصل من معني الكلام السابق، والمعنى والله أعلم: الصوم مكتوب عليكم مرعياً فيه خيركم وصلاحكم مع ما فيه من استقراركم في صف الامم التي قبلكم، والتخفيف والتسهيل لكم فأتوا به طوعاً لا كرهاً، فإن من أتى بالخير طوعاً كان خيراً له من أن يأتي به كرهاً.

ومن هنا يظهر: أن قوله: فمن تطوع خيراً من قبيل وضع السبب موضع المسبب أعني وضع كون التطوع بمطلق الخير خيراً مكان كون التطوع بالصوم خيراً نظير قوله تعالى: ﴿قد نعلم أنك ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي فاصبر ولا تحزن فانهم لا يكذبونك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، جملة متممة لسابقتها، والمعنى بحسب التقدير ـ كما مر ـ: تطوعوا بالصوم المكتوب عليكم فان التطوع بالخير خير والصوم خير لكم، فالتطوع به خير على خير.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى﴾، شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان وشوال ولم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن الا شهر رمضان.

والنزول هو الورود على المحل من العلو، والفرق بين الإنزال والتنزيل أن الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي، والقرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد ﷺ باعتبار كونه مقروّاً كما قال تعالى: ﴿انّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (الزخرف / ٣)، ويطلق على مجموع الكتاب وعلى أبعاضه.

والآية تدل على نزول القرآن في شهر رمضان، وقد قال تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (الإسراء / ١٠٦)، وهو ظاهر في نزوله تدريجاً في مجموع مدة الدعوة وهي ثلث وعشرون سنة تقريباً، والمتواتر من التاريخ يدل على ذلك، ولذلك ربما استشكل عليه بالتنا في بين الآيتين.

والذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليله منه إنما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾ (البقرة / ١٨٥) وقوله تعالى: ﴿حم. والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ (الدخان / ٣)، وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (القدر / ١)، واعتبار الدفعة إما بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب او البعض النازل منه كقوله تعالى: ﴿كماء انزلناه من السماء﴾ (يونس / ٢٤)، فإن المطر إنما ينزل تدريجاً لكنّ النظر هٰهنا معطوف إلى أخذه مجموعاً واحداً، ولذلك عبّر عنه بالإنزال دون التنزيل، وكقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته﴾ (ص / ٢٩)، وإما لكون الكتاب ذا حقيقة أُخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يقضي فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدريج هو المصحّح لكونه واحداً غير تدريجي ونازلاً بالإنزال دون التنزيل.. وهذا

الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود / ١)، فإن هذا الاحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله مفصلاً فصلاً وقطعة قطعة فالإحكام كونه بحيث لا يتفصّل فيه جزء من جزء ولا يتميز بعض من بعض لرجوعه الى معنى واحد لا أجزاء ولا فصول فيه، والآية ناطقة بأن هذا التفصيل المشاهد في القرآن إنما طرء عليه بعد كونه محكماً غير مفصّل[1].

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، الناس، وهم الطبقة الدانية من الانسان الذين سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح، يكثر إطلاق هذه الكلمة في حقهم، كما قال تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم / ٣٠)، وقال تعالى: ﴿وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون﴾ (العنكبوت / ٤٣)، وهؤلاء أهل التقليد لا يسعهم تمييز الامور المعنوية بالبينة والبرهان، ولا فرق الحق من الباطل بالحجة إلّا بمبين يبين لهم وهاد يهديهم، والقرآن هدى لهم ونعم الهدى، وأما الخاصة المستكملون في ناحيتي العلم والعمل، المستعدون للاقتباس من أنوار الهداية الالهية والركون الى فرقان الحق فالقرآن بينات وشواهد من الهدى والفرقان في حقهم فهو يهديهم اليه ويميز لهم الحق ويبين لهم كيف يميز، قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (المائدة / ١٦).

ومن هنا يظهر وجه التقابل والبينات من الهدى، وهو التقابل بين العام والخاص فالهدى لبعض والبينات من الهدى لبعض آخر.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، الشهادة هي الحضور مع تحمل

---

١. البقرة ١٨٣ ـ ١٨٥: بحث تفسيري مستدل بآيات من القرآن حول كيفية نزول القرآن ومعنى نزول القرآن في شهر رمضان.

العلم من جهته، وشهادة الشهر إنما هو ببلوغه والعلم به، ويكون بالبعض كما يكون بالكل. وأما كون المراد بشهود الشهر رؤية هلاله وكون الانسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلّا من طريق الملازمة في بعض الاوقات بحسب القرائن، ولا قرينة في الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيامٍ أُخَرَ﴾، ايراد هذه الجملة في الآية ثانياً ليس من قبيل التكرار للتأكيد ونحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئة والتمهيد دون بيان الحكم وأن الحكم هو الذي بين في الآية الثالثة فلا تكرار.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء: وهو الافطار في شهر رمضان لمكان نفي العسر، وصيام عدة من أيام اخر لمكان وجوب اكمال العدة، واللام في قوله: لتكملوا العدة. للغاية، وهو عطف على قوله: يريد. لكونه مشتملاً على معنى الغاية، والتقدير وانما أمرناكم بالافطار والقضاء لنخفف عنكم ولتكملوا العدة، ولعل ايراد قوله: ولتكملوا العدة هو الموجب لاسقاط معنى قوله: وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، عن هذه الآية مع تفهم حكمه بنفي العسر وذكره في الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَدَيكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ظاهر الجملتين على ما يشعر به لام الغاية[1] أنهما لبيان الغاية غاية اصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله: شهر رمضان بقوله: الذي انزل فيه القرآن الى آخره مشعر بنوع من العلية وارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فيعود معنى الغاية الى ان التلبس بالصوم لاظهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن

---

١. المراد بالغاية الغرض وهو اصطلاح (منه).

واعلن ربوبيته وعبوديتهم، وشكر له بما هداهم الى الحق، وفرق لهم بكتابه بين الحق والباطل. ولما كان الصوم انما يتصف بكونه شكراً لنعمه اذا كان مشتملاً على حقيقة معنى الصوم وهو الاخلاص لله سبحانه في التنزه عن الواث الطبيعة والكف عن اعظم مشتهيات النفس بخلاف اتصافه بالتكبير لله فإن صورة الصوم والكف سواء اشتمل على اخلاص النية أو لم يشتمل يدل على تكبيره تعالى وتعظيمه فرق بين التكبير والشكر فقرن الشكر بكلمة الترجي دون التكبير فقال: ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون كما قال: في اول الآيات: لعلكم تتقون[1].

١٨٦ ● وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون وأرق اسلوب وأجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثم قوله: عبادي، ولم يقل: الناس وما أشبهه يزيد في هذه العناية، ثم حذف الواسطة في الجواب حيث قال: فإني قريب ولم يقل: فقل إنه قريب، ثم التأكيد بإن، ثم الاتيان بالصفة دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه، ثم الدلالة على تجدد الاجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليها، ثم تقييده الجواب أعني قوله: أُجيب دعوة الداع بقوله: اذا دعان،

---

١. البقرة ١٨٣ ـ ١٨٥: بحث روائي في الصوم.

وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الداع المقيد به شيئاً بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد كقوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (المؤمن / ٦٠)، فهذه سبع نكات في الآية تنبيء بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها ـ على إيجازها ـ ضمير المتكلم سبع مرات، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف.

والدعاء والدعوة توجيه نظر المدعو نحو الداعي، والسؤال جلب فائدة أو درّ من المسؤول يرفع به حاجة السائل بعد توجيه نظره، فالسؤال بمنزلة الغاية من الدعاء وهو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال كالسؤال لرفع الجهل والسؤال بمعنى الحساب والسؤال بمعنى الاستدرار وغيره.

ثم إن العبودية كما مر سابقاً هي المملوكية ولا كل مملوكية بل مملوكية الانسان فالعبد هو من الانسان أو كل ذي عقل وشعور كما في الملك المنسوب اليه تعالى.

وملكه تعالى يغاير ملك غيره مغايره الجد مع الدعوى والحقيقة مع المجاز فإنه تعالى يملك عباده ملكاً طلقاً محيطاً بهم لا يستقلون دونه في أنفسهم ولا ما يتبع أنفسهم من الصفات والأفعال وساير ما ينسب إليهم من الأزواج والأولاد والمال والجاه وغيرها، فكل ما يملكونه من جهة إضافته إليهم بنحو من الانحاء كما في قولنا: نفسه، وبدنه، وسمعه، وبصره، وفعله، وأثره، وهي أقسام الملك بالطبع والحقيقة وقولنا: زوجه وماله وجاهه وحقه، ـ وهي أقسام الملك بالوضع والاعتبار ـ إنما يملكونه بإذنه تعالى في استقرار النسبة بينهم وبين ما يملكون أيّاما كان وتمليكه فالله عز اسمه، هو الذي اضاف نفوسهم واعيانهم اليهم ولو لم يشاء لم يضف فلم يكونوا من رأس، وهو الذي جعل لهم السمع والابصار والافئدة، وهو الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً.

فهو سبحانه الحائل بين الشيء ونفسه، وهو الحائل بين الشيء وبين كل ما يقارنه: من ولد او

زوج او صديق او مال او جاه او حق فهو اقرب الى خلقه من كل شيء مفروض فهو سبحانه قريب على الاطلاق كما قال تعالى: ﴿ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ (الواقعة / ٨٥)، وقال تعالى: ﴿ونحن اقرب اليه من حبل الوريد﴾ (ق / ١٦)، وقال تعالى: ﴿ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾ (الأنفال / ٢٤)، والقلب هو النفس المدركة.

وبالجملة فملكه سبحانه لعباده ملكاً حقيقياً وكونهم عباداً له هو الموجب لكونه تعالى قريباً منهم على الاطلاق واقرب اليهم من كل شيء عند القياس وهذا الملك الموجب لجواز كل تصرف شاء كيفما شاء من غير دافع ولا مانع يقضي ان الله سبحانه ان يجيب اي دعاء دعى به احد من خلقه ويرفع بالاعطاء والتصرف حاجته التي سأله فيها فان الملك عام، والسلطان والاحاطة واقعتان على جميع التقادير من غير تقيد بتقدير دون تقدير لا كما يقوله اليهود: ان الله لما خلق الاشياء وقدر التقادير تم الامر، وخرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء، فلا نسخ ولا بداء ولا استجابة لدعاء لان الامر مفروغ عنه، ولا كما يقوله جماعة من هذه الامة: ان لا صنع لله في افعال عباده وهم القدرية الذين سماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الامة فيما رواه الفريقان من قوله ﷺ: القدرية مجوس هذه الامة.

بل الملك لله سبحانه على الاطلاق ولا يملك شيء شيئاً الا بتمليك منه سبحانه واذن فما شائه وملكه واذن في وقوعه، يقع، وما لم يشاء ولم يملك ولم يأذن فيه لا يقع وان بذل في طريق وقوعه كل جهد وعناية، قال تعالى ﴿يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني﴾ (فاطر / ١٥).

فقد تبين: ان قوله تعالى: واذا سألك عبادي عني فاني قريب أُجيب دعوة الداع اذا دعان، كما يشتمل على الحكم اعني اجابة الدعاء كذلك يشتمل على علله فكون الداعين عباداً لله تعالى هو الموجب لقربه منهم، وقربه منهم هو الموجب لاجابته المطلقة لدعائهم، واطلاق الاجابة يستلزم اطلاق الدعاء فكل دعاء دعي به فانه مجيبه الا ان هيهنا امراً وهو انه تعالى

قيد قوله: اجيب دعوة الداع بقوله اذا دعان، وهذا القيد غير الزائد على نفس المقيد بشيء يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوز والشبه، فان قولنا: اصغ الى قول الناصح اذا نصحك او اكرم العالم اذا كان عالماً يدل على لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقة، فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذي يجب الاصغاء إلى قوله والعالم إذا تحقق بعلمه وعمل بما علم كان هو الذي يجب إكرامه فقوله تعالى إذا دعان، يدل على أن وعد الاجابة المطلقة، إنما هو إذا كان الداعي داعياً بحسب الحقيقة مريداً بحسب العلم الفطري والغريزي مواطئاً لسانه قلبه، فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة، دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أُدير صدقاً أو كذباً جداً أو هزلاً حقيقة أو مجازاً، ولذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤالاً، قال تعالى: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم / ٣٤)، فهم فيما لا يحصونها من النعم داعون سائلون ولم يسألوها بلسانهم الظاهر، بل بلسان فقرهم واستحقاقهم لساناً فطرياً وجودياً، وقال تعالى: ﴿يسأله مَن في السموات والارض كل يوم هو في شأن﴾ (الرحمن / ٢٩)، ودلالته على ما ذكرنا أظهر وأوضح.

فالسؤال الفطري من الله سبحانه لا يتخطى الاجابة، فما لا يستجاب من الدعاء ولا يصادف الاجابة فقد أحد أمرين وهما اللذان ذكرهما بقوله: دعوة الداع إذا دعان.

فإما أن يكون لم يتحقق هناك دعاء، وانما التبس الأمر على الداعي التباساً كان يدعو الانسان فيسأل ما لا يكون وهو جاهل بذلك أو ما لا يريده لو انكشف عليه حقيقة الامر مثل ان يدعو ويسأل شفاء المريض لا إحياء الميت، ولو كان استمكنه ودعا بحياته كما كان يسأله الانبياء لاعيدت حياته ولكنه على يأس من ذلك، أو يسأل ما لو علم بحقيقته لم يسأله فلا يستجاب له فيه.

وإما أن السؤال متحقق لكن لا من الله وحده كمن يسأل الله حاجة من حوائجه وقلبه

متعلق بالاسباب العادية أو بامور وهمية توهمها كافية في امره أو مؤثرة في شأنه فلم يخلص الدعاء لله سبحانه فلم يسأل الله بالحقيقة فإن الله الذي يجيب الدعوات هو الذي لا شريك له في أمره، لا من يعمل بشركة الاسباب والاوهام. فهاتان الطائفتان من الدعاة السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب وإن أخلصوه بلسانهم.

فهذا ملخص القول في الدعاء على ما تفيده الآية، وبه يظهر معاني سائر الآيات النازلة في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعائكم﴾ (الفرقان / ٧٧) وقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أتيكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه إن شاء وتنسون ما كنتم تشركون﴾ (الأنعام / ٤١)، وقوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم في ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ (الأنعام / ٦٤). فالآيات دالة على أن للانسان دعاء غريزياً وسؤالاً فطرياً يسأل به ربه، غير انه إذا كان في رخاء ورفاه تعلقت نفسه بالاسباب فأشركها لربه، فالتبس عليه الامر وزعم أنه لا يدعو ربه ولا يسأل عنه، مع انه لا يسأل غيره فإنه على الفطرة ولا تبديل لخلق الله تعالى. ولما وقع الشدة وطارت الاسباب عن تأثيرها وفقدت الشركاء والشفعاء تبين له ان لا منجع لحاجته ولا مجيب لمسألته إلا الله، فعاد إلى توحيده الفطري ونسي كل سبب من الاسباب، ووجه وجهه نحو الرب الكريم فكشف شدته وقضى حاجته واظله بالرخاء. ثم إذا تلبس به ثانياً عاد الى ما كان عليه أولاً من الشرك والنسيان.

وكقوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (المؤمن / ٦٠)، والآية تدعو الى الدعاء وتعد بالاجابة وتزيد على ذلك حيث تسمي الدعاء عبادة بقولها: عن عبادتي أي عن دعائي، بل تجعل مطلق العبادة دعاء حيث انها تشتمل الوعيد على ترك الدعاء بالنار والوعيد بالنار انما هو على ترك

العبادة رأسا لا على ترك بعض اقسامه دون بعض فأصل العبادة دعاء فافهم ذلك.

وبذلك يظهر معنى آيات اخر من هذا الباب كقوله تعالى: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ (المؤمن / ١٤)، وقوله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾ (الأعراف / ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ (الأنبياء / ٩٠)، وقوله تعالى: ﴿ادعو ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين﴾ (الأعراف / ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿اذ نادى ربه نداء خفياً ـ إلى قوله ـ ولم أك بدعائك ربي شقياً﴾ (مريم / ٤)، وقوله تعالى: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ (الشورى / ٢٦)، الى غير ذلك من الآيات المناسبة، وهي تشتمل على اركان الدعاء وآداب الداعي، وعمدتها الاخلاص في دعائه تعالى وهو مواطات القلب اللسان والانقطاع عن كل سبب دون الله والتعلق به تعالى، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والاصرار والذكر وصالح العمل والايمان وأدب الحضور وغير ذلك مما تشتمل عليه الروايات.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، تفريع على ما يدل على الجملة السابقة عليه بالالتزام: ان الله تعالى قريب من عباده، لا يحول بينه وبين دعائهم شيء، وهو ذو عناية بهم وبما يسئلونه منه، فهو يدعوهم الى دعائه، وصفته هذه الصفة، فليستجيبوا له في هذه الدعوة، وليقبلوا اليه، وليؤمنوا به في هذا النعت، وليوقنوا بأنه قريب مجيب لعلهم يرشدون في دعائه.

بحث روائي:

عن النبي ﷺ فيما رواه الفريقان: الدعاء سلاح المؤمن، وفي عدة الداعي في الحديث القدسي: يا موسى سلني كل ما تحتاج اليه حتى علف شاتك وملح عجينك.

وفي المكارم عنه ﷺ الدعاء افضل من قرائة القرآن لان الله عز وجل قال: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعائكم﴾، وروي ذلك عن الباقر والصادق ﷺ.

وفي عدة الداعي في رواية محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسين عن ابن عمه الصادق عن آبائه عن النبي ﷺ قال: أوحى الله الى بعض انبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لاقطعن امل كل آمل امل غيري بالاياس ولاكسونه ثوب المذلة في الناس ولأبعدنه من فرجي وفضلي، ايأمل عبدي في الشدائد غيري، والشدائد بيدي ويرجو سوائي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الابواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني؟ الحديث.

وفي عدة الداعي ايضاً عن النبي ﷺ قال: قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني الا قطعت اسباب السموات واسباب الارض من دونه فان سئلني لم أعطه وان دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي الا ضمنت السموات والارض رزقه، فإن دعاني اجبته وان سألني اعطيته وان استغفرني غفرت له.

اقول: وما اشتمل عليه الحديثان هو الاخلاص في الدعاء وليس إبطالاً لسببية الاسباب الوجودية التي جعلها الله تعالى وسائل متوسطة بين الاشياء وبين حوائجها الوجودية لا عللاً فياضة مستقلة دون الله سبحانه، وللانسان شعور باطني بذلك فانه يشعر بفطرته ان لحاجته سبباً معطياً لا يتخلف عنه فعله، ويشعر ايضاً ان كل ما يتوجه اليه من الاسباب الظاهرية يمكن ان يتخلف عنه اثره فهو يشعر بأن المبدأ الذي يبتديء عنه كل امر، والركن الذي يعتمد عليه ويركن اليه كل حاجة في تحققها ووجودها غير هذه الاسباب ولازم ذلك ان لا يركن الركون التام الى شيء من هذه الاسباب بحيث ينقطع عن السبب الحقيقي ويعتصم بذلك السبب الظاهري، والانسان ينتقل الى هذه الحقيقة بأدنى توجه والتفات فإذا سئل او طلب شيئاً من حوائجه فوقع ما طلبه كشف ذلك انه سئل ربه واتصل حاجته، التي شعر بها بشعوره

الباطني من طريق الاسباب الى ربه فاستفاض منه، واذا طلب ذلك من سبب من الاسباب فليس ذلك من شعور فطري باطني وانما هو امر صوره له تخيله لعلل اوجبت هذا التخيل من غير شعور باطني بالحاجة، وهذا من الموارد التي يخالف فيها الباطن الظاهر.

ونظير ذلك: ان الانسان كثيراً ما يحب شيئاً ويهتم به حتى اذا وقع وجده ضاراً بما هو أنفع منه واهم واحب فترك الاول وأخذ بالثاني، وربما هرب من شيء حتى اذا صادفه وجده أنفع وخيراً مما كان يتحفظ به فأخذ الاول وترك الثاني، فالصبي المريض اذا عرض عليه الدواء المر امتنع من شربه وأخذ بالبكاء وهو يريد الصحة، فهو بشعوره الباطني الفطري يسأل الصحة فيسأل الدواء وان كان بلسان قوله أو فعله يسأل خلافه، فللانسان في حياته نظام بحسب الفهم الفطري والشعور الباطني وله نظام آخر بحسب تخيله والنظام الفطري لا يقع فيه خطاء ولا في سيره خبط، واما النظام التخيلي فكثيراً ما يقع فيه الخطاء والسهو، فربما سأل الانسان أو طلب بحسب الصورة الخيالية شيئاً، وهو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئاً آخر أو خلافه، فعلى هذا ينبغي أن يقرر معنى الاحاديث، وهو اللائح من قول علي عليه السلام فيما سيأتي: أن العطية على قدر النية؛ الحديث.

وفي عدة الداعي عن النبي صلى الله عليه وآله ادعو الله وانتم موقنون بالاجابة.

وفي الحديث القدسي: أنا عند ظن عبدي بي، فلا يظن بي إلا خيراً.

أقول: وذلك ان الدعاء مع اليأس أو التردد يكشف عن عدم السؤال في الحقيقة كما مر، وقد ورد المنع عن الدعاء بما لا يكون.

وفي العدة أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله: إفزعوا الى الله في حوائجكم، والجأوا اليه في ملماتكم، وتضرعوا اليه وادعوه، فإن الدعاء مخ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله الا استجاب فإما أن يعجله له في الدنيا أو يؤجل له في الآخرة، واما أن يكفر له من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم.

وفي نهج البلاغة في وصية له عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام: ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما اخرت عنك الاجابة ليكون ذلك أعظم لاجر السائل، واجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه واوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفي عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له.

اقول: قوله: فإن العطية على قدر النية يريد عليه السلام به: ان الاستجابة تطابق الدعوة فما سأله السائل منه تعالى على حسب ما عقد عليه حقيقة ضميره وحمله ظهر قلبه هو الذي يؤتاه، لا ما كشف عنه قوله وأظهره لفظه، فإن اللفظ ربما لا يطابق المعنى المطلوب كل المطابقة كما مر بيانه فهي احسن جملة واجمع كلمة لبيان الارتباط بين المسألة والاجابة.

وقد بيّن عليه السلام بها عدة من الموارد التي يتراءى فيها تخلف الاستجابة عن الدعوة ظاهراً كالابطاء في الاجابة، وتبديل المسؤول عنه في الدنيا بما هو خير منه في الدنيا، أو بما هو خير منه في الآخرة، او صرفه إلى شيء آخر أصلح منه بحال السائل. فإن السائل ربما يسأل النعمة الهنيئة ولو اوتيها على الفور لم تكن هنيئة وعلى الرغبة فتبطىء إجابتها لأن السائل سأل النعمة الهنيئة فقد سأل الاجابة على بطؤ، وكذلك المؤمن المهتم بأمر دينه لو سأل ما فيه هلاك دينه وهو لا يعلم بذلك ويزعم ان فيه سعادته وانما سعادته في آخرته فقد سأل في الحقيقة لآخرته لا دنياه فيستجاب لذلك فيها لا في الدنيا.

وفي عدة الداعي عن الباقر عليه السلام ما بسط عبد يده الى الله عزّ وجل إلا استحيى الله أن يردها صفراً حتى يجعل فيها من فضله ورحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه ووجهه، وفي خبر آخر على وجهه وصدره.

أقول: وقد روي في الدر المنثور ما يقرب من هذا المعنى عن عدة من الصحابة كسلمان، وجابر، وعبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وابن أبي مغيث عن النبي ﷺ في ثماني روايات، وفي جميعها رفع اليدين في الدعاء فلا معنى لانكار بعضهم رفع اليدين بالدعاء معللاً بأنه من التجسيم إذ رفع اليدين إلى السماء ايماء الى أنه تعالى فيها ـ تعالى عن ذلك وتقدس ـ.

وهو قول فاسد، فإن حقيقة جميع العبادات البدنية هي تنزيل المعنى القلبي والتوجه الباطني إلى مواطن الصورة، وإظهار الحقائق المتعالية عن المادة في قالب التجسم، كما هو ظاهر في الصلوة والصوم والحج وغير ذلك وأجزائها وشرائطها، ولولا ذلك لم يستقم أمر العبادة البدنية، ومنها الدعاء، وهو تمثيل التوجه القلبي والمسألة الباطنية بمثل السؤال الذي نعهده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الداني من الغني المتعزز العالي حيث يرفع يديه بالبسط، ويسأل حاجته بالذلة والضراعة، وقد روى الشيخ في المجالس والأخبار مسنداً عن محمد وزيد ابني علي بن الحسين عن أبيهما عن جدهما الحسين عليه السلام عن النبي، وفي عدة الداعي مرسلاً أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا ابتهل ودعا كما يستطعم المسكين.

وفي البحار عن علي عليه السلام أنه سمع رجلاً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، قال عليه السلام: أراك تتعوذ من مالك وولدك، يقول الله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ولكن قل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

أقول: وهذا باب آخر في تشخيص معنى اللفظ وله نظائر في الروايات، وفيها: أن الحق في معنى كل لفظ هو الذي ورد منه في كلامه، ومن هذا الباب ما ورد في الروايات في تفسير معنى الجزء والكثير وغير ذلك.

وفي عدة الداعي عن الصادق عليه السلام: إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه.

وفي العدة أيضاً عن علي عليه السلام لا يقبل الله دعاء قلب لاه.

أقول: وفي هذا المعنى روايات أُخر، والسر فيه عدم تحقق حقيقة الدعاء والمسألة في

السهو واللهو.

وفي دعوات الراوندي: في التوراة يقول الله عزّ وجل للعبد: إنك متى ظللت تدعوني على عبد من عبدي من أجل أنه ظلمك فلك من عبيدي من يدعو عليك من أجل أنك ظلمته فإن شئت أجبتك وأجبته فيك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة.

اقول: وذلك أن من سأل شيئاً لنفسه فقد رضي به ورضي بعين هذا الرضا بكل ما يماثله من جميع الجهات، فإذا دعا على من ظلمه بالانتقام فقد دعا عليه لأجل ظلمه فهو راض بالانتقام من الظالم، واذا كان هو نفسه ظالماً لغيره فقد دعا على نفسه بعين ما دعا لنفسه فإن رضي بالانتقام عن نفسه ولن يرضي أبداً عوقب بما يريده على غيره، وإن لم يرض بذلك لم يتحقق منه الدعاء حقيقة، قال تعالى: ﴿**ويدعو الإنسان بالشر دعائه بالخير وكان الإنسان عجولاً**﴾ (الاسراء / ١١).

وفي عدة الداعي قال رسول الله ﷺ لابي ذر: يا أبا ذر ألا اعلمك كلمات ينفعك الله عزّ وجل بهن؟ قلت بلى يا رسول الله. قال ﷺ: احفظ الله يحفظك الله، احفظ الله تجده امامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو أن الخلق كلهم جهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا عليه.

اقول: قوله ﷺ: تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة: يعني: ادع الله في الرخاء ولا تنسه حتى يستجيب دعائك في الشدة ولا ينساك، وذلك أن من نسي ربه في الرخاء فقد أذعن بالاستقلال الاسباب في الرخاء، ثم إذا دعا ربه في الشدة كان معنى عمله أنه يذعن بالربوبية في حال الشدة وعلى تقديرها، وليس تعالى على هذه الصفة بل هو رب في كل حال وعلى جميع التقادير، فهو لم يدع ربه، وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات بلسان آخر، ففي مكارم الأخلاق عن الصادق عليه السلام قال: من تقدم في الدعاء أُستجيب له إذا نزل البلاء، وقيل:

صوت معروف، ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له اذا نزل البلاء وقالت الملائكة: ان ذا الصوت لا نعرفه الحديث، وهو المستفاد من اطلاق قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة / ٦٧)، ولا ينافي هذا ما ورد أن الدعاء لا يرد مع الانقطاع، فإن مطلق الشدة غير الانقطاع التام.

وقوله ﷺ: واذا سئلت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله، ارشاد الى التعلق بالله في السؤال والاستعانة بحسب الحقيقة فإن هذه الاسباب العادية التي بين أيدينا انما سببيتها محدودة على قدر الله لها من الحد لا على ما يتراءى من استقلالها في التأثير بل ليس لها الا الطريقية والوساطة في الإيصال، والامر بيد الله تعالى، فإذن الواجب على العبد أن يتوجه في حوائجه إلى جناب العزة وباب الكبرياء ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الامور الا بأسبابها وهذه دعوة الى عدم الاعتماد على الاسباب الا بالله الذي أفاض عليها السببية لا أنها هداية الى الغاء الاسباب والطلب من غير السبب فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده وكل ذلك أسباب؟

واعتبر ذلك بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنية فيعطي ما يعطي بيده ويرى ما يرى ببصره ويسمع ما يسمع باذنه فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن يناوله شيئاً من غير يد أو ينظر اليه من غير عين أو يستمع من غير أُذن، ومن ركن الى سبب من دون الله سبحانه وتعالى كان كمن تعلق قلبه بيده الانسان في اعطائه أو بعينه في نظرها أو باذنه في سمعها وهو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلك في الحقيقة فهو غافل مغفل، وليس ذلك تقييداً للقدرة الإلهية غير المتناهية ولا سلباً للاختيار الواجبي، كما أن الانحصار الذي ذكرناه في الإنسان لا يوجب سلب القدرة والاختيار عنه، لكون التحديد راجعاً بالحقيقة الى الفعل لا الى الفاعل، اذ من الضروري أن الانسان قادر على المناولة والرؤية

والسمع لكن المناولة لا يكون الا باليد، والرؤية والسمع هما اللذان يكونان بالعين والاذن لا مطلقاً. كذلك الواجب تعالى قادر على الإطلاق غير أن خصوصية الفعل يتوقف على توسط الاسباب فزيد مثلاً وهو فعل لله هو الإنسان الذي ولده فلان وفلانة في زمان كذا ومكان كذا وعند وجود شرائط كذا وارتفاع موانع كذا، لو تخلف واحد من هذا العلل والشرائط لم يكن هو هو، فهو في ايجاده يتوقف على تحقق جميعها، والمتوقف هو الفعل دون الفاعل فافهم ذلك.

وقوله ﷺ: فقد جرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة، تفريع على قوله: واذا سألت فاسأل الله، من قبيل تعقيب المعلول بالعلة فهو بيان علة قوله: واذا سألت، وسببه، والمعنى أن الحوادث مكتوبة مقدرة من عند الله تعالى لا تأثير لسبب من الأسباب فيها حقيقة، فلا تسأل غيره تعالى ولا تستعن بغيره تعالى، وأما هو تعالى: فسلطانه دائم وملكه ثابت ومشيته نافذة وكل يوم هو في شأن، ولذلك عقب الجملة بقوله: ولو أن الخلق كلهم جهدوا: الخ.

ومن أخبار الدعاء ما ورد عنهم مستفيضاً ان الدعاء من القدر.

اقول: وفيه جواب ما استشكله اليهود وغيرهم على الدعاء: ان الحاجة المدعو لها اما ان تكون مقضية مقدرة أو لا، وهي على الاول واجبة وعلى الثاني ممتنعة، وعلى أي حال لا معنى لتأثير الدعاء، والجواب: أن فرض تقدير وجود الشيء لا يوجب استغنائه عن أسباب وجوده، والدعاء من أسباب وجود الشيء فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه، وهذا هو المراد بقولهم: ان الدعاء من القدر، وفي هذا المعنى روايات أُخر.

ففي البحار عن النبي ﷺ لا يرد القضاء الا الدعاء.

وعن الصادق ﷺ: الدعاء يرد القضاء بعدما أُبرم ابراماً.

وعن أبي الحسن موسى ﷺ: عليكم بالدعاء فإن الدعاء والطلب الى الله عزّ وجل يرد

البلاء، وقد قدر وقضى فلم يبق الا امضائه فإذا دعي الله وسئل صرف البلاء صرفاً.

وعن الصادق عليه السلام ان الدعاء يرد القضاء المبرم وقد أُبرم ابراماً فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله الا بالدعاء فإنه ليس من باب يكثر قرعه الا أوشك أن يفتح لصاحبه.

أقول: وفيها اشارة الى الإصرار وهو من محققات الدعاء، فان كثرة الاتيان بالقصد يوجب صفائه.

وعن اسماعيل بن همان عن أبي الحسن عليه السلام: دعوة العبد سراً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية.

أقول: وفيها اشارة الى اخفاء الدعاء واسراره فإنه أحفظ لاخلاص الطلب.

وفي المكارم عن الصادق عليه السلام: لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلى على محمد وآل محمد.

وعن الصادق عليه السلام أيضاً، من قدّم أربعين من المؤمنين ثم دعا أُستجيب له.

وعن الصادق عليه السلام أيضاً ـ وقد قال له رجل من اصحابه اني لأجد آيتين في كتاب الله اطلبهما فلا اجدهما ـ قال: فقال: وما هما؟ قلت: ادعوني استجب لكم فندعوه فلا نرى اجابة، قال افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا ادري قال: لكني أخبرك من أطاع الله فيما امر به ثم دعاه من جهة الدعاء اجابه، قلت: وما جهة الدعاء؟ قال: تبدأ فتحمد الله وتمجده وتذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلي على محمد وآله ثم تذكر ذنوبك فتقر بها، ثم تستغفر منها فهذه جهة الدعاء، ثم قال: وما الآية الاخرى؟ قلت: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وأراني أُنفق ولا أرى خلفاً، قال: افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا أدري، قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله وانفق في حقه لم ينفق درهماً الا اخلف الله عليه.

أقول: والوجه في هذه الاحاديث الواردة في آداب الدعاء ظاهرة فإنها تقرب العبد من

حقيقة الدعاء والمسألة.

وفي الدر المنثور عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: ان الله اذا اراد ان يستجيب لعبد اذن له في الدعاء.

وعن ابن عمر ايضاً عنه ﷺ من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له ابواب الرحمة. وفي رواية من فتح له في الدعاء منكم فتحت له ابواب الجنة.

اقول: وهذه المعنى مروي من طرق ائمة اهل البيت ايضاً: من أُعطي الدعاء أُعطي الاجابة. ومعناه واضح مما مر.

وفي الدر المنثور ايضاً عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ: لو عرفتم الله حق معرفته لزالت لدعائكم الجبال.

اقول: وذلك ان الجهل بمقام الحق وسلطان الربوبية والركون الى الاسباب يوجب الاذعان بحقيقة التأثير للاسباب وقصر المعلولات على عللها المعهودة واسبابها العادية حتى ان الانسان ربما زال عن الاذعان بحقيقة التأثير للأسباب لكن يبقى الاذعان بتعين الطرق ووساطة الاسباب المتوسطة فإنا نرى ان الحركة والسير يوجب الاقتراب من المقصد ثم اذا زال منا الاعتقاد بحقيقة تأثير السير في الاقتراب اعتقدنا بان السير واسطة والله سبحانه وتعالى هو المؤثر هناك لكن يبقى الاعتقاد بتعين الوساطة وانه لولا السير لم يكن قرب ولا اقتراب، وبالجملة ان المسببات لا تتخلف عن اسبابها وان لم يكن للأسباب الا الوساطة دون التأثير، وهذا هو الذي لا يصدقه العلم بمقام الله سبحانه فإنه لا يلائم السلطنة التامة الالهية. وهذا التوهم هو الذي اوجب ان نعتقد استحالة تخلف المسببات عن اسبابها العادية كالثقل والانجذاب عن الجسم، والقرب عن الحركة، والشبع عن الاكل، والريّ عن الشرب، وهكذا، وقد مر في البحث عن الاعجاز ان ناموس العلية والمعلولية، وبعبارة أُخرى توسط الاسباب بين الله سبحانه وبين مسبباتها حق لا مناص عنه لكنه لا يوجب قصر الحوادث على اسبابها

العادية بل البحث العقلي النظري، والكتاب والسنة تثبت اصل التوسط وتبطل الانحصار، نعم المحالات العقلية لا مطمع فيها.

اذا عرفت هذا علمت: ان العلم بالله يوجب الاذعان بان ما ليس بمحال ذاتي من كل ما تحيله العادة فإن الدعاء مستجاب فيه كما ان العمدة من معجزات الانبياء راجعة الى استجابة الدعوة.

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي يعلمون اني اقدر ان أُعطيهم ما يسألوني.

وفي المجمع، قال: وروي عن ابي عبدالله عليه السلام انه قال: وليؤمنوا بي اي وليتحققوا اني قادر على اعطائهم ما سألوه لعلهم يرشدون، اي لعلهم يصيبون الحق، اي يهتدون اليه.

١٨٧ ✽ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى الَّيْلِ وَلَا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ آياتِهِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ﴾. الاحلال بمعنى

الاجازة ، وأصله من الحل مقابل العقد ، والرفث هو التصريح بما يكنى عنه مما يستقبح ذكره ، من الالفاظ التي لا تخلو عنها مباشرة النساء ، وقد كني به هٰهنا عن عمل الجماع وهو من أدب القرآن الكريم وكذا سائر الالفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول والمس واللمس والاتيان والقرب كلها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية ، وكذا لفظ الوطئ والجماع وغيرهما المستعملة في غير القرآن ألفاظ كنائية وإن اخرج كثرة الاستعمال بعضها من حد الكناية الى التصريح ، كما ان الفاظ الفرج والغائط بمعناهما المعروف اليوم من هذا القبيل ، وتعدية الرفث بإلى لتضمينه معنى الافضاء على ما قيل .

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، الظاهر من اللباس معناه المعروف وهو ما يستر به الانسان بدنه ، والجملتان من قبيل الاستعارة فإن كلا من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكان كل منهما لصاحبه لباساً يواري به سوأته ويستر به عورته .

وهذه استعارة لطيفة ، وتزيد لطفاً بانضمامها الى قوله : احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، فإن الانسان يستر عورته عن غيره باللباس ، وأما نفس اللباس فلا ستر عنه فكذا كل من الزوجين يتقي به صاحبه عن الرفث الى غيره ، واما الرفث اليه فلا لانه لباس المتصل بنفسه المباشر له .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَىٰ عَنْكُمْ ﴾ ، الاختيان والخيانة بمعنى ، وفيه معنى النقص على ما قيل ، وفي قوله : انكم تختانون ، دلالة على معنى الاستمرار ، فتدل الآية على ان هذه الخيانة كانت دائرة مستمرة بين المسلمين منذ شرع حكم الصيام فكانوا يعصون الله تعالى سراً بالخيانة لأنفسهم ، ولو لم تكن هذه الخيانة منهم معصية لم ينزل التوبة والعفو ، وهما وان لم يكونا صريحين في سبق المعصية لكنهما ، وخاصة اذا اجتمعا ، ظاهر في ذلك .

وعلى هذا فالآية دالة على ان حكم الصيام كان قبل نزول الآية حرمة الجماع في ليلة الصيام، والآية بنزولها شرعت الحلية ونسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين، ويشعر به أو يدل عليه قوله: أُحل لكم، وقوله: كنتم تختانون، وقوله: فتاب عليكم وعفا عنكم، وقوله: فالآن باشروهن، اذ لولا حرمة سابقة كان حق الكلام ان يقال: فلا جناح عليكم ان تباشروهن أو ما يؤدي هذا المعنى، وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أمر واقع بعد الحظر فيدل على الجواز، وقد سبقه قوله تعالى في أول الآية: احل لكم والمعنى فمن الآن تجوز لكم مباشرتهن، والابتغاء هو الطلب، والمراد بابتغاء ما كتب الله هو طلب الولد الذي كتب الله سبحانه ذلك على النوع الانساني من طريق المباشرة، وفطرهم على طلبه بما أودع فيهم من شهوة النكاح والمباشرة، وسخرهم بذلك على هذا العمل فهم يطلبون بذلك ما كتب الله لهم وإن لم يقصدوا ظاهراً إلّا ركوب الشهوة ونيل اللذة كما انه تعالى كتب لهم بقاء الحياة والنمو بالاكل والشرب وهو المطلوب الفطري وان لم يقصدوا بالاكل والشرب إلّا الحصول على لذة الذوق والشبع والري، فإنما هو تسخير إلهي.

واما ما قيل: ان المراد بما كتب الله لهم الحل والرخصة فإن الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يحب ان يؤخذ بعزائمه، فبيعده: ان الكتابة في كلامه غير معهودة في مورد الحلية والرخصة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، الفجر فجران، فجر أول يسمى بالكاذب لبطلانه بعد مكث قليل وبذنب السرحان لمشابهته ذنب الذئب اذا شاله، وعمود شعاعي يظهر في آخر الليل في ناحية الافق الشرقي اذا بلغت فاصلة الشمس من دائرة الافق الى ثمانية عشر درجة تحت الافق، ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضاً مستطيلاً على لافق كالخيط الابيض الممدود عليه وهو الفجر الثاني، ويسمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه ويخبر به من قدوم النهار واتصاله

بطلوع الشمس.

ومن هنا يعلم ان المراد بالخيط الابيض هو الفجر الصادق، وان كلمة من، بيانية وان قوله تعالى: حتى يتبيّن لكم الخيط الاسود من قبيل الاستعارة بتشبيه البياض المعترض على الافق من الفجر، المجاور لما يمتد معترضاً معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبيّن من الخيط الاسود.

ومن هنا يعلم أيضاً: ان المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق فان ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط ابيض ولا خيط اسود.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام الى الليل بعد تبيّنه استغنى عن ذكره ايثاراً للايجاز بل تعرض لتحديده بإتمامه الى الليل، وفي قوله: اتموا دلالة على انه واحد بسيط وعبادة واحدة تامة من غير ان تكون مركبة من أُمور عديدة كل واحد منها عبادة واحدة، وهذا هو الفرق بين التمام والكمال حيث ان الاول انتهاء وجود ما لا يتألف من اجزاء ذوات آثار والثاني انتهاء وجود ما لكل من اجزائه اثر مستقل وحده. قال تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي﴾ (المائدة / ٣)، فإن الدين مجموع الصلوة والصوم والحج وغيرها التي لكل منها اثر يستقل به، بخلاف النعمة على ما سيجيء بيانه إنشاء الله في الكلام على الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، العكوف والاعتكاف هو اللزوم والاعتكاف بالمكان الاقامة فيه ملازماً له.

والاعتكاف عبادة خاصة من احكامها لزوم المسجد وعدم الخروج منه الا لعذر والصيام معه. ولذلك صح ان يتوهم جواز مباشرة النساء في ليالي الاعتكاف في المسجد بتشريع جواز الرفث ليلة الصيام فدفع هذا الدخل بقوله: ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾، أصل الحد هو المنع واليه يرجع جميع استعمالاته واشتقاقاته كحد السيف وحد الفجور وحد الدار والحديد الى غير ذلك، والنهي عن القرب من الحدود كناية عن عدم اقترافها والتعدي اليها، أي لا تقترفوا هذه المعاصي التي هي الاكل والشرب والمباشرة او لا تتعدوا عن هذه الاحكام والحرمات الإلهية التي بيّنها لكم وهي احكام الصوم بإضاعتها وترك التقوى فيها.

١٨٨ ● وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ﴾، المراد بالاكل الاخذ أو مطلق التصرف مجازاً، والمصحح لهذا الاطلاق المجازي كون الاكل أقرب الافعال الطبيعية التي يحتاج الانسان الى فعلها وأقدمها فالانسان أول ما ينشاء وجوده يدرك حاجته الى التغذي ثم ينتقل منه الى غيره من الحوائج الطبيعية كاللباس والمسكن والنكاح ونحو ذلك، فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه، ولذلك كان تسمية التصرف والاخذ، وخاصة في مورد الاموال، أكلاً لايختص باللغة العربية بل يعم سائر اللغات.

والمال ما يتعلق به الرغبات من الملك، كأنه مأخوذ من الميل لكونه ما يميل اليه القلب، والبين هو الفصل الذي يضاف الى شيئين فأزيد، والباطل يقابل الحق الذي هو الامر الثابت بنحو من الثبوت.

وفي تقييد الحكم، أعني قوله: ولا تأكلوا أموالكم، بقوله: بينكم، دلالة على ان جميع الاموال لجميع الناس وإنما قسمه الله تعالى بينهم تقسيماً حقاً بوضع قوانين عادلة تعدّل الملك

تعديلاً حقاً يقطع منابت الفساد لا يتعداه تصرف من متصرف إلّا كان باطلاً. فالآية كالشارحة لإطلاق قوله تعالى: خلق لكم ما في الارض جميعاً وفي إضافته الاموال الى الناس إمضاء منه لما استقر عليه بناء المجتمع الانساني من اعتبار أصل الملك واحترامه في الجملة من لدن استكن هذا النوع على بسيط الارض على ما يذكره النقل والتاريخ. وقد ذكر هذا الاصل في القرآن بلفظ الملك والمال ولام الملك والاستخلاف وغيرها في أزيد من مأة مورد ولا حاجة الى إيرادها في هذا الموضع. وكذا بطريق الاستلزام في آيات تدل على تشريع البيع والتجارة ونحوهما في بضعة مواضع كقوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع﴾ (البقرة / ٢٧٥)، وقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا ان تكون تجارة عن تراض﴾ (النساء / ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿تجارة تخشون كسادها﴾ (التوبة / ٢٤)، وغيرها. والسنة المتواترة تؤيده.

قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً﴾، الإدلاء هو ارسال الدلو في البئر لنزح الماء كني به عن مطلق تقريب المال الى الحكام ليحكموا كما يريده الراشي، وهو كناية لطيفة تشير الى استبطان حكمهم المطلوب بالرشوة الممثل لحال الماء الذي في البئر بالنسبة الى من يريده. والفريق هو القطعة المفروقة المعزولة من الشيء، والجملة معطوفة على قوله: تأكلوا، فالفعل مجزوم بالنهي، ويمكن ان يكون الواو بمعنى مع والفعل منصوباً بأن المقدرة، والتقدير مع ان تأكلوا فتكون الآية بجملتها كلاماً واحداً مسوقاً لغرض واحد، وهو النهي عن تصالح الراشي والمرتشي على أكل أموال الناس بوضعها بينهما وتقسيمها لانفسهما بأخذ الحاكم ما هدى به منها اليه واخذ الراشي فريقاً آخر منها بالإثم وهما يعلمان ان ذلك باطل غير حق[1].

---

١. البقرة ١٨٨: بحث علمي واجتماعي في الملكية.

١٨٩ ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ ـ الى قوله ـ لِلنَّاسِ ﴾، الاهلة جمع هلال ويسمى القمر هلالاً اول الشهر القمري اذا خرج من تحت شعاع الشمس الليلة الاولى والثانية كما قيل، وقال بعضهم الليالي الثلاثة الاول، وقال بعضهم حتى يتحجر، والتحجر ان يستدير بخطة دقيقة، وقال بعضهم: حتى يبهر نوره ظلمة الليل وذلك في الليلة السابعة ثم يسمى قمراً ويسمى في الرابعة عشر بدراً، واسمه العام عند العرب الزبرقان.

والهلال مأخوذ من استهلال الصبي اذا بكى عند الولادة أو صاح، ومن قولهم: أهلّ القوم بالحج اذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، سمي به لان الناس يهلون بذكره اذا رأوا. والمواقيت جمع ميقات وهو الوقت المضروب للفعل، ويطلق ايضاً: على المكان المعين للفعل كميقات أهل الشام وميقات أهل اليمن، والمراد ههنا الاول.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾، وان لم يشرح ان السؤال في امرها عماذا؟ عن حقيقة القمر وسبب تشكلاتها المختلفة في صور الهلال والقمر والبدر كما قيل، أو عن حقيقة الهلال فقط، الظاهر بعد المحاق في اول الشهر القمري كما ذكره بعضهم، أو عن غير ذلك.

ولكن اتيان الهلال في السؤال بصورة الجمع حيث قيل: يسئلونك عن الاهلة دليل على ان

السؤال لم يكن عن ماهية القمر واختلاف تشكلاته اذ لو كان كذلك لكان الانسب ان يقال: يسئلونك عن القمر لا عن الاهلة. وايضاً لو كان السؤال عن حقيقة الهلال وسبب تشكله الخاص كان الانسب ان يقال: يسئلونك عن الهلال اذ لا غرض حينئذ يتعلق بالجمع، ففي اتيان الاهلة بصيغة الجمع دلالة على ان السؤال انما كان عن السبب أو الفائدة في ظهور القمر هلالاً بعد هلال ورسمه الشهور القمرية، وعبر عن ذلك بالاهلة لانها هي المحققة لذلك فاجيب بالفائدة.

ويستفاد ذلك من خصوص الجواب: قل هي مواقيت للناس والحج، فإن المواقيت وهي الازمان المضروبة للافعال، والاعمال انما هي الشهور دون الاهلة التي ليست بأزمنة وانما هي أشكال وصور في القمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا - الى قوله - مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، ثبت بالنقل ان جماعة من العرب الجاهلي كانوا اذا أحرموا للحج لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجة من الباب بل اتخذوا نقباً من ظهورها ودخلوا منه فنهى عن ذلك الاسلام وامرهم بدخول البيوت من ابوابها، ونزول الآية يقبل الانطباق على هذا الشأن، وبذلك يصح الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآية على ما سيأتي نقله.

ولولا ذلك لامكن ان يقال: ان قوله: وليس البر الى آخره؛ كناية عن النهي عن امتثال الاوامر الالهية والعمل بالاحكام المشرعة في الدين إلا على الوجه الذي شرّعت عليه، فلا يجوز الحج في غير أشهره، ولا الصيام في غير شهر رمضان وهكذا وكانت الجملة عليهذا متممة لاول الآية، وكان المعنى: ان هذه الشهور أوقات مضروبة لاعمال شرعت فيها ولا يجوز التعدي بها عنها الى غيرها كالحج في غير أشهره، والصوم في غير شهر رمضان وهكذا فكانت الاية مشتملة على بيان حكم واحد.

وعلى التقدير الاول الذي يؤيده النقل فنفي البر عن إتيان البيوت من ظهورها يدل على ان

العمل المذكور لم يكن مما امضاه الدين وإلّا لم يكن معنى لنفي كونه براً فانما كان ذلك عادة سيئة جاهلية فنفى الله تعالى كونه من البر، وأثبت ان البر هو التقوى، وكان الظاهر ان يقال: ولكن البر هو التقوى، وانما عدل الى قوله: ولكن البر من اتقى، اشعارا بان الكمال انما هو في الاتصاف بالتقوى وهو المقصود دون المفهوم الخالي كما مر نظيره في قوله تعالى: ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن، الآية.

والامر في قوله تعالى: وأتوا البيوت من أبوابها، ليس امراً مولوياً وإنما هو إرشاد الى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجرى على العادة المألوفة المستحسنة الموافقة للغرض العقلائي في بناء البيوت ووضع الباب مدخلاً ومخرجاً فيها، فإن الكلام واقع موقع الردع عن عادة سيئة لا وجه لها إلّا خرق العادة الجارية الموافقة للغرض العقلائي، فلا يدل على أزيد من الهداية الى طريق الصواب من غير إيجاب، نعم الدخول من غير الباب بقصد أنه من الدين بدعة محرمة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قد عرفت في أول السورة ان التقوى من الصفات التي يجامع جميع مراتب الايمان ومقامات الكمال، ومن المعلوم ان جميع المقامات لا يستوجب الفلاح والسعادة كما يستوجبه المقامات الاخيرة التي تنفي عن صاحبها الشرك والضلال وإنما تهدي الفلاح وتبشر بالسعادة، ولذلك قال تعالى: واتقوا الله لعلكم تفلحون، فأتى بكلمة الترجي، ويمكن ان يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الامر الخاص الموجود في الآية وترك ما ذمه من إتيان البيوت من ظهورها.

١٩٠ ● وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

١٩١ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ.

١٩٢ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٩٣ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ.

١٩٤ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

١٩٥ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، وكونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين وإعلاء كلمة التوحيد، فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس وأعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الانسانية المشروعة عند الفطرة السليمة كما سنبينه، فان الدفاع محدود بالذات، والتعدي خروج عن الحد، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ الخ؛ الاعتداء هو الخروج عن الحد. يقال عدا واعتدى اذا جاوز وحده، والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى الى الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء والصبيان، وعدم الانتهاء الى العدو، وغير ذلك مما بينه السنة النبوية.

قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ - الى قوله - مِنَ الْقَتْلِ﴾، يقال ثقف ثقافة أي وجد وأدرك فمعنى الآية معنى قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ (التوبة / ٦)، والفتنة هو ما يقع به اختبار حال الشيء، ولذلك يطلق على نفس الامتحان والابتداء وعلى ما يلازمه غالباً وهو الشدة والعذاب على ما يستعقبه كالضلال والشرك، وقد استعمل في القرآن الشريف في جميع هذه المعاني، والمراد به في الآية الشرك بالله ورسوله بالزجر والعذاب كما كان يفعله المشركون بمكة بالمؤمنين بعد هجرة رسول الله ﷺ وقبلها.

فالمعنى شددوا على المشركين بمكة كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجر ذلك الى خروجهم من ديارهم وجلائهم من أرضهم كما فعلوا بكم ذلك، وما فعلوه أشد فإن ذلك منهم كان فتنة والفتنة أشد من القتل لان في القتل انقطاع الحياة الدنيا، وفي الفتنة انقطاع الحياتين وانهدام الدارين.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ الخ؛ فيه نهي عن القتال عند المسجد الحرام حفظاً لحرمته ما حفظوه، والضمير في قوله: فيه راجع الى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، الانتهاء الامتناع والكف، والمراد به الانتهاء عن مطلق القتال عند المسجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعة الدين وقبول الإسلام فإن ذلك هو المراد بقوله ثانياً: فان انتهوا فلا عدوان، وأما هذا الانتهاء

فهو قيد راجع الى أقرب الجمل اليه وهو قوله: ولا تقاتلوهم عند المسجد، وعلى هذا فكل من الجملتين اعني قوله تعالى: فإن انتهوا فان الله، وقوله تعالى: فان انتهوا فلا عدوان، قيد لم يتصل به من الكلام من غير تكرار.

وفي قوله تعالى: فان الله غفور رحيم، وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعلة الحكم، والمعنى فإن انتهوا فان الله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، تحديد لأمد القتال كما مر ذكره، والفتنة في لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الاصنام كما كان يفعله ويكره عليه المشركون بمكة، ويدل عليه قوله تعالى: ويكون الدين لله، والآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة وإن تولوا فاعلموا ان الله موليكم نعم المولى ونعم النصير﴾ (الأنفال / ٤٠)، وفي الآية دلالة على وجوب الدعوة قبل القتال فان قبلت فلا قتال وان ردت فلا ولاية الا لله ونعم المولى ونعم النصير، ينصر عباده المؤمنين، ومن المعلوم أن القتال إنما هو ليكون الدين لله، ولا معنى لقتال هذا شأنه وغايته إلّا عن دعوة الى الدين الحق وهو الدين الذي يستقر على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أي فإن انتهوا عن الفتنة وآمنوا بما آمنتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلّا على الظالمين، فهو من وضع السبب موضع المسبب كما مر نظيره في قوله تعالى: فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، الآية؛ فالآيه كقوله تعالى: ﴿فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ (التوبة / ١٢).

قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، الحرمات جمع حرمة وهي ما يحرم هتكه ويجب تعظيمه ورعاية جانبه، والحرمات: حرمة الشهر الحرام وحرمة الحرم وحرمة المسجد الحرام، والمعنى أنهم لو هتكوا حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه،

وقد هتكوا حين صدوا النبي وأصحابه عن الحج عام الحديبية ورموهم بالسهام والحجارة جاز للمؤمنين أن يقاتلوهم فيه وليس بهتك، فانما يجاهدون في سبيل الله ويقتلون أمره في إعلاء كلمته ولو هتكوا حرمة الحرم والمسجد الحرام بالقتال فيه وعنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل. فقوله: الشهر الحرام بالشهر الحرام بيان خاص عقب ببيان عام يشمل جميع الحرمات وأعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقيبه: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، فالمعنى أن الله سبحانه إنما شرع القصاص في الشهر الحرام لانه شرع القصاص في جميع الحرمات وإنما شرع القصاص في الحرمات لانه شرع جواز الاعتداء بالمثل.

ثم ندبهم الى ملازمة طريقة الاحتياط في الاعتداء لأن فيه استعمالاً للشدة والبأس والسطوة وسائر القوى الداعية الى الطغيان والانحراف عن جادة الاعتدال والله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، وهم أحوج الى محبة الله تعالى وولايته ونصره فقال تعالى: واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين.

وأما أمره تعالى بالاعتداء مع انه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم اذا لم يكن في مقابله اعتداء وأما اذا كان في مقابله الاعتداء فليس إلّا تعالياً عن ذل الهوان وارتقاء عن حضيض الاستعباد والظلم والضيم، كالتكبر مع المتكبر، والجهر بالسوء لمن ظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، أمر بانفاق المال لإقامة القتال في سبيل الله والكلام في تقييد الإنفاق ههنا بكونه في سبيل الله نظير تقييد القتال في اول الآيات بكونه في سبيل الله، كما مر، والباء في قوله: بأيديكم زائدة للتأكيد، والمعنى: ولا تلقوا أيديكم الى التهلكة كناية عن النهي عن إبطال القوة والاستطاعة والقدرة فان اليد مظهر لذلك، وربما يقال: ان الباء للسببية ومفعول لا تلقوا محذوف، والمعنى: لا تلقوا أنفسكم بأيدي أنفسكم الى التهلكة، والتهلكة والهلاك واحد وهو مصير الإنسان

بحيث لا يدري أين هو، وهو على وزن تفعلة بضم العين ليس في اللغة مصدر على هذا الوزن غيره.

والكلام مطلق أُريد به النهي عن كل ما يوجب الهلاك من إفراط وتفريط كما أن البخل والإمساك عن إنفاق المال عند القتال يوجب بطلان القوة وذهاب القدرة، وفيه هلاك العدة بظهور العدو عليهم، وكما أن التبذير بانفاق جميع المال يوجب الفقر والمسكنة المؤديين الى انحطاط الحياة وبطلان المروة.

ثم ختم سبحانه وتعالى الكلام بالاحسان فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وليس المراد بالاحسان الكف عن القتال أو الرأفة في قتل أعداء الدين وما يشبهها بل الاحسان هو الاتيان بالفعل على وجه حسن بالقتال في مورد القتال، والكف في مورد الكف، والشدة في مورد الشدة، والعفو في مورد العفو، فدفع الظالم بما يستحقه إحسان على الانسانية باستيفاء حقها المشروع لها، ودفاع عن الدين المصلح لشأنها كما أن الكف عن التجاوز في استيفاء الحق المشروع بما لا ينبغي إحسان آخر، ومحبة الله سبحانه وتعالى هو الغرض الأقصى من الدين، وهو الواجب على كل متدين بالدين أن يجلبها من ربه بالاتباع، قال تعالى: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران / ٣١). وقد بدأت الآيات الشريفة ـ وهي الآيات القتال ـ بالنهي عن الاعتداء وان الله لا يحب المعتدين وختمت بالأمر بالاحسان وأن الله يحب المحسنين، وفي ذلك من وجوه الحلاوة ما لا يخفى[1][2][3].

---

١. البقرة ١٩٠ ـ ١٩٥: بحث في الجهاد الذي يأمر به القرآن.

٢. البقرة ١٩٠ ـ ١٩٥: بحث اجتماعي حق الدفاع الفطري وسبب الحروب.

٣. البقرة ١٩٠ ـ ١٩٥: بحث روائي في القتال؛ الفتنة في الدين.

١٩٦ ● وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّٰهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتّٰى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

١٩٧ ● الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبابِ.

١٩٨ ● لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَدٰيكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ.

١٩٩ ● ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٢٠٠ ● فَإِذا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ.

٢٠١ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

٢٠٢ ● أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

٢٠٣ ● وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. تمام الشيء هو الجزء الذي بانضمامه الى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو، ويترتب عليه آثاره المطلوبة منه فالإتمام هو ضم تمام الشيء اليه بعد الشروع في بعض أجزائه، والكمال هو حال أو وصف أو أمر اذا وجده الشيء ترتب عليه من الاثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لولا الكمال، فانضمام أجزاء الانسان بعضها الى بعض هو تمامه، وكونه إنساناً عالماً أو شجاعاً أو عفيفاً كماله، وربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعارة بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخلاً فيه اهتماماً بأمره وشأنه. والمراد بإتمام الحج والعمرة هو المعنى الاول الحقيقي، والدليل عليه قوله تعالى بعده: فإن أُحصرتم فما استيسر من الهدى، فإن ذلك تفريع على التمام بمعنى إيصال العمل الى آخر أجزائه وضمه الى أجزائه المأتي بها بعد الشروع ولا معنى يصح تفريعه على الاتمام بمعنى الاكمال وهو ظاهر.

والحج هو العمل المعروف بين المسلمين الذي شرعه إبراهيم الخليل عليه السلام وكان بعده بين العرب ثم أمضاه الله سبحانه لهذه الأمة شريعة باقية الى يوم القيامة.

ويبتدي هذا العمل بالاحرام والوقوف في العرفات ثم المشعر الحرام، وفيها التضحية بمنى ورمي الجمرات الثلاث والطواف وصلاته والسعي بين الصفا والمروة، وفيها أُمور مفروضة أُخر، وهو على ثلاثة أقسام: حج الافراد، وحج القرآن، وحج التمتع الذي شرعه الله في آخر عهد رسول الله.

والعمرة عمل آخر وهو زيارة البيت بالاحرام من أحد المواقيت والطواف وصلاته والسعي بين الصفا والمروة والتقصير، وهما أعني الحج، والعمرة عبادتان لا يتمان إلّا لوجه الله ويدل عليه قوله تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله، الآية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ﴾ الخ؛ الاحصار هو الحبس، والمنع، والمراد الممنوعية عن الاتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالاحرام والاستيسار صيرورة الشيء يسيراً غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه، والهدى هو ما يقدمه الانسان من النعم الى غيره أو الى محل للتقرب به، واصله من الهدية بمعنى التحفة أو من الهدى بمعنى الهداية التي هي السوق الى المقصود، والهدى والهدية كالتمر والتمرة، والمراد به ما يسوقه الانسان للتضحية به في حجه من النعم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ﴾ الخ؛ الفاء للتفريع، وتفريع هذا الحكم على النهي عن حلق الرأس يدل على ان المراد بالمرض هو خصوص المرض الذي يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق، والاتيان بقوله: أو أذى من رأسه بلفظة أو الترديد يدل على ان المراد بالاذى ما كان من غير طريق المرض كالهوام فهو كناية عن التأذي من الهوام كالقمل على الرأس، فهذان الامران يجوزان الحلق مع الفدية بشيء من الخصال الثلاث: التي هي الصيام، والصدقة، والنسك.

وقد وردت السنة ان الصيام ثلاثة أيام، وان الصدقة إطعام ستة مساكين، وان النسك شاة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾، تفريع على الاحصار، أي اذا أمنتم المانع من مرض أو عدو أو غير ذلك فمن تمتع بالعمرة الى الحج، أي تمتع بسبب العمرة من حيث ختمها والاحلال الى زمان الاهلال بالحج فما استيسر من الهدى، فالباء للسببية، وسببية العمرة للتمتع بما كان لا يجوز له في حال الاحرام كالنساء والصيد ونحوهما من جهة تمامها بالاحلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، ظاهر الآية ان ذلك نسك، لا جبران لما فات منه من الاهلال بالحج من الميقات فإن ذلك امر يحتاج الى زيادة مؤنة في فهمه من الآية كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، جعل الحج ظرفاً للصيام باعتبار اتحاده مع زمان الاشتغال به ومكانه، فالزمان الذي يعد زماناً للحج، وهو من زمان إحرام الحج الى الرجوع، زمان الصيام ثلاثة أيام، ولذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت ان وقت الصيام قبل يوم الاضحى أو بعد ايام التشريق لمن لم يقدر على الصيام قبله وإلّا فعند الرجوع الى وطنه، وظرف السبعة إنما هو بعد الرجوع فإن ذلك هو الظاهر من قوله: اذا رجعتم، ولم يقل حين الرجوع على ان الالتفات من الغيبة الى الحضور في قوله اذا رجعتم لا يخلو عن إشعار بذلك.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، أي الثلاثة والسبعة عشرة كاملة وفي جعل السبعة مكملة للعشرة دلالة على أن لكل من الثلاثة والسبعة حكماً مستقلاً آخر على ما مر من معنى التمام والكمال في أول الآية فالثلاثة عمل تام في نفسه، وإنما تتوقف على السبعة في كمالها لا تمامها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي الحكم المتقدم ذكره وهو التمتع بالعمرة الى الحج لغير الحاضر، وهو الذي بينه وبين المسجد الحرام

أكثر من اثني عشر ميلاً على ما فسرته السنة. وأهل الرجل خاصته: من زوجته وعياله. والتعبير عن النائي البعيد بأن لا يكون اهله حاضري المسجد الحرام من اللطف التعبيرات. وفيه إيماء الى حكمة التشريع وهو التخفيف والتسهيل. فإن المسافر من البلاد النائية للحج. وهو عمل لا يخلو من الكد ومقاسات التعب ووعثاء الطريق. لا يخلو عن الحاجة الى السكن والراحة. والانسان إنما يسكن ويستريح عند أهله. وليس للنائي أهل عند المسجد الحرام. فبدل له الله سبحانه من التمتع بالعمرة الى الحج والاهلال بالحج من المسجد الحرام من غير ان يسير ثانياً الى الميقات.

وقد عرفت: أن الجملة الدالة على تشريع المتعة إنما هي هذه الجملة أعني قوله: ذلك لمن لم يكن. الخ: دون قوله: فمن تمتع بالعمرة الى الحج. وهو كلام مطلق غير مقيد بوقت دون وقت ولا شخص دون شخص ولا حال دون حال.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. التشديد البالغ في هذا التذليل مع أن صدر الكلام لم يشتمل على أزيد من تشريع حكم في الحج ينبيء عن أن المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله كذلك كان الامر فإن الحج خاصة من بين الاحكام المشرعة في الدين كان موجوداً بينهم من عصر إبراهيم الخليل معروفاً عندهم معمولاً به فيهم قدأنسته نفوسهم وألفته قلوبهم وقد أمضاه الاسلام على ما كان تقريباً الى آخر عهد النبي فلم يكن تغيير وضعه أمراً هيناً سهل القبول عندهم ولذلك قابلوه بالانكار وكان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات. ولذلك اضطر النبي ﷺ الى أن يخطبهم فيبين لهم أن الحكم لله يحكم ما يشاء. وأنه حكم عام لا يستثنى فيه أحد من نبي أو أمة فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآيه بالأمر بالتقوى والتحذير عن عقاب الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ - الى قوله - في

﴿ الْحَجِّ ﴾. أي زمان الحج أشهر معلومات عند القوم وقد بينته السنة وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

وكون زمان الحج من ذي الحجة بعض هذا الشهر دون كله لا ينافي عده شهراً للحج فإنه من قبيل قولنا: زمان مجيئي اليك يوم الجمعة مع ان المجيء إنما هو في بعضه دون جميعه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾. تذكرة بأن الاعمال غير غائبة عنه تعالى، ودعوة الى التقوى لئلا يفقد المشتغل بطاعة الله روح الحضور ومعنى العمل، وهذا دأب القرآن يبين أُصول المعارف ويقص القصص وذكر الشرائع ويشفع البيان في جميعها بالعظة والوصية لئلا يفارق العلم العمل، فإن العلم من غير عمل لا قيمة له في الاسلام. ولذلك ختم هذه الدعوة بقوله: واتقوني يا أُولى الالباب. بالعدول من الغيبة الى التكلم الذي يدل على كمال الاهتمام والاقتراب والتعين.

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾. هو نظير قوله تعالى: ﴿ يا ايها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ الى أن قال: ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله ﴾ (الجمعة / ١٠). فبدل البيع بالابتغاء من فضل الله فهو هو. ولذلك فسرت السنة الابتغاء من الفضل في هذه الآية من البيع فدلت الآية على إباحة البيع اثناء الحج.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾. الافاضة هي الصدور عن المكان جماعة فهي تدل على وقوف عرفات كما تدل على الوقوف بالمشعر الحرام، وهي المزدلفة.

قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيكُمْ ﴾ الخ: أي واذكروه ذكراً يماثل هدايته إياكم وانكم كنتم من قبل هدايته إياكم لمن الضالين.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾. ظاهره إيجاب الافاضة على

ما كان من دأب الناس والحاق المخاطبين في هذا الشأن بهم فينطبق على ما نقل ان قريشاً وحلفائها وهم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفة وكانوا يقولون: نحن اهل حرم الله لا نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالافاضة من حيث افاض الناس وهو عرفات.

وعلى هذا فذكر هذا الحكم بعد قوله: فاذا أفضتم من عرفات، بثم الدالة على التأخير اعتبار للترتيب الذكري، والكلام بمنزلة الاستدراك، والمعنى ان أحكام الحج هي التي ذكرت غير انه يجب عليكم في الافاضة ان تفيضوا من عرفات لا من المزدلفة، وربما قيل: إن في الآيتين تقديماً وتأخيراً في التأليف، والترتيب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فاذا أفضتم من عرفات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ـ الى قوله ـ ذِكْراً﴾، دعوة الى ذكر الله والبلاغ فيه بأن يذكره الناس كذكره آبائه وأشد منه لان نعمته في حقه وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هديكم﴾ أعظم من حق آبائه عليه، وقد قيل: إن العرب كانت في الجاهلية اذا فرغت من الحج مكثت حيناً في منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم والنثر فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم، وأوفى قوله أو أشد ذكراً، للاضراب فتفيد معنى بل، وقد وصف الذكر بالشدة وهو امر يقبل الشدة في الكيفية كما يقبل الكثرة في الكمية. قال تعالى: ﴿واذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ (الأحزاب / ٤١)، وقال تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيراً﴾ (الأحزاب / ٣٥)، فإن الذكر بحسب الحقيقة ليس مقصوراً في اللفظ، بل هو امر يتعلق بالحضور القلبي واللفظ حاك عنه، فيمكن ان يتصف بالكثرة من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه في غالب الحالات كما قال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (آل عمران / ١٩١)، وان يتصف بالشدة في مورد من الموارد، ولما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: فاذا قضيتم مناسككم، مورداً يستوجب التلهي عنه تعالى ونسيانه كان الانسب توصيف الذكر الذي أُمر به فيه بالشدة دون الكثرة كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ الخ؛ تفريع على قوله تعالى: فاذكروا الله كذكركم آبائكم، والناس مطلق، فالمراد به أفراد الانسان أعم من الكافر الذي لا يذكر إلّا آبائه أي لا يبتغي إلّا المفاخر الدنيوية ولا يطلب إلّا الدنيا ولا شغل له بالآخرة، ومن المؤمن الذي لا يريد إلّا ما عند الله سبحانه، ولو أراد من الدنيا شيئاً لم يرد إلّا ما يرتضيه له ربه، وعلى هذا فالمراد بالقول والدعاء ما هو سؤال بلسان الحال دون المقال، ويكون معنى الآية أن من الناس من لا يريد إلّا الدنيا ولا نصيب له في الآخرة ومنهم من لا يريد إلّا ما يرتضيه له ربه سواء في الدنيا أو في الآخرة وهؤلاء نصيب في الاخرة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، إسم من أسماء الله الحسنى، وإطلاقه يدل على شموله للدنيا والآخرة معاً، فالحساب جار، كلما عمل عبد شيئاً من الحسنات أو غيرها آتاه الله الجزاء جزاءً وفاقاً.

فالمحصل من معنى قوله: فمن الناس من يقول، الى آخر الآيات، أن اذكروا الله تعالى فإن الناس على طائفتين: منهم من يريد الدنيا فلا يذكر غيرها ولا نصيب له في الآخرة، ومنهم من يريد ما عند الله مما يرتضيه له وله نصيب من الآخرة والله سريع الحساب يسرع في حساب ما يريده عبده فعطيه كما يريد، فكونوا من أهل النصيب بذكر الله ولا تكونوا ممن لا خلاق له بتركه ذكر ربه فتكونوا قانطين آئسين.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾، الايام المعدودات هي ايام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، والدليل على ان هذه الايام بعد العشرة من ذي الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج، والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: فمن تعجل في يومين، الخ؛ فإن التعجل في يومين إنما يكون اذا كانت الايام ثلاثة، يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهي ثلاثة، وقد فسرت في الروايات بذلك أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، لا نافية للجنس فقوله: لا إثم عليه في الموضعين ينفي جنس الاثم عن الحاج ولم يقيد بشيء أصلاً، ولو كان المراد لا إثم عليه في التعجل أو في التأخر لكان من اللازم تقييده به. فالمعنى أن من اتم عمل الحج فهو مغفور لا ذنب له سواء تعجل في يومين أو تأخر. ومن هنا يظهر: ان الآية ليست في مقام بيان التخيير بين التأخر والتعجل للناسك، بل المراد بيان كون الذنوب مغفورة للناسك على أي حال.

واما قوله: لمن اتقى. فليس بياناً للتعجل والتأخر وإلّا لكان حق الكلام ان يقال: على من اتقى، بل الظاهر ان قوله: لمن اتقى نظير قوله تعالى: ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام، الآية، والمراد ان هذا الحكم لم اتقى واما من لم يتق فليس له. من اللازم ان يكون هذه التقوى تقوى مما نهى الله سبحانه عنه في الحج واختصه به فيؤل المعنى ان الحكم إنما هو لمن اتقى تروك الاحرام أو بعضها أما من لم يتق فيجب ان يقيم بمنى ويذكر الله في ايام معدودات. وقد ورد هذا المعنى في بعض ما روي عن أئمة اهل البيت كما سيجيء إنشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، امر بالتقوى في خاتمة الكلام وتذكير بالحشر والبعث فإن التقوى لا تتم والمعصية لا تجتنب إلّا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

وفي اختيار لفظ الحشر في قوله تعالى: انكم اليه تحشرون، مع ما في نسك الحج من حشر الناس وجمعهم لطف ظاهر، وإشعار بأن الناسك ينبغي ان يذكر بهذا الجمع والافاضة يوماً يحشر الله سبحانه الناس لا يغادر منهم أحداً[1].

---

١. البقرة ١٩٦ ـ ٢٠٣: بحث روائي في الحج والعمرة؛ متعة الحج.

٢٠٤ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ.

٢٠٥ ● وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

٢٠٦ ● وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ.

٢٠٧ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخ؛ اعجبه الشيء اي راقه وسره. وقوله: في الحياة الدنيا، متعلق بقوله: يعجبك، اي ان الاعجاب في الدنيا من جهة ان هذه الحياة نوع حياة لا تحكم الا على الظاهر، واما الباطن والسريرة فتحت الستر ووراء الحجاب، لا يشاهده الانسان وهو متعلق الحياة بالدنيا الا ان يتكشف شيئاً من امر الباطن من طريق الآثار ويناسبه ما يتلوه: من قوله تعالى: ويشهد الله على ما في قلبه. والمعنى انه يتكلم بما يعجبك كلامه، من ما يشير به الى رعاية جانب الحق، والعناية بصلاح الخلق، وتقدم الدين والامة وهو اشد الخصماء للحق خصومة. وقوله: الد، افعل من لد لدوداً اذا اشتد خصومة، والخصام جمع خصم كصعب وصعاب وكعب وكعاب، وقيل: الخصام مصدر، ومعنى ألد الخصام اشد خصومة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ الخ: التولي هو تملك الولاية والسلطان، ويؤيده قوله تعالى في الآية التالية: أخذته العزة بالإثم، الدال على ان له عزة مكتسبة بالاثم الذي يأثم به قلبه غير الموافق للسانه. والسعي هو العمل والاسراع في المشي، فالمعنى واذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل وأُوتي سلطاناً وتولى امر الناس سعى في الارض ليفسد فيها، ويمكن ان يكون التولي بمعنى الاعراض عن المخاطبة والمواجبة، اي اذا خرج من عندك كانت غيبتة مخالفة لحضوره، وتبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح والخير الى السعي في الأرض لاجل الفساد والافساد.

قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾، ظاهره انه بيان لقوله تعالى: ليفسد فيها اي يفسد فيها بإهلاك الحرث والنسل، ولما كان قوام النوع الانساني من حيث الحياة والبقاء بالتغذي والتوليد فهما الركنان القويمان اللذان لا غناء عنهما للنوع في حال: اما التوليد فظاهر، واما التغذي فانما يركن الانسان فيه الى الحيوان والنبات، والحيوان يركن الى النبات، فالنبات هو الأصل ويستحفظ بالحرث وهو تربية النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث والنسل فالمعنى انه يفسد في الارض بإفناء الانسان وابادة هذا النوع بإهلاك الحرث والنسل.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، المراد بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود (الفساد التكويني) فإن النشأة نشأة الكون والفساد، وعالم التنازع في البقاء ولا كون إلّا بفساد، ولا حياة إلّا بموت، وهما متعانقان في هذا الوجود الطبيعي في النشأة الطبيعية، وحاشا ان يبغض الله سبحانه ما هو مقدره وقاضيه.

وانما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله انما شرّع ما شرّعه من الدين ليصلح به اعمال عباده فيصلح اخلاقهم وملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الانسانية والجامعة البشرية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة على ما سيجيء بيانه في قوله تعالى:

كان الناس أُمة واحدة.

فهذا الذي يخالف ظاهر قوله باطن قلبه اذا سعى في الارض بالفساد فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله عما هو عليه، والتصرف في التعاليف الدينية، بما يؤدي الى فساد الاخلاق واختلاف الكلمة، وفي ذلك موت الدين، وفناء الانسانية، وفساد الدنيا، وقد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم اكتاف هذه الامة الاسلامية، وتصرفهم في امر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين الا وبالاً، وللمسلمين الا انحطاطاً، وللامة الا اختلافاً، فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب، ولا الانسانية الا خطفة لكل خاطف، فنتيجة هذا السعي فساد الارض، وذلك بهلاك الدين اولاً، وهلاك الانسانية ثانياً، ولهذا فسر قوله ويهلك الحرث والنسل في بعض الروايات بهلاك الدين والانسانية كما يأتي انشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، العزة معروفة، والمهاد الوطاء، والظاهر ان قوله: بالاثم متعلق بالعزة، والمعنى انه اذا أُمر بتقوى الله اخذته العزة الظاهرة التي اكتسبها بالاثم والنفاق المستبطن في نفسه، وذلك ان العزة المطلقة انما هي من الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿تعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ (آل عمران / ٢٦)، وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقين / ٨)، وقال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩).

وحاشا ان ينسب تعالى شيئاً الى نفسه ويختصه بإعطائه ثم يستعقب اثماً أو شراً فهذه العزة انما هي عزة يحسبها الجاهل بحقيقة الامر عزة بحسب ظاهر الحياة الدنيا لا عزة حقيقية اعطاها الله سبحانه لصاحبها.

واما قوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم اهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ (ص / ٢)، فليس من قبيل التسمية والامضاء لكون العزة نكرة مع

تعقيب الآية بقوله: كم اهلكنا من قبلهم. الخ؛ فهي هناك عزة صورية غير باقية ولا اصيلة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الخ؛ مقابلته مع قوله تعالى: ومن الناس من يعجبك قوله. الخ؛ يفيد ان الوصف مقابل الوصف أي كما ان المراد من قوله: ومن الناس من يعجبك، بيان ان هناك رجلاً معتزاً بإثمه معجباً بنفسه متظاهراً بالاصلاح مضمراً للنفاق لا يعود منه الى حال الدين والانسانية الا الفساد والهلاك كذلك المراد من قوله: ومن الناس من يشري نفسه. الخ؛ بيان ان هناك رجلاً آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد الا ما اراده الله تعالى لا هوى له في نفسه ولا اعتزاز له الا بربه ولا ابتغاء له الا لمرضات الله تعالى، فيصلح به امر الدين والدنيا، ويحيى به الحق، ويطيب به عيش الانسانية، ويدر به ضرع الاسلام، وبذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعني قوله تعالى: والله رؤوف بالعباد، بما قبله، فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفة الله سبحانه بعباده اذ لولا رجال هذه صفاتهم بين الناس في مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق والافساد لانهدمت أركان الدين، ولم تستقر من بناء الصلاح والرشاد لبنة على لبنة، لكن الله سبحانه لا يزال يزهق ذاك الباطل بهذا الحق ويتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض﴾ (البقرة / ٢٥١)، وقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ (الحج / ٤٠)، وقال تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ (الانعام / ٨٩)، فالفساد الطاري على الدين والدنيا من قبل عدة ممن لا هوى له إلّا في نفسه لا يمكن سد ثلمته إلّا بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه، ولا هوى له إلّا من ربه، وإصلاح الارض ومن عليها، وقد ذكر هذه المعاملة الرابية عند الله بقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا

ببيعكم الذي بايعتم به﴾ (التوبة / ١١١)، الى غير ذلك من الآيات.

٢٠٨ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

٢٠٩ ● فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٢١٠ ● هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾. السلم والاسلام والتسليم واحدة، وكافة كلمة تأكيد بمعنى جميعاً، ولما كان الخطاب للمؤمنين وقد أمروا بالدخول في السلم كافة، فهو امر متعلق بالمجموع وبكل واحد من اجزائه، فيجب ذلك على كل مؤمن، ويجب على الجميع ايضاً ان لا يختلفوا في ذلك ويسلموا الامر لله ولرسوله ﷺ، وايضاً الخطاب للمؤمنين خاصة فالسلم المدعو اليه هو التسليم لله سبحانه بعد الايمان به فيجب على المؤمنين ان يسلموا الامر اليه، ولا يذعنوا لانفسهم صلاحاً باستبداد من الرأي، ولا يضعوا لانفسهم من عندانفسهم طريقاً يسلكونه من دون ان يبينه الله ورسوله، فما هلك قوم إلّا باتباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يسلب حق الحياة وسعادة الجد عن قوم إلّا عن اختلاف.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، الزلة هي العثرة،

والمعنى فإن لم تدخلوا في السلم كافة وزللتم ـ والزلة هي اتباع خطوات الشيطان ـ فاعلموا ان الله عزيز غير مغلوب في امره، حكيم لا يتعدى عما تقتضيه حكمته من القضاء في شأنكم فيقضي فيكم ما تقتضيه حكمته، ويجريه فيكم من غير ان يمنع عنه مانع.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ الخ: الظلل جمع ظلة وهي ما يستظل به، وظاهر الآية ان الملائكة عطف على لفظ الجلالة، وفي الآية التفات من الخطاب الى الغيبة وتبديل خطابهم بخطاب رسول الله ﷺ بالاعراض عن مخاطبتهم بأن هؤلاء حالهم حال من ينتظر ما اوعدناهم به من القضاء على طبق ما يختارونه من اتباع خطوات الشيطان والاختلاف والتفرق، وذلك بأن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة، ويقضي الامر حيث لا يشعرون، او بحيث لا يعبيء بهم وبما يفعون فيه من الهلاك. والى الله ترجع الامور، فلا مفر من حكمه وقضائه، فالسياق يقتضي ان يكون قوله: هل ينظرون، هو الوعيد الذي اوعدهم به في قوله تعالى في الآية السابقة فاعلموا ان الله عزيز حكيم.

ثم إن من الضروري الثابت بالضرورة من الكتاب والسنة ان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بصفة الاجسام، ولا ينعت بنعوت الممكنات مما يقضي بالحدوث، ويلازم الفقر والحاجة والنقص، فقد قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى / ١١)، وقال تعالى: ﴿والله هو الغني﴾ (فاطر / ١٥)، وقال تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ (الزمر / ٦٢)، الى غير ذلك من الآيات، وهي آيات محكمات ترجع اليها متشابهات القرآن، فما ورد من الآيات وظاهرها إسناد شيء من الصفات او الافعال الحادثة اليه تعالى ينبغي ان يرجع اليها، ويفهم منها معنى من المعاني لا ينافي صفاته العليا واسمائه الحسنى تبارك وتعالى، فالآيات المشتملة على نسبة المجيء او الاتيان اليه تعالى كقوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ (الفجر / ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿فأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ (الحشر / ٢)، وقوله تعالى: ﴿فأتى الله

بنيانهم من القواعد﴾ (النحل / ٢٦)، كل ذلك يراد فيها معنى يلائم ساحة قدسه تقدست اسمائه كالإحاطة ونحوها ولو مجازاً، وعلى هذا فالمراد بالإتيان في قوله تعالى: أن يأتيهم الله الإحاطة بهم للقضاء في حقهم.

على أنا نجده سبحانه وتعالى في موارد من كلامه اذا سلب نسبة من النسب وفعلاً من الأفعال عن استقلال الاسباب ووساطة الاوساط فربما نسبها الى نفسه وربما نسبها الى امره كقوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ (الزمر / ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿يتوفيكم ملك الموت﴾ (السجدة / ١١)، وقوله تعالى: ﴿توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١)، فنسب التوفي تارة الى نفسه، وتارة الى الملائكة ثم قال تعالى في أمر الملائكة: ﴿بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ان ربك يقضي بينهم﴾ (يونس / ٩٣)، وقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أمر الله قضي بالحق﴾ (المؤمن / ٧٨)، وكما في هذه الآية: ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام، الآية، وقوله تعالى: ﴿هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ (النحل / ٣٣).

وهذا يوجب صحة تقدير الأمر في موارد على نسبة تشتمل أُمور اليه لا تلائم كبرياء ذاته تعالى نظير: جاء ربك، ويأتيهم الله، فالتقدير جاء أمر ربك ويأتيهم أمر الله.

فهذا هو الذي يوجبه البحث الساذج في معنى هذه النسب على ما يراه جمهور المفسرين لكن التدبر في كلامه تعالى يعطي لهذه النسب معنى أرق وألطف من ذلك، وذلك أن أمثال قوله تعالى: ﴿والله هو الغني﴾ (فاطر / ١٥)، وقوله تعالى: ﴿العزيز الوهاب﴾ (ص / ٩)، وقوله تعالى: ﴿اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه / ٥٠)، تفيد أنه تعالى واجد لما يعطيه من الخلقة وشؤونها وأطوارها، مليء بما يهبه ويجود به وان كانت أفهامنا من جهة اعتيادها بالمادة وأحكامها الجسمانية يصعب عليها تصور كيفية اتصافه تعالى ببعض ما يفيض على خلقه من الصفات ونسبته اليه تعالى. لكن هذه المعاني اذا جردت عن قيود المادة واوصاف الحدثان لم يكن في نسبته اليه تعالى محذور فالنقص والحاجة هو الملاك في سلب معنى من المعاني عنه

تعالى، فاذا لم يصاحب المعنى نقصاً وحاجة لتجريده عنه صح اسناده اليه تعالى بل وجب ذلك لأن كل ما يقع عليه اسم شيء فهو منه تعالى بوجه على ما يليق بكبريائه وعظمته.

فالمجيء والإتيان الذي هو عندنا قطع الجسم مسافة بينه وبين جسم آخر بالحركة واقترابه منه اذا جرّد عن خصوصية المادة كان هو حصول القرب، وارتفاع المانع والحاجز بين شيئين من جهة من الجهات، وحينئذ صح إسناده اليه تعالى حقيقة من غير مجاز: فإتيانه تعالى اليهم ارتفاع الموانع بينهم وبين قضائه فيهم، وهذه من الحقائق القرآنية التي لم يوفق الابحاث البرهانية لنيله إلّا بعد إمعان في السير، وركوبها كل سهل ووعر، وإثبات التشكيك في الحقيقة الوجودية الاصيلة.

وكيف كان فهذه الآية تتضمن الوعيد الذي ينبيء عنه قوله سبحانه في الآية السابقة: إن الله عزيز حكيم، ومن الممكن أن يكون وعيداً بما سيستقبل القوم في الآخرة يوم القيامة كما هو ظاهر قوله تعالى في نظير الآية: ﴿هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ (النحل / ٣٣)، ومن الممكن أن يكون وعيداً بأمر متوقع الحصول في الدنيا كما يظهر بالرجوع الى ما في سورة يونس بعد قوله تعالى: ﴿ولكل أُمه رسول﴾ (يونس / ٤٧)، وما في سورة الروم بعد قوله تعالى: ﴿وأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ (الروم / ٣٠)، وما في سورة الانبياء وغيرها على أن الآخرة آجلة هذه العاجلة وظهور تام لما في هذه الدنيا، ومن الممكن أيضاً أن يكون وعيداً بما سيقع في الدنيا والآخرة معاً، وكيف كان فقوله في ظلل من الغمام يشتمل من المعنى على ما يناسب مورده.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، السكوت عن ذكر فاعل القضاء، وهو الله سبحانه كما يدل عليه قوله: والى الله ترجع الامور، لإظهار الكبرياء على ما

يفعله الاعاظم في الإخبار عن وقوع احكامهم وصدور أوامرهم وهو كثير في القرآن[1].

٢١١ ● سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.

٢١٢ ● زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ﴾ الخ؛ تثبيت وتأييد اشتمل عليه قوله تعالى: فإن زللتم من بعد ما جائتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم، الآية من الوعيد بأخذ المخالفين اخذ عزيز مقتدر.

يقول: هذه بنو إسرائيل في مرآكم ومنظركم وهي الامة التي آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة والملك، ورزقهم من الطيبات، وفضّلهم على العالمين، سلهم كم آتيناهم من آية بيّنة؟ وانظر في امرهم من اين بدئوا والى اين كان مصيرهم؟ حرّفوا الكلم عن مواضعه، ووضعوا في قبال الله وكتابه وآياته أُموراً من عند انفسهم بغياً بعد العلم، فعاقبهم الله أشد العقاب بما حل فيهم من اتخاذ الانداد، والاختلاف وتشتت الآراء، وأكل بعضهم بعضاً، وذهاب السودد، وفناء السعادة، وعذاب الذلة والمسكنة في الدنيا، ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون.

---

١. البقرة ٢٠٨ ـ ٢١٠: بحث رواني في الرجعة.

وهذه هي السنة الجارية من الله سبحانه : من يبدل نعمة واخرجها الى غير مجراها فإن الله يعاقبه ، والله شديد العقاب ، وعلى هذا فقوله : ومن يبدل نعمة الله الى قوله العقاب من قبيل وضع الكلي موضع الجزئي للدلالة على الحكم ، سنة جارية .

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾، في موضوع التعليل . وإن الملاك في ذلك تزين الحياة الدنيا لهم فانهااذا زينت لانسان دعته الى هوى النفس وشهواتها ، وأنس كل حق وحقيقة . فلا يريد الانسان إلّا نيلها : من جاه ومقام ومال وزينة . فلا يلبث دون ان يستخدم كل شيء لاجلها وفي سبيلها ، ومن ذلك الدين فيأخذ الدين وسيلة يتوسل بها الى التميزات والتعينات ، فينقلب الدين الى تميز الزعماء والرؤساء وما يلائم سوددهم ورئاستهم ، وتقرب التبعة والمقلدة المرئوسين وما يجلب به تماثل رؤسائهم وساداتهم كما نشاهده في أُمتنا اليوم . وكنا شاهدناه في بني اسرائيل من قبل ، وظاهر الكفر في القرآن هو الستر أعم من ان يكون كفراً اصطلاحياً أو كفراً مطلقاً في مقابل الايمان المطلق فتزين الحياة الدنيا لا يختص بالكفار اصطلاحاً بل كل من ستر حقيقة من الحقائق الدينية . وغيّر نعمة دينية فهو كافر زينت له الحياة الدنيا فليتهيأ لشديد العقاب .

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ الخ : تبديل الايمان بالتقوى في هذه الجملة لكون الايمان لا ينفع وحده لولا العمل .

٢١٣ ● كانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا

اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

بيان:

الآية تبيّن السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الانساني به، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان: ان الانسان ـ وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون ـ كان في أول اجتماعه امة واحدة، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في لوازم الحياة فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، وشفّعت بالتبشير والانذار: بالثواب والعقاب، وأُصلحت بالعبادات المندوبة اليها ببعث النبيين، وإرسال المرسلين، ثم اختلفوا في معارف الدين أو أُمور المبدء والمعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، وظهرت الشعوب والاحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلّا بغياً من الذين أُوتوا الكتاب، وظلماً وعتواً منهم بعدما تبيّن لهم أُصوله ومعارفه، وتمت عليهم الحجة، فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند الى بغي الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطري وسبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين الى الحق المختلف فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

فالدين الالهي هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الانساني، والمصلح لامر حياته، يصلح الفطرة بالفطرة ويعدل قواها المختلفة عند طغيانها، وينظّم للانسان سلك حياته الدنيوية والاخروية، والمادية والمعنوية، فهذا إجمال تاريخ حياة هذا النوع (الحياة الاجتماعية والدينية) على ما تعطيه هذه الآية الشريفة.

وقد اكتفت في تفصيل ذلك بما تفيده متفرقات الآيات القرآنية النازلة في شؤون مختلفة[١].

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، الناس معروف وهو الافراد المجتمعون من الانسان، والامة هي الجماعة من الناس، وربما يطلق على الواحد كما في قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أُمة قانتاً لله﴾ (النحل / ١٢٠)، وربما يطلق على زمان معتد به كقوله تعالى: ﴿وادكر بعد أُمة﴾ (يوسف / ٤٥)، أي بعد سنين وقوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أُمة معدودة﴾ (هود / ٨)، وربما يطلق على الملة والدين كما قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إن هذه أُمتكم أُمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ (المؤمنون / ٥٢)، وفي قوله تعالى: ﴿إن هذه أُمتكم أُمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (الأنبياء / ٩٢)، وأصل الكلمة من أم يأم اذا قصد فأطلق لذلك على الجماعة لكن لا على كل جماعة، بل على جماعة كانت ذات مقصد واحد وبغية واحدة هي رابطة الوحدة بينها، وهو المصحح لاطلاقها على الواحد وعلى سائر معانيها اذا أطلقت.

وكيف كان فظاهر الآية يدل على أن هذا النوع قد مر عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق، وعلى السذاجة والبساطة، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة والمدافعة في أُمور الحياة، ولا اختلاف في المذاهب والآراء، والدليل على نفي الاختلاف قوله تعالى: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه﴾ فقد رتب بعثة الانبياء وحكم الكتاب في مورد الاختلاف على كونهم أمة واحدة فالاختلاف في أُمور الحياة ناش بعد الاتحاد والوحدة، والدليل على نفي الاختلاف الثاني قوله تعالى: وما اختلف فيه إلّا الذين أُوتوه بغياً بينهم، فالاختلاف في الدين إنما نشأ من قبل حملة الكتاب بعد

---

١. البقرة ٢١٣: بحث في بدء تكوين الانسان؛ تركبه من روح وبدن؛ شعوره الحقيقي وارتباطه بالاشياء؛ علومه العملية؛ جريه على استخدام غيره انتفاعاً، كونه مدنياً بالطبع؛ حدوث الاختلاف بين افراد الانسان؛ رفع الاختلاف بالدين؛ الاختلاف في نفس الدين، الانسان بعد الدنيا.

إنزاله بالبغي .

قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ الخ : عبر تعالى بالبعث دون الارسال وما في معناه لان هذه الوحدة المخبر عنها من حال الانسان الاولي حال خمود وسكوت . وهو يناسب البعث الذي هو الاقامة عن نوم أو قطون ونحو ذلك . وهذه النكتة لعلها هي الموجبة للتعبير عن هؤلاء المبعوثين بالنبيين دون ان يعبر بالمرسلين أو الرسل ، على ان البعث وانزال الكتاب كما تقدم بيانه حقيقتها بيان الحق للناس وتنبيههم بحقيقة أمر وجودهم وحياتهم ، وإنبائهم انهم مخلوقون لربهم . وهو الله الذي لا إله إلّا هو . وأنهم سالكون كادحون الى الله مبعوثون ليوم عظيم ، واقفون في منزل من منازل السير ، لا حقيقة له إلّا اللعب والغرور . فيجب ان يراعوا ذلك في هذه الحياة وأفعالها . وان يجعلوا نصب اعينهم انهم من أين ، وفي أين ، والى اين ، وهذا المعنى أنسب بلفظ النبي الذي معناه : من استقر عنده النبأ دون الرسول . ولذلك عبر بالنبيين ، وفي اسناد بعث النبيين الى الله سبحانه دلالة على عصمة الانبياء في تلقيهم الوحي وتبليغهم الرسالة الى الناس وسيجيء زيادة توضيح لهذا في آخر البيان . وأما لتبشير والانذار أي الوعد برحمة الله من رضوانه والجنة لمن آمن واتقى ، والوعيد لعذاب الله سبحانه من سخطه والنار لمن كذب وعصى فهما امس مراتب الدعوة بحال الانسان المتوسط الحال ، وإن كان بعض الصالحين من عباده وأوليائه لا تتعلق نفوسهم بغير ربهم من ثواب أو عقاب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ . الكتاب فعال بمعنى المكتوب . والكتاب بحسب المتعارف من اطلاقه وان استلزم كتابه بالقلم لكن لكون العهود والفرامين المفترضة انما يبرم بالكتابة غالباً شاع اطلاقه على كل حكم مفروض واجب الاتباع أو كل بيان بل كل معنى لا يقبل النقض في إبرامه . وقد كثر استعماله بهذا المعنى في القرآن . وبهذا المعنى سمي القرآن كتاباً وهو كلام الهي . قال تعالى :

﴿كتاب انزلناه اليك مبارك﴾ (ص / ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ان الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (النساء / ١٠٣)، وفي قوله تعالى فيما اختلفوا فيه، دلالة على ان المعنى: كان الناس امة واحدة فاختلفوا فبعث الله، الخ؛ كما مر.

واللام في الكتاب اما للجنس واما للعهد الذهني والمراد به كتاب نوح عليه السلام لقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى﴾ (الشورى / ١٣)، فإن الآية في مقام الامتنان وتبين ان الشريعة النازلة على هذه الامة جامعة لمتفرقات جميع الشرائع السابقة النازلة على الانبياء السالفين مع ما يختص بوحيه النبي صلى الله عليه وآله فالشريعة مختصة بهؤلاء الانبياء العظام: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

ولما كان قوله تعالى: وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، الآية يدل على ان الشرع إنما كان بالكتاب دلت الآيتان بالانضمام:

أولاً: على ان لنوح عليه السلام كتاباً متضمناً لشريعة، وانه المراد بقوله تعالى: وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إما وحده أو مع غيره من الكتب بناء على كون اللام للعهد أو الجنس.

وثانياً: ان كتاب نوح أول كتاب سماوي متضمن للشريعة، اذ لو كان قبله كتاب لكان قبله شريعة حاكمة ولذكرها الله تعالى في قوله: شرع لكم، الآية.

وثالثاً: ان هذا العهد الذي يشير تعالى اليه بقوله: كان الناس أُمة واحدة، الآية؛ كان قبل بعثة نوح عليه السلام وقد حكم فيه كتابه عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾، قد مر أن المراد به الاختلاف الواقع في نفس الدين من حملته، وحيث كان الدين من الفطرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر

الناس عليها﴾ (الروم / ٣٠)، نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه الى البغي.

وفي قوله تعالى: إلّا الذين أُوتوه، دلالة على ان المراد بالجملة هو الإشارة الى الاصل في ظهور الاختلاف الديني في الكتاب لا أن كل من انحرف عن الصراط المستقيم أو تدين بغير الدين يكون باغياً وإن كان ضالا عن الصراط السوي، فإن الله سبحانه لا يعذر الباغي، وقد عذر من اشتبه عليه الامر ولم يجد حيلة ولم يهتد سبيلاً، قال تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ (الشورى / ٤٢)، وقال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ـ الى أن قال ـ: وآخرون مرجون لامر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ (التوبة / ١٠٦)، وقال تعالى: ﴿الّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ (النساء / ٩٩).

على أن الفطرة لا تنافي الغفلة والشبهة، ولكن تنافي التعمد والبغي. ولذلك خص البغي بالعلماء ومن استبانت له الآيات الإلهية، قال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد قيد الكفر في جميعها بتكذيب آيات الله ثم أوقع عليه الوعيد، وبالجملة فالمراد بالآية أن هذا الاختلاف ينتهي الى بغي حملة الكتاب من بعد علم.

قوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾، بيان لما اختلف فيه وهو الحق الذي كان الكتاب نزل بصاحبته، كما دل عليه قوله تعالى: وأنزل معهم الكتاب بالحق، وعند ذلك عنت الهداية الإلهية بشأن الاختلافين معاً: الاختلاف في شأن الحياة، والاختلاف في الحق والمعارف الإلهية الذي كان عامله الاصلي بغي حملة الكتاب، وفي تقييد الهداية بقوله تعالى: بإذنه دلالة على أن هداية الله تعالى لهؤلاء المؤمنين لم تكن

إلزاماً منهم، وإيجاباً على الله تعالى أن يهديهم لإيمانهم، فإن الله سبحانه لا يحكم عليه حاكم، ولا يوجب عليه موجب إلّا ما أوجبه على نفسه، بل كانت الهداية بإذنه تعالى ولو شاء لم يأذن ولم يهد، وعلى هذا فقوله تعالى: والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم، بمنزلة التعليل لقوله بإذنه، والمعنى إنما هداهم الله بإذنه لان له أن يهديهم وليس مضطراً موجباً على الهداية في مورد أحدا، بل يهدي من يشاء، وقد شاء أن يهدي الذين آمنوا الى صراط مستقيم[١][٢][٣].

٢١٤ ● أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، تثبيت لما تدل عليه الآيات السابقة، وهو ان الدين نوع هداية من الله سبحانه للناس الى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونعمة حباهم الله بها، فمن الواجب ان يسلموا له ولا يتبعوا خطوات الشيطان، ولا يلقوا فيه الاختلاف، ولا يجعلوا الدواء داءاً، ولا يبدلوا نعمة الله سبحانه كفراً ونقمة من اتباع الهوى، وابتغاء زخرف الدنيا وحطامها فيحل عليهم غضب من ربهم كما حل ببني إسرائيل حيث

---

١. البقرة ٢١٣: كلام في عصمة الانبياء.

٢. البقرة ٢١٣: كلام في النبوة.

٣. البقرة ٢١٣: بحث فلسفي في النبوة: بحث اجتماعي في النبوة.

بدلوا نعمة الله من بعدما جائتهم، فإن المحنة دائمة، والفتنة قائمة. ولن ينال أحد من الناس سعادة الدين وقرب رب العالمين إلّا بالثبات والتسليم.

وكلمة أم منقطعة تفيد الاضراب. والمعنى على ما قيل: بل أحسبتم ان تدخلوا الجنة. الخ؛ والخلاف في أم المنقطعة معروف. والحق ان ام لإفادة الترديد. وأن الدلالة على معنى الاضراب من حيث انطباق معنى الاضراب على المورد، لا انها دلالة وضعية. فالمعنى في المورد مثلاً: هل انقطعتم بما أمرناكم من التسليم بعد الايمان والثبات على نعمة الدين، والاتفاق والاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنة. الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، المثل بكسر الميم فسكون الثاء، والمثل بفتح الميم والثاء كالشبه والشبه، والمراد به ما يمثل الشيء ويحضره ويشخصه عند السامع، ومنه المثل بفتحتين. وهو الجملة أو القصة التي تفيد استحضار معنى مطلوب في ذهن السامع بنحو الاستعارة التمثيلية كما قال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ (الجمعة / ٥)، ومنه أيضاً المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى: ﴿أُنظر كيف ضربوا لك الامثال﴾ (الفرقان / ٩)، وإنما قالوا له ﷺ: مجنون وساحر وكذاب ونحو ذلك، وحيث انه تعالى يبين المثل الذي ذكره بقوله: مستهم البأساء والضراء. الخ؛ فالمراد به المعنى الاول.

قوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾، الى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم تفصيل الاجمال الذي دل عليه بقوله: ولما ياتكم مثل الذين، بين ذلك بقوله: مستهم البأساء والضراء، والبأساء هو الشدة المتوجهة الى الانسان في خارج نفسه كالمال والجاه والاهل والامن الذي يحتاج إليه في حيوته، والضراء هي الشدة التي تصيب الانسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض، والزلزلة والزلزال معروف واصله من زل بمعنى عثر، كررت اللفظة للدلالة على التكرار كان الارض مثلاً تحدث لها بالزلزلة عشرة بعد عشرة، وهو كصر وصرصر،

وصل صلصل، وكب وكبكب، والزلزال في الآية كناية عن الاضطراب والادهاش.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، قرء بنصب يقول، والجملة على هذا في محل الغاية لما سبقها، وقرء برفع يقول والجملة على هذا لحكاية الماضية، والمعنيان وإن كانا جميعاً صحيحين لكن الثاني أنسب للسياق، فإن كون الجملة غاية يعلل بها قوله: وزلزلوا لا يناسب السياق كل المناسبة.

قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾. الظاهر أنه مقول قول الرسول والذين آمنوا معه جميعاً، ولا ضير في ان يتفوه الرسول بمثلهذا الكلام استدعائاً وطلباً للنصر الذي وعد به الله سبحانه رسوله والمؤمنين بهم كما قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورين﴾ (الصافات / ١٧٢)، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (المجادلة / ٢١)، وقد قال تعالى أيضاً: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جائهم نصرنا﴾ (يوسف / ١١٠)، وهو أشد لحناً من هذه الآية.

والظاهر أيضاً أن قوله تعالى: ألا إن نصر الله قريب مقول له تعالى لا تتمة لقول الرسول والذين آمنوا معه...

والآية (كما مرت اليه الاشارة سابقاً) تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه في هذه الامة كما جرى في الامم السابقة.

وتدل أيضا على اتحاد الوصف والمثل بتكرر الحوادث الماضية غابراً، وهو الذي يسمى بتكرر التاريخ وعوده.

٢١٥ ● يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامىٰ وَالْمساكِينِ وَابْنِ السَبِيْلِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، قل: ما أنفقتم من خير، قالوا: إن الآية واقعة على أُسلوب الحكمة، فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ينفقون ونوعه، وكان هذا السؤال كاللغو لمكان ظهور ما يقع به الانفاق وهو المال على أقسامه، وكان الاحق بالسؤال إنما هو من ينفق له: صرف الجواب الى التعرض بحاله وبيان أنواعه ليكون تنبيهاً لهم بحق السؤال.

والذي ذكروه وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئاً، وهو أن الآية مع ذلك متعرضة لبيان جنس ما ينفقونه، فإنها تعرضت لذلك: أولاً بقولها: من خير، إجمالاً، وثانياً بقولها: وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم، ففي الآية دلالة على ان الذي ينفق به هو المال كائناً ما كان، من قليل أو كثير، وان ذلك فعل خير والله به عليم، لكنهم كان عليهم ان يسألوا عمن ينفقون لهم ويعرفوه، وهم: الوالدان والاقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، في تبديل الانفاق من فعل الخير هيهنا كتبديل المال من الخير في أول الآية إيماء الى أن الانفاق وان كان مندوباً اليه من قليل المال وكثيره، غير انه ينبغي ان يكون خيراً يتعلق به الرغبة وتقع عليه المحبة كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (آل عمران / ٩٢)، وكما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلّا ان تغمضوا فيه﴾ (البقرة / ٢٦٧).

وايماء الى ان الانفاق ينبغي ان لا يكون على نحو العشر كالانفاق بالمن والاذى كما قال تعالى: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى﴾ (البقرة / ٢٦٢). وقوله تعالى: ﴿ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (البقرة / ٢١٩).

٢١٦ ● كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

٢١٧ ● يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

٢١٨ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾، الكتابة كما مر مراراً ظاهرة في الفرض اذا كان الكلام مسوقاً لبيان التشريع، وفي القضاء الحتم اذا كان في التكوين فالآية تدل على فرض القتال على كافة المؤمنين لكون الخطاب متوجهاً اليهم إلّا من أخرجه الدليل مثل قوله تعالى: ﴿ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ (النور / ٦١)، وغير ذلك من الآيات والادلة.

ولم يظهر فاعل كتب لكون الجملة مذيلة بقوله: ﴿وهو كره لكم﴾ وهو لا يناسب إظهار الفاعل صوناً لمقامه عن الهتك، وحفظاً لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابة المنسوبة اليه صريحاً مورداً لكراهة المؤمنين.

والكره بضم الكاف المشقة التي يدركها الانسان من نفسه طبعاً أو غير ذلك، والكره بفتح الكاف: المشقة التي تحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه، قال تعالى: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ (النساء / ١٩)، وقال تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها﴾ (فصلت / ١١)، وكون القتال المكتوب كرهاً للمؤمنين إما لان القتال لكونه متضمناً لفناء النفوس وتعب الابدان والمضار المالية وارتفاع الامن والرخصة والرفاهية، وغير ذلك مما يستكرهه الانسان في حياته الاجتماعية لا محالة كان كرهاً وشاقّ للمؤمنين بالطبع، فإن الله سبحانه وإن مدح المؤمنين في كتابه بما مدح، وذكر ان فيهم رجالاً صادقين في إيمانهم مفلحين في سعيهم، لكنه مع ذلك عاتب طائفة منهم بما في قلوبهم من الزيغ والزلل، وهو ظاهر بالرجوع الى الآيات النازلة في غزوة بدر وأُحد والخندق وغيرها، ومعلوم ان من الجائز أن ينسب الكراهة والتثاقل الى قوم فيهم كاره وغير كاره واكثرهم كارهون، فهذا وجه.

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، قد مر فيما مر ان أمثال عسى ولعل في كلامه تعالى مستعمل في معنى الترجي، وليس من الواجب قيام صفة الرجاء بنفس المتكلم بل يكفي قيامها بالمخاطب أو بمقام التخاطب، فالله سبحانه إنما يقول: عسى ان يكون كذا لا لأنه يرجوه، تعالى عن ذلك، بل ليرجوه المخاطب أو السامع.

وتكرار عسى في الآية لكون المؤمنين كارهين للحرب، محبين للسلم، فأرشدهم الله سبحانه على خطأهم في الامرين جميعاً، بيان ذلك: أنه لو قيل: عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم أو تحبوا شيئاً وهو شر لكم، كان معناه أنه لا عبرة بكرهكم وحبكم فإنهما ربما

يخطئان الواقع، ومثل هذا الكلام إنما يلقى الى من اخطأ خطأ واحداً كمن يكره لقاء زيد فقط، وأما من اخطأ خطائين كان يكره المعاشرة والمخالطة ويحب الاعتزال، فالذي تقتضيه البلاغة ان يشار الى خطأه في الامرين جميعاً، فيقال له: لا في كرهك أصبت، ولا في حبك اهتديت، عسى ان تكره شيئاً وهو خير لك وعسى ان تحب شيئاً وهو شر لك لانك جاهل لا تقدر ان تهتدي بنفسك الى حقيقة الامر، ولما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محبين للسلم كما يشعر به ايضاً قوله تعالى سابقاً: أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، نبههم الله بالخطأين بالجملتين المستقلتين وهما: عسى ان تكرهوا، وعسى ان تحبوا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، تتميم لبيان خطأهم، فإنه تعالى درج في بيان ذلك إرفاقاً فأذهانهم، فأخذ أولاً بإبداء احتمال خطأهم في كراهتهم للقتال بقوله: عسى ان تكرهوا، فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها، وزوال صفة الجهل المركب كرّ عليهم ثانياً بأن هذا الحكم الذي كرهتموه أنتم إنما شرعه الله الذي لا يجهل شيئاً من حقائق الامور، والذي ترونه مستند الى نفوسكم التي لا تعلم شيئاً إلّا ما علمها الله إياه وكشف عن حقيقته، فعليكم ان تسلموا اليه سبحانه الأمر.

والآية في إثبات العلم له تعالى على الاطلاق ونفي العلم عن غيره على الاطلاق تطابق سائر الآيات الدالة على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء﴾ (آل عمران / ٥)، وقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥)، وقد سبق بعض الكلام في القتال في قوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ (البقرة / ١٩٠).

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾، الآية: تشتمل على المنع عن القتال في الشهر الحرام وذمه بأنه صد عن سبيل الله وكفر، واستتباعها مع ذلك على ان إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله، وان الفتنة أكبر من القتل، يؤذن بوقوع حادثة هي الموجبة للسؤال وان هناك قتلاً، وانه إنما وقع خطأ لقوله تعالى في آخر الآيات: ﴿إن الذين

آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ الآية: فهذه قرائن على وقوع قتل في الكفار خطأ من المؤمنين في الشهر الحرام في قتال واقع بينهم، وطعن الكفار به، ففيه تصديق لما ورد في الروايات في قصة عبدالله بن جحش وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، الصد هو المنع والصرف، والمراد بسبيل الله العبادة والنسك وخاصة الحج، والظاهر ان ضمير به راجع الى السبيل فيكون كفراً في العمل دون الاعتقاد. والمسجد الحرام عطف على سبيل الله اي صد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام.

والآية تدل على حرمة القتال في الشهر الحرام، وقد قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ (التوبة / ٦)، وليس بصواب. وقد مر بعض الكلام في ذلك في تفسير آيات القتال.

قوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، أي والذي فعله المشركون من إخراج رسول الله والمؤمنين من المهاجرين، وهم أهل المسجد الحرام، منه اكبر من القتال. وما فتنوا به المؤمنين من الزجر والدعوة الى الكفر أكبر من القتل، فلا يحق للمشركين ان يطعنوا المؤمنين وقد فعلوا ما هو أكبر مما طعنوا به، ولم يكن المؤمنين فيما اصابوه منهم إلّا راجين رحمة الله والله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ الى آخر الآية: حتى للتعليل أي ليردوكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الخ: تهديد للمرتد بحبط العمل وخلود النار[1][2].

---

١. البقرة ٢١٦ـ٢١٨: كلام في الحبط.

٢. البقرة ٢١٦ـ٢١٨: كلام في احكام الاعمال من حيث الجزاء.

٢١٩ ● يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.

٢٢٠ ● فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، الخمر على ما يستفاد من اللغة هو كل مائع معمول للسكر، والاصل في معناه الستر، وسمي به لانه يستر العقل ولا يدعه يميز الحسن من القبيح والخير من الشر، ويقال: لما تغطي به المرأة رأسها الخمار، ويقال: خمرت الإناء اذا غطيت رأسها، ويقال: أخمرت العجين اذا أدخلت فيه الخمير، وسميت الخميرة خميرة لانها تعجن أولاً ثم تغطى وتخمر من قبل، وقد كانت العرب لا تعرف من اقسامه إلّا الخمر المعمول من العنب والتمر والشعير، ثم زاد الناس في اقسامه تدريجاً فصارت اليوم أنواعاً كثيرة ذات مراتب بحسب درجات السكر، والجميع خمر.

والميسر لغة هو القمار ويسمى المقامر ياسرا والاصل في معناه السهولة سمي به لسهولة اقتناء مال الغير به من غير تعب الكسب والعمل، وقد كان اكثر استعماله عند العرب في نوع خاص من القمار، وهو الضرب بالقداح وهي السهام، وتسمى أيضاً: الازلام والاقلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وقرء إثم كثير بالثاء المثلثة. والاثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى وهو حال في الشيء أو في العقل يبطىء الانسان عن نيل الخيرات فهو الذنب الذي يستتبع الشقاء والحرمان في أُمور أُخرى ويفسد سعادة الحياة في جهاتها الاخرى وهذان على هذه الصفة.

أما شرب الخمر فضراته الطبية وآثاره السيئة في المعدة والامعاء والكبد والرئة وسلسلة الاعصاب والشرائين والقلب والحواس كالباصرة والذائقة وغيرها مما الف فيه تأليفات من حذاق الاطباء قديماً وحديثاً. ولهم في ذلك احصائات عجيبة تكشف عن كثرة المبتلين بأنواع الامراض المهلكة التي يستتبعها هذا السم المهلك.

وأما مضراته الخلقية: من تشويه الخلق وتأديته الانسان الى الفحش، والاضرار والجنايات، والقتل، وإفشاء السر، وهتك الحرمات، وإبطال جميع القوانين والنواميس الانسانية التي بنيت عليها أساس سعادة الحياة، وخاصة ناموس العفة في الاعراض والنفوس والاموال. فلا عاصم من سكران لا يدري ما يقول ولا يشعر بما يفعل، وقل ما يتفق جناية من هذه الجنايات التي قد ملأت الدنيا ونغصت عيشة الانسان إلّا وللخمر فيها صنع مستقيماً أو غير مستقيم.

وأما مضرته في الادراك وسلبه العقل وتصرفه الغير المنتظم في أفكار الانسان وتغييره مجرى الادراك حين السكر وبعد الصحو فما لا ينكره منكر وذلك أعظم ما فيه من الاثم والفساد، ومنه ينشأ جميع المفاسد الاخر.

والشريعة الاسلامية كما مرت اليه الاشارة وضعت أساس أحكامها على التحفظ على العقل السليم، ونهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشد النهى كالخمر، والميسر، والغش، والكذب، وغير ذلك، من اشد الافعال المبطلة لحكومة العقل على سلامة هو شرب الخمر من بين الافعال وقول الكذب والزور من بين الاقوال.

فهذه الاعمال أعني: الاعمال المبطلة لحكومة العقل وعلى رأسها السياسات المبتنية على السكر والكذب هي التي تهدد الانسانية. وتهدم بنيان العاسدة ولا تأتي بثمرة عامة الا وهي امر من سابقتها، وكلما زاد الحمل ثقلاً وأعجز حامله زيد في الثقل رجاء لقردة، فخاب السعي، وخسر العمل. ولو لم يكن لهذه المحجة البيضاة والشريعة الغراء الا البناء على العقل والمنع عما يفسده من اتباع الهوى لكفاها فخراً. وللكلام تتمة سنتعرض لها في سورة المائدة انشاء الله.

ولم يزل الناس بقريحتهم الحيوانية يميلون الى لذائذ الشهوة فيشيع بينهم الاعمال الشهوانية اسرع من شيوع الحق والحقيقة، وانعقدت العادات على تناولها وشق تركها والجرى على نواميس السعادة الانسانية، ولذلك ان الله سبحانه شرع فيهم ما شرع من الاحكام على سبيل التدريج، وكلفهم بالرفق والامهال.

ومن جملة تلك العادات الشائعة شرب الخمر فقد أخذ في تحريمه بالتدريج على ما يعطيه التدبر في الآيات المربوطة به فقد نزلت أربع مرات:

احديها: قوله تعالى: ﴿قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق﴾ (الأعراف / ٣٣)، والآية مكية حرم فيها الإثم صريحاً، وفي الخمر اثم غير انه لم يبين ان الاثم ما هو ان في الخمر اثماً كبيراً.

ولعل ذلك انما كان نوعاً من الارفاق والتسهيل لما في السكوت عن البيان من الاغماض كما يشعر به ايضاً قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾ (النحل / ٦٧)، والآية أيضاً مكية، وكأن الناس لم يكونوا متنبهين بما فيه من الحرمة الكبيرة حتى نزلت قوله تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى﴾ (النساء / ٤٣)، والآية مدنية وهي تمتنع الناس بعض المنع عن الشرب والسكر في افضل الحالات وفي افضل الاماكن وهي الصلاة في المسجد.

والاعتبار وسياق الآية الشريفة يأبى ان تنزل بعد آية البقرة وآيتي المائدة فإنهما تدلان على النهي المطلق، ولا معنى للنهي الخاص بعد ورود النهي المطلق. على أنه ينافي التدريج المفهوم من هذه الآيات فإن التدريج سلوك من الاسهل الى الاشق لا بالعكس.

ثم نزلت آية البقرة أعني قوله تعالى: ﴿ويسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ وهذه الآية بعد آية النساء كما مر بيانه وتشتمل الآية على التحريم لدلالتها القطعية على الإثم في الخمر «فيهما إثم كبير» وتقدم نزول آية الاعراف المكية الصريحة في تحريم الاثم.

والنفع خلاف الضرر ويطلقان على الامور المطلوبة لغيرها أو المكروهة لغيرها كما ان الخير والشر يطلقان على الامور المطلوبة لذاتها أو المكروهة لذاتها، والمراد بالمنافع فيهما مايقصده الناس بهما من الاستفادات المالية بالبيع والشرى والعمل والتفكه والتسلهي، ولما قوبل ثانياً بين الاثم والمنافع بالكبر أوجب ذلك إفراد المنافع والغاء جهة الكثرة فيها فإن العدد لا تأثير له في الكبر فقيل: واثمها اكبر من نفعها ولم يقل من منافعهما.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، العفو على ما ذكره الراغب قصد الشيء لتناوله ثم أوجب لحوق العنايات المختلفة الكلامية به مجيئه لمعاني مختلفة كالعفو بمعنى المغفرة والعفو بمعنى إمحاء الاثر والعفو بمعنى التوسط في الانفاق، وهذا هو المقصود في المقام، والله العالم.

والكلام في مطابقة الجواب للسؤال في هذه الآية نظير ما مر في قوله تعالى: يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين، الآية.

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ـ الى قوله ـ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، الظرف أعني قوله تعالى: في الدنيا والآخرة، متعلق بقوله: تتفكرون وليس بظرف له. والمعنى لعلكم تتفكرون في امر الدارين وما يرتبط بكم في حقيقتهما، وان الدنيا دار خلقها الله لكم لتحيوا فيها وتكسبوا

ما ينفعكم من مقركم وهو الدار الآخرة التي ترجعون فيه الى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، في الآية اشعار بل دلالة على نوع من التخفيف والتسهيل حيث أجازت المخالطة لليتامى، ثم قيل ولو شاء الله لأعنتكم، وهذا يكشف عن تشديد سابق من الله تعالى في امر اليتامى يوجب التشويش والاضطراب في قلوب المسلمين، حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى، والامر على ذلك، فإن ههنا آيات شديدة اللحن في امر اليتامى كقوله تعالى: ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ (النساء / ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ (النساء / ٢)، فالظاهر ان الآية نازلة بعد آيات سورة النساء، وبذلك يتأيد ما سننقله من سبب نزول الآية في البحث الروائي، وفي قوله تعالى: قل إصلاح لهم خير، حيث نكر الاصلاح، دلالة على ان المرضي عند الله سبحانه نوع من الاصلاح لا كل إصلاح ولو كان إصلاحاً في ظاهر الامر فقط. فالتنكير في قوله تعالى: إصلاح لإفادة التنويع فالمراد به الاصلاح بحسب الحقيقة لا بحسب الصورة، ويشعر به قوله تعالى ـ ذيلاً ـ: والله يعلم المفسد من المصلح.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، إشارة الى المساواة المجعولة بين المؤمنين جميعاً بإلغاء جميع الصفات المميزة التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس في اجتماعهم من الاستعباد والاستضعاف والاستذلال والاستكبار وأنواع البغي والظلم، وبذلك يحصل التوازن بين اثقال الاجتماع، والمعادلة بين اليتيم الضعيف والولي القوي، وبين الغني المثرى والفقير المعدم، وكذا كل ناقص وتام، وقد قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات / ١٠).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ الى آخر الآية: تعدية يعلم بمن كأنها لمكان تضمينه معنى يميز. والعنت هو الكلفة والمشقة.

٢٢١ ● وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، قال الراغب في المفردات: أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع، ومحال ان يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع، كلها كنايات، لاستقباحهم ذكره، كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه، انتهى، وهو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علقة الزوجية دون العقد اللفظي المعهود.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، الظاهر أن المراد بالأمة المؤمنة المملوكة التي تقابل الحرة وقد كان الناس يستذلون الإماء ويعيرون من تزوج بهن، فتقييد الأمة بكونها مؤمنة، وإطلاق المشركة مع ما كان عليه الناس من استحقار أمر الإماء واستذلالهن، والتحرز عن التزوج بهن يدل على ان المراد أن المؤمنة وان كان أمة خير من المشركة وان كانت حرة ذات حسب ونسب ومال مما يعجب الانسان

بحسب العادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾ الخ؛ الكلام فيه كالكلام في الجملة السابقة.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، اشارة الى حكمة الحكم بالتحريم، وهو ان المشركين لاعتقادهم بالباطل، وسلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيلة المزينة للكفر والفسوق، والمعمية عن أبصار طريق الحق والحقيقة، فأثبتت في قولهم وفي فعلهم الدعوة الى الشرك، والدلالة الى البوار، والسلوك بالأخرة الى النار فهم يدعون الى النار، والمؤمنون ـ بخلافهم ـ بسلوكهم سبيل الايمان، وتلبسهم بلباس التقوى يدعون بقولهم وفعلهم الى الجنة والمغفرة بإذن الله حيث أذن في دعوتهم الى الايمان، واهتدائهم الى الفوز والصلاح المؤدي الى الجنة والمغفرة.

وكان حق الكلام أن يقال: وهؤلاء يدعون الى الجنة، الخ؛ ففيه استخلاف عن المؤمنين ودلالة على ان المؤمنين في دعوتهم بل في مطلق شؤونهم الوجودية الى ربهم، لا يستقلون في شيء من الامور دون ربهم تبارك وتعالى وهو وليهم كما قال سبحانه: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨).

وفي الآية وجه آخر: وهو ان يكون المراد بالدعوة الى الجنة والمغفره هو الحكم المشرع في صدر الآية بقوله تعالى: ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، الخ؛ فان جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط في العشرة مع من لا يزيد القرب منه والانس به الّا البعد من الله سبحانه، وحثهم بمخالطة من في مخالطته التقرب من الله سبحانه وذكر آياته ومراقبة امره ونهيه دعوة من الله الى الجنة، ويزيد هذا الوجه تذييل هذه الجملة بقوله تعالى: ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون، ويمكن ان يراد بالدعوة الاعم من الوجهين، ولا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم.

٢٢٢ ● وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

٢٢٣ ● نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً﴾ الخ: المحيض مصدر كالحيض، يقال: حاضت المرئة تحيض حيضاً وحيضاً اذا نزفت طبيعتها الدم المعروف ذا الصفات المعهودة المختصة بالنساء، ولذلك يقال هي حائض كما يقال: هي حامل.

والاذى هو الضرر على ما قيل، لكنه لا يخلو عن نظر، فإن لو كان هو الضرر بعينه لصح مقابلته مع النفع كما ان الضرر مقابل النفع وليس بصحيح، يقال: دواء مضر وضار، ولو قيل دواء موذ أفاد معنى آخر، وايضاً قال تعالى: ﴿لن يضروكم الا اذى﴾ (آل عمران / ١١١)، ولو قيل لن يضروكم إلّا ضرراً لفسد الكلام، وايضاً كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في امثال قوله تعالى: ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله﴾ (الأحزاب / ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم﴾ (الصف / ٥)، الظاهر ان الاذى هو الطاريء على الشيء غير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه.

وتسمية المحيض اذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند الى عادة النساء حاصلاً من

عمل خاص من طبعها يؤثر به في مزاج الدم الطبيعي الذي يحصله جهاز التغذية فيفسد مقداراً منه عن الحال الطبيعي وينزله الى الرحم لتطهيره او لتغذية الجنين او لتهيئة اللبن للإرضاع، واما على قولهم: ان الاذى هو الضرر فقد قيل: ان المراد بالمحيض اتيان النساء في حال الحيض، والمعنى: يسئلونك عن اتيانهن في هذه الحال فاجب بأنه ضرر وهو كذلك فقد ذكر الاطباء ان الطبيعة مشتغلة في حال الطمث بتطهير الرحم واعداده للحمل، والوقاع يختل به نظام هذا العمل فيضر بنتائج هذا العمل الطبيعي من الحمل وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، الاعتزال هو أخذ العزلة التجنب عن المخالطة والمعاشرة، يقال: عزلت نصيبه اذا ميزته ووضعته في جانب بالتفريق بينه وبين سائر الانصباء، والقرب مقابل البعد يتعدى بنفسه وبمن، والمراد بالاعتزال ترك الإتيان من محل الدم على ما سنبين.

وقد كان للناس في أمر المحيض مذاهب شتى: فكانت اليهود تشدد في أمره، ويفارق النساء في المحيض في المأكل والمشرب والمجلس والمضجع، وفي التوراة أحكام شديدة في أمرهن في المحيض، وأمر من قرب منهن في المجلس والمضجع والمس وغير ذلك، وأما النصارى فلم يكن عندهم ما يمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه، واما المشركون من العرب فلم يكن عندهم شيء من ذلك غير ان العرب القاطنين بالمدينة وحواليها سرى فيهم بعض آداب اليهود في امر المحيض والتشديد في امر معاشرتهن في هذا الحال، وغيرهم ربما كانوا يستحبون اتيان النساء في المحيض ويعتقدون ان الولد المرزوق حينئذ يصير سفاحاً ولوعاً في سفك الدماء وذلك من الصفات المستحسنة عند العشائر من البدويين.

وكيف كان فقوله تعالى: فاعتزلوا النساء في المحيض، وان كان ظاهره الامر بمطلق الاعتزال على ما قالت به اليهود، ويؤكده قوله تعالى ثانياً: ولا تقربوهن، إلّا ان قوله تعالى اخيراً فأتوهن من حيث امركم الله ـ ومن المعلوم انه محل الدم ـ قرينة على ان قوله: فاعتزلوا

ولا تقربوا، واقعان موقع الكناية لا التصريح. والمراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطة والمعاشرة ولا مطلق التمتع والاستلذاذ.

فالاسلام قد اخذ في امر المحيض طريقاً وسطاً بين التشديد التام الذي عليه اليهود والإهمال المطلق الذي عليه النصارى، وهو المنع عن اتيان محل الدم والاذن فيما دونه وفي قوله تعالى في المحيض، وضع الظاهر موضع المضمر وكان الظاهر أن يقال: فاعتزلوا النساء فيه والوجه فيه ان المحيض الأول اريد به المعنى المصدري والثاني زمان الحيض فالثاني غير الاول، ولا يفيد معناه تبديله من الضمير الراجع الى غير معناه.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، الطهارة وتقابلها النجاسة ـ من المعاني الدائرة في ملة الإسلام ذات أحكام وخواص مجعولة فيها تشتمل على شطر عظيم من المسائل الدينية، وقد صار اللفظان بكثرة الاستعمال من الحقائق الشرعية أو المتشرعة على ما اصطلح عليه في فن الاصول[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، التوبة هي الرجوع الى الله سبحانه والتطهر هو الأخذ بالطهارة وقبولها فهو انقلاع عن القذاره ورجوع الى الأصل الذي هو الطهارة فالمعنيان يتصادقان في مورد أوامر الله سبحانه ونواهيه، وخاصة في مورد الطهارة والنجاسة فالايتمار بأمر من أوامره تعالى والانتهاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذارة المخالفة والمفسدة، وتوبة ورجوع إليه عز شأنه، ولمكان هذه المناسبة علل تعالى ما ذكره من الحكم بقوله: إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فإن من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العلة على كل ما ذكره من الحكم، أعني قوله تعالى: فاعتزلوا النساء في المحيض، وقوله: فأتوهن من حيث أمركم الله، والآية أعني قوله: إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، مطلقة غير مقيدة

---

١. البقرة ٢٢٢ ـ ٢٢٣: بحث في الطهارة.

فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة كما مر بيانه، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى: المتطهرين، كما جيء بصيغة المبالغة في قوله: التوابين، فينتج استفادة الكثرة في التوبة والطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعاً، أعني: إن الله يحب جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار أو بامتثال كل أمر ونهي من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقة، ويحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال والوضوء والغسل أو التطهر بالاعمال الصالحة أو العلوم الحقة، ويحب تكرار التوبة وتكرار التطهر.

قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، الحرث مصدر بمعنى الزراعة ويطلق كالزراعة على الارض التي يعمل فيها الحرث والزراعة. وأنى من اسماء الشرط يستعمل في الزمان كمتى، وربما استعمل في المكان أيضاً، قال تعالى: ﴿يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ (آل عمران / ٣٧)، فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أي محل شئتم، وإن كان بمعنى الزمان كان المعنى في أي زمان شئتم، وكيف كان يفيد الاطلاق بحسب معناه وخاصة من حيث تقييده بقوله: شئتم، وهذا هو الذي يمنع الأمر أعني قوله تعالى: فأتوا حرثكم، أن يدل على الوجوب اذ لا معنى لايجاب فعل مع إرجاعه الى اختيار المكلف ومشيته.

ثم إن تقديم قوله تعالى: نساءكم حرث لكم، على هذا الحكم وكذا التعبير عن النساء ثانياً بالحرث لا يخلو عن الدلالة على أن المراد التوسعة في إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذي يقصدن منه دون المكان الذي يقصد منهن، فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا تعرض للآية للإطلاق الزماني ولا تعارض له مع قوله تعالى في الآية السابقة: فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، الآية، وإن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآية المحيض، والدليل عليه اشتمال آية المحيض على ما يأبى معه أن ينسخه آية الحرث، وهو دلالة آية المحيض على أن المحيض أذى وأنه السبب لتشريع حرمة إتيانهن في المحيض أذى دائماً.

ودلالتها أيضاً على أن تحريم الإتيان في المحيض نوع تطهير من القذارة والله سبحانه يحب التطهر دائماً، ويمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم﴾ (المائدة ٦).

ومن المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى: نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم، المشتمل أولاً على التوسعة، وهو سبب كان موجوداً مع سبب التحريم وعند تشريعه ولم يؤثر شيئاً فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع وثانياً على مثل التذييل الذي هو قوله تعالى: وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين، ومن هذا البيان يظهر: ان آية الحرث لا تصلح لنسخ آية المحيض سواء تقدمت عليها نزولاً أو تأخرت.

فحصل معنى الآية: أن نسبة النساء الى المجتمع الإنساني نسبة الحرث الى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج اليه لابقاء البذور وتحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياة وإبقائها كذلك النساء يحتاج اليهن النوع في بقاء النسل ودوام النوع لأن الله سبحانه جعل تكون الانسان وتصور مادته بصورته في طباع أرحامهن، ثم جعل طبيعة الرجال وفيهم بعض المادة الاصلية مائلة منعطفة إليهن، وجعل بين الفريقين مودة ورحمة، واذا كان كذلك كان الغرض التكويني من هذا الجعل هو تقديم الوسيلة لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت، أو محل دون محل اذا كان مما يؤدي الى ذلك الغرض ولم يزاحم أمراً آخر واجباً في نفسه لا يجوز إهماله، وبما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى وقدموا لانفسكم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قد ظهر: ان المراد من قوله: قدموا لانفسكم وخطاب الرجال أو مجموع الرجال والنساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح والتناسل، والله سبحانه لا يريد من نوع الانسان وبقائه إلّا حياة دينه وظهور توحيده وعبادته بتقويمهم العام، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون﴾ (الذاريات / ٥٦)، فلو أمرهم بشيء مما يرتبط بحياتهم وبقائهم

فإنما يريد توصلهم بذلك الى عبادة ربهم لا إخلادهم الى الارض وانهماكهم في شهوات البطن والفرج، وتيههم في أودية الغي والغفلة.

فالمراد بقوله: قدموا لانفسكم وإن كان هو الاستيلاد وتقدمة أفراد جديدي الوجود والتكون الى المجتمع الانساني الذي لا يزال يفقد أفراداً بالموت والفناء. وينقص عدده بمرور الدهر لكن لا لمطلوبيتهم في نفسه بل للتوصل به الى ابقاء ذكر الله سبحانه ببقاء النسل وحدوث أفراد صالحين ذوي أعمال صالحة تعود مثوباتها وخيراتها الى انفسهم والى صالحي آبائهم المتسببين إليهم كما قال تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ (يس / ١٢)[1].

٢٢٤ ● وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢٢٥ ● لَا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

٢٢٦ ● لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

٢٢٧ ● وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا﴾ الى آخر الآية؛

---

١. البقرة ٢٢٢ ـ ٢٢٣: بحث رواني في الحيض ومنع مقاربة النساء في تلك الحالة؛ سيرة اليهود مع النساء في حال الحيض.

العرضة بالضم من العرض وهو كإرائة الشيء للشيء حتى يرى صلوحه لما يريده ويقصده كعرض المال للبيع وعرض المنزل للنزول وعرض الغذاء للأكل، ومنه ما يقال المهدف: إنه عرضة للسهام، وللفتاة الصالحة للازدواج انها عرضة للنكاح. وللدابة المعدة للسفر إنها عرضة للسفر وهذا هو الاصل في معناها. واما العرضة بمعنى المانع المعرض في الطريق وكذلك العرضة بمعنى ما ينصب ليكون معرضاً لتوارد الواردات وتواليها في الورود كالهدف للسهام حتى يفيد كثرة العوارض الى غير ذلك من معانيها فهي مما لحقها من موارد استعمالها غير دخيلة في اصل المعنى.

والايمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة لكونهم يضربون بها في الحلف والعهد والبيعة ونحو ذلك فاشتق من آلة العمل اسم للعمل، للملازمة بينها كما يشتق من العمل اسم لآلة العمل كالسبابة للاصبع التي يسب بها ومعنى الآية (والله اعلم): ولا تجعلوا الله عرضة تتعلق بها ايمانكم التي عقدتموها بحلفكم ان لا تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس فإن الله سبحانه لا يرضى ان يجعل اسمه ذريعة للامتناع عما امر به من البر والتقوى والاصلاح بين الناس، ويؤيد هذا المعنى ما ورد من سبب نزول الآية على ما سننقله في البحث الروائي إنشاء الله.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ اللغو من الافعال ما لا يستتبع أثراً، وأثر الشيء يختلف باختلاف جهاته ومتعلقاته، فلليمين أثر من حيث انه لفظ، واثر من حيث انه مؤكد للكلام، واثر من حيث انه عقد واثر من حيث حنثه ومخالفة مؤداه، وهكذا إلّا أن المقابلة في الآية بين عدم المؤاخذة على لغو اليمين وبين المؤاخذة على ما كسبته القلوب وخاصة من حيث اليمين تدل على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثر في قصد الحالف، وهو اليمين الذي لا يعقد صاحبه على شيء من قول: لا والله وبلى والله.

والكسب هو اجتلاب المنافع بالعمل بضعة أو حرفة أو نحوهما واصله في اقتناء ما يرتفع به حوائج الانسان المادية ثم استعير لكل ما يجتلبه الانسان بعمل من اعماله من خير او شر ككسب المدح والفخر وحسن الذكر بحسن الخلق والخدمات النوعية وكسب الخلق الحسن والعلم النافع والفضيلة بالاعمال المناسبة لها، وكسب اللوم والذم، واللعن والطعن، والذنوب والآثام، ونحوها بالأعمال المستتبعة لذلك، فهذا هو المعنى الكسب والاكتساب، وقد قيل في الفرق بينهما أن الاكتساب اجتلاب الإنسان المنفعة لنفسه، والكسب أعم مما يكون لنفسه او غيره مثل كسب العبد لسيده وكسب الولي للمولى عليه ونحو ذلك.

وكيف كان فالكاسب والمكتسب هو الإنسان لا غير[1].

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الخ؛ الايلاء من الالية بمعنى الحلف، وغلب في الشرع في حلف الزوج أن لا يأتي زوجته غضباً واضراراً، وهو المراد في الآية، والتربص هو الانتظار، والفيء هو الرجوع.

والظاهر أن تعدية الايلاء بمن لتضمينه معنى الابتعاد ونحوه فيفيد وقوع الحلف على الاجتناب عن المباشرة، ويشعر به تحديد التربص بالاربعة أشهر فإنها الامد المضروب للمباشرة الواجبة شرعاً، ومنه يعلم أن المراد بالعزم على الطلاق العزم مع ايقاعه، ويشعر به أيضاً تذييله بقوله تعالى: فإن الله سميع عليم، فإن السمع انما يتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، دلالة على أن الايلاء لا عقاب عليه على تقدير الفيء. واما الكفارة فهي حكم شرعي لا يقبل المغفرة، قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين﴾ الآية

---

١. البقرة ٢٢٤ ـ ٢٢٧: كلام في معنى القلب في القرآن.

(المائدة / ٨٩).

فالمعنى ان من آلى من امرأته يتربص له الحاكم اربعة اشهر فإن رجع الى حق الزوجية وهو المباشرة وكفر وباشر فلا عقاب عليه وان عزم الطلاق واوقعه فهو المخلص الآخر، والله سميع عليم.

٢٢٨ ● وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٢٢٩ ● الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

٢٣٠ ● فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٢٣١ ● وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللّٰهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاعلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٢٣٢ ● وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

٢٣٣ ● وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٢٣٤ ● وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا

فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

٢٣٥ ● وَلَا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلٰكِنْ لَا تُواعِدوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

٢٣٦ ● لَا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ.

٢٣٧ ● وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٢٣٨ ● حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلٰوةِ الْوُسْطىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ.

٢٣٩ ● فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

٢٤٠ ● وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُناحَ عَلَيْكُمْ

فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٢٤١ ● وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ.

٢٤٢ ● كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، اصل الطلاق التخلية عن وثاق وتقييد ثم استعير لتخلية المرئة عن حبالة النكاح وقيد الزوجية ثم صار حقيقة في ذلك بكثرة الاستعمال.

والتربص هو الانتظار والحبس، وقد قيد بقوله تعالى: بأنفسهن، ليدل على معنى التمكين من الرجال فيفيد معنى العدة اعني عدة الطلاق، وهو حبس المرئة نفسها عن الازدواج تحذراً عن اختلاط المياه، ويزيد على معنى العدة الاشارة الى حكمة التشريع، وهو التحفظ عن اختلاط المياه وفساد الانساب، ولا يلزم اطراد الحكمة في جميع الموارد فإن القوانين والاحكام إنما تدور مدار المصالح والحكم الغالبة دون العامة، فقوله تعالى يتربصن بأنفسهن بمنزلة قولنا: يعتددن احترازاً من اختلاط المياه وفساد النسل بتمكين الرجال من أنفسهن، والجملة خبر أُريد به الانشاء تأكيداً.

والقروء جمع القرء، وهو لفظ يطلق على الطهر والحيض معاً، فهو على ما قيل من الاضداد، غير ان الاصل في مادة قرء هو الجمع لكن لا كل جمع بل الجمع الذي يتلوه الصرف والتحويل ونحوه، وعلى هذا فالأظهر ان يكون معناه الطهر لكونه حالة جمع الدم ثم استعمل في الحيض لكونه حالة قذفه بعد الجمع، وبهذه العناية اطلق على الجمع بين الحروف للدلالة على معنى القرائة، وقد صرح أهل اللغة بكون معناه هو الجمع، ويشعر بأن الاصل في مادة قرء الجمع، قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾

(القيامة / ١٨)، وقوله تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ (الإسراء / ١٠٦)، حيث عبر تعالى في الآيتين بالقرآن، ولم يعبر بالكتاب أو الفرقان أو ما يشبههما، وبه سمي القرآن قرآناً.

قال الراغب في مفرداته: والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر ولما كان اسماً جامعاً للأمرين: الطهر والحيض المتعقب له أطلق على كل واحد لأن كل اسم موضوع لمعنيين معاً يطلق على كل واحد منهما اذا انفرد، كالمائدة للخوان والطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، وليس القرء اسماً للطهر مجرداً ولا للحيض مجرداً، بدليل ان الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها: ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها: ذلك، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، المراد به تحريم كتمان المطلقة الدم او الولد استعجالاً في خروج العدة أو إضرارا بالزوج في رجوعه ونحو ذلك، وفي تقييده بقوله: إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر مع عدم اشتراط اصل الحكم بالايمان نوع ترغيب وحث لمطاوعة الحكم والتثبت عليه لما في هذا التقييد من الاشارة الى ان هذا الحكم من لوازم الايمان بالله واليوم الآخر الذي عليه بناء الشريعة الاسلامية فلا استغناء في الاسلام عن هذا الحكم، وهذا نظير قولنا: أحسن معاشرة الناس ان أردت خيراً، وقولنا للمريض: عليك بالحمية إن أردت الشفاء والبرء.

قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾، البعولة جمع البعل وهو الذكر من الزوجين ما داما زوجين وقد استشعر منه معنى الاستعلاء والقوة والثبات في الشدائد لما ان الرجل كذلك بالنسبة الى المرأة ثم جعل اصلاً يشتق منه الالفاظ بهذا المعنى فقيل لراكب الدابة بعلها، وللأرض المستعلية بعل، وللصنم بعل، وللنخل اذا عظم بعل ونحو ذلك.

والضمير في بعولتهن للمطلقات إلّا ان الحكم خاص بالرجعيات دون مطلق المطلقات الاعم منها ومن البائنات، والمشار اليه بذلك التربص الذي هو بمعنى العدة، والتقييد بقوله ان ارادوا اصلاحاً، للدلالة على وجوب ان يكون الرجوع لغرض الاصلاح لا لغرض الاضرار المنهي عنه بعد بقوله: ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، الآية.

ولفظ أحق اسم تفضيل حقه ان يتحقق معناه دائماً مع مفضل عليه كأن يكون للزوج الاول حق في المطلقة ولسائر الخطاب حق، والزوج الاول احق بها لسبق الزوجية، غير ان الرد المذكور لا يتحقق معنا الّا مع الزوج الاول.

ومن هنا يظهر: ان في الآية تقديراً لطيفاً بحسب المعنى، والمعنى وبعولتهن أحق بهن من غيرهم، ويحصل ذلك بالرد والرجوع في ايام العدة، وهذه الأحقية انما تتحقق في الرجعيات دون البائنات التي لا رجوع فيها، وهذه هي القرينة على ان الحكم مخصوص بالرجعيات، لا ان ضمير بعولتهن راجع الى بعض المطلقات بنحو الاستخدام أو ما أشبه ذلك، والآية خاصة بحكم المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، واما غير المدخول بها والصغيرة واليائسة والحامل فلحكمها آيات أُخر.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، المعروف هو الذي يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحياة الاجتماعية المتداولة بينهم، وقد كرر سبحانه المعروف في هذه الآيات فذكره في اثنى عشر موضعاً اهتماماً بأن يجري هذا العمل اعني الطلاق وما يلحق به على سنن الفطرة والسلامة، فالمعروف تتضمن هداية العقل، وحكم الشرع، وفضيلة الخلق الحسن وسنن الادب.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، المرة بمعنى الدفعة مأخوذة من المرور للدلالة على الواحد من الفعل كما ان الدفعة والكره والنزلة مثلها وزناً ومعنى واعتباراً.

والتسريح أصله الاطلاق في الرعى مأخوذ من سرحت الابل وهو ان ترعيه للسرح، وهو شجر له ثمر يرعاه الإبل، وقد استعير في الآية لإطلاق المطلقة بمعنى عدم الرجوع اليها في العدة، والتخلية عنها حتى تنقضي عدتها على ما سيجيء.

والمراد بالطلاق في قوله تعالى: الطلاق مرتان، والطلاق الذي يجوز فيه الرجعة ولذا أردفه بقوله بعد: فإمساك، الخ؛ واما الثالث فالطلاق الذي يدل عليه قوله تعالى: فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، الآية.

والمراد بتسريحها بإحسان ظاهراً التخلية بينها وبين البينونة وتركها بعد كل من التطليقتين الاوليين حتى تبين بانقضاء العدة وإن كان الأظهر انه التطليقة الثالثة كما هو ظاهر الإطلاق في تفريع قوله: فإمساك، الخ؛ وعلى هذا فيكون قوله تعالى بعد: فإن طلقها، الخ؛ بياناً تفصيلياً للتسريح بعد البيان الإجمالي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، الخوف هو الغلبة على ظنهما ان لا يقيما حدود الله، وهي أوامره ونواهيه من الواجبات والمحرمات في الدين، وذلك إنما يكون بتباعد أخلاقهما وما يستوجبه حوائجهما والتباغض المتولد بينهما من ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، العدول عن التثنية الى الجمع في قوله: خفتم، كانه للاشارة الى لزوم ان يكون الخوف خوفاً يعرفه العرف والعادة، لا ما ربما يحصل بالتهوس والتلهي أو بالوسوسة ونحوها، ولذلك عدل أيضاً عن الإضمار فقيل ألا يقيما حدودالله، ولم يقل فإن خفتم ذلك لمكان اللبس.

وأما نفي الجناح عنهما مع ان النهي في قوله: ولا يحل لكم ان تأخذوا، الخ؛ إنما تعلق بالزوج فلأن حرمة الأخذ على الزوج توجب حرمة الاعطاء على الزوجة من باب الإعانة على الاثم والعدوان إلّا في طلاق الخلع فيجوز توافقهما على الطلاق مع الفدية، فلا جناح على الزوج ان يأخذ الفدية، ولا جناح على الزوجة ان تعطي الفدية وتعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما

افتدت به.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ الخ؛ المشار اليه هي المعارف المذكورة في الايتين وهي احكام فقهية مشوبة بمسائل اخلاقية، وأُخرى علمية مبتنية على معارف اصلية، والاعتداء والتعدي هو التجاوز.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ الى آخر الآية، بيان لحكم التطليقة الثالثة وهو الحرمة حتى تنكح زوجاً غيره، وقد نفى الحل عن نفس الزوجة مع ان المحرم إنما هو عقدها أو وطئها ليدل به على تعلق الحرمة بهما جميعاً، وليشعر قوله تعالى: حتى تنكح زوجاً غيره، على العقد والوطئ جميعاً، فإن طلقها الزوج الثاني فلا جناح عليهما أي على المرأة والزوج الاول ان يتراجعا الى الزوجية بالعقد بالتوافق من الجانبين، وهو التراجع، وليس بالرجوع الذي كان حقاً للزوج في التطليقتين الاوليين، وذلك إن ظنا ان يقيما حدود الله.

ووضع الظاهر موضع في قوله تعالى: وتلك حدود الله، لأن المراد بالحدود غير الحدود.

وفي الآية من عجيب الايجاز ما يبهت العقل، فإن الكلام على قصره مشتمل على أربعة عشر ضميراً مع اختلاف مراجعها واختلاطها من غير ان يوجب تعقيداً في الكلام، ولا إغلاقاً في الفهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ - الى قوله - لِتَعْتَدُوا﴾، المراد ببلوغ الاجل الاشراف على انقضاء العدة فإن البلوغ كما يستعمل في الوصول الى الغاية كذلك يستعمل في الاقتراب منها، والدليل على ان المراد به ذلك قوله تعالى: فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، اذ لا معنى للامساك ولا التسريح بعد انقضاء العدة: وفي قوله تعالى: ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، نهى عن الرجوع بقصد المضارة كما نهى عن التسريح بالأخذ من المهر في غير الخلع.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الى آخر الآية؛ إشارة الى حكمة النهي عن الامساك للمضارة فإن التزويج لتتميم سعادة الحياة، ولا يتم ذلك إلّا بسكون كل من الزوجين الى الآخر وإعانته في رفع حوائج الغرائز، والامساك خاصة رجوع الى الاتصال والاجتماع بعد الانفصال والافتراق، وفيه جمع الشمل بعد شتاته، وأين ذلك من الرجوع بقصد المضارة.

فمن يفعل ذلك أي امسك ضراراً فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن الطريق التي تهدي اليها فطرته الانسانية.

على انه اتخذ آيات الله هزواً يستهزء بها فإن الله سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الاحكام تشريعاً جامداً يقتصر فيه على اجرام الافعال أخذاً وإعطاءً وإمساكاً وتسريحاً وغير ذلك، بل بناها على مصالح عامة يصلح بها فاسد الاجتماع، ويتم بها سعادة الحياة الانسانية، وخلطها بأخلاق فاضلة تتربى بها النفوس، وتطهرها الأرواح، وتصفو بها المعارف العالية: من التوحيد والولاية وسائر الاعتقادات الزاكية، فمن اقتصر في دينه على ظواهر الاحكام ونبذ غيرها ورآه ظهره فقد اتخذ آيات الله هزواً.

والمراد بالنعمة في قوله تعالى: واذكروا نعمة الله عليكم، نعمة الدين أو حقيقة الدين وهي السعادة التي تنال بالعمل بشرائع الدين كسعادة الحياة المختصة بتألف الزوجين. فإن الله تعالى سمى السعادة الدينية نعمة كما في قوله تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ (المائدة / ٣)، وقوله تعالى: ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ (المائدة / ٦)، وقوله تعالى: ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ (آل عمران / ١٠٣).

وعلى هذا يكون قوله تعالى بعده: وما أُنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، كالمفسر لهذه النعمة، ويكون المراد بالكتاب والحكمة ظاهر الشريعة وباطنها أعني أحكامها وحِكَمها.

ويمكن أن يكون المراد بالنعمة مطلق النعم الإلهية، التكوينية وغيرها فيكون المعنى: اذكروا حقيقة معنى حياتكم وخاصة المزايا ومحاسن التألف والسكونة بين الزوجين وما بينه الله تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقة بها في ظاهر الأحكام وحكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أو شك أن تلزموا صراط السعادة، ولا تفسدوا كمال حياتكم ونعمة وجودكم، واتقوا الله ولتتوجه نفوسكم الى أن الله بكل شيء عليم، حتى لا يخالف ظاهركم باطنكم، ولا تجترؤوا على الله بهدم باطن الدين في صورة تعمير ظاهره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. العضل المنع، والظاهر أن الخطاب في قوله: فلا تعضلوهن، لاوليائهن ومن يجري مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته، والمراد بأزواجهن، الازواج قبل الطلاق، فالآية تدل على نهي الاولياء ومن يجري مجراهم عن منع المرأة أن تنكح زوجها ثانياً بعد انقضاء العدة سخطاً ولجاجاً كما يتفق كثيراً، ولا دلالة في ذلك على أن العقد لا يصح إلّا بولي.

والمراد بقوله تعالى: فبلغن أجلهن، انقضاء العدة، فإن العدة لو لم تنقض لم يكن لاحد من الاولياء وغيرهم ان يمنع ذلك وبعولتهن احق بردهن في ذلك. على أن قوله تعالى: ان ينكحن، دون ان يقال: يرجعن ونحوه ينافي ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، هذا كقوله فيما مر: ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر، الآية، وإنما خص الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو التوحيد، لان دين التوحيد يدعو الى الاتحاد دون الافتراق، ويقضي بالوصل دون الفصل.

وفي قوله تعالى: ذلك يوعظ به من كان منكم، التفات الى خطاب المفرد من خطاب الجمع ثم التفات عن خطاب المفرد الى خطاب الجمع، والاصل في هذا الكلام خطاب المجموع اعني

خطاب رسول الله ﷺ وامته جميعاً لكن ربما التفت الى خطاب الرسول ﷺ وحده في غير جهات الاحكام كقوله: تلك حدود الله فلا تعتدوها، وقوله فأولئك هم الظالمون، وقوله: وبعولتهن احق بردهن في ذلك، وقوله: ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله، حفظاً لقوام الخطاب، ورعاية لحال من هو ركن في هذه المخاطبة وهو رسول الله ﷺ فإنه هو المخاطب بالكلام من غير واسطة، وغيره فخاطب بوساطته، واما الخطابات المشتملة على الاحكام فجميعها موجهة نحو المجموع، ويرجع حقيقة هذا النوع من الالتفات الكلامي الى توسعة الخطاب بعد تضييقه وتضييقه بعد توسعته فليتدبر فيه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، الزكاة هو النمو الصالح الطيب، وقد مرَّ الكلام في معنى الطهارة، والمشار اليه بقوله: ذلكم عدم المنع عن رجوعهن الى ازواجهن، او نفس رجوعهن الى ازواجهن، والمآل واحد، وذلك ان فيه رجوعاً من الانثلام والانفصال الى الالتيام والاتصال، وتقوية لغريزة التوحيد في النفوس فينمو على ذلك جميع الفضائل الدينية، وفيه تربية لملكة العفة والحياء فيهن وهو استر لهن واطهر لنفوسهن، ومن جهة أُخرى فيه حفظ قلوبهن عن الوقوع على الاجانب اذا منعن عن نكاح ازواجهن.

والإسلام دين الزكاة والطهارة والعلم، قال تعالى: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (آل عمران / ١٦٤)، وقال تعالى: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ (المائدة / ٧).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، اي إلا ما يعلمكم كما قال تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (آل عمران / ١٦٤)، وقال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥)، فلا تنافي بين هذه الآية وبين قوله تعالى: وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون، الآية؛ اي يعلمون بتعليم الله.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾. الوالدات هن الامهات، وإما عدل عن الامهات الى الوالدات لان الام اعم من

الوالدة كما ان الاب اعم من الوالد والابن اعم من الولد. والحكم في الآية مشروع في خصوص مورد الوالدة والولد والمولود له. واما تبديل الوالد بالمولود له، ففيه اشارة الى حكمة التشريع فإن الوالد لما كان مولوداً للوالد ملحقاً به في معظم أحكام حياته لا في جميعها كما سيجيء بيانها في آية التحريم من سورة النساء إنشاء الله كان عليه ان يقوم بمصالح حياته ولوازم تربيته، ومنها كسوة امه التي ترضعه، ونفقتها، وكان على أُمه أن لا تضار والده لان الولد مولود له.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، المراد بالمولود له هو الوالد كما مر. والرزق والكسوة هما النفقة واللباس، وقد نزلهما الله تعالى على المعروف وهو المتعارف من حالهما، وقد علل ذلك بحكم عام آخر رافع للحرج، وهو قوله تعالى: لا تكلف نفس إلّا وسعها، وقد فرع عليه حكمين آخرين، احدهما: حق الحضانة والارضاع الذي للزوجة وما اشبهه فلا يحق للزوج ان يحول بين الوالدة وولدها بمنعها عن حضانته أو رؤيته أو ما أشبه ذلك فإن ذلك مضارة وحرج عليها، وثانيهما: نفي مضارة الزوجة للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤية ونحو ذلك، وذلك قوله تعالى: لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده، والنكتة في وضع الظاهر موضع الضمير أعني في قوله: بولده دون ان يقول به رفع التناقض المتوهم، فإنه لو قيل: ولا مولود له به رجع الضمير الى قوله ولدها وكان ظاهر المعنى: ولا مولود له بولد المرأة فأوهم التناقض لان إسناد الولادة الى الرجل يناقض إسنادها الى المرأة. ففي الجملة مراعاة لحكم التشريع والتكوين معا أي إن الولد لهما معاً تكويناً فهو ولده وولدها، وله فحسب تشريعاً لانه مولود له.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، ظاهر الآية: ان الذي جعل على الوالد من الكسوة والنفقة فهو مجعول على وارثه إن مات، وقد قيل في معنى الآية أشياء أُخر لا

يوافق ظاهرها، وقد تركنا ذكرها لانها بالبحث الفقهي أمس فلتطلب من هناك، والذي ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمة أهل البيت فيما نقل عنهم من الاخبار، وهو الموافق أيضاً لظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُما وَتَشَاوُرٍ﴾ الى آخر الآية: الفصال: الفطام، والتشاور: الاجتماع على المشورة، والكلام تفريع على الحق المجعول للزوجة ونفى الحرج عن البين، فالحضانة والرضاع ليس واجباً عليها غير قابل التغيير، بل هو حق يمكنها أن تتركه.

فمن الجائز ان يتراضيا بالتشاور على فصال الولد من غير جناح عليهما ولا بأس، وكذا من الجائز ان يسترضع الزوج لولده من غير الزوجة الوالدة اذا ردت الولد اليه بالامتناع عن ارضاعه، او لعلة أخرى من انقطاع لبن او مرض ونحوه اذا سلم لها ما تستحقها تسلياً بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقها، وهو قوله تعالى: وإن أردتم أن تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أمر بالتقوى وان يكون هذا التقوى بإصلاح صورة هذه الاعمال، فإنها أُمور مرتبطة بالظاهر من الصورة ولذلك قال تعالى: واعلموا ان الله بما تعملون بصير، وهذا بخلاف ما في ذيل قوله تعالى السابق: واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن، الآية؛ من قوله تعالى: واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم، فان تلك الآية مشتملة على قوله تعالى: ولا تمسكوهن ضرارً لتعتدوا، والمضارة ربما عادت الى النية من غير ظهور في صورة العمل إلّا بحسب الأثر بعد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾، التوفي هو الاماتة، يقال: توفاه الله اذا اماته فهو متوفى بصيغة اسم المفعول، ويذرون مثل يدعون بمعنى يتركون ولا ماضي لهما من مادتهما، والمراد بالعشر الايام

حذفت لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة، وقوله: فلا جناح، الخ؛ كناية عن إعطاء الاختيار لهن في افعالهن فإن اخترن لأنفسهن الازدواج فلهن ذلك، وليس لقرابة الميت منعهن عن شيء من ذلك استناداً الى بعض العادات المبنية على الجهالة والعمى أو الشح والحسد فإن لهن حقاً في ذلك معروفاً في الشرع وليس لأحد ان ينهي عن المعروف.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، لما كان الكلام مشتملاً على تشريع عدة الوفاة وعلى تشريع حق الازدواج لهن بعدها، وكان كل ذلك تشخيصاً للأعمال مستنداً الى الخبرة الالهية كان الانسب تعليله بأن الله خبير بالاعمال مشخص للمحظور منها عن المباح، فعليهن أن يتربصن في مورد وأن يخترن ما شئن لانفسهن في مورد آخر. ولذا ذيل الكلام بقول: والله بما تعملون خبير.

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، التعريض هو الميل بالكلام الى جانب ليفهم المخاطب أمراً مقصوداً للمتكلم لا يريد التصريح به، من العرض بمعنى الجانب فهو خلاف التصريح. والفرق بين التعريض والكناية ان للكلام الذي فيه التعريض معنى مقصوداً غير ما اعترض به كقول المخاطب للمرأة: إني حسن المعاشرة واحب النساء، اي لو تزوجت بي سعدت بطيب العيش وصرت محبوبة، بخلاف الكناية اذ لا يقصد في الكناية غير المكنى عنه كقولك: فلان كثير الرماد تريد انه سخي.

والخطبة بكسر الخاء من الخطب بمعنى التكلم والمراجعة في الكلام، يقال: خطب المرأة خطبة بالكسر اذا كلمها في أمر التزوج بها فهو خاطب ولا يقال: خطيب ويقال خطب القوم خطبة بضم الخاء اذا كلمهم، وخاصة في الوعظ فهو خاطب من الخطّاب وخطيب من الخطباء.

والاكنان من الكن بالفتح بمعنى الستر لكن يختص الاكنان بما يستر في النفس كما قال: او أكننتم في انفسكم، والكن بما يستر بشيء من الاجسام كمحفظة او ثوب او بيت، قال تعالى: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ (الصافات / ٤٩)، وقال تعالى: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ (الواقعة / ٢٣)، والمراد بالآية نفي البأس عن التعريض في الخطبة او إخفاء أُمور في القلب في امرها.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، في مورد التعليل لنفي الجناح عن الخطبة والتعريض فيها، والمعنى: ان ذكركم إياهن امر مطبوع في طباعكم والله لا ينهى عن امر تقضي به غريزتكم الفطرية ونوع خلقتكم، بل يجوزه، وهذا من الموارد الظاهرة في ان دين الاسلام مبني على اساس الفطرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، العزم عقد القلب على الفعل وتثبيت الحكم بحيث لا يبقى فيه وهن في تأثيره الا ان يبطل من رأس، والعقدة من العقد بمعنى الشد. وفي الكلام تشبيه علقة الزوجية بالعقدة التي يعقد بها أحد الخيطين بالآخر بحيث يصيران واحداً بالاتصال، كأن حبالة النكاح تصير الزوجين واحداً متصلاً، ثم في تعليق عقدة النكاح بالعزم الذي هو امر قلبي اشارة الى ان سنخ هذه العقدة والعلقة أمر قائم بالنية والاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلائية التي لا موطن لها إلّا ظرف الاعتقاد والادراك، نظير الملك وسائر الحقوق الاجتماعية العقلائية كما مر بيانه في ذيل قوله تعالى: ﴿كان الناس أُمة واحدة﴾ الآية (البقرة / ٢١٣)، ففي الآية استعارة وكناية، والمراد بالكتاب هو المكتوب أي المفروض من الحكم وهو التربص الذي فرضه الله على المعتدات.

فمعنى الآية: ولا تجروا عقد النكاح حتى تنقضي عدتهن، وهذه الآية تكشف أن الكلام فيها وفي الآية السابقة عليها أعني قوله تعالى: لا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء

الآية إنما هو في خطبة المعتدات وفي عقدهن، وعلى هذا فاللام في قوله: النساء للعهد دون الجنس وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُمْ﴾ الخ؛ ايراد ما ذكر من صفاته تعالى في الآية، اعني العلم والمغفره والحكم يدل على أن الامور المذكورة في الآيتين وهي خطبة المعتدات والتعريض لهن ومواعدتهن سراً من موارد الهلكات لا يرتضيها الله سبحانه كل الارتضاء وإن كان قد أجاز ما أجازه منها.

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، المس كناية عن المواقعة، والمراد بفرض الفريضة تسمية المهر، والمعنى: ان عدم مس الزوجة لا يمنع عن صحة الطلاق وكذا عدم ذكر المهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾، التمتيع إعطاء ما يتمتع به، والمتاع والمتعة ما يتمتع به، ومتاعاً مفعول مطلق لقوله تعالى: ومتعوهن، اعترض بينهما قوله تعالى: على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، والموسع اسم فاعل من أوسع اذا كان على سعة من المال وكأنه من الافعال المتعدية التي كثر استعمالها مع حذف المفعول اختصاراً حتى صار يفيد ثبوت أصل المعنى فصار لازماً والمقتر اسم فاعل من أقتر اذا كان على ضيق من المعاش، والقدر بفتح الدال وسكونها بمعنى واحد.

ومعنى الآية: يجب عليكم ان تمتعوا المطلقات عن غير فرض فريضة متاعاً بالمعروف وإنما يجب على الموسع قدره أي ما يناسب حاله ويتقدر به وضعه من التمتيع، وعلى المقتر قدره من التمتيع، وهذا يختص بالمطلقة غير المفروضة لها التي لم يسم مهرها، والدليل على أن هذا التمتيع المذكور مختص بها ولا يعم المطلقة المفروضة لها التي لم يدخل بها ما في الآية التالية من بيان حكمها.

قوله تعالى: ﴿حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، اي حق الحكم حقاً على المحسنين. وظاهر الجملة وان كان كون الوصف اعني الاحسان دخيلاً في الحكم، وحيث ليس الاحسان واجباً استلزم كون الحكم استحبابياً غير وجوبي، إلّا ان النصوص من طرق اهل البيت تفسر الحكم بالوجوب. ولعل الوجه فيه ما مر من قوله تعالى: الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان الآية فأوجب الاحسان على المسرحين وهم المطلقون فهم المحسنون. وقد حق الحكم في هذه الآية على المحسنين وهم المطلقون. والله اعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ الخ؛ اي وان وقعتم الطلاق قبل الدخول بهن وقد فرضتم لهن فريضة وسميتم المهر فيجب عليكم تأدية نصف ما فرضتم من المهر الى أن يعفون هؤلاء المطلقات او يعفو الذي بيده عقدة النكاح من وليهن فيسقط النصف المذكور ايضاً. أو الزوج فان عقدة النكاح بيده أيضاً، فلا يجب على الزوجة المطلقة رد نصف المهر الذي أخذت، والعفو على أي حال أقرب للتقوى لان من أعرض عن حقه الثابت شرعاً فهو على الاعراض عما ليس له بحق من محارم الله سبحانه اقوى واقدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ الخ؛ الفضل هو الزيادة كالفضول غير ان الفضل هو الزيادة في المكارم والمحامد والفضول هو الزيادة غير المحمودة على ما قيل. وفي الكلام ذكر الفضل الذي ينبغي ان يؤثره الانسان في مجتمع الحياة فيتفاضل به البعض على بعض، والمراد به الترغيب في الإحسان والفضل بالعفو عن الحقوق والتسهيل والتخفيف من الزوج للزوجة وبالعكس، والنكتة في قوله تعالى: إن الله على كل شيء بصير، كالنكتة فيما مر في ذيل قوله تعالى: والوالدات يرضعن أولادهن، الآية.

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ الى آخر الآية؛ حفظ الشيء ضبطه وهو في المعاني أعني حفظ النفس لما تستحضره أو تدركه من المعاني أغلب،

والوسطى مؤنث الأوسط، والصلاة الوسطى هي الواقعة في وسطها، ولا يظهر من كلامه تعالى ما هو المراد من الصلاة الوسطى، وإنما تفسيره السنة، وسيجيء ما ورد من الروايات في تعيينه.

واللام في قوله تعالى: قوموا لله، للغاية، والقيام بأمر كناية عن تقلده والتلبس بفعله، والقنوت هو الخضوع بالطاعة، قال تعالى: ﴿كل له قانتون﴾ (البقرة / ١١٦)، وقال تعالى: ﴿ومن يقنت منكن لله ولرسوله﴾ (الأحزاب / ٣١)، فحصل المعنى: تلبسوا بطاعة الله سبحانه بالخضوع مخلصين له ولأجله.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ الى آخر الآية؛ عطف الشرط على الجملة السابقة يدل على تقدير شرط محذوف أي حافظوا إن لم تخافوا، وإن خفتم فقدروا المحافظة بقدر ما يمكن من الصلاة راجلين وقوفاً أو مشياً أو راكبين، والرجال جمع راجل والركبان جمع راكب، وهذه صلاة الخوف.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فاذا أمنتم﴾، للتفريع أي ان المحافظة على الصلاة أمر غير ساقط من اصله بل إن لم تخافوا شيئاً وأمكنت لكم وجبت عليكم وإن تعسر عليكم فقدروها بقدر ما يمكن لكم، وإن زال عنكم الخوف بتجدد الأمن ثانياً عاد الوجوب ووجب عليكم ذكر الله سبحانه.

والكاف في قوله تعالى: كما علمكم، للتشبيه، وقوله: ما لم تكونوا تعملون من قبيل وضع العام موضع الخاص دلالة على الامتنان بسعة النعمة والتعليم، والمعنى على هذا: فاذكروا الله ذكراً يماثل ما علمكم من الصلاة المفروضة المكتوبة في حال الأمن في ضمن ما علمكم من شرائع الدين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾. وصية مفعول مطلق لمقدر، والتقدير ليوصوا وصية ينتفع به أزواجهم ويتمتعن متاعاً الى

الحول بعد التوفي.

وتعريف الحول باللام لا يخلو عن دلالة على كون الآية نازلة قبل تشريع عدة الوفاة، أعني الاربعة أشهر وعشرة أيام فإن عرب الجاهلية كانت نساؤهم يقعدن بعد موت أزواجهن حولاً كاملاً. فالآية توصي بأن يوصي الازواج لهن بمال يتمتعن به الى تمام الحول من غير إخراجهن من بيوتهن، غير ان هذا لما كان حقاً لهن والحق يجوز تركه كان لهن ان يطالبن به، وان يتركنه فإن خرجن فلا جناح للورثة ومن يجري مجراهم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف، وهذا نظير ما أوصى الله به من حضره الموت ان يوصي للوالدين والأقربين بالمعروف، قال تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ (البقرة / ١٨٠). ومما ذكرنا يظهر ان الآية منسوخة بآية عدة الوفاة وآية الميراث بالربع والثمن.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، الآية في حق مطلق المطلقات، وتعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعر بالاستحباب.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الأصل في معنى العقل العقد والامساك وبه سمي إدراك الانسان إدراكاً يعقد عليه عقلاً. وما أدركه عقلاً. والقوة التي يزعم انها إحدى القوى التي يتصرف بها الإنسان يميز بها بين الخير والشر والحق والباطل عقلاً، ويقابله الجنون والسفه والحمق والجهل باعتبارات مختلفة.

والألفاظ المستعملة في القرآن الكريم في أنواع الإدراك كثيرة ربما بلغت العشرين، كالظن، والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقه، والدراية، واليقين، والفكر، والرأي، والزعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل، ويلحق بها مثل القول،

والفتوى، والبصيرة ونحو ذلك[١][٢][٣][٤].

٢٤٣ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، الرؤية هيهنا بمعنى العلم، عبر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤية فهو كقوله تعالى: ﴿ألم تر ان الله خلق السموات والارض بالحق﴾ (إبراهيم / ١٩)، وقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ (نوح / ١٥).

وقد ذكر الزمخشري ان لفظ ألم تر جرى مجرى المثل، يؤتى به في مقام التعجيب فقولنا: ألم تر كذا وكذا معناه الا تعجب لكذا وكذا، وحذر الموت مفعول له، ويمكن ان يكون مفعولاً مطلقاً والتقدير يحذرون الموت حذراً.

---

١. البقرة ٢٢٨ ـ ٢٤٣: بحث في معاني الالفاظ المستعملة في القرآن الكريم في انواع الادراك كالظن والحسبان والشعور والذكر والعرفان والفهم والفقه والدراية واليقين والفكر والرأي والزعم والحفظ والحكمة والخبرة والشهادة والعقل.

٢. البقرة ٢٢٨ ـ ٢٤٣: بحث روائي في الطلاق: الرضاعة: الصلاة الوسطى.

٣. البقرة ٢٢٨ ـ ٢٤٣: بحث علمي في: حياة المرأة في الامم غير المتمدنة: حياة المرأة في الامم المتمدنة قبل الاسلام، حال المرأة عند العرب ومحيط حياتهم (محيط نزول القرآن): ماذا ابدعه الاسلام في امرها: حرية المرأة في المدينه الغربية.

٤. البقرة ٢٢٨ ـ ٢٤٣: بحث علمي في النكاح.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾. الامر تكويني ولا ينافي كون موتهم واقعاً عن مجرى طبيعي كما ورد في الروايات: ان ذلك كان بالطاعون، وإنما عبر بالامر، دون ان يقال: فاماتهم الله ثم أحياهم ليكون أدلة على نفوذ القدرة وغلبة الامر، فإن التعبير بالانشاء في التكوينيات أقوى وآكد من التعبير الاخبار كما ان التعبير بصورة الاخبار الدال على الوقوع في التشريعيات أقوى وآكد من الانشاء، ولا يخلو قوله تعالى: ثم أحياهم عن الدلالة على ان الله أحياهم ليعيشوا فعاشوا بعد حياتهم، اذ لو كان إحيائهم لعبرة يعتبر بها غيرهم أو لاتمام حجة أو لبيان حقيقة لذكر ذلك على ما هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصة أصحاب الكهف، على ان قوله تعالى بعد: إن الله لذو فضل على الناس، يشعر بذلك ايضاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. الاظهار في موضع الاضمار أعني تكرار لفظ الناس ثانياً لما فيه من الدلالة على انخفاض سطح أفكارهم، على ان هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالاحياء طائفة خاصة، وليس المراد كون الاكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الاكثر من جميع الناس، وهذه الآية لا تخلو عن مناسبة ما مع ما بعدها من الآيات المتعرضة لفرض القتال، لما في الجهاد من إحياء الملة بعد موتها.

٢٤٤ ● وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢٤٥ ● مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٢٤٦ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي

سَبِيلِ اللّٰهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيَارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ.

٢٤٧ ● وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنّٰى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللّٰهُ واسِعٌ عَلِيمٌ.

٢٤٨ ● وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمّا تَرَكَ آلُ مُوسىٰ وَآلُ هٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلٰئِكَةُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

٢٤٩ ● فَلَمّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لَا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلٰقُوا اللّٰهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ مَعَ الصّابِرِينَ.

٢٥٠ ● وَلَمّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.

٢٥١ ● فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَآتاهُ اللّٰهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللّٰهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.
٢٥٢ ● تِلْكَ آيَاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ الآية؛ فرض وإيجاب للجهاد، وقد قيده تعالى هيهنا وسائر المواضع من كلامه بكونه في سبيل الله لئلا يسبق الى الوهم ولا يستقر في الخيال ان هذه الوظيفة الدينية المهمة لإيجاد السلطة الدنيوية الجافة، وتوسعة المملكة الصورية، كما تخيله الباحثون اليوم في التقدم الاسلامي من الاجتماعيين وغيرهم، بل هو لتوسعة سلطة الدين التي فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، تحذير للمؤمنين في سيرهم هذا السير ان لا يخالفوا بالقول اذا أمر الله ورسوله بشيء، ولا يضمروا نفاقاً كما كان ذلك من بني إسرائيل حيث تكلموا في امر طالوت فقالوا: أَنّٰى يكون له الملك علينا، الخ؛ وحيث قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وحيث فشلوا وتولوا لما كتب عليهم القتال وحيث شربوا من النهر بعدما نهاهم طالوت عن شربه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ أَضْعٰافاً كَثِيرَةً﴾، القرض معروف وقد عد الله سبحانه ما ينفقونه في سبيله قرضاً لنفسه لما مر انه للترغيب، ولانه إنفاق في سبيله، ولانه مما سيرد اليهم اضعافاً مضاعفة.

وقد غير سياق الخطاب من الامر الى الاستفهام فقيل بعد قوله: وقاتلوا في سبيل الله: من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، ولم يقل: قاتلوا في سبيل الله وافرضوا، لينشط بذلك ذهن المخاطب بالخروج من حيز الأمر غير الخالي من كلفة التكليف الى حيز الدعوة والندب فيستريح بذلك ويتهيج.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، القبض الأخذ بالشيء اليك ويقابله البسط. والبصط هو البسط قلب سينه صاداً لمجاورته حرف الاطباق والتفخيم وهو الطاء.

وايراد صفاته الثلاث أعني: كونه قابضاً وباسطاً ومرجعاً يرجعون اليه للإشعار بأن ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلاً ولا يستبعد تضعيفه اضعافاً كثيرة فإن الله هو القابض الباسط، ينقص ما شاء، ويزيد ما شاء، واليه يرجعون فيوفيهم ما أقرضوه أحسن التوفية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الى قوله: في سبيل الله، الملأ كما قيل: الجماعة من الناس على رأى واحد، سميت بالملأ لكونها تملاء العيون عظمة وأبهة.

وقولهم لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، على ما يعطيه السياق يدل على ان الملك المسمى بجالوت كان قد تملكهم، وسار فيهم بما افتقدوا به جميع شؤون حياتهم المستقلة من الديار والأولاد بعدما كان الله أنجاهم من آل فرعون، يسومونهم سوء العذاب ببعثة موسى وولايته وولاية من بعده من أوصيائه، وبلغ من اشتداد الامر عليهم ما انتبه به الخامد من قواهم الباطنة، وعاد الى انفسهم العصبية الزائلة المضعفة فعند ذلك سأل الملأ منهم نبيهم ان يبعث لهم ملكاً ليرتفع به اختلاف الكلمة من بينهم وتتجمع به قواهم المتفرقة الساقطة عن التأثير، ويقاتلوا تحت امره في سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، كان بنو إسرائيل سألوا نبيهم ان يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله وليس ذلك للنبي بل الأمر في ذلك الى الله سبحانه، ولذلك ارجع نبيهم الامر في القتال وبعث الملك الى الله تعالى، ولم يصرح باسمه تعظيماً لأن الذي أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم وكانت مرجوة منهم ظاهرة من حالهم بوحيه تعالى فنزه اسمه تعالى من التصريح به بل إنما أشار الى ان الامر منه واليه تعالى بقوله: إن كتب، والكتابة وهي الفرض انما تكون من الله تعالى.

وقد كانت المخالفة والتوالي عن القتال مرجواً منهم لكنه أورده بطريق الاستفهام ليتم الحجة عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم: وما لنا ان لا نقاتل في سبيل الله.

قوله تعالى: قالوا ﴿وَمَا لَنَا أَنْ لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾، الاخراج من البلاد لما كان ملازماً للتفرقة بينهم وبين أوطانهم المألوفة، ومنعهم عن التصرف فيها والتمتع بها، كني به عن مطلق التصرف والتمتع، ولذلك نسب الإخراج الى الأبناء أيضاً كما نسب الى البلاد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، تفريع على قوله نبيهم: هل عسيتم، الخ؛ وقولهم: وما لنا ان لا نقاتل، وفي قوله تعالى: والله عليم بالظالمين، دلالة على ان قول نبيهم لهم: هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوه، انما كان لوحي من الله سبحانه: انهم سيتولون عن القتال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ ـ الى قوله ـ مِنَ الْمَالِ﴾، في جوابه ﷺ هذا حيث نسب بعث الملك الى الله تنبيه بما فات منهم اذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل ولم يقولوا: اسأل الله ان يبعث لنا ملكاً ويكتب لنا القتال.

وبالجملة التصريح باسم طالوت هو الذي أوجب منهم الاعتراض على ملكه وذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك، وهما ما حكاهما الله تعالى من قولهم أنى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه، ومن المعلوم ان قولهم هذا لنبيهم، ولم يستدلوا على كونهم احق بالملك منه بشيء يدل على ان دليله كان أمراً بيناً لا يحتاج الى الذكر، وليس إلّا ان بيت النبوة وبيت الملك في بني إسرائيل وهما بيتان مفتخران بموهبة النبوة والملك كانتا غير البيت الذي كان منه طالوت، وبعبارة أُخرى لم يكن طالوت من بيت الملك ولا من بيت النبوة ولذلك اعترضوا على ملكه بأنا، وهم أهل بيت الملك أو الملك والنبوة معاً، أحق بالملك منه لأن الله جعل الملك فينا فكيف يقبل الانتقال الى غيرنا، وهذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفي

البداء وعدم جواز النسخ والتغيير حيث قالوا: يد الله مغلولة غلت أيديهم، وقد أجاب عنه نبيهم بقوله: إن الله اصطفاه عليكم فهذه إحدى الصفتين المنافيتين للملك عندهم، والصفة الثانية ما في قولهم: ولم يؤت سعة من المال وقد كان طالوت فقيراً، وقد أجاب عنه نبيهم بقوله: وزاده بسطة في العلم والجسم، الخ.

قوله تعالى: قال ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، الاصطفاء والاستصفاء الاختيار وأصله الصفو، والبسطة هي السعة والقدرة، وهذان جوابان عن اعتراضهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، التابوت هو الصندوق، وهو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الانسان يرجع الى الصندوق رجوعاً بعد رجوع[1].

قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الخ: آل الرجل خاصته من اهله ويدخل فيهم نفسه اذا اطلق، فآل موسى وآل هرون هم موسى وهرون وخاصتهما من اهلهما، وقوله: تحمله الملائكة، حال عن التابوت، وفي قوله تعالى: ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين، كسياق صدر الآية دلالة على أنهم سألوا نبيهم آية على صدر ما أخبر به: ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ - الى قوله - مِنْهُمْ﴾، الفصل هيهنا مفارقة المكان كما في قوله تعالى: ﴿فلما فصلت العير﴾ (يوسف / ٩٤)، وربما استعمل بمعنى القطع وهو إيجاد المفارقة بين الشيئين كما قال تعالى: ﴿وهو خير الفاصلين﴾ (الأنعام / ٥٧)، فالكلمة مما يتعدى ولا يتعدى.

---

١. البقرة ٢٤٤ ـ ٢٥٢: كلام في معنى السكينة.

والجند المجتمع الغليظ من كل شيء وسمي العسكر جنداً لتراكم الاشخاص فيه وغلظتهم، وفي جمع الجند في الكلام دلالة على أنهم كانوا من الكثرة على حد يعتنى به وخاصة مع ما فيه المؤمنين من القلة بعد جواز النهر وتفرق الناس، ونظير هذه النكتة موجود في قوله تعالى: فلما فصل طالوت بالجنود.

وفي مجموع الكلام إشارة الى حق الامر في شأن بني إسرائيل وإيفائهم بميثاق الله، فإنهم سألوا بعث الملك جميعاً وشدوا الميثاق، وقد كانوا من الكثرة بحيث لما تولوا إلّا قليلاً منهم عن القتال كان ذلك القليل الباقي جنوداً، وهذه الجنود أيضاً لم تغن عنهم شيئاً بل تخلفوا بشرب النهر ولم يبق إلّا القليل من شائبة فشل ونفاق بينهم من جهة المغترفين. ومع ذلك كان النصر للذين آمنوا وصبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثرة.

والابتلاء الامتحان، والنهر مجرى الماء الفائض، والاغتراف والغرف رفع الشيء وتناوله، يقال: غرف الماء غرفة واغترفه غرفة اذا رفعه ليتناوله ويشربه.

وفي استثناء قوله تعالى: إلّا من اغترف غرفة بيده عن مطلق الشرب دلالة على أنه كان المنهي عنه هو الشرب على حالة خاصة، وقد كان الظاهر أن يقال: فمن شرب منه فليس مني إلّا من اغترف غرفة بيده غير أن وضع قوله تعالى: ومن لم يطعم فإنه مني، في الكلام مع تبديل الشرب بالطعم ومعناه الذوق أوجب تحولاً في الكلام من جهة المعنى اذ لو لم تضف الجملة الثانية كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت، والشرب يوجب انقطاع جمع منه والاغتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أي الاتصال وأما لو اضيفت الجملة الثانية، أعني قوله تعالى: ومن لم يطعمه فإنه مني الى الجملة الاولى كان مفاد الكلام أن الامر غير مستقر بحسب الحقيقة بعد إلّا بحسب الظاهر فالجنود في الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم، ثم النهر الذي سيبتليهم الله به سيحقق كلا الفريقين ويشخصهما فيعين به من ليس منه وهو من شرب من النهر، ويتعين به من هو منه وهو من لم يطعمه، واذا

كان هذا هو المفاد من الكلام لم يفد قوله في الاستثناء الا من اغترف غرفة بيده كون المغترفين من طالوت لان ذلك انما كان مفاداً لو كان المذكور هناك الجملة الاولى فقط. واما مع وجود الجملتين فيتعين الطائفتان: اعني الذين ليسوا منه وهم الشاربون، والذين هم منه وهم غير الطاعمين، ومن المعلوم ان الاخراج من الطائفة الاولى انما يوجب الخروج منها لا الدخول في الثانية، ولازم ذلك ان الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف: الذين ليسوا منه، والذين هم منه، والمغترفون، وعلى هذا فالباقون معه بعد الجواز طائفتان: الذين هم منه، والذين ليسوا من الخارجين، فجاز أن يختلف حالهم في الصبر والجزع والاعتماد بالله والقلق والاضطراب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الى آخر الآية؛ الفئة القطعة من الناس، والتدبر في الآيات يعطي ان يكون القائلون: لا طاقة لنا، هم المغترفون، والمجيبون هم هم الذين لم يطعموه اصلاً، والظن بلقاء الله إما بمعنى اليقين به واما كناية عن الخشوع.

ولم يقولوا: يمكن ان تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله، بل قالوا: كم فئة، الخ؛ أخذاً بالواقع في الاحتجاج بإرائة المصداق ليكون أقنع للخصم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ الخ: البروز هو الظهور، ومنه البراز وهو الظهور للحرب، والافراغ صب نحو المادة السيالة في القالب والمراد افاضة الله سبحانه الصبر عليهم على قدر ظرفيتهم فهو استعارة بالكناية لطيفة، وكذا تثبيت الاقدام كناية عن الثبات وعدم الفرار.

قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ الخ؛ الهزم الدفع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الى آخر الآية؛ من المعلوم أن المراد بفساد الارض فساد من على الارض اي فساد الاجتماع الإنساني ولو استتبع فساد الاجتماع فساداً في أديم الأرض فإنما هو داخل في الغرض بالتبع لا بالذات، وهذه حقيقة من

الحقائق العلمية ينبه لها القرآن[١].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آياتُ اللّهِ﴾ الخ؛ كالخاتمة يختم بها الكلام والقصة غير أن آخر الآية: وإنك لمن المرسلين، لا يخلو عن ارتباط بالآية التالية[٢][٣][٤].

٢٥٣ ● تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

٢٥٤ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، إشارة الى فخامة امر الرسل وعلو مقامهم ولذلك جيء في الإشارة بكلمة تلك الدالة على الاشارة الى بعيد، وفيه

---

١. البقرة ٢٤٤ـ٢٥٢: بحث في: الدفع والغلبة معنى الآية: «لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض».

٢. البقرة ٢٤٤ـ٢٥٢: بحث روائي في بني اسرائيل بعد موت موسى وجالوت وطالوت.

٣. البقرة ٢٤٤ـ٢٥٢: بحث علمي واجتماعي في تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الامثل.

٤. البقرة ٢٤٤ـ٢٥٢: بحث في التاريخ وما يعنني به القرآن منه.

دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الانبياء عليهم السلام ففيهم من هو افضل وفيهم من هو مفضل عليه. وللجميع فضل فإن الرسالة في نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع، ففيها بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافاً على ما يدل عليه ذيل الآية إلا ان بين الاختلافين فرقاً. فإن الاختلاف بين الانبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد. وهذا بخلاف الاختلاف الموجود بين امم الانبياء بعدهم فإنه اختلاف بالايمان والكفر، والنفي والاثبات، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، ولذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمى ما للانبياء تفضيلاً ونسبه الى نفسه، وسمى ما عند الناس بالاختلاف ونسبه الى أنفسهم، فقال في مورد الرسل فضلنا، وفي مورد أممهم اختلفوا.

ولما كان ذيل الآية متعرضاً لمسألة القتال مرتبطاً بها والآيات المتقدمة على الآية أيضاً راجعة الى القتال بالامر به والاقتصاص فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام أعني قوله تعالى: تلك الرسل فضلنا الى قوله بروح القدس مقدمة لتبيين ما في ذيل الآية من قوله: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم الى قوله تعالى: ولكن الله يفعل ما يريد.

وعلى هذا فصدر الآية لبيان أن مقام الرسالة على اشتراكه بين الرسل عليهم السلام مقام تنمو فيه الخيرات والبركات، وتنبع فيه الكمال والسعادة ودرجات القربى والزلفى كالتكليم الالهي وإيتاء البينات والتأييد بروح القدس، وهذا المقام على ما فيه من الخير والكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده الى اختلاف الناس أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، في الجملتين التفات من الحضور الى الغيبة، والوجه فيه والله اعلم ـ ان الصفات الفاضلة على قسمين: منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيلة كالآيات البينات، وكالتأييد بروح القدس كما ذكر لعيسى عليه السلام فإن هذه الخصال بنفسها غالية سامية، ومنها: ما ليس كذلك، وإنما يدل على

الفضيلة ويستلزم المنقبة بواسطة الاضافة كالتكليم، فإنه لا يعد في نفسه منقبة وفضيلة إلا أن يضاف الى شيء فيكتسب منه البهاء والفضل كإضافته الى الله عزّ اسمه، وكذا رفع الدرجات لا فضيلة فيه بنفسه إلا ان يقال: رفع الله الدرجات مثلاً فينسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه في الالتفات مثلاً فنسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه في الالتفات من الحضور الى الغيبة في اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى: فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات، فحول وجه الكلام من التكلم الى الغيبة في الجملتين الاوليين حتى اذا استوفى الغرض عاد الى وجه الكلام الاول وهو التكلم فقال تعالى: وآتينا عيسى بن مريم[1].

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، رجوع الى أصل السياق وهو التكلم دون الغيبة كما مر.

والوجه في التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل في الآية: ان ما ذكره له عليه السلام من جهات التفضيل وهو إيتاء البينات، والتأييد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعاً ليس مما يختص ببعضهم دون بعض، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ (الحديد / ٢٥)، وقال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان انذروا﴾ (النحل / ٢)، لكنها في عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى وخلق الطير بالنفخ وإبراء الاكمه والابرص؛ والاخبار عن المغيبات كانت أموراً متكئة على الحياة مترشحة عن الروح، فلذلك نسبها الى عيسى عليه السلام وصرح باسمه اذ لولا التصريح لم يدل على كونه فضيلة خاصة كما لو قيل: وآتينا بعضهم البينات وأيدناه بروح القدس، اذ البينات وروح القدس كما عرفت مشتركة غير مختصة، فلا يستقيم نسبتها الى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم

---

١. البقرة ٢٥٣ ـ ٢٥٤ كلام في الكلام.

انها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريباً، على ان في اسم عيسى عليه السلام خاصة اخرى وآية بينة وهي انه ابن مريم لا أب له، قال تعالى: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١)، فمجموع الابن والام آية بينة إلهية وفضيلة اختصاصية اخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، العدول الى الغيبة ثانياً لان المقام مقام إظهار ان المشية والارادة الربانية غير مغلوبة، والقدرة غير باطلة. فجميع الحوادث على طرفي إثباتها ونفيها غير خارجة عن السلطنة الالهية. وبالجملة وصف الالوهية هي التي تنافي تقيد القدرة وتوجب إطلاق تعلقها بطرفي الايجاب والسلب فسنت حاجة المقام الى اظهار هذه الصفة المتعالية أعني الالوهية للذكر فقيل: ولو شاء الله ما اقتتل، ولم يقل: ولو شئنا ما اقتتل. وهذا هو الوجه أيضاً في قوله تعالى في ذيل الآية: ولو شاء الله ما اقتتلوا، وقوله: ولكن الله يفعل ما يريد. وهو الوجه ايضاً في العدول عن الاضمار الى الاظهار.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، نسب الاختلاف اليهم لا الى نفسه لانه تعالى ذكر في مواضع من كلامه: ان الاختلاف بالايمان والكفر وسائر المعارف الاصلية المبينة في كتب الله النازلة على انبيائه انما حدث بين الناس بالبغي، وحاشا ان ينتسب اليه سبحانه بغي أو ظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي ولو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال ولكن الله يفعل ما يريد وقد أراد ان يؤثر هذا الاختلاف في سوقه الناس الى الاقتتال جرياً على سنة الاسباب.

ومحصل معنى الآية والله العالم: ان الرسل التي ارسلوا الى الناس عباد لله مقربون عند ربهم، مرتفع عن الناس أفقهم وهم مفضل بعضهم على بعض على ما لهم من الاصل الواحد والمقام المشترك، فهذا حال الرسل وقد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الاظهار

وبينوا طريق الهداية أتم البيان، وكان لازمه ان لا ينساق الناس بعدهم الا الى الوحدة والالفة والمحبة في دين الله من غير اختلاف وقتال لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب، وهو الاختلاف عن بغي منهم وانشعابهم الى مؤمن وكافر. ثم التفرق بعد ذلك في سائر شؤون الحياة والسعادة، ولو شاء الله لاعقم هذا السبب أعني الاختلاف فلم يوجب الاقتتال وما اقتتلوا، ولكن لم يشأ وأجرى هذا السبب كسائر الاسباب والعلل على سنة الاسباب التي أرادها الله في عالم الصنع والايجاد، والله يفعل ما يريد.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ الخ؛ معناه واضح وفي ذيل الآية دلالة على ان الاستنكاف عن الانفاق كفر وظلم[1][2].

٢٥٥ ● اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قد تقدم في سورة الحمد بعض

---

١. البقرة ٢٥٣ ـ ٢٥٤ بحث روائي حول الآية «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض»: كيفية تكليم الله لموسى عليه السلام.

٢. البقرة ٢٥٣ ـ ٢٥٤ بحث فلسفي في الكلام.

الكلام في لفظ الجلالة. وانه سواء أُخذ من أله الرجل بمعنى تاه وولهَ أو من أله بمعنى عبد فلازم معناه الذات المستجمع لجميع صفات الكمال على سبيل التلميح.

وقد تقدم بعض الكلام في قوله تعالى: لا إله إلا هو، في قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ (البقرة / ١٦٣)، وضمير هو وان رجع الى اسم الجلالة لكن اسم الجلالة لما كان علماً بالغلبة يدل على نفس الذات من حيث انه ذات وان كان مشتملاً على بعض المعاني الوصفية التي يلمح باللام أو بالاطلاق اليها. فقوله: لا اله الا هو، يدل على نفي حق الثبوت عن الآلهة التي تثبت من دون الله.

واما اسم الحي فمعناه ذو الحياة الثابتة على وزان سائر الصفات المشبهة في دلالتها على الدوام والثبات.

والناس في بادىء مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها على قسمين: قسم منها لا يختلف حاله عند الحس ما دام وجوده ثابتاً كالأحجار وسائر الجمادات، وقسم منها ربما تغيرت حاله وتعطلت قواه وافعاله مع بقاء وجودها على ما كان عليه عند الحس، وذلك كالانسان وسائر اقسام الحيوان والنبات فإنا ربما نجدها تعطلت قواها ومشاعرها وافعالها ثم يطرأ عليها الفساد تدريجاً، وبذلك أذعن الانسان بان هناك وراء الحواس امراً آخر هو المبدأ للاحساسات والادراكات العلمية والافعال المبتنية على العلم والارادة وهو المسمى بالحياة ويسمى بطلانه بالموت، فالحياة نحو وجود يترشح عنه العلم والقدرة.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الحياة في كلامه ذكر تقرير لها، قال تعالى: ﴿اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها﴾ (الحديد / ١٧)، وقال تعالى: ﴿إنك ترى الارض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى﴾ (فصلت / ٣٩)، وقال تعالى: ﴿وما يستوي الاحياء ولا الاموات﴾ (فاطر / ٢٢)، وقال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء / ٣٠)، فهذه تشمل حياة أقسام الحي من الانسان والحيوان والنبات.

وكذلك القول في اقسام الحياة، قال تعالى: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ (يونس / ٧)، وقال تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ (المؤمن / ١١)، والاحياءان المذكور ان يشتملان على حياتين: إحداهما: الحياة البرزخية، والثانية: الحياة الآخرة، فللحياة أقسام كما للحي أقسام.

والله سبحانه مع ما يقرر هذه الحياة الدنيا يعدها في مواضع كثيرة من كلامه شيئاً رديئاً هيناً لا يعبأ بشأنه كقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ (الرعد / ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ (النساء / ٩٤)، وقوله تعالى: ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ (الكهف / ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ (الأنعام / ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (الحديد / ٢٠)، فوصف الحياة الدنيا بهذه الاوصاف فعدها متاعاً والمتاع ما يقصد لغيره، وعدها عرضاً والعرض ما يعترض ثم يزول، وعدها زينة والزينة هو الجمال الذي يضم على الشيء ليقصد الشيء لاجله فيقع غير ما قصد ويقصد غير ما وقع، وعدها لهواً واللهو ما يلهيك ويشغلك بنفسه عما يهمك، وعدها لعباً واللعب هو الفعل الذي يصدر لغاية خيالية لا حقيقية، وعدها متاع الغرور وهو ما يغر به الانسان.

ويفسر جميع هذه الآيات ويوضحها قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت / ٦٤)، يبين ان الحياة الدنيا إنما تسلب عنها حقيقة الحياة أي كمالها في مقابل ما تثبت للحياة الآخرة حقيقة الحياة وكمالها، وهي الحياة التي لا موت بعدها، قال تعالى: ﴿آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى﴾ (الدخان / ٥٦)، وقال تعالى: ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥)، فلهم في حياتهم الآخرة أن لا يعتريهم الموت، ولا يعترضهم نقص في العيش وتنغص، لكن الاول من الوصفين أعني الامن هو الخاصة الحقيقية للحياة الضرورية له.

فالحياة الاخروية هي الحياة بحسب الحقيقة لعدم إمكان طرو الموت عليها بخلاف الحياة الدنيا، لكن الله سبحانه مع ذلك أفاد في آيات اخر كثيرة انه تعالى هو المفيض للحياة الحقيقية الاخروية والمحيي للإنسان في الآخرة، وبيده تعالى أزمة الامور. فأفاد ذلك ان الحياة الاخروية أيضاً مملوكة لا مالكة ومسخرة لا مطلقة أعني انها إنما ملكت خاصتها المذكورة بالله لا بنفسها.

ومن هنا يظهر ان الحياة الحقيقة يجب ان تكون بحيث يستحيل طرو الموت عليها لذاتها ولا يتصور ذلك إلا بكون الحياة عين ذات الحي غير عارضة لها ولا طارئة عليها بتمليك الغير وإفاضته، قال تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ (الفرقان / ٥٨)، وعلى هذا فالحياة الحقيقية هي الحياة الواجبة، وهي كون وجوده بحيث يعلم ويقدر بالذات.

ومن هنا يعلم: ان القصر في قوله تعالى: ﴿هو الحي لا إليه إلا هو﴾ قصر حقيقي غير إضافي، وان حقيقة الحياة التي لا يشوبها موت ولا يعتريها فناء وزوال هي حياته تعالى.

فالاوفق فيما نحن فيه من قوله تعالى: الله لا إله إلا هو الحي القيوم؛ الآية؛ وكذا في قوله تعالى: ﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ (آل عمران / ١) ان يكون لفظ الحي خبراً بعد خبر فيفيد الحصر لان التقدير، الله الحي فالآية تفيد ان الحياة لله محضاً إلا ما أفاضه لغيره.

واما اسم القيوم فهو على ما قيل: فيعول كالقيام فيعال من القيام وصف يدل على المبالغة والقيام هو حفظ الشيء وفعله وتدبيره وتربيته والمراقبة عليه والقدرة عليه، كل ذلك مأخوذ من القيام بمعنى الانتصاب للملازمة العادية بين الانتصاب وبين كل منها.

وقد اثبت الله تعالى اصل القيام بامور خلقه لنفسه في كلامه حيث قال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ (الرعد / ٣٣)، وقال تعالى وهو أشمل من الآية السابقة ﴿شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران / ١٨)، فأفاد انه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطي ولا يمنع شيئاً في الوجود

(وليس الوجود إلا الاعطاء والمنع) الا بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ثم بين ان هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين: العزيز الحكيم فبعزته يقوم على كل شيء وبحكمته يعدل فيه.

وبالجملة لما كان تعالى هو المبدء الذي يبتدى منه وجود كل شيء وأوصافه وآثاره لا مبدء سواه الا وهو ينتهي اليه، فهو القائم على كل شيء من كل جهة بحقيقة القيام الذي لا يشوبه فتور وخلل. وليس ذلك لغيره قط الا بإذنه بوجه، فليس له تعالى الا القيام من غير ضعف وفتور، وليس لغيره الا ان يقوم به، فهناك حصران: حصر القيام عليه، وحصره على القيام، وأول الحصرين هو الذي يدل عليه كون القيوم في الآية خبراً بعد خبر لله (الله القيوم)، والحصر الثاني هو الذي تدل عليه الجملة التالية أعني قوله: لا تأخذه سنة ولا نوم.

وقد ظهر من هذا البيان ان اسم القيوم ام الاسماء الاضافية الثابتة له تعالى جميعاً وهي الاسماء التي تدل على معان خارجة عن الذات بوجه كالخالق والرازق والمبدىء والمعيد والمحيي والمميت والغفور والرحيم والودود وغيرها.

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، السنة بكسر السين الفتور الذي يأخذ الحيوان في اول النوم، والنوم هو الركود الذي يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعية تحدث في بدنه، والرؤيا غيره وهي ما يشاهده النائم في منامه.

وقد أورد على قوله: سنة ولا نوم انه على خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فإن المقام مقام الترقي، والترقي في الاثبات انما هو من الاضعف الى الاقوى كقولنا: فلان يقدر على حمل عشرة أمنان بل عشرين، وفلان يجود بالمئات بل بالالوف وفي النفي بالعكس كما نقول: لا يقدر فلان على حمل عشرين ولا عشرة، ولا يجود بالالوف ولا بالمئات، فكان ينبغي ان يقال: لا تأخذه نوم ولا سنة.

والجواب: ان الترتيب المذكور لا يدور مدار الاثبات والنفي دائماً كما يقال: فلان يجهده

حمل عشرين بل عشرة ولا يصح العكس، بل المراد هو صحة الترقي وهي مختلفة بحسب الموارد، ولما كان أخذ النوم أقوى تأثيراً وأضر على القيومية من السنة كان مقتضى ذلك ان ينفى تأثير السنة وأخذها أولاً ثم يترقى الى نفي تأثير ما هو أقوى منه تأثيراً، ويعود معنى لا تأخذه سنة ولا نوم الى مثل قولنا: لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في امره ولا ما هو أقوى منه.

قوله تعالى: ﴿لَهُ ما فِي السَّمٰوات وَمٰا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لما كانت القيومية التامة التي له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السماوات والارض وما فيهما بحقيقة الملك ذكره بعدهما، كما ان التوحيد التام في الالوهية لا يتم إلا بالقيومية، ولذلك ألحقها بها ايضاً.

وهاتان جملتان كل واحدة منهما مقيدة أو كالمقيدة بقيد في معنى دفع الدخل، أعني قوله تعالى: له ما في السماوات وما في الارض، مع قوله تعالى: من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، وقوله تعالى: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، مع قوله تعالى: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

فأما قوله تعالى: له ما في السماوات وما في الارض، فقد عرفت معنى ملكه تعالى (بالكسر) للموجودات وملكه تعالى (بالضم) لها، والملك بكسر الميم وهو قيام ذوات الموجودات وما يتبعها من الاوصاف والآثار بالله سبحانه هو الذي يدل عليه قوله تعالى: له ما في السماوات وما في الارض، فالجملة تدل على ملك الذات وما يتبع الذات من نظام الآثار.

وقد تم بقوله: القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الارض ان السلطان المطلق في الوجود لله سبحانه لا تصرف إلا وهو له ومنه، فيقع من ذلك في الوهم انه اذا كان الامر على ذلك فهذه الاسباب والعلل الموجودة في العالم ما شأنها؟ وكيف يتصور فيها ومنا التأثير ولا تأثير إلا لله سبحانه؟

فاجيب بأن تصرف هذه العلل والاسباب في هذه الموجودات المعلولة توسط في التصرف، وبعبارة اخرى شفاعة في موارد المسببات بإذن الله سبحانه، فإنما هي شفعاء، والشفاعة ـ وهي بنحو توسط في ايصال الخير أو دفع الشر، وتصرف ما من الشفيع في امر المستشفع ـ انما تنافي السلطان الالهي والتصرف الربوبي المطلق اذا لم ينته الى اذن الله، ولم يعتمد على مشية الله تعالى بل كانت مستلقة غير مرتبطة وما من سبب من الاسباب ولا علة من العلل الا وتأثيره بالله ونحو تصرفه بإذن الله، فتأثيره وتصرفه نحو من تأثيره وتصرفه تعالى فلا سلطان في الوجود الا سلطانه ولا قيومية الا قيوميته المطلقة عز سلطانه.

وعلى ما بيناه فالشفاعة هي التوسط المطلق في عالم الاسباب والوسائط أعم من الشفاعة التكوينية وهي توسط الاسباب في التكوين، والشفاعة التشريعية أعني التوسط في مرحلة المجازاة التي تثبتها الكتاب والسنة في يوم القيامة على ما تقدم البحث عنها في قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ (البقرة / ٤٨)، وذلك ان الجملة أعني قوله تعالى: من ذا الذي يشفع عنده، مسبوقة بحديث القيومية والملك المطلق الشاملين للتكوين والتشريع معاً، بل المتماسين بالتكوين ظاهراً فلا موجب لتقييدهما بالقيومية والسلطنة التشريعيتين حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة المخصوصة بيوم القيامة.

فساق هذه الآية في عموم الشفاعة مساق قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ (يونس / ٣)، وقوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ (السجدة / ٤)، وقد عرفت في البحث عن الشفاعة ان حدها كما ينطبق على الشفاعة التشريعية كذلك ينطبق على السببية التكوينية، فكل سبب من الاسباب يشفع عند الله لمسببه بالتمسك بصفات فضله وجوده ورحمته لايصال نعمة الوجود الى مسببه، فنظام السببية بعينه ينطبق على نظام

الشفاعة كما ينطبق على نظام الدعاء والمسألة. قال تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والارض كل يوم هو في شأن﴾ (الرحمن / ٢٩)، وقال تعالى: ﴿وآتيكم من كل ما سئلتموه﴾ (ابراهيم / ٣٤)، وقد مر بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿واذا سألك عبادي عني﴾ (البقرة / ١٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شَاءَ﴾، سياق الجملة مع مسبوقيتها بأمر الشفاعة يقرب من سياق قوله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ (الأنبياء / ٢٨)، فالظاهر ان ضمير الجمع الغائب راجع الى الشفعاء الذي تدل عليه الجملة السابقة معنى فعلمه تعالى بما بين ايديهم وما خلفهم كناية عن كمال احاطته بهم. فلا يقدرون بواسطة هذه الشفاعة والتوسط المأذون فيه على انفاذ امر لا يريده الله سبحانه ولا يرضى به في ملكه، ولا يقدر غيرهم ايضاً ان يستفيد سوناً من شفاعتهم ووساطتهم فيداخل في ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدره.

والى نظير هذا المعنى يدل قوله تعالى: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ (مريم / ٦٤)، وقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ (الجن / ٢٨)، فإن الآيات تبين إحاطته تعالى بالملائكة والانبياء لئلا يقع منهم ما لم يرده، ولا يتنزلوا إلا بأمره، ولا يبلغوا إلا ما يشائه. وعلى ما بيناه فالمراد بما بين أيديهم: ما هو حاضر مشهود منهم، وبما خلفهم: ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم، ويؤل المعنى الى الشهادة والغيب.

وبالجملة قوله: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، كناية عن إحاطته تعالى بما هو حاضر

معهم موجود عندهم وبما هو غائب عنهم آت خلفهم، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، تبييناً لتمام الاحاطة الربوبية والسلطة الإلهية أي إنه تعالى عالم محيط بهم وبعلمهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

ولا ينافي إرجاع ضمير الجمع المذكر العاقل وهو قوله «هم» في المواضع الثلاث الى الشفعاء ما قدمناه من ان الشفاعة أعم من السببية التكوينية والتشريعية، وأن الشفعاء هم مطلق العلل والاسباب، وذلك لأن الشفاعة والوساطة والتسبيح والتحميد لما كان المعهود من حالها انها من أعمال أرباب الشعور والعقل شاع التعبير عنها بما يخص أُولي العقل من العبارة. وعلى ذلك جرى ديدن القرآن في بياناته كقوله تعالى: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الأسراء / ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (فصلت / ١١)، الى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة قوله: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، يفيد معنى تمام التدبير وكماله، فإن من كمال التدبير أن يجهل المدبر (بالفتح) بما يريده المدبر (بالكسر) من شأنه ومستقبل أمره لئلا يحتال في التخلص عما يكرهه من أمر التدبير فيفسد على المدبر (بالكسر) تدبيره، كجماعة مسيرين على خلاف مشتهاهم ومرادهم فيبالغ في التعمية عليهم حتى لا يدروا من أين سيروا، وفي أين نزلوا، والى أين يقصد بهم.

فيبين تعالى بهذه الجملة ان التدبير له وبعلمه بروابط الاشياء التي هو الجاعل لها، وبقية الاسباب والعلل وخاصة أُولوا العلم منها وإن كان لها تصرف وعلم لكن ما عندهم من العلم الذي ينتفعون به ويستفيدون منه فإنما هو من علمه تعالى وبمشيته وإرادته، فهو من شئون العلم الالهي، وما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الالهي وانحاء تدبيره، فلا يسع لمقدم منهم أن يقدم على خلاف ما يريده الله سبحانه من التدبير الجاري في مملكته إلا وهو بعض

التدبير.

وفي قوله تعالى: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، على تقدير ان يراد بالعلم المعنى المصدري أو معنى اسم المصدر لا المعلوم دلالة على ان العلم كله لله ولا يوجد من العلم عند عالم إلا وهو شيء من علمه تعالى. ونظيره ما يظهر من كلامه تعالى من اختصاص القدرة والعزة والحياة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩)، وقال تعالى: ﴿هو الحي لا اله الا هو﴾ (المؤمن / ٦٥)، ويمكن ان يستدل على ما ذكرناه من انحصار العلم بالله تعالى بقوله: ﴿انه هو العليم الحكيم﴾ (يوسف / ٨٣)، وقوله تعالى: ﴿والله يعلم وانتم لا تعلمون﴾ (آل عمران / ٦٦)، الى غير ذلك من الآيات. وفي تبديل العلم بالإحاطة في قوله: ولا يحيطون بشيء من علمه، لطف ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، الكرسي معروف وسمي به لتراكم بعض اجزائه بالصناعة على بعض، وربما كني بالكرسي عن الملك فيقال: كرسي الملك، ويراد منطقة نفوذة ومتسع قدرته.

وكيف كان فالجمل السابقة على هذه الجملة أعني قوله: له ما في السموات وما في الارض، الخ؛ تفيد ان المراد بسعة الكرسي احاطة مقام السلطنة الالهية. فيتعين للكرسي من المعنى: انه المقام الربوبي الذي يقوم به ما في السموات والارض من حيث انها مملوكة مدبرة معلومة، فهو من مراتب العلم، ويتعين للسعة من المعنى: انها حفظ كل شيء مما في السموات والارض بذاته وآثاره، ولذلك ذيله بقوله: ولا يؤده حفظهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، يقال: آده يؤده أوداً اذا ثقل عليه واجهده واتعبه، والظاهر ان مرجع الضمير في يؤده، هو الكرسي وإن جاز رجوعه اليه تعالى، ونفي الأود والتعب عن حفظ السموات والارض في ذيل الكلام ليناسب ما افتتح

به من نفي السنة والنوم في القيومية على ما في السموات والارض.

ومحصل ما تفيده الآية من المعنى: ان الله لا إله إلا هو له كل الحياة وله القيومية المطلقة من غير ضعف ولا فتور، ولذلك وقع التعليل بالاسمين الكريمين: العلي العظيم فإنه تعالى لعلوه لا تناله أيدي المخلوقات فيوجبوا بذلك ضعفاً في وجوده وفتوراً في أمره، ولعظمته لا يجهده كثرة الخلق ولا يطيقه عظمة السموات والارض، وجملة: وهو العلي العظيم، لا تخلو عن الدلالة على الحصر، وهذا الحصر إما حقيقي كما هو الحق، فإن العلو والعظمة من الكمال وحقيقة كل كمال له تعالى، واما دعوى لمسيس الحاجة اليه في مقام التعليل ليختص العلو والعظمة به تعالى دعوى، فيسقط السموات والارض عن العلو والعظمة في قبال علوه وعظمته تعالى[1].

٢٥٦ ● لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢٥٧ ● اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، الاكراه هو

---

١. البقرة ٢٥٥ بحث روائي آية الكرسي.

الاجبار والحمل على الفعل من غير رضى، والرشد بالضم والضمتين: إصابة وجه الامر ومحجة الطريق ويقابله الغي، فهما أعم من الهدى والضلال، فإنهما إصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل، والظاهر ان استعمال الرشد في اصابة محجة الطريق من باب الانطباق على المصداق، فإن اصابة وجه الامر من سالك الطريق ان يركب المحجة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق اصابة وجه الامر، فالحق ان معنى الرشد والهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصة على مصاديق الآخر وهو ظاهر، قال تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رشداً﴾ (النساء / ٦)، وقال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ (الأنبياء / ٥١)، وكذلك القول في الغي والضلال، ولذلك ذكرنا سابقاً: ان الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد، والغي هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الانسان الغوي ماذا يريد وماذا يقصد.

وفي قوله تعالى: لا اكراه في الدين، نفى الدين الاجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أُخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والايمان من الامور القلبية التي لا يحكم فيها الاكراه والاجبار، فإن الاكراه انما يؤثر في الاعمال الظاهرية والافعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب اخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والادراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً، فقوله: لا اكراه في الدين، ان كان قضية اخبارية حاكية عن حال التكوين انتج حكماً دينياً بنفي الاكراه على الدين والاعتقاد، وان كان حكما انشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: قد تبين الرشد من الغي، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والايمان كرهاً، وهو نهي متك على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الاكراه انما يعمل ويؤثر في مرحلة الافعال البدنية دون الاعتقادات القلبية.

وقد بيّن تعالى هذا الحكم بقوله: قد تبين الرشد من الغي، وهو في مقام التعليل فإن الإكراه

والاجبار إنما يركن اليه الآمر الحكيم والمربي العاقل في الامور المهمة التي لا سبيل الى بيان وجه الحق فيها لبساطة فهم المأمور ورداءة ذهن المحكوم، أو لاسباب وجهات اخرى، فيتسبب الحاكم في حكمه بالاكراه أو الامر بالتقليد ونحوه. وأما الامور المهمة التي تبين وجه الخير والشر فيها، وقرر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها الى الاكراه، بل للانسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي الثواب والعقاب، والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسنة النبوية فقد تبين أن الدين رشد والرشد في اتباعه، والغي في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لان يكره أحد أحداً على الدين.

وهذه احدى الآيات الدالة على أن الاسلام لم يبتن على السيف والدم، ولم يفت بالاكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أن الاسلام دين السيف واستدلوا عليه: بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين.

وقد تقدم الجواب عنه في ضمن البحث عن آيات القتال وذكرنا هناك أن القتال الذي ندب اليه الاسلام ليس لغاية احراز التقدم وبسط الدين بالقوة والاكراه، بل لاحياء الحق والدفاع عن أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد، وأما بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهود والتنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد ولا جدال، فالاشكال ناش عن عدم التدبر.

ويظهر مما تقدم أن الآية أعني قوله: لا إكراه في الدين غير منسوخة بآية السيف كما ذكره بعضهم.

ومن الشواهد على أن الآية غير منسوخة التعليل الذي فيها أعني قوله: قد تبين الرشد من الغي، فإن الناسخ ما لم ينسخ علة الحكم لم ينسخ نفس الحكم، فإن الحكم باق ببقاء سببه، ومعلوم أن تبين الرشد من الغي في أمر الاسلام امر غير قابل للارتفاع بمثل آية السيف، فإن

قوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم مثلاً، أو قوله: وقاتلوا في سبيل الله الآية لا يؤثران في ظهور حقية الدين شيئاً حتى ينسخا حكماً معلولاً لهذا الظهور.

وبعبارة اخرى الآية تعلل قوله: لا اكراه في الدين بظهور الحق، وهو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال وبعد نزوله، فهو ثابت على كل حال، فهو غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ الخ: الطاغوت هو الطغيان والتجاوز عن الحد ولا يخلو عن مبالغة في المعنى كالملكوت والجبروت، ويستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله كالاصنام والشياطين والجن وائمة الضلال من الانسان وكل متبوع لا يرضى الله سبحانه باتباعه، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والتثنية والجمع.

وإنما قدم الكفر على الايمان في قوله: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، ليوافق الترتيب الذي يناسبه الفعل الواقع في الجزاء أعني الاستمساك بالعروة الوثق، لان الاستمساك بشيء إنما يكون بترك كل شيء والأخذ بالعروة، فهناك ترك ثم أخذ، فقدم الكفر وهو ترك على الايمان وهو اخذ ليوافق ذلك، والاستمساك هو الاخذ والامساك بشدة، والعروة: ما يؤخذ به من الشيء كعروة الدلو وعروة الاناء، والعروة هي كل ما له أصل من النبات وما لا يسقط ورقه، وأصل الباب التعلق يقال: عراه واعتريه اي تعلق به.

والكلام أعني قوله: فقد استمسك بالعروة الوثق، موضوع على الاستعارة للدلالة على أن الايمان بالنسبة الى السعادة بمنزلة عروة الاناء بالنسبة الى الاناء وما فيه، فكما لا يكون الاخذ أخذاً مطمئناً حتى يقبض على العروة كذلك السعادة الحقيقية لا يستقر أمرها ولا يرجى نيلها إلا أن يؤمن الانسان بالله ويكفر بالطاغوت.

قوله تعالى: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الانفصام: الانقطاع والانكسار، والجملة في موضع الحال من العروة تؤكد معنى العروة الوثق، ثم عقبه بقوله: والله سميع عليم،

لكون الايمان والكفر متعلقاً بالقلب واللسان.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ قد مر شطر من الكلام في معنى إخراجه من النور الى الظلمات، وقد بينا هناك أن هذا الاخراج وما يشاكله من المعاني امور حقيقية غير مجازية خلافاً لما توهمه كثير من المفسرين وسائر الباحثين أنها معان مجازية يراد بها الاعمال الظاهرية من الحركات والسكنات البدنية، وما يترتب عليها من الغايات الحسنة والسيئة، فالنور مثلاً هو الاعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشك واضطراب القلب، والنور هو صالح العمل من حيث أن رشده بين، وأثره في السعادة جلي، كما ان النور الحقيقي على هذه الصفات. والظلمة هو الجهل في الاعتقاد والشبهة والريبة وطالح العمل، كل ذلك بالاستعارة. والاخراج من الظلمة الى النور الذي ينسب الى الله تعالى كالاخراج من النور الى الظلمات الذي ينسب الى الطاغوت نفس هذه الاعمال والعقائد، فليس وراء هذه الاعمال والعقائد، لا فعل من الله تعالى وغيره كالاخراج مثلاً ولا أثر لفعل الله تعالى وغيره كالنور والظلمة وغيرهما، هذا ما ذكره قوم من المفسرين والباحثين.

وذكر آخرون: ان الله يفعل فعلاً كالاخراج من الظلمات الى النور وإعطاء الحياة والسعة والرحمة وما يشاكلها ويترتب على فعله تعالى آثار كالنور والظلمة والروح والرحمة ونزول الملائكة، لا يناالها أفهامنا ولا يسعها مشاعرنا، غير أنا نؤمن بحسب ما أخبر به الله ـ وهو يقول الحق ـ بأن هذه الامور موجودة وأنها أفعال له تعالى وإن لم نحط بها خبراً، ولازم هذا القول أيضاً كالقول السابق أن يكون هذه الالفاظ أعني أمثال النور والظلمة والإخراج ونحوها مستعملة على المجاز بالاستعارة، وإنما الفرق بين القولين أن مصاديق النور والظلمة ونحوهما على القول الأول نفس أعمالنا وعقائدنا، وعلى القول الثاني امور خارجة عن اعمالنا وعقائدنا لا سبيل لنا الى فهمها، ولا طريق الى نيلها والوقوف عليها.

والقولان جميعاً خارجان عن صراط الاستقامة كالمفرِط والمفرَط، والحق في ذلك أن هذه الامور التي أخبر الله سبحانه بإيجادها وفعلها عند الطاعة والمعصية إنما هي امور حقيقية واقعية من غير تجوز غير أنها لا تفارق أعمالنا وعقائدنا بل هي لوازمها التي في باطنها، وقد مر الكلام في ذلك، وهذا لا ينافي كون قوله تعالى: يخرجهم من الظلمات الى النور، وقوله تعالى: يخرجونهم من النور الى الظلمات، كنايتين عن هداية الله سبحانه وإضلال الطاغوت، لما تقدم في بحث الكلام أن النزاع في مقامين: أحدهما كون النور والظلمة وما شابههما ذا حقيقة في هذه النشأة أو مجرد تشبيه لا حقيقة له، وثانيهما: أنه على تقدير تسليم أن لها حقائق وواقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلاً في الحقيقة التي هي حقيقة الهداية حقيقة أو مجاز؟ وعلى أي حال فالجملتان أعني: قوله تعالى: يخرجهم من الظلمات الى النور، وقوله تعالى: يخرجونهم من النور الى الظلمات، كنايتان عن الهداية والاضلال، وإلا لزم أن يكون لكل من المؤمن والكافر نور وظلمة معاً، فإن لازم إخراج المؤمن من الظلمة الى النور أن يكون قبل الايمان في ظلمة وبالعكس في الكافر، فعامة المؤمنين والكفار ـ وهم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفاراً فقط ـ اذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات الى النور، وإن كفروا خرجوا من النور الى الظلمات، فهم قبل ذلك في نور وظلمة معاً وهذا كما ترى.

لكن يمكن أن يقال: إن الانسان بحسب خلقته على نور الفطرة، هو نور إجمالي يقبل التفصيل، وأما بالنسبة الى المعارف الحقة والاعمال الصالحة تفصيلاً فهو في ظلمة بعد لعدم تبين أمره، والنور والظلمة بهذا المعنى لا يتنافيان ولا يمتنع اجتماعهما، والمؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمة الى نور المعارف والطاعات تفصيلاً، والكافر بكفره يخرج من نور الفطرة الى ظلمات الكفر والمعاصي التفصيلية، والاتيان بالنور مفرداً وبالظلمات جمعاً في قوله تعالى: يخرجهم من الظلمات الى النور، وقوله تعالى: يخرجونهم من النور الى

الظلمات، للاشارة الى ان الحق واحد لا اختلاف فيه كما ان الباطل متشتت مختلف لا وحدة فيه. قال تعالى: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم﴾ (الأنعام / ١٥٣).

٢٥٨ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٢٥٩ ● أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِأَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِأَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٢٦٠ ● وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، المحاجة إلقاء الحجة قبال الحجة لإثبات المدعي أو لإبطال ما يقابله، واصل الحجة هو القصد، غلب استعماله فيما يقصد به اثبات دعوى من الدعاوي، وقوله: في ربه متعلق بحاج، والضمير لابراهيم كما يشعر به قوله تعالى فيما بعد: قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت، وهذا الذي حاج ابراهيم عليه السلام في ربه هو الملك الذي كان يعاصره وهو نمرود من ملوك بابل على ما يذكره التاريخ والرواية.

وبالتأمل في سياق الآية، والذي جرى عليه الامر عند الناس ولا يزال يجري عليه يعلم معنى هذه المحاجة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، والموضوع الذي وقعت فيه محاجتهما[1].

قوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، ظاهر السياق: انه من قبيل قول القائل: أساء الى فلان لاني احسنت اليه يريد: ان احساني اليه كان يستدعي ان يحسن الي لكنه بدل الاحسان من الإساءة فأساء إلي، وقولهم: واتق شر من احسنت اليه، قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

فالجملة أعني قوله: ان آتيه الله الملك بتقدير لام التعليل وهي من قبيل وضع الشيء موضع ضده للشكوى والاستعداء ونحوه، فإن عدوان نمرود وطغيانه في هذه المحاجة كان ينبغي ان يعلل بضد انعام الله عليه بالملك، لكن لما لم يتحقق من الله في حقه الا الإحسان اليه وايتائه الملك فوضع في موضع العلة فدل على كفرانه لنعمة الله فهو بوجه كقوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ (القصص / ٨) فهذه نكتة في ذكر ايتائه

---

١. البقرة ٢٥٨ ـ ٢٦٠ بحث في: عبادة الاصنام؛ احتجاج ابراهيم عليه السلام مع نمرود.

الملك.

وهناك نكتة اخرى وهي: الدلالة على ردائة دعواه من رأس، وذلك انه انما كان يدعي هذه الدعوى لملك آتاه الله تعالى من غير ان يملكه لنفسه، فهو انما كان نمرود الملك ذا السلطة والسطوة بنعمة من ربه، وأما هو في نفسه فلم يكن الا واحداً من سواد الناس لا يعرف له وصف، ولا يشار اليه بنعت، ولهذا لم يذكر اسمه وعبر عنه بقوله: الذي حاج ابراهيم في ربه، دلالة على حقارة شخصه وخسة أمره.

واما نسبة ملكه الى ايتاء الله تعالى فقد مر في المباحث السابقة: انه لا محذور فيه، فإن الملك وهو نوع سلطنة منبسطة على الامة كسائر انواع السلطنة والقدرة نعمة من الله وفضل يؤتيه من يشاء، وقد أودع في فطرة الإنسان معرفته، والرغبة فيه، فإن وضعه في موضعه كان نعمة وسعادة، قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ (القصص / ٧٧)، وان عدا طوره وانحرف به عن الصراط كان في حقه نقمة وبواراً، قال تعالى: ﴿الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ (إبراهيم / ٢٨)، وقد مر بيان ان لكل شيء نسبة اليه تعالى على ما يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس من جهة الحسن الذي فيه دون جهة القبح والمسائة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، الحياة والموت وإن كانا يوجدان في غير جنس الحيوان ايضاً كالنبات، وقد صدقه القرآن كما مر بيانه في تفسير آية الكرسي، لكن مراده ﷺ منهما اما خصوص الحياة والممات الحيوانيين أو الاعم الشامل له لإطلاق اللفظ، والدليل على ذلك قول نمرود: أنا أُحيي وأُميت، فإن هذا الذي ادعاه لنفسه لم يكن من قبيل إحياء النبات بالحرث والغرس مثلاً، ولا احياء الحيوان بالسفاد والتوليد مثلاً، فإن ذلك وأشباهه كان لا يختص به بل يوجد في غيره من أفراد الانسان، وهذا يؤيد ما وردت به الروايات: انه أمر بإحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق احدهما وقتل الآخر، وقال

عند ذلك: أنا أُحيي وأُميت.

وانما أخذ عليه السلام في حجته الاحياء والاماتة لانهما أمران ليس للطبيعة الفاقدة للحياة فيهما صنع، وخاصة الحياة التي في الحيوان حيث تستتبع الشعود والارادة وهما أمران غير ماديين قطعاً، وكذا الموت المقابل لها، والحجة على ما فيها من السطوع والوضوح لم تنجح في حقهم، لان انحطاطهم في الفكر وخبطهم في التعقل كان فوق ما كان يظنه عليه السلام في حقهم، فلم يفهموا من الاحياء والاماتة إلا المعنى المجازي الشامل لمثل الاطلاق والقتل. فقال نمرود: انا أُحيي وأُميت وصدقه من حضره، ومن سياق هذه المحاجة يمكن أن يحدس المتأمل ما بلغ اليه الانحطاط الفكري يومئذ في المعارف والمعنويات، ولا ينافي ذلك الارتقاء الحضاري والتقدم المدني الذي يدل عليه الآثار والرسوم الباقية من بابل كلدة ومصر الفراعنة وغيرهما. فإن المدنية المادية أمر والتقدم في معنويات المعارف أمر آخر. وفي ارتقاء الدنيا الحاضرة في مدنيتها وانحطاطها في الاخلاق والمعارف المعنوية ما تسقط به هذه الشبهة.

ومن هنا يظهر: وجه عدم أخذه عليه السلام في حجته مسئلة احتياج العالم بأسره الى الصانع الفاطر للسموات والارض كما اخذ به في استبصار نفسه في بادي أمره على ما يحكيه الله عنه بقوله: ﴿اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام / ٧٩)، فإن القوم على اعترافهم بذلك بفطرتهم اجمالاً كانوا أنزل سطحاً من ان يعقلوه على ما ينبغي ان يعقل عليه بحيث ينجع احتجاجه ويتضح مراده عليه السلام، وناهيك في ذلك ما فهموه من قوله: ربي الذي يحيي ويميت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، أي فأنا ربك الذي وصفته بأنه يحيي ويميت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، لما ايس عليه السلام من مضي احتجاجه بأن ربه الذي يحيي ويميت، لسوء فهم الخصم وتمويهه وتلبيسه الامر على من حضر عندهما عدل عن بيان ما هو مراده من الاحياء

والاماتة الى حجة أُخرى، إلا انه بنى هذه الحجة الثانية على دعوى الخصم في الحجة الاولى كما يدل عليه التفريع بالفاء في قوله: فإن الله، الخ؛ والمعنى: إن كان الامر كما تقول: انك ربي ومن شأن الرب ان يتصرف في تدبير امر هذا النظام الكوني فالله سبحانه يتصرف في الشمس بإتيانها من المشرق فتصرف انت بإتيانها من المغرب حتى يتضح انك رب كما ان الله رب كل شيء أو انك الرب فوق الارباب فبهت الذي كفر، وانما فرّع الحجة على ما تقدمها لئلا يظن ان الحجة الاولى تمت لنمرود وانتجت ما ادعاه، ولذلك ايضاً قال: فإن الله ولم يقل: فإن ربي لأن الخصم استفاد من قوله: ربي سوناً وطبقه على نفسه بالمغالطة فأتى عليه السلام ثانياً بلفظة الجلالة ليكون مصوناً عن مثل التطبيق السابق! وقد مر بيان ان نمرود ما كان يسعه ان يتفوه في مقابل هذه الحجة بشيء دون ان يبهت فيسكت.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ظاهر السياق انه تعليل لقوله فبهت الذي كفر فبهته هو عدم هداية الله سبحانه إياه لا كفره، وبعبارة اخرى معناه ان الله لم يهده فبهت لذلك ولو هداه لغلب على ابراهيم في الحجة لا انه لم يهده فكفر لذلك وذلك لان العناية في المقام متوجهة الى محاجته ابراهيم عليه السلام لا الى كفره وهو ظاهر.

ومن هنا يظهر: ان في الوصف إشعاراً بالعلية أعني: ان السبب لعدم هداية الله الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلك في سائر موارد هذه الجملة من كلامه تعالى كقوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (الصف / ٧)، وقوله: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الجمعة / ٥)، ونظير الظلم الفسق في قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (الصف / ٥).

وبالجملة الظلم وهو الانحراف عن صراط العدل والعدول عما ينبغي من العمل الى غير ما ينبغي موجب لعدم الاهتداء الى الغاية المقصودة، ومؤد الى الخيبة والخسران بالاخرة، وهذه

من الحقائق الناصعة التي ذكرها القرآن الشريف وأكد القول فيها في آيات كثيرة[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، الخاوية هي الخالية يقال: خوت الدار تخوي خوائاً اذا خلت، والعروش جمع العرش وهو ما يعمل مثل السقف للكرم قائماً على أعمدة، قال تعالى: ﴿جنات معروشات وغير معروشات﴾ (الأنعام / ١٤١)، ومن هنا أُطلق على سقف البيت العرش، لكن بينهما فرقاً، فإن السقف هو ما يقوم من السطح على الجدران والعرش هو السقف مع الاركان التي يعتمد عليها كهيئة عرش الكرم، ولذا صح أن يقال في الديار أنها خالية على عروشها ولا يصح أن يقال: خالية على سقفها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ﴾، أي أنى يحيي الله أهل هذه القرية ففيه مجاز كما في قوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ (يوسف / ٨٢).

وإنما قال هذا القول استعظاماً للأمر ولقدرة الله سبحانه من غير استبعاد يؤدي الى الانكار أو ينشأ منه، والدليل على ذلك قوله على ما حكى الله تعالى عنه في آخر القصة: أعلم أن الله على كل شيء قدير ولم يقل: الآن كما في ما يماثله من قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿الآن حصحص الحق﴾ (يوسف / ٥١)، وسيجيء توضيحه قريباً.

على أن الرجل نبي مكلم وآية مبعوثة الى الناس والانبياء معصومون حاشاهم عن الشك والارتياب في البعث الذي هو أحد اصول الدين.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، ظاهره توفيه بقبض روحه وإبقائه على هذا الحال مأة عام ثم إحيائه برد روحه إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ

---

١. البقرة ٢٥٨ ـ ٢٦٠ كلام في الاحسان وهدايته والظلم واضلاله.

عام ﴾، اللبث هو المكث وترديد الجواب بين اليوم وبعض اليوم يدل على اختلاف وقت إماتته وإحيائه كأوائل النهار وأواخره، فحسب الموت والحياة نوماً وانتباهاً، ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردد في تخلل الليلة بين الوقتين وعدم تخللها فقال يوماً (لو تخللت الليلة) أو بعض يوم (لو لم تتخلل) قال: بل لبثت مأة عام.

قوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ـ الى قوله ـ لَحْماً ﴾، سياق هذه الجمل في أمره عجيب فقد كرر فيها قوله: انظر ثلاث مرات وكان الظاهر أن يكتفي بواحد منها، وذكر فيها أمر الطعام والشراب والحمار والظاهر السابق الى الذهن أنه لم يكن الى ذكرها حاجة، وجيء بقوله: ولنجعلك متخللاً في الكلام وكان الظاهر أن يتأخر عن جملة: وانظر الى العظام، على ان بيانه ما استعظمه هذا المار بالقرية ـ وهو احياء الموتى بعد طول المدة وعروض كل تغير عليها ـ قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لان يؤمر ثانياً بالنظر الى العظام؟ لكن التدبر في أطراف الآية الشريفة يوضح خصوصيات القصة إيضاحاً ينحل به العقدة وتنجلي الشبهة المذكورة[1].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، رجوع منه بعد التبين الى علمه الذي كان معه قبل التبين، كأنه عليه السلام لما خطر بباله الخاطر الذي ذكره بقوله: أنى يحيي هذه الله أقنع نفسه بما عنده من العلم بالقدرة المطلقة ثم لما بين الله له الامر بيان إشهاد وعيان رجع الى نفسه وصدق ما اعتمد عليه من العلم، وقال لم تزل تنصح لي ولا تخونني في هدايتك وتقويمك وليس ما لا تزال نفسي تعتمد عليه من كون القدرة مطلقة جهلاً، بل علم يليق بالاعتماد عليه.

وهذا أمر كثير النظائر فكثيراً ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله ويهجس في نفسه

---

١. البقرة ٢٥٨ ـ ٢٦٠ قصة حول احياء الموتى.

خاطر ينافيه ، لا للشك وبطلان العلم ، بل لاسباب وعوامل اخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهة ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا وليس كذا كذا فيقر بذلك علمه ويطيب نفسه !

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، قد مر أنه معطوف على مقدر والتقدير : واذكر اذ قال ، الخ ؛ وهو العامل في الظرف ، وقد احتمل بعضهم ان يكون عامل الظرف هو قوله : قال أولم تؤمن ، وترتيب الكلام : أولم تؤمن اذ قال إبراهيم رب أرني ، الخ ؛ وليس بشيء .

وفي قوله : ارني كيف تحيي الموتى ، دلالة :

أولاً على انه عليه السلام إنما سأل الرؤية دون البيان الاستدلالي ، فإن الانبياء وخاصة مثل النبي الجليل إبراهيم الخليل ارفع قدراً من ان يعتقد البعث ولا حجة له عليه ، والاعتقاد النظري من غير حجة عليه إما اعتقاد تقليدي أو ناش عن اختلال فكري وشيء منهما لا ينطبق على ابراهيم عليه السلام ، على انه عليه السلام إنما سأل ما سأل بلفظ كيف ، وانما يستفهم بكيف عن خصوصية وجود الشيء لا عن اصل وجوده فإنك اذا قلت : أرأيت زيداً كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤية ، واذا قلت : كيف رأيت زيداً كان أصل الرؤية مفروغاً عنه وانما السؤال عن خصوصيات الرؤية ، فظهر انه عليه السلام انما سأل البيان بالإرائة والاشهاد لا بالاحتجاج والاستدلال .

وثانياً : على ان ابراهيم عليه السلام إنما سأل أن يشاهد كيفية الاحياء لا أصل الاحياء كما أنه ظاهر قوله : ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، وهذا السؤال متصور على وجهين :

الوجه الاول : أن يكون سؤالاً عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة ، وتجمعها بعد التفرق والتبدد ، وتصورها بصورة الحي ، ويرجع محصله الى تعلق القدرة بالاحياء بعد الموت والفناء .

والوجه الثاني : أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الاموات وفعله بأجزائها الذي به

تلبس الحياة، ويرجع محصله الى السؤال عن السبب وكيفية تأثيره، وهذا بوجه هو الذي يسميه الله سبحانه بملكوت الاشياء في قوله عز من قائل ﴿ انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ (يس / ٨٣).

وانما سأل ابراهيم عليه السلام عن الكيفية بالمعنى الثاني دون المعنى الاول: أما أولاً: فلأنه قال: كيف تحيي الموتى، بضم التاء من الاحياء فسأل عن كيفية الاحياء الذي هو فعل ناعت لله تعالى وهو سبب حياة الحي بأمره، ولم يقل: كيف تحيي الموتى، بفتح التاء من الحياة حتى يكون سؤالاً عن كيفية تجمع الاجزاء وعودها الى صورتها الاولى وقبولها الحياة، ولو كان السؤال عن الكيفية بالمعنى الثاني لكان من الواجب أن يرد على الصورة الثانية. واما ثانياً: فلأنه لو كان سؤاله عن كيفية قبول الاجزاء للحياة لم يكن لاجراء الامر بيد ابراهيم وجه، ولكفى في ذلك أن يريد الله احياء شيء من الحيوان بعد موته، واما ثالثاً: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: واعلم ان الله على كل شيء قدير لا بقوله: واعلم ان الله عزيز حكيم، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزة والحكمة فإن العزة والحكمة ـ وهما وجدان الذات كل ما تفقده وتستحقه الاشياء واحكامه في امره ـ انما ترتبطان بإفاضة الحياة لا استفاضة المادة لها فافهم ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿ قال أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلىٰ وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾، بلى كلمة يرد به النفي ولذلك ينقلب به النفي إثباتاً كقوله تعالى ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ (الأعراف / ١٧٢) ولو قالوا نعم لكان كفراً، والطمأنينة والاطمينان سكون النفس بعد انزعاجها واضطرابها، وهو مأخوذ من قولهم: اطمأنت الارض وارض مطمئنة اذا كانت فيه انخفاض يستقر فيها

---

١. البقرة ٢٥٨ ـ ٢٦٠ بحث حول قصة ابراهيم عليه السلام في طلبه احياء الموتى.

الماء اذا سال اليها والحجر اذا هبط اليها.

وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، ولم يقل: ألم تؤمن للاشعار بأن للسؤال والطلب محلاً لكنه لا ينبغي ان يقارن عدم الايمان بالاحياء؛ ولو قيل: ألم تؤمن دل على ان المتكلم تلقى السؤال منبعثاً عن عدم الايمان، فكان عتاباً وردعاً عن مثل هذا السؤال، وذلك ان الواو للجميع، فكان الاستفهام معه استفهاماً عن ان هذا السؤال هل يقارنه عدم الايمان، لا استفهاماً عن وجه السؤال حتى ينتج عتاباً وردعاً.

والايمان مطلق في كلامه تعالى، وفيه دلالة على ان الايمان بالله سبحانه لا يتحقق مع الشك في أمر الاحياء والبعث، ولا ينافي ذلك اختصاص المورد بالاحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ ولا تقييد إطلاقه.

وكذا قوله تعالى حكاية عنه ﷺ: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، مطلق يدل على كون مطلوبه ﷺ من هذا السؤال حصول الاطمينان المطلق وقطع منابت كل خطور قلبي واعراقه، فإن الوهم في إدراكاتها الجزئية واحكامها لما كانت معتكفة على باب الحس وكان جل أحكامها وتصديقاتها في المدركات التي تتلقاها من طريق الحواس فهي تنقبض عن مطاوعة ما صدقه العقل، وإن كانت النفس مؤمنة موقنة به، كما في الاحكام الكلية العقلية الحقة من الامور الخارجة عن المادة الغائبة عن الحس فإنها تستنكف عن قبولها وان سلمت مقدماتها المنتجة لها، فتخطر بالبال أحكاماً مناقضة لها، ثم تثير الاحوال النفسانية المناسبة لاستنكافها فتقوى وتتأيد بذلك في تأثيرها المخالف، وان كانت النفس من جهة عقلها موقنة بالحكم مؤمنة بالأمر فلا تضرها إلا أذى، كما ان من بات في دار مظلمة فيها جسد ميت فإنه يعلم: ان الميت جماد من غير شعور وإرادة فلا يضر شيئاً، لكن الوهم تستنكف عن هذه النتيجة وتستدعي من المتخيلة ان تصور للنفس صوراً هائلة موحشة من أمر الميت ثم تهيج صفة الخوف فتتسلط على النفس، وربما بلغ الى حيث يزول العقل أو تفارق النفس.

فقد ظهر: أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائماً، غير أنها تؤذي النفس، وتسلب السكون والقرار منها، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهدة، ولذلك قيل: إن للمعاينة أثراً لا يوجد مع العلم، وقد أخبر الله تعالى موسى في الميقات بضلال قومه بعبادة العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى اذا جاءهم وشاهدهم وعاين أمرهم غضب وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه.

وقد ظهر من هنا ومما مر سابقاً أن ابراهيم عليه السلام ما كان يسأل المشاهدة بالحس الذي يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياة بعد فقدها، بل انما كان يسأل مشاهدة فعل الله سبحانه وأمره في إحياء الموتى، وليس ذلك بمحسوس وان كان لا ينفك عن الامر المحسوس الذي هو قبول الاجزاء المادية للحياة بالاجتماع والتصور بصورة الحي، فهو عليه السلام انما كان يسأل حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾، صرهن بضم الصاد على إحدى القرائتين من صار يصور اذا قطع أو امال، أو بكسر الصاد على القرائة الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين، وقرائن الكلام يدل على إرادة معنى القطع، وتعديته بإلى تدل على تضمين معنى الإمالة. فالمعنى: اقطعهن مميلاً اليك أو أملهن قاطعاً إياهن على الخلاف في التضمين من حيث التقدير.

وكيف كان فقوله تعالى: ﴿خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾، الخ؛ جواب عن ما سأله ابراهيم عليه السلام بقوله: رب أرني كيف تحيي الموتى، ومن المعلوم وجوب مطابقة الجواب للسؤال، فبلاغة الكلام وحكمة المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائدة عائدة الى الغرض المقصود من الكلام وخاصة القرآن الذي هو خير كلام القاه خير متكلم الى خير سامع واع، وليست القصة على تلك البساطة التي تتراءى منها في بادي

النظر . ولو كان كذلك لتم الجواب بإحياء ميت ما كيف كان ، ولكان الزائد على ذلك لغواً مستغنى عنه وليس كذلك . ولقد أُخذ فيها قيود وخصوصيات زائدة على أصل المعنى . فاعتبر في ما أُريد إحيائه أن يكون طيراً ، وان يكون حياً ، وان يكون ذا عدد أربعة . وان يقتل ويخلط ويمزج أجزائها ، وان يفرق الاجزاء المختلطة أبعاضاً ثم يوضع كل بعض في مكان بعيد من الآخر كقلة هذا الجبل وذاك الجبل ، وأن يكون الإحياء بيد ابراهيم عليه السلام (نفس السائل) بدعوته إياهن ، وان يجتمع الجميع عنده .

فهذه كما ترى خصوصيات زائدة في القصة ، هي لا محالة دخيلة في المعنى المقصود افادته ، وقد ذكروا لها وجوهاً من النكات لا تزيد الباحث الا عجباً (يعلم صحة ما ذكرناه بالرجوع الى مفصلات التفاسير) .

وكيف كان فهذه الخصوصيات لابد ان تكون مرتبطة بالسؤال ، والذي يوجد في السؤال - وهو قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ - أمران .

أحدهما : ما اشتمل عليه قوله : تحيي وهو ان المسؤل مشاهدة الإحياء من حيث انه وصف لله سبحانه لا من حيث انه وصف لأجزاء المادة الحاملة للحياة .

وثانيهما : ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصية زائدة .

أما الاول : فيرتبط به في الجواب إجزاء هذا الامر بيد ابراهيم نفسه حيث يقول : فخذ . فصرهن ، ثم اجعل ، بصيغة الامر ويقول ثم ادعهن يأتينك ، فإنه تعالى جعل إتيانهن سعياً وهو الحياة مرتبطاً متفرعاً على الدعوة ، فهذه الدعوة هي السبب الذي يفيض عنه حياة ما أُريد إحيائه ، ولا إحياء إلا بأمر الله . فدعوة ابراهيم إياهن بأمر الله ، قد كانت متصلة نحو اتصال بأمر الله الذي منه تترشح حياة الاحياء ، وعند ذلك شاهده ابراهيم ورأى كيفية فيضان الامر بالحياة ، ولو كانت دعوة ابراهيم إياهن غير متصلة بأمر الله الذي هو ان يقول لشيء أراده : كن فيكون ، كمثل أقوالنا غير المتصلة إلا بالتخيل كان هو أيضاً كمثلنا اذ قلنا لشيء كن فلا

يكون، فلا تأثير جزافي في الوجود.

واما الثاني: فقوله كيف تحيي الموتى تدل على ان لكثرة الاموات وتعددها دخلاً في السؤال، وليس إلا ان الاجساد بموتها وتبدد أجزائها وتغير صورها وتحول أحوالها تفقد حالة التميز والارتباط الذي بينها فتضل في ظلمة الفناء والبوار، وتصير كالاحاديث المنسية لا خبر عنها في خارج ولا ذهن فكيف تحيط بها القوة المحيية ولا محاط في الواقع.

وهذا هو الذي أورده فرعون على موسى عليه السلام وأجاب عنه موسى بالعلم كما حكاه الله تعالى بقوله ﴿قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ (طه / ٥١).

وبالجملة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعة من الطير (ولعل اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل وأقل زماناً) فيشاهد حياتها ويرى اختلاف اشخاصها وصورها، ويعرفها معرفة تامة أولاً، ثم يقتلها ويخلط أجزائها خلطاً دقيقاً ثم يجعل ذلك ابعاضاً، وكل بعض منها على جبل لتفقد التميز والتشخص، وتزول المعرفة، ثم يدعوهن يأتينه سعياً، فإنه يشاهد حينئذ ان التميز والتصور بصورة الحياة كل ذلك تابع للدعوة التي تتعلق بأنفسها، أي إن أجسادها تابعة لانفسها لا بالعكس، فإن البدن فرع تابع للروح لا بالعكس، بل نسبة البدن الى الروح بوجه نسبة الظل الى الشاخص، فاذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظل والى أي حال تحول الشاخص أو أجزائه تبعه فيه الظل حتى اذا انعدم تبعه في الانعدام، والله سبحانه اذا أوجد حياً من الاحياء، أو أعاد الحياة الى أجزاء مسبوقة بالحياة فإنما يتعلق إيجاده بالروح الواجدة للحياة أولاً ثم يتبعه أجزاء المادة بروابط محفوظة عند الله سبحانه لا تحيط بها علماً فيتعين الجسد بتعين الروح من غير فصل ولا مانع وبذلك يشعر قوله تعالى: ثم ادعهن يأتينك سعياً أي مسرعات مستعجلات.

وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد

بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (السجدة / ١١)، وقد مر بعض الكلام في الآية في البحث عن تجرد النفس، وسيأتي تفصيل الكلام في محله إنشاء الله.

فقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ انما امر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعادة الحياة اليها ولا ينكرها، وليرى ما هي عليه من الاختلاف والتميز أولاً وزوالهما ثانياً، وقوله: فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً أي اذبحهن وبدد أجزائهن واخلطها ثم فرقها على الجبال الموجودة هناك لتتباعد الاجزاء وهي غير متميزة، وهذا من الشواهد على ان القصة انما وقعت بعد مهاجرة ابراهيم من أرض بابل الى سورة فإن أرض بابل لا جبل بها، وقوله ثم ادعهن، أي ادع الطيور يا طاووس ويا فلان ويا فلان، ويمكن ان يستفاد ذلك مضافاً الى دلالة ضمير «هن» الراجعة الى الطيور من قوله: ادعهن، فإن الدعوة لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الانسب ان يقال: ثم نادهن فإنها كانت على جبال بعيدة عن موقفه عليه السلام واللفظ المستعمل في البعيد خاصة هو النداء دون الدعاء، وقوله: يأتينك سعياً، أي يتجسدن واتصفن بالاتيان والاسراع اليك.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي عزيز لا يفقد شيئاً بزواله عنه، حكيم لا يفعل شيئاً الا من طريقه اللائق به، فيوجد الاجساد بإحضار الأرواح وايجادها دون العكس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ﴾ الخ؛ دون ان يقال ان الله، الخ؛ دلالة على أن الخطور القلبي الذي كان ابراهيم يسأل ربه المشاهدة ليطمئن قلبه من ناحيته كان راجعاً الى حقيقة معنى الاسمين: العزيز الحكيم، فأفاده الله سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما[1].

---

١. البقرة ٢٥٩ ـ ٢٦٠ بحث روائي في محاجة نمرود مع ابراهيم، طلب ابراهيم عليه السلام لمشاهده احياء الموتى.

٢٦١ ● مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِأَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

٢٦٢ ● الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٢٦٣ ● قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.

٢٦٤ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

٢٦٥ ● وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٢٦٦ ● أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ

ذُرِّيَّةً ضُعَفَاءَ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.

٢٦٧ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

٢٦٨ ● الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

٢٦٩ ● يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ.

٢٧٠ ● وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

٢٧١ ● إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

٢٧٢ ● لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

٢٧٣ ● لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا

فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ.

٢٧٤ ● الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

بيان[1]:

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ الخ: المراد بسبيل الله كل أمر ينتهي الى مرضاته سبحانه لغرض ديني فعل الفعل لأجله، فإن الكلمة في الآية مطلقة، وان كانت الآية مسبوقة بآيات ذكر فيها القتال في سبيل الله، وكانت كلمة، في سبيل الله، مقارنة للجهاد في غير واحد من الآيات، فإن ذلك لا يوجب التخصيص وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِأَةُ حَبَّةٍ﴾، السنبل معروف وهو على فنعل، قيل الأصل في معنى مادته الستر سمي به لانه يستر الحبات التي تشتمل عليها في الأغلفة.

ومن اسخف الإشكال ما أُورد على الآية أنه تمثيل بما لا تحقق له في الخارج وهو اشتمال السنبلة على مأة حبة، وفيه أن المثل كما عرفت لا يشترط فيه تحقق مضمونه في الخارج فالامثال التخيلية اكثر من ان تعد وتحصى، على ان اشتمال السنبلة على مأة حبة وإنبات الحبة الواحدة سبعمأة حبة ليس بعزيز الوجود.

---

١. البقرة ٢٦١ ـ ٢٧٤: كلام في الانفاق.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي يزيد على سبعمأة لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده ولا محدد لفضله كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة﴾ (البقرة / ٢٤٥). فأطلق الكثرة ولم يقيدها بعدد معين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذىً﴾ الخ؛ الاتباع اللحوق والالحاق، قال تعالى: ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ (الشعراء / ٦٠) أي لحقوهم، وقال تعالى: ﴿فأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ (القصص / ٤٢)، أي ألحقناهم. والمن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول المنعم للمنعم عليه: أنعمت عليك بكذا وكذا ونحو ذلك. والاصل في معناه على ما قيل القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ (فصلت / ٨)، أي غير مقطوع. والاذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير، والخوف توقع الضرر، والحزن الغم الذي يغلظ على النفس من مكروه واقع أو كالواقع.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ﴾ الخ؛ المعروف من القول ما لا ينكره الناس بحسب العادة، ويختلف باختلاف الموارد، والاصل في معنى المغفرة هو الستر. والغنى مقابل الحاجة والفقر، والحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل.

وترجيح القول المعروف والمغفرة على صدقة يتبعها أذى ثم المقابلة يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند رد السائل اذا لم يتكلم بما يسوء المسؤول عنه، والستر والصفح اذا شفع سؤاله بما يسوئه وهما خير من صدقة يتبعها أذى، فإن أذى المنفِق للمنفَق عليه يدل على عظم إنفاقه والمال الذي أنفقه في عينه، وتأثره عما يسوئه من السؤال، وهما علتان يجب أن تزاحا عن نفس المؤمن، فإن المؤمن متخلق بأخلاق الله، والله سبحانه غني لا يكبر عنده ما أنعم وجاد به، حليم لا يتعجل في المؤاخذة على السيئة، ولا يغضب عند كل جهالة، وهذا معنى ختم الآية بقوله: والله غني حليم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ الخ؛ تدل الآية على حبط الصدقة بلحوق المن والأذى، وربما يستدل بها على حبط كل معصية أو الكبيرة خاصة لما يسبقها من الطاعات، ولا دلالة في الآية على غير المن والأذى بالنسبة الى الصدقة وقد تقدم إشباع الكلام في الحبط.

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، لما كان الخطاب للمؤمنين، والمرائي غير مؤمن كما ذكره الله سبحانه لانه لا يقصد بأعماله وجه الله لم يعلق النهي بالرئاء كما علقه على المن والأذى، بل انما شبّه المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى بالمرائي في بطلان الصدقة، مع أن عمل المرائي باطل من رأس وعمل المانّ والمؤذي وقع أولاً صحيحاً ثم عرضه البطلان.

واتحاد سياق الافعال في قوله: ينفق ماله، وقوله: ولا يؤمن من دون أن يقال: ولم يؤمن يدل على أن المراد من عدم ايمان المرائي في الإنفاق بالله واليوم الآخر عدم ايمانه بدعوة الانفاق الذي يدعو اليها الله سبحانه، ويعد عليه جزيل الثواب، اذ لو كان يؤمن بالداعي في دعوته هذه، وبيوم القيامة الظاهر فيه الجزاء لقصد في فعله وجه الله، وأحب واختار جزيل الثواب، ولم يقصد به رئاء الناس، فليس المراد من عدم ايمان المرائي عدم ايمانه بالله سبحانه رأساً.

ويظهر من الآية: ان الرياء في عمل يستلزم عدم الايمان بالله واليوم الآخر فيه.

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الى آخر الآية؛ الضمير في قوله: فمثله راجع الى الذي ينفق ماله رئاء الناس والمثل له، والصفوان والصفا الحجر الأملس وكذا الصلد، والوابل: المطر الغزير الشديد الوقع.

والضمير في قوله: لا يقدرون راجع الى الذي ينفق رئاءً لأنه في معنى الجمع، والجملة تبين وجه الشبه وهو الجامع بين المشبه والمشبه به، وقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم

الكافرين ﴾ بيان للحكم بوجه عام وهو ان المرائي في رياءه من مصاديق الكافر، والله لا يهدي القوم الكافرين، ولذلك أفاد معنى التعليل.

وخلاصة معنى المثل: أن حال المرائي في إنفاقه رئاءً وفي ترتب الثواب عليه كحال الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب اذا أنزل عليه وابل المطر، فإن المطر وخاصة وابله هو السبب البارز لحياة الأرض واخضرارها وتزينها بزينة النبات، إلا أن التراب اذا وقع على الصفوان الصلد لا يستقر في مكانه عند نزول الوابل بل يغسله الوابل ويبقى الصلد الذي لا يجذب الماء، ولا يتربى فيه بذر لنبات، فالوابل وإن كان من أظهر أسباب الحياة والنمو وكذا التراب لكن كون المحل صلداً يبطل عمل هذين السببين من غير أن يكون النقص والقصور من جانبهما فهذا حال الصلد.

وهذا حال المرائي فإنه لما لم يقصد من عمله وجه الله لم يترتب على عمله ثواب وإن كان العمل كالانفاق في سبيل الله من الاسباب البارزة لترتب الثواب، فإنه مسلوب الاستعداد لا يقبل قلبه الرحمة والكرامة.

وقد ظهر من الآية: أن قبول العمل يحتاج الى نية الاخلاص وقصد وجه الله، وقد روى الفريقان عن النبي ﷺ: أنه قال: إنما الاعمال بالنيات.

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾، ابتغاء المرضات هو طلب الرضاء، ويعود الى ارادة وجه الله، فإن وجه الشيء هو ما يواجهك ويستقبلك به، ووجهه تعالى بالنسبة الى عبده الذي امره بشيء واراده منه هو رضائه عن فعله وامتثاله، فإن الآمر يستقبل المأمور اولاً بالامر فاذا امتثل استقبله بالرضاء عنه، فمرضات الله عن العبد المكلف بتكليف هو وجهه اليه، فابتغاء مرضاة الله هو ارادة وجهه عز وجل.

واما قوله: ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ فقد قيل: إن المراد التصديق واليقين. وقيل: هو

التثبت اي يتثبتون اين يضعون اموالهم، وقيل: هو التثبت في الانفاق فإن كان لله امضى، وان كان خالطه شيء من الرياء امسك. وقيل: التثبيت توطين النفس على طاعة الله تعالى. وقيل: هو تمكين الله. وانت خبير بأن شيئاً من الاقوال لا ينطبق على الآية إلا بتكلف.

والذي ينبغي ان يقال ـ والله العالم ـ في المقام: هو ان الله سبحانه لما اطلق القول اولاً في مدح الانفاق في سبيل الله، وان له عند الله عظيم الاجر اعترضه ان استثنى منه نوعين من الانفاق لا يرتضيهما الله سبحانه، ولا يترتب عليهما الثواب، وهما الانفاق رياناً الموجب لعدم صحة العمل من رأس والانفاق الذي يتبعه منٌّ أو أذى فإنه يبطل بهما وان انعقد اولا صحيحاً، وليس يعرض البطلان. لهذين النوعين الا من جهة عدم ابتغاء مرضاة الله فيه من رأس، أو لزوال النفس عن هذه النية اعني ابتغاء المرضاة ثانياً بعد ما كانت عليها اولاً. فأراد في هذه الآية بيان حال الخاصة من أهل الانفاق الخالصة بعد استثناء المرائين واهل المن والاذى، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله ثم يقرون انفسهم على الثبات على هذه النية الطاهرة النامية من غير ان يتبعوها بما يبطل العمل ويفسده.

ومن هنا يظهر ان المراد بابتغاء مرضاة الله ان لا يقصد بالعمل رئاء ونحوه مما يجعل النية غير خالصة لوجه الله. وبقوله تثبيتاً من انفسهم تثبيت الانسان نفسه على ما نواه من النية الخالصة، وهو تثبيت ناش من النفس واقع على النفس. فقوله تثبيتاً تميز وكلمة من نشوية وقوله انفسهم في معنى الفاعل، وما في معنى المفعول مقدر. والتقدير تثبيتاً من انفسهم لانفسهم، أو مفعول مطلق لفعل من مادته.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ الى آخر الآية؛ الاصل في مادة ربا الزيادة، والربوة بالحركات الثلاث في الراء الارض الجيدة التي تزيد وتعلو في نموها. والاكل بضمتين ما يؤكل من الشيء والواحدة أُكلة. والطل اضعف المطر القليل الأثر.

والغرض من المثل ان الانفاق الذي أُريد به وجه الله لا يتخلف عن اثرها الحسن البتة، فإن

العناية الالهية واقعة عليه متعلقة به لانحفاظ اتصاله بالله سبحانه وان كانت مراتب العناية مختلفة لاختلاف درجات النية في الخلوص، واختلاف وزن الاعمال باختلافها، كما ان الجنة التي في الربوة اذا أصابها المطر لم تلبث دون ان تؤتي أُكلها ايتاناً جيداً البتة وإن كان إيتائها مختلفاً في الجودة باختلاف المطر النازل عليه من وابل وطل.

ولوجود هذا الاختلاف ذيل الكلام بقوله: والله بما تعملون بصير أي لا يشتبه عليه امر الثواب، ولا يختلط عليه ثواب الاعمال المختلفة فيعطي ثواب هذا لذاك وثواب ذاك لهذا.

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الخ: الود هو الحب وفيه معنى التمني، والجنة: الشجر الكثير الملتف كالبستان سميت بذلك لانها تجن الارض وتسترها وتقيها من ضوء الشمس ونحوه، ولذلك صح ان يقال: تجري من تحتها الانهار، ولو كانت هي الارض بما لها من الشجر مثلاً لم يصح ذلك لافادته خلاف المقصود، ولذلك قال تعالى في مثل الربوة وهي الارض المعمورة: ﴿ربوة ذات قرار ومعين﴾ (المؤمنون / ٥٠)، وكرر في كلامه قوله: جنات تجري من تحتها الانهار فجعل المعين (وهو الماء) فيها لا جارياً تحتها.

ومن في قوله: من نخيل وأعناب للتبيين ويفيد معنى الغبة دون الاستيعاب، فإن الجنة والبستان وما هو من هذا القبيل إنما يضاف الى الجنس الغالب فيقال جنة العنب أو جنة من أعناب اذا كان الغالب فيها الكرم وهي لا تخلو مع ذلك من شجر شتى، ولذلك قال تعالى ثانياً: له فيها من كل الثمرات.

والكبر كبر السن وهو الشيخوخة، والذرية الاولاد، والضعفاء جمع الضعيف، وقد جمع تعالى في المثل بين إصابة الكبر ووجود الذرية الضعفاء لتثبيت مسيس الحاجة القطعية الى الجنة المذكورة مع فقدان باقي الاسباب التي يتوصل اليها في حفظ سعادة الحياة وتأمين المعيشة، فإن صاحب الجنة لو فرض شاباً قوياً لأمكنه ان يستريح الى قوة يمينه لو أُصيبت

جنته بمصيبة، ولو فرض شيخاً هرماً من غير ذرية ضعفاء لم يسؤ حاله تلك المسائة لانه لا يرى لنفسه إلا أياماً قلائل لا يبطيء عليه زوالها وانقضائها، ولو فرض ذاكبر وله اولاد أقوياء يقدرون على العمل واكتساب المعيشة امكنهم ان يقتاتوا بما يكتسبونه، وان يستغنوا عنها بوجه! لكن اذا اجتمع هناك الكبر والذرية الضعفاء، واحترقت الجنة انقطعت الاسباب عنهم عند ذلك، فلا صاحب الجنة يمكنه ان يعيد لنفسه الشباب والقوة أو الايام الخالية حتى يحيىء لنفسه نظير ما كان قد هيأها، ولا لذريته قوة على ذلك، ولا لهم رجاء ان ترجع الجنة بعد الاحتراق الى ما كانت عليه من النضارة والاثمار.

والاعصار الغبار الذي يلتف على نفسه بين السماء والارض كما يلتف الثوب على نفسه عند العصر.

وهذا مثل ضربه الله للذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونه منا وأذى فيحبط عملهم ولا سبيل لهم الى إعادة العمل الباطل الى حال صحته واستقامته، وانطباق المثل على الممثل ظاهر، ورجا منهم التفكر لان امثال هذه الأفاعيل المفسدة للأعمال انما تصدر من الناس ومعهم حالات نفسانية كحب المال والجاه والكبر والعجب والشح، لا تدع للانسان مجال التثبت والتفكر وتميز النافع من الضار، ولو تفكروا لتبصروا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الخ: التيمم هو القصد والتعمد، والخبيث ضد الطيب، وقوله: منه، متعلق بالخبيث، وقوله: تنفقون حال من فاعل لا تيمموا، قوله: ولستم بآخذيه حال من فاعل تنفقون، وعامله الفعل، وقوله ان تغمضوا فيه في تأويل المصدر، واللام مقدر على ما قيل والتقدير إلا لاغماضكم فيه. أو المقدر باء المصاحبة والتقدير إلا بمصاحبة الاغماض.

ومعنى الآية ظاهر، وإنما بين تعالى كيفية مال الانفاق، وانه ينبغي ان يكون من طيّب المال لا من خبيثه الذي لا يأخذه المنفق إلا بإغماض، فإنه لا يتصف بوصف الجود والسخاء، بل

يتصور بصورة التخلص، فلا يفيد حباً للصنيعة والمعروف ولا كمالاً للنفس، ولذلك ختمها بقوله: واعلموا ان الله غني حميد أي راقبوا في إنفاقكم غناه وحمده فهو في عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال، أو انه غني محمود لا ينبغي ان تواجهوه بما لا يليق بجلاله جل جلاله.

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إقامة للحجة على ان اختيار خبيث المال للانفاق ليس بخير للمنفقين بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم، ففي النهي مصلحة أمرهم كما ان في المنهى عنه مفسدة لهم، وليس إمساكهم عن انفاق طيب المال وبذله إلا لما يرونه مؤثراً في قوام المال والثروة فتنقبض نفوسهم عن الاقدام الى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا قيمة له يعنى بها فلا بأس بإنفاقه، وهذا من تسويل الشيطان يخوّف أوليائه من الفقر، مع ان البذل وذهاب المال والانفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته مثل البذل في المعاملات لا يخلو عن العوض والربح كما مر، مع ان الذي يغني ويقني هو الله سبحانه دون المال، قال تعالى: ﴿وانه هو أغنى وأقنى﴾ (النجم / ٤٨).

وبالجملة لما كان إمساكهم عن بذل طيب المال خوفاً من الفقر خطأ نبه عليه بقوله: الشيطان يعدكم الفكر، غير انه وضع السبب موضع المسبب، أعني انه وضع وعد الشيطان موضع خوف انفسهم ليدل على انه خوف مضر لهم فإن الشيطان لا يأمر إلا بالباطل والضلال إما ابتدائاً ومن غير واسطة، وإما بالاخرة وبواسطة ما يظهر منه انه حق.

ولما كان من الممكن ان يتوهم ان هذا الخوف حق وإن كان من ناحية الشيطان دفع ذلك بإتباع قوله: الشيطان يعدكم الفقر بقوله: ويأمركم بالفحشاء أولاً، فإن هذا الامساك والتثاقل منهم يجيء في نفوسهم ملكة الامساك وسجية البخل، فيؤدي الى ردّ أوامر الله المتعلقة بأموالهم وهو الكفر بالله العظيم، ويؤدي الى إلقاء أرباب الحاجة في تهلكة الاعسار والفقر والمسكنة التي فيه تلف النفوس وانهتاك الاعراض وكل جناية وفحشاء، قال تعالى:

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون الى ان قال: الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ (التوبة / ٧٩).

ثم بإتباعه بقوله: والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ثانياً، فإن الله قد بين للمؤمنين: ان هناك حقاً وضلالاً لا ثالث لهما، وان الحق وهو الطريق المستقيم هو من الله سبحانه، وان الضلال من الشيطان، قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحق الا الضلال﴾ (يونس / ٣٢)، وقال تعالى: ﴿قل الله يهدي للحق﴾ (يونس / ٣٥)، وقال تعالى في الشيطان: ﴿انه عدو مضل مبين﴾ (القصص / ١٥)، والآيات جميعاً مكية، وبالجملة نبه تعالى بقوله: والله يعدكم، بأن هذا الخاطر الذي يخطر ببالكم من جهة الخوف ضلال من الفكر فإن مغفرة الله الزيادة التي ذكرها في الآيات السابقة انما هما في البذل من طيبات المال.

فقوله تعالى: والله يعدكم، الخ؛ نظير قوله: الشيطان يعدكم، الخ؛ من قبيل وضع السبب موضع المسبب، وفيه القاء المقابلة بين وعد الله سبحانه الواسع العليم ووعد الشيطان، لينظر المنفقون في امر الوعدين ويختاروا ما هو اصلح لبالهم منهما.

فحاصل حجة الآية: ان اختياركم الخبيث على الطيب انما هو لخوف الفقر، والجهل بما يستتبعه هذا الانفاق، أما خوف الفقر فهو القاء، شيطاني، ولا يريد الشيطان بكم الا الضلال والفحشاء فلا يجوز ان تتبعوه، واما ما يستتبعه هذا الانفاق فهو الزيادة والمغفرة اللتان ذكرتا لكم في الآيات السابقة، وهو استتباع بالحق لان الذي يعدكم استتباع الانفاق لهذه المغفرة والزيادة هو الله سبحانه ووعده حق، وهو واسع يسعه ان يعطي ما وعده من المغفرة والزيادة وعليم لا يجهل شيئاً ولا حالاً من شيء فوعده وعده عن علم.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾. الايتاء هو الاعطاء، والحكمة بكسر الحاء على فعلة بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الإحكام والإتقان أو نوع من الامر المحكم المتقن الذي لا يوجد فيه ثلمة ولا فتور، وغلب استعماله في المعلومات العقلية الحقة الصادقة التي لا تقبل البطلان والكذب البتة.

والجملة تدلى على ان البيان الذي بين الله به حال الانفاق بجمع عالله وأسبابه وما يستتبعه من الاثر الصالح في حقيقة حياة الانسان هو من الحكمة. فالحكمة هي القضايا الحقة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الانسان كالمعارف الحقة الالهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الانسان كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾، المعنى ظاهر، وقد أُبهم فاعل الايتاء مع ان الجملة السابقة عليه تدل على انه الله تبارك وتعالى ليدل الكلام على ان الحكمة بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير، لا من جهة انتساب اتيانه اليه تعالى، فإن مجرد انتساب الاتيان لا يوجب ذلك كايتاء المال، قال تعالى في قارون: ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أُولي القوة﴾ الى آخر الآيات (القصص / ٧٦)؛ وانما نسب اليها الخير الكثير دون الخير مطلقاً، مع ما عليه الحكمة من ارتفاع الشأن ونفاسة الامر لان الامر مختوم بعناية الله وتوفيقه، وامر السعادة مراعي بالعقابة والخاتمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾، اللب هو العقل لانه في الانسان بمنزلة اللب من القشر، وعلى هذا المعنى استعمل في القرآن، وكأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الاسماء المستحدثة بالغلبة ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنما استعمل منه الافعال مثل يعقلون.

والتذكر هو الانتقال من النتيجة الى مقدماتها، أو من الشيء الى نتائجها، والآية تدل

على أن اقتناص الحكمة يتوقف على التذكر. وأن التذكر يتوقف على العقل، فلا حكمة لمن لا عقل له. وقد مر بعض الكلام في العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعملة في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، أي ما دعاكم الله سبحانه اليه أو دعوتم أنفسكم اليه بإيجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على الله يثيب من أطاعه ويؤاخذ من ظلم، ففيه إيماء الى التهديد، ويؤكده قوله تعالى: وما للظالمين من أنصار.

وفي هذه الجملة أعني قوله: وما للظالمين من أنصار، دلالة اولا: على أن المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء والمساكين في الإمساك عن الانفاق عليهم، وحبس حقوقهم المالية، لا الظلم بمعنى مطلق المعصية فإن في مطلق المعصية أنصاراً ومكفرات وشفعاء كالتوبة، والاجتناب عن الكبائر، وشفعاء يوم القيامة اذا كان من حقوق الله تعالى، قال تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً الى ان قال: وأنيبوا إلى ربكم﴾ (الزمر / ٥٤)، وقال تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ (النساء / ٣١)، وقال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ (الأنبياء / ٢٨).

ومن هنا يظهر: وجه اتيان الانصار بصيغة الجمع فإن في مورد مطلق الظلم أنصاراً.

وثانياً: أن هذا الظلم وهو ترك الإنفاق لا يقبل التكفير ولو كان من الصغائر لقبله فهو من الكبائر، وأنه لا يقبل التوبة، ويتأيد بذلك ما وردت به الروايات: أن التوبة في حقوق الناس غير مقبولة إلا برد الحق الى مستحقه، وأنه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين الى أن قال: فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ (المدثر / ٤٨).

وثالثاً: أن هذا الظالم غير مرتضى عند الله اذ لا شفاعة إلا لمن ارتضى الله دينه كما مر بيانه في بحث الشفاعة، ومن هنا تظر النكتة في قوله تعالى: ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، حيث أتى بالمرضاة ولم يقل ابتغاء وجه الله.

ورابعاً: أن الامتناع من أصل انفاق المال على الفقراء مع وجودهم واحتياجهم من الكبائر الموبقة، وقد عد تعالى الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركاً بالله وكفراً بالآخرة، قال تعالى: ﴿ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ (فصلت / ٧)، والسورة مكية ولم تكن شرعت الزكاة المعروفة عند نزولها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ الخ: الابداء هو الاظهار، والصدقات جمع صدقة، وهي مطلق الانفاق في سبيل الله أعم من الواجب والمندوب وربما يقال: إن الاصل في معناها الانفاق المندوب.

وقد مدح الله سبحانه كلاً من شق الترديد، لكون كل واحد من الشقين ذا آثار صالحة، فأما اظهار الصدقة فإن فيه دعوة عملية الى المعروف، وتشويقاً للناس الى البذل والانفاق، وتطييباً لنفوس الفقراء والمساكين حيث يشاهدون أن في المجتمع رجالاً رحماء بحالهم، وأموالاً موضوعة لرفع حوائجهم، مدخرة ليوم بؤسهم فيؤدي الى زوال اليأس والقنوط عن نفوسهم، وحصول النشاط لهم في أعمالهم، واعتقاد وحدة العمل والكسب بينهم وبين الاغنياء المثرين، وفي ذلك كل الخير، وأما اخفائها فإنه حينئذ يكون أبعد من الرياء والمن والأذى، وفيه حفظ لنفوس المحتاجين عن الخزي والمذلة، وصون لماء وجوههم عن الابتذال، وكلاتة لظاهر كرامتهم، فصدقة العلن أكثر نتاجاً، وصدقة السر أخلص طهارة.

ولما كان بناء الدين على الاخلاص وكان العمل كلما قرب من الاخلاص كان أقرب من الفضيلة رجح سبحانه جانب صدقة السر فقال: وان تخفوها وتعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمة خير أفعل التفضيل، والله تعالى خبير بأعمال عباده لا يخطىء في تمييز الخير من

غيره، وهو قوله تعالى: والله بما تعلمون خبير.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَيٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، في الكلام التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله ﷺ، وكأن ما كان يشاهده رسول الله ﷺ من فعال المؤمنين في صدقاتهم من اختلاف السجايا بالإخلاص من بعضهم والمن والأذى والتثاقل في إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين أوجد في نفسه الشريفة وجدا وحزنا فسلاه الله تعالى بالتنبيه على أن أمر هذا الايمان الموجود فيهم والهدى الذي لهم إنما هو الى الله تعالى يهدي من يشاء الى الايمان والى درجاته، وليس يستند الى النبي لا وجوده ولا بقائه حتى يكون عليه حفظه، ويشتق من زواله أو ضعفه، أو يسوئه ما آل إليه الكلام في هذه الآيات من التهديد والإبعاد والخشونة.

والشاهد على ما ذكرناه قوله تعالى: ،هداهم، بالتعبير بالمصدر المضاف الظاهر في تحقق التلبس. على أن هذا المعنى أعني فني استناد الهداية الى النبي ﷺ وإسناده الى الله سبحانه حيث وقع في القرآن وقع في مقام تسلية النبي وتطييب قلبه.

فالجملة أعني قوله: ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء جملة معترضة اعترضت في الكلام لتطييب قلب النبي بقطع خطاب المؤمنين والإقبال عليه صلى الله عليه وآله، نظير الاعتراض الواقع في قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ الآيات، (القيمة / ١٧)؛ فلما تم الاعتراض عاد الى الأصل في الكلام من خطاب المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ رجوع الى خطاب المؤمنين بسياق خال عن التبشير والإنذار والتحنن والتغيظ معاً، فإن ذلك مقتضى معنى قوله تعالى: ولكن الله يهدي من يشاء كما لا يخفى. فقصر الكلام على الدعوة الخالية بالدلالة على أن ساحة المتكلم الداعي منزهة عن الانتفاع بما

يتعب هذه الدعوة من المنافع، وإنما يعود نفعه الى المدعوين، فما تنفقوا من خير فلأنفسكم لكن لا مطلقاً بل في حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فقوله: ولا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله حال، من ضمير الخطاب وعامله متعلق الظرف أعني قوله: فلأنفسكم.

ولما أمكن ان يتوهم ان هذا النفع العائد الى أنفسهم ببذل المال مجرد اسم لا مسمى له في الخارج، وليس حقيقته إلا تبديل الحقيقة من الوهم عقب الكلام بقوله: وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون، فبين ان نفع هذا الانفاق المندوب وهوما يترتب عليه من مثوبة الدنيا والآخرة ليس امراً وهمياً، بل هو أمر حقيقي واقعي سيوفيه الله تعالى اليكم من غير ان يظلمكم بفقد أو نقص.

وإبهام الفاعل في قوله: يوف اليكم، لما تقدم أن السياق سياق الدعوة فطوي، ذكر الفاعل ليكون الكلام ابلغ في النصح وانتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له، فلو كان هناك نفع فلسا مع لا غير.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ الحصر هو المنع والحبس، والأصل في معناه التضييق، قال الراغب في المفردات: والحصر والاحصار المنع من طريق البيت، فالاحصار يقال: في المنع الظاهر كالعدو، والمنع الباطن كالمرض، والحصر لا يقال، إلا في المنع الباطن، فقوله تعالى: فإن أُحصرتم فمحمول على الأمرين وكذلك قوله: للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، وقوله عز وجل: أو جاءوكم حصرت صدورهم، أي ضاقت بالبخل والجبن، انتهى. والتعفف التلبس بالعفة، والسيماء العلامة، والالحاف هو الالحاح في السؤال.

وفي الآية بيان مصرف الصدقات، وهو أفضل المصرف، وهم الفقراء الذين منعوا في سبيل الله وحبسوا فيه بتأدية عوامل واسباب الى ذلك: اما عدو اخذ مالهم من الستر واللباس أو منعهم التعيش بالخروج الى الاكتساب أو مرض أو اشتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال

بالكسب كطالب العلم وغير ذلك.

وفي قوله تعالى يحسبهم الجاهل اي الجاهل بحالهم اغنياء من التعفف دلالة على انهم غير متظاهرين بالفقر إلا ما لا سبيل لهم الى ستره من علائم الفقر والمسكنة من بشرة أو لباس خلق أو نحوهما.

ومن هنا يظهر: ان المراد بقوله: لا يسألون الناس إلحافاً انهم لا يسألون الناس اصلاً حتى ينجر الى الالحاف والاصرار في السؤال، فإن السؤال أول مرة يجوز للنفس الجزع من مرارة الفقر فيسرع اليها ان لا تصبر وتهم بالسؤال في كل موقف، والالحاف على كل أحد، كذا قيل، ولا يبعد ان يكون المراد نفي الالحاف لا اصل السؤال، ويكون المراد بالالحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجة، فإن مسمى الاظهار عند الحاجة المبرمة لا بأس به بل ربما صار واجباً، والزائد عليه وهو الالحاف هو المذموم.

وفي قوله تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ دون ان يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم وحفظ لسترهم الذي تستروا به تعففاً من الانتهاك فإن كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان امرهم وظهور ذلهم. وأما معرفة رسول الله ﷺ بحالهم بتوسمه من سيماهم، وهو نبيهم المبعوث اليهم الرؤف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم، ولا ذهاب كرامتهم، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر في الالتفات عن خطاب المجموع الى خطاب المفرد.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الى آخر الآية؛ السر والعلانية متقابلان وهما حالان من ينفقون والتقدير مسرين ومعلنين، واستيفاء الازمنة والاحوال في الانفاق للدلالة على اهتمام المنفقين في استيفاء الثواب، وإمعانهم في ابتغاء مرضاة الله، وإرادة وجهه، ولذلك تدلى الله سبحانه منهم فوعدهم وعداً حسناً بلسان الرأفة والتلطف

فقال: لهم أجرهم عند ربهم. الخ[1].

٢٧٥ ● الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لٰا يَقُومُونَ إِلَّا كَمٰا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰا وَأَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبٰا فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهٰى فَلَهُ مٰا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ وَمَنْ عٰادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ.

٢٧٦ ● يَمْحَقُ اللّٰهُ الرِّبٰا وَيُرْبِي الصَّدَقٰاتِ وَاللّٰهُ لٰا يُحِبُّ كُلَّ كَفّٰارٍ أَثِيمٍ.

٢٧٧ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَأَقٰامُوا الصَّلٰاةَ وَآتَوُا الزَّكٰوةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلٰا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلٰا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٢٧٨ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَذَرُوا مٰا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

٢٧٩ ● فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوٰالِكُمْ لٰا تَظْلِمُونَ وَلٰا تُظْلَمُونَ.

٢٨٠ ● وَإِنْ كٰانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسَرَةٍ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

---

١. البقرة ٢٦١ ـ ٢٧٤ بحث رواني في الانفاق والصدقة والحكمة.

٢٨١ ● وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. الخبط هو المشي على غير استواء، يقال خبط البعير اذا اختل جهة مشيه، وللانسان في حياته طريق مستقيم لا ينحرف عنه، فإنه لا بحالة ذو أفعال وحركات في طريق حياته بحسب المحيط الذي يعيش فيه، وهذه الافعال محفوظة النظام بأحكام اعتقادية عقلائية وضعها ونظمها الإنسان ثم طبق عليها أفعاله الانفرادية والاجتماعية، فهو يقصد الاكل اذا جاع، ويقصد الشرب اذا عطش، والفراش اذا اشتهى النكاح، والاستراحة اذا تعب، والاستظلال اذا أراد السكن وهكذا، وينبسط لامور وينقبض عن اخرى في معاشرته، ويريد كل مقدمة عند ارادة ذيها، واذا طلب مسبباً مال الى جهة سببه.

وهذه الافعال على هذه الاعتقادات مرتبطة متحدة نحو اتحاد متلائمة غير متناقضة ومجموعها طريق حياته[1].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، قد تقدم الوجه في تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال: إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط والاختلال كان واقفاً في موقف خارج عن العادة المستقيمة، والمعروف عند العقلاء والمنكر عندهم سيان عنده، فاذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر والرجوع الى المعروف أجابك ـ لو أجاب ـ أن

---

١. البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١ بحث في القوة المميزة بين الخير والشر ...؛ الربا.

الذي تأمرني به كالذي تنهاني عنه لا مزية له عليه، ولو قال: ان الذي تنهاني عنه كالذي تأمرني به كان عاقلا غير مختل الادراك فإن معنى هذا القول: أنه يسلم أن الذي يؤمر به أصل ذو مزية يجب اتباعه لكنه يدعي ان الذي ينهي عنه ذو مزية مثله، ولم يكن معنى كلامه إبطال المزية وإهماله كما يراه الممسوس، وهذا هو قول المرابي المستقر في نفسه الخبط: إنما البيع مثل الربا، ولو أنه قال: ان الربا مثل البيع لكان راداً على الله جاحداً للشريعة لا خابطاً كالممسوس.

والظاهر ان قوله تعالى: ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا حكاية لحالهم الناطق بذلك وان لم يكونوا قالوا ذلك بألسنتهم، وهذا السياق أعني حكاية الحال بالقول، معروف عند الناس.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، جملة مستأنفة بنائاً على ان الجملة الفعلية المصدرة بالماضي لو كانت حالا لوجب تصديرها بقد. يقال: جائني زيد وقد ضرب عمراً، ولا يلائم كونها حالاً ما يفيده أول الكلام من المعنى، فإن الحال قيد لزمان عامله وظرف التحققه، فلو كانت حالاً لأفادت: أن تخبطهم لقولهم انما البيع مثل الربا انما هو في حال أحل الله البيع وحرم الربا عليهم، مع ان الامر على خلافه فهم خابطون بعد تشريع هذه الحلية والحرمة وقبل تشريعهما، فالجملة ليست حالية وانما هي مستأنفة.

وهذه المستأنفة غير متضمنة للتشريع الابتدائي على ما تقدم أن الآيات ظاهرة في سبق أصل تشريع الحرمة، بل بانية على ما تدل عليها آية آل عمران ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (آل عمران / ١٣٠) فالجملة أعني قوله: وأحل الله، الخ؛ لا تدل على إنشاء الحكم، بل على الإخبار عن حكم سابق وتوطئة لتفرع قوله بعدها: فمن جائه موعظة من ربه، الخ؛ هذا ما ينساق اليه ظاهر الآية الشريفة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، تفريع على قوله: وأحل الله البيع، الخ؛ والكلام غير مقيد بالربا، فهو حكم كلي وضع في مورد جزئي للدلالة على كونه مصداقاً من مصاديقه يلحقه حكمه، والمعنى ان ما ذكرناه لكم في امر الربا موعظة جائتكم من ربكم ومن جائه موعظة، الخ؛ فان انتهيتم فلكم ما سلف وأمركم الى الله. ومن هنا يظهر: ان المراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذي شرعه الله تعالى، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المنهي عنه انتهاءاً عن نهيه تعالى، ومن كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لما قبل زمان بلوغه، ومن قوله: فله ما سلف وأمره الى الله، انه لا يتحتم عليهم العذاب الخالد الذي يدل عليه قوله: ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون، فهم منتفعون فيما اسلفوا بالتخلص من هذه المهلكة، ويبقى عليهم: ان امرهم الى الله فربما اطلقهم في بعض الاحكام، وربما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه.

واعلم: ان أمر الآية عجيب، فان قوله: فمن جائه موعظة الى آخر الآية مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتشديد حكم غير خاص بالربا، بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقة، والقوم قد قصروا في البحث عن معناها حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصة من حيث العفو عما سلف منه، ورجوع الامر الى الله فيمن انتهى، وخلود العذاب لمن عاد اليه بعد مجيء الموعظة، هذا كله ما تراه من العموم في الآية.

وأما قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فوقوع العود في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السابقة يدل على ان المراد به العود الذي يجامع عدم الانتهاء، ويلازم ذلك الإصرار على الذنب وعدم القبول للحكم وهذا هو الكفر أو الردة باطناً ولو لم يتلفظ في لسانه بما يدل على ذلك، فإن من عاد الى ذنب ولم ينته عنه ولو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقاً ولا يفلح ابداً. فالترديد في الآية بحسب الحقيقة بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفة وبين الإصرار الذي لا يخلو غالباً عن

عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت.

ومن هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزلة بالآية على خلود مرتكب الكبيرة في العذاب. فان الآية وان دلت على خلود مرتكب الكبيرة بل مطلق من اقترف المعصية في العذاب لكن دلالتها مقصورة على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم ولا محذور فيه.

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ الخ: المحق نقصان الشيء حالاً بعد حال، ووقوعه في طريق الفناء والزوال تدريجاً. والإرباء الإنماء. والأثيم الحامل للإثم. وقد مر معنى الاثم.

وقد قوبل في الآية بين إرباء الصدقات ومحق الربا. وقد تقدم ان إرباء الصدقات وإنمائها لا يختص بالآخرة بل هي خاصة لها عامة تشمل الدنيا كما تشمل الآخرة فمحق الربا ايضاً كذلك لا محالة.

فكما أن من خاصة الصدقات أنها تنمي المال إنماءً يلزمها ذلك لزوماً قهرياً لا ينفك عنها من حيث أنها تنشر الرحمة وتورث المحبة وحسن التفاهم وتألف القلوب وتبسط الامن والحفظ، وتصرف القلوب عن ان تهم بالغضب والاختلاس والإفساد والسرقة، وتدعو الى الاتحاد والمساعدة والمعاونة، وتتسد بذلك أغلب طرق الفساد والفناء الطارئة على المال، ويعين جميع ذلك على نماء المال ودره أضعافاً مضاعفة.

كذلك الربا من خاصته انه يمحق المال ويفنيه تدريجاً من حيث انه ينشر القوة والخسارة، ويورث البغض والعداوة وسوء الظن، ويفسد الامن والحفظ، ويهيج النفوس على الانتقام بأي وسيلة أمكنت من قول أو فعل مباشرة أو تسبيباً، وتدعو الى التفرق والاختلاف، وتنفتح بذلك أغلب طرق الفساد وأبواب الزوال على المال، وقلما يسلم المال عن آفة تصيبه، أو بلية تعمه.

وكل ذلك لأن هذين الامرين أعني الصدقة والربا مربوطان مماسان بحيوة طبقة الفقراء

والمعوزين وقد هاجت بسبب الحاجة الضرورية إحساساتهم الباطنية، واستعدت للدفاع عن حقوق الحيوة نفوسهم المنكوبة المستذلة، وهموا بالمقابلة بالغاً ما بلغت، فان أُحسن اليهم بالصنيعة والمعروف بلا عوض ـ والحال هذه ـ وقعت إحساساتهم على المقابلة بالإحسان وحسن النية وأثرت الاثر الجميل، وإن أُسيء اليهم باعمال القسوة والخشونة وإذهاب المال والعرض والنفس قابلوها بالانتقام والنكاية بأي وسيلة، وقلما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكة أحد من المرابين على ما يذكره كل أحد مما شاهد من اخبار آكلي الربا من ذهاب اموالهم وخراب بيوتهم وخسران مساعيهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، تعليل لمحق الربا بوجه كلي، والمعنى ان آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيرة من نعم الله لستره على الطرق الفطرية في الحياة الانسانية، وهي طرق المعاملات الفطرية، وكفره بأحكام كثيرة في العبادات والمعاملات المشروعة، فإنه بصرف مال الربا في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيراً من عباداته بفقدان شرائط مأخوذة فيها، وباستعماله فيما بيده من المال الربوي يبطل كثيراً من معاملاته، ويضمن غيره، ويغصب مال غيره في موارد كثيرة، وباستعمال الطمع والحرص في اموال الناس والخشونة والقسوة في استيفاء ما يعده لنفسه حقاً يفسد كثيراً من اصول الاخلاق والفضائل وفروعها، وهو اثيم مستقر في نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبه لأن الله لا يحب كل كفار أثيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخ؛ تعليل يبين به ثواب المتصدقين والمنتهين عما نهى الله عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئة لما يتعقبه من الامر بقوله وذروا

---

١. البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١ بحث في العلل والاسباب التي تبنى عليها الامور؛ المجتمع والفرد.

ما بقي من الربا، وهو يدل على انه كان من المؤمنين في عهد نزول الآيات من يأخذ الربا، وله بقايا منه في ذمة الناس من الربا فأمر بتركها، وهدد في ذلك بما سيأتي من قوله: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، الآية.

وهذا يؤيد ما سننقله من الرواية في سبب نزول الآية في البحث الروائي الآتي.

وفي تقييد الكلام بقوله: إن كنتم مؤمنين إشارة الى ان تركه من لوازم الايمان، وتأكيد لم تقدم من قوله: ومن عاد، الخ؛ وقوله: إن الله لا يحب كل كفار، الخ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، الاذن كالعلم وزناً ومعنى، وقرء فآذنوا بالامر من الايذان، والباء في قوله بحرب لتضمينه معنى اليقين ونحوه، والمعنى: أيقنوا بحرب أو أعلموا انفسكم باليقين بحرب من الله ورسوله، وتنكير الحرب لافادة التعظيم أو التنويع، ونسبة الحرب الى الله ورسوله لكونه مرتبطاً الحكم الذي لله سبحانه فيه سهم بالجعل والتشريع ولرسوله فيه سهلم بالتلبيغ، ولو كان لله وحده لكان امراً تكوينياً، واما رسوله فلا يستقل في امر دون الله سبحانه قال تعالى: ﴿ليس لك من الامر شيء﴾ (آل عمران / ١٢٨).

والحرب من الله ورسوله في حكم من الاحكام مع من لا يسلمه هو تحميل الحكم على من رده من المسلمين بالقتال كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى امر الله﴾ (الحجرات / ٩)، على ان لله تعالى صنعاً آخر في الدفاع عن حكمه وهو محاربته إياهم من طريق الفطرة وهو تهييج الفطرة العامة على خلافهم، وهي التي تقطع انفاسهم، وتخرب ديارهم، وتعفي آثارهم، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (الإسراء / ١٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، كلمة وان تبتم، تؤيد ما مر ان الخطاب في الآية لبعض المؤمنين ممن كان يأخذ الربا وله بقايا

على مدينيه ومعامليه، وقوله: فلكم رؤس أموالكم أي أُصول أموالكم الخالصة من الربا لا تظلمون بأخذ الربا ولا تظلمون بالتعدي الى رؤس أموالكم، وفي الآية دلالة على إمضاء اصل الملك أولاً، وعلى كون أخذ الربا ظلماً كما تقدم ثانياً، وعلى إمضاء اصناف المعاملات حيث عبر بقوله رؤس أموالكم والمال إنما يكون رأساً اذا صرف في وجوه المعاملات وأصناف الكسب ثالثاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، لفظة كان تامة أي اذا وجد ذو عسرة، والنظرة المهلة، والميسرة اليسار، والتمكن مقابل العسرة أي اذا وجد غريم من غرمائكم لا يتمكن من أداء دينه الحال فانظروه وامهلوه حتى يكون متمكناً ذا يسار فيؤدي دينه. والآية وإن كانت مطلقة غير مقيدة لكنها منطبقة على مورد الربا، فإنهم كانوا اذا حل أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد في أجلي كذا مدة أزيدك في الثمن بنسبة كذا، والآية تنهى عن هذه الزيادة الربوية ويأمر بالانظار.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي وإن تضعوا الدين عن المعسر فتتصدقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدلتم ما تقصدونه من الزيادة من طريق الربا الممحوق من الزيادة من طريق الصدقة الرابية حقاً.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الخ؛ فيه تذييل لآيات الربا بما تشتمل عليه من الحكم والجزاء بتذكير عام بيوم القيامة ببعض أوصافه الذي يناسب المقام، ويجيء ذكره النفوس لتقوى الله تعالى والورع عن محارمه في حقوق الناس التي تتكي عليه الحياة، وهو ان أمامكم يوماً ترجعون فيه الى الله فتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

واما معنى هذا الرجوع مع كوننا غير غائبين عن الله، ومعنى هذه التوفية فسيجيء الكلام فيه في تفسير سورة الأنعام إنشاء الله تعالى.

وقد قيل: إن هذه الآية: واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم

لا يظلمون، آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ وسيجيء ما يدل عليه من الروايات في البحث الروائي التالي(١)(٢)(٣).

٢٨٢ ● يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاٰ يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّٰهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّهُ وَلاٰ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدىٰهُمَا الْأُخْرىٰ وَلاٰ يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا مَا دُعُوا وَلاٰ تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلىٰ أَجَلِهِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنىٰ أَنْ لاٰ تَرْتابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَلاٰ يُضَارَّ كاتِبٌ وَلاٰ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّٰهُ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

---

١. البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١: بحث روائي في الربا.

٢. البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١: بحث علمي في: المال؛ البيع والربا؛ نتايج الرأسمالية المشؤومة. السبب في شيوع الشيوعية.

٣. البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١: بحث علمي في الدرهم والدينار والذهب والفضة.

٢٨٣ ● وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي إِئْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ الخ؛ التداين، مديانة بعضهم بعضاً، والاملال والاملاء إلقاء الرجل للكاتب ما يكتبه، والبخس هو النقص والحيف والسأمة هي الملال، والمضارة مفاعلة من الضرر ويستعمل لما بين الاثنين وغيره. والفسوق هو الخروج عن الطاعة. والرهان، وقرء فرُهُن بضمتين وكلاهما جمع الرهن بمعنى المرهون.

والاظهار الواقع في موقع الاضمار في قوله تعالى: فإن كان الذي عليه الحق، لرفع اللبس برجوع الضمير الى الكاتب السابق ذكره.

والضمير البارز في قوله: أن يمل هو فليملل وليه، فائدته تشريك من عليه الحق مع وليه، فإن هذه الصورة تغاير الصورتين الأوليين بأن الولي في الصورتين الاوليين هو المسؤل بالامر المستقل فيه بخلاف هذه الصورة فإن الذي عليه الحق يشارك الولي في العمل فكأنه قيل: ما يستطيعه من العمل فعليه ذلك وما لا يستطيعه هو فعلى وليه.

وقوله: أن تضل إحديهما، على تقدير حذر ان تضل إحديهما، وفي قوله: إحديهما الاخرى وضع الظاهر موضع المضمر، والنكتة فيه اختلاف معنى اللفظ في الموضعين، فالمراد من الاول احديهما لا على التعيين، ومن الثاني احديهما بعد ضلال الاخرى، فالمعنيان مختلفان.

وقوله: واتقوا أمر بالتقوى فيما ساقه الله اليهم في هذه الآية من الامر والنهي، وأما قوله:

ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم، فكلام مستأنف مسوق في مقام الامتنان، كقوله تعالى في آية الإرث: ﴿يبين الله لكم ان تضلوا﴾ (النساء / ١٧٦)، فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين ومسائل الحلال والحرام.

وما قيل: إن قوله: واتقوا الله ويعلمكم الله يدل على أن التقوى سبب للتعليم الإلهي، فيه أن وان كان حقاً يدل عليه الكتاب والسنة، لكن هذه الآية بمعزل عن الدلالة عليه لمكان واو العطف، على أن هذا المعنى لا يلائم سياق الآية وارتباط ذيلها بصدرها.

ويؤيد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلالة ثانياً فانه لولا كون قوله ويعلمكم الله، كلاما مستأنفاً كان مقتضى السياق ان يقال: يعلمكم بإضمار الفاعل، ففي قوله تعالى: واتقوا الله ويعلمكم الله ان الله بكل شيء عليم، أظهر الاسم اولا وثانياً لوقوعه في كلامين مستقلين، وأظهر ثالثاً ليدل به على التعليل، كأنه قيل: هو بكل شيء عليم لأنه الله.

واعلم: ان الآيتين تدلان على ما يقرب من عشرين حكماً من أصول أحكام الدين والرهن وغيرهما، والاخبار فيها وفيما يتعلق بها كثيرة لكن البحث عنها راجع الى الفقه، ولذلك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمظانه من الفقه.

٢٨٤ ● لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، كلام يدل على ملكه تعالى

لعالم الخلق مما في السموات والارض، وهو توطئة لقوله بعده: وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، أي إن له ما في السموات والارض ومن جملتها أنتم وأعمالكم وما اكتسبتها نفوسكم، فهو محيط بكم مهيمن على اعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم بادية ظاهرة، او خافية مستورة فيحاسبكم عليها.

وربما استظهر من الآية: كون السماء مسانخاً لأعمال القلوب وصفات النفس فما في النفوس هو مما في السموات، ولله ما في السموات كما ان ما في النفوس اذا أُبدي بعمل الجوارح كان مما في الارض، ولله ما في الارض فما انطوى في النفوس سواء أُبدى أو أُظهر مملوك لله محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾. الابداء هو الإظهار مقابل الاخفاء، ومعنى ما في أنفسكم ما استقر في أنفسكم على ما يعرفه أهل العرف واللغة من معناه، ولا مستقر في النفس إلّا الملكات والصفات من الفضائل والرذائل كالايمان والكفر والحب والبغض والعزم وغيرها فإنها هي التي تقبل الاظهار والاخفاء. أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس ويحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسية المسانخة لها، اذ لولا تلك الصفات والملكات النفسانية من إرادة وكراهة وإيمان وكفر وحب وبغض وغير ذلك لم تصدر هذه الافعال، فبصدور الافعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها. وأما إخفائها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها في النفس.

وبالجملة ظاهر قوله: ما في أنفسكم، الثبوت والاستقرار في النفس، ولا يعني بهذا الاستقرار التمكن في النفس بحيث يمتنع الزوال كالملكات الراسخة، بل ثبوتاً تاماً يعتد به في صدور الفعل كما يشعر به قوله: إن تبدوا وقوله: أو تخفوها فان الوصفين يدلان على ان ما في النفس بحيث يمكن ان يكون منشأً للظهور او غير منشأ له وهو الخفاء، وهذه الصفات يمكن ان

تكون كذلك سواء كانت أحوالاً او ملكات، وأما الخطورات والهواجس النفسانية الطارقة على النفس من غير إرادة من الانسان وكذلك التصورات الساذجة التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصي من غير نزوع وعزم فلفظ الآية غير شامل لها البتة لأنها كما عرفت غير مستقرة في النفس، ولا منشأ لصدور الافعال.

فتحصل: أن الآية إنما تدل على الاحوال والملكات النفسانية التي هي مصادر الافعال من الطاعات والمعاصي، وأن الله سبحانه وتعالى يحاسب الانسان بها. فتكون الآية في مساق قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ (البقرة / ٢٢٥)، وقوله تعالى: ﴿فان آثم قلبه﴾ (البقرة / ٢٨٣)، وقوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً﴾ (الإسراء / ٣٦)، فجميع هذه الآيات دالة على أن للقلوب وهي النفوس أحوالاً وأوصافاً يحاسب الانسان بها، وكذا قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ (النور / ٩)، فانها ظاهرة في ان العذاب إنما هو على الحب الذي هو أمر قلبي. هذا.

فهذا ظاهر الآية ويجب أن يعلم: أن الآية إنما تدل على المحاسبة بما في النفوس سواء أُظهر أو أُخفي، وأما كون الجزاء في صورتي الإخفاء والاظهار على حد سواء، وبعبارة اخرى كون الجزاء دائراً مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل وسواء صادف الفعل الواقع المقصود او لم يصادف كما في صورة التجري مثلاً فالآية غير ناظرة الى ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، الترديد في التفريع بين المغفرة والعذاب لا يخلو من الاشعار بأن المراد بما في النفوس هي الصفات والاحوال النفسانية السيئة، وان كانت المغفرة ربما استعملت في القرآن في غير مورد المعاصي أيضاً لكنه استعمال كالنادر يحتاج الى مؤنة القرائن الخاصة. وقوله: إن الله تعليل راجع الى مضمون الجملة الاخيرة، او الى مدلول الآية بتمامها.

٢٨٥ ● آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

٢٨٦ ● لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، تصديق لايمان الرسول والمؤمنين، وإما أفرد رسول الله عنهم بالايمان بما أُنزل اليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفاً له، وهذا دأب القرآن في الموارد التي تناسب التشريف أن يكرم النبي بإفراده وتقديم ذكره ثم اتباع ذلك بذكر المؤمنين كقوله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ (الفتح / ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا﴾ (التحريم / ٨).

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقه، فان ما أُنزل الى رسول الله يدعو الى الايمان وتصديق الكتب والرسل والملائكة الذين هم عباد مكرمون، فمن آمن بما أنزل على رسول الله ﷺ فقد آمن

بجميع ذلك، كل على ما يليق به.

قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، حكاية لقولهم من دون توسيط لفظ القول، وقد مر في قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة / ١٢٧). النكتة العامة في هذا النحو من الحكاية، وأنه من أجمل السياقات القرآنية، والنكتة المختصة بالمقام مضافاً الى أن فيه تمثيلا لحالهم وقالهم أن هذا الكلام إنما هو مكلام منتزع من خصوص حالهم في الايمان بما أنزل الله تعالى، فهم لم يقولوه إلّا بلسان حالهم، وان كانوا قالوه فقد قاله كل منهم وحده وفي نفسه، وأما تكلمهم به لساناً واحداً فليس الا بلسان الحال.

ومن عجيب أمر السياق في هذه الآية ما جمع بين قولين محكيين منهم مع التفرقة في نحو الحكاية أعني قوله تعالى: لا نفرق بين أحد منهم وقولوا سمعنا وأطعنا، الخ؛ حيث حكى البعض من غير توسيط القول والبعض الآخر بتوسيطه، وهما جميعاً من قول المؤمنين في اجابة دعوة الداعي.

والوجه في هذه التفرقة أن قولهم: لا نفرق، الخ؛ مقول لهم بلسان حالهم بخلاف قولهم: سمعنا وأطعنا.

وقد بدء تعالى بالإخبار عن حال كل واحد منهم على نعت الافراد فقال: كل آمن بالله ثم عدل الى الجمع فقال: لا نفرق بين أحد الى آخر الآيتين، لأن الذي جرى من هذه الامور في أهل الكتاب كان على نعت الجمع كما أن اليهود فرقت بين موسى وبين عيسى ومحمد، والنصارى فرقت بين موسى وعيسى، وبين محمد فانشعبوا شعباً وتحزبوا أحزاباً وقد كان الله تعالى خلقهم امة واحدة على الفطرة، وكذلك المؤاخذة والحمل والتحميل الواقع عليهم إنما وقعت على جماعتهم، وكذلك ما وقع في آخر الآية من سؤال النصرة على الكافرين، كل ذلك أمر مرتبط بالجماعة دون الفرد، بخلاف الايمان فإنه أمر قائم بالفرد حقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، قولهم سمعنا وأطعنا، إنشاء وليس باخبار وهو كناية عن الاجابة إيماناً بالقلب وعملاً بالجوارح، فإن السمع يكنى به لغة عن القبول والاذعان. والاطاعة تستعمل في الانقياد بالعمل فجموع السمع والاطاعة يتم به أمر الايمان.

وقولهم سمعنا وأطعنا إيفاء لتمام ما على العبد من حق الربوبية في دعوتها. وهذا تمام الحق الذي جعله الله سبحانه لنفسه على عبده: أن يسمع ليطيع، وهو العبادة كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون ما أُريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون﴾ (الذاريات / ٥٧)، وقال تعالى: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني﴾ (يس / ٦١).

وقد جعل سبحانه في قبال هذا الحق الذي جعله لنفسه على عبده حقاً آخر لعبده على نفسه وهو المغفرة التي لا يستغني عنه في سعادة نفسه أحد: الانبياء والرسول فمن دونهم فوعدهم ان يغفر لهم ان أطاعوه بالعبودية كما ذكره اول ما شرع الشريعة لآدم وولده فقال: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة / ٣٨)، وليس الا المغفرة.

والقوم لما قالوا: سمعنا وأطعنا وهو الاجابة بالسمع والطاعة المطلقين من غير تقييد فأوفوا الربوبية حقها سألوه تعالى حقهم الذي جعله لهم وهو المغفرة فقالوا عقيب قولهم سمعنا وأطعنا: غفرانك ربنا وإليك المصير، والمغفرة والغفران: الستر، ويرجع مغفرته تعالى الى دفع العذاب وهو ستر على نواقص مرحلة العبودية، ويظهر عند مصير العبد الى ربه، ولذلك عقبوا قولهم: غفرانك ربنا بقولهم: واليك المصير.

قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، الوسع هو الجدة والطاقة، والاصل في الوسع هو السعة المكانية ثم يتخيل لقدرة

الانسان شبه الظرفية لما يصدر عنه من الافعال الاختيارية، فما يقدر عليه الانسان من الاعمال كأنه تسعه قدرته، وما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقة. ثم سميت الطاقة وسعاً فقيل: وسع الانسان أي طاقته وظرفية قدرته.

وقد عرفت: أن تمام حق الله تعالى على عبده: ان يسمع ويطيع، ومن البين أن الانسان إما يقول: «سمعاً» فيما يمكن ان تقبله نفسه بالفهم، وأما لا يقبل الفهم فلا معنى لاجابته بالسمع والقبول. ومن البين أيضاً ان الانسان انما يقول: «طاعة» فيما يقبل مطاوعة الجوارح وأدوات العمل، فإن الاطاعة هي مطاوعة الانسان وتأثر قوه وأعضائه عن تأثير الآمر المؤثر مثلا، وأما ما لا يقبل المطاوعة كأن يؤمر الانسان ان يسمع ببصره، او يحل بجسمه أزيد من مكان واحد، او يتولد من أبويه مرة ثانية فلا يقبل إطاعة ولا يتعلق بذلك تكليف مولوي، فإجابة داعي الحق بالسمع والطاعة لا تتحقق الا في ما هو اختياري للإنسان تتعلق به قدرته، وهو الذي يكسب به الانسان لنفسه ما ينفعه أو يضره، فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الانسان إما وجده وتلبس به من طريق الوسع والطاقة.

فظهر مما ذكرنا ان قوله: لا يكلف الله، كلام جار على سنة الله الجارية بين عباده: ان لا يكلفهم ما ليس في وسعهم من الايمان بما هو فوق فهمهم والإطاعة لما هو فوق طاقة قواهم، وهي ايضاً السنة الجارية عند العقلاء وذوي الشعور من خلقه، وهو كلام ينطبق معناه على ما يتضمنه قوله حكاية عن الرسول والمؤمنين: سمعنا وأطعنا من غير زيادة ولا نقيصة.

والجملة أعني قوله: لا يكلف الله نفساً، متعلقة المضمون بما تقدمها وما تأخر عنها من الجمل المسرودة في الآيتين.

أما بالنسبة الى ما تقدمها فإنها تفيد: أن الله لا يكلف عباده بأزيد مما يمكنهم فيه السمع والطاعة وهو ما في وسعهم ان يأتوا به.

وأما بالنسبة الى ما تأخر عنها فإنها تفيد أن ما سئله النبي والمؤمنون من عدم المؤاخذة

على الخطأ والنسيان، وعدم حمل الإصر عليهم، وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به، كل ذلك وإن كانت أموراً حرجية لكنها ليست من التكليف بما ليس في الوسع، فإن الذي يمكن أن يحمل عليهم مما لا طاقة لهم به ليس من قبيل التكليف، بل من قبيل جزاء التمرد والمعصية، وأما المؤاخذة على الخطأ والنسيان فإنهما وان كانتا بنفسهما غير اختياريين لكنهما اختياريان من طريق مقدماتهما. فمن الممكن ان يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدماتهما او بإيجاب التحفظ عنهما، وخاصة اذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستنداً الى سوء الاختيار، ومثل الكلام في حمل الاصر فإنه اذا استند الى التشديد على الانسان جزاءاً لتمرده عن التكاليف السهلة بتبديلها مما يشق عليه ويحترج منه، فإن ذلك ليس من التكليف المنفي عنه تعالى غير الجائز عند العقل، لانها مما اختاره الانسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور في توجيهه اليه.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، لما قالوا في مقام اجابة الدعوة سمعنا وأطعنا وهو قول ينبيء عن الاجابة المطلقة من غير تقييد ثم التفتوا الى ما عليه وجودهم من الضعف والفتور، والتفتوا أيضاً الى ما آل اليه امر الذين كانوا من قبلهم وقد كانوا أمماً أمثالهم استرحموا ربهم وسألوه ان لا يعاملهم معاملة من كان قبلهم من المؤاخذة والحمل والتحميل لانهم علموا بما علمهم الله ان لا حول ولا قوة إلّا بالله، وان لا عاصم من الله إلّا رحمته.

والنبي ﷺ وإن كان معصوماً من الخطأ والنسيان لكنه إنما يعتصم بعصمة الله ويصان به تعالى فصح له ان يسأل ربه ما لا يأمنه من نفسه، ويدخل نفسه لذلك في زمرة المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، الاصر هو الثقل على ما قيل، وقيل هو حبس الشيء بقهره، وهو قريب من المعنى الاول فإن في الحبس حمل الشيء على ما يكرهه وينقل عليه.

والمراد بالذين من قبلنا: هم أهل الكتاب وخاصة اليهود على ما تشير السورة الى كثير من

قصصهم، وعلى ما يشير اليه قوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم﴾ (الأعراف / ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، المراد بما لا طاقة لنا به ليس هو التكليف الابتدائي بما لا يطاق، اذ قد عرفت ان العقل لا يجوزه أبداً، وان كلامه تعالى أعني ما حكاه بقوله: وقالوا سمعنا وأطعنا يدل على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصلة اليهم من تكليف شاق لا يتحمل عادة، أو عذاب نازل، أو رجز مصيب كالمسخ ونحوه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، العفو محو أثر الشيء، والمغفرة ستره، والرحمة معروفة، وأما بحسب المصداق فاعتبار المعاني اللغوية يوجب ان يكون سوق الجمل الثلاث من قبيل التدرج من الفرع الى الاصل، وبعبارة أُخرى من الاخص فائدة الى الاعم، فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب اثر الذنب وإمحائه كالعقاب المكتوب على المذنب، والمغفرة هي إذهاب ما في النفس من هيئة الذنب والستر عليه، والرحمة هي العطية الالهية التي هي الساترة على الذنب وهيئته.

وعطف هذه الثلاثة أعني قوله: واعف عنا واغفر لنا وارحمنا على قوله: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا على ما للجميع من السياق والنظم يشعر: بأن المراد من العفو والمغفرة والرحمة ما يتعلق بذنوبهم من جهة الخطأ والنسيان ونحوها. ومنه يظهر ان المراد بهذه المغفرة المسؤولة هيٰهنا غير الغفران المذكور في قوله: غفرانك ربنا فإنه مغفرة مطلقة في مقابلة الاجابة المطلقة على ما تقدم، وهذه مغفرة خاصة في مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ، فسؤال المغفرة غير مكرر.

وقد كرر لفظ الرب في هذه الادعية أربع مرات لبعث صفة الرحمة بالايماء والتلويح الى صفة العبودية فإن ذكر الربوبية يخطر بالبال صفة العبودية والمذلة.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، استيناف ودعاء مستقل، والمولى هو الناصر لكن لا كل ناصر بل الناصر الذي يتولى أمر المنصور فإنه من الولاية بمعنى تولي الامر، ولما كان تعالى وليا للمؤمنين فهو موليهم فيما يحتاجون فيه الى نصره، قال تعالى: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد / ١١).

وهذا الدعاء منهم يدل على انهم ما كان لهم بعد السمع والطاعة لأصل الدين هم إلّا في اقامته ونشره والجهاد لإعلان كلمة الحق، وتحصيل اتفاق كلمة الامم عليه، قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين﴾ (يوسف / ١٠٨)، فالدعوة الى دين التوحيد هو سبيل الدين وهو الذي يتعقب الجهاد والقتال والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أقسام الدعوة والانذار، كل ذلك لحسم مادة الاختلاف من بين هذا النوع، ويشير الى ما به من الاهمية في نظر شارع الدين قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (الشورى / ١٣)، فقولهم انت مولينا فانصرنا يدل على جعلهم الدعوة العامة في الدين أول ما يسبق الى أذهانهم بعد عقد القلب على السمع والطاعة، والله أعلم.

سورة آل عمران مدنية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓ.

٢ ● اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

٣ ● نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ.

٤ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.

٥ ● إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

٦ ● هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلٰـهَ إِلَّا هُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

بيان:

غرض السورة دعوة المؤمنين الى توحيد الكلمة في الدين والصبر والثبات في حماية حماه

بتنبيههم بما هم عليه من دقة الموقف لمواجهتهم أعداءاً كاليهود والنصارى والمشركين وقد جمعوا جمعهم وعزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم وبأفواههم.

ويشبه أن تكون هذه السورة نازلة دفعة واحدة، فإن آياتها ـ وهي مئتا آية ـ ظاهرة الاتساق والانتظام من أولها الى آخرها، متناسبة آياتها، مرتبطة أغراضها.

ولذلك كان مما يترجح في النظر أن تكون السورة إنما نزلت على رسول الله ﷺ وقد استقر له الأمر بعض الاستقرار ولما يتم استقراره. فإن فيها ذكر غزوة أُحد، وفيها ذكر المباهلة مع نصارى نجران، وذكراً من أمر اليهود، وحثاً على المشركين، ودعوة الى الصبر والمصابرة والمرابطة، وجميع ذلك يؤيد أن السورة نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الدين بعامة قواهم وجميع أركانهم، فمن جانب كانوا يقاومون الفشل والفتور الذين يدبان في داخل جماعتهم بفتنة اليهود والنصارى، ويجاجونهم ويجاوبونهم، ومن جانب كانوا يقاتلون المشركين، ويعيشون في حال الحرب وانسلاب الأمن، فقد كان الاسلام في هذه الأيام قد انتشر صيته فثارت الدنيا عليه من اليهود والنصارى ومشركي العرب، ووراء ذلك الروم والعجم وغيرهم.

والله سبحانه يذكر المؤمنين في هذه السورة من حقائق دينه الذي هداهم به ما يطيب به نفوسهم، ويزول به رين الشبهات والساوس الشيطانية وتسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم، ويبين لهم: أن الله سبحانه لم يغفل عن تدبير ملكه، ولم يعجزه خلقه، وإنما اختار دينه وهدى جمعاً من عباده اليه على طريقة العادة الجارية، والسنة الدائمة، وهي سنة العلل والأسباب، فالمؤمن والكافر جاريان على سنة الأسباب، فيوم للكافر ويوم للمؤمن، فالدار دار الامتحان، واليوم يوم العمل، والجزاء غداً.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قد مرّ الكلام فيه في تفسير آية الكرسي، وتحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد والتدبير،

فنظام الموجودات بأعيانها وآثارها تحت قيمومة الله لا مجرد قيمومة التأثير كالقيمومة في الأسباب الطبيعية الفاقدة للشعور بل قيمومة حياة تستلزم العلم والقدرة؛ فالعلم الإلهي نافذ فيها لا يخفى عليه شيء منها، والقدرة مهيمنة عليها لا يقع منها إلّا ما شاء وقوعه وأذن فيه، ولذلك عقبه بقوله بعد آيتين: إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قد مر أن التنزيل يدل على التدريج كما أن الإنزال يدل على الدفعة.

وربما ينقض ذلك بقوله: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ (الفرقان / ٣٢)، وبقوله تعالى: ﴿أن ينزل علينا مائدة﴾ (المائدة / ١١٢)، وقوله تعالى: ﴿لولا نزل عليه آية﴾ (الأنعام / ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ (الأنعام / ٣٧)، ولذلك ذكر بعض المفسرين: أن الأولى أن يقال: إن معنى نزل عليك الكتاب: أنزله إنزالاً بعد إنزال دفعاً للنقض.

والجواب: أن المراد بالتدريج في النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من اجزاء الشيء وبين جزئه الآخر بل الأشياء المركبة التي توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبة الى مجموع الاجزاء وبذلك يصير الشيء أمراً واحداً غير منقسم، والتعبير عنه من هذه الجهة بالنزول كقوله تعالى: ﴿انزل من السماء ماناً﴾ (الرعد / ١٧)، وهو الغيث. ونسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحداً بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل وهو التدريج، والتعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى: ﴿وهو الذي ينزّل الغيث﴾ (الشورى / ٢٨).

ومن هنا يظهر: أن الآيات المذكورة للنقض غير ناقضة فإن المراد بقوله لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة الآيه: أن ينزل عليه القرآن آية بعد آية في زمان متصل واحد من غير

تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر في نزول القرآن في الشؤون والحوادث والأوقات المختلفة، وبذلك يظهر الجواب عن بقية الآيات المذكورة.

وأما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز في اللغة البتة، لا يدفع شيئاً من النقض بالآيات المذكورة، بل هي بحالها وهو ظاهر.

وقد جرى كلامه تعالى ان يعبر عن إفاضة الكتاب على النبي ﷺ بالتنزيل والنزول. والنزول يستلزم مقاماً أو مكاناً عالياً رفيعاً يخرج منه الشيء نوعاً من الخروج ويقصد مقاماً أو مكاناً آخر أسفل فيستقر فيه، وقد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو ورفعة الدرجات وقد وصف كتابه أنه من عنده، قال تعالى: ﴿إنه علي حكيم﴾ (الشورى / ٥١)، وقال تعالى: ﴿ولما جائهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ (البقرة / ٨٩)، فصح بذلك استعمال لفظ النزول في مورد استقرار الوحي في قلب رسول الله ﷺ، وقد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجاً ثابتاً كما ان الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج، وعلى هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجية والامور الواقعية كما يطلق على الله سبحانه: أنه حق، وعلى الحقائق الخارجية أنها حقة إنما هو من جهة أن كلاً منها حق من جهة الخبر عنها، وكيف كان فالمراد بالحق في الآية: الامر الثابت الذي لا يقبل البطلان.

والظاهر أن الباء في قوله: بالحق للمصاحبة والمعنى: نزل عليك الكتاب تنزيلاً يصاحب الحق ولا يفارقه، فيوجب مصاحبة الحق ان لا يطرء عليه ولا يخالطه باطل فهو في أمن من جهة ظهور الباطل عليه، ففي قوله: نزل عليك الكتاب بالحق استعارة بالكناية، وقد قيل في معنى الباء وجوه اخر لا يخلو عن سقم.

والتصديق من الصدق يقال: صدقت مقالا كذا أي قررته على الصدق واعترفت بكونه صدقاً وصدقت فلاناً أي اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

والمراد مما بين يديه التوراة والانجيل كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى الى ان

قال: **وآتينا الانجيل فيه هدى الى ان قال: وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** ﴾ الآية (المائدة / ٤٨)، والكلام لا يخلو عن دلالة على أن ما بأيدي اليهود والنصاري من التوراة والانجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام، وإن كانا لا يخلوان عن السقط والتحريف، فإن الدائر بينهم في عصر رسول الله ﷺ هو التوراة الموجودة اليوم والاناجيل الأربعة المشهورة، فالقرآن يصدق التوراة والانجيل الموجودين، لكن في الجملة لا بالجملة لمكان الآيات الناطقة بالتحريف والسقط فيهما، قال تعالى: ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل الى ان قال: وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به الى ان قال: ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ الآية (المائدة / ١٤).

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ ﴾، التوراة كلمة عبرانية بمعنى الشريعة، والإنجيل لفظ يوناني، وقيل فارسي الأصل معناه البشارة، وسيجيء استيفاء البحث عن الكتابين في قوله تعالى: ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور الآيات** ﴾ (المائدة / ٤٤).

ومما أصر عليه القرآن تسمية كتاب عيسى عليه السلام بالإنجيل بصيغة الافراد والقول بأنه نازل من عند الله سبحانه، مع ان الأناجيل كثيرة، والمعروفة منها أعني الأناجيل الأربعة كانت موجودة قبل نزول القرآن وفي عهده، وهي التي ينسب تأليفها الى لوقا ومرقس ومتى ويوحنا، ولا يخلو ما ذكرناه من إفراد الاسم والتوصيف بالنزول عن دلالة على التحريف والإسقاط، وكيف كان لا يخلو ذكر التوراة والانجيل في هذه الآية وفي أول السورة من التعريض لليهود والنصارى على ما سيذكره من أمرهم وقصص تولد عيسى ونبوته ورفعه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾، الفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل على ما في الصحاح، واللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك، وهو كل ما يفرق به بين شيء وشيء. قال

تعالى: ﴿يوم الفرقان يوم التق الجمعان﴾ (الأنفال / ٤١)، وقال تعالى: ﴿يجعل لكم فرقاناً﴾ (الأنفال / ٢٩). واذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع الى معنى الهداية هو الفرق بين الحق والباطل في العقائد والمعارف وبين وظيفة العبد وما ليس بوظيفة له بالنسبة الى الأعمال الصادرة عنه في الحياة الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصلية والفرعية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحي، أعم من الكتاب وغيره. قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾ (الأنبياء / ٤٨)، وقال تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ (البقرة / ٥٣)، وقال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان / ١).

وقد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان في قوله: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (الحديد / ٢٥). وهو في وزان قوله: ﴿كان الناس امةواحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣). فالميزان كالفرقان هو الدين الذي يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم اليه من المعارف ووظائف العبودية، والله أعلم.

وقيل: المراد بالفرقان القرآن. وقيل: الدلالة الفاصلة بين الحق والباطل. وقيل: الحجة القاطعة لرسول الله ﷺ على من حاجه في أمر عيسى. وقيل: النصر. وقيل: العقل. والوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ـ الى قوله ـ ذُو انْتِقَامٍ﴾، الإنتقام على ما قيل مجازاة المسيء على إساءته، وليس من لازم المعنى أن يكون للتشفي، فإن ذلك من لوازم الانتقامات التي بيننا حيث إن إساءة المسيء يوجب منقصة وضرراً في جانبنا فنتدارك ذلك بالمجازاة الشديدة التي توجب تشفي قلوبنا، وأما هو تعالى فأعز ساحة من أن ينتفع أو يتضرر بشيء من أعمال عباده، لكنه وعد ـ وله الوعد الحق ـ أن سيقضي بين عباده بالحق إن خيراً

فخيراً وإن شراً فشراً. قال تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ (المؤمن / ٢٠)، وقال تعالى: ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ (النجم / ٣١). كيف وهو عزيز على الإطلاق منيع الجانب من أن ينتهك محارمه. وقد قيل إن الأصل في معنى العزة الامتناع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، من حيث إطلاق العذاب وعدم تقييده بالآخرة أو يوم القيمة ربما تضمن الوعيد بالعذاب في الدنيا كما في الآخرة. وهذا من الحقائق القرآنية التي ربما قصر الباحثون في استيفاء البحث عنه وليس ذلك إلّا لكوننا لا نعد شيئاً عذاباً إلّا اذا اشتمل على شيء من الآلام الجسمانية، أو نقص أو فساد في النعم المادية كذهاب الأموال وموت الأعزة ونقاهة الأبدان. مع أن الذي يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ الخ؛ قد علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجة الى ضميمة تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب والانتقام، فعقب لذلك الكلام بقوله: إن الله لا يخفى عليه، فبين أنه عزيز لا يخفى عليه شيء ظاهر على الحواس ولا غائب عنها، ومن الممكن أن يكون المراد مما في الارض وما في السماء الأعمال الظاهرة القائمة بالجوارح والخفية الكامنة في القلوب على حد ما نبهنا عليه في قوله تعالى: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية (البقرة / ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. التصوير إلقاء

---

١. آل عمران ١ ـ ٦: كلام في معنى العذاب في القرآن.

الصورة على الشيء والصورة تعم ما له ظل كالتمثال وما لا ظل له. والأرحام جمع رحم وهو مستقر الجنين من الإناث.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فيه عود الى ما بدء به الكلام في الآيات من التوحيد، وهو بمنزلة تلخيص الدليل للتأكيد.

فإن هذه الامور المذكورة أعني: هداية المخلق بعد ايجادهم، وإنزال الكتاب والفرقان، وإتقان التدبير بتعذيب الكافرين امور لابد أن تستند الى إله يدبرها واذ لا إله إلّا الله تعالى شأنه فهو الذي يهدي الناس وهو الذي ينزل الكتاب والفرقان، وهو يعذب الكافرين بآياته، وإنما يفعل ما يفعل من الهداية والإنزال والانتقام والتقدير بعزته وحكمته[1].

٧ ● هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ.

٨ ● رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

٩ ● رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

---

١. آل عمران ١ ـ ٦: بحث روائي في: وفد نجران، مناظرة الرسول الكريم ﷺ مع وفد نجران حول النبي عيسى عليه السلام؛ تكوين الانسان.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، عبر تعالى بالإنزال دون التنزيل لأن المقصود بيان بعض أوصاف مجموع الكتاب النازل وخواصه، وهو أنه مشتمل على آيات محكمة واخر متشابهة ترجع الى المحكمات وتبين بها. فالكتاب مأخوذ بهذا النظر أمراً واحداً من غير نظر الى تعدد وتكثر، فناسب استعمال الإنزال دون التنزيل.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، مادة حكم تفيد معنى كون الشيء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعضه أو يخل أمره عليه. ومنه الإحكام والتحكيم، والحكم بمعنى القضاء. والحكمة بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافعة، والحكمة بفتح الحاء لزمام الفرس، ففي الجميع شيء من معنى المنع والإتقان، وربما قيل: إن المادة تدل على معنى المنع مع إصلاح.

والمراد ههنا من إحكام المحكمات إتقان هذه الآيات من حيث عدم وجود التشابه فيها كالمتشابهات، فإنه تعالى وإن وصف كتابه بإحكام الآيات في قوله: ﴿كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود / ١)، لكن اشتمال الآية على ذكر التفصيل بعد الإحكام دليل على أن المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول وهي كونه واحداً لم يطرأ عليه التجزي والتبعض بعد بتكثر الآيات، فهو إتقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام والإتقان الذي لبعض آياته بالنسبة الى بعض آخر من جهة امتناعها عن التشابه في المراد[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

---

١. آل عمران ٧ ـ ٩: بحث في: ام الكتاب؛ المحكم والمتشابه.

﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾، الزيغ هو الميل عن الاستقامة، ويلزمه اضطراب القلب وقلقه بقرينة ما يقابله في ذيل الآية من قوله: والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، فإن الاية تصف حال الناس بالنسبة الى تلقي القرآن بمحكمه ومتشابهه، وأن منهم من هو زائغ القلب ومائله ومضطربه فهو يتبع المتشابه ابتغاءاً للفتنة والتأويل، ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب يأخذ بالمحكم ويؤمن بالمتشابه ولا يتبعه، ويسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلبه بعد الهداية.

ومن هنا يظهر: أن المراد باتباع المتشابه اتباعه عملاً لا إيماناً، وان هذا الاتباع المذموم اتباع للمتشابه من غير ارجاعه الى المحكم، اذ على هذا التقدير يصير الاتباع اتباعاً للمحكم ولا ذم فيه.

والمراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس، فإن الفتنة تقارب الاضلال في المعنى، يقول تعالى: يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله سبحانه، وأمراً آخر هو أعظم من ذلك، وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن ومآخذ أحكام الحلال والحرام حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

والتأويل من الاول وهو الرجوع، فتأويل المتشابه هو المرجع الذي يرجع إليه، وتأويل القرآن هو المأخذ الذي يأخذ منه معارفه[1].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾، ظاهر الكلام رجوع الضمير الى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضاً في قوله: وابتغاء تأويله، وقد عرفت أن ذلك لا يستلزم كون التأويل مقصوراً على الآيات المتشابهة. ومن الممكن أيضاً رجوع الضمير الى الكتاب كالضمير في قوله: ما تشابه منه.

وظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه سبحانه، وأما قوله: والراسخون في

---

١. آل عمران ٧ـ٩: بحث في معنى التأويل.

العلم، فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفاً للترديد الذي يدل عليه قوله في صدر الآية: فأما الذين في قلوبهم زيغ، والمعنى: أن الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه ومنهم من يقول اذا تشابه عليه شيء منه: آمنا به كل من عند ربنا، وإنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب ورسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف، وكان المراد بالعطف تشريك الراسخين في العلم بالتأويل كان منهم رسول الله ﷺ وهو أفضلهم وكيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما اريد به، ومن دأب القرآن اذا ذكر الامة أو وصف أمر جماعة وفيهم رسول الله ﷺ أن يفرده بالذكر أولاً ويميزه بالشخص تشريفاً له وتعظيماً لأمره ثم يذكرهم جميعاً كقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون﴾ (البقرة / ٢٨٥)، وقوله تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ (التوبة / ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه﴾ (التوبة / ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿وهذا النبي والذين آمنوا﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقوله تعالى: ﴿لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (التحريم / ٨)، الى غير ذلك، فلو كان المراد بقوله: والراسخون في العلم، إنهم عالمون بالتأويل ـ ورسول الله ﷺ منهم قطعاً ـ كان حق الكلام كما عرفت أن يقال: وما يعلم تأويله إلّا الله ورسوله والراسخون في العلم، هذا وإن أمكن أن يقال: إن قوله في صدر الآية: هو الذي أنزل عليك الكتاب، الخ: يدل على كون النبي عالماً بالكتاب فلا حاجة الى ذكره ثانياً.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور في الآية عليه تعالى، ولا ينافي ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات دالة على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما في قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾ (الجن / ٢٧)، ولا ينافيه أيضاً: كون المستثنى الراسخين في العلم بعينهم، اذ لا منافاة بين أن تدل هذه الآية على شأن من شئون الراسخين في العلم، وهو الوقوف عند الشبهة والإيمان والتسليم في

مقابل الزائغين قلباً وبين أن تدل آيات اخر على أنهم أو بعضاً منهم عالمون بحقيقة القرآن وتأويل آياته على ما سيجيء بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. الرسوخ هو أشد الثبات، ووقوع الراسخين في العلم في مقابلة الذين في قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم، وهو أن لهم علماً بالله وبآياته لا يدخله ريب وشك، فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل، وهم يؤمنون به ويتبعونه أي يعلمون به واذا وردت عليهم آية متشابهة لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها وتوقفوا عن اتباعها عملاً.

وفي قولهم: آمنا به كل من عند ربنا ذكر الدليل والنتيجة معاً فإن كون المحكم والمتشابه جميعاً من عند الله تعالى يوجب الايمان بالكل: محكمه ومتشابهه، ووضوح المراد في المحكم يوجب اتباعه عملاً، والتوقف في المتشابه من غير رده لأنه من عند الله ولا يجوز اتباع ما يناني المحكم من معانيه المتشابهة لسطوع البيان في المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتملة ما يوافق معنى المحكم، وهذا بعينه إرجاع المتشابه الى المحكم فقوله: كل من عند ربنا بمنزلة الدليل على الأمرين جميعاً، أعني: الايمان والعمل في المحكم، والايمان فقط في المتشابه والرجوع في العمل الى المحكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، التذكر هو الانتقال الى دليل الشيء لاستنتاجه، ولما كان قولهم: كل من عند ربنا كما مر استدلالاً منهم وانتقالاً لما يدل على فعلهم سماه الله تعالى تذكراً ومدحهم به.

والألباب جمع لب وهو العقل الزكي الخالص من الشوائب، وقد مدحهم الله تعالى مدحاً جميلاً في موارد من كلامه، وعرّفهم بأنهم أهل الايمان بالله والإنابة اليه واتباع أحسن القول، ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائماً فأعقب ذلك أنهم أهل التذكر أي الانتقال الى المعارف

الحقة بالدليل وأهل الحكمة والمعرفة، قال تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هديهم الله وأولئك هم اولوا الألباب﴾ (الزمر / ١٨)، وقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (آل عمران / ١٩١)، وهذا الذكر الدائم وما يتبعه من التذلل والخضوع هو الإنابة الموجبة لتذكرهم بآيات الله وانتقالهم الى المعارف الحقة كما قال تعالى: ﴿وما يتذكر إلّا مَن ينيب﴾ (غافر / ١٣)، وقد قال ﴿وما يذكر إلّا اولوا الألباب﴾ (البقرة / ٢٦٩)، (آل عمران / ٧).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. وهذا من آثار رسوخهم في العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم، وعقلوا عن الله سبحانه أيقنوا أن الملك لله وحده، وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً فمن الجائز أن يزيغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجأوا الى ربهم، وسألوه أن لا يزيغ قلوبهم بعد اذ هداهم، وأن يهب لهم من لدنه رحمة تبقي لهم هذه النعمة، ويعينهم على السير في صراط الهداية، والسلوك في مراتب القرب.

وأما سؤال أن يهبهم رحمة بعد سؤال أن لا يزيغ قلوبهم فلأن عدم إزاغة القلب لا يستلزم بقاء الرسوخ في العلم فمن الجائز أن لا يزاغ قلوبهم وينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهملة لا سعداء بالعلم ولا أشقياء بالازاغة بل في حال الجهل والاستضعاف، وهم في حاجة مبرمة الى ما هم عليه من العلم، ومع ذلك لا تقف حاجتهم في ما هم عليه من الموقف بل هم سائروا طريق يحتاجون فيه الى أنواع من الرحمة لا يعلمها ولا يحصيها إلّا الله سبحانه، وهم مستشعرون بحاجتهم هذه، والدليل عليه قولهم بعد: ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

فقولهم: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا، استعاذة من نزول الزيغ الى قلوبهم وإزاحته

العلم الراسخ الذي فيها، وقولهم: وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب استمطار لسحاب الرحمة حتى تدوم بها حياة قلوبهم، وتنكير الرحمة، وتوصيفها بكونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمة. وأنها كيف ينبغي أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لولا رحمة من ربهم ولولا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

وفي الاستعاذة من الزيغ الى الله محضاً واستيهاب الرحمة من لدنه محضاً دلالة على أنهم يرون تمام الملك لله محضاً من غير توجه الى أمر الأسباب.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، هذا منهم بمنزلة التعليل لسؤال الرحمة، وذلك لعلمهم بأن إقامة نظام الخلقة ودعوة الدين وكدح الإنسان في مسير وجوده كل ذلك مقدمة لجمعهم الى يوم القيامة الذي لا يغني فيه ولا ينصر أحد إلّا بالرحمة كما قال تعالى: ﴿ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً وهم ينصرون، إلّا من رحم الله﴾ (الدخان / ٤٢)، ولذلك سألوا رحمة من ربهم وفوضوا تعيينها وتشخيصها اليه لينفعهم في أمرهم.

وقد وصفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ليتجه بذلك كمال اهتمامهم بالسؤال والدعاء، وعللوا هذا التوصيف أيضاً بقولهم: إن الله لا يخلف الميعاد لأن شأنهم الرسوخ في العلم، ولا يرسخ العلم بشيء ولا يستقر تصديق إلّا مع العلم بعلته المنتجة، وعلة عدم ارتيابهم في تحقق هذا اليوم هو ميعاد الله سبحانه به فذكروه[1][2][3].

---

١. آل عمران ٧ـ٩: كلام تفصيلي في المحكم والمتشابه والتأويل (المحكم والمتشابه، ما معنى كون المحكمات ام الكتاب؟ ما معنى التأويل؟ هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه؟؛ ما هو السبب في اشتمال الكتاب على المتشابه).

٢. آل عمران ٧ـ٩: بحث روائي في: المحكم والمتشابه؛ الراسخون في العلم.

٣. آل عمران ٧ـ٩: بحث روائي في تفسير القرآن.

١٠ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاٰ أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ.

١١ ● كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

١٢ ● قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ.

١٣ ● قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَأُخْرىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ.

١٤ ● زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.

١٥ ● قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ.

١٦ ● الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

١٧ ● الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ.

١٨ ● شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾، أغنى عنه ماله من فلان أي أعطاه الغنى ورفع حاجته فلا حاجة به اليه والانسان في بادي تكونه وشعوره يرى نفسه محتاجة الى الخارج منه، وهذا أول علمه الفطري الى احتياجه الى الصانع المدبر ثم إنه لما توسط في الأسباب وأحس بحوائجه بدء بإحساس الحاجة الى كماله البدني النباتي وهو الغذاء والولد، ثم عرفت له نفسه سائر الكمالات الحيوانية، وهي التي يزينها له الخيال من زخارف الدنيا من زينة الملبس والمسكن والمنكح وغير ذلك، وعندئذ يتبدل طلب الغذاء الى طلب المال الذي يظنه مفتاحاً لحل جميع مشكلات الحيوة لأن العادة الغالبة تجري على ذلك فيظن أن سعادة حيوته في المال والولد بعدما كان يظن أن ضامن سعادته هو الغذاء والولد، ثم انكباب نفسه على مشتهياته، وقصر همه على الأسباب يوجب أن يقف قلبه عند الأسباب، ويعطي لها الاستقلال، وحينئذ ينسى ربه، ويتشبث بذيل المال والولد، وفي هذا الجهل هلاكه فإنه يستر به آيات ربه ويكفر بها، وقد التبس عليه الأمر فإن ربه هو الله لا إله إلّا هو الحي القيوم لا يستغني عنه شيء بحال ولا يغني عنه شيء بحال.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾، الوقود بفتح الواو ما توقد به النار وتشتعل، والآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ (البقرة / ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الأنبياء / ٩٨)، وقد مر بعض الكلام في معنى ذلك في سورة البقرة.

والاتيان بالجملة الاسمية، والابتداء باسم الإشارة، وكونه دالاً على البعد وتوسيط ضمير الفصل، وإضافة الوقود الى النار دون أن يقال وقود، كل ذلك يؤكد ظهور الكلام في الحصر، ولازمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل في عذاب النار وإيقاد جهنم، وأن غيرهم إنما يحترقون بنارهم؛ ويتأيد بذلك ما سيأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ الآية (الأنفال / ٣٧).

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ الدأب على ما ذكروه هو السير المستمر، قال تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ (إبراهيم / ٣٣)، ومنه تسمية العادة دأباً لأنه سير مستمر، وهذا المعنى هو المراد في الآية.

وقوله ﴿كَدَأْبِ﴾، متعلق بمقدر يدل عليه قوله في الآية السابقة: لن تغني عنهم، ويفسر الدأب قوله: كذبوا بآياتنا وهو في موضع الحال؛ وتقدير الكلام كما مرت اليه الإشارة: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا واستمروا عليها دائبين فزعموا أن في أموالهم وأولادهم غنى لهم من الله كدأب آل فرعون ومن قبلهم وقد كذبوا بآياتنا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، ظاهر الباء أنها تفيد السببية، يقال: أخذته بذنبه أي بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاة التي بين الآيتين؛ وقياسه حال هؤلاء الذين كفروا في دأبهم على آل فرعون والذين من قبلهم في دأبهم أن يكون البناء للآلة، فإنه ذكر في الذين كفروا أنهم وقود النار تشتعل عليهم أنفسهم ويعذبون بها فكذلك آل فرعون ومن قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم وكان العذاب الذي حل بساحتهم هو عين الذنوب التي اذنبوها، وكان مكرهم هو الحائق بهم، وظلمهم عائداً اليهم، قال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلّا بأهله﴾ (فاطر / ٤٣)، وقال تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (البقرة / ٥٧).

فالمعنى ـ والله أعلم ـ أن آل فرعون كانوا دائبين على دأب هؤلاء الذين كفروا في الكفر

وتكذيب الآيات، ولا ريب في هذا الخبر فإنا كنا حاضرين شاهدين وقد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

وأما قوله: فأخذهم الله، فهو رجوع بعد استيفاء المقصود الى الأصل في الكلام وهو اسلوب الغيبة، وفيه مع ذلك إرجاع الحكم الى مقام الالوهية القائمة بجميع شئون العالم والمهيمنة على كل ما دق وجل، ولذلك كرر لفظ الجلالة ثانياً في قوله والله شديد العقاب، ولم يقل: وهو شديد العقاب للدلالة على أن كفرهم وتكذيبهم هذا منازعة ومحاربة مع من له جلال الالوهية ويهون عليه أخذ المذنب بذنبه، وهو شديد العقاب لأنه الله جل اسمه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ الى آخر الآية؛ الحشر هو اخراج الجماعة عن مقرهم بالازعاج، ولا يستعمل في الواحد، قال تعالى: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً﴾ (الكهف / ٤٧)، والمهاد هو الفراش، وظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما انه ظاهر الآية السابقة: إن الذين كفروا لن تغني عنهم، الخ؛ دون اليهود، وهذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآية الغلبة عليهم وحشرهم الى جهنم وقد أشارت الآية السابقة الى تقويمهم وتعززهم بالاموال والأولاد.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾؛ ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا، والكلام من تتمة قول النبي ﷺ: ستغلبون وتحشرون، الخ؛ ومن الممكن أن يكون خطاباً للمؤمنين بدعوتهم الى الاعتبار والتفكر بما من الله عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييداً عجيباً بالتصرف في إبصار العيون، وعليهذا يكون الكلام مشتملاً على نوع من الالتفات بتوسعة خطاب رسول الله ﷺ في قوله ﴿قل للذين﴾ بتوجيهه اليه والى من معه من المؤمنين؛ لكن السياق ـ كما عرفت ـ للأول أنسب.

والآية ـ بما تشتمل عليه من قصة التقاء الفئتين ونصره تعالى للفئة المقاتلة في سبيل الله ـ وان لم تتعرض بتشخيص القصة وتسمية الوقعة غير أنها قابلة الانطباق على وقعة بدر،

والسورة نازلة بعدها بل و بعد احد.

فمحصل معنى الآية: أنكم أيها المشركون لو كنتم من اولى الأبصار والبصائر لكفاكم في الاعتبار والدلالة على أن الغلبة للحق وأن الله يؤيد بنصره من يشاء ولا يغلب بمال ولا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين في سبيل الله سبحانه، وقد كانوا فئة قليلة مستذلين لا يبلغون ثلث الفئة الكافرة، ولا يقاسون بهم قوة، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس لهم إلّا ستة أدرع وثمانية سيوف وفرسان، وكان جيش المشركين قريباً من ألف مقاتل لهم من العدة والقوة والخيل والجمال والهيئة ما لا يقدر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قلتهم وذلتهم على أعدائه وكثّرهم في أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأي العين، وأيدهم الملائكة فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال وأولاد ولم يغنهم جمعهم ولا كثرتهم وقوتهم من الله شيئاً.

وقد ذكر الله سبحانه دأب آل فرعون والذين من قبلهم في تكذيب آيات الله وأخذهم بذنوبهم في سورة الأنفال عند ذكر القصة مرتين كما ذكره هيهنا بعينه.

وفي موعظتهم بتذكير وقعة بدر إيماء الى أن المراد بالغلبة في الآيات السابقة الغلبة بالقتل والإبادة، ففي آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، لم يقل وأُخرى في سبيل الشيطان أو في سبيل الطاغوت ونحو ذلك لأن الكلام غير مسوق للمقايسة بين السبيلين بل لبيان أن لا غنى من الله تعالى، وأن الغلبة له فالمقابلة بالحقيقة بين الايمان بالله والجهاد في سبيله وبين الكفر به تعالى.

والظاهر من السياق أن الضميرين في قوله يرونهم مثليهم راجعان الى قوله: فئة تقاتل، أي الفئة الكافرة يرون المؤمنين مثلي المؤمنين فهم يرونهم ستمائة وستة وعشرين ولقد كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وأما احتمال اختلاف الضميرين مرجعاً بأن يكون المعنى: يرون

المؤمنين مثلي عدد الكافرين فبعيد عن اللفظ، وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، إن في ذلك لعبرة لاولي الأبصار، التأييد من الأيد وهو القوة، والمراد بالأبصار قيل: هو العيون الظاهرية لكون الآية مشتملة على التصرف في رؤية العيون، وقيل: هو البصائر لأن العبرة إنما تكون بالبصيرة القلبية دون البصر الظاهري، والأمر هين، فإن الله سبحانه في كلامه يعدّ من لا يعتبر بالعبر والمثلات أعمى، ويذكر أن العين يجب أن تبصر وتميز الحق من الباطل وفي ذلك دعوى أن الحق الذي يدعو اليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر، وأن البصيرة والبصر في مورد المعارف الإلهية واحد (بنوع من الاستعارة) لنهاية ظهورها ووضوحها، والآيات في ذلك كثيرة جداً، ومن أحسنها دلالة على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (الحج / ٤٦)، أي أن الأبصار إنما هي في القلوب دون الرؤوس، وقوله تعالى: ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ (الأعراف / ١٧٩)، والآية في مقام التعجيب، وقوله تعالى: ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ (الجاثية / ٢٣)، الى غير ذلك من الآيات، فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهرية بدعوى أنها هي التي تعتبر وتفهم فهو من الاستعارة بالكناية، والنكتة فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس. ويزيد في لطفه أن المورد يتضمن التصرف في رؤية العين الظاهرة.

وظاهر قوله: إن في ذلك، الخ؛ أنه تتمة لكلامه تعالى الذي يخاطب به النبي ﷺ وليس تتمة لقول النبي المدلول عليه بقوله: قل للذين كفروا، الخ؛ والدليل عليه الكاف في قوله: ذلك، فإنه خطاب للنبي ﷺ، وفيهذا العدول الى الخطاب الخاص بالنبي ﷺ إيماء الى قلة فهمهم وعمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الخ؛ الآية وما يتلوها بمنزلة البيان وشرح حقيقة الحال لما تقدم من قوله تعالى آنفاً: إن الذين كفروا لن تغني عنهم

أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. الخ؛ اذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال والأولاد من الله سبحانه فالآية تبين أن سبب ذلك أنهم انكبوا على حب هذه المشتهيات وانقطعوا اليها عن ما يهمهم من أمر الآخرة، وقد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلك متاع الحيوة الدنيا، ليس لها الا انها مقدمة لنيل ما عند الله من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين في هذا الحب والاشتهاء ولا مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهي بتغريز أصل هذا الحب فيهم ليتم لهم الحيوة الأرضية فلولا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنساني في حيوته وبقائه بحسب ماقدره الله سبحانه من أمرهم حيث قال: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين﴾ (البقرة / ٣٦).

وإنما قدر لهم ذلك ليتخذوها وسيلة الى الدار الآخرة ويأخذوا من متاع هذه ما يتمتعون به في تلك لا لينظروا الى ما في الدنيا من زخرفها وزينتها بعين الاستقلال وينسوا بها ما ورائها، ويأخذوا الطريق مكان المقصد في عين أنهم سائرون الى ربهم، قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ (الكهف / ٨).

إلّا أن هؤلاء المغفلين أخذوا هذه الوسائل الظاهرة الإلهية التي هي مقدمات وذرائع الى رضوان الله سبحانه اموراً مستقلة في نفسها محبوبة لذاتها وزعموا أنها تغني عنهم من الله شيئاً فصارت نقمة عليهم بعدما كانت نعمة وويالاً بعدما كانت مثوبة مقربة. قال تعالى: ﴿إنما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس الى أن قال: ويوم يحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركائكم فزيلنا بينهم الى أن قال: وردوا الى الله مولىهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (يونس / ٣٠)؛ تشير الآيات الى أمر الحيوة وزينتها بيده تعالى لا ولي لها دونه لكن الإنسان باغتراره بظاهرها يظن أن أمرها اليه. وأنه قادر على تدبيرها وتنظيمها

فيتخذ لنفسه فيها شركاء ـ كالأصنام وما بمعناها من المال والولد وغيرهما، إن الله سيوقفه على زلته فيذهب هذه الزينة، ويزيل الروابط التي بينه وبين شركائه، وعند ذلك يضل عن الإنسان ما افتراه على الله من شريك في التأثير ويظهر له معنى ما علمه في الدنيا وحقيقته، ورد الى الله موليه الحق.

وهذا التزين أعني: ظهور الدنيا للإنسان بزينة الاستقلال وجمال الغاية والمقصد لا يستند الى الله سبحانه فإن الرب العليم الحكيم أمنع ساحة من أن يدبر خلقه بتدبير لا يبلغ به غايته الصالحة، وقد قال تعالى: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ (الطلاق / ٣)، وقال تعالى: ﴿والله غالب على أمره﴾ (يوسف / ٢١)، بل إن استند فإنما يستند الى الشيطان قال تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام / ٤٣)، وقال تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ (الأنفال / ٤٨).

نعم لله سبحانه الإذن في ذلك ليتم أمر الفتنة، وتستقيم التربية كما قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ (العنكبوت / ٤)، وعليهذا الإذن يمكن أن يحمل قوله تعالى: ﴿كذلك زينا لكل امة عملهم﴾ (الأنعام / ١٠٨)، وإن أمكن أيضاً أن يحمل على ما مر من معنى التزيين المنسوب إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ (الكهف / ٧)[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾، أي هذه الشهوات امور يتمتع بها لإقامة هذه الحيوة التي هي أقرب الحيوتين منكم (وهما الحيوة الدنيا والحيوة الاخرى)، والحيوة

---

١. آل عمران ١٠ـ١٨: بحث في تزيين الدنيا ونوعين من التزيين وفاعلهما.

الدنيا وكذا المتاع الذي يتمتع به لها أمر فان دائر ليس لها عاقبة باقية صالحة، وصلاح العقبى وحسن المآب إنما هو عند الله سبحانه وهو قوله تعالى: والله عنده حسن المآب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ الى آخر الآية؛ الآية مسوقة لبيان قوله: والله عنده حسن المآب وقد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانية الباطلة امور هي خير للانسان لكونها باقية وحسنة حقيقة من غير بطلان، وهي امور مجانسة لهذه الشهوات في ما يريده الإنسان من خواصها وآثارها غير أنها خالية عن القبح والفساد غير صارفة للانسان عن ما هو خير منها، وهي الجنة ومطهرات الأزواج ورضوان الله تعالى.

وقد اختصت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنة كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسمية عند الإنسان، ولذلك أيضاً قدم ذكر النساء في قوله: من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، الخ.

وأما الرضوان بكسر الراء وضمها فهو الرضا، وهو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه ويدافعه، ويقابله السخط.

وقد تكرر في القرآن ذكر رضى الله سبحانه، وهو منه تعالى كما يتصور بالنسبة الى فعل عباده في باب الطاعة كذلك يتصور بالنسبة الى غير باب الطاعة كالأوصاف والأحوال وغير ذلك إلّا أن جل الموارد التي ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعة، ولذلك ربما قوبل بينه وبين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته، ورضى العبد عنه لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (البينة / ٨)، وقوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية﴾ (الفجر / ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات﴾ الآية (البراءة / ١٠٠).

وذكر الرضوان هيهنا أعني في عداد ما هو خير للناس من مشتهيات الحيوة الدنيا يدل على أنه نفسه من مشتهيات الإنسان أو يستلزم أمراً هو كذلك؛ ولذلك عنى بذكره في مقابل الجنات والأزواج في هذه الآية. وكذلك في مقابل الفضل والمغفرة والرحمة في قوله: ﴿فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ (المائدة / ٢)، وقوله: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ (الحديد / ٢٩)، وقوله: ﴿برحمة منه ورضوان﴾ (البراءة / ٢١).

ولعل الذي يكشف عن هذا الذي أبهمته هذه الآية هو التدبر في المعنى الذي ذكرناه وفي قوله تعالى: رضى الله عنهم، الآية؛ وقوله: راضية مرضية، الآية؛ حيث علق رضاه بأنفسهم، والرضا عن أنفسهم غير الرضا عن أفعالهم فيعود المعنى الى أنه لا يمنعهم عن نفسه فيما يسألونه فيؤل الى معنى قوله: ﴿لهم ما يشائون فيها﴾ (ق / ٣٥)، ففي رضوان الله عن الانسان المشية المطلقة للانسان.

ومن هنا يظهر: أن الرضوان في هذه الآية قوبل به من الشهوات المذكورة في الآية السابقة أن الإنسان يحسب أنه لو اقتناها وخاصة القناطير المقنطرة من بينها افادته إطلاق المشية وأعطته سعة القدرة فله ما يشاء، وعنده ما يريد. وقد اشتبه عليه الأمر فإنما ينتم ذلك برضا الله الذي اليه أمر كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ لما تحصل من هذه الآية والتي قبلها: أن الله أعد للانسان في كلتا الدارين (الدنيا والآخرة) نعماً يتنعم بها ومآرب اخرى مما تلتذ به نفسه كالأزواج، وما يؤكل ويشرب، والملك ونحوها، وهي متشابهة في الدارين غير أن ما في الدنيا مشترك بين الكافر والمؤمن مبذول لهما معاً وما في الآخرة مختص بالمؤمن لا يشاركه فيها الكفار كان المقام مظنة سؤال الفرق في ذلك، وبلفظ آخر سؤال وجه المصلحة في اختصاص المؤمن بنعم الآخرة أجاب عنه بقوله: والله بصير بالعباد، ومعناه: أن هذا الفرق الذي فرق الله به بين المؤمن والكافر ليس مبنياً على العبث والجزاف تعالى عن ذلك بل إن في

الفريقين أمراً هو المستدعي لهذا الفرق والله بصير بهم يرى ما فيهم من الفرق وهو التقوى في المؤمن دون الكافر، وقد وصف هذا التقوى وعرفه بما يلحق بهذه الآية من قوله: الذين قالوا ربنا، الى آخر الآيتين؛ وملخصه: أنهم يظهرون فاقتهم الى ربهم وعدم استغنائهم عنه، ويصدقون ذلك بالعمل الصالح ولكن الكافر يستغني عن ربه بشهوات الدنيا وينسى آخرته وعاقبة أمره[1].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وصف للمتقين المدلول عليهم بقوله في الآية السابقة: للذين اتقوا، فوصفهم أنهم يقولون ربنا وفيه إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية واسترحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم: إننا آمنا، والجملة ليست في مقام الامتنان عليه تعالى فان المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان﴾ (الحجرات / ١٧). بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم، قال تعالى: ﴿وآمنوا به يغفر لكم﴾ (الأحقاف / ٣١)، ولذلك فرعوا عليه قولهم: فاغفر لنا ذنوبنا، بفاء التفريع. وفي تأكيد قولهم بان دلالة على صدقهم وثباتهم في إيمانهم.

والمغفره للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقاية من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبة الى من آمن به وعبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقاً على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار، أو ينعمه بالجنة فإن الايمان والاطاعة أيضاً من نعمه ولا يملك غيره تعالى منه شيئاً الا ما جعله على نفسه من حق، ومن الحق الذي جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار ان آمنوا به، قال تعالى: ﴿وآمنوا به يغفر لكم من

---

١. آل عمران ٢٦ ـ ٢٧: بحث في اللذائذ الدنيوية والاخروية؛ القصد من اللذائذ الاخروية؛ حقيقة الانسان الوجودية.

ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ (الأحقاف / ٣١).

وربما استفيد من بعض الآيات أن الوقاية من عذاب النار هو المغفرة والجنة كقوله تعالى: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة من جنات عدن﴾ (الصف / ١٢)، فإن في الآيتين الاخيرتين تفصيل لما اجمل في الآية الاولى من قوله: هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، وهذا معنى دقيق سنشرحه في مورد يناسبه ان وفقنا له.

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ الى آخر الآية: وصفهم بخمس خصال لا يشذ منها تقوى من متق، فالصبر لسبقه على بقية الخصال وإطلاقه يشمل أقسام الصبر، وهي ثلاث: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند المصيبة.

والصدق وإن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقة ظاهر الإنسان من قول وفعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقية كالصبر والقنوت وغيرهما وليس بمراد فالمراد به (والله أعلم) الصدق في القول فحسب.

والقنوت هو الخضوع لله سبحانه ويشمل العبادات وأقسام النسك، والإنفاق هو بذل المال لمن يستحق البذل، والاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل والاستغفار فيه، والسنة تفسره بصلوة الليل والاستغفار في قنوت الوتر، وقد ذكر الله أنه سبيل الإنسان الى ربه كما في سورتي المزمل والدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل والتهجد به: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً﴾ (المزمل / ١٩)، (الدهر / ٢٩).

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، أصل الشهادة هو المعاينة أعني: تحمل العلم عن حضور وحس ثم استعمل في أدائها وإظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل والتأدية بعناية وحدة

الغرض فإن التحمل يكون غالباً لحفظ الحق والواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظاً على الحق والواقع. فبهذه العناية كان التحمل والتأدية كلاهما شهادة أي حفظاً وإقامة للحق، والقسط هو العدل.

ولما كانت الآيات السابقة أعني قوله: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، الى قوله: والمستغفرين بالأسحار، تبين: أن الله سبحانه لا إله غيره ولا يغني عنه شيء، وأن ما يحسبه الإنسان مغنياً عنه ويركن إليه في حيوته ليس إلّا زينة وإلّا متاعاً خلقه الله ليتمتع به في سبيل ما هو خير منه ولا ينال الى بتقوى الله تعالى، وبعبارة أُخرى: هذه النعم التي يحن اليها الإنسان مشتركة في الدنيا بين الكافر والمؤمن مختصة في الآخرة بالمؤمن أقام الشهادة في هذه الآية على أن هذا الذي بينته الآيات حق لا ينبغي أن يرتاب فيه.

فشهد (وهو الله عز اسمه) على أنه لا إله إلّا هو واذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغني منه شيئاً من مال أو ولد أو غير ذلك من زينة الحيوة أو أي سبب من الأسباب اذ لو أغنى شيء من هذه منه شيئاً لكان الهاً دونه أو معتمداً الى إله دونه منتهياً اليه ولا إله غيره.

شهد بهذه الشهادة وهو قائم بالقسط في فعله، حاكم بالعدل في خلقه اذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب والمسببات والقاء الروابط بينها، وجعل الكل راجعاً اليه بالسير والكدح والتكامل وركوب طبق عن طبق، ووضع في مسير هذا المقصد نعماً لينتفع منها الإنسان في عاجله لآجله وفي طريقه لمقصده لا ليركن اليه ويستقر عنده فالله يشهد بذلك وهو شاهد عدل.

ومن لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه وعلى وحدته في الوهيته أي إن عدله ثابت بنفسه ومثبت لوحدانيته، بيان ذلك: أنا إنما نعتبر في الشاهد العدالة ليكون جارياً على مستوى طريق الحيوة ملازماً لصراط الفطرة من غير أن يميل الى إفراط أو تفريط فيضع الفعل في غير موضعه فتكون شهادته مأمونة عن الكذب والزور فملازمة الصدق والمجاراة مع

صراط التكوين يوجب عدالة الإنسان فنفس النظام الحاكم في العالم والجاري بين أجزائه الذي هو فعله سبحانه هو العدل محضاً.

ونحن في جميع الوقائع التي لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونية أو نجدها على خلاف ما نميل إليه ونطمع فيه ثم نعترض عليها ونناقش فيها إنما نذكر في الاعتراض على ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا، وجميع ذلك مأخوذة من نظام الكون ثم نبحث عنها فيظهر سبب الحادثة فتسقط الشبهة أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع في أيدينا إلّا الجهل بالسبب أي عدم العلم دون العلم بالعدم، فنظام الكون (وهو فعل الله سبحانه) هو العدل فافهم ذلك.

ولو كان هناك إله يغني منه في شيء من الامور لم يكن نظام التكوين عدلاً مطلقاً بل كان فعل كل إله عدلاً بالنسبة إليه وفي دائرة قضائه وعمله!

وبالجملة فالله سبحانه يشهد، وهو شاهد عدل، على أنه لا إله إلّا هو يشهد لذلك بكلامه وهو قوله: شهد الله أنه لا إله إلّا هو، على ما هو ظاهر الآية الشريفة، فالآية في اشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيرة قوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ (النساء / ١٦٦).

والملائكة يشهدون بأنه لا إله إلّا هو، فإن الله يخبر في آيات مكية نازلة قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم ويعملون بأمره ويسبحونه وفي تسبيحهم شهادة أن لا اله غيره، قال تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧)، وقال تعالى: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾ (الشورى / ٥).

وأولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلّا هو يشاهدون من آياته الآفاقية والأنفسة وقد ملأت مشاعرهم ورسخت في عقولهم.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الجملة كالمعترضة الدخيلة في الكلام

لاستيفاء حتى معترض يفوت لولا ذكره مع عدم كونه مقصوداً في الكلام أصالة، ومن أدب القرآن أن يظهر تعظيم الله جل شأنه في موارد يذكر أمره ذكراً يخطر منه بالبال ما لا يليق بساحة كبريائه كقوله تعالى: ﴿قالوا اتخذا الله ولداً سبحانه﴾ (يونس / ٦٨)، فقوله: سبحانه قصد به التعظيم في مقام يحكي فيه قول لا يلائم حقه تعالى، ونظيره بوجه قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾ الآية (المائدة / ٦٤).

وبالجملة لما اشتمل أول الآية على شهادة الله والملائكة واولي العلم بنفي الشريك كان من حق الله سبحانه على من يحكي ويخبر عن هذه الشهادة أعني المتكلم (وهو في الآية هو الله سبحانه) وعلى من يسمع ذلك أن يوحد الله بنفي الشريك عنه فيقول: لا إله إلّا هو. نظير ذلك قوله تعالى في قصة الإفك: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ (النور / ١٦)، فإن من حقه تعالى عليهم أن اذا سمعوا بهتاناً وأراداوا تنزيه من بهت عليه أن ينزهوا الله قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه.

فوضع قوله: لا إله إلّا هو العزيز الحكيم موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه ولذا تمم بالاسمين العزيز الحكم، ولو كان في محل النتيجة من الشهادة لكان حق الكلام أن يتمم بوصفي الوحدة والقيام بالقسط، فهو تعالى حقيق بالتوحيد اذا ذكرت الشهادة المذكورة على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزة التي يمنع جانبه أن يستذل بوجود شريك له في مقام الالوهية، والمتوحد بالحكمة التي تمنع غيره أن ينقض أمره في خلقه أو ينفذ في خلال تدبيره وما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

وقد تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمة التوحيد في الآية، وكذا وجه تتميمها بالاسمين: العزيز الحكيم، والله العالم.

١٩ ● إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

إِلَّا مِنْ بَعْدِمَا جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ.

٢٠ ● فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ.

٢١ ● إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ.

٢٢ ● أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ.

٢٣ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ.

٢٤ ● ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كانُوا يَفْتَرُونَ.

٢٥ ● فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ﴾، قد مر معنى الإسلام بحسب اللغة

وكأن هذا المعنى هو المراد ههنا بقرينة ما يذكره من اختلاف أهل الكتاب بعد العلم بغياً بينهم فيكون المعنى: إن الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلّا به، ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلّا إياه، ولم ينصب الآيات الدالة إلّا له وهو الإسلام الذي هو التسليم للحق الذي هو حق الاعتقاد وحق العمل، وبعبارة اخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام، وهو وإن اختلف كما وكيفاً في شرائع أنبيائه ورسله على ما يحكيه الله سبحانه في كتابه غير أنه ليس في الحقيقة إلّا أمراً واحداً، وإنما اختلاف الشرائع بالكمال والنقص دون التضاد والتنافي، والتفاضل بينها بالدرجات، ويجمع الجميع أنها تسليم وإطاعة لله سبحانه فيما يريده من عباده على لسان رسله.

فهذا هو الدين الذي أراده الله من عباده وبينه لهم، ولازمه أن يأخذ الانسان بما تبين له من معارفه حق التبين، ويقف عند الشبهات وقوف التسليم من غير تصرف فيها من عند نفسه وأما اختلاف أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الدين مع نزول الكتاب الإلهي عليهم، وبيانه تعالى لما هو عنده دين وهو الإسلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر وكون الدين واحداً بل كانوا عالمين بذلك، وانما حملهم على ذلك بغيهم وظلمهم من غير عذر وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته لا بالله فإنهم يعترفون به، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعاً في دنياه وآخرته: أما في الدنيا فبالخزي وسلب سعادة الحيوة عنه، وأما في الآخرة فبأليم عذاب النار.

والدليل على عموم سرعة الحساب للدنيا والآخرة قوله تعالى بعد آيتين: أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا وآخرة وما لهم من ناصرين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾: الضمير في حاجوك راجع الى أهل الكتاب وهو ظاهر والمراد به محاجتهم في أمر الاختلاف بأن يقولوا: أن اختلافنا ليس لبغي منا بعد البيان بل إنما هو شيء ساقنا اليه عقولنا وأفهامنا واجتهادنا في

تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه وأن ما تراه وتدعو اليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، والدليل على ذلك قوله: فقل: أسلمت وجهي لله، وقوله: وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم، فإن الجملتين حجة سيقت لقطع خصامهم وحجاجهم لا إعراض عن المحاجة معهم.

ومعناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إن الدين عند الله الإسلام لا يختلف فيه كتب الله ولا يرتاب فيه سليم العقل، ويتفرع عليه أن لا حجة عليك في إسلامك وأنت مسلم، فإن حاجوك في أمر الدين فقل: أسلمت وجهي لله ومن اتبعن فهذا هو الدين ولا حجة بعد الدين في أمر الدين ثم سلهم: أأسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا وليقبلوا ما أنزل الله عليك وعلى من قبلك ولا حجة عليهم ولا مخاصمة بعد ذلك بينكم، وإن تولوا فلا تخاصمهم ولا تحاجهم فلا ينبغي الخصام في أمر ضروري، وهو إن الدين هو التسليم لله سبحانه، وما عليك إلّا البلاغ.

وقد أشرك سبحانه في الآية بين أهل الكتاب والاميين بقوله: وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم، لكون الدين مشتركاً بينهم وإن اختلفوا في التوحيد والتشريك.

وقد علق الإسلام على الوجه ـ وهو ما يستقبلك من الشيء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس والمشاعر إسلاماً لجميع البدن ـ ليدل على معنى الإقبال والخضوع لأمر الرب تعالى، وعطف قوله: ومن اتبعن حفظاً لمقام التبعية وتشريفاً للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الى آخر الآية؛ المراد بالاميين المشركين سموا بذلك لتسمية من وضع في مقابلهم بأهل الكتاب، وكذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: ﴿ليس علينا في الاميين سبيل﴾ (آل عمران / ٧٥)، والامي هو الذي لا يكتب ولا يقرء.

وفي قوله تعالى: وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد دلالة

اولاً: على النهي عن المراء والإلحاح في المحاجة فإن المحاجة مع من ينكر الضروري لا تكون إلّا مراثاً ولجاجاً في البحث.

وثانياً: على أن الحكم في حق الناس والأمر مطلقاً الى الله سبحانه، وليس للنبي ﷺ إلّا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ (آل عمران / ١٢٨)، وقال تعالى: ﴿**لست عليهم بمسيطر**﴾ (الغاشية / ٢٣).

وثالثاً: على تهديد أهل الكتاب والمشركين فإن ختم الكلام بقوله: والله بصير بالعباد، بعد قوله: فإنما عليك البلاغ لا يخلو من ذلك، ويدل على ذلك ما وقع من التهديد في نظير الآية، وهو قوله تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله الى أن قال: ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾ (البقرة / ١٣٧)، تذكر الآية أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلي به النبي ويطيب نفسه، فالآية أعني قوله: ﴿**وإن تولوا فإنما عليك البلاغ**﴾، كناية عن الأمر بتخلية ما بينهم وبين ربهم، وإرجاع أمرهم اليه، وهو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم ويسأله لسان استعدادهم.

ومن هنا يظهر: أن ما ذكره بعض المفسرين، أن في الآية دليلاً على حرية الاعتقاد في أمر الدين وأن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآية كما عرفت مسوقة لغير ذلك.

وفي قوله: بصير بالعباد حيث أخذ عنوان العبودية ولم يقل: بصير بهم أو بصير بالناس ونحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده ومربوبون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾ الى آخر الآية: الكلام في الآية وإن كان مسوقاً سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار وبيان للتهديد الذي يشعر به آخر الآية السابقة فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب وخاصة اليهود.

وقوله: ﴿**يَكْفُرُونَ**﴾، ويقتلون، في موضعين للاستمرار ويدلان على كون الكفر بآيات

الله وهو الكفر بعد البيان بغياً، وقتل الأنبياء وهو قتل من غير حق، وقتل الذين يدعون الى القسط والعدل وينهون عن الظلم والبغي دأباً وعادة جارية فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود، فقد قتلوا جمعاً كثيراً وجماً غفيراً من أنبيائهم وعبادهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وكذا النصارى جروا مجريهم.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تصريح بشمول الغضب ونزول السخط، وليس هو العذاب الاخروي فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآية: أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، الخ: فهم مبشرون بالعذاب الدنيوي والاخروي معاً، أما الاخروي فأليم عذاب النار، وأما الدنيوي فهو ما لقوه من التقتيل والإجلاء وذهاب الأموال والأنفس، وما سخط الله عليهم بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، دلالة اولاً: على حبط عمل من قتل رجلاً من جهة أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر وثانياً: على عدم شمول الشفاعة له يوم القيامة لقوله: وما لهم من ناصرين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾ الى آخر الآية: يومي الى تسجيل البغي على أهل الكتاب حسب ما نسبه الله تعالى اليهم وأنهم يبغون باتخاذ الخلاف وإيجاد اختلاف الكلمة في الدين فإنهم اذا دعوا الى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له وتولوا وأعرضوا عنه وليس ذلك إلّا باغترارهم بقولهم لن تمسنا، الخ؛ وبما افتروه على الله في دينهم.

والمراد بالذين اوتوا نصيباً من الكتاب أهل الكتاب وإما لم يقل: اوتوا الكتاب، وقيل: اوتوا نصيباً من الكتاب ليدل على أن الذي في أيديهم من الكتاب ليس إلّا نصيباً منه دون جميعه لأن تحريفهم له وتغييرهم وتصرفهم في كتاب الله أذهب كثيراً من أجزائه كما يومي اليه

قوله في آخر الآية التالية : وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ، وكيف كان فالمراد ـ والله أعلم ـ أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعتزازاً بما قالوا واغتراراً بما وضعوه من عند أنفسهم واستغناءً به عن الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ الخ ؛ معناه واضح ، واغترارهم بفريتهم التي افتريتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعة باطلة إنما هو لكون المغرورين غير المفترين ؛ وعلى هذا فنسبة الافتراء الذي توسل اليها سابقوهم الى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم امة واحدة يرضى بعضهم بفعال بعض .

وإما لأن الاغترار بغرور النفس والغرور بالفرية الباطلة مع العلم بكونها فرية باطلة وذكر المغرور أنه هو الذي افترى ما يغتر به من الفرية ليس من أهل الكتاب ومن اليهود خاصة ببعيد ، وقد حكى الله عنهم مثل بل ما هو أعجب من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا وإذا خلى بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ (البقرة / ٧٧).

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذٰا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاٰ رَيْبَ فِيهِ ﴾ الى آخر الآية ؛ مدخول كيف مقدر يدل على الكلام مثل يصنعون ونحوه ، وفي الآية إبعاد لهؤلاء الذين تولوا اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم وهم معرضون غير أنه لما اريد بيان أنهم غير معجزين لله سبحانه اخذ في الكلام من حالهم يوم القيامة وهم مستسلمون يومئذ ما يضاهي حالهم في الدنيا عند الدعوة الى حكم كتاب الله وهم غير مسلمين له مستكبرون عنه ، ولهذا اخذ بالمحاذاة بين الكلامين ، وعبر عن ما يجري عليهم يوم القيامة بمثل قوله : اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، الخ ؛ دون أن يقال : اذا أحييناهم أو بعثناهم أو ما يماثل ذلك .

والمعنى ـ والله أعلم ـ أنهم يتولون ويعرضون اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم اغتراراً بما افتروه في دينهم واستكباراً عن الحق فكيف يصنعون اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم

يظلمون، واذا كان كذلك كان الواجب عليهم أن لا يتولوا ويعرضوا مظهرين بذلك أنهم معجزون لله غالبون على أمره فإن القدرة كله لله وما هي إلّا أيام مهلة وفتنة.

٢٦ ● قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٢٧ ● تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، أمر بالالتجاء الى الله تعالى الذي بيده الخير على الإطلاق وله القدرة المطلقة ليتخلص من هذه الدعاوي الوهمية التي نشبت في قلوب المنافقين والمتمردين من الحق من المشركين وأهل الكتاب فضلوا وهلكوا بما قدروه لأنفسهم من الملك والعزة والغنى من الله سبحانه، ويعرض الملتجي نفسه على إفاضة مفيض الخير والرازق لمن يشاء بغير حساب.

قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ﴾: الملك باطلاقه شامل لكل ملك حقاً أو باطلاً عدلا أو جوراً فان الملك (كما تقدم بيانه في قوله: أن آتاه الله الملك، الآية: (البقرة/ ٢٥٨) في نفسه موهبة من مواهب الله ونعمة يصلح لأن يترتب عليه آثار حسنة في المجتمع الإنساني وقد جبل الله النفوس على حبه والرغبة فيه، والملك

الذي تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك، وإنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جوراً وغصباً، وإما سيرته الخبيثة مع قدرته على حسن السيرة، ويرجع هذا الثاني أيضاً بوجه الى الأول.

قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَآءُ﴾: العز كون الشيء بحيث يصعب مناله؛ ولذا يقال للشيء النادر الوجود أنه عزيز الوجود أي صعب المنال، ويقال عزيز القوم لمن يصعب قهره والغلبة عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر والغلبة، وصعب المنال من حيث مقامه فيهم ووجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل في كل صعوبة كما يقال: يعز علي كذا. قال تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ (التوبة / ١٢٨)، أي صعب عليه. واستعمل في كل غلبة كما يقال. من عزّ بزّ أي من غلب سلب، قال تعالى: «وعزني في الخطاب، ص ـ ٢٣، أي غلبني، والأصل في معناه ما مر.

ويقابله الذل وهو سهولة المنال بقهر محقق أو مفروض. قال تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ (البقرة / ٦١)، وقال تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ (الإسراء / ٢٤)، وقال تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ (المائدة / ٥٤).

والعزة من لوازم الملك على الإطلاق، وكل من سواه اذا تملك شيئاً فهو تعالى خوله ذلك وملكه، وإن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزة له تعالى محضاً وما عنده غيره منها فانما هو بايتائه وإفضاله. قال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩)، وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون / ٨). وهذه هي العزة الحقيقية وأما غيرها فانما هي ذل في صورة عز. قال تعالى: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ (ص / ٢). ولذا أردفه بقوله: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ (ص / ٣).

وللذل بالمقابلة ما يقابل العز من الحكم فكل شيء غيره تعالى ذليل في نفسه إلّا من أعزه الله تعالى (تعز من تشاء وتذل من تشاء).

قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الأصل في معنى الخير هو الانتخاب وإنما نسمي الشيء خيراً لإنا نقيسه الى شيء آخر نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير ولا نختار إلّا لكونه متضمناً لما نريده ونقصده فما نريده هو الخير بالحقيقة، وإن كنا أردناه أيضاً لشيء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقة. وغيره خير من جهته، فالخير بالحقيقة هو المطلوب لنفسه يسمى خيراً لكونه هو المطلوب اذا قيس الى غيره، وهو المنتخب من بين الأشياء اذا أردنا واحداً منها وترددنا في اختياره من بينها.

فالشيء كما عرفت إنما يسمى خيراً لكونه منتخباً اذا قيس الى شيء آخر مؤثراً بالنسبة الى ذلك الآخر ففي معناه نسبة الى الغير ولذا قيل: إنه صيغة التفضيل وأصله أخير. وليس بأفعل التفضيل، وإنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل؛ يقال: زيد أفضل من عمرو، وزيد أفضلهما، ويقال: زيد خير من عمرو، وزيد خيرهما.

ولو كان خير صيغة التفضيل لجرى فيه ما يجري عليه، ويقال أفضل وأفاضل وفضلى وفضليات، ولا يجري ذلك في خير بل يقال: خير وخيرة وأخيار وخيرات كما يقال: شيخ وشيخة وأشياخ وشيخات فهو صفة مشبهة.

ولعل الوجه في جميع ذلك اعتبار ما في مادة الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق اطلاق الاسم عليه تعالى صوناً لساحته تعالى أن يقاس الى غيره بنحو الإطلاق وقد عنت الوجوه لجنابه؛ وأما التسمية عند الإضافة والنسبة، وكذا التوصيف في الموارد المقتضية لذلك فلا محذور فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن القدرة المطلقة على كل شيء توجب أن لا يقدر أحد على شيء إلّا بإقداره تعالى اياه على

ذلك، ولو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته الى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجهة خارجاً عن سعة قدرته تعالى فلم يكن قديراً على كل شيء؛ واذا كانت لقدرته هذه السعة كان كل خير مفروض مقدوراً عليه له تعالى؛ وكان أيضاً كل خير أفاضه غيره منسوباً اليه مفاضاً عن يديه فهو له أيضاً فجنس الخير الذي لا يشذ منه شاذ بيده، وهذا هو الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: بيدك الخير.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: الولوج هو الدخول، والظاهر كما ذكروه أن المراد من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل والنهار في عرض السنة بحسب اختلاف عروض البقاع والأمكنة على بسيط الأرض، واختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام في الطول والليالي في القصر وهو ولوج النهار في الليل بعد انتهاء الليالي في الطول من أول الشتاء الى أول الصيف ثم يأخذ الليالي في الطول والأيام في القصر وهو ولوج الليل في النهار بعد انتهاء النهار في الطول من أول الصيف الى أول الشتاء، كل ذلك في البقاع الشمالية، والأمر في البقاع الجنوبية على عكس الشمالية منها، فالطول في جانب قصر في الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل دائماً، أما الاستواء في خط الاستواء والقطبين فإنما بحسب الحس وأما في الحقيقة فحكم التغيير دائم وشامل.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وذلك إخراج المؤمن من صلب الكافر، وإخراج الكافر من صلب المؤمن فإنه تعالى سمى الإيمان حيوة ونوراً، والكفر موتاً وظلمة كما قال تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٢)، ويمكن أن يراد الأعم من ذلك ومن خلق الأحياء كالنبات والحيوان من الأرض العديمة الشعور وإعادة الأحياء الى الأرض بإماتتها فإن كلامه تعالى كالصريح في أنه يبدل الميت الى الحي والحي الى

الميت، قال تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ (المؤمنون / ١٥)، الى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، المقابلة المذكورة آنفاً تعطي أن يكون قوله: وترزق، الخ؛ بياناً لما سبقه من إيتاء الملك والعز والإيلاج وغيره، فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله: بيدك الخير، بالنسبة الى ما سبقه من هذا القبيل؛ والمعنى: إنك متصرف في خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب[١][٢][٣][٤].

٢٨ ● لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰيَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ.

٢٩ ● قُلْ إِنْ تُخْفُوا مٰا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَيَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣٠ ● يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ وَاللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ.

---

١. آل عمران ٢٦ ـ ٢٧: بحث في معنى الرزق في القرآن.

٢. آل عمران ٢٦ ـ ٢٧: بحث روائي في: معنى ايتاء الملك وانواعه؛ حكومة بني امية؛ الآية «تخرج الحيّ من الميت»؛ معنى الرزق.

٣. آل عمران ٢٦ ـ ٢٧: بحث علمي في الحكومة (الملك).

٤. آل عمران ٢٦ ـ ٢٧: بحث فلسفي في: العلية؛ استناد الافعال الى الله سبحانه.

٣١ ● قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٣٢ ● قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الأولياء جمع الولي من الولاية وهي في الأصل ملك تدبير أمر الشيء فولي الصغير أو المجنون أو المعتوه هو الذي يملك تدبير امورهم وامور أموالهم فالمال لهم وتدبير أمره لوليهم، ثم استعمل وكثر استعماله في مورد الحب لكونه يستلزم غلباً تصرف كل من المتحابين في امور الآخر لإفضائه الى التقرب والتأثر عن ارادة المحبوب وسائر شؤونه الروحية فلا يخلو الحب عن تصرف المحبوب في امور المحب في حيوته.

فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحي بهم بحيث يؤدي الى مطاوعتهم والتأثر منهم في الأخلاق وسائر شؤون الحيوة وتصرفهم في ذلك؛ ويدل على ذلك تقييد هذا النهي بقوله: من دون المؤمنين، فان فيه دلالة على ايثار حبهم على حب المؤمنين، والقاء أزمة الحيوة اليهم دون المؤمنين، وفيه الركون اليهم والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي ومن يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وإنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهاية نفرة المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به الا بلفظ عام كالتكنية عن القبائح، وهو شائع في اللسان؛ ولذلك أيضاً لم يقول: ومن يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صوناً للمؤمنين من أن ينسب اليهم مثل هذا الفعل.

ومن في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، لابتداء، ويفيد في أمثال هذا المقام معنى التحزب أي ليس من حزب الله في شيء كما قال تعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة / ٥٦)، وكما فيما حكاه عن ابراهيم عليه السلام من قوله: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ (إبراهيم / ٣٦)، أي من حزبي، وكيف كان فالمعنى والله أعلم: ليس من حزب الله مستقراً في شيء من الأحوال والآثار.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْيَةً﴾. الاتقاء في الأصل أخذ الوقاية للخوف ثم ربما استعمل بمعنى الخوف استعمالاً للمسبب في مورد السبب ولعل التقية في المورد من هذا القبيل.

والاستثناء منقطع فإن التقرب من الغير خوفاً بإظهار آثار التولي ظاهراً من غير عقد القلب على الحب والولاية ليس من التولي في شيء لأن الخوف والحب أمران قلبيان متباينان ومتنافيان أثراً في القلب فكيف يمكن اتحادهما؟ فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

وفي الآية دلالة ظاهرة على الرخصة في التقية على ما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما تدل عليه الآية النازلة في قصة عمار وأبويه ياسر وسمية وهي قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد ايمانه إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (النحل / ١٠٦).

وبالجملة الكتاب والسنة متطابقان في جوازها في الجملة، والاعتبار العقلي يؤكد اذ لا بغية للدين، ولا هم لشارعه إلّا ظهور الحق وحياته، وربما يترتب على التقية والمجاراة مع أعداء الدين ومخالفي الحق من حفظ مصلحة الدين وحيوة الحق ما لا يترتب على تركها، وإنكار ذلك مكابرة وتعسف، وسنستوفي الكلام فيها في البحث الروائي التالي، وفي الكلام على قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (النحل / ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرَكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، التحذير تفعيل من الحذر وهو الاحتراز من أمر مخيف وقد حذر الله عباده من عذابه كما قال تعالى: ﴿ان عذاب ربك كان محذوراً﴾ (الإسراء / ٥٧)، وحذر من المنافقين وفتنة الكفار فقال: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ (المنافقين / ٤)، وقال: ﴿واحذرهم ان يفتنوك﴾ (المائدة / ٤٩)، وحذرهم من نفسه كما في هذه الآية وما يأتي بعد آيتين، وليس ذلك إلّا للدلالة على أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز في هذه المعصية، أي ليس بين هذا المجرم وبينه تعالى شيء مخوف آخر حتى يتقى عنه بشيء أو يتحصن منه بحصن. وإنما هو الله الذي لا عاصم منه، ولا أن بينه وبين الله سبحانه أمر مرجو في دفع الشر عنه من ولي ولا شفيع. ففي الكلام أشد التهديد. ويزيد في اشتداده تكراره مرتين في مقام واحد ويؤكده تذييله أولاً بقوله: والى الله المصير. وثانياً بقوله: والله رؤوف بالعباد على ما سيجيء من بيانه.

ومن جهة اخرى: يظهر من مطاوي هذه الآية وسائر الآيات الناهية عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زي العبودية، ورفض لولاية الله سبحانه، ودخول في حزب أعدائه لإفساد أمر الدين؛ وبالجملة هو طغيان وإفساد لنظام الدين الذي هو أشد وأضر بحال الدين من كفر الكافرين وشرك المشركين فإن العدو الظاهر عداوته المبائن طريقته مدفوع عن الحومة سهل الاتقاء والحذر؛ وأما الصديق والحميم اذا استأنس مع الأعداء ودب فيه أخلاقهم وسننهم فلا يلبث فعاله إلّا أن يذهب بالحومة وأهلها من حيث لا يشعرون، وهو الهلاك الذي لا رجاء للحياة والبقاء معه.

وفي قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، دلالة على أن لا مفر لكم منه ولا صارف له؛ ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

والآيات أعني قوله تعالى: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، الآية؛ وما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن، وسيجيء بيانه إنشاء الله في سورة المائدة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، الآية: نظيرة قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (البقرة / ٢٨٤). غير أنه لما كان الأنسب بمجال العلم أن يتعلق بالمخفي بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادي الظاهر قدم ذكر الإخفاء في هذه الآية على ذكر الإبداء، وجرى بالعكس منه في آية البقرة كما قيل.

وقد أمر في الآية رسوله بإبلاغ هذه الحقيقة ـ وهو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه ـ من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام، وليس ذلك إلّا ترفعاً عن مخاطبة من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك في قوله: ومن يفعل ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مضاهاة لما مر من آية البقرة وقد مر الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾، الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمة القول في الآية السابقة الذي أمر به النبي ﷺ؛ والظرف متعلق بمقدر أي واذكر يوم تجد، أو متعلق بقوله: يعلمه الله ويعلم، ولا ضير في تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامة فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبة الى ظهور الأمر لنا لا بالنسبة الى تحققه منه تعالى، وذلك كظهور ملكه وقدرته وقوته في اليوم، قال تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (المؤمن / ١٦)، وقال: ﴿لا عاصم اليوم من الله﴾ (هود / ٤٣)، وقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩)، اذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك والقدرة والقوة والأمر دائماً ـ قبل القيامة وفيها وبعدها ـ وإنما اختص يوم القيامة بظهور هذه الامور لنا معاشر الخلائق ظهوراً لا ريب فيه.

ومن ذلك يظهر أن تعلق الظرف بقوله: يعلمه الله، لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عباده من خير أو شر الى يوم القيامة.

على أن في قوله تعالى: محضراً، دون أن يقول: حاضراً دلالة على ذلك فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجودة محفوظة عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقه يوم القيامة، ولا حافظ لها إلّا الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ (سبأ / ٢١)، وقال: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ (ق / ٤).

وقوله: تجد، من الوجدان خلاف الفقدان، ومن قوله: من خير ومن سوء للبيان، والتنكير للتعميم، أي تجد كل ما عملت من الخير وإن قل وكذا من السوء وقوله: وما عملت من سوء، معطوف على قوله ما عملت من خير على ما هو ظاهر السياق والاية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، وقد مر البحث عنها في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾، الظاهر أنه خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع الى النفس، ولو للتمني، وقد كثر دخوله في القرآن على أن المفتوحة المشددة، فلا يعبأ بما قيل من عدم جوازه وتأويل ما ورد فيه ذلك من الموارد.

والأمد يفيد معنى الفاصلة الزمانية؛ قال الراغب في مفردات القرآن: الأمد والأبد يتقاربان، لكن الابد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود، ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا، والأمد مدة لها حد مجهول اذا اطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الزمان والأمد، أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدء والغاية، ولذا قال بعضهم: الأمد والمدى يتقاربان، انتهى.

وفي قوله: تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، دلالة على أن حضور سيء العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابلة بأن حضور خير العمل يسرها، وإنما تود الفاصلة الزمانية بينها وبينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقائه بحفظ الله فلا يسعها إلّا أن تحب بعده وعدم

حضوره في أشق الأحوال، وعند أعظم الأهوال كما يقول لقرين السوء نظير ذلك، قال تعالى: ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين الى أن قال: حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ (الزخرف / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ذكر التحذير ثانياً يعطي من أهمية المطلب والبلوغ في التهديد ما لا يخفى، ويمكن أن يكون هذا التحذير الثاني ناظراً الى عواقب المعصية في الآخرة كما هو مورد نظر هذه الآية، والتحذير الأول ناظراً الى وبالها في الدنيا أو في الأعم من الدنيا والآخرة.

وأما قوله: والله رؤوف بالعباد فهو ـ على كونه حاكياً عن رأفته وحنانه تعالى المتعلق بعباده كما يحكي عن ذلك الإتيان بوصف العبودية والرقية ـ دليل آخر على تشديد التهديد اذ أمثال هذا التعبير في موارد التخويف والتحذير إنما يؤتى بها لتثبيت التخويف وايجاد الإذعان بأن المتكلم ناصح لا يريد الا الخير والصلاح، تقول: إياك أن تتعرض لي في أمر كذا فإني آليت أن لا اسامح مع من تعرض لي فيه، انما اخبرك بهذا رأفة بك وشفقة.

فيؤل المعنى ـ والله أعلم ـ الى مثل أن يقال: ان الله لرأفته بعباده ينهاهم قبلاً أن يتعرضوا لمثل هذه المعصية التي وبال أمرها واقع لا محالة من غير أن يؤثر فيه شفاعة شافع ولا دفع دافع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، قد تقدم كلام في معنى الحب، وأنه يتعلق بحقيقة معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ الآية (البقرة / ١٦٥).

ونزيد عليه هيهنا: أنه لا ريب أن الله سبحانه ـ على ما ينادي به كلامه ـ إنما يدعو عبده الى الإيمان به وعبادته بالإخلاص له والاجتناب عن الشرك كما قال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (الزمر / ٣)، وقال تعالى: ﴿وما امروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾

(البينة / ٥)، وقال تعالى: ﴿فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ (المؤمن / ١٤)، الى غير ذلك من الآيات[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، الرحمة الواسعة الإلهية وما عنده من الفيوضات المعنوية والصورية غير المتناهية غير موقوفة على شخص أو صنف من أشخاص عباده وأصنافهم، ولا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، ولا سبيل يلزمه على الإمساك إلّا حرمان من جهة عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره، قال تعالى: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠).

والذنوب هي المانعة من نيل ما عنده من كرامة القرب والزلفى وجميع الأمور التي هي من توابعها كالجنة وما فيها، وإزالة رينها عن قلب الإنسان ومغفرتها وسترها عليه هي المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعادة والدخول في دار الكرامة. ولذلك عقب قوله: يحببكم الله بقوله: ويغفر لكم ذنوبكم، فإن الحب كما تقدم يجذب المحب الى المحبوب، وكما كان حب العبد لربه يستدعي منه التقرب بالإخلاص له وقصر العبودية فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعي قربه من العبد، وكشفه حجب البعد وسبحات الغيبة، ولا حجاب إلّا الذنب فيستدعي ذلك مغفرة الذنوب، وأما ما بعده من الكرامة والإفاضة فالجود كاف فيه كما تقدم آنفاً.

والتأمل في قوله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥)، مع قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ كاف في تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ اه، لما كانت الآية السابقة تدعو الى اتباع الرسول، والاتباع وهو اقتفاء الأثر لا يتم إلّا مع كون المتبع (اسم مفعول) سالك سبيل،

---

١. آل عمران ٢٨ ـ ٣٢: بحث في الاخلاص في الدين.

والسبيل الذي يسلكه النبي ﷺ إنما هو الصراط المستقيم الذي هو لله سبحانه، وهو الشريعة التي شرعها لنبيه وافترض طاعته فيه كرر ثانياً في هذه الآية معنى اتباع النبي ﷺ في قالب الإطاعة إشعاراً بأن سبيل الإخلاص الذي هو سبيل النبي هو بعينه مجموع أوامر ونواه ودعوة وإرشاد فيكون اتباع الرسول في سلوك سبيله هو إطاعة الله ورسوله في الشريعة المشرعة. ولعل ذكره تعالى مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد، وذكر الرسول معه سبحانه لان الكلام في اتباعه.

ومن هنا يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم في الآية: أن المعنى: أطيعوا الله في كتابه والرسول في سنته.

وذلك أنه مناف لما يلوح من المقام من أن قوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾، الخ؛ كالمبين لقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾، على أن الآية مشعرة بكون إطاعة الله وإطاعة الرسول واحدة، ولذا لم يكرر الأمر، ولو كان مورد الإطاعة مختلفاً في الله ورسوله لكان الأنسب أن يقال: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول كما في قوله تعالى: ﴿أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء / ٥٩)، كما لا يخفى.

واعلم أن الكلام في هذه الآية من حيث إطلاقها ومن حيث انطباقها على المورد نظير الكلام في الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، فيه دلالة على كفر المتولي عن هذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهي عن تولي الكفار وفيه أيضاً إشعار بكون هذه الآية كالمبينة لسابقتها حيث ختمت بنفي الحب عن الكافرين بأمر الإطاعة، وقد كانت الآية الاولى متضمنة لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك[1].

---

١. آل عمران ٢٨ ـ ٣٢: بحث روائي في التقية.

٣٣ ● إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ.

٣٤ ● ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً﴾ الى آخر الآية: الاصطفاء كما مر بيانه في قوله تعالى: ﴿لقد اصطفيناه في الدنيا﴾ (البقرة / ١٣٠)، أخذ صفوة الشيء وتخليصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار، وينطبق من مقامات الولاية على مقام الإسلام، وهو جري العبد في مجري التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له.

لكن ذلك غير الاصطفاء على العالمين، ولو كان المراد بالاصطفاء هنا ذاك الاصطفاء لكان الأنسب أن يقال: من العالمين، وأفاد اختصاص الاسلام بهم واختلل معنى الكلام، فالاصطفاء على العالمين، نوع اختيار وتقديم لهم عليهم في أمر أو امور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم.

ومن الدليل على ما ذكرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران / ٤٢)، حيث فرّق بين الاصطفائين فالاصطفاء غير الاصطفاء.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، الذرية في الأصل صغار الأولاد على ما ذكروا ثم استعملت في مطلق الأولاد، وهو المعنى المراد في الآية؛ وهي منصوبة عطف بيان.

وفي قوله: بعضها من بعض دلالة على أن كل بعض فرض منها يبتدئ وينتهي من البعض

الآخر واليه. ولازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا يفترق البعض من البعض في أوصافه وحالاته، واذا كان الكلام في اصطفائهم أفاد ذلك أنهم ذرية لا يفترقون في صفات الفضيلة التي اصطفاهم الله لأجلها على العالمين اذ لا جزاف ولا لعب في الأفعال الإلهية، ومنها الاصطفاء الذي هو منشأ خيرات هامة في العالم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي سميع بأقوالهم الدالة على باطن ضمائرهم، عليم بباطن ضمائرهم وما في قلوبهم فالجملة بمنزلة التعليل لاصطفائهم، كما أن قوله: ذرية بعضها من بعض، بمنزلة التعليل لشمول موهبة الاصطفاء لهؤلاء الجماعة، فالمحصل من الكلام: ان الله اصطفى هؤلاء على العالمين، وإنما سرى الاصطفاء الى جميعهم لأنهم ذرية متشابهة الأفراد، بعضهم يرجع الى البعض في تسليم القلوب وثبات القول بالحق، وإما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سميع عليم يسمع أقوالهم ويعلم ما في قلوبهم.

٣٥ ● إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

٣٦ ● فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

٣٧ ● فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

٣٨ ● هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

٣٩ ● فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

٤٠ ● قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

٤١ ● قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب. والتحرير هو الإطلاق عن وثاق، ومنه تحرير العبد عن الرقية، وتحرير الكتاب كأنه إطلاق للمعاني عن محفظة الذهن والفكر. والتقبل هو القبول عن رغبة ورضى كتقبل الهدية وتقبل الدعاء ونحو ذلك.

وفي قوله: قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني، دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملاً، وأن حملها كان من عمران، ولا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حياً عندئذ وإلّا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه أيضاً ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾

الآية (آل عمران / ٤٤)، على ما سيجيء من البيان.

ومن المعلوم أن تحرير الاب أو الام للولد ليس تحريراً عن الرقية وإنما هو تحرير عن قيد الولاية التي للوالدين على الولد من حيث تربيته واستعماله في مقاصدهما وافتراض طاعتهما فبالتحرير يخرج من تسلط أبويه عليه في استخدامه، واذا كان التحرير منذوراً لله سبحانه يدخل في ولاية الله يعبده ويخدمه؛ أي يخدم في البيع والكنائس والأماكن المختصة بعادته تعالى في زمان كان فيه تحت ولاية الأبوين لولا التحرير؛ وقد قيل: إنهم كانوا يحررون الولد لله فكان الأبوان لا يستعملانه في منافعهما: ولا يصرفانه في حوائجهما بل كان يجعل في الكنسية يكنسها ويخدمها لا يبرح حتى يبلغ الحلم ثم يخير بين الإقامة والرواح فإن أحب أن يقيم أقام، وإن احب الرواح ذهب لشأنه.

وفي الكلام دلالة على أنها كانت تعتقد أن ما في بطنها ذكر لا اناث حيث إنها تناجي ربها عن جزم وقطع من غير اشتراط وتعليق حيث تقول: نذرت لك ما في بطني محرراً من غير أن تقول مثلاً إن كان ذكراً ونحو ذلك.

وليس تذكير قوله: محرراً، من جهة كونه حالا عن ما الموصولة التي يستوي فيه المذكر والمؤنث اذ لو كانت نذرت تحير ما في بطنها سواء كان ذكراً أو انثى لم يكن وجه لما قالتها تحزناً وتحسراً لما وضعتها: رب إني وضعتها انثى؛ ولا وجه ظاهر لقوله تعالى: والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى؛ على ما سيجيء بيانه.

وفي حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلالة على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتماداً على بعض القرائن الحدسية التي تسبق الى أذهان النسوان بتجارب ونحوه فكل ذلك ظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وكلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلّا مع إبطاله، وقد قال تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وما تزاد﴾ (الرعد / ٨)، وقال تعالى: ﴿عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ (لقمان / ٣٤)، فجعل العلم بما في

الأرحام من الغيث المختص به تعالى، وقال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى﴾ (الجن / ٢٧)، فجعل علم غيره بالغيب منتهياً الى الوحي فحكايته عنها الجزم في القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكورة ما في بطنها كان ينتهي بوجه الى الوحي، ولذلك لما تبينت أن الولد انثى لم تيأس عن ولد ذكر فقالت ثانياً عن جزم وقطع: وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، الآية: فأثبتت لها ذرية ولا سبيل الى العلم به ظاهراً.

ومفعول قولها: فتقبل مني، وإن كان محذوفاً محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾، لا يخلو عن إشعار أو دلالة على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾؛ في وضع الضمير المؤنث موضع ما في بطنها إيجاز لطيف، والمعنى فلما وضعت ما في بطنها وتبينت أنه انثى قالت: رب إني وضعتها انثى، وهو خبر اريد به التحسر والتحزن دون الإخبار وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، جملتان معترضتان وهما جميعاً مقولتان له تعالى لا لامرأة عمران، ولا أن الثانية مقولة لها والاولى مقولة لله.

أما الاولى فهي ظاهرة لكن لما كانت قولها: رب إني وضعتها انثى، مسوقاً لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: والله أعلم بما وضعت، أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها انثى لكنا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه وأرضى طريق، ولو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما في بطنها انثى لم تتحسر ولم تحزن ذاك التحسر والتحزن والحال أن الذكر الذي كانت ترجوه لم يكن ممكناً أن يصير مثل هذا الانثى التي وهبناها لها، ويترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الانثى فإن غاية أمره أن يصير مثل عيسى نبياً مبرئاً للأكمه والأبرص ومحيياً للموتى لكن هذه

الانثى ستتم به كلمة الله وتلد ولداً بغير أب، وتجعل هي وابنها آية للعالمين، ويكلم الناس في المهد، ويكون روحاً وكلمة من الله، مثله عند الله كمثل آدم الى غير ذلك من الآيات الباهرات في خلق هذه الانثى الطاهرة المباركة وخلق ابنها عيسى عليه السلام.

ومن هنا يظهر: أن قوله: وليس الذكر كالانثى، مقول له تعالى لا لامرأة عمران، ولو كان مقولاً لها لكان حق الكلام ان يقال: وليس الانثى كالذكر لا بالعكس وهو ظاهر فإن من كان يرجو شيئاً شريفاً أو مقاماً عالياً ثم رزق ما هو أخس منه وارده إنما يقول عند التحسر: ليس هذا الذي وجدته هو الذي كنت أطلبه وأبتغيه أو ليس ما رزقته كالذي كنت أرجوه، ولا يقول: ليس ما كنت أرجوه كهذا الذي رزقته البتة؛ وظهر من ذلك أن اللام في الذكر والانثى معاً أو في الانثى فقط للعهد.

وقد أخذ أكثر المفسرين قوله: وليس الذكر كالانثى، تتمة قول امرأة عمران، وتكلفوا في توجيه تقديم الذكر على الانثى بما لا يرجع الى محصل، من أراده فليرجع الى كتبهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾؛ معنى مريم في لغتهم العابدة والخادمة على ما قيل، ومنه يعلم وجه مبادرتها الى تسمية المولودة عند الوضع، ووجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكراً محرراً للعبادة وخدمة الكنيسة بادرت الى هذه التسمية وأعدتها بالتسمية للعبادة والخدمة. فقولها: وإني سميتها مريم بمنزلة أن تقول: إني جعلت ما وضعتها محررة لك، والدليل على كون هذا القول منها في معنى النذر قوله تعالى: فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، الآية.

ثم أعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العبادة والخدمة ويطابق اسمها المسمى.

والكلام في قولها: وذريتها، من حيث أنه قول مطلق من شرط وقيد لا يصح ان تفوه به في

حضرة التخاطب ممن لا علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله سبحانه؛ نظير الكلام في قولها: رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً، على ما تقدم بيانه فليس إلّا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولداً ذكراً صالحاً ثم لما حملت وتوفي عمران لم تشك أن ما في بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثم لما وضعتها وبان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولودة فحولت نذرها من الابن الى البنت، وسمتها مريم (العابدة، الخادمة) وأعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر في كلامه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾؛ القبول اذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذي معناه القبول عن الرضا، فالكلام في معنى قولنا: فتقبلها ربها تقبلاً فإنما حلل التقبل الى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود في الكلام، ولما في التصريح بحسن القبول من التشريف البارز.

وحيث قوبل بهاتين الجملتين أعني قوله: فتقبلها الى قوله: حسناً، الجملتان في قولها: وإني سميتها الى قولها: الرجيم كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فتقبلها ربها بقبول حسن، قبولاً لقولها وإني سميتها مريم، وقوله: وأنبتها نباتاً حسناً، قبولاً وإجابة لقولها: وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأة عمران بالنذر، وإعطاء الثواب الاخروي لعملها فإن القبول إنما نسب الى مريم لا الى النذر وهو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماة بمريم ومحررة فيعود معناه الى اصطفائها (وقد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه) فافهم ذلك.

والمراد بإنباتها نبتاً حسناً إعطاء الرشد والزكاة لها ولذريتها، وإفاضة الحيوة لها ولمن ينمو منها من الذرية حيوة لا يمسها نفث الشيطان ورجس تسويله ووسوسته، وهو الطهارة.

وهذان أعني القبول الحسن الراجع الى الاصطفاء، والنبات الحسن الراجع الى التطهير هما اللذان يشير اليهما قوله تعالى في ذيل هذه الآيات: ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك﴾، الآية وسنوضحه بياناً إنشاء الله العزيز.

فقد تبين أن اصطفاء مريم وتطهيرها إنما هما استجابة لدعوة امها كما أن اصطفائها على نساء العالمين في ولادة عيسى عليه السلام، وكونها وابنها آية للعالمين تصديق لقوله تعالى: وليس الذكر كالانثى.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وانما كفلها بإصابة القرعة حيث اختصموا في تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعة فأصابت القرعة زكريا كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون﴾، الآية.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ الخ: المحراب المكان المخصوص بالعبادة من المسجد والبيت، قال الراغب: ومحراب المسجد، قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريباً (أي سليباً) من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر، وقيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمي صدره به وقيل: بل المحراب أصله في المسجد وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد، وكأن هذا أصح، قال عز وجل: ﴿يعملون لهما يشاء من محاريب وتماثيل﴾، انتهى.

وذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدم المعبد، لها باب يصعد اليه بسلم ذي درجات قليلة، ويكون من فيه محجوباً عمن في المعبد.

أقول: واليه ينتهي اتخاذ المقصورة في الإسلام.

وفي تنكير قوله: رزقاً، إشعار بكونه رزقاً غير معهود كما قيل: إنه كان يجد عندها فاكهة

الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. ويؤيده أنه لو كان من الزرق المعهود، وكان تنكيره يفيد أنه ما كان يجد محرابها خالياً من الرزق بل كان عندها رزق ما دائماً لم يقنع زكريا بقولها: هو من عند الله إن الله يرزق، الخ؛ في جواب قوله: يا مريم أنى لك هذا، لإمكان أن يكون يأتيها بعض الناس ممن كان يختلف الى المسجد لغرض حسن أو سبيء.

على أن قوله تعالى: هنالك دعا زكريا ربه، الخ؛ يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامة إلهية خارقة فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذرية طيبة، فقد كان الرزق رزقاً يدل بوجوده على كونه كرامة من الله سبحانه لمريم الطاهرة، ومما يشعر بذلك قوله تعالى: قال يا مريم، الخ؛ على ما سيجيء من البيان.

وقوله: قال يا مريم أنى لك، الخ؛ فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله: وجد عندها رزقاً، يدل على أنه عليه السلام إنما قال لها ذلك مرة واحدة فأجابت بما قنع به واستيقن أن ذلك كرامة لها وهنالك دعا وسأل ربه ذرية طيبة.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الخ؛ طيب الشيء ملائمته لصاحبه فيما يريده لأجله، فالبلد الطيب ما يلائم حيوة أهله من حيث الماء والهواء والرزق ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ (الأعراف / ٥٨)، والعيشة الطيبة والحيوة الطيبة ما يلائم بعض أجزائها بعضاً ويسكن اليها قلب صاحبها ومنه الطيب للعطر الزكي فالذرية الطيبة هو الولد الصالح لأبيه مثلاً الذي يلائم من حيث صفاته وأفعاله ما عند أبيه من الرجاء والامنية فقول زكريا عليه السلام: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة، لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم وخصوص كرامتها على الله وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطراً وكرامة، فكون ذريته طيبة أن يكون لها ما لمريم من الكرامة عند الله والشخصية في نفسها، ولذلك استجيب في عين ما سأل من الله، ووهب له يحيى وهو أشبه

الأنبياء بعيسى عليه السلام، وأجمع الناس لما عند عيسى وامه مريم الصديقة من صفات الكمال والكرامة، ومن هنا ما سماه تعالى بيحيى وجعله مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، وهذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم وابنه عيسى عليه السلام على ما سنبينه ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ الى آخر الآية؛ ضمائر الغيبة والخطاب لزكريا، والبشرى والإبشار والتبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده.

وقوله: أن الله يبشرك بيحيى، دليل على أن تسميته بيحيى إنما هو من جانب الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات في سورة مريم، قال تعالى: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ (مريم / ٧).

وتسميته بيحيى وكون التسمية من عند الله سبحانه في بدء ما بشر به زكريا قبل تولد يحيى وخلقه يؤيد ما ذكرناه آنفاً: أن الذي طلبه زكريا من ربه أن يرزقه ولداً يكون شأنه شأن مريم، وقد كانت مريم هي وابنها عيسى عليه السلام آية واحدة كما قال تعالى: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١).

فروعي في يحيى عليه السلام ما روعي فيهما من عند الله سبحانه، وقد روعي في عيسى عليه السلام كمال ما روعي في مريم، فالمرعي في يحيى هو الشبه التام والمحاذاة الكاملة مع عيسى عليه السلام فيما يمكن ذلك، ولعيسى في ذلك كله التقدم التام لأن وجوده كان مقدراً قبل استجابة دعوة زكريا عليه السلام في حق يحيى، ولذلك سبقه عيسى في كونه من اولي العزم صاحب شريعة وكتاب وغير ذلك لكنهما تشابها وتشابه أمرهما فيما يمكن.

وفي قوله: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ دلالة على كونه من دعاة عيسى فالكلمة هو عيسى المسيح كما ذكره تعالى في ذيل هذه الآيات في بشارة الروح لمريم.

والسيد هو الذي يتولى أمر سواد الناس وجماعتهم في أمر حيوتهم ومعاشهم أو في فضيلة من الفضائل المحمودة عندهم ثم غلب استعماله في شريف القوم لما أن التولي المذكور يستلزم شرفاً بالحكم أو المالأو فضيلة اخرى.

والحصور هو الذي لا يأتي النساء، والمراد بذلك في الآية بقرينة السياق الممتنع عن ذلك للإعراض عن مشتهيات النفس زهداً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ استفهام تعجيب واستعلام لحقيقة الحال لا استبعاد واستعظام مع تصريح البشارة بذلك وأن الله سبحانه سيرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذكر هذه الوصفين اللذين جعلهما منشأ للتعجب والاستعلام في ضمن مسألته على ما في سورة مريم حيث قال ﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ (مريم / ٥).

لكن المقام يمثل معنى آخر فكأنه عليه السلام لما انقلب حالاً من مشاهدة أمر مريم وتذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلّا وقد سأل ربه ما سأل وقد ذكر في دعائه ماله سهم وافر في تأثره وتحزنه وهو بلوغ الكبر، وكون امرأته عاقراً، فلما استجيبت دعوته وبشر بالولد كأنه صحا وأفاق مما كان عليه من الحال، وأخذ يتعجب من ذلك وهو بالغ الكبر وامرأته عاقر، فصار ما كان يثير على وجهه غبار اليأس وسيماء الحزن يغيره الى نظرة التعجب المشوب بالسرور.

على أن ذكر نواقص الأمر بعد البشارة بقضاء أصل الحاجة واستعلام كيفية رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصيات الإفاضة والإنعام التذاذاً بالنعمة الفائضة بعد النعمة نظير ما وقع في بشري إبراهيم بالذرية، قال تعالى: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال

أبشرتمون على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون﴾ (الحجر / ٥٦)، فذكر في جواب نهي الملائكة إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف وهو غير ضال والقنوط ضلالة، بل السيد اذا أقبل على عبده إقبالاً يؤذن بالقرب والانس والكرامة أوجب ذلك انبساطاً من العبد وابتهاجاً يستدعي تلذذه من كل حديث، وتمتعه في كل باب.

وفي قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرِ﴾ من مراعاة الأدب ما لا يخفى فإنه كناية عن أنه لا يجد من نفسه شهوة النكاح لبلوغ الشيخوخة والهرم. وقد اجتمعت في امرأته الكبر والعقر معاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، فاعل قال وإن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطة الملائكة وحياً أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول على اي حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطة لملك فالقائل هو الملك وقد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم في القصة: ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ (مريم / ٩).

وانه يظهر اولاً: أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولاً. وثانياً: أن قوله: كذلك، خبر لمبتدء محذوف، والتقدير: الأمر كذلك أي الذي بشرت به من الموهبة هو كذلك كائن لا محالة، وفيه إشارة الى كونه من القضاء المحتوم الذي لا ريب في وقوعه نظير ما ذكره الروح في جواب مريم على ما حكاه الله تعالى: ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هيّن ـ الى أن قال ـ: وكان أمراً مقضياً﴾ (مريم / ٢١)، وثالثاً: أن قوله: الله يفعل ما يشاء كلام مفصول في مقام التعليل لمضمون قوله: كذلك اه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ

﴿إِلَّا رَمْزاً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: الرمز الايماء بالشفتين، وقد يستعمل في الايماء بالحاجب والعين واليد، والأول أغلب، انتهى. والعشي الطرف المؤخر من النهار، وكأنه مأخوذ من العشوة وهي الظلمة الطارئة في العين المانعة عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفاً للوقت لرواحه الى الظلمة، والإبكار صدر النهار والطرف المقدم منه. والأصل في معناه الاستعجال[1][2][3].

٤٢ ● وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يـا مَـرْيَمُ إِنَّ اللّٰـهَ اصْـطَفَاكِ وَطَـهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ

٤٣ ● يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ.

٤٤ ● ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.

٤٥ ● إِذْ قَالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

٤٦ ● وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ

٤٧ ● قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذٰلِكِ اللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

---

١. آل عمران ٣٥ ـ ٤١: بحث في سؤال زكريا ربه أن يجعل له آية ...

٢. آل عمران ٣٥ ـ ٤١: كلام في الخواطر الملكية والشيطانية وما يلحق بها من التكليم.

٣. آل عمران ٣٥ ـ ٤١: بحث روائي في ولادة مريم؛ دعاء زكريا في طلب الذرية.

٤٨ ● وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ.

٤٩ ● وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّٰهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

٥٠ ● وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ.

٥١ ● إِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.

٥٢ ● فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللّٰهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّٰهِ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.

٥٣ ● رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ.

٥٤ ● وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّٰهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ.

٥٥ ● إِذْ قالَ اللّٰهُ يا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

٥٦ ● فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ.

٥٧ ● وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.

٥٨ ● ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

٥٩ ● إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

٦٠ ● الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾: الجملة معطوفة على قوله: اذ قالت امرأة عمران، فتكون شرحاً مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: إن الله اصطفى، الآية.

وفي الآية دليل على كون مريم محدثة تكلمها الملائكة وهي تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضاً قوله في سورة مريم: فأرسلنا اليه روحنا فتمثل لها بشراً سوياً، الى آخر الآيات؛ وسيأتي الكلام في المحدث.

وقد تقدم في قوله تعالى: فتقبلها ربها بقبول حسن؛ الآية: أن ذلك بيان لاستجابة دعوة ام مريم: وإني سميتها مريم: وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، الآية؛ وأن قول الملائكة لمريم: إن الله اصطفيك وطهرك إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامة والمنزلة فارجع الى هناك.

فاصطفائها تقبلها لعبادة الله، وتطهيرها اعتصامها بعصمة الله فهي مصطفاة معصومة؛ وربما قيل: إن المراد من تطهيرها جعلها بتولاً لا تحيض فيتهيأ لها بذلك أن لاتضطر الى

الخروج من الكنيسة. ولا بأس به غير أن الذي ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ﴾ قد تقدم في قوله تعالى: إن الله اصطفى الى قوله: على العالمين أن الاصطفاء المتعدي بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم؛ وعلى هذا فصطفائها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

وهل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: اذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك. الآية؛ وقوله تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١)، وقوله تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (التحريم / ١٢)؛ حيث لم تشتمل عما تختص بها من بين النساء إلّا على شأنها العجيب في ولادة المسيح عليه السلام أن هذا هو وجه اصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين.

وأما ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت وكونها محدثة فهي امور لا تختص بها بل يوجد في غيرها، وأما ما قيل: إنها مصطفاة على نساء عالمي عصرها فإطلاق الآية يدفعه.

قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: القنوت هو لزوم الطاعة عن خضوع على ما قيل، والجسدة معروفة. والركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

ولما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى (اسم مفعول) وتوجيه فهمه نحو المنادي (اسم فاعل) كان تكرار النداء في المقام بمنزلة أن يقال لها: إن لك عندنا نبأ بعد نبأ فاستمعي لهما وأصغي اليهما: أحدهما ما أكرمك الله به من منزلة وهو مالك عند الله، والثاني ما يلزمك من وظيفة العبودية بالمحاذاة، وهو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاءاً للعبودية وشكراً

للمنزلة فيؤل معنى الكلام الى كون قوله : يا مريم اقنتي ، الخ ؛ بمنزله التفريع لقوله : يا مريم إن الله اصطفيك ، الخ ؛ أي اذا كان كذلك فاقنتي واسجدي واركعي مع الراكعين ، ولا يبعد أن يكون كل واحدة من الخصال الثلاثة المذكورة في هذه الآية فرعاً لواحدة من الخصال الثلاثة المذكورة في الآية السابقة ، وإن لم يخل عن خفاء فليتأمل .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ؛ عده من أنباء الغيب نظير ما عدت قصة يوسف عليه السلام من أنباء الغيب التي توحي الى رسول الله ؛ قال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ (يوسف / ١٠٢) . وأما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبرة به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيراً من الخصوصيات المقتصة في قصص زكريا غير موجودة في كتب العهدين على ما وصفه الله في القرآن .

ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في ذيل الآية : وما كنت لديهم اذ يلقون ، الخ .

على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقومه كانوا اميين غير عالمين بهذه القصص ولا أنهم قرنوها في الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصة نوح : ﴿ **تلك من أنباؤ الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ (هود / ٤٩) ، والوجه الأول أوفق بسياق الآية .

قوله تعالى : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾ الخ ؛ القلم فتحتين القدح الذي يضرب به القرعة ، ويسمى سهماً أيضاً ، وجمعه أقلام ، فقوله : يلقون أقلامهم أي يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعة أيهم يكفل مريم .

وفي هذه الجملة دلالة على أن الاختصام الذي يدل عليه قوله : وما كنت لديهم اذ يختصمون إنما هو اختصامهم وتشاحهم في كفالة مريم ، وأنهم لم يتناهوا حتى تراضوا بالاقتراع بينهم فضربوا بالقرعة فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله : فكفلها زكريا ، الآية .

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ الخ: الظاهر أن هذه البشارة هي التي يشتمل عليها قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ الآيات (مريم / ١٩)، فتكون البشارة المنسوبة الى الملائكة هيهنا هي المنسوبة الى الروح فقط هناك.

وقد قيل في وجهه أن المراد بالملائكة هو جبرئيل، عبر بالجمع عن الواحد تعظيماً لامر كما يقال: سافر فلان فركب الدواب وركب السفن، وإنما ركب دابة واحدة وسفينة واحدة، ويقال: قال له الناس كذا، وإما قاله واحد وهكذا، ونظيره الآية قوله في قصة زكريا السابقة: فنادته الملائكة ثم قوله: قال كذلك الله يفعل ما يشاء، الآية.

وربما قيل: إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوا في ندائها.

والذي يعطيه التدبر في الآيات التي تذكر شأن الملائكة أن بين الملائكة تقدماً وتأخراً من حيث مقام القرب، وأن للمتأخر التبعية المحضة لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبة، عين فعل المتقدم، وقوله عين قوله نظير ما نشاهده ونذعن به من كون أفعال قوانا وأعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول: رأته عيناي وسمعته اذناي، ورأيته وسمعته، ويقال فعلته جوارحي وكتبته يدي ورسمته أناملي وفعلته أنا وكتبته أنا، وكذلك فعل المتبوع من الملائكة فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، وقوله قولهم من غير اختلاف، وبالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه وقولهم قوله، كما قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر / ٤٢)، فنسب التوفي الى نفسه، وقال: ﴿قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (السجدة / ١١)، فنسبه الى ملك الموت وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١)، فنسبه الى جمع من الملائكة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا اليك﴾ (النساء / ١٦٣)، وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين

على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤)، وقوله: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ (البقرة / ٩٧)، وقوله: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام برررة﴾ (عبس / ١٦).

فظهر أن بشارة جبريل هي عين بشارة من هو تحت أمره من جماعة الملائكة وهو من سادات الملائكة ومقربيهم على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ (التكوير / ٢١)، وسيأتي زيادة توضيح لهذا الكلام في سورة فاطر انشاء الله تعالى.

ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى في الآية التالية: قال كذلك الله يفعل ما يشاء، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول في سورة مريم في القصة الى الروح، قال تعالى: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ الآيات (مريم / ٢١).

وفي تكلم الملائكة والروح مع مريم دلالة على كونها محدثة بل قوله تعالى في سورة مريم في القصه بعينها: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ (مريم / ١٧)، يدل على معاينتها الملك زيادة على سماعها صوته، وسيجيء تمام الكلام في المعنى في البحث الرائي الآتي إنشاء الله.

قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾: قد مر البحث في معنى كلامه تعالى في تفسير قوله: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ (البقرة / ٢٥٣).

والكلمة والكلم كالتمرة والتمر جنس وفرد وتطلق الكلمة على اللفظ الواحد الدال على المعنى، وعلى الجملة سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائماً. هذا بحسب اللغة، وأما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعني الكلمة المنسوبة الى الله تعالى فهي الذي يظهر به ما أراده الله تعالى من أمر نحو كلمة الإيجاد وهو قوله تعالى لشيء أراده: كن، أو كلمة الوحي والإلهام ونحو ذلك.

وأما المراد بالكلمة فقد قيل: إن المراد به المسيح عليه السلام من جهة أن من اسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بني إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجي بني إسرائيل؛ قال في نظير المورد هذه كلمتي التي كنت أقولها، ونظيره قوله تعالى في ظهور موسى عليه السلام: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ (الأعراف / ١٣٧)، وفيه أن ذلك وإن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشراً لا مبشراً به. على أن سياق قوله: اسمه المسيح لا يناسبه فإن الكلمة على هذا ظهور عيسى الخبر به قبلاً لا نفس عيسى، وظاهر قوله: اسمه المسيح، أنا لمسيح اسم الكلمة لا اسم من تقدمت في حقه الكلمة.

وربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السلام لإيضاحه مراده تعالى بالتوراة، وبيانه تحريفات اليهود وما اختلفوا فيه من امور الدين كما حكى الله تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بني إسرائيل: ﴿ولا بين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ (الزخرف / ٦٣)، وفيه أنه نكتة تصحح هذا التعبير لكنها خالية عما يساعدها من القرائن.

وربما قيل: إن المراد بكلمة منه البشارة نفسها، وهي الإخبار بحملها بعيسى وولادته فمعنى قوله: يبشرك بكلمة منه: يبشرك ببشارة هي أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر، وفيه أن سيقال الذيل أعني قوله: اسمه المسيح، لا يلائمه وهو ظاهر.

وربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السلام من جهة كونه كلمة الإيجاد أعني قوله: كن وإنما اختص عيسى عليه السلام بذلك مع كون كل إنسان بكل شيء موجوداً بكلمة كن التكوينية لأن سائر الأفراد من الإنسان يجري ولادتهم على مجرى الأسباب العادية المألوفة في العلوق من ورود ماء الرجل على نطفة الإناث، وعمل العوامل المقارنة في ذلك، ولذلك يسند العلوق اليه كما يسند سائر المسببات الى أسبابها، ولما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى وفقد بعض الأسباب العادية التدريجية كان وجوده بمجرد كلمة التكوين من غير تخلل الأسباب العادية فكان نفس الكلمة كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه﴾ (النساء / ١٧١)، وقوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ الآية؛ وهذا أحسن الوجوه.

والمسيح هو الممسوح سمي به عيسى عليه السلام لأنه كان مسيحاً باليمين والبركة أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بدهن بورك فيه وكانت الأنبياء يمسحون به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذة من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عن الأعمى بيده فيبصر، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برء، فهذه وجوه ذكروها في تسميته بالمسيح.

وتقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب في الآية لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب، ويكون معروفاً بهذا النعت، وأن مريم شريته في هذه الآية كما قال تعالى: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١).

قوله تعالى: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، الوجاهة هي المقبولية، وكونه عليه السلام مقبولاً في الدنيا مما لا خفاء فيه، وكذا في الآخرة بنص القرآن.

ومعنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل في صف الأولياء والمقربين من الملائكة من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون﴾ (النساء / ١٧٢)، وقد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: ﴿إذا وقعت الواقعة ـ إلى أن قال ـ: وكنتم أزواجاً ثلثة ـ إلى أن قال: والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ (الواقعة / ١١)، والآية كما ترى تدل على أن هذا التقرب وهو تقرب الى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه في سلوك طريق العود الى الله الذي سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شيء، قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق / ٦)، وقال تعالى: ﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾ (الشورى / ٥٣).

وأنت اذا تأملت كون المقربين صفة الأفراد من الإنسان وصفة الأفراد من الملائكة علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاماً اكتسابياً فإن الملائكة لا يحرزون ما أحرزوه في المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكة بهبة إلهية والمقربون من الإنسان بالعمل.

وقوله وجيهاً في الدنيا والآخرة، حال، وكذا ما عطف عليه من قوله: ومن المقربين، ويكلم اه، ومن الصالحين، ويكلمه اه، رسولاً اه.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾، المهد ما يهيأ للصبي من الفراش، والكهل من الكهولة وهو ما بين الشباب والشيخوخة، وهو ما يكون الإنسان فيه رجلاً تاماً قوياً، ولذا قيل: الكهل من وخطه الشيب أي خالطه، وربما قيل: إن الكهل من بلغ أربعاً وثلاثين.

وكيف كان ففيه دلالة على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهولة ففيه بشارة اخرى لمريم.

وفي التصريح بذلك مع دلالة الأناجيل على أنه لم يعش في الأرض أكثر من ثلاثة وثلاثين سنة نظر ينبغي أن يمعن فيه، ولذا ربما قيل: إن تكليمه للناس كهلاً إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث في الأرض ما يبلغ به سن الكهولة، وربما قيل: إن الذي يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى عليه السلام عاش نحواً من أربع وستين سنة خلافاً لما يظهر من الأناجيل.

والذي يظهر من سياق قوله: في المهد وكهلاً، أنه لا يبلغ سن الشيخوخة، وإنما ينتهي الى سن الكهولة؛ وعلى هذا فقد أخذ في البيان كلامه في طرفي عمره: الصبي والكهولة.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، خطابها لربها مع كون المكلم إياها الروح المتمثل بناءاً على ما تقدم أن خطاب الملائكة وخطاب الروح وكلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذي يكلمها هو الله سبحانه وإن كان الخطاب متوجهاً إليها من جهة الروح المتمثل أو الملائكة ولذلك خاطبت ربها.

ويمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالى: ﴿قال رب ارجعون﴾ (المؤمنون / ٩٩)، فهو من الاستعانة المعترضة في الكلام.

قوله سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ قد مرت الإشارة الى أن تطبيق هذا الجواب بما في سورة مريم من قوله: ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ (مريم / ٢١)، يفيد أن يكون قوله هيهنا: كذلك كلاماً تاماً تقديره: الأمر كذلك ومعناه أن الذي بشرت به أمر مقضي لا مرد له.

وأما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الله سبحانه أو يشق: أما القدرة فإن قدرته غير محدودة يفعل ما يشاء، وأما صعوبته ومشقته فإن العسر

والصعوبة إنما يتصور اذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات والأسباب وعزت وبعد منالها اشتد الأمر صعوبة، والله سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون.

فقد ظهر أن قوله: كذلك كلام تام أُريد به رفع اضطراب مريم وتردد نفسها، وقوله: الله يخلق ما يشاء، رفع العجز الذي يوهمه التعجب، وقوله: اذا قضى، رفع لتوهم العسر والصعوبة.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، اللام في الكتاب والحكمة للجنس. وقد مر أن الكتاب هو الوحي الرافع لاختلافات الناس؛ والحكمة هي المعرفة النافعة المتعلقة بالاعتقاد أو العمل، وعلى هذا فعطف التوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهمية في اختصاصه بالذكر، وليست لام الكتاب لاستغراق لقوله تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾ (الزخرف / ٦٣)، وقد مر بيانه.

وأما التوراة فالذي يريد القرآن منها هو الذي نزله الله على موسى عليه السلام في الميقات في ألواح على ما يقصه الله سبحانه في سورة الأعراف؛ وأما الذي عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين يختنصر من ملوك بابل وكورش من ملوك الفرس، غير أن القرآن يصدق أن التوراة الموجود بأيديهم في زمن النبي صلى الله عليه وآله غير مخالفة للتوراة الأصل بالكلية وإن لعبت بها يد التحريف؛ ودلالة آيات القرآن على ذلك واضحة.

وأما الإنجيل ومعناه البشارة فالقرآن يدل على أنه كان كتاباً واحداً نازلاً على عيسى فهو الوحي المختص به. قال تعالى: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾ (آل عمران / ٤)، وأما هذه الأناجيل المنسوبة الى متى ومرقس ولوقا ويوحنا فهي كتب مؤلفة بعده عليه السلام.

ويدل أيضاً على أن الأحكام إنما هي في التوراة، وأن الانجيل لا تشتمل إلّا على بعض النواسخ كقوله في هذه الآيات: مصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، الآية؛ وقوله: ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة

وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ (المائدة / ٤٧)، ولا يبعد أن يستفاد من الآية أن فيه بعض الأحكام الإنباتية.

ويدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشارة بالنبي ﷺ كالتوراة، قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ (الأعراف / ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ ظاهره أنه عليه السلام كان مبعوثاً الى بني إسرائيل خاصة كما هو اللائح من الآيات في حق موسى عليه السلام، وقد مر في الكلام على النبوة في ذيل قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الاية (البقرة / ٢١٣)، أن عيسى عليه السلام كموسى من أُولي العزم وهم مبعوثون الى أهل الدنيا كافة.

لكن العقدة تنحل بما ذكرناه هناك في الفرق بين الرسول والنبي أن النبوة هي منصب البعث والتبليغ، والرسالة هي السفارة الخاصة التي تستتبع الحكم والقضاء بالحق بين الناس؛ إما بالبقاء والنعمة، أو بالهلاك كما يفيده قوله تعالى: ﴿ولكل امة رسوله فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط﴾ (يونس / ٤٧).

وبعبارة اخرى النبي هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس، والرسول هو المبعوث لاداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك وقبوله البقاء والسعادة كما يؤيده بل يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخاطبات الرسل لأممهم كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام.

وعلى ذلك شواهد من القرآن الكريم كرسالة موسى الى فرعون، قال تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ (طه / ٢٤)، وإيمان السحرة لموسى وظهور قبل إيمانهم ولم يكونوا من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾ (طه / ٧٠)، ودعوة قوم فرعون، قال تعالى: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ (الدخان / ١٧)، ونظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعيسى فلقد آمن به عليه السلام قبل بعثة النبي ﷺ والروم وأُمم عظيمة من الغربيين كالإفرنج والنمسا والبروس وإنجلترا وأُمم من الشرقيين كنجران وهم جميعهم ليسوا من بني إسرائيل؛ والقرآن لم يخص ـ فيما يذكر فيه النصارى ـ نصارى بني

إسرائيل خاصة بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ ـ الى قوله ـ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، الخلق جمع أجزاء الشيء، وفيه نسبة الخلق الى غيره تعالى كما يشعر به أيضاً قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون / ١٤).

والأكمه هو الذي يولد مطموس العين؛ وقد يقال لمن تذهب عينه، قال: كمهت عيناه حتى ابيضتا؛ قاله الراغب، والأبرص من كان به برص وهو مرض جلدي معروف.

وفي قوله: واحيي الموتى حيث علق الإحياء بالموتى وهو جمع دلالة لا أقل من الإشعار بالكثرة والتعدد.

وكذا قوله: بإذن الله، سيق للدلالة على أن صدور هذه الآيات المعجزة منه عليه السلام مستند الى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى عليه السلام بشيء من ذلك، وإنما كرر تكراراً يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيتعتقدوا بالوهيته استدلالاً بالآيات المعجزة الصادرة عنه عليه السلام، ولذا كان يقيد كل آية يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق وإحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم.

وظاهر قوله: أني أخلق لكم، الخ: أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدوراً خارجياً لا أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج والتحدي، ولو كان مجرد قول لقطع العذر وإتمام الحجة لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وهذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى، ومن خصه من رسله بالوحي؛ وهو آية اخرى وإخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق اليه الشك والريب فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله ولا فيما ادخره في بيته.

وإنما لم يقيد هذه الآية بإذن الله مع أن الآية لا تتحقق إلّا بإذن منه تعالى كما قال: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله﴾ (المؤمن / ٧٨)، لأن هذه الآية عبر عنها بالإنباء، وهو كلام قائم بعيسى عليه السلام بعد فعلاً له فلا يليق أن يسند الى ساحة القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعني الخلق والإحياء فإنها فعل الله بالحقيقة ولا ينسبان الى غيره إلّا بإذنه.

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلالة الى الناس فيهما أسرع منه في الإنباء فإن القلوب الساذجة تقبل الوهية خالق الطير ومحيي الموتى بأدنى وسوسة ومغلطة بخلاف الوهية من يخبر بالمغيبات فإنها لا تذعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمراً مبتذلاً جايز النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيرة، وكذا الإبرار فيكفي فيها مجرد ذكر أنها آية من الله، وخاصة اذا لقى الخطاب الى قوم يدعون أنهم مؤمنون، ولذلك ذيل الكلام بقوله: إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين أي إن كنتم صادقين في دعويكم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، عطف على قوله: ورسولاً الى بني إسرائيل، وكون المعطوف منبياً على التكلم مع كون المعطوف عليه منبياً على الغيبة أعني كون عيسى عليه السلام في قوله: ومصدقاً لما بين يدي، متكلماً وفي قوله: ورسولاً الى بني إسرائيل، غائباً ليس مما يضر بالعطف بعد تفسيره قوله: ورسولاً الى بني إسرائيل، بقول عيسى: أني قد جئتكم، فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبة الى الحضور فيستقيم به العطف.

وتصديقه للتوراة التي بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراة على ما تفيده الآية السابقة، وهو التوراة الأصل النازلة على موسى عليه السلام فلا دلالة لكونه مصدقاً للتوراة التي في زمانه على كونها غير محرفة كما لا دلالة لتصديق نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم للتوراة التي بين يديه على كونها غير محرفة.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات، قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ الآية (النساء / ١٦٠).

والكلام لا يخلو عن دلالة عن إمضائه عليه السلام لأحكام التوراة إلّا ما نسخه الله تعالى بيده من الأحكام الشاقة المكتوبة على اليهود؛ ولذا قيل: ان الإنجيل غير مشتمل على الشريعة، وقوله: ولاحل، معطوف على قوله: بآية من ربكم، واللام للغاية، والمعنى: قد جئتكم لأنسخ

بعض الأحكام المحرمة المكتوبة عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ الظاهر أنه لبيان أن قوله: فاتقوا الله وأطيعون، متفرع على إتيان الآيه لا على إحلال لمحرمات فهو لدفع الوهم، ويمكن أن يكون هو مراد من قال: إن إعادة الجملة للتفرقة بين ما قبلها وما بعدها فإن مجرد التفرقة ليست من المزايا في الكلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، فيه قطع لعذر من اعتقد الوهيته لتفرسه عليه السلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي كما ذكرنا نظير ذلك في تقييد قوله: فيكون طيراً، وقوله: واحيي الموتى، بقوله: بإذن الله لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكي قول عيسى عليه السلام: ﴿ما قلت لهم إلّا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ (المائدة / ١١٧)، أن ذلك كان بأمر من ربه ووحي منه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ لما كانت البشارة التي بشر بها مريم مشتملة على جمل قصص عيسى عليه السلام من حين حمله الى حين رسالته ودعوته اقتصر عليها اقتصاصاً إيجازاً في الكلام وفرع عليها تتمة الجملة من قصته وهو انتخابه حواريه ومكر قومه به ومكر الله بهم في تطهيره منهم وتوفيه ورفعه اليه، وهو تمام القصة.

وقد اعتبر في القصة المقدار الذي يهم إلقائه الى النصارى حين نزول الآيات، وهم نصارى نجران: الوفد الذين أتوا المدينة للبحث والاحتجاج، ولذلك اسقط منها بعض الخصوصيات التي تشتمل عليه قصصه المذكورة في سائر السور القرآنية كسورة النساء والمائدة والأنبياء والزخرف والصف.

وقد قيد الأنصار في قوله: من أنصاري بقوله: الى الله ليتم به معنى التشويق والتحريص الذي سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ (البقرة / ٢٤٥).

والظرف متعلق بقوله: أنصاري، بتضمين النصرة معنى السلوك والذهاب أو ما يشابهها كما حكى عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ (الصافات / ٩٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: حواري الإنسان من اختص به من الناس، وقيل أصله من الحور وهو شدة البياض؛ ولم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلّا في خواص عيسى عليه السلام من أصحابه.

وقولهم: آمنا بالله، بمنزل التفسير لقولهم: نحن أنصار الله وهذا مما يؤيد كون قوله: أنصاري الى الله جارياً مجرى التضمين كما مر فإنه يفيد معنى السلوك في الطريق الى الله، والإيمان طريق.

وهل هذا أول إيمانهم بعيسى عليه السلام؟ ربما استفيد من قوله تعالى: ﴿كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة﴾ (الصف / ١٤)، أنه إيمان بعد إيمان، ولا ضير فيه كما يظهر بالرجوع الى ما أوضحناه من كون الإيمان والإسلام ذوي مراتب مختلفة بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾ (المائدة / ١١١)، أن إجابتهم إنما كانت بوحي من الله تعالى إليهم، وأنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذي أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان.

على أن قولهم: وأشهد بأننا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول، وهذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريده الله تعالى منهم وفيهم ـ يدل أيضاً على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلّا من خلص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد والنبوة مجرد شهادة، بيان ذلك أنه قد مر في البحث عن مراتب الإيمان والإسلام: أن كل مرتبة من الإيمان تسبقها مرتبة من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم: آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون، حيث أتوا في الإيمان بالفعل وفي الإسلام بالصفة فأول مراتب الإسلام هو التسليم والشهادة على أصل الدين إجمالاً، ويتلوه الإذعان القلبي بهذه الشهادة الصورية في الجملة، ويتلوه (وهو المرتبة الثانية من الإسلام) التسليم القلبي لمعنى الإيمان وينقطع عنده السخط والاعتراض الباطني بالنسبة الى جميع ما يأمر به الله ورسوله وهو الاتباع العملي في الدين، ويتلوه (وهو المرتبة الثانية من الإيمان) خلوص العمل واستقرار وصف العبودية في جميع الأعمال والأفعال، ويتلوه (وهو المرتبة الثالثة من الإسلام) التسليم لمحبة الله وإرادته تعالى فلا يحب ولا يريد شيئاً إلّا بالله، ولا

يقع هناك إلّا ما أحبه الله وأراده ولا خبر عن محبة العبد وإرادته في نفسه، ويتلوه (وهو المرتبة الثالثة من الإيمان) شيوع هذا التسليم العبودي في جميع الأعمال.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، مقول قول الحواريين حذف القول من اللفظ للدلالة على حكاية نفس الواقعة وهو من الأساليب اللطيفة في القرآن الكريم، وقد مر بيانه، وقد سألوا ربهم أن يكتبهم من الشاهدين، وفرّعوا ذلك على إيمانهم وإسلامهم جميعاً لأن تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق ببيانه ما أنزله الله عليه قولاً وفعلاً، أي بتعليمه معالم الدين وعمله بها، فالشهادة على التبليغ إنما يكون بتعلمها من الرسول واتباعه عملاً حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو اليه لا يتخطاه ولا يتعداه.

والظاهر أن هذه الشهادة هي التي يومي اليها قوله تعالى: ﴿فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين﴾ (الأعراف / ٦)، وهي الشهادة على التبليغ، وأما قوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (المائدة / ٨٣)، فهو شهادة على حقية رسالة الرسول دون البليغ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، الماكرون هم بنو إسرائيل، بقرينة قوله: فلما أحس عيسى منهم الكفر، وقد مر الكلام في معنى المكر المنسوب اليه تعالى في ذيل قوله: ﴿وما يضل به إلّا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، التوفي أخذ الشيء أخذاً تاماً، ولذا يستعمل في الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى: ﴿توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١)، أي أماتته، وقال تعالى: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد - الى أن قال -: قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (السجدة / ١١)، وقال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى﴾ (الزمر / ٤٢)، والتأمل في الآيتين الأخيرتين يعطي أن التوفي لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت بل بعناية الأخذ والحفظ، وبعبارة اخرى إنما استعمل التوفي بما في حين الموت من الأخذ للدالة على أن نفس الإنسان لا يبطل ولا يفنى بالموت الذي

يظن الجاهل أنه فناء وبطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يبعثها بالرجوع اليه، وإلّا فهو سبحانه يعبر في الموارد التي لا تجري فيه هذه العناية بلفظ الموت دون التوفي كما في قوله تعالى: ﴿وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسول أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ (آل عمران / ١٤٤)، وقوله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ (فاطر / ٣٦)، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً حتى ما ورد في عيسى عليه السلام بنفسه كقوله: ﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً﴾ (مريم / ٣٣)، وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ (النساء / ١٥٩)، فمن هذه الجهة لا صراحة للتوفي في الموت.

على أن قوله تعالى في رد دعوى اليهود: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً له رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ (النساء / ١٥٩)، يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعي أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وكذلك كانت تظن النصارى: أن اليود قتلت عيسى بن مريم عليه السلام بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره الى السماء على ما في الأناجيل، والآيات كما ترى تكذب قصة القتل والصلب صريحاً.

والذي يعطيه ظاهر قوله: وإن من أهل الكتاب الآية أنه حي ند الله ولن يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب، عليهذا فيكون توفيه عليه السلام أخذه من بين اليهود لكن الآية مع ذلك غير صريحة فيه وإنما هو الظهور، وسيجيء تمام الكلام في ذلك في آخر سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الرفع خلاف الوضع، والطهارة خلاف القذارة، وقد مر الكلام في معنى الطهارة.

وحيث قيد الرفع بقوله: إلي، أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوي دون الرفع الصوي اذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنة الجسمانية التي تتعاورها الأجسام والجسمانيات بالحلول فيها، والقرب والبعد منها، فهو من قبيل قوله تعالى في ذيل الآية: ثم إليّ مرجعكم، وخاصة

لو كان المراد بالتوفّي هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجة والقرب من الله سبحانه، نظير ما ذكره تعالى في حق المقتولين في سبيله: ﴿أحياء عند ربهم﴾ (آل عمران / ١٦٩)، وما ذكره في حق إدريس عليه السلام: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ (مريم / ٥٧).

وربما يقال: إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه وجسده حياً الى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أي الجسمانية هي مقام القرب من الله سبحانه، ومحل نزول البركات، ومسكن الملائكة المكرمين، ولعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتي إنشاء الله تعالى.

والتطهير من الكافرين حيث أُتبع به الرفع الى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوي دون الظاهري الصوري، فهو إبعاده من الكفار وصونه عن مخالطتهم والوقوع في مجتمعهم المتقذر بقذارة الكفر والجحود.

قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وعد منه تعالى له عليه السلام أنه سيفوّق متبعي عيسى عليه السلام على مخالفيه الكافرين بنبوته، وأن تفوقهم هذا سيدوم الى يوم القيامة، وإنما ذكر تعالى في تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه وأن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المنتحلون بشريعة موسى عليه السلام أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر في تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعني الاتباع المرضي لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الاسلام ونسخه دين عيسى، والمسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق، وعلى هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحجة دون السلطنة والسيطرة، فحصل معنى الجملة: أن متبعيك من النصارى والمسلمين ستفوق حجتهم على حجة الكافرين بك من اليهود الى يوم القيامة، هذا ما ذكره وارتضاه المفسرون في معنى الآية.

والذي أراه أن الآية لا تساعد عليه لا بلفظها ولا بمعناها فإن ظاهر قوله إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك، أنه إخبار عن المستقبل وأنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف ورفع وتطهير وجعل على أن قوله: وجاعل الذين اتبعوك، وعد

حسن وبشرى، وما هذا شأنه لا يكون إلّا في ما سيأتي، ومن المعلوم أن ليست حجة متبعي عيسى عليه السلام الّا حجة عيسى نفسه، وهي التي ذكرها الله تعالى في ضمن آيات البشارة أعني بشارة مريم، وهذه الحجج حجج فائقة حين حضور عيسى قبل الرفع، وبعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه عليه السلام أقطع لعذر الكفار ومنبت خصومتهم، وأوضح في رفع شبههم، فما معنى وعده عليه السلام أنه ستفوق حجة متبعيه على حجة مخالفيه؟ ثم ما معنى تقييد هذه الغلبة والتفوق بقوله: الى يوم القيامة، مع أن الحجة في غلبتها لا تقبل التقييد بوقت ولا يوم على أن تفوق الحجة على الحجة باق على حاله يوم القيامة على ما يخبر به القرآن في ضمن أخبار القيامة.

فالمراد جعل النصارى ـ وهم الذين اتبع أسلافهم عيسى عليه السلام ـ فوق اليهود وهم الذين كفروا بعيسى عليه السلام ومكروا به، والغرض في المقام بيان نزول السخط الإلهي على اليهود، وحلول المكر بهم، وتشديد العذاب على امتهم، ولا ينافي ما ذكرناه كون المراد بالاتباع هو الاتباع على الحق كما استظهرناه في أول الكلام كما لا يخفى.

ويؤيد هذا المعنى تغيير الاسلوب في الآية الآتية أعني قوله: وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، اذ لو كان المراد بالذين اتبعوا هم أهل الحق والنجاة من النصارى والمسلمين فقط كان الأنسب أن يقال: وأما الذين اتبعوك فيوفيهم اجورهم من غير تغيير للسياق كما لا يخفى.

وههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى والمسلمون قاطبة وتكون الآية مخبرة عن كون اليهود تحت إذلال من يذعن لزوم اتباع عيسى الى يوم القيامة؛ والتقريب عين التقريب، وهذا أحسن الوجوه في توجيه الآية عند التدبر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ وقد جمع سبحانه في هذا الخطاب بين عيسى وبين الذين اتبعوه والذين كفروا به، وهذا مآل أمرهم يوم القيامة، وبذلك يختتم أمر عيسى وخبره من حين البشارة به الى آخر أمره ونبأه.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. ظاهره أنه متفرع على قوله: فأحكم بينكم، تفرع التفصيل على الإجمال فيكون بياناً للحكم الإلهي في يوم القيامة بالعذاب لليهود الذين كفروا وتوفية الأجر للمؤمنين.

لكن اشتمال التفريع على قوله: في الدنيا، يدل على كونه متفرعاً على مجموع قوله: وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ثم الى مرجعكم، الخ؛ فيدل على أن نتيجة هذا الجعل والرجوع تشديد العذاب عليهم في الدنيا بيد الذين فوقهم الله تعالى عليهم، وفي الآخرة بالنار، ومالهم في ذلك من ناصرين.

وهذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق في الآية السابقة هو التسليط بالسيطرة والقوة دون التأييد بالحجة.

وفي قوله: ومالهم من ناصرين دلالة على نفي الشفاعة المانعة عن حلول العذاب بساحتهم، وهو حتم القضاء كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ وهذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلّا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الامة بمجرد تحققه وصدوره عن عدة من أفرادها وحينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل والثواب الجزيل بالنسبة الى من تلبس به شخصاً دون من انتسب اليه اسماً فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ليستقيم المعنى فإن السعادة والعاقبة الحسنى تدور مدار الحقيقة دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة / ٦٢).

فهذا أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام أن الله يوفيهم اجورهم، وأما غيرهم فليس لهم من ذلك شيء، وقد اشير الى ذلك في الآية بقوله: والله لا يحب الظالمين.

ومن هنا يظهر السر في ختم الآية ـ وهي آية الرحمة والجنة ـ بمثل قوله: والله لا يحب

الظالمين مع أن المعهود في آيات الرحمة والنعمة أن تختم بأسماء الرحمة والمغفرة أو بمدح حال من نزلت في حقه الآيه نظير قوله تعالى: ﴿وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعلمون خبير﴾ (الحديد / ١٠)، وقوله تعالى: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾ (التغابن / ١٧)، وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التغابن / ٩)، وقوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين﴾ (الجاثية / ٣٠)، الى غير ذلك من الآيات.

فقوله: والله لا يحب الظالمين مسوق لبيان حال الطائفة الاخرى ممن انتسب الى عيسى عليه السلام بالاتباع وهم غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة الى اختتام القصة. والمراد بالذكر الحكيم القرآن الذي هو ذكر لله محكم من حيث آياته وبياناته، لا يدخله باطل، ولا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، تلخيص لموضع الحاجة مما ذكره من قصة عيسى في تولده تفصيلاً، والإيجاز بعد الإطناب ـ وخاصة في مورد الاحتجاج والاستدلال ـ من مزايا الكلام؛ والآيات نازلة في الاحتجاج ومتعرضة لشأن وفد النصارى نصارى نجران فكان من الأنسب ان يوجز البيان في خلقته بعد الإطناب في قصته ليدل على أن كيفية ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشراً مخلوقاً نظير آدم عليه السلام فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد وأعظم مما قيل في آدم، وهو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

فمعنى الآية: أن مثل عيسى عند الله أي وصفه الحاصل عنده تعالى أي ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجاري بيده أن كيفية خلقه يضاهي كيفية خلق آدم، وكيفية خلقه أنه

جمع أجزائه من تراب ثم قال له كن فتكون تكوناً بشرياً من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقة منحل الى حجتين تنفي كل واحدة منهما على وحدتها بنفي الالوهية عن المسيح عليه السلام.

إحديهما: أن عيسى مخلوق لله ـ على ما يعلمه الله ولا يضل في علمه ـ خلقة بشر وإن فقد الأب ومن كان كذلك كان عبداً لا رباً.

وثانيهما: أن خلقته لا تزيد على خلقة آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بالوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها في عيسى عليه السلام أيضاً لمكان المماثلة.

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ تأكيد لمضمون الآية السابقة بعد تأكيده بأن ونحوه نظير تأكيد تفصيل القصة بقوله: ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم، الآية؛ وفيه تطييب لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه على الحق، وتشجيع له في المحاجة.

وهذا أعني قوله: الحق من ربك من أبدع البيانات القرآنية حيث قيد الحق بمن الدالة على الابتداء دون غيره بأن يقال: الحق مع ربك لما فيه من شائبة الشرك ونسبة العجز اليه تعالى بحسب الحقيقة.

وذلك أن هذه الأقاويل الحقة والقضايا النفس الأمرية الثابتة كائنة ما كانت وان كانت ضرورية غير ممكنة التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، والواحد نصف الاثنين، ونحو ذلك إلّا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود والوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، ولذلك كان تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق اذا كان حقاً، وأما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلّا

صورته العلمية [١] [٢].

٦١ ● فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ.

٦٢ ● إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٦٣ ● فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، الفاء للتفريع، وهو تفريع المباهلة على التعليم الإلهي بالبيان البالغ في أمر عيسى بن مريم عليه السلام مع ما أكده في ختمه بقوله: الحق من ربك فلا تكن من الممترين. والضمير في قوله: فيه راجع الى عيسى أو الى الحق المذكور في الآية السابقة.

وقد كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بياناً إلهياً لا يرتاب فيه مشتملاً على البرهان الساطع الذي يدل عليه قوله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، الآية، فالعلم الحاصل فيه علم من جهة البرهان أيضاً، ولذلك كان يشمل أثره رسول الله صلى الله عليه وآله وغيره من كل سامع فلو

---

١. آل عمران ٤٢ ـ ٦٠: بحث روائي في: استناد مريم: فاطمة الزهراء عليها السلام: خير نساء الجنة: بعثه عيسى عليه السلام وحياته.

٢. آل عمران ٤٢ ـ ٦٠: بحث روائي في معنى المحدث.

فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهة كون البيان وحياً إلهياً لم يجز الارتياب فيه من جهة كونه برهاناً يناله العقل السليم، ولعله لذلك قيل: من بعد ما جاءك من العلم ولم يقل: من بعد ما بيناه لهم.

وههنا نكتة اخرى وهي أن في تذكيره ﷺ بالعلم تطييباً لنفسه الشريفة أنه غالب بإذن الله، وأن ربه ناصره وغير خاذله البتة.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾، المتكلم مع الغير في قوله: ندع، غيره في قوله: أبنائنا ونسائنا وأنفسنا فإنه في الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام والنصرانية، وفي الثاني وما يلحق به من جانب الإسلام، ولذا كان الكلام في معنى قولنا: ندع الأبناء والنساء والأنفس فندعو نحن أبنائنا ونسائنا وأنفسنا وتدعون أنتم أبنائكم ونسائكم وأنفسكم، ففي الكلام إيجاز لطيف.

والمباهلة والملاعنة وإن كانت بحسب الظاهر كالمحاجة بين رسول الله وبين رجال النصارى لكن عممت الدعوة للأبناء والنساء ليكون أدل على اطمينان الداعي بصدق دعوه وكونه على الحق لما أودعه الله سبحانه في قلب الانسان من محبتهم والشفقة عليهم فتراه يقيهم بنفسه، ويركب الأهوال والمخاطرات دونهم، وفي سبيل حمايتهم والغيرة عليهم والذبّ عنهم، ولذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبة الإنسان بالنسبة اليهم أشد وأدوم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، الابتهال من البهلة بالفتح والضم وهي اللعنة؛ هذا أصله ثم كثر استعماله في الدعاء والمسألة اذا كان مع إصرار وإلحاح.

وقوله: فنجعل لعنة الله، كالبيان للابتهال، وقد قيل: فنجعل، ولم يقل، فنسأل إشارة الى كونها دعوة غير مردودة حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف والابتناء.

وقوله: الكاذبين مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس اذ ليس المراد جعل اللعنة

على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعين في أحد طرفي المحاجة الواقعة بينه ﷺ وبين النصارى حيث قال ﷺ: إن الله لا إله غيره وإن عيسى عبده ورسوله، وقالوا: إن عيسى هو الله أو إنه ابن الله أو إن الله ثالث ثلاثة.

وعلى هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى والمباهلة عليها بين النبي ﷺ وبين النصارى أعني كون أحد الطرفين مفرداً والطرف الآخر جمعاً كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد والجمع معاً كقولنا: فنجعل لعنة الله على من كان كاذباً فالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع في أحد طرفي المحاجة والمباهلة على أي حال: إما في جانب النبي ﷺ وإما في جانب النصارى، وهذا يعطي أن يكون الحاضرون للمباهلة شركاء في الدعوى فإن الكذب لا يكون إلّا في دعوى فلمن حضر مع رسول الله ﷺ، وهم علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام شركة في الدعوى والدعوة مع رسول الله ﷺ وهذا من أفضل المناقب التي خص الله به أهل بيت نبيه عليهم السلام كما خصهم باسم الأنفس والنساء والأبناء لرسوله ﷺ من بين رجال الامة ونسائهم وأبنائهم[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللّٰهُ﴾: هذا إشارة الى ما تقدم من قصص عيسى عليه السلام؛ والكلام مشتمل على قصر القلب أي ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

وفي الإتيان بإن واللام وضمير الفصل تأكيد بالغ لتطييب نفس رسول الله ﷺ وتشجيعه في أمر المباهلة بإيقاظ صفة يقينه وبصيرته ووثوقه بالوحي الذي أنزله الله سبحانه اليه، ويتعقبه التأكيد الثاني بإيراد الحقيقة بلازمها وهو قوله: وما من إله إلّا الله فإن هذه الجملة لازمة كون القصص المذكور حقاً.

---

١. آل عمران ٦١ـ٦٣: بحث حول آية المباهلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّـهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معطوف على أول الآية: وهو بما فيه من التأكيد البالغ تطييب آخر وتشجيع لنفس النبي ﷺ أن الله لا يعجز عن نصرة الحق وتأييده، ولا أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز (فلا يعجز عما أراده) الحكيم (فلا يجهل ولا يهمل) لا ما عملته أوهام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه.

ومن هنا يظهر وجه الايتان بالاسمين: العزيز الحكيم، وأن الكلام مسوق لقصر القلب أو الإفراد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؛ لما كان الغرض من المحاجة وكذا المباهلة بحسب الحقيقة هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولي عن الطريق لمريد الغرض والمقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق وهم يعلمون أن الله سبحانه ولي الحق لا يرضى بزهوقه ودحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجة ظهور الحق بل الغلبة الظاهرية والاحتفاظ على ما في أيديهم من حاضر الوضع، والسنة التي استحكمت عليه عادتهم، فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهواؤهم وهوساتهم من شكل الحياة، لا الحياة الصالحة التي تنطبق على الحق والسعادة فهم لا يريدون إصلاحاً بل إفساد الدنيا بإفساد الحياة السعيدة فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

ومن هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعني الإفساد مكان عدم إرادة ظهور الحق.

وقد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل: فإن الله عليم، ثم اكد بإن ليدل على أن هذه الصفة متحققة في نفوسهم ناشبة في قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهلة لا محالة. وقد

فعلوا وصدّقوا قول الله بفعلهم[١].

بحث روائي:

في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان سيدهم الأهتم والعاقب والسيد، وحضرت صلوتهم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا الى ما تدعو؟ فقال: الى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي، فقالوا نعم: قال فمن أبوه؟ فبهتوا فأنزل الله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، الآية؛ وقوله: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ـ الى قوله ـ: فنجعل لعنة الله على الكاذبين، فقال رسول الله: فباهلوني فإن كنت صادقاً أُنزلت اللعنة عليكم، وان كنت كاذباً أُنزلت علي فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهلة فلما رجعوا الى منازلهم قال رؤسائهم السيد والعاقب والأهتم ان باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا باهل بيته خاصة لم نباهله فإنه لا يقدم الى أهل بيته إلّا وهو صادق فلما أصبحوا جاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال النصارى: مَن هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذا ابنته فاطمة، وهذا ابناه الحسن والحسين فلما فرقوا فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على الجزية وانصرفوا.

---

١. آل عمران ٦١ ـ ٦٣: بحث روائي في نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله: المباهلة.

وفي العيون بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السلام في حديثه مع المأمون والعلماء في الفرق بين العترة والامة، وفضل العترة على الامة، وفيه قالت العلماء: هل فسر الله الاصطفاء في كتابه؟ فقال الرضا عليه السلام: فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعاً وذكر المواضع من القرآن. وقال فيها: وأما الثالثة حين ميز الله الطاهرين من خلقه، وأمر نبيه بالمباهلة بهم في آية الابتهال فقال عز وجل فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم، قالت العلماء: عنى به نفسه، قال أبوالحسن: غلطتم إنما عنى به علي بن أبي طالب؛ ومما يدل على ذلك قول النبي: لينتهين بنو وليعة أو لأبعثن اليهم رجلاً كنفسي يعني علي بن أبي طالب، وعنى بالأبناء الحسن والحسين، وعنى بالنساء فاطمة فهذه خصوصية لا يتقدمهم فيها أحد، وفضل لا يلحقهم فيه بشر، وشرف لا يسبقهم اليه خلق اذ جعل نفس علي كنفسه؛ الحديث.

وعنه بإسناده الى موسى بن جعفر عليه السلام في حديث له مع الرشيد، قال الرشيد له: كيف قلتم: إنا ذرية النبي، والنبي لم يعقب، وإنما العقب للذكر لا للانثى، وأنتم ولد البنت ولا يكون له عقب. فقلت: أسأله بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما أعفاني عن هذه المسألة، فقال: تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي وأنت يا موسى يعسو بهم وإمام زمانهم، كذا أُنهي إلي، ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حق تأتيني فيه بحجة من كتاب الله. وأنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم، واحتججتم بقوله عزوجل: ما فرطنا في الكتاب من شيء، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت: تأذن لي في الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب فقلت: إنما ألحقه بذراري الأنبياء من طريق مريم. وكذلك ألحقنا الله تعالى بذراري النبي من

امنا فاطمة، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات. قلت: قول الله عزوجل: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. ولم يدّع أحد أنه أدخل النبي تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلّا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين فكان تأويل قوله: أبنائنا الحسن والحسين، ونسائنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب.

وفي سؤالات المأمون عن الرضا عليه السلام: قال المأمون: ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال: آية أنفسنا قال: لولا نسائنا قال لولا أبنائنا.

أقول: قوله: آية أنفسنا يريد أن الله جعل نفس علي كنفس نبيه صلى الله عليه وآله وقوله: لولا نسائنا معناه: أن كلمة نسائنا في الآية دليل على أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضيلة فيه حينئذ. وقوله: لولا أبنائنا معناه أن وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورد لذكر الأبناء.

وفي تفسير العياشي بإسناده عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن فضائله فذكر بعضها ثم قالوا له زدنا فقال إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلما في أمر عيسى فأنزل الله هذه الآية: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، إلى آخر الآية؛ فدخل رسول الله فأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة ثم خرج ورفع كفه الى السماء، وفرج بين أصابعه، ودعاهم الى المباهلة. قال: وقال أبو جعفر عليه السلام وكذلك المباهلة يشبك يده في يده يرفعها الى السماء فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه: والله لئن كان نبياً لنهلكن وإن كان غير نبي كفانا قومه فكفا وانصرفا.

اقول: وهذا المعنى أو ما يقرب منه مروي في روايات أُخر من طرق الشيعة وفي جميعها أن الذين أتى بهم النبي صلى الله عليه وآله للمباهلة هم علي وفاطمة والحسنان فقد رواه الشيخ في أماليه بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه؛ ورواه أيضاً فيه بإسناده عن عبدالرحمن بن كثير عن

الصادق عليه السلام، ورواه فيه أيضا بإسناده عن سالم ابن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر رضوان الله عليه، ورواه أيضاً فيه بإسناده عن ربيعة ابن ناجد عن علي عليه السلام، ورواه المفيد في كتاب الاختصاص بإسناده عن محمد بن الزبرقان عن موسى بن جعفر عليه السلام، ورواه أيضاً فيه عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده، ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن سعيد الاردني عن موسى بن محمد بن الرضا عن أخيه، ورواه أيضاً عن أبي جعفر الأحول عن الصادق عليه السلام، ورواه أيضاً فيه في رواية اخرى عن الأحول عنه عليه السلام، وعن المنذر عن علي عليه السلام، ورواه أيضاً فيه بإسناده عن عامر بن سعد، ورواه الفرات في تفسيره معنعناً عن أبي جعفر وعن أبي رافع والشعبي وعلي عليه السلام وشهر بن حوشب، ورواه في روضة الواعظين وفي إعلام الورى، وفي الخرائج وغيرها.

وفي تفسير الثعلبي عن مجاهد والكلبي: أنه صلى الله عليه وآله لما دعاهم الى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم؛ والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لنهلكن فإن أبيتم إلّا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم.

فأتوا رسول الله وقد غدا محتضناً بالحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها وهو يقول: اذا أنا دعوت فأمّنوا، فقال اسقف نجران، يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا، قال: فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم فأبوا، قال: فإني اناجزكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا، ولا تخيفنا، ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي اليك كل عام ألفي حلة: ألف في صفر،

وألف في رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد فصالحهم على ذلك.

وقال: والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

أقول: وروى القصة: قريباً منه في كتاب المغازي عن ابن إسحق، ورواه أيضاً المالكي في الفصول المهمة عن المفسرين قريباً منه، ورواه الحموي عن ابن جريج قريباً منه.

وقوله: ألف في صفر المراد به المحرم وهو أول السنة عند العرب وقد كان يسمى صفراً في الجاهلية فيقال صفر الأول وصفر الثاني وقد كانت العرب تنسىء في الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمة في الصفر الأول فسمي لذلك بشهر الله المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب، قال أما ما ذكرت ثلاثٌ قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبه، لأن يكون لي واحدة منهن أحب الى من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي؟ وسمعته يقول يوم خيبر: لاعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: أُدعوا لي علياً فاتي به أرمد العين فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله على يده. ولما نزلت هذه الآية: قل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل، دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وقال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي.

أقول: ورواه الترمذي في صحيحه، ورواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل علي، ورواه أيضاً أبو نعيم في الحلية عن عامر بن سعد عن أبيه، ورواه الحمويني في كتاب فرائد

السمطين.

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم بإسناده عن عامر بن أبي وقاص عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي.

وفيه بإسناده عن الشعبي عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ العاقب والطيب فدعاهما الى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام فقالا: فهات الينا، قال: حب الصليب وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، قال جابر: فدعاهما الى الملاعنة فواعداه الى أن يفداه بالغداة فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة فأرسل اليهما فأبيا أن يجيباه وأقرّا له. فقال رسول الله ﷺ والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً قال جابر: فيهم نزلت: ندع أبنائنا وأبنائكم. قال جابر: أنفسنا وأنفسكم رسول الله وعلي، وأبنائنا الحسن والحسين، ونسائنا فاطمة.

أقول: ورواه ابن المغازلي في مناقبه بإسناده عن الشعبي عن جابر، ورواه ايضاً الحمويني في فرائد السمطين بإسناده عنه، ورواه المالكي في الفصول المهمة مرسلاً عنه، ورواه أيضاً عن أبي داود الطيالسي عن شعبة الشعبي مرسلاً، ورواه في الدر المنثور عن الحاكم وصححه وعن ابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل عن جابر.

وفي الدر المنثور أخرج أبونعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم منهم السيد وهو الكبير، والعاقب وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم ثم ساق القصة نحواً مما مر.

وفيه أيضاً أخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ كتب الى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم الله إله إبراهيم

وإسحق ويعقوب من محمد رسول الله الى اسقف نجران وأهل نجران إن أسلمتم فإني أحمد اليكم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم الى ولاية من الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام. فلما قرأ الاسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً، فبعث الى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة فدفع اليه كتاب النبي ﷺ فقرأه. فقال له الاسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسمعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل؟ ليس لي في النبوة رأي، لو كان رأى من أمر الدنيا أشرت عليك فيه، وجهدت لك، فبعث الاسقف الى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلهم قالوا مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة، وعبدالله بن شرحبيل وجبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ.

فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله ﷺ فسألهم وسألوه فلم نزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى بن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى اخبركم بما يقال في عيسى صبح الغد، فأنزل الله هذه الآية: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ـ الى قوله ـ: فنجعل لعنة الله على الكاذبين، فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي خلف ظهره للملاعنة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: إني أرى أمراً مقبلاً إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلاّ هلك فقالا له: ما رأيك؟ فقال: رأيي أن احكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذلك. فتلق شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك، قال: وما هو؟ قال حكمك اليوم الى الليل وليلتك الى الصباح فهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، وصالحهم على الجزية.

وفيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري، قال: لما نزلت هذه الآية: قل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم الآية، أرسل رسول الله ﷺ الى علي وفاطمة وابنيها الحسن والحسين، ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم أليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ لا تلاعنوا فانتهوا.

أقول: والرواية تؤيد أن يكون الضمير في قوله تعالى: فمن حاجك فيه، راجعاً الى الحق في قوله: الحق من ربك، فيتم بذلك حكم المباهلة لغير خصوص عيسى بن مريم عليه السلام، وتكون حينئذ هذه قصة اخرى واقعة بعد قصة دعوة وفد نجران الى المباهلة على ما تقصه الأخبار الكثيرة المتظافرة المنقولة أكثرها فيما تقدم.

وقال ابن طاوس في كتاب سعد السعود رأيت في كتاب تفسير ما نزل من القرآن في النبي وأهل بيته تأليف محمد بن العباس بن مروان: أنه روى خبر المباهلة من أحد وخمسين طريقاً عمن سماه من الصحابة وغيرهم، وعد منهم الحسن بن علي عليه السلام وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وبكر بن سمال وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن عباس وأبا رافع مولى النبي وجابر بن عبدالله والبراء بن عازب وانس بن مالك.

وروى ذلك في المناقب عن عدة من الرواة والمفسرين وكذا السيوطي في الدر المنثور.

ومن عجيب الكلام ما ذكره بعض المفسرين حيث قال: إن الروايات متفقة على أن النبي ﷺ اختار للمباهلة علياً وفاطمة وولديها، ويحملون كلمة نسائنا على فاطمة، وكلمة أنفسنا على علي فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف؛ وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمة نسائنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته لاسيما إذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم. وأبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا علي، ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نسائهم واولادهم، وكل ما يفهم من الآية امر النبي ﷺ أن يدعوا

المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالاً ونسائاً وأطفالاً ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونسائاً وأطفالاً، ويبتهلون الى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى.

وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه، وثقته بما يقول كما يدل امتناع من دعوا الى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم في حجاجهم ومماراتهم فيما يقولون، وزلزالهم فيما يعتقدون، وكونهم على غير بينة ولا يقين، وأنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع هذا الجمع من الناس المحقين والمبطلين في صعيد واحد متوجهين الى الله في طلب لعنه وإبعاده من رحمته؟ وأي جرأة على الله واستهزاء بقدرته وعظمته أقوى من هذا؟

قال: أما كون النبي ﷺ والمؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون في عيسى عليه السلام فحسبنا في بيانه قوله تعالى: من بعد ما جاءك من العلم، فالعلم في هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلّا اليقين، وفي قوله: ندع أبنائنا وأبنائكم «الخ» وجهان:

أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر فأنتم تدعون أبنائنا، ونحن ندعو أبنائكم؛ وهكذا الباقي.

وثانيهما: أن كل فريق يدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبنائنا ونسائنا وأنفسنا؛ وأنتم كذلك.

ولا إشكال في وجه من وجهي التوزيع في دعوة الأنفس، وإنما الإشكال فيه على قول الشيعة، ومن شايعهم على القول بالتخصيص، انتهى.

أقول: وهذا الكلام ـ وأحسب أن الناظر فيه يكاد يتهمنا في نسبته الى مثله، واللبيب لا يرضى بإيداعه وأمثاله في الزبر العلمية ـ إنما أوردناه على وهنه وسقوطه ليعلم أن النزعة والعصبية الى أين يورد صاحبه من سقوط الفهم وردائة النظر فيهدم كل ما بنى عليه ويبني كل ما هدمه ولا يبالي، ولأن الشر يجب أن يعلم ليجتنب عنه.

والكلام في مقامين: أحدهما: دلالة الآية على أفضلية علي عليه السلام، وهو بحث كلامي خارج عن الغرض الموضوع له هذا الكتاب؛ وهو النظر في معاني الآيات القرآنية.

وثانيهما: البحث عما ذكره هذا القائل من حيث تعلقه بمدلول آية المباهلة، والروايات الواردة في ما جرى بين النبي صلى الله عليه وآله وبين وفد نجران؛ وهذا بحث تفسيري داخل في غرضنا.

وقد عرفت ما تدل عليه الآية، وأن الذي نقلناه من الأخبار المتكثرة المتظافرة هو الذي يطابق مدلول الآية، وبالتأمل في ذلك يتضح وجوه الفساد في هذه الحجة المختلقة والنظر الواهي الذي لا يرجع الى محصل، وهاك تفصيلها:

منها: أن قوله: ومصادر هذه الروايات الشيعة - الى قوله - وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، بعد قوله: إن الروايات متفقة. ليت شعري أي روايات يعني بهذا القول؟ أمراده هذه الروايات المتظافرة التي أجمعت على نقلها وعدم طرحها المحدثون، وليست بالواحدة والاثنتين والثلاث أطبق على نقلها وتلقيها بالقبول أهل الحديث، وأثبتها أرباب الجوامع في جوامعهم، ومنهم مسلم في صحيحه والترمذي في صحيحه وأيدها أهل التاريخ.

ثم أطبق المفسرون على إيرادها وإيداعها في تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب، وفيهم جمع من أهل الحديث والتاريخ كالطبري وأبي الفداء بن كثير والسيوطي وغيرهم ثم من الذي يعنيه من الشيعة المصادر لهذه الروايات؟ أيريد بهم الذين تنتهي إليهم سلاسل الأسناد في الروايات أعني سعد بن أبي وقاص وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وغيرهم من الصحابة؟ أو التابعين الذين نقلوا عنهم بالأخذ والرواية كأبي صالح والكلبي والسدي والشعبي وغيرهم، وأنهم تشيعوا لنقلهم ما لا يرتضيه بهواء فهؤلاء وأمثالهم ونظرائهم هم الوسائط في نقل السنة، ومع رفضهم لا تبقى سنة مذكورة ولا سيرة مأثورة، وكيف يسع لمسلم أو باحث حتى ممن لا ينتحل بالإسلام أن يبطل السنة ثم يروم أن يطلع على تفاصيل

ما جاء به النبي ﷺ من تعليم وتشريع والقرآن ناطق بحجية قول النبي ﷺ وسيرته، وناطق ببقاء الدين على حيوته، ولو جاز بطلان السنة من رأس لم يبق للقرآن أثر ولا لإنزاله ثمر.

أو أنه يريد أن الشيعة دسوا هذه الأحاديث في جوامع الحديث وكتب التاريخ، فيعود محذور سقوط السنة، وبطلان الشريعة بل يكون البلوى أعم والفساد أتم.

ومنها: قوله: ويحملون كلمة نسائنا على فاطمة، وكلمة أنفسنا على عليّ فقط. مراده به أنهم يقولون بأن كلمة نسائنا أطلقت واريدت بها فاطمة وكذا المراد بكلمة أنفسنا عليّ فقط، وكأنه فهمه مما يشتمل عليه بعض الروايات السابقة: قال جابر: نسائنا فاطمة وأنفسنا علي الخبر. وقد أساء الفهم فليس المراد في الآية بلفظ نسائنا فاطمة، وبلفظ أنفسنا علي بل المراد أنه ﷺ اذ لم يأت في مقام الامتثال إلّا بها وبه كشف ذلك أنها هي المصداق الفرد لنسائنا، وأنه هو المصداق الوحيد لأنفسنا وأنها مصداق أبنائنا. وكان المراد بالأبناء والنساء والأنفس في الآية هو الأهل فهم أهل بيت رسول الله وخاصته كما ورد في بعض الروايات بعد ذكر إتيانه ﷺ بهم أنه قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي فإن معنى الجملة: أني لم أجد من أدعوه غير هؤلاء.

ويدل على ما ذكرناه من المراد ما وقع في بعض الروايات: أنفسنا وأنفسكم رسول الله وعلي، فإن اللفظ صريح في أن المقصود بيان المصداق دون معنى اللفظ.

ومنها: قوله: ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمة نسائنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته لاسيما اذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم، وأبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا علي، وهذا المعنى العجيب الذي توهمه هو الذي أوجب أن يطرح هذه الروايات على كثرتها ثم يطعن على رواتها وكل من تلقاها بالقبول، ويرميهم بما ذكره وقد كان من الواجب عليه أن يتنبه لموقفه من تفسير الكتاب، ويذكر هؤلاء الجم الغفير من أئمة البلاغة وأساتيذ البيان،

وقد أوردوها في تفسيرهم وسائر مؤلفاتهم من غير أي تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الكشاف ـ وهو الذي ربما خطأ أئمة القراءة في قراءتهم ـ يقول في ذيل تفسير الآية: وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وآله لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف: أنهم أجابوا الى ذلك، انتهى.

فكيف خفي على هؤلاء العظماء أبطال البلاغة وفرسان الأدب أن هذه الأخبار على كثرتها وتكررها في جوامع الحديث تنسب الى القرآن أنه يغلط في بيانه فيطلق النساء (وهو جمع) في مورد نفس واحدة؟!.

لا وعمري، وإنما التبس الأمر على هذا القائل واشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم: أن الله عز اسمه لو قال لنبيه صلى الله عليه وآله: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم، الخ؛ وصح أن المحاجين عند نزول الآية وفد نجران وهم أربعة عشر رجلاً على ما في بعض الروايات ليس عندهم نساء ولا أبناء؛ وصح أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج الى مباهلتهم وليس معه إلّا علي وفاطمة والحسنان كان لازم ذلك أن معنى من حاج وفد نجران، ومعنى نسائنا المرأة الواحدة، ومعنى أنفسنا النفس الواحدة، وبقي نسائكم وأبنائكم لا معنى لهما اذ لم يكن مع الوفد نساء ولا أبناء!.

وكان عليه أن يضيف الى ذلك لزوم استعمال الأبناء وهو جمع في التثنية وهو أشنع من استعمال الجمع في المفرد فإن استعمال الجمع في المفرد ربما وجد في كلام المولدين وإن لم يوجد في العربية الأصيلة إلّا في التكلم لغرض التعظيم لكن استعمال الجمع في المثنى مما لا مجوز له أصلاً.

فهذا هو الذي دعاه الى طرح الروايات ورميها بالوضع، وليس الأمر كما توهمه.

توضيح ذلك أن الكلام البليغ إنما يتبع فيه ما يقتضيه المقام من كشف ما يهم كشفه فربما كان المقام مقام التخاطب بين متخاطبين أو قبيلين ينكر أو يجهل كل منهما حال صاحبه فيوضع

الكلام على ما يقتضيه الطبع والعادة فيؤتى في التعبير بما يناسب ذلك فأحد القبيلين المتخاصمين اذا أراد أن يخبر صاحبه أن الخصومة والدفاع قائمة بجميع أشخاص قبيله من ذكور واناث وصغير وكبير فإنما يقول: نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال والظعائن والأولاد فيضع الكلام على ما تقتضيه الطبع والعادة فإن العادة تقتضي أن يكون للقبيل من الناس نساء وأولاد والغرض متعلق بأن يبين للخصم أنهم يد واحدة على من يخاصمهم ويخاصمونه، ولو قيل: نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال والنساء وابنين لنا كان إخباراً بأمر زائد على مقتضى المقام محتاجاً الى عناية زائدة وتعرفاً الى الخصم لنكتة زائدة.

وأما عند المتعارفين والأصدقاء والأخلة فربما يوضع الكلام على مقتضى الطبع والعادة فيقال في الدعوة للضيافة والاحتفال: سنقرئكم بأنفسنا ونسائنا وأطفالنا، وربما يسترسل في التعرف فيقال: سنخدمكم بالرجال والبنت والسبطين الصبيين؛ ونحو ذلك.

فللطبع والعادة وظاهر الحال حكم، ولواقع الأمر وخارج العين حكم، وربما يختلفان. فمن بنى كلامه على حكاية ما يعلم من ظاهر حاله، ويقضي به الطبع والعادة فيه ثم بدا حقيقة حاله وواقع أمره على خلاف ما حكاه من ظاهر حاله لم يكن غالطاً في كلامه، ولا كاذباً في خبره، ولا لاغياً هازلاً في قوله.

والآية جارية على هذا المجرى فقوله. فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، الخ: اريد به على ما تقدم: أُدعهم الى أن تحضر أنت وخاصتك من أهلك الذين يشاركونك في الدعوى والعلم، ويحضروا مخاصتهم من أهليهم، ثم وضع الكلام على ما يعطيه ظاهر الحال أن لرسول الله في أهله رجالاً ونساءاً وأبناءاً ولهم في أهليهم رجال ونساء وأبناء فهذا مقتضى ظاهر الحال، وحكم الطبع والعادة فيه وفيهم، أما واقع الأمر وحقيقته فهو أنه لم يكن له ﷺ من الرجال والنساء والبنين إلّا نفس وبنت وابنان، ولم يكن لهم إلّا رجال من غير نساء ولا أبناء، ولذلك لما أتاهم برجل وامرأة وولدين لم يجبهوه بالتلحين والتكذيب،

ولا أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء والأبناء وليس عندنا نساء ولا أبناء. ولا أن من قصت عليه القصة رماها بالوضع والتمويه.

ومن هنا يظهر فساد ما أورده بقوله: ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساء ولا أبناء.

ومنها: قوله: وكل ما يفهم من الآية أمر النبي ﷺ ان يدعو المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالاً ونساءاً وأطفالاً. ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساءاً وأطفالاً، ويبتهلون الى الله بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى ـ الى قوله ـ وأنى لمن يؤمن بالله أن يرضى أن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين والمبطلين في صعيد واحد متوجهين الى الله تعالى في طلب لعنه وإبعاده من رحمته؟ وأي جرأة على الله واستهزاء بقدرته وعظمته أقوى من هذا؟

وملخصه أن الآية تدعو الفريقين الى الاجتماع بأنفسهم ونسائهم وذراريهم في صعيد واحد ثم الابتهال بالملاعنة، وينبغي أن يستبان ما هذا الاجتماع المدعو اليه؟

أهو اجتماع الفريقين كافة أعني المؤمنين بأجمعهم وهم يومئذ[1] عرب ربيعة ومضر جلهم أو كلهم من اليمن والحجاز والعراق وغيرها، والنصارى وهم أهل نجران من اليمن ونصارى الشام وسواحل البحر الابيض وأهل الروم والإفرنج والإنجليز والفسا وغيرهم.

وهؤلاء الجماهير في مشارق الأرض ومغاربها تربو نفوسهم بالرجال والنساء والذراري يومئذ على الملائين بعد الملائين، ولا يشك ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم في صعيد واحد فالأسباب العادية تأبى ذلك بجميع أركانها، ولازم ذلك أن يندب القرآن الناس الى المحال.

---

١. وهو سنة تسع على ما ذكره بعض المؤرخين أو عشر على ما ذكره آخرون وإن لم يخل جميعاً عن الاشكال على ما سيجيء في البحث الروائي عن الآيات التالية لهذه الآيات.

وينيط ظهور حجته، وتبين الحق الذي يدعيه على ما لا يكون البتة، وكان ذلك عذراً (ونعم العذر) للنصارى في عدم إجابتهم دعوة النبي ﷺ الى المباهلة، وكان ذلك أضر لدعواه منه لدعويهم.

أم هو اجتماع الحاضرين من الفريقين ومن في حكمهم أعني المؤمنين من أهل المدينة وما والاها، وأهل نجران ومن والاهم، وهذا وإن كان أقل وأخف شناعة من الوجه السابق لكنه من حيث استحالة التحقق وامتناع الوقوع كسابقه فمن الذي كان يسعه يومئذ أن يجمع أهل المدينة ونجران قاطبة حتى النساء والذراري منهم في صعيد للملاعنة، وهل هذه الدعوة إلّا تعليقاً بالمحال، واعترافاً بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسين بالخصام والجدال من الفريقين أعني النبي ﷺ والحاضرين عنده من المؤمنين، ووفد نجران من النصارى، ويرد عليه حينئذ ما أورده بقوله: «ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساءهم وأولادهم، وكان ذلك وقوعاً فيما ذكره من المحذور».

ومنها: قوله: أما كون النبي ﷺ والمؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون في عيسى عليه السلام فحسبنا في بيانه قوله تعالى: من بعد ما جاءك من العلم فالعلم في هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلّا اليقين.

أقول: أما كون العلم فيها بمعنى اليقين فهو حق وأما كون الآية دالة على كون المؤمنين على يقين من أمر عيسى عليه السلام فليت شعري من أين له إثبات ذلك؟ والآية غير متعرضة بلفظها (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك، الخ؛ إلّا لشأن رسول الله ﷺ، ومقام التخاطب أيضاً لا يشمل غيره ﷺ من المؤمنين فإن الوفد من النصارى ما كان لهم هم إلّا المحاجة والخصام مع النبي ﷺ، ولم يكن لهم هوى في لقاء المؤمنين، ولا كلموهم بكلمة، ولا كلمهم المؤمنون بكلمة.

نعم لو دلت الآية على حصول العلم لأحد غير النبي ﷺ لدل فيمن جيء به للمباهلة على ما استفدناه من قوله تعالى: من الكاذبين فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم واليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦)، فوصفهم بالشرك وكيف يجتمع الشرك مع اليقين، ويقول تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً﴾ (الأحزاب / ١٢)، ويقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ـ الى أن قال ـ: أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ (محمد / ٢٣)، فاليقين لا يتحقق به إلّا بعض اولي البصيرة من متبعي النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ (آل عمران / ٢٠)، وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف / ١٠٨).

ومنها: قوله: وفي قوله ندع أبنائنا وأبنائكم، الخ؛ وجهان: أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر، الخ؛ قد عرفت فساد وجهه الأول وعدم انطباقه على لفظ الآية اذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلاً لو قيل: تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، وإنما زيد عليه قوله: ندع أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم، ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهلة أعز الأشياء عنده وأحبها اليه وهو الأبناء والنساء والأنفس (الأهل والخاصة)، وهذا إنما يتم لو كان معنى الآية: ندعو نحن أبناءنا ونساءنا وأنفسنا وتدعون أنتم أبناءكم ونساءكم وأنفسكم، ثم نبتهل، وأما لو كان المعنى ندعو نحن أبنائكم ونسائكم وأنفسكم وتدعون أنتم أبناءنا ونساءنا وأنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى في نفسه مما لا يرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول الله ﷺ النصارى على أبنائه ونسائه، وسؤاله أن يسلطوه على ذراريهم ونسائهم ليتداعوا فيتم الحضور والمباهلة مع تأتي ذلك بدعوة كل فريق أهل نفسه لها؟

على أن هذا المعنى يحتاج في فهمه من الآية الى فهم معنى التسليط وما يشابهه ـ كما تقدم ـ منها، وأنى لنا فهمه؟ فالحق أن هذا الوجه ساقط. وأن الوجه الآخر وهو أن يكون المراد دعوة كل أهل نفسه هو المتعين.

ومنها: قوله: ولا إشكال في وجه من وجهي التوزيع في دعوة الأنفس، وإنما الإشكال فيه على قول الشيعة ومن شايعهم على القول بالتخصيص، يريد بالإشكال ما اورد على الآية من لزوم دعوة الإنسان نفسه، وهذا الإشكال غير مرتبط بشيء من الوجهين أصلاً وإنما هو إشكال على القول بكون المراد بأنفسنا هو رسول الله ﷺ كما يحكى عن بعض المناظرات المذهبية حيث ادعى أحد الخصمين أن المراد بأنفسنا، رسول الله ﷺ فاورد عليه بلزوم دعوة الإنسان نفسه وهو باطل تشير اليه الرواية الثانية المنقولة عن العيون فيما تقدم.

ومن هنا يظهر سقوط قوله: إنما الإشكال فيه على قول الشيعة فإن قولهم على ما قدمنا: أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بيت رسول الله ﷺ، وهم بحسب المصداق رسول الله وعلي عليهما الصلوة والسلام، ولا إشكال في دعوة بعضهم بعضاً.

فلا إشكال عليهم حتى على ما نسبه إليهم بزعمه: أن معنى أنفسنا علي فإنه لا إشكال في دعوة النبي ﷺ علياً عليه السلام.

وقال تلميذه في المنار بعد الإشارة الى الروايات: وأخرج ابن عساكر عن جعفر ابن محمد عن أبيه ﴿قل تعالوا ندع أبنائنا وأبناءكم﴾ الآية: قال: فجاء بأبي بكر وولده، وعمر وولده، وعثمان وولده. قال: والظاهر أن الكلام في جماعة المؤمنين.

ثم قال بعد نقل كلام أُستاذه المنقول سابقاً: وفي الآية ما ترى من الحكم بمشاركة النساء

للرجال في الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية، وهو مبني على اعتبار المرئة كالرجل حتى في الامور العامة إلّا ما استثنى منها الى آخر ما أطنب به من الكلام.

أقول: أما ما ذكره من الرواية فهي رواية شاذة تخالف جميع روايات الآية على كثرتها واشتهارها وقد أعرض عن هذه الرواية المفسرون، وهي مع ذلك تشتمل على ما لا يطابق الواقع، وهو جعله لكل من المذكورين فيه ولداً. ولا ولد يومئذ لجميعهم ألبتة.

وكأنه يريد بقوله: والظاهر أن الكلام في جماعة المؤمنين، أن يستظهر من الرواية الدلالة على أن رسول الله ﷺ أحضر جميع المؤمنين وأولادهم فيكون قوله: فجاء بأبي بكر وولده، الخ؛ كناية عن إحضاره عامة المؤمنين، وكأنه يريد به تأييد شيخه فيما ذكره من المعنى. وأنت ترى ما عليه الرواية من الشذوذ والإعراض والمتن ثم في الدلالة على ما ذكره من المعنى.

وأما ما ذكره من دلالة الآية على مشاركة النساء الرجال في الحقوق العامة فلو تم ما ذكره دل على مشاركة الأطفال أيضاً، وفي هذا وحده كفاية في بطلان ما ذكره.

وقد قدمنا الكلام في اشتراكهن معهم عند الكلام على آيات الطلاق في الجزء الثاني من الكتاب وسيأتي شطر في ما يناسبه من المورد من غير حاجة الى مثل ما استفاده من الآية.

٦٤ ● قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.

٦٥ ● يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

٦٦ ● هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ.

٦٧ ● ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلٰكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

٦٨ ● إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ.

٦٩ ● وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ.

٧٠ ● يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللّٰهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.

٧١ ● يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٧٢ ● وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٧٣ ● وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللّٰهِ أَنْ يُؤْتىٰ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّٰهُ واسِعٌ عَلِيمٌ.

٧٤ ● يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

٧٥ ● وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذٰلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

٧٦ ● بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

٧٧ ● إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٧٨ ● وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. الخطاب لعامة أهل الكتاب، والدعوة في قوله: تعالوا الى كلمة «إلخ» بالحقيقة إنما هي الى الاجتماع على معنى الكلمة بالعمل به، وإنما تنسب الى الكلمة لتدل على كونها دائرة بألسنتهم كقولنا اتفقت كلمة القوم على كذا فيفيد معنى الإذعان والاعتراف والنشر والإشاعة. فالمعنى: تعالوا نأخذ بهذه الكلمة متعاونين متعاضدين في نشرها والعمل بما توجبه.

والسواء في الأصل مصدر، ويستعمل وصفاً بمعنى مساوي الطرفين، وسواء بيننا وبينكم أي مساو من حيث الأخذ والعمل بما توجبه، وعليهذا فتوصيف الكلمة بالسواء توصيف بحال المتعلق وهو الأخذ والعمل، وقد عرفت أن العمل إنما يتعلق بمعنى الكلمة لا نفسها كما أن تعليق الاجتماع أيضاً على المعنى لا يخلو من عناية مجازية في الكلام وجوه من لطائف

العنايات: نسبة الاجتماع الى المعنى ثم وضع الكلمة مكان المعنى ثم توصيف الكلمة بالسواء!

قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، تفسير للكلمة السواء: وهي التي يوجبها الإسلام لله.

والمراد بقوله: أن لا نعبد إلّا الله، نفي عبادة غير الله لا إثبات عبادة الله تعالى على ما مرت الإشارة اليه في معنى كلمة الإخلاص (لا إله إلّا الله): أن لازم كون إلّا الله، بدلاً لا استثنائاً كون الكلام مسوقاً لبيان نفي الشريك دون إثبات الإله، فإن القرآن يأخذ إثبات وجود الإله وحقيته مفروغاً عنه.

ولما كان الكلام مسوقاً لنفي الشريك في العبادة ولا ينحسم به مادة الشرك اللازم من اعتقاد النبوة والتثليث ونحو ذلك أردفه بقوله: ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ، الخ؛ فإن تسمية العبادة بعبادة الله لا تصير العبادة عبادة لله سبحانه ما لم يخلص الاعتقاد ولم يتجرد الضمير من الاعتقادات والآراء المولودة من أصل الشرك لأن العبادة حينئذ إنما تكون عبادة إله له شريك، والعبادة التي يعبد بها أحد الشريكين وإن خص باسمه ووجه نحوه ليست إلّا نابتة منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهماً يسهم له وحظاً يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففيها بعينها نحو عبادة للغير[1].

وهذا الذي يدعو اليه النبي بأمر الله سبحانه، وهو الذي يدل عليه قوله: أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، هو الذي يجمع غرض النبوة في السيرة التي كانت الأنبياء تدعو اليها وتبسطها على المجتمع الإنساني.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ استشهاد، بأنهم (وهم

---

١. آل عمران ٦٤ـ٧٨: بحث في كيفية بسط التساوي في حقوق الحياة والحرية في الارادة الصالحة والعمل الصالح.

النبي ﷺ ومن اتبعه) على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام، قال ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران / ١٩)، فينقطع بذلك خصامهم وحجاجهم اذ لا حجة على الحق وأهله.

وفيه إشارة الى أن التوحيد في العبادة من لوازم الإسلام.

قوله تعالى: ﴿ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحآجُّونَ فِي ابْرٰهِيمَ ﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر أنه مقول القول الواقع في الآية السابقة، وكذا ما يأتي بعد أربع آيات فيكون مقولاً لرسول الله ﷺ وإن كان ظاهر سياق قوله: بعد آيتين: إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، الآية؛ أن يكون الخطاب من الله لا من رسوله بإذنه.

ومحاجتهم في إبراهيم عليه السلام بضم كل طائفة إياه الى نفسها يشبه أن تكون أولاً بالمحاجة لإظهار الحقية كأن تقول اليهود: إن إبراهيم عليه السلام الذي أثنى الله عليه في كتابه منا فتقول النصارى: إن إبراهيم كان على الحق، وقد ظهر الحق بظهور عيسى معه، ثم تتبدل الى اللجاج والعصبية فتدعي اليهود أنه كان يهودياً، وتدعي النصارى أنه كان نصرانياً. ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية إنما نشأتا جميعاً بعد نزول التوراة والإنجيل وقد نزلا جميعاً بعد إبراهيم عليه السلام فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهودياً بمعنى المنتحل بالدين الذي يختص بموسى عليه السلام، ولا نصرانياً بمعنى المتعبد بشريعة عيسى عليه السلام، فلو قيل في إبراهيم شيء لوجب أن يقال: إنه كان على الحق حنيفاً من الباطل الى الحق مسلماً لله سبحانه، وهذه الآيات في مساق قوله تعالى: ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ (البقرة / ١٤٠).

قوله تعالى: ﴿ هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاءِ حٰاجَجْتُمْ فِيمٰا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحٰاجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية؛ الآية تثبت لهم علماً في المحاجة التي وقعت بينهم، وتنفي علماً وتثبته لله تعالى، ولذلك ذكر المفسرون: أن المعنى: أنكم حاججتم: في إبراهيم عليه السلام ولكم به

علم ما، كالعلم بوجوده ونبوته، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو كونه يهودياً أو نصرانياً والله يعلم وأنتم لا تعلمون، أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى وخبره، والمعنى أنكم تحاجون في عيسى ولكم بخبره علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً، هذا ما ذكروه.

وأنت تعلم أن شيئاً من الوجهين لا ينطبق على ظاهر سياق الآية: أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجة في وجود إبراهيم ونبوته، وأما الثاني فلأن المحاجة التي وقعت منهم في عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين في خبره كاذبين في دعويهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجة فيما لهم له علم؛ وكلامه تعالى على أي حال يثبت منهم محاجة فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجة فيما ليس لهم به علم، فما هذه المحاجة التي هي فيما لهم به علم؟ على أن ظاهر الآيه أن هاتين إنما جرتا جميعاً فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم وبين المسلمين وإلّا كان المسلمون على الباطل في الحجاج الذي أهل الكتاب فيه على علم؛ وهو ظاهر.

والذي ينبغي ان يقال ـ والله العالم ـ ان من المعلوم أن المحاجة كانت جارية بين اليهود والنصارى في جميع موارد الاختلاف التي كانت بينهم، وعمدة ذلك نبوة عيسى عليه السلام وما كانت تقوله النصارى في حقه (إنه الله، أو ابنه، أو التثليث) فكانت النصارى تحاج اليهود في بعثته ونبوته وهم على علم منه، وكانت اليهود تحاج النصارى، وتبطل الوهيته ونبوته والتثليث وهم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم، واما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم في أمر إبراهيم أنه كان يهودياً أو نصرانياً.

وليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراة والإنجيل بعده وهو ظاهر، ولا ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعاً للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: أفلا تعقلون، فإنه يدل على أن الأمر يكفي فيه أدنى تنبيه، فهم عالمون بأنه كان سابقاً على التوراة والإنجيل لكنهم ذاهلون عن مقتضى علمهم وهو أنه لا يكون حينئذ يهودياً ولا نصرانياً بل على دين الله الذي

هو الإسلام لله.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الى آخر الآية: قد مر تفسيره فيما مر، وقد قيل: إن اليهود والنصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم عليه السلام منهم وعلى دينهم كذلك عرب الجاهلية من الوثنية كانت تدعي أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السلام حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء، ويدعون بالحنيفية الوثنية.

ولما وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بقوله: ولكن كان حنيفاً، وجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنية فلذلك أردفه بقوله: مسلماً وما كان من المشركين، أي كان على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام وما كان من المشركين كعرب الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية في موضع التعليل للكلام السابق وبيان للحق في المقام والمعنى ـ والله العالم ـ أن هذا النبي المعظم إبراهيم لو أخذت النسبة بينه وبين من بعده من المنتحلين وغيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعاً لمن بعده بل يعتبر الأولوية به والأقربية منه، والأقرب من النبي الذي له شرع وكتاب هم الذين يشاركونه في إتباع الحق، والتلبس بالدين الذي جاء به، والأولى بهذا المعنى بإبراهيم عليه السلام هذا النبي والذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذي اصطفى الله به إبراهيم وكذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله ويلبس الحق بالباطل.

وفي قوله ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ تعريض لأهل الكتاب من اليهود والنصارى بنحو الكناية أي لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه في إسلامه لله.

وفي قوله: وهذا النبي والذين آمنوا إفراد للنبي عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالاً للنبي وصوناً لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك ـ مثل قوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (الأنعام / ٩٠)، حيث لم يقل: فبهم اقتده.

وقد تم التعليل والبيان بقوله: والله ولي المؤمنين، فإن ولاية إبراهيم (ولي الله)، من ولاية

الله، والله ولي المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الطائفة الجماعة من الناس، وكأن الأصل فيه أن الناس وخاصة العرب كانوا أولا يعيشون شعوباً وقبائل بدويين يطوفون صيفاً وشتاءً بماشيتهم في طلب الماء والكلاء، وكانوا يطوفون وهم جماعة تحذراً من الغيلة والغارة فكان يقال لهم جماعة طائفة، ثم اقتصر على ذكر الوصف (الطائفة) للدلالة على الجماعة.

وأما كون أهل الكتاب لا يضلون إلّا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانية الميل الى الحق واتباعه فحب صرف الناس عن الحق الى الباطل من جهة أنه من أحوال النفس وأخلاقها رذيلة نفسانية ـ وبئست الرذيلة ـ وإثم من آثامها ومعاصيها وبغيها بغير حق، وماذا بعد الحق إلّا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين وهم على الحق إضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون.

وكذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولا أنفسهم لأن الإنسان لا يفعل شيئاً من خير أو شر إلّا لنفسه كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ (حم السجدة / ٤٦)، وأما ضلال من ضل بإضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوي وشآمة إرادته بإذن من الله، قال تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ (الروم / ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين في الأرض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ (الشورى / ٣١)، وقد مر شطر من الكلام في خواص الأعمال في الكلام على قوله تعالى: ﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ (البقرة / ٢١٧)، في الجزء الثاني من الكتاب.

وهذا الذي ذكرناه من المعارف القرآنية التي يفيدها التوحيد الأفعالي الذي يتفرع على

شمول حكم الربوبية والملك، وبه يوجه ما يفيده قوله تعالى: وما يضلون إلّا أنفسهم ولا يشعرون، من الحصر.

قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى، وأن الكفر بالله هو الالتزام بنفي التوحيد صريحاً كالوثنية والدهرية، والكفر بآيات الله إنكار شيء من المعارف الإلهية بعد ورود البيان ووضوح الحق، وأهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلهاً واحداً، وإنما ينكرون أموراً من الحقائق بينتها لهم الكتب السماوية المنزلة عليهم وعلى غيرهم كنبوة النبي ﷺ وكون عيسى عبداً لله ورسولاً منه، وأن إبراهيم ليس بيهودي ولا نصراني، وأن يد الله مبسوطة، وأن الله غني؛ الى غير ذلك، فأهل الكتاب في لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب﴾ (التوبة / ٢٩)، حيث نفى الإيمان عنهم صريحاً، وليس إلّا الكفر وذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام وعدم تدينهم بدين الحق في الآية يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن لم يشعروا به، وليس بالكفر الصريح.

وفي قوله تعالى: وأنتم تشهدون ـ والشهادة هو الحضور والعلم عن حس ـ دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله إنكارهم كون النبي ﷺ هو النبي الموعود الذي بشر به التوراة والإنجيل مع مشاهدتهم انطباق الآيات والعلائم المذكورة فيهما عليه.

ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن لفظ الآيات عام شامل لجميع الآيات ولا وجه لتخصيصه بآيات النبوة بل المراد كفرهم بجميع الآيات الحقة والوجه في فساده ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾ الى آخر الآية؛ اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهة والتمويه أي تظهرون الحق في صورة الباطل.

وفي قوله: وأنتم تعلمون دلالة أو تلويح على أن المراد باللبس والكتمان ما هو في المعارف الدينية غير ما يشاهد من الآيات كالآيات التي حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

وهاتان الآيتان أعني قوله: يا أهل الكتاب لم تكفرون ـ الى قوله: وأنتم تعلمون ـ تتمة لقوله تعالى: ودت طائفة الآية؛ وعليهذا فعتاب الجميع بفعال البعض بنسبته إليهم من جهة اتحادهم في العنصر والنسل والصفة، ورضاء البعض بفعال البعض وهو كثير الورود في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾ الى آخر الآية؛ المراد بوجه النهار بقرينة مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشيء ما يبدو ويظهر به لغيره وهو في النهار أوله، وسياق قولهم يكشف عن نزول وحي على النبي ﷺ في وجه النهار يوافق ما عليه أهل الكتاب وآخر في آخره يخالف ما هم عليه فإنما هو الذي دعاهم الى أن يقولوا هذا القول.

وعليهذا فقوله: بالذي أُنزل على الذين آمنوا أُريد به شيء خاص من وحي القرآن يوافق ما عند أهل الكتاب، وقوله: وجه النهار منصوب على الظرفية ومتعلق بقوله: أُنزل، لا بقوله: آمنوا (صيغة الأمر) لأنه أقرب، وقوله: واكفروا آخره في معنى وكفروا بما أُنزل في آخره فيكون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلي نظير قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ (سبأ / ٣٣).

وبذلك يتأيد ما ورد في سبب النزول عن أئمة أهل البيت: أن هذه كلمة قالتها اليهود حين تغيير القبلة حيث صلى رسول الله صلوة الصبح الى بيت المقدس وهو قبلة اليهود، ثم حولت القبلة في صلوة الظهر نحو الكعبة فقالت طائفة من اليهود: آمنوا بما أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار يريدون استقبال بيت المقدس، واكفروا آخره يريدون استقبال الكعبة. ويؤيده قولهم

بعده على ما حكاه الله: ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم، أي لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به فتفشوا عنده شيئاً من أسراركم والبشارات التي عندكم وكان من علائم النبي ﷺ أنه يحول القبلة الى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ الخ: الذي يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمة لقولهم: آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا، وكذا قوله تعالى: أن يؤتى أحد مثل ما اوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم، ويكون قوله ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ جملة معترضة هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعني قولهم: آمنوا بما انزل الى قوله: دينكم، على ما يفيده تغيير السياق، وكذا قوله تعالى: قل إن الفضل بيد الله، جوابه تعالى عن قولهم: أن يؤتى أحد الى آخره؛ هذا هو الذي يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام واتساق المعاني في الآيتين أولاً، وما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود في الجدال والكيد ثانياً.

والمعنى ـ والله أعلم ـ أن طائفة من أهل الكتاب ـ وهم اليهود ـ قالت أي قال بعضهم لبعض: صدقوا النبي والمؤمنين في صلوتهم وجه النهار الى بيت المقدس ولا تصدقوهم في صلوتهم الى الكعبة آخر النهار، ولا تثقوا في الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوة النبي الموعود تحويل القبلة الى الكعبة فإن في تصديقكم أمر الكعبة وإفشائكم ما تعلمونه من كونها من امارات صدق الدعوة محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما اوتيتم من القبلة فيذهب به سوددكم ويبطل تقدمكم في أمر القبلة، ومحذور أن يقيموا عليكم الحجة عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديدة شاهدين على حقيته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب الله تعالى عن قولهم في الإيمان بما في وجه النهار والكفر في آخره وأمرهم بكتمان أمر القبلة لئلا يهتدي المؤمنون الى الحق بأن الهدى الذي يحتاج اليه المؤمنون الذي هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم، فالمؤمنون في غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا وإن شئتم فاكفروا

وإن شئتم فأفشوا وإن شئتم فاكتموا.

وأجاب تعالى عما ذكروه من مخافة أن يؤتى أحد مثل ما اوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم وتمنعوا منه غيركم. وأما حديث الكتمان مخافة المحاجة فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك في قوله تعالى في هذا المعنى بعينه: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ (البقرة / ٧٧). فقوله: أولا يعلمون، إيذان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر والعلانية كلام منهم لا يستوي على تعقل صحيح. وليس جواباً لمكان الواو في قوله: أولا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد، ويستعمل في المحمود كما أن الفضول يستعمل في المذموم، قال الراغب: وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل نحو قوله: واسألوا الله من فضله ـ ذلك فضل الله ـ ذو الفضل العظيم، وعلى هذا قوله: قل بفضل الله ـ ولولا فضل الله ـ انتهى.

وعلى هذا فقوله: إن الفضل بيد الله، من قبيل الإيجاز بالقناعة بكبرى البيان القياسي؛ والتقدير: قل إن هذا الانزال والإيتاء الإلهي الذي تحتالون في تخصيصه بأنفسكم بالتظاهر على الإيمان والكفر، والإيصاء بالكتمان أمر لا تستوجبه معاشر الناس على الله تعالى بل هو من الفضل، والفضل بيد الله الذي له الملك وله الحكم فله أن يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فلما كان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وكان واسعاً عليماً أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، وليس اذا لم يكن ممنوع التصرف في فضله وإيتائه عباده

أن يجب عليه أن يؤتي كل فضله كل أحد فإن هذا أيضاً نوع ممنوعية في التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

وقد ختم الكلام بقوله: والله ذو الفضل العظيم وهو بمنزلة التعليل لجميع المعاني السابقة فإن لازم عظمة الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتيه من يشاء، وأن يكون واسعاً في فضله؛ وأن يكون علياً بحال عباده وما هو اللائق بحالهم من الفضل، وأن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

وفي تبديل الفضل بالرحمة في قوله: يختص برحمته من يشاء، دلالة على أن الفضل وهو العطية غير الواجبة من شعب الرحمة، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ (الأعراف / ١٥٦)، وقال ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ (النور / ٢١)، وقال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ (الإسراء / ١٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ـ إلى قوله: سَبِيلٌ﴾ إشارة الى اختلافهم في حفظ الأمانات والعهود اختلافاً فاحشاً آخذاً بطرفي التضاد وأن هذا وإن كان في نفسه رذيلة قومية ضارة إلّا أنه ناش بينهم فاش في جماعتهم من رذيلة اخرى اعتقادية وهي ما يشتمل عليه قولهم: ليس علينا في الاميين سبيل، فانهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب، وغيرهم بالاميين فقولهم: ليس علينا في الاميين سبيل معناه نفي أن يكون لغير إسرائيلي على إسرائيلي سبيل، وقد أسندوا الكلمة الى الدين. والدليل عليه قوله تعالى: ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى، الخ.

فقد كانوا يزعمون ـ كما أنهم اليوم على زعمهم ـ أنهم هم المخصوصون بالكرامة الإلهية لا تعدوهم الى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوة وكتاباً وملكاً فلهم السيادة والتقدم على غيرهم، واستنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعة عندهم اللازمة المراعاة عليهم كحرمة أخذ

الرباء وأكل مال الغير: وهضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلي على مثله، والمحظور هضم حقوق يهودي على أهل ملته، وبالجملة إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، وأما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا في غيرهم ما شاؤوا ويفعلوا في من دونهم ما أرادوا، وهذا يؤدي الى معاملتهم مع غيرهم معاملة الحيوان العجم كائناً من كان.

والقنطار والدينار معروفان، والمقابلة بينهما ـ على ما فيها من المحسنات البديعية ـ والمقام مقام يذكر فيه الأمانة تفيد أنه كنى بهما عن الكثير والقليل، والمراد أن منهم من لا يخون الأمانة وإن كثرت وثقلت قيمتها، ومنهم من يخونها وإن قلت وخفت.

وكذا الخطاب الموضوع في الكلام بقوله: إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، غير متوجه الى مخاطب معين بل هو للتكنية عن أي مخاطب يمكن أن يخاطب بهذا الكلام للإشعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحد دون واحد، والكلام في معنى قولنا: إن يأمنه مؤتمن أي مؤتمن كان بقنطار يؤده اليه.

وما في قوله: إلّا ما دمت عليه قائماً، مصدرية على ما قيل، والتقدير إلّا أن تدوم قائماً عليه، وذكر القيام عليه للدلالة على الإلحاح والاستعجال فإن قيام المطالب على ساقه عند المطالبة من غير قعود دليل على ذلك، وربما قيل: إن ما ظرفية، وليس بشيء.

وقوله: ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل، ظاهر السياق أن ذلك إشارة الى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أي كون بعضهم يؤدي الأمانة وإن كانت خطيرة مهمة، وبعضهم لا يؤديها وإن كانت حقيرة لا يعبأ بها إنما هو لقولهم، ليس علينا في الاميين سبيل فأوجب ذلك اختلافاً بينهم في الصفات الروحية كحفظ الأمانات والاتقاء عن تضييع حقوق الناس، والاغترار بالكرامة مع أنهم يعلمون أن الله لم يسن لهم ذلك في الكتاب ولا رضي بمثل هذه الأفعال منهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إبطال لدعويهم أنه ليس علينا في الاميين سبيل، ودليل على أنهم كانوا ينسبون ذلك الى الوحي السماوي والتشريع الديني كما مر.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، رد لكلامهم وإثبات لما نفوه بقولهم: ليس علينا في الاميين سبيل؛ وإيفاء العهد تتميمه بالتحفظ من العذر والنقص؛ والتوفية البذل والإعطاء وافياً؛ والاستيفاء الأخذ والتناول وافياً.

والمراد بالعهد ما أخذ الله الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به ويعبدوه على ما يشعر به قوله في الآية التاليه: إن الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً، أو مطلق العهد الذي منه عهد الله تعالى.

وقوله: فإن الله يحب المتقين من قبيل وضع الكبرى موضع الصغرى إيثاراً للإيجاز، والتقدير فإن الله يحبه لأنه متق والله يحب المتقين، والمراد أن كرامة الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفي السبيل.

فافاد الكلام ان الكرامة الإلهية ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل من انتسب اليه انتساباً أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامة جنسية أو قومية بل يشترط في نيلها الوفاء بعهد الله وميثاقه والتقوى في الدين فاذا تمت الشرائط حصلت الكرامة وهي المحبة والولاية الإلهية التي لا تعدو عباده المتقين، وأثرها النصرة الإلهية، والحيوة السعيدة التي تعمر الدنيا وتصلح بال أهلها، وترفع درجات الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ تعليل للحكم المذكور في الآية السابقة، والمعنى أن الكرامة الإلهية خاصة بمن أوفى بعهده واتقى لأن غيرهم ـ وهم الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً ـ لا كرامة لهم.

ولما كان نقض عهد الله وترك التقوى إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا وإيثار شهوات الأولى

على الاخرى كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد والتقوى، وتبديل العهد به، ولذلك شبه عملهم ذلك بالمعاملة فجعل عهد الله مبيعاً يشترى بالمتاع، وسمى متاع الدنيا وهو قليل بالثمن القليل، والاشتراء هو البيع فقيل: يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً، أي يبدلون العهد والايمان من متاع الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية؛ الخلاق النصيب، والتزكية هي الإنماء نمواً صالحاً. ولما كان الوصف المأخوذ في بيان هذه الطائفة من الناس مقابلاً للوصف المأخوذ في الطائفة الاخرى المذكورة في قوله: من أوفى بعهده واتقى، ثم كانت التبعات المذكورة لوصفهم اموراً سلبية أفاد ذلك:

أولاً: أن الإتيان في الإشارة بلفظ أولئك الدال على البعد لإفادة بعد هؤلاء من ساحة القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

وثانياً: أن آثار محبة الله سبحانه هي الخلاق في الآخرة، والتكليم والنظر يوم القيامة، والتزكية والمغفرة، وهي رفع أليم العذاب.

والخصال التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله وأيمانهم امور ثلاثة:

أحدها: أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، والمراد بالآخرة هي الدار الآخرة (من قيام الوصف مقام الموصوف) ويعني بها الحياة التي بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هي الدار الدنيا وهي الحياة الدنيا قبل الموت.

ونفي النصيب عنهم في الآخرة لاختيارهم نصيب الدنيا عليه، ومن هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا، وإنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل، وقد وصف به متاع الدنيا في قوله ـ عز من قائل ـ ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ (النساء / ٧٧)، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

وثانيها: أن الله لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة، وقد حوذي به المحبة الإلهية للمتقين

من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالإسترسال بالنظر والتكليم عند الحضور والوصال، واذ لا يحبهم الله فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة وهو يوم الإحضار والحضور، والتدرج من التكليم الى النظر لوجود القوة والضعف بينهما فإن الاسترسال في التكليم أكثر منه في النظر فكأنه قيل: لا نشرفهم لا كثيراً ولا قليلاً.

وثالثها: أن الله لا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وإطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التزكية والعذاب في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، اللَيّ هو فتل الحبل، وليّ الرأس واللسان إمالتها. قال تعالى: ﴿لوّوا رؤوسهم﴾ (المنافقون / ٥)، وقال تعالى: ﴿ليّاً بألسنتهم﴾ (النساء / ٤٦)، والظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرأون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرأون بها الكتاب تلبيساً على الناس ليحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب.

وتكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات في الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذي كتبوه بأيديهم ونسبوه الى الله سبحانه، وبالثاني الكتاب الذي أنزله الله تعالى بالوحي، وبالثالث هو الثاني كرر لفظه لدفع اللبس وللإشارة الى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزلة من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات، وذلك لما في لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعلية.

ونظيره تكرار لفظ الجلالة في قوله: ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، فالمعنى وما هو من عند الله الذي هو إله حقاً لا يقول إلّا الحق، قال تعالى: ﴿والحق أقول﴾ (ص / ٨٤).

وأما قوله: ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحي الى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله

الله بقوله: وما هو من الكتاب ثم كانوا يقولون بألسنتهم هو من عند الله فكذبهم الله: أولاً بقوله: وما هو من عند الله. وثانياً بقوله: ويقولون على الله الكذب. وزاد في الفائدة أولا أن الكذب من دأبهم وديدنهم. وثانياً أن ذلك ليس كذباً صادراً عنهم بالتباس من الأمر عليهم بل هم عالمون به متعمدون فيه[1].

٧٩ ● مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ.

٨٠ ● وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، البشر مرادف للإنسان. ويطلق على الواحد والكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعة منه بشر.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، اللام للملك أي لا يملك ذلك أي ليس له بحق كقوله تعالى: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ (النور / ١٦)، وقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ (آل عمران / ١٦١).

---

١. آل عمران ٦٤ ـ ٧٨: بحث روائي حول: الآية «يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء ...»: دعوة رسول الله ﷺ لاهل الكتاب؛ كتب رسول الله الى الملوك والامراء.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، اسم كان إلّا أنه توطئة لما يتبعه من قوله: ثم يقول للناس، وذكر هذه التوطئة مع صحة المعنى بدونها ظاهراً يفيد وجهاً آخر لمعنى قوله: ما كان لبشر، فإنه لو قيل: ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له الحق وإن أمكن أن يقول ذلك فسقاً وعتواً، ولكنه اذا قيل: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول: كان معناه أن إيتاء الله له العلم والفقه بما عنده وتربيته له بتربية ربانية لا يدعه أن يعدو طور العبودية، ولا يوسع له أن يتصرف فيما لا يملكه ولا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ (المائدة / ١١٦).

ومن هنا تظهر النكتة في قوله: أن يؤتيه الله، الخ؛ دون أن يقال: ما كان لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول، الخ؛ فإن العبارة الثانية تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: أن يؤتيه الله، الخ؛ فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البتة أي أن التربية الربانية والهداية الالهية لا تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء (يعني قوم رسول الله صلى الله عليه وآله) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ (الأنعام / ٨٩).

فحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الالهية وبين دعوة الناس الى عبادة نفسه بأن يؤتى الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، فالآية بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون - الى أن قال -: وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ (النساء / ١٧٣)، فإن المستفاد من الآية: أن المسيح وكذا الملائكة المقربون أجل شأناً وأرفع قدراً أن يستنكفوا عن عبادة الله فإن

الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب، وحاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه ومقربي ملائكته.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الرباني منسوب الى الرب، زيد عليه الألف والنون للدلالة على التفخيم كما يقال لحياني لكثير اللحية ونحو ذلك. فمعنى الرباني شديد الاختصاص بالرب وكثير الاشتغال بعبوديته وعبادته، والباء في قوله: بما كنتم، للسببية، وما مصدرية، والكلام بتقدير القول والمعنى، ولكن يقول: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس ودراستكم إياه فيما بينكم.

والدراسة أخص من التعليم فإنه يستعمل غالباً فيما يتعلم عن الكتاب بقرائته، قال الراغب: درس الدار بقي أثرها، وبقاء الأثر يقتضي امحائه في نفسه، فلذلك فسر الدروس بالامحاء، وكذا درس الكتاب، ودرست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداوة القرائة عبر عن إدامة القرائة بالحفظ، قال تعالى: ودرسوا ما فيه، وقال: بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، وما آتيناهم من كتب يدرسونها انتهى.

ومحصل الكلام أن البشر الذي هذا شأنه إنما يدعوكم الى التلبس بالإيمان واليقين بما في الكتاب الذي تعلمونه وتدرسونه من اصول المعارف الإلهية، والاتصاف والتحقق بالملكات والأخلاق الفاضلة التي يشتمل عليها، والعمل بالصالحات التي تدعون الناس اليها حتى تنقطعوا بذلك الى ربكم، وتكونوا به علماء ربانيين.

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾، حيث اشتمل على الماضي الدال على التحقق لا يخلو عن دلالة ما على أن الكلام في الآية مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب في قولهم: إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه وكلمته على الخلاف في تفسير البنوة، وذلك أن بني إسرائيل هم الذين كان في أيديهم كتاب سماوي يعلمونه ويدرسونه وقد اختلفوا فيه اختلافاً يصاحب التغيير

والتحريف، وما بعث عيسى عليه السلام إلّا ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، وليحل بعض الذي حرم عليهم، وبالجملة ليدعوهم الى القيام بالواجب من وظائف التعليم والتدريس وهو أن يكونوا ربانيين في تعليمهم ودراستهم كتاب الله سبحانه.

والآية وإن لم تأب الانطباق على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجه فقد كانت لدعوته أيضاً مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون ويدرسون كتاب الله لكن عيسى عليه السلام أسبق انطباقاً عليه، وكانت رسالته خاصة ببني إسرائيل بخلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما سائر الأنبياء العظام من اولي العزم والكتاب: كنوح وإبراهيم وموسى فمضمون الآية لا ينطبق عليهم وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾ عطف على قوله: على القراءة المشهورة التي هي نصب بأمركم، وهذا كما كان طائفة من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكة ويسندون ذلك الى الدعوة الدينية، وكعرب الجاهلية حيث كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، وهم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، هذا في إتخاذ الملائكة أرباباً.

وأما إتخاذ النبيين أرباباً فكقول اليهود: عزير ابن الله على ما حكاه القرآن ولم يجوز لهم موسى عليه السلام ذلك، ولا وقع في التوراة إلّا توحيد الرب ولو جوز لهم ذلك لكان أمراً به حاشاه من ذلك.

وقد اختلفت الآيتان: أعني قوله: ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله وقوله: أويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من جهتين في سياقها: الاولى: أن المأمور في الاولى (ثم يقول للناس) الناس، وفي الثانية هم المخاطبون بالآية، والثانية: أن المأمور به في الأولى العبودية له وفي الثانية الاتخاذ أرباباً.

أما الاولى فحيث كان الكلام مسوقاً للتعريض بالنصارى في عبادتهم لعيسى، وقولهم

بألوهيته صريحاً مستندين ذلك الى دعوته كان ذلك نسبة منهم إليه أنه قال: كونوا عباداً لي بخلاف اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً بالمعنى الذي قيل في غير عيسى فإنه يضاد الألوهية بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل: أرباباً، ولم يقل: آلهة.

وأما الثانية فالوجه فيه أن التعبيرين كليهما (كونوا عباداً لي ـ يأمركم أن تتخذوا) أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب والعرب لكن التعبير لما وقع في الآية الأولى بالقول، والقول يقضي بالمشافهة ولم يكن الحاضرون في زمن نزول الآية حاضرين اذ ذاك لا جرم قيل: ثم يقول للناس، ولم يقل: ثم يقول لكم؛ وهذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل في الآية الثانية فإنه لا يستلزم شفاهاً بل يتم مع الغيبة فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحدة القومية. وأما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضي بالمشافهة والحضور إلا أن يعني به مجرد معنى التفهيم.

وعلى هذا فالأصل في سياق هذه الآيات الحضور وخطاب الجمع؛ كما جرى عليه قوله تعالى: أو يأمركم، الى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوة من أهل الكتاب أو المدعين للانتساب الى الانبياء كما كانت عرب الجاهلية تزعم أنهم حنفاء والكلام موضوع على الفرض والتقدير فالمعنى أنكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذي اوتي الكتاب والحكم والنبوة تكونون مسلمين لله متحلين بحلية الإسلام مصبوغين بصبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر ويضلكم عن السبيل الذي هداكم إليه بإذن الله سبحانه.

ومن هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذي هو دين الله عند جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضاً احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسلام أعني قوله تعالى من قبل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ١٩)، وقوله تعالى من بعد: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾

ـ الى أن قال ـ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (آل عمران / ٨٥)[١][٢].

٨١ ● وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ لَمٰا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قٰالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قٰالُوا أَقْرَرْنٰا قٰالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مِنَ الشّٰاهِدِينَ.

٨٢ ● فَمَنْ تَوَلّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ.

٨٣ ● أَفَغَيْرَ دِينِ اللّٰهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

٨٤ ● قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَمٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَمٰا أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبٰاطِ وَمٰا أُوتِيَ مُوسىٰ وَعِيسىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لٰا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

٨٥ ● وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰاسِرِينَ.

---

١. آل عمران ٧٩ ـ ٨٠: بحث في قصة عيسى عليه السلام في فصول (ما هي قصة عيسى وامّه في القرآن، منزلة عيسى عند الله وموقفه في نفسه، ما الذي قاله عيسى عليه السلام وما الذي قيل فيه؟ احتجاج القرآن على مذهب التثليث، المسيح من الشفعاء عند الله وليس بفاد، من اين نشأ هذه الآراء.

٢. آل عمران ٧٩ ـ ٨٠: بحث تاريخي في: قصة التوراة الحاضرة؛ قصة المسيح والانجيل.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، الآية تنبئ عن ميثاق مأخوذ، وقد أخذ الله هذا الميثاق للنبيين كما يدل عليه قوله تعالى: ثم جاءكم رسول، الخ؛ كما أنه تعالى أخذه من النبيين على ما يدل عليه قوله: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، الخ؛ وقوله بعد: قل آمنا بالله، الى آخر الآية؛ فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبيين ومأخوذ منهم وإن كان مأخوذاً من غيرهم أيضاً بواسطتهم.

وعلى هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: ميثاق النبيين الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم والميثاق واحد، وبعبارة اخرى يجوز أن يراد بالنبيين، المأخوذ لهم الميثاق والمأخوذ منهم الميثاق إلّا أن سياق قوله تعالى: ماكان لبشر أن يؤتيه الله الى آخر الآيتين في اتصاله بهذه الآية يؤيد كون المراد بالنبيين هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحدة السياق تعطي أن المراد: أن النبيين بعدما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة لا يتأتى لهم أن يدعوا الى الشريك وكيف يتأتى لهم ذلك؟ وقد أخذ منهم الميثاق على الإيمان والنصرة لغيرهم من النبيين الذين يدعون الى توحيد الله سبحانه، فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبيين.

وقوله: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، القراءة المشهورة، وهي قراءة غير حمزة بفتح اللام والتخفيف في «لما» وعليها فما موصولة وآتيتكم، ـ وقرأ آتيناكم ـ صلته، والضمير محذوف، يدل عليه قوله: من كتاب وحكمة، والموصول مبتدأ خبره قوله: لتؤمنن به، الخ؛ واللام في لما ابتدائية، وفي لتؤمنن به لام القسم، والمجموع بيان للميثاق المأخوذ، والمعنى: للذي أتيتكموه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتم به

ونصرتموه البتة.

ويمكن أن يكون ما شرطية وجزاؤها قوله لتؤمنن به، والمعنى مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه؛ وهذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها في الجزاء أشهر، والمعنى عليه أسلس وأوضح، والشرط في موارد المواثيق أعرف. وأما قراءة كسر اللام في «لما» فاللام فيها للتعليل وما موصولة، والترجيح لقراءة الفتح.

والخطاب في قوله: آتيتكم، وقوله: جاءكم، وإن كان بحسب النظر البدوي للنبيين لكن قوله بعد: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قرينة على أن الخطاب للنبيين وامهم جميعاً أي ان الخطاب مختص بهم وحكمه شامل لهم ولامهم جميعاً فعلى الامم أن يؤمنوا وينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا وينصروا.

وظاهر قوله: ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، التراخي الزماني أي أن على النبي السابق أن يؤمن وينصر النبي اللاحق. وأما ما يظهر من قوله: قل آمنا بالله، الخ؛ أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق واللاحق للآخر، وأن على اللاحق أن يؤمن وينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآية كما سيجيء إن شاء الله العزيز.

وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، الضمير الأول وإن كان من الجائز أن يرجع الى الرسول كالضمير الثاني اذ لا ضير في إيمان نبي لنبي آخر، قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ الآية (البقرة / ٢٨٥)، لكن الظاهر من قوله: قل آمنا بالله وبما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم، الخ؛ رجوعه الى ما أوتوا من كتاب وحكمة، ورجوع الضمير الثاني الى الرسول، والمعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب وحكمة ولتنصرن الرسول الذي جاءكم مصدقاً لما معكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾،

الاستفهام للتقرير، والإقرار معروف، والإصر هو العهد، وهو مفعول أخذتم، وأخذ العهد يستلزم مأخوذاً منه غير الآخذ وليس إلّا امم الأنبياء. فالمعنى أأقررتم أنتم بالميثاق، وأخذتم على ذلكم عهدي من امكم قالوا: أقررنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ظاهر الشهادة كما مر أن يكون على الغير فهي شهادة من الأنبياء وامهم جميعاً، ويشهد لذلك كما مر قوله: قل آمنا بالله، ويشهد لذلك السياق أيضاً. فإن الآيات مسوقة للاحتجاج على أهل الكتاب في تركهم إجابة دعوة رسول الله ﷺ كما أنها تحتج عليهم في ما نسبوه الى عيسى وموسى عليهما السلام وغيرهما كما يدل عليه قوله تعالى: أفغير دين الله يبغون، وغيره.

وربما يقال: إن المراد بقوله: فاشهدوا، شهادة بعض الأنبياء على بعض كما ربما يقال: إن المخاطبين بقوله: فاشهدوا، هم الملائكة دون الأنبياء.

والمعنيان وإن كانا جائزين في نفسهما غير أن اللفظ غير ظاهر في شيء منهما بغير قرينة، وقد عرفت أن القرينة على الخلاف.

ومن اللطائف الواقعة في الآية أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسل على ما يعطيه قوله: واذ أخذنا من النبيين ـ الى قوله ـ ثم جاءكم رسول، وقد مر في ذيل قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة﴾ الآية (البقرة / ٢١٣)، الفرق بين النبوة والرسالة وأن الرسول أخص مصداقاً من النبي.

فعلى ظاهر ما يفيده اللفظ يكون الميثاق مأخوذاً من مقام النبوة لمقام الرسالة من غير دلالة على العكس.

وبذلك يمكن المناقشه فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآية أن الميثاق مأخوذ من عامة النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، ويأمر بعضهم بالإيمان ببعض، أي إن الدين واحد يدعو اليه جميع الأنبياء، وهو ظاهر.

فحصل معنى الآية على ما مر: أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء وامهم أن لو آتاهم الله الكتاب والحكمة وجاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم وينصرن الرسول وذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم والمعاصر، وبشارة من المتقدم بالمتأخر وتوصية الامة، ومن الامة الإيمان والتصديق والنصرة، ولازم ذلك وحدة الدين الإلهي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ الخ؛ تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، والمعنى واضح.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّٰهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ﴾، تفريع على الآية السابقة المتضمنة لأخذ ميثاق النبيين، والمعنى فاذا كان دين الله واحداً وهو الذي أُخذ عليه الميثاق من عامة النبيين وامهم وكان على المتقدم من الأنبياء والامم أن يبشروا بالرسول المتأخر ويؤمنوا بما عنده ويصدقوه فماذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب وقد كفروا بك وظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذي هو دين الله الوحيد؟ ولذلك لا يصدقونك ولا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذي يبتني على الفطرة؛ وكذلك يجب أن يكون الدين، والدليل عليه أن من في السموات والأرض من اولي العقل والشعور مسلمون لله في مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه في مقام التشريع.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾، هذا الإسلام الذي يعم من في السموات والأرض ومنهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين، ولفظ أسلم صيغة ماض ظاهره المضي والتحقق لا محالة وهو التسليم التكويني لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودي، ويؤيده أو يدل عليه قوله طوعاً وكرهاً.

وعلى هذا فقوله: وله أسلم، من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل والسبب عن ذكر المدلول والمسبب؛ وتقدير الكلام: أفغير الإسلام يبغون؟ وهو دين الله لأن من في السموات والأرض

مسلمون له منقادون لأمره، فإن رضوا به كان انقيادهم طوعاً من أنفسهم، وإن كرهوا ما شائه وأرادوا غيره كان الأمر أمره وجرى عليهم كرهاً من غير طوع.

ومن هنا يظهر أن الواو في قوله: طوعاً وكرهاً، للتقسيم، وأن المراد بالطوع والكره رضاهم بما أراد الله فيهم مما يحبونه، وكراهتهم لما أراده فيهم مما لا يحبونه كالموت والفقر والمرض ونحوها.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ هذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسلام ديناً فإن مرجعهم الى الله مولاهم الحق لا الى ما يهديهم اليه كفرهم وشركهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، أمر النبي أن يجري على الميثاق الذي أخذ منه ومن غيره فيقول عن نفسه وعن المؤمنين من امته: آمنا بالله وما أُنزل علينا. الخ.

وهذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء وامهم جميعاً كما مرت الإشارة اليه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ﴾ الى آخر الآية: هؤلاء المذكورون بأسمائهم هم الأنبياء من آل إبراهيم، ولا تخلو الآية من إشعار بأن المراد بالأسباط هم الأنبياء من ذرية يعقوب أو من أسباط بني إسرائيل كداود وسليمان ويونس وأيوب وغيرهم.

وقوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، تعميم للكلام ليشمل آدم ونوحاً ومن دونهما، ثم جمع الجميع بقوله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الخ: نفي لغير مورد

الإثبات من الميثاق المأخوذ، وفيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق[1].

٨٦ ● كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللّٰهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ.

٨٧ ● أُولٰئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّٰهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ.

٨٨ ● خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ.

٨٩ ● إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٩٠ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الضّالُّونَ.

٩١ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدىٰ بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ﴾، الاستفهام يفيد الاستبعاد والإنكار، والمراد به استحالة الهداية، وقد ختم الآية بقوله: والله لا يهدي القوم الظالمين. وقد مر في نظير هذه الجملة أن الوصف مشعر بالعلية أي لا يهديهم مع وجود هذا

---

١. آل عمران ٨١ ـ ٨٥: بحث روائي في ان الله اخذ الميثاق على الانبياء ...

الوصف فيهم، وذلك لا ينافي هدايته لهم على تقدير رجوعهم وتوبتهم منه.

وأما قوله: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ فإن كان المراد بهم أهل الكتاب فشهادتهم هو مشاهدتهم أن آيات النبوة التي عندهم منطبقة على رسول الله ﷺ كما يفيده قوله: وجائهم البينات، وإن كان المراد بهم أهل الردة من المسلمين فشهادتهم هي إقرارهم بالرسالة لا إقراراً صورياً مبنياً على الجهالة والحمية ونحوهما بل إقراراً مستنداً الى ظهور الأمر كما يفيدة قوله: وجائهم البينات.

وكيف كان الأمر فانضمام قوله: وشهدوا، الخ؛ الى أول الكلام يفيد أن المراد بالكفر هو الكفر بعد ظهور الحق وتمام الحجة فيكون كفراً عن عناد مع الحق ولجاج مع أهله وهو البغي بغير الحق والظلم الذي لا يهتدي صاحبه الى النجاة والفلاح.

وقد قيل في قوله: وشهدوا، الخ؛ إنه معطوف على قوله: إيمانهم لما فيه من معنى الفعل، والتقدير كفروا بعد أن آمنوا وشهدوا، الخ؛ أو أن الواو للحال؛ والجملة حالية بتقدير «قد».

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ - الى قوله - وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، قد مر الكلام في معنى عود جميع اللعنة عليهم في تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة / ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الخ: أي دخلوا في الصلاح، والمراد به كون توبتهم نصوحاً تغسل عنهم درن الكفر وتطهر باطنهم بالإيمان، واما الإتيان بالأعمال الصالحة فهو وإن كان مما يتفرع على ذلك ويلزمه غير أنه ليس بمقوم لهذه التوبة ولا ركناً منها؛ ولا في الآية دلالة عليه.

وفي قوله: فإن الله غفور رحيم وضع العلة موضع المعلول والتقدير فيغفر الله له ويرحمه فإن الله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾ الى آخر الآيتين:

تعليل لما يشتمل عليه قوله أولاً: كيف يهدي الله قوماً كفروا، الخ؛ وهو من قبيل التعليل بتطبيق الكلي العام على الفرد الخاص، والمعنى أن الذي يكفر بعد ظهور الحق وتمام الحجة عليه، ولا يتوب بعده توبة مصلحة إنما هو أحد رجلين إما كافر يكفر ثم يزيد كفراً فيطغي، ولا سبيل للصلاح اليه فهذا لا يهديه الله ولا يقبل توبته لأنه لا يرجع بالحقيقة بل هو منغمر في الضلال، ولا مطمع في اهتدائه.

وإما كافر يموت على كفره وعناده من غير توبة يتوبها فلا يهديه الله في الآخرة بأن يدخله الجنة اذ لم يرجع الى ربه ولا بدل لذلك حتى يفتدي به، ولا شفيع ولا ناصر حتى يشفع له أو ينصره.

ومن هنا يظهر أن قوله: وأولئك هم الضالون باشتماله على اسمية الجملة، والإشارة البعيدة في أولئك، وضمير الفصل، والاسمية واللام في الخبر يدل على تأكد الضلال فيهم بحيث لا ترجى هدايتهم.

وكذا يظهر أن المراد بقوله: وماهم من ناصرين نفي انتفاعهم بالشفعاء الذين هم الناصرون يوم القيامة فإن الإتيان بصيغة الجمع يدل على تحقق ناصرين يوم القيامة كما مر نظيره في الاستدلال على الشفاعة بقوله تعالى: فما لنا من شافعين، الآية؛ في مبحث الشفاعة (آية ٤٨ من سورة البقرة) فارجع إليه.

وقد اشتملت الآية الثانية على ذكر نفي الفداء والناصرين لكونهما كالبدل، والبدل إنما يكون من فائت يفوت الإنسان، وقد فاتتهم التوبة في الدنيا ولا بدل لها يحل محلها في الآخرة.

ومن هنا يظهر أن قوله: وماتوا وهم كفار في معنى: وفاتتهم التوبة فلا ينتقض هذا البيان الظاهر في الحصر بما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ (النساء / ١٨)، فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخرة وانقطاع الدنيا؛ وتفوت

عند ذلك التوبة.

والملء في قوله: ملء الأرض ذهباً مقدار ما يسعه الإناء من شيء، فاعتبر الأرض إناء يملأه الذهب فالجملة من قبيل الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية.

٩٢ ● لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ.

٩٣ ● كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٩٤ ● فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

٩٥ ● قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، النيل هو الوصول، والبر هو التوسع في فعل الخير. قال الراغب: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أي التوسع في فعل الخير. انتهى.

ومراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاعتقاد الحق والنية الطاهرة أو فعل الجوارح كالعبادة لله والإنفاق في سبيل الله تعالى، وقد اشتمل على القسمين جميعاً قوله تعالى:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ الآية (البقرة / ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، تطييب لنفوس المنفقين أن ما ينفقونه من المال المحبوب عندهم لا يذهب مهدوراً من غير أجر فإن الله الذي يأمرهم به عليم بإنفاقهم وما ينفقونه.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾، الطعام كل ما يطعم ويتغذى به وكان يطلق عند أهل الحجاز على البُر خاصة وينصرف اليه عندهم لدى الإطلاق، والحل مقابل الحرمة، وكأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد والعقل فيفيد معنى الإطلاق، وإسرائيل هو يعقوب النبي عليه السلام سمي به لأنه كان مجاهداً في الله مظفراً به، ويقول أهل الكتاب: إن معناه المظفر الغالب على الله سبحانه لأنه صارع الله في موضع يسمى فنيئيل فغلبه (على ما في التوراة) وهو مما يكذبه القرآن ويحيله العقل.

وقوله: إلّا ما حرم إسرائيل على نفسه استثناء من الطعام المذكور آنفاً، وقوله: من قبل أن تنزل التوراة متعلق بكان في الجملة الاولى، والمعنى لم يحرم الله قبل نزول التوراة شيئاً من الطعام على بني إسرائيل إلّا ما حرم إسرائيل على نفسه.

وفي قوله تعالى: قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، دلالة على أنهم كانوا ينكرون ذلك، أعني حلية كل الطعام عليهم قبل التوراة، ويدل عليه أنهم كانوا ينكرون النسخ في الشرائع ويحيلون ذلك كما مر ذكره في ذيل قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية (البقرة / ١٠٦)، فهم كانوا ينكرون بالطبع قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم

طيبات احلت لهم﴾ (النساء / ١٦٠).

وكذا يدل قوله تعالى بعد: قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، أنهم كانوا يجعلون ما ينكرونه (من حلية كل الطعام عليهم قبل التوراة، وكون التحريم إنما نزل عليهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمة) وسيلة الى إلقاء الشبهة على المسلمين، والاعتراض على ما كان يخبر به رسول الله ﷺ عن ربه أن دينه هو ملة إبراهيم الحنيف، وهي ملة فطرية لا إفراط فيها ولا تفريط، كيف؟ وهم كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهودياً على شريعة التوراة، فكيف يمكن أن تشتمل ملته على حلية ما حرمتها التوراة، والنسخ غير جائز؟

فقد تبين أن الآية إنما تتعرض لدفع شبهة أوردتها اليهود، ويظهر من عدم تعرض الآيه لنقل الشبهة عنهم كما يجري عليه القرآن في غالب الموارد كقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ (المائدة / ٦٤)، وقوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلّا أياماً معدودة﴾ (البقرة / ٨٠)، وقوله: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ (البقرة / ٨٨)، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وكذا قوله تعالى بعد عدة آيات: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن - الى أن قال -: يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ الآيات (آل عمران / ١٠٠).

وبالجملة يظهر من ذلك أنها كانت شبهة تلقيه اليهود لا على رسول الله ﷺ بل على المؤمنين في ضمن ما كانوا يتلاقون ويتحاورون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي حتى يتبين أن أي الفريقين على الحق، أنا أم أنتم، وهذا إلقاء جواب منه تعالى على نبيه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ظاهره أنه كلام لله سبحانه يخاطب به نبيه ﷺ، وعلى هذا ففيه تطييب لنفس النبي ﷺ بأن أعدائه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافترائهم الكذب على

الله، وتعريض لليهود، والكلام يجري مجرى الكناية.

وأما احتمال كون الكلام من تتمة كلام النبي ﷺ فلا يلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشارة في قوله: من بعد ذلك، وعلى هذا أيضاً يجري الكلام مجرى الكناية والستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما في قوله تعالى: ﴿إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ / ٢٤)، والمشار اليه بذلك هو البيان والحجة.

وإنما قال: من بعد ذلك مع أن المفتري ظالم على أي حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل، والقصر في قوله: فأولئك هم الظالمون قصر قلب على أي حال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ الخ؛ أي فاذا كان الحق معي فيما أخبرتكم به ودعوتكم اليه فاتبعوا ديني واعترفوا بحلية لحم الإبل وغيره من الطيبات التي أحلها الله، وإنما كان حرمها عليكم عقوبة لاعتدائكم وظلمكم كما أخبر تعالى به.

فقوله: فاتبعوا، الخ؛ كالكناية عن اتباع دينه، وإنما لم يذكره بعينه لأنهم كانوا معترفين بملة إبراهيم، ليكون إشارة الى كون ما يدعو اليه من الدين حنيفاً فطرياً لأن الفطرة لا تمنع الإنسان من أكل الطيبات من اللحوم وسائر الرزق.

٩٦ ● إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ.

٩٧ ● فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ الى آخر الآية؛ البيت معروف؛ والمراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم وهو أن يجعلوه ذريعة يتوسل به الى عبادة الله سبحانه، ويستعان به فيها بأن يعبد الله فيه، وبقصده والمسير اليه وغير ذلك؛ والدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركاً وهدى للعالمين وغير ذلك، ويشعر به التعبير عن الكعبة بالذي ببكة فإن فيه تلويحاً الى ازدحام الناس عنده في الطواف والصلوة وغيرهما من العبادات والمناسك، وأما كونه أول بيت بني على الأرض ووضع لتنتفع به الناس فلا دلالة على ذلك من جهة اللفظ.

والمراد ببكة أرض البيت سميت بكة لازدحام الناس فيها، وربما قيل إن بكة هي مكة، وإنه من تبديل الميم باء كما في قولهم: لازم ولازب وراتم وراتب ونحو ذلك، وقيل: هو اسم للحرم، وقيل: المسجد، وقيل: المطاف.

والمباركة مفاعلة من البركة وهي الخير الكثير، فالمباركة إفاضة الخير الكثير عليه وجعله فيه، وهي وإن كانت تشمل البركات الدنيوية والأخروية، إلّا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: هدىً للعالمين أن المراد بها إفاضة البركات الدنيوية وعمدتها وفور الأرزاق وتوفر الهمم والدواعي الى عمرانه بالحج اليه والحضور عنده والاحترام له وإكرامه فيؤول المعنى الى ما يتضمنه قوله تعالى في دعوة إبراهيم: ﴿ربنا إني سكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم / ٣٧).

وكونه هدىً هو إرائته للناس سعادة آخرتهم، وإيصاله إياهم الى الكرامة والقرب والزلفى بما وضعه الله للعبادة، وبما شرّع عنده من أقسام الطاعات والنسك، ولم يزل منذ بناه إبراهيم

مقصداً للقاصدين ومعبداً للعابدين.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، الآيات وإن وصفت بالبينات، وأفاد ذلك تخصصاً ما في الموصوف إلّا إنها مع ذلك لا تخرج عن الإبهام، والمقام مقام بيان مزايا البيت ومفاخره التي بها يتقدم على غيره في الشرف ولا يناسب ذلك إلّا الإتيان ببيان واضح، والوصف بما لا غبار عليه بالإبهام والإجمال، وهذا من الشواهد على كون قوله: مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً لله على الناس، الى آخر الآية؛ بياناً لقوله: آيات بينات فالآيات هي: مقام إبراهيم، وتقرير الأمن فيه، وإيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا كما يتراءى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلاً أو عطف بيان من قوله: آيات لوضوح أن ذلك يحتاج الى رجوع الكلام بحسب التقدير الى مثل قولنا: هي مقام إبراهيم، والأمن لمن دخله، وحجه لمن استطاع اليه سبيلاً، وفي ذلك إرجاع قوله: ومن دخله، سواء كان إنشاءاً أو إخباراً الى المفرد بتقدير أن وإرجاع قوله: لله على الناس، وهي جملة إنشائية الى الخبرية ثم عطفه على الجملة السابقة وتأويلها الى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضاً، وكل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البتة.

وإنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعني قوله: مقام إبراهيم، الخ؛ كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطي فائدة البيان كما يقال: فلان رجل شريف هو ابن فلان ويقري الضيف ويجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ مبتدأ لخبر محذوف والتقدير فيه مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي عليه أثر قدمي إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد استفاض النقل بأن الحجر مدفون في المكان الذي يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافة المطاف حيال الملتزم، وقد أشار اليه أبوطالب عم النبي في قصيدته اللامية:

وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وربما يفهم من قوله: مقام إبراهيم أن البيت أو في البيت موضع قيام إبراهيم بعبادة الله سبحانه.

ويمكن أن يكون تقدير الكلام: هي مقام إبراهيم والأمن والحج ثم وضع قوله: ومن دخله، وقوله: ولله على الناس، وهما جملتان مشتملتان على حكم إنشائي موضع الخبرين، وهذا من أعاجيب اسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض في سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين، ويحفظ الجهتين كحكاية الكلام في موضع الإخبار كقوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة / ٢٨٥)، وكما مر في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ الآية (البقرة / ٢٥٨)، وقوله: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ الآية (البقرة / ٢٥٩)، وقد بينا النكتة في ذلك في تفسير الثانية، وكما في قوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء / ٨٩)، وكما في قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ الآية (البقرة / ١٧٧)، حيث وضع صاحب البر مكان البر، وكما في قوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾ الآية (البقرة / ١٧١)؛ ومثله غالب الأمثال الواردة في القرآن الكريم.

وعلى هذا فوزان قوله: فيه آيات بينات مقام إبراهيم ـ الى قوله ـ عن العالمين في التردد بين الإنشاء والإخبار، وزان قوله: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ (ص / ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، الحج بالكسر (وقرئ بالفتح) هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بيّنه

الشرع، وقوله: سبيلاً تمييز من قوله: استطاع.

والآية تتضمن تشريع الحج إمضاءاً لما شرع لإبراهيم عليه السلام كما يدل عليه قوله تعالى حكاية لما خوطب به إبراهيم: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ الآية (الحج / ٢٧)، ومن هنا يظهر أن وزان قوله: ولله على الناس، الخ؛ وزان قوله تعالى: ومن دخله كان آمناً في كونه إخباراً عن تشريع سابق وإن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، الكفر ههنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلوة والزكوة فالمراد بالكفر الترك. والكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله: فإن الله غني، الخ؛ من قبيل وضع العلة موضع المعلول، والتقدير: ومن ترك الحج فلا يضر الله شيئاً فإن الله غني عن العالمين[1][2].

٩٨ ● قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ.

٩٩ ● قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

١٠٠ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ.

---

١. آل عمران ٩٦ ـ ٩٧: بحث روائي في: مكة؛ المسجد الحرام؛ الحج.

٢. آل عمران ٩٦ ـ ٩٧: بحث تاريخي في: بناء الكعبة؛ تاريخ الكعبة؛ شكل الكعبة؛ كسوة الكعبة؛ سدانة الكعبة؛ ولاية الكعبة.

١٠١ ● وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الخ؛ المراد بالآيات بقرينة وحدة السياق حلية الطعام قبل نزول التوراة، وكون القبلة هي الكعبة في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ـ الى قوله ـ: عِوَجاً﴾، الصد الصرف، وقوله: تبغونها أي تطلبون السبيل، وقوله: عوجاً: العوج المعطوف المحرف، والمراد طلب سبيل الله معوجاً من غير استقامة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾، أي تعلمون أن الطعام كان حلاً قبل نزول التوراة وأن من خصائص النبوة تحويل القبلة الى الكعبة، وقد حاذى في عدهم شهداء في هذه الآية ما في الآية السابقة من عد نفسه تعالى شهيداً على فعلهم وكفرهم، وفيه من اللطف ما لا يخفى فهم شهداء على حقية ما ينكرونه والله شهيد على إنكارهم وكفرهم. ولما نسب الشهادة اليهم في هذه الآية أبدل ما ذيل به الآية السابقة أعني قوله: والله شهيد على ما تعملون من قوله في ذيل هذه الآية: وما الله بغافر عما تعملون فأفاد ذلك أنهم شهداء على الحقية، والله سبحانه شهيد على الجميع.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ـ الى قوله ـ: وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾، المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أو فريق منهم، وقوله تعالى: وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله أي يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذي يظهر لكم بالإنصات الى آيات الله والتدبر فيها ثم الرجوع فيما خفي عليكم منها لقلة التدبر أو الرجوع ابتداء الى رسوله الذي هو فيكم غير محتجب عنكم ولا بعيد منكم، واستظهار الحق بالرجوع اليه ثم إبطال شبه القتها اليهود إليكم

والتمسك بآيات الله وبرسوله والاعتصام بهما اعتصام بالله؛ ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم.

فالمراد بالكفر في قوله: وكيف تكفرون، الكفر بعد الايمان، وقوله: وأنتم تتلى عليكم، كناية من إمكان الاعتصام في الاجتناب عن الكفر بآيات الله وبرسوله، وقوله: ويعتصم بالله، بمنزلة الكبرى الكلية لذلك والمراد بالهداية الى صراط مستقيم الاهتداء الى إيمان ثابت وهو الصراط الذي لا يختلف ولا يتخلف أمره، ويجمع سالكيه في مستواه ولا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا.

وفي تحقيق الماضي في قوله: فقد هدى، مع حذف الفاعل دلالة على تحقق الفعل من غير شعور بفاعله.

ويتبين من الآية أن الكتاب والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.

١٠٢ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

١٠٣ ● وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

١٠٤ ● وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

١٠٥ ● وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

١٠٦ ● يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

١٠٧ ● وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

١٠٨ ● تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ.

١٠٩ ● وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

١١٠ ● كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾، قد مر فيما مر أن التقوى وهو نوع من الاحتراز اذا كان تقوى الله سبحانه كان تجنباً وتحرزاً من عذابه كما قال تعالى: ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ (البقرة / ٢٤)، وذلك إنما يتحقق بالجري على ما يريده ويرتضيه فهو امتثال أوامره تعالى، والانتهاء عن نواهيه، والشكر لنعمه، والصبر عند بلائه، ويرجع الاخيران جميعاً الى الشكر بمعنى وضع الشيء موضعه وبالجملة تقوى الله

سبحانه أن يطاع ولا يعصى ويخضع له فيما أعطى أو منع.

لكنه اذا أخذ التقوى حق التقوى الذي لا يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبودية التي لا تشوبها إنية وغفلة، وهي الطاعة من غير معصية، والشكر من غير كفر، والذكر من غير نسيان، وهو الإسلام الحق أعني الدرجة العليا من درجاته؛ وعلى هذا يرجع معنى قوله: ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون الى نحو قولنا: ودوموا على هذه الحال (حق التقوى) حتى تموتوا.

وهذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (التغابن / ١٦)، فإن هذه الآية في معنى أن لا تذروا التقوى في شيء مما تستطيعونه غير أن الاستطاعة تختلف باختلاف قوى الأشخاص وأفهامهم وهممهم، ولا ريب أن حق التقوى بالمعنى الذي ذكرناه ليس في وسع كثير من الناس، فإن في هذا المسير الباطني مواقف ومعاهد ومخاطر لا يعقلها إلّا العالمون، ودقائق ولطائف لا يتنبه لها إلّا المخلصون، فرب مرحلة من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامي بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانية فيجزم بكونها غير مستطاعة وإن كان أهل التقوى الحقة خلفوها وراء ظهورهم، وأقبلوا بهممهم على ما هو أشق وأصعب.

فقوله: فاتقوا الله ما استطعتم، الآية؛ كلام يتلقاه الأفهام المختلفة بمعان مختلفة على حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيلة ليفهم من هذه الآية أعني قوله: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون أن المراد أن يقعوا في صراط حق التقوى، ويقصدوا نيل هذا المقام والشخوص والمثول فيه، وذلك نظير الاهتداء الى الصراط المستقيم الذي لا يتمكن منه إلّا الأوحديون، ومع ذلك يدعى اليه جميع الناس، فيكون محصل الآيتين: (اتقوا الله حق تقاته ـ فاتقوا الله ما استطعتم) أن يندب جميع الناس ويدعوا الى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير الى هذا المقصد ما قدروا واستطاعوا، وينتج ذلك أن يقع الجميع في صراط التقوى إلّا أنهم في مراحل مختلفة، وعلى درجات مختلفة على طبق ما عندهم من

الأفهام والهمم، وعلى ما يفاض عليهم من توفيق الله وتأييده وتسديده، فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآيتين.

ومنه يظهر: أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون، ولا أن الآية الاولى أعني قوله: اتقوا الله حق تقاته، الآية؛ اريد بها عين ما اريد من قوله: فاتقوا الله ما استطعتم، الآية؛ بل الآية الاولى تدعو الى المقصد والثانية تبين كيفية السلوك.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الموت من الامور التكوينية التي هي خارجة عن حومة اختيارنا، ولذلك يكون الأمر والنهي المتعلقان به وبأمثاله أمراً ونهياً تكوينيين كقوله ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ (البقرة / ٢٤٣)، وقوله: ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢)، إلّا أنه ربما يجعل الأمر غير الاختياري مضافاً الى أمر اختياري فيتركبان بنحو وينسب المركب الى الاختيار فيتأتى الأمر والنهي الاعتباري حينئذ كقوله تعالى: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ (البقرة / ١٤٧)، وقوله: ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ (هود / ٤٢)، وقوله: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة / ١١٩)، وغير ذلك، فإن أصل الكون لازم تكويني للإنسان لا أثر لاختياره فيه لكنه بارتباطه بأمر اختياري كالامتراء والكفر والتزام الصدق مثلاً يعد أمراً اختيارياً فيؤمر به وينهى عنه أمراً ونهياً مولويين.

وبالجملة النهي عن الموت إلّا مع الإسلام إنما هو لمكان عده اختيارياً ويرجع بالآخرة الى الكناية عن لزوم التزام الإسلام في جميع الحالات حتى يقع الموت في واحدة من هذه الحالات، فيكون الميت مات في حال الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾، ذكر سبحانه فيما مر من قوله: وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله، الآية؛ أن التمسك بآيات الله وبرسوله (الكتاب والسنة) اعتصام بالله مأمون معه المتمسك المعتصم، مضمون له الهدى، والتمسك بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذي يأمر

بذلك في مثل قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر / ٧).

وقد يدل في هذه الآية الاعتصام المندوب إليه في تلك الآية بالاعتصام بحبل الله فأنتج ذلك أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله، وهو الذي يصل ما بين العبد والرب ويربط السماء بالأرض. وإن شئت قلت: إن حبل الله هو القرآن والنبي ﷺ فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

والقرآن وإن لم يدع إلا الى حق التقوى والإسلام الثابت لكن غرض هذه الآية غير غرض الآية السابقة الآمرة بحق التقوى والموت على الإسلام فإن الآية السابقة تتعرض لحكم الفرد، وهذه الآية تتعرض لحكم الجماعة المجتمعة والدليل عليه قوله: «جميعاً» وقوله «ولا تتفرقوا» فالآيات تأمر المجتمع الإسلامي بالاعتصام بالكتاب والسنة كما تأمر الفرد بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ جملة اذ كنتم، بيان لما ذكر من النعمة. وعليه يعطف قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

والأمر بذكر هذه النعمة مبني على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل والأسباب، ويدعو الى الخير والهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامي المعمى. وحاشا التعليم الإلهي أن يهدي الناس الى السعادة وهي العلم النافع والعمل الصالح ثم يأمر بالوقوع في تيه التقليد وظلمة الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر ولا يختلط الحال على المتدبر الباحث. فالله سبحانه يعلم الناس حقيقة سعادتهم، ويعلم الوجه فيها ليتبصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض، وأن الجميع فائضة من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين واعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومي اليه ما في آخر الآيات من قوله: تلك آيات الله نتلوها

عليك، الآيتان.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾. شفا الحفرة طرفها الذي يشرف على السقوط فيها من كان به.

والمراد من النار إن كان نار الآخرة، فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم وبين الوقوع فيها إلّا الموت الذي هو أقرب الى الإنسان من سواد العين الى بياضها فأنقذهم الله منها بالإيمان.

وإن كان المراد بيان حالهم في مجتمعهم الفاسد الذي كانوا فيه قبل إيمانهم وتألف قلوبهم، وكان المراد بالنار هي الحروب والمنازعات ـ وهو من الاستعمالات الشائعة بطريق الإستعارة ـ فالمقصود أن المجتمع الذي بني على تشتت القلوب واختلاف المقاصد والأهواء، ولا محالة لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم الى غاية واحدة بل بأدلة شتى تختلف باختلاف الميول الشخصية والتحكمات الفردية اللاغية التي تهديهم الى أشد الخلاف والاختلاف ـ يشرفهم الى أرداً التنازع، ويهددهم دائماً بالقتال والنزال، ويعدهم الفناء والزوال، وهي النار التي لا تبقي ولا تذر على حفرة الجهالة التي لا منجا ولا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء وهم طائفة من المسلمين كانوا قد آمنوا قبل نزول الآية بعد كفرهم، وهم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حيوتهم قبل الإسلام إلّا في حال تهددهم الحروب والمقاتلات آناً بعد آن، فلا أمن ولا راحة ولا فراغ، ولم يكونوا يفقهون ما حقيقة الأمن العام الذي يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه ومال وعرض ونفس وغير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، ولاحت لهم آيات السعادة، وذاقوا شيئاً من حلاوة النعم وجدوا صدق ما يذكّرهم به الله من هنيء النعمة ولذيذ السعادة فكان الخطاب أوقع في نفوسهم ونفوس غيرهم.

ولذلك بني الكلام ووضعت الدعوة على أساس المشاهدة والوجدان دون مجرد التقدير والفرض فليس العيان كالبيان، ولا التجارب كالفرض والتقدير، ولذلك بعينه أشار في التحذير الآتي في قوله: ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا، الخ: الى حال من قبلهم فإن مآل حالهم بمرأى ومسمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم وبما آل اليه أمرهم فلا يجروا مجراهم ولا يسلكوا مسلكهم.

ثم نبههم الله على خصوصية هذا البيان فقال: كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الخ: التجربة القطعية تدل على أن المعلومات التي يهيئها الإنسان لنفسه في حياته ـ ولا يهيىء ولا يدخر لنفسه إلّا ما ينتفع به ـ من أي طريق هيأها وبأي وجه ادخرها تزول عنه اذا لم يذكرها ولم يدم على تكرارها بالعمل، ولا نشك أن العمل في جميع شؤونه يدور مدار العلم يقوى بقوته، ويضعف بضعفه ويصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، وقد مثل الله سبحانه حالهما في قوله: ﴿البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً﴾ الآية (الأعراف / ٥٨).

ولا نشك أن العلم والعمل متعاكسان في التأثير فالعلم أقوى داع الى العمل والعمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

وهذا الذي ذكر هو الذي يدعو المجتمع الصالح الذي عندهم العلم النافع والعمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم وثقافتهم، وأن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، وأن لا يدعوا المائل عن طريق الخير المعروف وهو الواقع في مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع في مهلكة الشر وينهوه عنه.

وهذه هي الدعوة بالتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي التي يذكرها الله في هذه الآية بقوله: يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن هنا يظهر السر في تعبيره تعالى عن الخير والشر بالمعروف والمنكر فإن الكلام مبني على ما في الآية السابقة من قوله: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، الخ؛ ومن المعلوم أن المجتمع الذي هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير، والمنكر فيه هو الشر، ولولا العبرة بهذه النكتة لكان الوجه في تسمية الخير والشر بالمعروف والمنكر كون الخير والشر معروفاً ومنكراً بحسب نظر الدين لا بحسب العمل الخارجي.

وأما قوله ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ فقد قيل: إن «من» للتبعيض بناء على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذا الدعوة من الواجبات الكفائية.

وربما قيل: إن «من» بيانية والمراد منه ولتكونوا بهذا الاجتماع الصالح امة يدعون الى الخير فيجري الكلام على هذا مجرى قولنا: ليكن لي منك صديق أي كن صديقاً لي. والظاهر أن المراد بكون «من» بيانية كونها نشوئية ابتدائية.

والذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون من تبعيضية أو بيانية لا يرجع الى ثمرة محصلة فإن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائية اذ لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الامة بأجمعهم داعية الى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم على أي حال، والخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، وإن كان للكل كان أيضاً باعتبار البعض، وبعبارة اخرى المسئول بها الكل والمثاب بها البعض، ولذلك عقبه بقوله: وأولئك هم المفلحون فالظاهر أن من تبعيضية، وهو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين ولا يصار الى غيره إلّا بدليل.

واعلم أن هذه الموضوعات الثلاثة أعني الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذوات أبحاث تفسيرية طويلة عميقة سنتعرض لها في موضع آخر يناسبها إنشاء الله تعالى. وكذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلمية والنفسية والاجتماعية.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِمَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. لا يبعد أن يكون قوله: من بعدما جائهم البينات متعلقاً بقوله: واختلفوا فقط وحينئذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد، بالتفرق الاختلاف والتشتت من حيث الأبدان وقدم التفرق على الاختلاف لأنه كالمقدمة المؤدية إليه لأن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض واتحدت بالتماس والتفاعل، وحفظهم ذلك من الاختلاف فاذا تفرقوا وانقطع بعضهم عن بعض أداهم ذلك الى اختلاف المشارب والمسالك، ولم يلبثوا دون أن يستقل أفكارهم وآرائهم بعضها عن بعض، وبرز فيهم الفرقة، وانشق عصا الوحدة فكأنه تعالى يقول: ولا تكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولاً، وخرجوا من الجماعة، وأفضاهم ذلك الى اختلاف العقائد والآراء أخيراً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الى آخر الآيتين؛ لما كان المقام مقام الكفر بالنعمة وهو نظير الخيانة مما يوجب خسة الانفعال والخجل ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخرة ما يناسبها بحسب التمثيل وهو سواد الوجه الذي يكنى به في الدنيا عن الانفعال والخجل ونحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم.

وكذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمة ما يناسب الشكر وهو بياض الوجه المكنى به في الدنيا عن الارتضاء والرضا.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. الظرف متعلق بقوله: يتلوها، والمراد كون التلاوة تلاوة حق من غير أن يكون باطلا شيطانياً. أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر، والمعنى أن هذه الآيات الكاشفة عن ما يصنع الله بالطائفتين: الكافرين والشاكرين مصاحبة للحق من غير أن تجري على نحو الباطل والظلم، وهذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: وما الله يريد ظلماً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾. تنكير الظلم وهو في سياق النفي يفيد الاستغراق، وظاهر قوله: للعالمين وهو جمع محلى باللام أن يفيد الاستغراق، والمعنى على هذا أن الله لا يريد ظلماً أي ظلم فرض لجميع العالمين، وكافة الجماعات، وهو كذلك فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشؤوم الى جميع العالمين وكافة الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. لما ذكر أن الله لا يريد الظلم علل ذلك بما يزول معه توهم صدور الظلم فذكر أن الله تعالى يملك جميع الأشياء من جميع الجهات فله أن يتصرف فيها كيف يشاء فلا يتصور في حقه التصرف فيما لا يملكه حتى يكون ظلماً وتعدياً.

على أن الشخص إنما ينحو الظلم اذا كان له حاجة لا يتمكن من رفعها إلّا بالتعدي على ما لا يملكه، والله الغني الذي له ما في السموات والأرض هذا ما قرره بعضهم لكنه لا يلائم ظاهر الآية فإن هذا الجواب يبتني بالحقيقة على غناه تعالى دون ملكه، والمذكور في الآية هو الملك دون الغنى، وكيف كان فملكه دليل أنه تعالى ليس بظالم.

وهناك دليل آخر وهو أن مرجع جميع الامور أياً ما كانت اليه تعالى فليس لغيره تعالى من الأمر شيء حتى يسلبه الله عنه وينتزعه من يده ويجري فيه إرادة نفسه فيكون بذلك ظالماً، وهذا هو الذي يشير اليه قوله: والى الله ترجع الامور.

والوجهان كما ترى متلازمان أحدهما مبني على أن كل شيء له تعالى والثاني مبني على أن شيئاً من الامور ليس لغيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. المراد بإخراج الامة للناس (والله أعلم) إظهارها لهم، ومزية هذه اللفظة (الاخراج) أن فيها إشعاراً بالحدوث والتكون قال تعالى: ﴿الذي أخرج المرعى﴾ (الأعلى / ٤)، والخطاب للمؤمنين فيكون قرينة على أن المراد بالناس عامة البشر والفعل أعني قوله: كنتم منسلخ عن الزمان ـ على ما قيل ـ

والامة إنما تطلق على الجماعة والفرد لكونهم ذوى هدف ومقصد يؤمرونه ويقصدونه، وذكر الايمان بالله بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل ذكل الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآية أنكم معاشر المسلمين خير امة أظهرها الله للناس بهدايتها لأنكم على الجماعة تؤمنون بالله وتأتون بفريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الامة لكون البعض متصفين بحقيقة الايمان والقيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا محصل ما ذكروه في المقام[1].

١١١ ● لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ.

١١٢ ● ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ.

١١٣ ● لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ.

١١٤ ● يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

---

١. آل عمران ١٠٢ ـ ١١٠: بحث روائي حول: الآية «اتقوا الله حق تقاته»؛ القرآن المجيد؛ حديث الثقلين؛ حال الامة بعد النبي ﷺ.

١١٥ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

١١٦ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

١١٧ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

١١٨ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

١١٩ * هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

١٢٠ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾ الخ: الأذى ما يصل الى الحيوان من الضرر: إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو اخروياً على ما ذكره الراغب مفردات القرآن.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾. الذلة بناء نوع من الذل، والذل بالضم ما كان عن قهر، وبالكسر ما كان عن تصعب وشماس على ما ذكره الراغب، ومعناه العام حال الانكسار والمطاوعة، ويقابله العز وهو الامتناع.

وقوله: ﴿ثُقِفُوا﴾ أي وجدوا، والحبل السبب الذي يوجب التمسك به العصمة؛ وقد استعير لكل ما يوجب نوعاً من الأمن والعصمة والوقاية كالعهد والذمة والأمان، والمراد (والله أعلم): أن الذلة مضروبة عليهم كضرب السكة على الفاز أو كضرب الخيمة على الإنسان فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذلة إلا بحبل وسبب من الله، وحبل وسبب من الناس.

وقد كرر لفظ الحبل بإضافته الى الله والى الناس لاختلاف المعنى بالإضافة فانه من الله القضاء والحكم تكويناً أو تشريعاً، ومن الناس البناء والعمل.

والمراد بضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، والدليل على ذلك قوله: أينما ثقفوا فإن ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أي تسلطوا عليهم، وهو إنما يناسب الذلة التشريعية التي من آثارها الجزية.

فيؤول معنى الآية الى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامي إلّا أن يدخلوا تحت الذمة أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾. باءوا أي اتخذوا مباءة ومكاناً، أو رجعوا، والمسكنة أشد الفقر، والظاهر أن المسكنة أن لا يجد الإنسان سبيلاً الى النجاة والخلاص عما يهدده من فقر أو أي عُدم، وعلى هذا فيتلائم معنى الآية صدراً وذيلاً.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ والمعنى أنهم عصوا وكانوا قبل

ذلك يستمرون على الاعتداء.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً - الى قوله -: بِالْمُتَّقِينَ﴾، السواء مصدر اريد به معنى الوصف أي ليسوا مستوين في الوصف والحكم فإن منهم امة قائمة يتلون آيات الله، الخ؛ ومن هنا يظهر أن قوله: من أهل الكتاب، الخ؛ في مقام التعليل يبين به وجه عدم استواء أهل الكتاب.

وقد اختلف في قوله: قائمة فقيل: أي ثابتة على أمر الله، وقيل: أي عادلة، وقيل: أي ذو امة قائمة أي ذو طريقة مستقيمة، والحق أن اللفظ مطلق يحتمل الجميع غير أن ذكر الكتاب وذكر أعمالهم الصالحة يعين أن المراد هو القيام على الإيمان والطاعة.

والآناء جمع إنى بكسر الهمزة أو فتحها، وقيل: إنو وهو الوقت.

والمسارعة المبادرة وهي مفاعلة من السرعة قال في المجمع: والفرق بين السرعة والعجلة أن السرعة هي التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه، وهي محمودة، وضدها الإبطاء، وهو مذموم، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة، وضدها الأناة وهي محمودة، انتهى، والظاهر أن السرعة في الأصل وصف للحركة، والعجلة وصف للمتحرك.

والخيرات مطلق الأعمال الصالحة من عبادة أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجة، وهو جمع محلى باللام؛ ومعناه الاستغراق، ويكثر إطلاقه على الخيرات المالية كما أن الخير يكثر إطلاقه على المال.

وقد عد الله سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات، وهي الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في كل خير، ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقيم وزملاء النبيين والصديقين والشهداء لقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (الحمد / ٧)، وقوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ الآية (النساء / ٦٩)،

قيل: المراد بهؤلاء الممدوحين عبدالله بن سلام وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، من الكفران مقابل التكر أي يشكر الله لهم فيرده اليهم من غير ضيعة كما قال تعالى: ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ (البقرة / ١٥٨)، وقال: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ـ الى أن قال ـ وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون﴾ (البقرة / ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾، ظاهر وحدة السياق أن المراد بهؤلاء، الذين كفروا هم الطائفة الاخرى من أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا دعوة النبوة، وكانوا يوطؤون على الإسلام، ولا يألون جهداً في إطفاء نوره.

وربما قيل: إن الآية ناظرة الى حال المشركين فتكون التوطئة لما سيشير اليه من قصة أُحد لكن لا يلائمه ما سيأتي من قوله: وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا. الخ؛ فإن ذلك بيان لحال اليهود مع المسلمين دون حال المشركين، ومن هناك يظهر أن اتصال السياق لم ينقطع بعد.

وربما جمع بعض المفسرين بين حمل هذه الآية على المشركين وحمل تلك على اليهود، وهو خطأ.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ الآية: الصر البرد الشديد، وإنما قيد الممثل بقوله: في هذه الحيوة الدنيا ليدل على أنهم منقطعون عن الدار الآخرة فلا يتعلق إنفاقهم إلّا بهذه الحيوة، وقيد حرث القوم بقوله: ظلموا أنفسهم ليحسن ارتباطه بقوله بعده: وما ظلمهم الله.

ومحصل الكلام أن إنفاقهم في هذه الحيوة وهم يريدون به إصلاح شأنهم ونيل مقاصدهم الفاسدة لا يثمر لهم إلّا الشقاء، وفساد ما يريدونه ويحسبونه سعادة لأنفسهم كالريح التي فيها صر تهلك حرث الظالمين، وليس ذلك إلّا ظلماً منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا يأتي إلّا

بالأثر الفاسد.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية: سميت الوليجة بطانة وهي ما يلي البدن من الثوب وهي خلاف الظهارة لكونها تطلع على باطن الإنسان وما يضمره ويستسره، وقوله: لا يألونكم أي لا يقصرون فيكم، وقوله: خبالاً أي شراً وفساداً، ومنه الخبل للجنون لأنه فساد العقل، وقوله: ودوا ما عنتّم، ما مصدرية أي ودوا وأحبوا عنتكم وشدة ضرركم، وقوله: قد بدت البغضاء من أفواههم أُريد به ظهور البغضاء والعداوة من لحن قولهم وفلتات لسانهم ففيه استعارة لطيفة وكناية، ولم يبين ما في صدورهم بل أبهم قوله: وما تخفي صدورهم أكبر للإيماء الى أنه لا يوصف لتنوعه وعظمته وبه يتأكد قوله: أكبر.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ الآية: الظاهر أن اولاء اسم إشارة ولفظة ها للتنبيه، وقد تخلل لفظة أنتم بين ها واولاء، والمعنى أنتم هؤلاء على حد قولهم: زيد هذا وهند هذه كذا وكذا.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، اللام للجنس أي وأنتم تؤمنون بجميع الكتب السماوية النازلة من عند الله: كتابهم وكتابكم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، وقوله، واذا لقوكم قالوا آمنا، أي إنهم منافقون، وقوله: واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ العض هو الأخذ بالأسنان مع ضغط، والأنامل جمع أنملة وهي طرف الإصبع. والغيظ هو الحنق، وعض الأنامل على شيء مثل يضرب للتحسر والتأسف غضباً وحنقاً.

وقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم في صورة الأمر وبذلك تتصل الجملة بقوله: إن الله عليم بذات الصدور أي اللهم امتهم بغيظهم إنك عليم بذات الصدور أي القلوب أي النفوس.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾، المساءة خلاف السرور، وفي الآية

دلالة على أن الأمن من كيدهم مشروط بالصبر والتقوى.

١٢١ ● وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

١٢٢ ● إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

١٢٣ ● وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

١٢٤ ● إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ بِثَلَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ.

١٢٥ ● بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ.

١٢٦ ● وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

١٢٧ ● لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ.

١٢٨ ● لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ.

١٢٩ ● وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ اذ ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه؛ وغدوت من الغدو وهو الخروج غداة، والتبوئة تهيئة المكان للغير أو إسكانه وإيطانه المكان؛ والمقاعد جمع؛ وأهل الرجل ـ كما ذكره الراغب ـ من يجمعه وإياهم نسب أو بيت أو غيرهما كدين أو بلد أو صناعة؛ يقال: أهل الرجل لزوجته ولمن في بيته من زوجة وولد وخادم وغيرهم، وللمنتسبين اليه من عشيرته وعترته، ويقال: أهل بلد كذا لقاطنيه؛ وأهل دين كذا لمنتحليه؛ وأهل صناعة كذا لصناعها وأساتيدها، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، ويختص استعماله بالإنسان فأهل الشيء خاصته من الإنسان.

والمراد بأهل رسول الله ﷺ خاصته وهم جمع، وليس المراد به هاهنا شخص واحد بدليل قوله: غدوت من أهلك اذ يجوز أن يقال: خرجت من خاصتك ومن جماعتك ولا يجوز أن يقال: خرجت من زوجتك وخرجت من امك؛ ولذا التجأ بعض المفسرين الى تقدير في الآية فقال: إن التقدير: خرجت من بيت أهلك، لما قسر الأهل بالمفرد، ولا دليل يدل عليه من الكلام.

وسياق الآيات مبني على خطاب الجمع وهو خطاب المؤمنين على ما تدل عليه الآيات السابقة واللاحقة ففي قوله: واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين، التفات من خطابهم الى خطاب رسول الله ﷺ وكأن الوجه فيه ما يلوح من آيات القصة من لحن العتاب فإنها لا تخلو من شائبة اللوم والعتاب والأسف على ما جرى وظهر من المؤمنين من الفشل والوهن في العزيمة والقتال، ولذلك أعرض عن مخاطبتهم في تضاعيف القصة وعدل الى خطاب النبي ﷺ فيما يخص به فقال: واذ غدوت من أهلك، وقال: اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم،

وقال: ليس لك من الأمر شيء. وقال: قل إن الأمر كله بيد الله، وقال: فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم. وقال: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً الآية.

فغير خطاب الجمع في هذه الموارد الى خطاب المفرد، وهي موارد تحبس المتكلم الجاري في كلامه عن الجري فيه لما تغيظه وتهيج وجده، بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم. وقوله: والرسول يدعوكم في اخريكم. لأن العتاب فيهما بخطاب الجمع أوقع دون خطاب المفرد، وبخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً منهم الآية؛ لأن الامتنان ببعثة النبي ﷺ مع أخذه غائباً أوقع وأشد تأثيراً في النفوس. وأبعد من الوهم والخطور، فتدبر في الآيات تجد صحة ما ذكرناه.

ومعنى الآية: واذكر اذ خرجت بالغداة من أهلك تهيىء للمؤمنين مقاعد للقتال أو تسكنهم وتوقفهم فيها والله سميع لما قيل هناك، عليم بما أضمرته قلوبهم. والمستفاد من قوله: واذ غدوت من أهلك، قرب المعركة من داره ﷺ فيتعين بذلك أن الآيتين ناظرتان الى غزوة أُحد فتتصل الآيتان بالآيات الآتية النازلة في شأن أُحد لانطباق المضامين على وقائع هذه الغزوة، وبه يظهر ضعف ما قيل: إن الآيتين في غزوة بدر؛ وكذا ما قيل: إنهما في غزوة الأحزاب، والوجه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع يسمع ما قيل هناك، عليم يعلم ما كان مضمراً في قلوبكم، وفيه دلالة على كلام جرى هناك بينهم، وامور أضمروها في قلوبهم. والظاهر أن قوله: اذ همت، متعلق بالوصفين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ الهم ما هممت به في نفسك وهو القصد، والفشل ضعف مع الجبن.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، حال والعامل فيه قوله: همت، والكلام مسوق للعتاب واللوم؛ وكذا قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون، والمعنى: أنهما همتا بالفشل مع أن الله وليهما ولا ينبغي لمؤمن أن يفشل وهو يرى أن الله وليه، ومع أن المؤمنين ينبغي أن يكلوا أمرهم الى الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الى آخر الآية: ظاهر السياق أن تكون الآية مسوقة سوق الشاهد لتتميم العتاب وتأكيده فتكون تؤدي معنى الحال كقوله: والله وليهما، والمعنى: وما كان ينبغي أن يظهر منكم الهم بالفشل وقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، وليس من البعيد أن يكون كلاماً مستقلاً سيق مساق الامتنان بذكر نصر عجيب من الله بإنزال الملائكة لإمدادهم ونصرهم يوم بدر.

ولما ذكر تعالى نصره إياهم يوم بدر وقابل ذلك بما هم عليه من الحال ـ ومن المعلوم أن كل من اعتز فإنما يعتز بنصر الله وعونه فليس للإنسان من قبل نفسه إلّا الفقر والذلة ـ ولذلك قال: وأنتم أذلة.

ومن هنا يعلم أن قوله: وأنتم أذلة لا ينافي أمثال قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون / ٨) فإن عزتهم إنما هي بعزة الله، قال تعالى: ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩) وذلك بنصر الله المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم / ٤٧) فاذا كان الحال هذا الحال فلو اعتبر حال المؤمنين من حيث أنفسهم لم يكن لهم إلّا الذلة.

على أن واجهة حال المؤمنين أيضاً يوم بدر كانت تقضي بكونهم أذلة قبال ما كان عليه المشركون من القوة والشوكة والزينة، ولا ضير في إضافة الذلة النسبية الى الأعزة وقد أضافها الله سبحانه الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة

على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ الآية (المائدة / ٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ الإمداد من المد وهو إيصال المدد على نعت الإتصال.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، بلى كلمة تصديق والفور والفوران: الغليان يقال: فار القدر اذا غلا وجاش، ثم استعير للسرعة والعجلة فاستعمل في الأمر الذي لا ريث فيه ولا مهلة فمعنى من فورهم هذا من ساعتهم هذه.

والظاهر أن مصداق الآيه هو يوم بدر، وإنما هو وعد على الشرط وهو ما يتضمنه قوله: إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا.

وأما ما يظهر من بعض المفسرين أنه وعد بإنزال الملائكة إن جاؤوهم بعد فورهم هذا يعني يوم بدر بأن يكون المراد من فورهم هذا هو يوم بدر لا في يوم بدر، وكذا ما يظهر من بعض آخر أنه وعد بإنزالهم في سائر الغزوات بعد بدر كاحد وحنين والأحزاب فما لا دليل عليه من لفظ الآية.

أما يوم أُحد فلا محل لاستفادة نزول الملائكة فيه من الآيات وهو ظاهر، وأما يوم الأحزاب ويوم حنين فالقرآن وإن كان يصرح بنزول الملائكة فيهما فقد قال في قصة الأحزاب: ﴿إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ (الأحزاب / ٩) وقال ﴿ويوم حنين «الى أن قال»: وأنزل جنوداً لم تروها﴾ (التوبة / ٢٦) إلّا أن لفظ هذه الآية: بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، قاصر عن إفادة عموم الوعد.

وأما نزول ثلاثة آلاف يوم بدر فلا ينافي قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (الأنفال / ٩) لمكان قوله: مردفين أي متبعين لآخرين وهم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾، الضمير راجع الى الإمداد، ولفظة

عند ظرف يفيد معنى الحضور، وقد كان أولاً مستعملاً في القرب والحضور المكاني المختص بالأجسام ثم توسع فاستعمل في القرب الزماني ثم في مطلق القرب والحضور المعنوي كيفما كان، وقد استعمل في القرآن في مختلف الفنون.

والذي يفيده في هذا المقام أعني قوله: وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم بالنظر الى ما سبقه من قوله: وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به هو المقام الربوبي الذي ينتهي اليه كل أمر وحكم، ولا يكفي عنه ولا يستقل دونه شيء من الأسباب؛ فالمعنى: أن الملائكة الممدين ليس لهم من أمر النصر شيء بل هم أسباب ظاهرية يجلبون لكم البشرى وطمأنينة القلب، وإنما حقيقة النصر من الله سبحانه لا يغني عنه شيء، وهو الله الذي ينتهي اليه كل أمر، العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم الذي لا يجهل.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ الى آخر الآيات؛ اللام متعلق بقوله: ولقد نصركم الله، وقطع الطرف كناية عن تقليل عدتهم وتضعيف قوتهم بالقتل والأسر كما وقع يوم بدر فقتل من المشركين سبعون واسر سبعون، والكبت هو الإخزاء والإغاظة.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ شيء معترضة، وفائدتها بيان أن الأسر في القطع والكبت لله، وليس للنبي ﷺ فيه صنع حتى يمدحوه ويستحسنوا تدبيره اذا ظفروا على عدوهم ونالوا منه، ويلوموه ويوبخوه اذا دارت الدائرة عليهم وهنوا ويحزنوا كما كان ذلك منهم يوم أُحد على ما حكاه الله تعالى.

وقوله: أو يتوب عليهم معطوف على قوله: يقطع، والكلام متصل، وقوله: ولله ما في السموات وما في الأرض، بيان لرجوع أمر التوبة والمغفرة الى الله تعالى؛ والمعنى: أن هذا التدبير المتقن منه تعالى إنما هو ليقطع طرفاً من المشركين بالقتل والأسر أو ليخزيهم ويخيبهم في سعيهم أو ليتوب عليهم أو ليعذبهم، أما القطع والكبت فلأن الأمر اليه لا إليك حتى تمدح أو

تذم؛ وأما التوبة والعذاب فلأن الله هو المالك لكل شيء فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ومع ذلك فإن مغفرته ورحمته تسبقان عذابه وغضبه فهو الغفور الرحيم.

وإنما أخذنا قوله: ولله ما في السموات والأرض، في موضع التعليل للفقرتين الأخيرتين أعني قوله: أو يتوب اه، لما في ذيله من اختصاص البيان بهما أعني قوله: يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء[1].

١٣٠ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

١٣١ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ.

١٣٢ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

١٣٣ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

١٣٤ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

١٣٥ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

١٣٦ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

---

١. آل عمران ١٢١ ـ ١٢٩: بحث رواني في غزوة احد.

١٣٧ ● قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.

١٣٨ ● هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

بيان[1]:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ الى آخر الآيات الثلاث؛ قد مر سابقاً وجه إطلاق الأكل وإرادة الأخذ، وقوله: أضعافاً مضاعفة يشير الى الوصف الغالب في الربا فإنه بحسب الطبع يتضاعف فيصير المال أضعافاً مضاعفة بإنفاد مال الغير وضمه الى رأس المال الربوي.

وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، إشارة الى كفر آكل الربا كما مر في سورة البقرة في آيات الربا: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ (البقرة / ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، المسارعة هي الاشتداد في السرعة وهي ممدوحة في الخيرات، ومذمومة في الشرور.

وقد قورن في القرآن الكريم المغفرة بالجنة في غالب الموارد، وليس إلّا لأن الجنة دار طهارة لا يدخل فيها قذارات المعاصي والذنوب وأدرانها، ولا من تقذر بها إلّا بعد المغفرة والإزالة.

والمغفرة والجنة المذكورتان في هذه الآية تحاذيان ما في الآيتين التاليتين؛ أما المغفرة فتحاذي ما في قوله: والذين اذا فعلوا فاحشة؛ وأما الجنة فتحاذي ما في قوله: الذين ينفقون في السراء والضراء.

---

١. بحث في تعليم القرآن وقرائه العلم بالعمل.

وأما قوله: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ﴾، فالمراد بالعرض السعة وهو استعمال شائع، وكأن التعبير كناية عن بلوغها في السعة غايتها أو ما لا يحدها الوهم البشري. وله معنى آخر سنشير اليه في البحث الروائي الآتي.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كالتوطئة لذكر ما يذكره بعد من أوصاف المتقين: فإن الغرض هو بيان الأوصاف التي ترتبط بحال المؤمنين في المقام أعني عند نزول هذه الآيات وقد نزلت بعد غزوة أحد وقد جرى عليهم ومنهم ما جرى من الضعف والوهن والمخالفة، وهم مع ذلك مشرفون على غزوات أُخر مثلها، وحوادث تشابهها، وبهم حاجة الى الاتحاد والاتفاق والتلائم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الى آخر الآية؛ السراء والضراء ما يسر الإنسان وما يسوؤه أو اليسر والعسر، والكظم في الأصل هو شد رأس القربة بعد ملئها فاستعير للإنسان اذا امتلأ حزناً أو غضباً، والغيظ هيجان الطبع للانتقام بمشاهدة كثرة ما لا يرتضيه، بخلاف الغضب فهو إرادة الانتقام أو المجازاة، ولذلك يقال: غضب الله ولا يقال: اغتاظ.

وفي قوله: ﴿وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، إشارة الى أن ما ذكره من الأوصاف معرف لهم، وإنما هو معرف للمحسنين في جنب الناس بالإحسان اليهم، وأما في جنب الله فمعرفهم ما في قوله تعالى: ﴿وبشرى للمحسنين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف / ١٣) بل هذا الإحسان المذكور في هذه الآيات هو المحتد للمذكور في قوله: الذين ينفقون في السراء والضراء، الآية؛ فإن الإنفاق ونحوه اذا لم يكن لوجه الله لم يكن له منزلة عند الله سبحانه على ما يدل عليه قوله تعالى فيما سبق من الآيات: مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، الآية؛ وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ـ الى قوله ـ: وَنِعْمَ

﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الفاحشة ما تتضمن الفحش والقبيح من الأفعال، وشاع استعماله في الزنا، فالمراد بالظلم بقرينة المقابلة سائر المعاصي الكبيرة والصغيرة، أو خصوص الصغائر على تقدير أن يراد بالفاحشة المنكر من المعاصي وهي الكبائر. وفي قوله: ذكروا الله. الخ؛ دلالة على أن الملاك في الاستغفار أن يدعو إليه ذكر الله تعالى دون مجرد التلفظ باعتياد ونحوه. وقوله: ومن يغفر الذنوب إلّا الله تشويق وإيقاظ لقريحة اللواذ والالتجاء في الإنسان.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إنما قيد به الاستغفار لأنه يورث في النفس هيئة لا ينفع معه ذكر مقام الرب تعالى وهي الاستهانة بأمر الله، وعدم المبالاة بهتك حرماته، والاستكبار عليه تعالى، ولا تبقى معه عبودية ولا ينفع معه ذكر. ولذلك بعينه قيده بقوله: وهم يعلمون، وهذه قرينة على كون الظلم في صدر الآية يشمل الصغائر أيضاً، وذلك أن الإصرار على الذنب يستوجب الاستهانة بأمر الله والتحقير لمقامه سواء كان الذنب المذكور من الصغائر أو الكبائر، فقوله: ما فعلوا أعم من الكبيرة، والمراد بما فعلوا هو الذي ذكر في صدر الآية، واذ ليست الصغيرة فاحشة فهو ظلم النفس لا محالة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ بيان لأجرهم الجزيل، وما ذكره تعالى في هذه الآية هو عين ما أمر بالمسارعة إليه في قوله: وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة، الخ؛ ومن ذلك يعلم أن الأمر إنما كان بالمسارعة الى الانفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس والاستغفار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا﴾، السنن جمع سنة وهي الطريقة المسلوكة في المجتمع، والأمر بالسير في الأرض لمكان الاعتبار بآثار الماضين من الامم الغابرة، والملوك والفراعنة الطاغية حيث لم ينفعهم شواهق قصورهم، ولا ذخائر كنوزهم، ولا عروشهم ولا جموعهم، وقد جعلهم الله أحاديث يعتبر بها المعتبرون، ويتفكه بها

المغفلون.

وأما حفظ آثارهم وكلائة تماثيلهم والجهد في الكشف عن عظمتهم ومجدهم الظاهر الدنيوي الذي في أيامهم فما لا يعتني به القرآن، فإنما هي الوثنية التي لا تزال تظهر كل حين في لباس؛ وسنبحث إن شاء الله في هذا المعنى في بحث مستقل نحلل فيه معنى الوثنية.

قوله تعالى: ﴿هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية؛ التقسيم باعتبار التأثير فهو بلاغ وإبانة لبعض وهدى وموعظة لآخرين[1].

١٣٩ ● وَلاٰ تَهِنُوا وَلاٰ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٤٠ ● إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.

١٤١ ● وَلِيُمَحِّصَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ.

١٤٢ ● أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ.

١٤٣ ● وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

١٤٤ ● وَمٰا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّٰهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰاكِرِينَ.

---

١. آل عمران ١٣٠ ـ ١٣٨؛ بحث روائي في: عرض الجنة؛ حسن الخلق؛ الاستغفار.

١٤٥ ● وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ.

١٤٦ ● وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.

١٤٧ ● وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

١٤٨ ● فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الوهن: هو الضعف في خلق أو خلق على ما ذكره الراغب، والمراد به هنا ضعفهم من حيث العزيمة والاهتمام على اقامة الدين وقتال أعدائه، والحزن خلاف الفرح وإنما يعرض الإنسان بفقده شيئاً يملكه مما يحبه أو أمراً يقدر نفسه مالكة له.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، دلالة على أن سبب وهنهم وحزنهم ما شاهدوه من إصابة القرح إياهم، واستعلاء الكفار عليهم، فإن المشركين وإن لم ينالوا كل الغلبة والظفر على المؤمنين ولم تختتم الوقعة على الانهزام التام من المؤمنين لكن الذي أصاب المؤمنين كان أشد وأوجع وهو

شهادة سبعين من سراتهم وشجعانهم، ووقوع ما وقع في عقر دارهم فكان هذا سبب وهنهم وحزنهم، ووقوع قوله: وأنتم الأعلون، الخ؛ موقع التعليل هو الوجه في كون هذين النهيين نهياً عن وهن وحزن واقعين لا مقدرين ولا متوقعين.

وقد اطلق قوله: الأعلون من غير تقييد ولكن اشترط بالإيمان فحصل المعنى: لا ينبغي لكم أن تهنوا في عزمكم، ولا أن تحزنوا لما فاتكم من لظفر على أعدائكم، والانتصار منهم إن كان فيكم الإيمان، فإن الإيمان أمر يستصحب علاءكم البتة اذ هو يلازم التقوى والصبر وفيهما ملاك الفتح والظفر، وأما القرح الذي أصابكم فلستم بمتفردين فيه بل القوم ـ وهم المشركون ـ قد أصابهم مثله فلم يسبقوكم في شيء حتى يوجب ذلك وهنكم وحزنكم.

واشتراط علوهم بالإيمان مع كون الخطاب للذين آمنوا إنما هو للإشارة الى أن الجماعة وإن كانوا لا يفقدون الإيمان إلّا أنهم غير عاملين بما يقتضيه من الصفات كالصبر والتقوى وإلّا لأثر أثره.

وهذا حال كل جماعة مختلفة الحال في الإيمان فيهم المؤمن حقاً والضعيف إيماناً والمريض قلباً، ويكون مثل هذا الكلام تنشيطاً لنفس مؤمنهم، وعظة لضعيفهم وعتاباً وتأنيباً لمريضهم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ القرح ـ بفتح القاف ـ الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، والقرح ـ بالضم ـ أثرها من داخل كالبثرة ونحوها ـ قاله الراغب ـ وكأنه كناية عما أصابهم يوم أُحد بفرض مجموع المسلمين شخصاً واحداً أصابه جراحة من عدوه وهو قتل من قتل منهم، وجراحة من جرح منهم، وفوت النصر والفتح بعدما أطلا عليهم.

وهذه الجملة أعني قوله: إن يمسسكم، الخ؛ وما بعدها من الجمل المتسقة الى قوله: ويمحق

الكافرين في موضع التعليل ـ كما مر ـ لقوله: ولا تهنوا ولا تحزنوا، الخ؛ كما أن قوله: وأنتم الأعلون تعليل آخر.

والفرق بين النوعين من التعليل أن الأول أعني قوله: وأنتم الأعلون، الخ: تعليل من طريق التخطئة لظنهم، فإنهم إنما وهنوا وحزنوا لما ظنوا علاء المشركين عليهم فخطأهم الله بأن ملاك العلاء معكم إن كنتم مؤمنين لا مع المشركين، وقد قال تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم / ٤٧).

وأما الثاني فمن طريق بيان حال الفريقين ـ المؤمنين والمشركين ـ أو بيان الحكم والمصالح التي ترجع الى أصل واحد وهو السنة الإلهية الجارية بمداولة الأيام بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ اليوم هو المقدار المعتد به من الزمان اللازم لحدوث الحوادث فيختلف باختلاف الحوادث. وقد شاع استعماله فيما بين طلوع الشمس وغروبها، وربما استعمل في الملك والسلطنة والقهر ونحوها بعلاقة الظرف والمظروف، فيقال يوم جماعة كذا ويوم آل فلان أي تقدمهم وحكومتهم على غيرهم، وقد يقال لنفس الزمان الذي وقع فيه ذلك، والمراد بالايام في الآية هو هذا المعنى. والمداولة جعل الشيء يتناوله واحد بعد آخر. فالمعنى: أن السنة الإلهية جرت على مداولة الأيام بين الناس من غير أن توقف على قوم ويذهب عنها قوم لمصالح عامة تتبع هذه السنة لا تحيط أفهامكم إلّا ببعضها دون جميعها.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ الخ؛ عطف على محذوف حذف التلويح على أنه مما لا تحيط به الأفهام ولا تدركه العقول إلا من بعض جهاتها، والذي ينفع المؤمنين العلم به هو ما ذكره بقوله: ولعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، الخ؛ وبقوله: وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

أما قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فالمراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه

وخفائه، فإن علمه تعالى بالحوادث والأشياء في الخارج عين وجودها فيه فإن الأشياء معلومة له تعالى بنفس وجودها لا بصورة مأخوذة منها نظير علومنا وإدراكاتنا وهو ظاهر. ولازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشيء هي إرادة تحققه وظهوره وحيث قال: وليعلم الله الذين آمنوا، فأخذ وجودهم محققاً أفاد ذلك إرادة ظهور إيمانهم، واذا كان ذلك على سنة الأسباب والمسببات لم يكن بد من وقوع امور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه فافهم ذلك.

وأما قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، فالشهداء شهداء الأعمال وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن، وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الاسلامية، كما مر في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء﴾ (البقرة / ١٤٣)، على أن قوله: ويتخذ، أيضاً لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملاءمة، فلا يقال: اتخذ الله فلاناً مقتولاً في سبيله وشهيداً كما يقال: اتخذ الله ابراهيم خليلاً، واتخذ الله موسى كليماً، واتخذ الله النبي شهيداً يشهد على امته يوم القيامة.

وقد غير السياق فقال: ويتخذ منكم شهداء، ولم يقل: ويتخذهم شهداء لأن الشهادة وإن اضيفت الى الامامة في قوله: ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة / ١٤٣)، إلا أنها من قبيل وصف البعض المضاف الى الكل، والشهداء بعض الامة دون كلهم، وقد مر بيان ذلك في سورة البقرة، ويمكن أن يتأيد هذا الذي ذكرناه بقوله بعد: والله لا يحب الظالمين.

وأما قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ فالتمحيص هو تخليص الشيء من الشوائب الخارجة. والمحق إنفاد الشيء تدريجاً وإزالته شيئاً فشيئاً. وهذا التمحيص من حكم مداولة الأيام ومصالحها، وهو غير العلم بالذين آمنوا الذي هو أيضاً من حكم مداولة الأيام، فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمر وتخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب

الكفر والنفاق والفسوق أمر آخر، ولذلك قوبل بالمحق للكافرين، فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر ونحوه من المؤمن شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلّا إيمانه، فيكون خالصاً لله، ويبيد أجزاء الكفر والشرك والكيد من الكافر شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى شيء.

شرح سبحانه ـ بعد بيان أن الأيام دول متداولة لغرض الامتحان والابتلاء ـ في ملامتهم في حسبان هذا النظر الباطل وبيان حقيقة الحال فقال: أم حسبتم، الى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ الى آخر الآيتين؛ وهذا أعني ظنهم أن يدخلوا الجنة من غير أن يمتحنوا لازم الظن المذكور آنفاً، وهو أنهم لما كانوا على الحق والحق لا يغلب عليه فأمر الظفر والغلبة اليهم، لن ينهزموا ولن يغلبوا أبداً، ومن المعلوم أن لازم هذا الظن أن يكون كل من آمن بالنبي والحق بجماعة المؤمنين سعيداً في دنياه بالغلبة والغنيمة، وسعيداً في آخرته بالمغفرة والجنة، ويبطل الفرق بين ظاهر الإيمان وحقيقته ويرتفع التمايز بين الدرجات، فإيمان المجاهد وإيمان المجاهد الصابر واحد، ومن تمنى خيراً ففعله اذا حان حينه كان كمن تمنى خيراً ثم تولى اذا أصابه.

وعلى هذا فقوله: أم حسبتم أن تدخلوا، الخ؛ من قبيل وضع المسبب موضع السبب أي حسبتم أن الدولة مكتوبة لكم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنة من غير أن يتميز المستحق لها منكم من غير المستحق، وصاحب الدرجة الرفيعة منكم من غيره؟

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ الآية؛ ففيه تثبيت أن ظنهم ذاك كان فاسداً فإنهم كانوا يتمنون الموت قبل حضور الغزوة حتى اذا حضرت ورأوه رأي العين لم يقدموا ولم يتناولوا ما كانوا يتمنونه، بل فشلوا وتولوا عن القتال؛ فهل كان من الجائز أن يدخلوا الجنة بمجرد هذا التمني من غير أن يمتحنوا أو يمحصوا؟ أو لم يكن من الواجب أن يختبروا؟.

وبهذا يظهر أن في الكلام تقديراً، والمعنى: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم تقدموا عليه،

ويمكن أن يكون قوله: تنظرون كناية عن عدم إقدامهم أي تكتفون بمجرد النظر من غير إقدام، وفيه عتاب وتوبيخ[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الموت زهاق الروح وبطلان حياة البدن، والقتل هو الموت اذا كان مستنداً الى سبب عمدي أو نحوه، والموت والقتل اذا افترقا كان الموت أعم من القتل، واذا اجتمعا كان الموت هو ما يحتف الأنف والقتل خلافه.

وانقلب على عقبيه أي رجع، قال الراغب: ورجع على عقبيه اذا انثنى راجعاً، وانقلب على عقبيه نحو رجع على حافرته، ونحو ارتدا على آثارهما قصصاً، وقولهم رجع عوده الى بدئه، انتهى.

وحيث جعل الانقلاب على الاعقاب جزاءاً للشرط الذي هو موت الرسول أو قتله أفاد ذلك أن المراد به الرجوع عن الدين دون التولي عن القتال اذ لا ارتباط للفرار من الزحف بموت النبي ﷺ أو قتله، وإنما النسبة والرابطة بين موته أو قتله وبين الرجوع الى الكفر بعد الإيمان.

ويدل على أن المراد به الرجوع عن الدين ما ذكره تعالى في قوله: وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، الى آخر الآيات؛ على أن نظير ما وقع في أُحد من فرارهم من الزحف وتوليهم عن القتال تحقق في غيره كغزوة حنين وخيبر وغيرهما ولم يخاطبهم الله بمثل هذا الخطاب ولا عبر عن توليهم عن القتال بمثل هذه الكلمة قال تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ (التوبة / ٢٥)، فالحق أن المراد بالانقلاب على الأعقاب الرجوع

---

١. آل عمران ١٣٩ ـ ١٤٨: كلام في الامتحان وحقيقته.

الى الكفر السابق.

فحصل معنى الآية على ما فيها من سياق العتاب والتوبيخ: أن محمداً ﷺ ليس إلّا رسولاً من الله مثل سائر الرسل، ليس شأنه إلّا تبليغ رسالة ربه لا يملك من الأمر شيئاً، وإنما الأمر لله والدين دينه باق ببقائه، فما معنى اتكاء إيمانكم على حياته حيث يظهر منكم أن لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين، ورجعتم الى أعقابكم القهقرى واتخذتم الغواية بعد الهداية؟[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ الخ؛ تعريض لهم في قولهم عن إخوانهم المقتولين ما يشير اليه قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم اذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، الآية؛ وقول طائفة منهم: لو كان لنا من لأمر شيء ما قتلنا هيهنا، الآية؛ وهؤلاء من المؤمنين غير المنافقين الذين تركوا رسول الله ﷺ وقعدوا عن القتال.

فهذا القول منهم لازمه أن لا يكون موت النفوس بإذن من الله وسنة محكمة تصدر عن قضاء مبرم، ولازمه بطلان الملك الإلهي والتدبير المتقن الرباني وسيجيء إن شاء الله الكلام في معنى كتابة الآجال في أول سورة الأنعام.

ولما كان لازم هذا القول ممن قال به أنه آمن لظنه أن الأمر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين فقد أراد الدنيا كما مر بينه ومن اجتنب هذا فقد أراد الآخرة فقال تعالى: ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخره نؤته منها، وإنما قال: نؤته منها ولم يقل: نؤتها لأن الإرادة ربما لا توافق تمام الأسباب المؤدية الى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراده، ولكنها لا تخلو من موافقة ما للأسباب في الجملة دائماً فإن وافق الجميع رزق الجميع وإن وافق البعض رزق البعض فحسب؛

---

١. آل عمران ١٣٩ـ١٤٨: بحث في نشوب غزوة احد واشاعة قبل النبي ﷺ وآثارها.

قال الله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى له سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾، (الإسراء / ١٩) وقال تعالى: ﴿وأن ليس للانسان إلّا ما سعى﴾ (النجم / ٣٩).

ثم خص الشاكرين بالذكر بإخراجهم من الطائفتين فقال: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ وليس إلّا لأنهم يريدون إلّا وجه الله لا يشتغلون بدنيا ولا آخرة كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الى آخر الآيات؛ كأين كلمة تكثير وكلمة «من» بيانية والربيون جمع ربي وهو كالرباني من اختص بربه تعالى فلم يشتغل بغيره، وقيل: المراد به الالوف والربي الألف، والاستكانة هي التضرع.

وفي الآية موعظة واعتبار مشوب بعتاب وتشويق للمؤمنين أن يأتمّوا بهؤلاء الربيين فيؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة كما آتاهم، ويحبهم لإحسانهم كما أحبهم لذلك.

وقد حكى الله من فعلهم وقولهم ما للمؤمنين أن يعتبروا به ويجعلوه شعاراً لهم حتى لا يبتلوا بما ابتلوا به يوم أُحد من الفعل والقول غير المرضيين لله تعالى وحتى يجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة كما جمع لاولئك الربيين.

وقد وصف ثواب الآخرة بالحسن دون الدنيا إشارة الى ارتفاع منزلتها وقدرها بالنسبة اليها.

١٤٩ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ.

١٥٠ ● بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ.

١٥١ ● سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوِيهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ.

١٥٢ ● وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

١٥٣ ● إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرِيكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

١٥٤ ● ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

١٥٥ ● إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ

الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الى آخر الآيتين: لا يبعد أن يستفاد من السياق أن الكفار كانوا أيام نزول الآيات بعد غزوة أُحد يلقون الى المؤمنين ـ في صورة النصح ـ ما يثبطهم عن القتال، ويلقي التنازع والتفرقة وتشتت الكلمة واختلافها بينهم، وربما أيده ما في آخر هذه الآيات من قوله: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم «الى أن قال»: ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ الآيات (١٧٣ ـ ١٧٥).

وربما قيل: إن الآية إشارة الى قوله اليهود والمنافقين يوم أُحد: «إن محمداً قد قتل فارجعوا الى عشائركم»؛ وليس بشيء.

ثم لما بين أن إطاعتهم للذين كفروا والميل الى ولايتهم يهديهم الى الخسران الذي هو رجوعهم الى أعقابهم كافرين أضرب عنه بقوله: بل الله مولیكم وهو خير الناصرين.

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ الخ؛ وعد جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب، ولقد كان رسول الله ﷺ يذكره فيما حباه الله تعالى وخصه به من بين الأنبياء على ما رواه الفريقان.

وقوله: بما أشركوا، معناه: اتخذوا له ما ليس معه برهان شريكاً، ومما يكرره القرآن أن ليس لإثبات الشريك لله سلطان، ومن إثبات الشريك نفي الصانع وإسناد التأثير والتدبير الى غيره كالدهر والمادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ الى آخر الآية الحس

ـ بالفتح ـ: القتل على وجه الاستيصال.

ولقد اتفقت الروايات وضبطه التاريخ في قصة غزوة أُحد أن المؤمنين غلبوهم وظهروا عليهم في أول الأمر ووضعوا فيهم السيوف وشرعوا في نهب أموالهم حتى اذا خلى الرماة مكانهم في المكمن حمل خالد بن الوليد فيمن معه على عبدالله بن جبير ومن بقي معه من الرماة فقتلوهم، وحملوا على المؤمنين من ورائهم، وتراجع المشركون عن هزيمتهم ووضعوا السيوف في أصحاب رسول الله ﷺ وقتلوا منهم سبعين ثم هزموهم أشد هزيمة.

فقوله تعالى: ولقد صدقكم الله وعده، تثبيت صدق وعده بالنصر بشرط التقوى والصبر؛ وقوله: اذ تحسونهم بإذنه، يقبل الانطباق على ما رزقهم في أول الأمر من الظهور على عدوهم يوم أُحد، وقوله: حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أريكم ما تحبون، ينطبق على ما صنعه الرماة حيث تنازعوا فيما بينهم في ترك مراكزهم واللحوق بمن مع رسول الله ﷺ لنيل الغنيمة ففشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوا أمر النبي بأن لا يتركوا مراكزهم على أي حال، وعلى هذا فلابد من تفسير الفشل بضعف الرأي، وأما كونه بمعنى الجبن فلا ينطبق عليهم اذ لم يكن ذلك منهم جبناً بل طمعاً في الغنيمة، ولو كان الفشل بمعنى الجبن كان منطبقاً على حال جميع القوم ويكون على هذا «ثم» في قوله: ثم صرفكم، مفيد للتراخي الرتبي دون الزماني.

ويدل لفظ التنازع على أن الكل لم يكونوا مجمعين على الفشل والمعصية بل كان بعضهم يصر على الإطاعة والبقاء على الائتمار ولذا قال تعالى بعده: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، أي كفكم عن المشركين بعد ظهور الفشل والتنازع والمعصية، وبالجملة بعد وقوع الاختلاف بينكم ليمتحنكم ويختبر إيمانكم وصبركم في الله اذ الاختلاف في القلوب هو أقوى العوامل المقتضية لبسط الابتلاء ليتميز

المؤمن من المنافق، والمؤمن الراسخ في إيمانه الثابت على عزيمته من المتلون السريع الزوال، ومع ذلك فإن الله سبحانه عفا عنهم بفضله كما قال: ولقد عفا عنكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَيٰكُمْ﴾ الإصعاد هو الذهاب والإبعاد في الأرض بخلاف الصعود فهو الارتقاء الى مكان عال يقال: أصعد في جانب البر أي ذهب فيه بعيداً، وصعد في السلم أي ارتقى، وقيل: إن الإصعاد ربما استعمل بمعنى الصعود.

والظرف متعلق بمقدر أي اذكروا اذ تصعدون، أو بقوله: صرفكم، أو بقوله ليبتليكم، ـ على ما قيل ـ وقوله: ولا تلون، من اللي بمعنى الالتفات والملّ قال في المجمع: ولا يستعمل إلّا في النفي لا يقال: لويت على كذا، انتهى.

وقوله: والرسول يدعوكم في اخريكم، الاخرى مقابل الاولى وكون الرسول يدعو وهو في اخريهم يدل على أنهم تفرقوا عنه ﷺ وهم سواد ممتد على طوائف أوليهم مبتعدون عنه ﷺ واخريهم بقرب منه، وهو يدعوهم من غير أن يلتفت اليه لا اوليهم ولا اخريهم فتركوه ﷺ بين جموع المشركين وهم يصعدون فراراً من القتل.

نعم قوله تعالى قبيل هذا: وسيجزي الله الشاكرين ـ وقد مر تفسيره ـ يدل على أن منهم من لم يتزلزل في عزيمته ولم ينهزم لا في أول الانهزام، ولا بعد شيوع خبر قتل النبي ﷺ على ما يدل عليه قوله: أفإن مات أو قتل انقلبتم، الآية.

ومما يدل عليه قوله: ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في اخريكم أن خبر قتل النبي ﷺ إنما انتشر بينهم بعد انهزامهم وإصعادهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ الخ؛ أي جازاكم غماً بغم ليصرفكم عن لحزن على كذا، وهذا الغم الذي اثيبوا به كيفما كان هو نعمة منه تعالى بدليل قوله: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، فإن الله

تعالى ذم في كتابه هذا الحزن كما قال: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ (الحديد / ٢٣) فهذا الغم الذي يصرفهم عن ذاك الحزن المذموم نعمة وموهبة فيكون هو الغم الطاري عليهم من جهة الندامة على ما وقع منهم والتحسر على ما فاتهم من النصر بسبب الفشل، ويكون حينئذ الغم الثاني في قوله: بغم، الغم الآتي من قبل الحزن المذكور، والباء للبدلية، والمعنى: جازاكم غماً بالندامة والحسرة على فوت النصر بدل غم بالحزن على ما فاتكم وما أصابكم.

ومن الجائز أن يكون قوله: أثابكم مضمناً معنى الإبدال فيكون المعنى: فأبدلكم غم الحزن من غم الندامة والحسرة مثيباً لكم، فينعكس المعنى في الغمين بالنسبة الى المعنى السابق.

وعلى كل من المعنيين يكون قوله: فأثابكم، تفريعاً على قوله: ولقد عفا عنكم، ويتصل به ما بعده أعني قوله: ثم أنزل عليكم، أحسن اتصال، والترتيب: أنه عفا عنكم فأثابكم غماً بغم ليصونكم عن الحزن الذي لا يرتضيه لكم ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاساً.

وهيهنا وجه آخر يساعده ظهور السياق في تفريع قوله: فأثابكم، على ما يتصل به بمعنى أن يكون الغم هو ما يتضمنه قوله: اذ تصعدون، والمراد بقوله: بغم هو ما أدى اليه التنازع والمعصية وهو إشراف المشركين عليهم من ورائهم، والباء للسببية وهذا معنى حسن، وعلى هذا يكون المراد بقوله: لكيلا تحزنوا، الخ؛ نبين لكم حقيقة الأمر لئلا تحزنوا، كما في قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ الآية (الحديد / ٢٣).

فهذا ما يستقيم به نظم الآية واتساق الجمل المتعاقبة، وللمفسرين احتمالات كثيرة في الآية من حيث ما عطف عليه قوله: فأثابكم، ومن حيث معنى الغم الأول والثاني ومعنى الباء ومعنى قوله: لكيلا، ليست من الاستقامة على شيء، ولا جدوى في نقلها والبحث عنها.

وعلى ما احتملناه من أحد معنيين يكون المراد بما فات في قوله: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم هو الغلبة والغنيمة، وبما أصاب ما أصاب القوم من القتل والجرح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ الأمنة بالتحريك الأمن، والنعاس ما يتقدم النوم من الفتور وهو نوم خفيف، ونعاساً بدل من أمنة للملازمة عادة، وربما احتمل أن يكون أمنة جمع آمن كطالب وطلبة، وهو حينئذ حال من ضمير عليكم، ونعاساً مفعول قوله: أنزل، والغشيان: الإحاطة.

والآية تدل على أن هذا النعاس النازل إنما غشي طائفة من القوم، ولم يعم الجميع بدليل قوله: طائفة منكم، وهؤلاء هم الذين رجعوا الى رسول الله ﷺ بعد الانهزام والإصعاد لما ندموا وتحسروا، وحاشا أن يعفو الله عنهم عفو رحمة وهم في حال الفرار عن الزحف وهو من كبائر المعاصي والآثام وقد قال: ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين، وحاشا أن تشمل عنايته تعالى على مقترف الفحشاء والمنكر حين يقترف من قبل أن يتوب وقد عنى في حقهم حين أثابهم غماً بغم لكيلا يحزنوا فيتقذر قلوبهم بما لا يرتضيه الله سبحانه على ما مر بيانه.

فهؤلاء بعض القوم وهم النادمون على ما فعلوا الراجعون الى النبي ﷺ المحتفون به، وكأن ذلك إنما كان حين فارق ﷺ جموع المشركين وعاد الى الشعب، وإن كان عودهم اليه تدريجاً بعد العلم بأنه لم يقتل.

وأما البعض الآخر من القوم فهم الذين يذكرهم الله بقوله: وطائفة قد أهمتهم أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ هذه طائفة اخرى من المؤمنين ونعني بكونهم من المؤمنين أنهم غير المنافقين الذين ذكرهم الله أخيراً بقوله: وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. الآية؛ وهم الذين فارقوا جماعة المؤمنين من أول الأمر قبل القتال واتخذوا هؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سيبين

الله بذلك.

وهؤلاء الطائفة الثانية الموصوفون بأنهم قد أهمتهم أنفسهم لم يكرمهم الله بما أكرم به الطائفة الاولى من العفو وإثابة الغم تم الأمنة والنعاس بل وكلهم الى أنفسهم فأهمتهم أنفسهم ونسوا كل شيء دونها.

وقد ذكر الله تعالى من أوصافهم وصفين اثنين وإن كان أحدهما من لوازم الآخر وفروعه، فذكر أنهم أهمتهم أنفسهم؛ وليس معناه أنهم يريدون سعادة أنفسهم بمعناها الحقيقي فإن المؤمنين أيضاً لا يريدون إلّا سعادة أنفسهم فالإنسان بل كل ذي همامة وإرادة لا يريد إلّا نفسه البتة، بل المراد: أن ليس لهم همّ إلّا حفظ حياتهم الدنيا وعدم الوقوع في شبكة القتل فهم لا يريدون بدين أو غيره إلّا إمتاع أنفسهم في الدنيا وإنما ينتحلون بالدين ظناً منهم أنه عامل غير مغلوب، وأن الله لا يرضى بظهور أعدائه عليه، وإن كانت الأسباب الظاهرية لهم فهؤلاء يستدرون الدين ما در لهم، وإن انقلب الأمر ولم يسعدهم الجد انقلبوا على أعقابهم القهقرى.

قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الى قوله: «لله» أي ظنوا بالله أمراً ليس بحق بل هو من ظنون الجاهلية فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التي كان يصفه بها أهل الجاهلية، وهذا الظن أياً ما كان هو شيء يناسبه ويلازمه قولهم: هل لنا من الأمر من شيء، ويكشف عنه ما أمر النبي ﷺ أن يجيبهم به، وهو قوله: قل إن الأمر كله لله فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم ولذا لما غلبوا وفشى فيهم القتل تشككوا فقالوا: هل لنا من الأمر من شيء.

وبذلك يظهر أن الأمر الذي كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور والغلبة، وإنما كانوا يظنونه لأنفسهم من جهة إسلامهم فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب ولا يغلب المتدين به لما أن على الله أن ينصره من غير قيد وشرط وقد وعدهم به.

وهذا هو الظن بغير الحق، الذي هو ظن الجاهلية فإن وثنية الجاهلية كانت تعتقد أن الله تعالى خالق كل شيء وأن لكل صنف من أصناف الحوادث كالرزق والحياة والموت والعشق والحرب وغيرها، وكذا لكل نوع من الأنواع الكونية كالإنسان والأرض والبحار وغيرها رباً يدبر أمرها لا يغلب على إرادته، وكانوا يعبدون هؤلاء الأرباب ليدروا لهم الرزق، ويجلبوا لهم السعادة، ويقوهم من الشرور والبلايا. والله سبحانه كالملك العظيم يفوض كل صنف من أصناف رعيته وكل شطر من أشطار ملكه الى وال تام الاختيار له أن يفعل ما يشاؤه في منطقة نفوذه وحوزة ولايته.

واذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوباً في ظاهر تقدمه والنبي ﷺ - وهو أول من يتحمله من ربه ويحمل أثقاله - لا يقهر في ظاهر دعوته أو أنه لا يقتل أو لا يموت فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية فاتخذ لله أنداداً، وجعل النبي ﷺ رباً وثنياً مفوضاً اليه أمر الغلبة والغنيمة، مع أن الله سبحانه واحد لا شريك له، اليه يرجع الأمر كله وليس لأحد من الأمر شيء، ولذلك لما قال تعالى فيما تقدم من الآيات: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، قطع الكلام بالاعتراض فقال - يخاطب نبيه -: ليس لك من الأمر شيء لئلا يتوهم أن له ﷺ دخلاً في قطع أو كبت، والله سبحانه هو الذي وضع سنة الأسباب والمسببات، فما كان سببه أقوى كان وقوعه أرجح سواء في ذلك الحق والباطل، والخير والشر، والهداية والضلالة، والعدل والظلم؛ ولا فرق فيه بين المؤمن والكافر، والمحبوب والمبغوض، ومحمد وأبي سفيان.

نعم لله سبحانه عناية خاصة بدينه وبأوليائه يجري نظام الكون بسببها جرياً ينجر الى ظهور الدين وتمهد الأرض لأوليائه والعاقبة للمتقين.

وأمر النبوة والدعوة ليس بمستثنى من هذه السنة الجارية، ولذلك كلما توافقت الأسباب العادية على تقدم هذا الدين وظهور المؤمنين كبعض غزوات النبي ﷺ كان ذلك، وحيث لم

يتوافق الأسباب كتحقق نفاق أو معصية الأمر النبي ﷺ أو فشل أو جزع كانت الغلبة والظهور للمشركين على المؤمنين. وكذلك الحال في أمر سائر الأنبياء مع الناس فإن أعداد الأنبياء لكونهم أهل الدنيا، وقصرهم مساعيهم في عمارة الدنيا، وبسط القدرة، وتشديد القوة، وجمع الجموع كانت الغلبة الظاهرية والظهور لهم على الأنبياء. فمن مقتول كزكريا، ومذبوح كيحيى، ومشرد كعيسى الى غير ذلك.

نعم اذا توقف ظهور الحق بحقانيته على انتقاض نظام العادة دون السنة الواقعية وبعبارة اخرى دار أمر الحق بين الحياة والموت كان على الله سبحانه أن يقيم صلب الدين ولا يدعه تدحض حجته، وقد مر شطر من هذا البحث في القول على الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب، وفي الكلام على أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه.

ولنرجع الى ما كنا فيه: فقول هؤلاء الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم: هل لنا من الأمر من شيء، تشكك في حقية الدين وقد أدرجوا في هيكله روح الوثنية على ما مر بيانه، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يجيبهم فقال: قل إن الأمر كله لله، وقد خاطب نبيه قبل ذلك بقوله: ليس لك من الأمر شيء فبين بذلك أن ملة الفطرة ودين التوحيد هو الذي لا يملك فيه الأمر إلّا الله جل شأنه، وباقي الأشياء ومنها النبي ﷺ ليست بمؤثرة شيئاً بل هي في حيطة الأسباب والمسببات والسنة الإلهية التي تؤدي الى جريان ناموس الابتلاء والامتحان.

قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ﴾ الخ. وهذا توصيف لهم بما هو أشد من قولهم: هل لنا من الأمر من شيء. فإنه كان تشكيكاً في صورة السؤال، وهذا أعني قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هيهنا ترجيح في هيئة الاستدلال، ولذلك أبدوا قولهم الأول للنبي ﷺ وأخفوا قولهم الثاني لاشتماله على ترجيح الكفر على الإسلام.

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم فقال: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم، فبين لهم:

اولاً: أن قتل من قتل منكم في المعركة ليس لعدم كونكم على الحق، وعدم كون الأمر لكم على ما تزعمون بل لان القضاء الإلهي وهو الذي لا مناص من نفوذه ومضيه جرى على أن يضطجع هؤلاء المقتولون في هذه المضاجع، فلو لم تكونوا خرجتم الى القتال لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، فلا مفر من الأجل المسمى الذي لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.

وثانياً: أن سنة الله جرت على عموم الابتلاء والتمحيص وهي واقعة بهم وبكم لا محالة، فلم يكن بد من خروجكم ووقوع هذا القتال حتى يحل المقتولون محلهم وينالوا درجاتهم، وتحلوا أنتم محلكم فيتعين لكم أحد جانبي السعادة والشقاوة بامتحان ما في صدوركم من الأفكار، وتخليص ما في قلوبكم من الإيمان والشرك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ استزلال الشيطان إياهم إرادته وقوعهم في الزلة، ولم يرد ذلك منهم إلّا بسبب بعض ما كسبوا في نفوسهم ومن أعمالهم فإن السيئات يهدي بعضها الى بعض فإنها مبنية على متابعة هوى النفس، وهو النفس للشيء هو لما يشاكله.

وأما احتمال كون الباء للآلة وكون ما كسبوا عين توليهم يوم الالتقاء فبعيد من ظاهر اللفظ فإن ظاهر «ما كسبوا» تقدم الكسب على التولي والاستزلال.

وكيف كان فظاهر الآية أن بعض ما قدموا من الذنوب والآثام مكّن الشيطان أن أغواهم بالتولي والفرار، ومن هنا يظهر أن احتمال كون الآية ناظرة الى نداء الشيطان يوم أُحد بقتل النبي ﷺ على ما في بعض الروايات ليس بشيء اذ لا دلالة عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ هذا العفو هو عن الذين تولوا، المذكورين في صدر الآية، والآية مطلقة تشمل جميع من تولى يومئذ فتعم الطائفتين

جميعاً أعني الطائفة التي غشيهم النعاس والطائفة التي أهمتهم أنفسهم، والطائفتان مختلفتان بالتكرم بإكرام الله وعدمه. ولكونهما مختلفتين لم يذكر مع هذا العفو الشامل لهما معاً جهات الإكرام التي اشتمل عليها العفو المتعلق بالطائفة الاولى على ما تقدم بيانه.

ومن هنا يظهر أن هذا العفو المذكور في هذه الآية غير العفو المذكور في قوله: ولقد عفا عنكم، ومن الدليل على اختلاف العفوين ما في الآيتين من اختلاف اللحن ففرق واضح بين قوله تعالى: ولقد عفى عنكم والله ذو فضل على المؤمنين حيث إنه كلام مشعر بالفضل والرأفة وقد سماهم مؤمنين ثم ذكر إثابتهم غماً بغم لكيلا يحزنوا ثم إنزاله عليهم أمنة نعاساً، وبين قوله تعالى: ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم حيث ذكر العفو وسكت عن جميع ما أكرم الطائفة الاولى به ثم ختم الكلام بذكر حلمه وهو أن لا يعجل في العقوبة والعفو الذي مع الحلم إغماض مع استبطان سخط.

فان قلت: إنما سوى بين الطائفتين من سوى بينهما لمكان ورود العفو عنهما جميعاً.

قلت: معنى العفو مختلف في الموردين بحسب المصداق وإن صدق على الجميع مفهوم العفو على حد سواء، ولا دليل على كون العفو والمغفرة وما يشابههما في جميع الموارد سنخاً واحداً، وقد بينا وجه الاختلاف[1].

١٥٦ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

---

١. آل عمران ١٤٩ ـ ١٥٥: بحث في معنى العفو والمغفرة في القرآن.

١٥٧ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

١٥٨ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ.

١٥٩ * فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.

١٦٠ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

١٦١ * وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

١٦٢ * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

١٦٣ * هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ.

١٦٤ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ؛ المراد بهؤلاء

الذين كفروا ما هو ظاهر اللفظ أعني الكافرين دون المنافقين ـ كما قيل ـ لأن النفاق بما هو نفاق ليس منشأ لهذا القول ـ وإن كان المنافقون يقولون ذلك ـ وإنما منشأه الكفر فيجب أن ينسب الى الكافرين.

والضرب في الأرض كناية عن المسافرة، وغزى جمع غاز كطالب وطلب وضارب وضرب، وقوله: ليجعل الله ذلك حسرة، أي ليعذبهم بها فهو من قبيل وضع المغيا موضع الغاية، وقوله: والله يحيي ويميت، بيان لحقيقة الأمر التي أخطأ فيها الكافرون القائلون: لو كانوا، وهذا الموت يشمل الموت حتف الأنف والقتل كما هو مقتضى إطلاق الموت وحده على ما تقدم، وقوله: والله بما تعملون بصير في موضع التعليل للنهي في قوله: لا تكونوا، الخ.

وقوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قدم فيه الموت على القتل ليكون النشر على ترتيب الف في قوله: اذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى، ولأن الموت أمر جار على الطبع والعادة المألوفة بخلاف القتل فإنه أمر استثنائي فقدم ما هو المألوف على غيره.

ومحصل الآية نهي المؤمنين أن يكونوا كالكافرين فيقولوا لمن مات منهم في خارج بلده أو قومه، وفيمن قتل منهم في غزاة: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فإن هذا القول يسوق الإنسان الى عذاب قلبي ونقمة إلهية وهو الحسرة الملقاة في قلوبهم، مع أنه من الجهل فإن القرب والبعد منهم ليس بمحيي ومميت بل الإحياء والإماتة من الشؤون المختصة بالله وحده لا شريك له فليتقوا الله ولا يكونوا مثلهم فإن الله بما يعملون بصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الظاهر أن المراد مما يجمعون هو المال وما يلحق به الذي هو عمدة البغية في الحياة الدنيا.

وقد قدم القتل ههنا على الموت لأن القتل في سبيل الله أقرب من المغفرة بالنسبة الى الموت فهذه النكتة هي الموجبة لتقديم القتل على الموت، ولذلك عاد في الآية التالية: ولئن

متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون الى الترتيب الطبيعي بتقديم الموت على القتل لفقد هذه النكتة الزائدة.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الى آخر الآية، الفظ هو الجافي القسي، وغلظ القلب كناية عن عدم رقته ورأفته، والانفضاض التفرق.

وفي الآية التفات عن خطابهم الى خطاب رسول الله ﷺ، وأصل المعنى: فقد لان لكم رسولنا برحمة منا، ولذلك أمرناه أن يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم في الأمر وأن يتوكل علينا اذا عزم.

ونكتة الالتفات ما تقدم في أول آيات الغزوة أن الكلام فيه شوب عتاب وتوبيخ، ولذلك اشتمل على بعض الإعراض في ما يناسبه من الموارد ومنها هذا المورد الذي يتعرض فيه لبيان حال من أحوالهم لها مساس بالاعتراض على النبي ﷺ فإن تحزنهم لقتل منهم ربما دلهم على المناقشة في فعل النبي ﷺ، ورميه بأنه أوردهم مورد القتل والاستيصال، فأعرض الله تعالى عن مخاطبتهم والتفت الى نبيه ﷺ فخاطبه بقوله: فبما رحمة من الله لنت لهم.

والكلام متفرع على كلام آخر يدل عليه السياق، والتقدير: واذا كان حالهم ما تراه من التشبه بالذين كفروا والتحسر على قتلاهم فبرحمة منا لنت لهم وإلّا لانفضوا من حولك. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ إنما سيق ليكون إمضاءاً لسيرته ﷺ فإنه كذلك كان يفعل، وقد شاورهم في أمر القتال قبيل يوم أُحد، وفيه إشعار بأنه إنما يفعل ما يؤمر والله سبحانه عن فعله راض.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعفو عنهم فلا يرتب على فعالهم أثر المعصية، وأن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم ـ وهو تعالى فاعله لا محالة ـ واللفظ وإن كان مطلقاً لا يختص بالمورد

غير أنه لا يشمل موارد الحدود الشرعية وما يناظرها وإلا لفى التشريع. على أن تعقيبه بقوله: وشاورهم في الأمر لا يخلو عن الإشعار بأن هذين الأمرين إنما هما في ظرف الولاية وتدبير الامور العامة مما يجري فيه المشاورة معهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، واذا أحبك كان ولياً وناصراً لك غير خاذلك. ولذا عقب الآية بهذا المعنى ودعى المؤمنين أيضاً الى التوكل فقال: إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ثم أمرهم بالتوكل بوضع سببه موضعه فقال: وعلى الله فليتوكل المؤمنون أي لإيمانهم بالله الذي لا ناصر ولا معين إلّا هو.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، الغل هو الخيانة. قد مر في قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب﴾ (آل عمران / ٧٩)، ان هذا السياق معناه تنزيه ساحة النبي عن السوء والفحشاء بطهارته، والمعنى: حاشا أن يغل ويخون النبي ربه أو الناس (وهو أيضاً من الخيانة لله) والحال أن الخائن يلقى ربه بخيانته ثم توفّى نفسه ما كسبت.

ثم ذكر أن رمي النبي بالخيانة قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يدو رضى ربه، والخائن باء بسخط عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، وهذا هو المراد بقوله: أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، الآية.

ويمكن أن يكون المراد به التعريض للمؤمنين بأن هذه الأحوال من التعرض لسخط الله، والله يدعوكم بهذه المواعظ الى رضوانه، وما هما سواء.

ثم ذكر أن هذه الطوائف من المتبعين لرضوان الله والبائين بسخط من الله درجات مختلفة، والله بصير بالأعمال فلا تزعموا أنه يفوته الحقير من الخير أو شر فتسامحوا في اتباع رضوانه أو البوء بسخطه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، في الآية التفات آخر من خطاب

المؤمنين الى تنزيلهم منزلة الغيبة ، وقد مر الوجه العام في هذه الموارد من الالتفات والوجه الخاص بما ههنا أن الآية مسوقه سوق الامتنان والمنّ على المؤمنين لصفة إيمانهم ولذا قيل : على المؤمنين ، ولا يفيده غير الوصف حتى لو قيل : الذين آمنوا ، لأن المشعر بالعلية ـ على ما قيل ـ هو الوصف أو أنه الكامل في هذا الإشعار ، والمعنى ظاهر .

وفي الآية أبحاث أُخر سيأتي شطر منها في المواضع المناسبة لها إن شاء الله العزيز .

١٦٥ ● أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

١٦٦ ● وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

١٦٧ ● وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

١٦٨ ● أَلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١٦٩ ● وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .

١٧٠ ● فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ

يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

١٧١ ● يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾، لما نهاهم أن يكونوا كالذين كفروا في التحزن لقتلاهم والتحسر عليهم ببيان أن أمر الحياة والموت الى الله وحده لا إليهم حتى يدورا مدار قربهم وبعدهم وخروجهم الى القتال أو قعودهم عنه رجع ثانياً الى بيان سببه القريب على ما جرت عليه سنة الأسباب، فبين أن سببه إنما هو المعصية الواقعة يوم احد منهم وهو معصية الرماة بتخليه مراكزهم، ومعصية من تولى منهم عن القتال بعد ذلك، وبالجملة سببه معصيتهم الرسول ـ وهو قائدهم ـ وفشلهم وتنازعهم في الأمر وذلك سبب للانهزام بحسب سنة الطبيعة والعادة.

فالآية في معنى قوله: أتدرون من أين أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها؟ إنما أصابتكم من عند أنفسكم وهو إفسادكم سبب الفتح والظفر بأيديكم ومخالفتكم قائدكم وفشلكم واختلاف كلمتكم.

وقد وصفت المصيبة بقوله: قد أصبتم مثليها وهو إشارة الى مقايسة ما أصابهم الكفار يوم أُحد، وهو قتل سبعين رجلاً منهم بما أصابوا الكفار يوم بدر وهو مثلا السبعين فإنهم قتلوا منهم يوم بدر سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً.

وفي هذا التوصيف تسكين لطيش قلوبهم وتحقير للمصيبة فإنهم اصيبوا من أعدائهم بنصف ما أصابوهم فلا ينبغي لهم أن يحزنوا أو يجزعوا.

وقيل: إن معنى الآية: إنكم أنفسكم اخترتم هذه المصيبة، وذلك أنهم اختاروا الفداء من

الأسرى يوم بدر. وكان الحكم فيهم القتل، وشرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم في القابل بعدتهم فقالوا: رضينا فإنا نأخذ الفداء وننتفع به، واذا قتل منا فيا بعد كنا شهداء.

ويؤيد هذا الوجه بل يدل عليه ما ذيل به الآية أعني قوله: إن الله على كل شيء قدير اذ لا تلائم هذه الفقرة الوجه السابق ألبتة إلّا بتعسف. وسيجيء روايته عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في البحث الروائي الآتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الى آخر الآيتين؛ الآية الاولى تؤيد ما تقدم أن المراد بقوله: قل هو من عند أنفسكم، اختيارهم الفداء من أسرى يوم بدر، وشرطهم على أنفسهم لله ما شرطوا فإصابة هذه المصيبة بإذن الله. وأما الوجه الأول المذكور وهو أن المعنى أن سبب إصابة المصيبة القريب هو مخالفتكم فلا تلاؤم ظاهراً بينه وبين نسبة المصيبة الى إذن الله وهو ظاهر.

فعلى ما ذكرنا يكون ذكر استناد إصابة المصيبة الى إذن الله بمنزلة البيان لقوله: هو من عند أنفسكم، وليكون توطئة لانضمام قوله: وليعلم المؤمنين، وبانضمامه يتمهد الطريق للتعرض لحال المنافقين وما تكلموا به وجوابه وبيان حقيقة هذا الموت الذي هو القتل في سبيل الله.

وقوله: أو ادفعوا أي لو لم تقاتلوا في سبيل الله فادفعوا عن حريمكم وأنفسكم وقوله: هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، اللام بمعنى الى فهذا حالهم بالنسبة الى الكفر الصريح، وأما النفاق فقد واقعوه بفعلهم ذلك.

وقوله: «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم»، ذكر الأفواه للتأكيد، وللتقابل بينها وبين القلوب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. المراد بإخوانهم إخوانهم في النسب وهم القتلى، وإنما ذكر اخوتهم لهم ليكون مع انضمام قوله: وقعدوا

أوقع تعيير وتأنيب عليهم فإنهم قعدوا عن إمداد إخوانهم حتى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع. وقوله: قل فادرؤوا جواب عن قولهم ذاك؛ والدرء: الدفع.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً﴾ الآية: في الآية التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله ﷺ. والوجه فيه ما تكرر ذكره في تضاعيف هذه الايات. ويحتمل أن يكون الخطاب تتمة الخطاب في قوله: قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

والمراد بالموت بطلان الشعور والفعل، ولذا ذكرهما في قوله: بل أحياء، الخ؛ حيث ذكر الارتزاق وهو فعل، والفرح الاستبشار ومعهما شعور.

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ الآية: الفرح ضد الحزن، والبشارة والبشرى ما يسرك من الخبر والاستبشار طلب السرور بالبشرى، والمعنى: أنهم فرحون بما وجدوه من الفضل الالهي الحاضر المشهود عندهم، ويطلبون السرور بما يأتيهم من البشرى بحسن حال من لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

من ذلك يظهر أولا أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله يأتيهم ويتصل بهم أخبار خيار المؤمنين الباقين بعدهم في الدنيا.

وثانياً أن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين وهو أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وليس ذلك إلّا بمشاهدتهم هذا الثواب في دارهم التي هم فيها مقيمون فإنما شأنهم المشاهدة دون الاستدلال ففي الآية دلالة على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه وبين يوم القيامة، وقد فصلنا القول فيه في الكلام على نشأة البرزخ في ذيل قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ الآية (البقرة / ١٥٤).

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الآية: هذا الاستبشار أعم من الاستبشار بحال غيرهم وبحار أنفسهم والدليل عليه قوله: وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين،

فإنه بإطلاقه شامل للجميع، ولعل هذه هي النكتة في تكرار الاستبشار وكذا تكرار الفضل فتدبر في الآية.

وقد نكر الفضل والنعمة وأبهم الرزق في الآيات ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن؛ ولذا أبهم الخوف والحزن ليدل في سياق النفي على العموم.

والتدبر في الآيات يعطي أنها في صدد بيان أجر المؤمنين أولا، وأن هذه الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانياً، وأن هذا الرزق نعمة من الله وفضل ثالثاً، وأن الذي يشخص هذه النعمة والفضل هو أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رابعاً.

وهذه الجملة أعني قوله: أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كلمة عجيبة كلما أمعنت في تدبرها زاد في اتساع معناها على لطف ورقة وسهولة بيان، وأول ما يلوح من معناها أن الخوف والحزن مرفوعان عنهم، والخوف إنما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شيء من سعادة الإنسان التي يقدر نفسه واجدة لها، وكذا الحزن إنما يكون من جهة أمر واقع يوجب ذلك؛ فالبلية أو كل محذور إنما يخاف منها اذا لم يقع بعدُ فاذا وقعت زال الخوف وعرض الحزن فلا خوف بعد الوقوع ولا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنما يكون اذا لم يكن ما عنده من وجوه النعم في معرض الزوال، وارتفاع مطلق الحزن إنما يتيسر له اذا لم يفقد شيئاً من أنواع سعادته لا ابتداءً ولا بعد الوجدان، فرفعه تعالى مطلق الخوف والحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كل ما يمكنه أن يتنعم به ويستلذه، وأن لا يكون ذلك في معرض الزوال، وهذا هو خلود السعادة للإنسان وخلوده فيها.

ومن هنا يتضح أن نفي الخوف والحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند الله فهو سبحانه يقول: ﴿وما عند الله خير﴾ (آل عمران / ١٩٨)، ويقول ﴿وما عند الله باق﴾ (النحل / ٩٦) فالآيتان تدلان على أن ما عند الله نعمة باقية لا يشوبها نقمة ولا يعرضها فناء.

ويتضح أيضاً أن نفيها هو بعينها هو بعينه إثبات النعمة والفضل وهو العطية لكن تقدم في أوائل الكتاب وسيجيء في قوله تعالى: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ (النساء / ٦٩)، أن النعمة اذا اطلقت في عرف القرآن فهي الولاية الإلهية، وعلى ذلك فالمعنى: أن الله يتولى أمرهم ويخصهم بعطية منه.

وأما احتمال أن يكون المراد بالفضل الموهبة الزائدة على استحقاقهم بالعمل، والنعمة ما بحذائه فلا يلائمه قوله: وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين فإن الأجر يؤذن بالاستحقاق، وقد عرفت أن هذه الفقرات أعني قوله: عند ربهم يرزقون وقوله: فرحين بما، الخ؛ وقوله: وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين مآلها الى حقيقة واحدة.

١٧٢ ● ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٧٣ ● ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

١٧٤ ● ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

١٧٥ ● ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

بيان:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية: الاستجابة والإجابة بمعنى

واحد ـ كما قيل ـ وهي أن تسأل شيئاً فتجاب بالقبول.

ولعل ذكر الله والرسول مع جواز الاكتفاء في المقام بذكر أحد اللفظين إنما هو لكونهم في وقعة أُحد عصوا الله والرسول، فأما هو تعالى فقد عصوه بالفرار والتولي وقد نهاهم الله عنه وأمر بالجهاد، وأما الرسول فقد عصوه بمخالفة أمره الذي أصدره على الرماة بلزوم مراكزهم وحين كانوا يصعدون وهو يدعوهم في اخريهم فلم يجيبوا دعوته، فلما استجابوا في هذه الوقعة وضع فيها بجذاء تلك الوقعة استجابتهم لله والرسول.

وقوله: ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾، قصر الوعد على بعض أفراد المستجيبين لأن الاستجابة فعل ظاهري لا يلازم حقيقة الإحسان والتقوى الذين عليهما مدار الأجر العظيم. وهذا من عجيب مراقبة القرآن في بيانه حيث لا يشغله شأن عن شأن. ومن هنا يتبين أن هؤلاء الجماعة ما كانوا خالصين لله في أمره بل كان فيهم من لم يكن محسناً متقياً يستحق عظيم الأجر من الله سبحانه؛ وربما يقال: إن «من» في قوله: «منهم» بيانية كما قيل مثله في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ـ إلى أن قال ـ: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح / ٢٩)، وهو تأول بما يدفعه السياق.

ويتبين أيضاً أن ما يمدحهم به الله سبحانه في قوله: الذين قال لهم الناس، إلى آخر الآيات؛ من قبيل وصف البعض المنسوب إلى الكل بعناية لفظية.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الآية؛ الناس هو الأفراد من الإنسان من حيث عدم أخذ ما يتميز به بعضهم من بعض، والناس الأول غير الثاني، فإن الثاني هو العدو الذي كان يجمع الجموع، وأما الأول فهم الخاذلون المثبطون الذي كانوا يقولون ما يقولون ليخذلوا المؤمنين عن الخروج إلى قتال المشركين، فالناس الثاني اريد به المشركون، والناس الأول أيديهم على المؤمنين وعيونهم فيهم، وظاهر الآية كونهم عدة

وجماعة لا واحداً، وهذا يؤيد كون الآيات نازلة في قصة خروج النبي ﷺ فيمن بقي من أصحابه بعد أُحد في أثر المشركين دون قصة بدر الصغرى، وسيجيء القصتان في البحث الروائي الآتي.

وقوله: قد جمعوا لكم، أي جمعوا جموعهم لقتالكم ثانياً (والله أعلم).

وقوله: فزادهم إيماناً، وذلك لما في طبع الإنسان أنه إذا نهي عما يريده ويعزم عليه، فإن لم يحسن الظن بمن ينهاه كان ذلك إغراءاً فأوجب انتباه قواه واشتدت بذلك عزيمته، وكلما أصر عليه بالمنع أصر على المضي على ما يريده ويقصده، وهذا إذا كان الممنوع يرى نفسه محقاً معذوراً في فعاله أشد تأثيراً من غيره، ولذا كان المؤمنون كلما لامهم في أمر الله لائم أو منعهم مانع زادوا قوة في إيمانهم وشدة في عزمهم وبأسهم.

ويمكن أن يكون زيادة إيمانهم لتأييد أمثال هذه الأخبار ما عندهم من خبر الوحي أنهم سيؤذون في جنب الله حتى يتم أمرهم بإذن الله وقد وعدهم النصر ولا يكون نصر إلّا في نزال وقتال.

وقوله: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل أي كافينا الله وأصل الحسب من الحساب لأن الكفاية بحساب الحاجة، وهذا اكتفاء بالله بحسب الإيمان دون الأسباب الخارجية الجارية في السنة الإلهية والوكيل هو الذي يدبر الأمر عن الانسان، فمضمون الآية يرجع الى معنى قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره﴾ (الطلاق / ٣)، ولذلك عقب قوله: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل بقوله: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، الخ؛ ليكون تصديقاً لوعده تعالى، ثم حمدهم إذ اتبعوا رضوانه فقال: واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم[1].

---

١. آل عمران ١٧٢ ـ ١٧٥: كلام في التوكل.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ﴾ الآية: ظاهر الآية أن الإشارة إلى الناس الذين قالوا لهم ما قالوا، فيكون هذا من الموارد التي اطلق فيها القرآن الشيطان على الإنسان كما يظهر ذلك من قوله: ﴿من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ (الناس / ٦)، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: فلا تخافوهم أي الناس القائلين لكم ما قالوا لأن ذلكم الشيطان؛ وسنبحث في هذا المعنى بما يكشف القناع عن وجه حقيقته إن شاء الله تعالى[1].

١٧٦ ﴿ وَلاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّٰهُ أَلاّٰ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ.

١٧٧ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمٰانِ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ.

١٧٨ ﴿ وَلاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ.

١٧٩ ﴿ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

---

١. آل عمران ١٧٢ ـ ١٧٥: بحث روائي حول: غزوة احد؛ فهرس الشهداء المسلمين في غزوة احد.

١٨٠ ● وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى آخر الآية؛ تسلية ورفع للحزن ببيان حقيقة الأمر فإن مسارعتهم في الكفر وتظاهرهم على إطفاء نور الله وغلبتهم الظاهرة أحياناً ربما أوجبت أن يحزن المؤمن كأنهم غلبوا الله سبحانه في إرادة إعلاء كلمة الحق لكنه إذا تدبر في قضية الامتحان العام استيقن أن الله هو الغالب وأنهم جميعاً واقعون في سبيل الغايات يوجهون اليها ليتم لهم الهداية التكوينية والتشريعية إلى غايات أمرهم فالكافر يوجه به بواسطة إشباعه بالعافية والنعمة والقدرة ـ وهو الاستدراج والمكر الإلهي ـ إلى آخر ما يمكنه أن يركبه من الطغيان والمعصية، والمؤمن لا يزل يحك به محك الامتحان ليخلص ما في باطنه من الإيمان المشوب بغيره، فيخلص لله أو يخلص شركه فيهبط في مهبط غيره من أولياء الطاغوت وأئمة الكفر.

فمعنى الآية: لا يحزنك الذين يسرعون ولا يزال يشتد سرعتهم في الكفر فإنك إن تحزن فإنما تحزن لما تظن أنهم يضرون الله بذلك وليس كذلك فهم لا يضرون الله شيئاً لأنهم مسخرون لله يسلك بهم في سير حياتهم إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة (وهو آخر حدهم في الكفر) ولهم عذاب أليم فقوله: لا يحزنك، أمر إرشادي، وقوله: إنهم، الخ؛ تعليل للنهي، وقوله: يريد الله، الخ؛ تعليل وبيان لعدم ضررهم.

ثم ذكر تعالى نفي ضرر جميع الكافرين بالنسبة إليه أعم من المسارعين في الكفر وغيرهم، وهو كالبيان الكلي بعد البيان الجزئي يضح أن يعلل به النهي (لا يحزنك) وأن يعلل به علته

(إنهم لن يضروا، الخ) لأنه أعم يعلل به الأخص، والمعنى: وإنما قلنا إن هؤلاء المسارعين لا يضرون الله شيئاً لأن الكافرين جميعاً لا يضرونه شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لما طيب نفس نبيه في مسارعة الكفار في كفرهم أن ذلك في الحقيقة تسخير إلهي لهم لينساقوا إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة عطف الكلام إلى الكفار أنفسهم، فبين أنه لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء والإمهال الإلهي فإن ذلك سوق لهم بالاستدراج إلى زيادة الإثم، ووراء ذلك عذاب مهين ليس معه إلا الهوان، كل ذلك بمقتضى سنة التكميل.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخ؛ ثم عطف الكلام إلى المؤمنين فبين أن سنة الابتلاء جارية فيهم ليتم تكميلهم أيضاً فيخلص المؤمن الخالص من غيره، ويتميز الخبيث من الطيب.

ولما أمكن أن يتوهم أن هناك طريقاً آخر إلى تمييز الخبيث من الطيب وهو أن يطلعهم على الخبثاء حتى يتميزوا منهم فلا يقاسوا جميع المحن والبلايا التي يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين والذين في قلوبهم مرض بهم فدفع هذا الوهم بأن علم الغيب مما استأثر الله به نفسه فلا يطلع عليه أحداً إلّا من اجتبى من رسله فإنه ربما أطلعه عليه بالوحي، وذلك قوله تعالى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء.

ثم ذكر أنه لما لم يكن من الابتلاء والتكميل محيد فآمنوا بالله ورسله حتى تنسلكوا في سلك الطيبين دون الخبثاء، غير أن الإيمان وحده لا يكفي في بقاء طيب الحياة حتى يتم الأجر إلّا بعمل صالح يرفع الإيمان إلى الله ويحفظ طيبه، ولذلك قال أولاً: فآمنوا بالله ورسله ثم تممه ثانياً بقوله: وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية؛ لما بين حال إملاء الكافرين وكان الحال في البخل بالمال وعدم إنفاقه في سبيل الله مثله، فإن

البخيل فرح فخور بما يجمعه من المال عطف تعالى الكلام إليهم وبين أنه شر لهم، وفي التعبير عن المال بقوله: بما آتاهم الله من فضله إشعار بوجه لومهم وذمهم، وقوله: سيطوقون، الخ؛ في مقام التعليل لكون البخل شراً لهم، وقوله: ولله ميراث السموات، الظاهر أنه حال من يوم القيامة، وكذا قوله: والله بما تعملون خبير.

ويحتمل على أن يكون قوله: ولله ميراث حالاً من فاعل قوله يبخلون، وقوله: والله بما تعملون خبير حالاً منه أيضاً أو جملة مستأنفة.

١٨١ ● لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ.

١٨٢ ● ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

١٨٣ ● الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

١٨٤ ● فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

١٨٥ ● كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

١٨٦ ● لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

١٨٧ * وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَلاٰ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مٰا يَشْتَرُونَ.

١٨٨ * لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَةٍ مِنَ الْعَذٰابِ وَلَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ.

١٨٩ * وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيٰاءُ﴾ القائلون هم اليهود بقرينة ما في ذيل الكلام من حديث قتلهم الأنبياء وغير ذلك.

وإنما قالوا ذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ الآية (البقرة / ٢٤٥) ويشهد بذلك بعض الشهادة اتصاله بالآية السابقة: ولا يحسبن الذين يبخلون، الآية.

أو أنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامة المؤمنين وفاقتهم، فقالوا ذلك تعريضاً بأن ربهم لو كان غنياً لغار لهم وأغناهم فليس إلا فقيراً ونحن أغنياء.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مٰا قٰالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية: المراد بالكتابة الحفظ والتثبيت أو الكتابة في صحائف أعمالهم، والمآل واحد، والمراد بقتل الأنبياء بغير حق القتل على العرفان والعمد دون السهو والخطأ والجهالة، وقد قارن الله قولهم هذا

بقتلهم الأنبياء لكونه قولاً عظيماً، وقوله: عذاب الحريق، الحريق النار أو اللهب وقيل: هو بمعنى المحرق.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الآية؛ أي بما قدمتم أمامكم من العمل ونسب إلى الأيدي لأنها آلة التقديم غالباً، وقوله: وأن الله ليس بظلام للعبيد عطف على قوله: ما قدمت، وتعليل للكتابة والعذاب، فلو لم يكن ذلك الحفظ والجزاء لكان إهمالاً لأمر نظام الأعمال وفي ذلك ظلم كثير بكثرة الأعمال فيكون ظلاماً لعباده تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ الآية؛ نعت للذين قبله والعهد هو الأمر، والقربان ما يتقرب به من النعم وغيره، وأكل النار كناية عن إحراقها، والمراد بقوله: قد جاءكم رسل من قبلي، أمثال زكريا ويحيى من أنبياء بني إسرائيل المقتولين بأيديهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾ الآية؛ تسلية للنبي ﷺ في تكذيبهم له؛ والزبر جمع زبور وهو كتاب الحكم والمواعظ، وقد اريد بالزبر والكتاب المنير مثل كتاب نوح وصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، الآية تتضمن الوعد للمصدق والوعيد للمكذب وقد بدأ فيها بالحكم العام المقضي في حق كل ذي نفس، والتوفية هو الإعطاء الكامل، وقد استدل بعضهم بالآية على ثبوت البرزخ لدلالتها على سبق بعض الإعطاء وأن الذي في يوم القيامة هو الإعطاء الكامل، وهو استدلال حسن، والزحزحة هو الإبعاد، وأصله تكرار الجذب بعجلة، والفوز الظفر بالبغية، والغرور مصدر غر أو هو جمع غار.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية؛ الابتلاء الاختبار، بعدما ذكر سبحانه جريان البلاء والابتلاء على المؤمنين، ثم ذكر قول اليهود وهو مما من شأنه أن يوهن عزم المؤمنين أخبرهم بأن هذا الابتلاء الإلهي والأقاويل الموذية من أهل الكتاب والمشركين ستتكرر على المؤمنين، ويكثر استقبالها إياهم وقرعها سمعهم فعليهم أن يصبروا ويتقوا حتى

يعصمهم ربهم من الزلل والفشل، ويكونوا أرباب عزم وإرادة، وهذا إخبار قبل الوقوع ليستعدوا لذلك استعدادهم، ويوطنوا عليه أنفسهم.

وقد وضع في قوله: ولتسمعن إلى قوله: أذى كثيراً، الأذى الكثير موضع القول وهو من قبيل وضع الأثر موضع المؤثر مجازاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾، النبذ الطرح، ونبذه وراء ظهره كالمثل يراد به الترك وعدم الاعتناء كما أن قولهم: جعله نصب عينيه كالمثل يراد به الأخذ واللزوم.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ الى آخر الآيتين، أي بما أنعم عليهم من المال ولازمه حب المال والبخل به، والمفازة النجاة وإنما هلك هؤلاء لأن قلوبهم تعلقت بالباطل فلا ولاية للحق عليهم.

ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسموات والأرض، وقدرته على كل شيء، وهذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

١٩٠ ● إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ.

١٩١ ● الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيٰاماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ.

١٩٢ ● رَبَّنٰا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّٰارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ.

١٩٣ ● رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا مُنٰادِياً يُنٰادِي لِلْإِيمٰانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّٰا

رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ.

١٩٤ ● رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

١٩٥ ● فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ.

١٩٦ ● لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ.

١٩٧ ● مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ.

١٩٨ ● لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ.

١٩٩ ● وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كأن المراد بالخلق كيفية وجودها وآثارها وأفعالها من حركة وسكون وتغير وتحول فيكون خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار مشتملاً على معظم الآيات المحسوسة وقد تقدم بيانها في سورة البقرة وتقدم أيضاً معنى اولي الألباب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾ الخ؛ أي يذكرون الله في جميع حالاتهم من القيام والقعود والاضطجاع. وقد مر البحث في معنى الذكر والتفكر. ومحصل معنى الآيتين أن النظر في آيات السموات والأرض واختلاف الليل والنهار أورثهم ذكراً دائماً لله فلا ينسونه في حال، وتفكراً في خلق السموات والأرض يتذكرون به أن الله سيبعثهم للجزاء فيسألون عندئذ رحمته ويستنجزون وعده.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾، إنما قيل «هذا» مع كون المشار إليه جمعاً ومؤنثاً إذ الغرض لا يتعلق بتمييز أشخاصها وأسمائها، والجميع في أنها خلق واحد. وهذا نظير ما حكى الله تعالى من قول إبراهيم: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ (الأنعام / ٧٨)، لعدم علمه بعد بحقيقتها واسمها سوى أنها شيء.

والباطل ما ليس له غاية يتعلق به الغرض قال تعالى: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد / ١٧) ولذلك لما نفوا البطلان عن الخلق لاح لهم أن الله سيحشر الناس للجزاء، وأنه تعالى سيجزي هناك الظالمين جزاء خزي وهو النار، ولا راد يرد مصلحة العقاب وإلا لبطل الخلقة. وهذا معنى قولهم: فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً﴾، المراد رسول الله ﷺ، وقوله: أن آمنوا، بيان للنداء وأن تفسيرية. ولما ذكروا إيمانهم بالمنادي وهو الرسول وهو يخبرهم بامور عن الله تعالى يحذرهم من بعضها كالذنوب والسيئات والموت على الكفر والذنب، ويرغبهم في بعضها كالمغفرة والرحمة وتفاصيل الجنة التي وعد الله عباده المؤمنين الأبرار بها سألوا ربهم أن يغفر لهم ويكفر عن سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار وسألوه أن ينجزهم ما وعدهم من الجنة والرحمة

على ما ضمنه لهم الرسول بإذن الله فقالوا: فاغفر لنا ذنوبنا، الخ؛ فقوله تعالى: على رسلك أي حملته على رسلك وضمنه عليك الرسل، وقوله: ولا تخزنا، أي بإخلاف الوعد، ولذا عقبه بقوله: إنك لا تخلف الميعاد.

وقد تبين من الآيات أنهم إنما حصلوا الاعتقاد بالله واليوم الآخر وبأن لله رسلاً بالنظر في الآيات وأما تفاصيل ما جاء به النبي فمن طريق الإيمان بالرسول فهم على الفطرة فيما يحكم به الفطرة، وعلى السمع والطاعة فيما فيه ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الخ؛ التعبير بالرب وإضافته اليهم يدل على ثوران الرحمة الإلهية ويدل عليه أيضاً التعميم الذي في قوله: أني لا اضيع عمل عامل منكم، فلا فرق عنده تعالى بين عمل وعمل، ولا بين عامل وعامل.

وعلى هذا فقوله تعالى في مقام التفريع: فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا، الخ؛ في مقام تفصيل صالحات الأعمال لتثبيت ثوابها، والواو للتفصيل دون الجمع حتى يكون لبيان ثواب المستشهدين من المهاجرين فقط.

والآية مع ذلك لا تفصل إلا الأعمال التي تندب اليها هذه السورة وتبالغ في التحريض والترغيب فيها، وهو إيثار الدين على الوطن وتحمل الأذى في سبيل الله والجهاد.

والظاهر أن المراد بالمهاجرة ما يشتمل المهاجرة عن الشرك والعشيرة والوطن لإطلاق اللفظ، ولمقابلته قوله: واخرجوا من ديارهم، وهو هجرة خاصة، ولقوله بعده: لاكفرن عنهم سيئاتهم، فإن ظاهر السيئات في القرآن صغائر المعاصي فهم هاجروا الكبائر بالاجتناب والتوبة، فالمهاجرة المذكورة أعم فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ﴾ الخ؛ هذا دفع الدخل والتقدير: هذا حال أبرار المؤمنين وهذا أجرهم، وأما ما ترى فيه الكفار من رفاه الحال وترف الحياة ودر المعاش فلا يغرنك ذلك (الخطاب للنبي والمقصود به الناس) لأنه متاع قليل لا دوام له.

قوله تعالى: ﴿لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ الخ؛ النزل ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما، والمراد بهم الأبرار بدليل ما في آخر الآية، وهذا يؤيد ما ذكرناه من أن الآية السابقة دفع دخل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ﴾ الخ؛ المراد أنهم مشاركون للمؤمنين في حسن الثواب، والغرض منه أن السعادة الاخروية ليست جنسية حتى يمنع منها أهل الكتاب وإن آمنوا بل الأمر دائر مدار الإيمان بالله وبرسله فلو آمنوا كانوا هم والمؤمنون سواء.

وقد نفى عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمهم الله به في سوابق الآيات وهو التفريق بين رسل الله، وكتمان ما اخذ ميثاقهم لبيانه اشتراءاً بآيات الله ثمناً قليلاً[1][2].

٢٠٠ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ الخ؛ الأوامر مطلقة فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، والصبر في طاعة الله، والصبر عن معصيته؛ وعلى أي حال هو الصبر من الفرد بقرينة ما يقابله.

والمصابرة هي التصبر وتحمل الأذى جماعة باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال ويشتد الوصف ويتضاعف تأثيره، وهذا أمر محسوس في تأثير الفرد إذا اعتبرت

---

١. آل عمران ١٩٠ـ١٩٩: بحث فلسفي ومقايسة بين الرجل والمرأة.

٢. آل عمران ١٩٠ـ١٩٩: بحث روائي في: التفكر؛ الهجرة.

شخصيته في حال الانفراد، وفي حال الاجتماع والتعاون بإيصال القوى بعضها ببعض وسنبحث فيه إن شاء الله بحثاً مستوفى في محله.

قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ أعم معنى من المصابرة وهي إيجاد الجماعة، الارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية أعم من حال الشدة وحال الرخاء ولما كان المراد بذلك نيل حقيقة السعادة المقصودة للدنيا والآخرة ـ وإلّا فلا يتم بها إلّا بعض سعادة الدنيا وليست بحقيقة السعادة ـ عقب هذه الأوامر بقوله تعالى: واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني الفلاح التام الحقيقي[1].

---

١. آل عمران ٢٠٠: كلام في المرابطة في المجتمع الانسان والاجتماع، الانسان ونموه في اجتماعه. الاسلام وعنايته بالاجتماع. اعتبار الاسلام رابطة الفرد والمجتمع. هل تقبل سنة الاسلام الاجتماعية الاجراء والبقاء؟ بماذا يتكون ويعيش الاجتماع الاسلامي؟ منطقان: منطق التعقل ومنطق الاحساس؛ ما معنى ابتغاء الاجر عند الله والاعراض عن غيره؟ ما معنى الحرية في الاسلام؟ ما هو الطريق الى التحول والتكامل في المجتمع الاسلامي؟ هل الاسلام بشريعته يفي باسعاد هذه الحياة الحاضرة؟ من الذي يتقلد ولاية المجتمع في الاسلام وما سيرته؟ ثغر المملكة الاسلامية هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعية او الاصطلاحية. الاسلام اجتماعي بجميع شؤونه. الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخرة.

سورة النساء مدنية وهي مائة وست وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ـ الى قوله ـ وَنِسَاءً﴾ يريد دعوتهم الى تقوى ربهم في أمر أنفسهم وهم ناس متحدون في الحقيقة الإنسانية من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم والمرأة والصغير والكبير والعاجز والقوي حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأة ولا يظلم كبيرهم الصغير في مجتمعهم الذي هداهم الله اليه لتتميم سعادتهم والأحكام والقوانين المعمولة بينهم التي ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، وحفظ وجودهم وبقائهم فرادى ومجتمعين.

ومن هناك تظهر نكتة توجيه الخطاب الى الناس دون المؤمنين خاصة وكذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال: اتقوا الله ونحوه فإن الوصف الذي ذكروا به أعني قوله: الذي خلقكم من نفس واحدة، الخ؛ يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين، وهو من أوصاف الربوبية التي تتكفل أمر التدبير والتكميل لا من شؤون الالوهية.

وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، الخ؛ فالنفس على ما يستفاد من اللغة عين الشيء يقال: جاءني فلان نفسه وعينه وإن كان منشأ تعين الكلمتين ـ النفس والعين ـ لهذا المعنى (ما به الشيء شيء) مختلفاً، ونفس الإنسان هو ما به الانسان إنسان، وهو مجموع روح الإنسان وجسمه في هذه الحياة الدنيا والروح وحدها في الحياة البرزخية على ما تحقق فيما تقدم من البحث في قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ الآية (البقرة / ١٥٤).

وظاهر السياق أن المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، ومن زوجها زوجته، وهما أبوا هذا النسل الموجود الذي نحن منه وإليهما ننتهي جميعاً على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ (الزمر / ٦)، وقوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ (الأعراف / ٢٧)، وقوله تعالى: حكاية عن إبليس ﴿لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ (الإسراء / ٦٢).

وأما قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فقد قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً: زوج، الى أن قال: وزوجة لغة رديئة، انتهى.

وظاهر الجملة أعني قوله: وخلق منها زوجها أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل

وأن هؤلاء الأفراد المبثوثين مرجعهم جميعاً الى فردين متماثلين متشابهين فلفظة من نشوئية والآية في مساق قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم / ٢١)، وقوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ (النحل / ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه﴾ (الشورى / ١١)، ونظيرها قوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ (الذاريات / ٤٩)، فما في بعض التفاسير: أن المراد بالآية كون زوج هذه النفس مشتقة منها وخلقها من بعضها وفاقاً لما في بعض الأخبار: أن الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه من الآية.

وأما قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾، البث هو التفريق بالإثارة ونحوها قال تعالى: ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ (الواقعة / ٦)، ومنه بث الغم ولذلك ربما يطلق البث ويراد به الغم لأنه مبثوث يبثه الإنسان بالطبع، قال تعالى: ﴿قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله﴾ (يوسف / ٨٦)، أي غمي وحزني.

وظاهر الآية أن النسل الموجود من الإنسان ينتهي الى آدم وزوجته من غير أن يشاركهما فيه غيرهما حيث قال: وبث منهما رجالا كثيراً ونساء، ولم يقل: منهما ومن غيرهما، ويتفرع عليه أمران:

احدهما: أن المراد بقوله: رجالاً كثيراً ونساءاً أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطة أو مع واسطة فكأنه قيل: وبثكم منها أيها الناس.

وثانيهما: أن الازدواج في الطبقة الاولى بعد آدم وزوجته أعني في أولادهما بلا واسطة إنما وقع بين الإخوة والأخوات (ازدواج البنين بالبنات) اذ الذكور والاناث كانا منحصرين فيهم يومئذ، ولا ضير فيه فإنه حكم تشريعي راجع الى الله سبحانه فله أن يبيحه يوماً

ويحرمه آخر، قال تعالى: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ (الرعد / ٤١)، وقال: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ (يوسف / ٤٠)، وقال: ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ (الكهف / ٢٦)، وقال: ﴿وهو الله لا إله إلّا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ (القصص / ٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ المراد بالتساءل سؤال بعض الناس بعضاً بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا هو إقسام به تعالى، والتسائل بالله كناية عن كونه تعالى معظماً عندهم محبوباً لديهم فإن الانسان إنما يقسم بشيء يعظمه ويحبه.

وأما قوله: والأرحام فظاهره أنه معطوف على لفظ الجلالة، والمعنى: واتقوا الأرحام، وربما قيل: إنه معطوف على محل الضمير في قوله: به وهو النصب يقال: مررت بزيد وعمراً، وربما أيدته قراءة حمزة: والأرحام بالجر عطفاً على الضمير المتصل المجرور ـ وإن ضعفه النحاة ـ فيصير المعنى: واتقوا الله الذي تسألون به وبالأرحام يقول أحدكم لصاحبه: أسألك بالله وأسألك بالرحم، هذا ما قيل، لكن السياق ودأب القرآن في بياناته لا يلائمانه فإن قوله: والأرحام إن جعل صلة مستقلة للذي، وكان تقدير الكلام: واتقوا الله الذي تسألون بالأرحام كان خالياً من الضمير وهو غير جائز، وإن كان المجموع منه ومما قبله صلة واحدة للذي كان فيه تسوية بين الله عز اسمه وبين الأرحام في أمر العظمة والعزة وهي تنافي أدب القرآن.

وأما نسبة التقوى الى الأرحام كنسبته إليه تعالى فلا ضير فيها بعد انتهاء الأرحام الى صنعه وخلقه تعالى، وقد نسب التقوى في كلامه تعالى الى غيره كما في قوله: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ (البقرة / ٢٨١)، وقوله: ﴿واتقوا النار التي اعدت للكافرين﴾ (آل عمران / ١٣١) وقوله: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾

(الأنفال / ٢٥).

وكيف كان فهذا الشطر من الكلام بمنزلة التقييد بعد الإطلاق والتضييق بعد التوسعة بالنسبة الى الشطر السابق عليه أعني قوله: يا أيها الناس اتقوا، الى قوله: ونساء، فإن محصل معنى الشطر الأول: أن اتقوا الله من جهة ربوبيته لكم، ومن جهة خلقه وجعله إياكم ـ معاشر أفراد الإنسان ـ من سنخ واحد محفوظ فيكم ومادة محفوظة متكثرة بتكثركم، وذلك هو النوعية الجوهرية الإنسانية، ومحصل معنى هذا الشطر: أن اتقوا الله من جهة عظمته وعزته عندكم (وذلك من شؤون الربوبية وفروعها) واتقوا الوحدة الرحمية التي خلقها بينكم (والرحم شعبة من شعب الوحدة والسنخية السارية بين أفراد الإنسان).

ومن هنا يظهر وجه تكرار الأمر بالتقوى وإعادته ثانياً في الجملة الثانية فإن الجملة الثانية الحقيقة تكرار للجملة الاولى مع زيادة فائدة وهي إفادة الاهتمام التام بأمر الأرحام.

والرحم في الأصل رحم المرأة وهي العضو الداخلي منها المعبأ لتربية النطفة وليداً، ثم استعير للقرابة بعلاقة الظرف والمظروف لكون الأقرباء مشتركين في الخروج من رحم واحدة، فالرحم هو القريب والأرحام الأقرباء. وقد اعتنى القرآن الشريف بأمر الرحم كما اعتنى بأمر القوم والامة، فإن الرحم مجتمع صغير كما أن القوم مجتمع كبير، وقد اعتنى القرآن بأمر المجتمع وعده حقيقة ذات خواص وآثار كما اعتنى بأمر الفرد من الإنسان وعده حقيقة ذات خواص وآثار تستمد من الوجود. قال تعالى: ﴿**وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أُجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً**﴾ (الفرقان / ٥٤)، وقال تعالى: ﴿**وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ (الحجرات / ١٣)، وقال تعالى: ﴿**واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ (الأحزاب / ٦)، وقال تعالى: ﴿**فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ (محمد / ٢٢)، وقال تعالى:

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ الآية (النساء / ٩)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ الرقيب الحفيظ والمراقبة المحافظة، وكأنه مأخوذ من الرقبة بعناية أنهم كانوا يحفظون رقاب عبيدهم، أو أن الرقيب كان يتطلع على من كان يرقبه برفع رقبته ومد عنقه، وليس الرقوب مطلق الحفظ بل هو الحفظ على أعمال المرقوب من حركاته وسكناته لإصلاح موارد الخلل والفساد أو ضبطها، فكأنه حفظ الشيء مع العناية به علماً وشهوداً ولذا يستعمل بمعنى الحراسة والانتظار والمحاذرة والرصد، والله سبحانه رقيب لأنه يحفظ على العباد أعمالهم ليجزيهم بها، قال تعالى: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ (سبأ / ٢١)، وقال: ﴿الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ (الشورى / ٦)، وقال: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر / ١٤).

وفي تعليل الأمر بالتقوى في الوحدة الانسانية السارية بين أفراده وحفظ آثارها اللازمة لها، بكونه تعالى رقيباً أعظم التحذير والتخويف بالمخالفة، وبالتدبر فيه يظهر ارتباط الآيات المتعرضة لأمر البغي والظلم والفساد في الأرض والطغيان وغير ذلك، وما وقع فيها من التهديد والإنذار، بهذا الغرض الإلهي وهو وقاية الوحدة الإنسانية من الفساد والسقوط(١)(٢)(٣)(٤)(٥).

---

١. النساء ١: كلام في عمر النوع الانساني والانسان الاول.

٢. النساء ١: كلام في ان النسل الحاضر ينتهي الى آدم وزوجته.

٣. النساء ١: كلام في ان الانسان نوع مستقل غير متحول من نوع آخر.

٤. النساء ١: كلام في تناسل الطبقة الثانية من الانسان.

٥. النساء ١: بحث روائي في خلق آدم وحواء؛ كيفية تزويج اولاد آدم؛ صلة الرحم؛ الغضب.

٢ * وَآتُوا الْيَتَامىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاٰ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً.

٣ * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنىٰ وَثُلاٰثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَلاَّ تَعُولُوا.

٤ * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً.

٥ * وَلاٰ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً.

٦ * وَابْتَلُوا الْيَتَامىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاٰ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً.

بيان:[1][2]

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ أمر بإيتاء اليتامى أموالهم

---

١. النساء ٢ ـ ٦: كلام في الجاهلية الاولى.

٢. النساء ٢ ـ ٦: بحث في كيفية ظهور الدعوة الاسلامية.

وهو توطئة للجملتين اللاحقتين: ولا تتبدلوا، الخ؛ أو الجملتان كالمفسر لهذه الجملة غير أن التعليل الذي في آخر الآية لكونه راجعاً الى الجملتين أو الجملة الأخيرة يؤيد أن الجملة الاولى موضوعة في الكلام تمهيداً للنهي الذي في الجملتين اللاحقتين.

وأصل النهي عن التصرف المضار في أموال اليتامى كما تقدم بيانه توطئة وتمهيد لما سيذكر من أحكام الإرث، ولما سيذكر في الآية التالية من حكم التزوج.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي لا تتبدلوا الخبيث من أموالكم من الطيب من أموالهم بأن يكون لهم عندكم مال طيب فتعزلوه لأنفسكم وتردوا إليهم ما يعادله من ردي أموالكم. ويمكن أن يكون المراد: لا تتبدلوا أكل الحرام من أكل الحلال ـ كما قيل ـ لكن المعنى الأول أظهر فإن الظاهر أن كلاً من الجملتين أعني قوله: ولا تتبدلوا، الخ؛ وقوله: ولا تأكلوا، الخ؛ بيان لنوع خاص من التصرف غير الجائز وقوله: وآتوا اليتامى، الخ؛ تمهيد لبيانهما معاً، وأما قوله: إنه كان حوباً كبيراً الحوب الاثم مصدر واسم مصدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قد مرت الإشارة فيما مر الى أن أهل الجاهلية من العرب ـ وكانوا لا يخلون في غالب الأوقات عن الحروب والمقاتل والغيلة والغارة وكان يكثر فيهم حوادث القتل ـ كان يكثر فيهم الأيتام، وكانت الصناديد والأقوياء منهم يأخذون إليهم يتامى النساء وأموالهن فيتزوجون بهن ويأكلون أموالهن الى أموالهم ثم لا يقسطون فيهن وربما أخرجوهن بعد أكل مالهن فيصرن عاطلات ذوات مسكنة لا مال لهن يرتزقن به ولا راغب فيهن فيتزوج بهن وينفق عليهن، وقد شدد القرآن الكريم النكير على هذا الدأب الخبيث والظلم الفاحش، وأكد النهي عن ظلم اليتامى وأكل أموالهم كقوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ (النساء / ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وآتوا

اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾ الآية (النساء / ٢)، فأعقب ذلك أن المسلمين أشفقوا على أنفسهم ـ كما قيل ـ وخافوا خوفاً شديداً حتى أخرجوا اليتامى من ديارهم خوفاً من الابتلاء بأموالهم والتفريط في حقهم، ومن أمسك يتيماً عنده أفرز حظه من الطعام والشراب وكان اذا فضل من غذائهم شيء لم يدنوا منه حتى يبقى ويفسد فاصبحوا متحرجين من ذلك وسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك وشكوا إليه فنزل: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ (البقرة / ٢٢٠) فأجاز لهم أن يؤووهم ويمسكوهم إصلاحاً لشأنهم وإن يخالطوهم فإنهم إخوانهم فجلى عنهم وفرج همهم.

اذا تأملت في ذلك ثم رجعت الى قوله تعالى: وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا، الخ؛ وهو واقع عقيب قوله: وآتوا اليتامى أموالهم، الآية؛ اتضح لك أن الآية واقعة موقع الترقي بالنسبة الى النهي الواقع في الآية السابقة والمعنى ـ والله أعلم ـ: اتقوا أمر اليتامى، ولا تتبدلوا خبيث أموالكم من طيب أموالهم، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم حتى أنكم إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتيمات منهم ولم تطب نفوسكم أن تنكحوهن وتتزوجوا بهن فدعوهن وانكحوا نساءاً غيرهن ما طاب لكم مثنى وثلاث ورباع.

فالشرطية أعني قوله: إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء، في معنى قولنا إن لم تطب لكم اليتامى للخوف من عدم القسط فلا تنكحوهن وانكحوا نساءاً غيرهن فقوله: فانكحوا ساد مسد الجزاء الحقيقي، وقوله: ما طاب لكم، يغني عن ذكر وصف النساء أعني لفظ غيرهن؛ وقد قيل: ما طاب لكم ولم يقل: من طاب لكم إشارة الى العدد الذي سيفصله بقوله: مثنى وثلاث، الخ؛ ووضع قوله: إن خفتم أن لا تقسطوا موضع عدم طيب النفس من وضع السبب موضع المسبب مع الإشعار بالمسبب في الجزاء بقوله: ما

طاب لكم، هذا.

قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ بناء مفعل وفعال في الأعداد تدلال على تكرار المادة فمعنى مثنى وثلاث ورباع اثنتين اثنتين وأربعاً أربعاً، ولما كان الخطاب متوجهاً الى أفراد الناس وقد جيء بواو التفصيل بين مثنى وثلاث ورباع الدال على التخيير أفاد الكلام أن لكل واحد من المؤمنين أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثاً أو ربعاً فيصرن بالإضافة الى الجميع مثنى وثلاث ورباع.

وبذلك وبقرينة قوله بعد: وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو مالكت أيمانكم وكذا آية المحصنات بجميع ذلك يدفع أن يكون المراد بالآية أن تنكح الاثنتان بعقد واحد أو الثلاث بعقد واحد مثلاً، أو يكون المراد أن تنكح الاثنتان معاً ثم الاثنتان معاً وهكذا، وكذا في الثلاث والأربع، أو يكون المراد اشتراك أزيد من رجل واحد في الزوجة الواحدة مثلاً فهذه محتملات لا تحتملها الآية.

على أن الضرورة قاضية أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوة أو اشتراك أزيد من رجل في زوجة واحدة.

وكذا يدفع بذلك احتمال أن يكون الواو للجمع فيكون في الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوة لأن مجموع الاثنتين والثلاث والأربع تسع، وقد ذكر في المجمع: أن الجمع بهذا المعنى غير محتمل البتة فإن من قال: دخل القوم البلد مثنى وثلاث ورباع لم يلزم منه اجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعة تسعة، ولأن لهذا العدد لفظاً موضوعاً وهو تسع فالعدول عنه الى مثنى وثلاث ورباع نوع من العي ـ جل كلامه عن ذلك وتقدس ـ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾ أي فانكحوا واحدة لا أزيد، وقد علقه تعالى على الخوف من ذلك دون العلم لأن العلم في هذه الامور ـ ولتسويل النفس فيها أثر بين ـ لا يحصل غالباً فتفوت المصلحة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ وهي الإماء فمن خاف أن لا يقسط فيهن فعليه أن ينكح واحدة، وإن أحب أن يزيد في العدد فعليه بالإماء اذ لم يشرّع القسم في الإماء.

ومن هنا يظهر أن ليس المراد بالتحضيض على الإماء بتجويز الظلم والتعدي عليهن فإن الله لا يحب الظالمين وليس بظلام للعبيد بل لما لم يشرع القسم فيهن فأمر العدل فيهن أسهل؛ ولهذه النكتة بعينها كان المراد بذكر ملك اليمين الاكتفاء باتخاذهن وإتيانهن بملك اليمين دون نكاحهن بما يبلغ العدد أو يكثر عليه فإن مسألة نكاحهن سيتعرض لها في ما سيجيء من قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ الآية (النساء / ٢٥).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ العول هو الميل أي هذه الطريقة على ما شرعت أقرب من أن لا تميلوا عن العدل ولا تتعدوا عليهن في حقوقهن، وربما قيل: إن العول بمعنى الثقل وهو بعيد لفظاً ومعنى.

وفي ذكر الجملة التي تتضمن حكمة التشريع دلالة على أن أساس التشريع في أحكام النكاح على القسط ونفي العول والإجحاف في الحقوق.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الصدقة بضم الدال وفتحها والصداق هو المهر، والنحلة هي العطية من غير مثامنة.

وفي إضافة الصدقات الى ضميرهن دلالة على أن الحكم بوجوب الإيتاء مبني على المتداول بين الناس في سنن الازدواج من تخصيص شيء من المال أو أي شيء له قيمة مهراً لهن كأنه يقابل به البضع مقابلة الثمن المبيع فإن المتداول بين الناس أن يكون الطالب الداعي للازدواج هو الرجل على ما سيأتي في البحث العلمي التالي، وهو الخطبة كما أن المشتري يذهب بالثمن الى البائع ليأخذ سلعته، وكيف كان ففي الآية إمضاء هذه العادة الجارية عند الناس.

ولعل إمكان توهم عدم جواز تصرف الزوج في المهر أصلاً حتى برضى من الزوجة هو

الموجب للإتيان بالشرط في قوله: فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً مع ما في اشتراط الأكل بطيب النفس من تأكيد الجملة السابقة المشتملة على الحكم، والدلالة على أن الحكم وضعي لا تكليفي.

والهناء سهوة الهضم وقبول لطبع ويستعمل في الطعام، والمرىء من الري وهو في الشراب كالهنيء في الطعام غير أن الهناء يستعمل في الطعام والشراب معاً؛ فاذا قيل: هنيئاً مريئاً اختص الهناء بالطعام والري بالشراب.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ السفه خفة العقل، وكأن الأصل في معناه مطلق الخفة فيما من شأنه أن لا يخف ومنه الزمام السفيه أي كثير الاضطراب وثوب سفيه أي ردىء النسج ثم غلب في خفة النفس واختلف باختلاف الأغراض والمقاصد فقيل سفيه لخفيف الرأي في الامور الدينوية وسفيه للفاسق غير المبالي في أمر دينه وهكذا.

وظاهر ما يتراءى من الآية أنه نهي عن الإكثار في الإنفاق على السفهاء وإعطائهم من المال أزيد من حاجاتهم الضرورية في الارتزاق، غير أن وقوع الآية في سياق الكلام في أموال اليتامى التي يتولى أمر إدارتها وإنمائها الأولياء قرينة معينة على كون المراد بالسفهاء هم السفهاء من اليتامى، وأن المراد بقوله: أموالكم، في الحقيقة أموالهم اضيف الى الأولياء بنوع من العناية كما يشهد به أيضاً قوله بعد: وارزقوهم فيها واكسوهم، وإن كان ولابد من دلالة الآية على أمر سائر السفهاء غير اليتامى، فالمراد بالسفهاء ما يعم اليتيم وغير اليتيم لكن الأول أرجح[1].

وكيف كان فلو كان المراد بالسفهاء سفهاء اليتامى، فالمراد بقوله: أموالكم، أموال اليتامى

---

١. النساء ٢ـ٦: كلام في ان جميع المال لجميع الناس.

وإنما اضيفت الى الأولياء المخاطبين بعناية أن مجموع المال والثروة الموجودة في الدنيا لمجموع أهلها وإنما اختص بعض أفراد المجتمع ببعض منه وآخر بآخر للصلاح العام الذي يبتني عليه أصل الملك والاختصاص فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقة ويعلموا أنهم مجتمع واحد والمال كله لمجتمعهم، وعلى كل واحد منهم أن يكلأه ويتحفظ به ولا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهة، وتدبير كل من لا يحسن التدبير كالصغير والمجنون. وهذا من حيث الإضافة كقوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم﴾ (النساء / ٢٥)، ومن المعلوم أن المراد بالفتيات ليس الإماء اللاتي يملكها من يريد النكاح.

قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ - الى قوله - أَمْوَالَهُمْ﴾ الابتلاء الامتحان والمراد من بلوغ النكاح بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلي والإيناس المشاهدة وفيه شوب من معنى الالفة فإن مادته الانس، والرشد خلاف الغي وهو الاهتداء الى مقاصد الحياة، ودفع مال اليتيم اليه كناية عن إعطائه إياه وإقباضه له كأن الولي يدفعه اليه ويبعده من نفسه فهو على ابتذاله كناية لطيفة.

وقوله: حتى اذا بلغوا النكاح، متعلق بقوله: وابتلوا، ففيه دلالة ما على الاستمرار بأن يشرع الولي في ابتلائه من أول ما يأخذ في التمييز ويصلح للإبتلاء حتى ينتهي الى أوان النكاح ويبلغ مبلغ الرجال، ومن طبع هذا الحكم ذلك فإن إيناس الرشد لا يحصل بابتلاء الصبي في واقعة أو واقعتين بل يجب تكراره الى أن يحصل الإيناس ويتمشى بالطبع في مدة مديدة حتى يبلغ الرهاق ثم النكاح.

وقوله: فإن آنستم، الخ: تفريع على قوله: وابتلوا والمعنى: وامتحنوهم فإن آنستم منهم الرشد فادفعوا اليهم أموالهم؛ والكلام يؤذن بأن بلوغ النكاح بمنزلة المقتضي لدفع المال الى اليتيم واستقلاله بالتصرف في مال نفسه والرشد شرط لنفوذ التصرف؛ وقد فصل الإسلام

النظر في أمر البلوغ من الإنسان فاكتفى في أمر العبادات وأمثال الحدود والديات بمجرد السن الشرعي الذي هو سن النكاح واشترط في نفوذ التصرفات المالية والأقارير ونحوها مما تفصيل بيانه في الفقه مع بلوغ النكاح الرشد، وذلك من لطائف سلوكه في مرحلة التشريع فإن اهمال أمر الرشد وإلغاءه في التصرفات المالية ونحوها مما يختل به نظام الحياة الاجتماعية في قبيل الأيتام ويكون نفوذ تصرفاتهم وأقاريرهم مفضياً الى غرور الأفراد الفاسدة إياهم وإخراج جميع وسائل الحياة من أيديهم بأدنى وسيلة بالكلمات المزيفة والمواعيد الكاذبة والمعاملات الغررية الى ذلك فالرشد لا محيص من اشتراطه في هذا النوع من الامور. وأمثال العبادات فعدم الحاجة فيها الى الاشتراط ظاهر، وكذا أمثال الحدود والديات فإن ادراك قبح هذه الجنايات والمعاصي وفهم وجوب الكف عنها لا يحتاج فيه الى الرشد بل الإنسان يقوى على تفهم ذلك قبله ولا يختلف حاله في ذلك قبل الرشد وبعده.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾ اه: الإسراف هو التعدي عن الاعتدال في العمل، والبدار هو المبادرة الى الشيء وقوله وبداراً أن يكبروا في معنى حذر أن يكبروا فلا يدعوكم أن تأكلوا، وحذف النفي أو ما في معناه قبل أن وأن قياسي على ما ذكره النحاة قال تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ (النساء / ١٧٦) أي لئلا تضلوا أو حذر أن تضلوا.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتشريع للاستشهاد عند الدفع تحكيماً للأمر ورفعاً لغائلة الخلاف والنزاع فمن الممكن أن يدعي اليتيم بعد الرشد وأخذ المال من الولي عليه؛ ثم ذيل الجميع بقوله تعالى: وكفى بالله حسيباً، ربطاً للحكم بمنشأه الأصلي الأولي أعني محتد كل حكم من أسمائه وصفاته تعالى فإنه تعالى لما كان حسيباً لم يكن ليخلي أحكام عباده من غير حساب دقيق وهو تشريعه المحكم، وتتميماً للتربية الدينية الإسلامية فإن الإسلام يأخذ في تربية الناس على أساس التوحيد اذ الإشهاد وإن كان

رافعاً غالباً للخلاف والنزاع لكن ربما تخلف عنه لانحراف من الشهود في عدالتهم أو غير ذلك من متفرقات العوامل لكن السبب المعنوي العالي القوي هو تقوى الله الذي كفى به حسيباً فلو جعل الولي والشهود واليتيم الذي دفع اليه المال هذا المعنى نصب أعينهم لم يقع هناك اختلاف ولا نزاع البتة[١][٢][٣].

٧ ● لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً.

٨ ● وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً.

٩ ● وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً.

١٠ ● إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية؛ النصيب

---

١. النساء ٢ ـ ٦: بحث روائي في تعدد الزوجات.

٢. النساء ٢ ـ ٦: بحث علمي في فصول: النكاح من مقاصد الطبيعة؛ استيلاء الذكور على الاناث؛ تعدد الزوجات.

٣. النساء ٢ ـ ٦: بحث علمي في تعدد زوجات النبي ﷺ.

هو الحظ والسهم، وأصله من النصب بمعنى الإقامة لأن كل سهم عند القسمة ينصب على حدته حتى لا يختلط بغيره، والتركة ما بقي من مال الميت بعده كأنه يتركه ويرتحل فاستعماله الأصلي استعمال استعاري ثم ابتذل، والأقربون هم القرابة الأدنون، واختيار هذا اللفظ على مثل الأقرباء واولي القربى ونحوهما لا يخلو من دلالة على أن الملاك في الإرث أقربية الميت من الوارث على ما سيجيء البحث عنه في قوله تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ (النساء / ١١)، والفرض قطع الشيء الصلب وإفراز بعضه من بعض، ولذا يستعمل في معنى الوجوب لكون إتيانه وامتثال الأمر به مقطوعاً معيناً من غير تردد، والنصيب المفروض هو المقطوع المعين.

وفي الآية إعطاء للحكم الكلي وتشريع لسنة حديثة غير مألوفة في أذهان المكلفين، فإن حكم الوراثة على النحو المشروع في الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقاً بالمثل وقد كانت العادات والرسوم على تحريم عدة من الوراث عادت بين الناس كالطبيعة الثانية تثير النفوس وتحرك العواطف الكاذبة لو قرع بخلافها أسماعهم.

وقد مهد له في الإسلام أولاً بتحكيم الحب في الله والإيثار الديني بين المؤمنين فعقد الاخوة بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين، وانتسخ بذلك الرسم السابق في التوارث، وانقلع المؤمنون من الأنفة والعصبية القديمة ثم لما اشتد عظم الدين، وقام صلبه شرع التوارث بين اولي الأرحام في حين كان هناك عدة كافية من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبية.

وبهذه المقدمة يظهر أن المقام مقام التصريح ورفع كل لبس متوهم بضرب القاعدة الكلية بقوله: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلاً، كما أن موضوعه أعني الرجال عام غير مخصص بشيء متصل فالصغار ذووا نصيب كالكبار.

ثم قال: وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وهو كسابقه عام من غير شائبة تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد، وقد أظهر في قوله مما ترك الوالدان والأقربون مع أن المقام مقام الإضمار إيفاءاً لحق التصريح والتنصيص، ثم قال: مما قل منه أو كثر زيادة في التوضيح وأن لا مجال للمسامحة في شيء منه لقلة وحقارة، ثم قال: نصيباً، الخ؛ وهو حال من النصيب لما فيه من المعنى المصدري، وهو بحسب المعنى تأكيد على تأكيد وزيادة في التنصيص على أن السهام مقطوعة معينة لا تقبل الاختلاط والإبهام.

وقد استدل بالآية على عموم حكم الإرث لتركة النبي ﷺ وغيره، وعلى بطلان التعصيب في الفرائض.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبىٰ﴾ الخ: ظاهر الآية أن المراد من حضورهم القسمة أن يشهدوا قسمة التركة حينما يأخذ الورثة في اقتسامها لا ما ذكره بعضهم أن المراد حضورهم عند الميت حينما يوصي ونحو ذلك، وهو ظاهر.

وعلى هذا فالمراد من اولي القربى الفقراء منهم، ويشهد بذلك أيضاً ذكرهم مع اليتامى والمساكين، ولحن قوله: فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً، الظاهر في الاسترحام والاسترفاق، ويكون الخطاب حينئذ لأولياء الميت والورثة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ الخشية التأثر القلبي مما يخاف نزوله مع شائبة تعظيم وإكبار، وسداد القول وسدده كونه صواباً مستقيماً.

ولا يبعد أن تكون الآية متعلقة نحو تعلق بقوله: للرجال نصيب، الآية؛ لاشتماله على إرث الأيتام الصغار بعمومه فتكون مسوقة سوق التهديد لمن يسلك مسلك تحريم صغار الورثة من الإرث، ويكون حينئذ قوله: وليقولوا قولاً سديداً كناية عن اتخاذ طريقة التحريم والعمل بها وهضم حقوق الأيتام الصغار، والكناية بالقول عن الفعل للملازمة بينهما غالباً شائع في

اللسان كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ الآية (البقرة / ٨٣)، ويؤيده توصيف القول بالسديد دون المعروف واللين ونحوهما فإن ظاهر السداد في القول كونه قابلاً للاعتقاد والعمل به لا قابلاً لأن يحفظ به كرامة الناس وحرمتهم.

وأما قوله: وليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً فقد تقدم أن الظاهر أن المراد بالقول هو الجري العملي ومن الممكن أن يراد به الرأي[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ الآية؛ يقال: أكله وأكله في بطنه وهما بمعنى واحد غير أن التعبير الثاني أصرح والآية كسابقتها متعلقة المضمون بقوله: للرجال نصيب، الآية؛ وهي تخويف وردع للناس عن هضم حقوق اليتامى في الإرث.

والآية مما يدل على تجسم الأعمال على ما مر في الجزء الأول من هذا الكتاب في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما﴾ (البقرة / ٢٦) ولعل هذا مراد من قال من المفسرين أن قوله: إنما يأكلون في بطونهم ناراً، كلام على الحقيقة دون المجاز وعلى هذا لا يرد عليه ما أورده بعض المفسرين: أن قوله: يأكلون اريد به الحال دون الاستقبال بقرينة عطف قوله: وسيصلون سعيراً عليه وهو فعل دخل عليه حرف الاستقبال فلو كان المراد به حقيقة الأكل ـ ووقته يوم القيامة ـ لكان من اللازم أن يقال: سيأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً فالحق أنَّ المراد به المعنى المجازي، وأنهم في أكل مال اليتيم كمن يأكل في بطنه ناراً انتهى ملخصاً وهو غفلة عن معنى تجسم الأعمال.

وأما قوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ فهو إشارة الى العذاب الأخروي، والسعير من أسماء نار الآخرة يقال صلى النار يصلاها صلى وصلياً أي احترق بها وقاسى عذابها.

---

١. النساء ٧ ـ ١٠: كلام في انعكاس العمل على صاحبه.

١١ ● يُوصِيكُمُ اللّٰهُ فِي أَوْلاٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثٰا مٰا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وٰاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوٰاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِي بِهٰا أَوْ دَيْنٍ آبٰاؤُكُمْ وَأَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً.

١٢ ● وَلَكُمْ نِصْفُ مٰا تَرَكَ أَزْوٰاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكٰاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصىٰ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضٰارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ.

١٣ ● تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

١٤ ● وَمَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِداً

فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ الايصاء والتوصية هو العهد والأمر، وقال الراغب في مفردات القرآن: الوصية: التقدم الى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ، انتهى.

وفي العدول عن لفظ الأبناء الى الأولاد دلالة على أن حكم السهم والسهمين مخصوص بما ولده الميت بلا واسطة، وأما أولاد الأولاد فنازلاً فحكمهم حكم من يتصلون به فلبنت الابن سهمان ولابن البنت سهم واحد اذا لم يكن هناك من يتقدم على مرتبتهم كما أن الحكم في أولاد الإخوة والأخوات حكم من يتصلون به، وأما لفظ الإبن فلا يقضي بنفي الواسطة كما أن الأب أعم من الوالد.

وأما قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ فسيجيء أن هناك عناية خاصة تستوجب إختيار لفظ الأبناء على الأولاد.

وأما قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ففي انتخاب هذا التعبير إشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء فكأنه جعل إرث الانثى مقرراً معروفاً وأخبر بأن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل في التشريع وجعل إرث الذكر محمولاً عليه يعرف بالإضافة إليه، ولولا ذلك لقال: للأنثى نصف حظ الذكر واذ لا يفيد هذا المعنى ولا يلتئم السياق معه ـ كما ترى ـ هذا ما ذكره بعض العلماء ولا بأس به، وربما أيد ذلك بأن الآية لا تتعرض بنحو التصريح مستقلاً إلا لسهام النساء وإن صرحت بشيء من سهام الرجال فمع ذكر سهامهن معه كما في الآية التالية والآية التي في آخر السورة.

وبالجملة قوله: للذكر مثل حظ الانثيين في محل التفسير لقوله: يوصيكم الله في أولادكم،

واللام في الذكر والانثيين لتعريف الجنس أي إن جنس الذكر يعادل في السهم أُنثيين، وهذا إنما يكون اذا كان هناك في الوراث ذكر وانثى معاً فللذكر ضعفا الانثى سهماً ولم يقل: للذكر مثل حظي الانثى أو مثلاً حظ الانثى ليدل الكلام على سهم الانثيين اذا انفردتا بإيثار الإيجاز على ما سيجيء.

وعلى أي حال اذا تركبت الورثة من الذكور والإناث كان لكل ذكر سهمان ولكل انثى سهم الى أي مبلغ بلغ عددهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ظاهر وقوع هذا الكلام بعد قوله: «للذكر مثل حظ الانثيين» أنه على تقدير معطوف عليه محذوف كأن قيل: هذا اذا كانوا نساءاً ورجالاً فإن كن نساءاً، الخ؛ وهو شائع في الاستعمال ومنه قوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى﴾ (البقرة / ١٩٦)، وقوله: ﴿أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام اخر﴾ (البقرة / ١٨٤).

والضمير في كن راجع الى الأولاد في قوله: في أولادكم وتأنيث الضمير لتأنيث الخبر، والضمير في قوله: ترك راجع الى الميت المعلوم من سياق الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ الضمير الى الولد المفهوم من السياق وتأنيثه باعتبار الخبر والمراد بالنصف نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

ولم يذكر سهم الأنثيين فإنه مفهوم من قوله: للذكر مثل حظ الانثيين فإن ذكراً وانثى اذا اجتمعا كان سهم الانثى الثلث للآية وسهم الذكر الثلثين وهو حظ الانثيين فحظ الانثيين الثلثان فهذا المقدار مفهوم من الكلام إجمالاً وليس في نفسه متعيناً للفهم اذ لا ينافي ما لو كان قيل بعده: وإن كانتا اثنتين فلهما النصف أو الجميع مثلاً لكن يعينه السكوت عن ذكر هذا السهم والتصريح الذي في قوله: فإن كنَّ نساء فوق اثنتين، فإنه يشعر بالتعمد في ترك ذكر حظ الانثيين.

على أن كون حظها الثلثين هو الذي عمل به النبي ﷺ وجرى العمل عليه منذ عهده ﷺ الى عهدنا بين علماء الامة سوى ما نقل من الخلاف عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ـ الى قوله ـ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ في عطف الأبوين في الحكم على الأولاد دلالة على أن الأبوين يشاركان الاولاد في طبقتهم. وقوله: وورثه أبواه، أي انحصر الوارث فيهما، وفي قوله: فإن كان له إخوة، الخ؛ بعد قوله: فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه، دلالة على أن الإخوة واقعة في طبقة ثانية لاحقة لطبقة الأبناء والبنات لا ترث مع وجودهم غير أن الإخوة تحجب الام عن الثلث.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أما الوصية فهي التي تندب إليها قوله: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية﴾ الآية (البقرة / ١٨٠) ولا ينافي تقدمها في الآية على الدين ما ورد في السنة أن الدين مقدم على الوصية لأن الكلام ربما يقدم فيه غير الأهم على الأهم لأن الاهم لمكانته وقوة ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد والتشديد، ومنه التقديم، وعلى هذا فقوله: أو دين في مقام الاضراب والترقي طبعاً.

وبذلك يظهر وجه توصيف الوصية بقوله: يوصي بها ففيه دلالة على التأكيد، ولا يخلو مع ذلك من الإشعار بلزوم إكرام الميت ومراعاة حرمته فيما وصى به كما قال تعالى: ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ الآية (البقرة / ١٨١).

قوله تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ الخطاب للورثة أعني لعامة المكلفين من حيث إنهم يرثون أموالهم، وهو كلام ملقى للإيماء إلى سر اختلاف السهام في وراثة الآباء والأبناء ونوع تعليم لهم خوطبوا به بلسان «لا تدرون» وأمثال هذه التعبيرات شائعة في اللسان.

على أنه لو كان الخطاب لغير الورثة أعني للناس من جهة أنهم سيموتون ويورثون

آباءهم وأبناءهم لم يكن وجه لقوله: أقرب لكم نفعاً فإن الظاهر أن المراد بالانتفاع هو الانتفاع بالمال الموروث وهو إنما يعود الى الورثه دون الميت.

وتقديم الآباء على الأبناء يشعر بكون الآباء أقرب نفعاً من الأبناء، كما في قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ (البقرة / ١٥٨) وقد مرت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: أبدء بما بدء الله، الحديث.

والأمر على ذلك بالنظر الى آثار الرحم واعتبار العواطف الإنسانية فإن الإنسان أرأف بولده منه بوالديه وهو يرى بقاء ولده بقاءاً لنفسه دون بقاء والديه فآباء الإنسان أقوى ارتباطاً وأمس وجوداً به من أبنائه، واذا بني الانتفاع الإرثي على هذا الاصل كان لازمه أن يذهب الإنسان اذا ورث أباه مثلاً بسهم أزيد منه اذا ورث ابنه مثلاً وإن كان ربما يسبق الى الذهن البدوي أن يكون الأمر بالعكس.

وهذه الآية أعني قوله: آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم، نفعاً من الشواهد على أنه تعالى بني حكم الارث على أساس تكويني خارجي كسائر الأحكام الفطرية الاسلامية.

على أن الآيات المطلقة القرآنية الناظرة الى أصل التشريع أيضاً كقوله: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (الروم / ٣٠) تدل على ذلك، وكيف يتصور مع وجود أمثال هذه الآيات أن يرد في الشريعة أحكام إلزامية وفرائض غير متغيرة وليس لها أصل في التكوين في الجملة.

وربما يمكن أن يستشم من الآية أعني قوله: آباؤكم وأبناؤكم، الخ؛ تقدم أولاد الأولاد على الأجداد والجدات فإن الأجداد والجدات لا يرثون مع وجود الأولاد وأولاد الأولاد.

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ الخ: الظاهر أنه منصوب بفعل مقدر والتقدير خذوا أو ألزموا ونحو ذلك وتأكيد بالغ أن هذه السهام المذكورة قدمت إليكم وهي مفرزة معينة لا

تتغير عما وضعت عليه.

وهذه الآية متكفلة لبيان سهام الطبقة الاولى وهي الأولاد والأب والام على جميع تقاديرها إما تصريحاً كسهم الاب والام وهو السدس لكل واحد منهما مع وجود الأولاد، والثلث أو السدس للأم مع عدمهم على ما ذكر في الآية وكسهم البنت الواحدة وهو النصف، وسهم البنات اذا تفردن وهو الثلثان، وسهم البنين والبنات اذا اجتمعوا وهو للذكر مثل حظ الانثيين. ويلحق بها سهم البنتين وهو الثلثان كما تقدم.

وإما تلويحاً كسهم الابن الواحد فانه يرث جميع المال لقوله: للذكر مثل حظ الانثيين وقوله في البنت: وإن كانت واحدة فلها النصف، وكذا الأبناء اذا تفردوا لما يفهم من قوله: للذكر مثل حظ الانثيين، أن الأبناء متساوون في السهام؛ وأمر الآية في إيجازها عجيب.

واعلم أيضاً أن مقتضى إطلاق الآيه عدم الفرق في إيراث المال وإمتاع الورثة بين النبي ﷺ وبين سائر الناس وقد تقدم نظير هذا الإطلاق أو العموم في قوله تعالى: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب. الآية؛ وما ربما قيل: إن خطابات القرآن العامة لا تشمل النبي ﷺ لجريانها على لسانه فهو مما لا ينبغي أن يصغي اليه.

نعم هاهنا نزاع بين أهل السنة والشيعة في أن النبي هل يورث أو أن ما تركه صدقة ومنشأه الرواية التي رواها أبوبكر في قصة فدك والبحث فيه خارج عن وضع هذا الكتاب ولذلك نرى التعرض له هاهنا فضلاً فليراجع محله المناسب له.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ـ الى قوله ـ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ المعنى ظاهر، وقد استعمل النصف بالإضافة فقيل: نصف ما ترك، والربع بالقطع فقيل: ولهن الربع مما تركتم فإن القطع عن الإضافة يستلزم التنميم بمن ظاهرة أو مقدرة، ومن هذه تفيد معنى الأخذ والشروع من الشيء وهذا المعنى يناسب كون مدخول من كالجزء التابع من الشيء المبتدء منه وكالمستهلك فيه، وهذا إنما يناسب ما اذا كان المدخول قليلاً أو ما هو

كالقليل بالنسبة الى المبدء منه كالسدس والربع والثلث من المجموع دون مثل النصف والثلثين، ولذا قال تعالى: السدس مما ترك؛ وقال: فلأمه الثلث؛ وقال: لكم الربع بالقطع عن الإضافة في جميع ذلك؛ وقال: ولكم نصف ما ترك؛ وقال: فلهن ثلثا ما ترك بالإضافة؛ وقال: فلها النصف أي نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ الى آخر الآية؛ أصل الكلالة مصدر بمعنى الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ومنه الكل ـ بضم الكاف ـ لإحاطته بالأجزاء، ومنه الكل ـ بفتح الكاف ـ لنوع إحاطة منه ثقيلة على من هو كلٌّ عليه، قال الراغب: الكلالة اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة، قال: وروي أن النبي ﷺ سئل عن الكلالة فقال: من مات وليس له ولد ولا والد فجعله اسماً للميت، وكلا القولين صحيح فإن الكلالة مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً، انتهى.

اقول: وعلى هذا فلا مانع من كون كان ناقصة ورجل اسمها ويورث وصفاً للرجل وكلالة خبرها والمعنى: وإن كان الميت كلالة للوارث ليس أباً له ولا ابناً. ويمكن أن يكون كان تامة ورجل يورث فاعله وكلالة مصدراً وضع موضع الحال، ويؤول المعنى أيضاً الى كون الميت كلالة للورثة، وقال الزجاج على ما نقل عنه: من قرأ يورث ـ بكسر الراء ـ فكلالة مفعول، ومن قرأ يورث ـ بفتح الراء ـ فكلالة منصوب على الحال.

وقوله: غير مضار منصوب على الحال. والمضارة هو الإضرار وظاهره أن المراد به الإضرار بالدين من قبل الميت كأن يعتمل بالدين للإضرار بالورثة وتحريمهم الإرث، أو المراد المضارة بالدين كما ذكروا بالوصية بما يزيد على ثلث المال.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الى آخر الآيتين الحد هو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر وارتفاع التمايز بينهما كحد الدار والبستان، والمراد بها أحكام الارث والفرائض المبينة، وقد عظم الله أمرها بما ذكر في الآيتين من الثواب على إطاعة

وإطاعة رسوله فيها والعذاب الخالد المهين على المعصية[١][٢][٣].

١٥ • وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

١٦ • وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ـ الى قوله ـ مِنْكُمْ﴾ يقال: أتاه وأتى به أي فعله، والفاحشة من الفحش وهو الشناعة فهي الطريقة الشنيعة، وقد شاع استعمالها في الزنا، وقد اطلقت في القرآن على اللواط أو عليه وعلى السحق معاً في قوله تعالى: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ (العنكبوت / ٢٨).

والظاهر أن المراد بها ههنا الزنا على ما ذكره جمهور المفسرين، ورووا أن النبي ﷺ ذكر عند نزول آية الجلد أن الجلد هو السبيل الذي جعله الله لهن اذا زنين، ويشهد بذلك ظهور الآية في أن هذا الحكم سينسخ حيث يقول تعالى: أو يجعل الله لهن سبيلاً، ولم ينقل أن السحق

---

١. النساء ١١ ـ ١٤: كلام في الارث على وجه كلي.

٢. النساء ١١ ـ ١٤: بحث روائي في الارث.

٣. النساء ١١ ـ ١٤: بحث علمي في فصول (ظهور الارث، ظهور الارث، تحول الارث تدريجياً، الوراثة بين الامم المتمدنة، ماذا صنع الاسلام والظرف هذا الظرف؟ علام استقر حال النساء واليتامى في الاسلام؟ قوانين الارث الحديثة؟ مقايسة هذه السنن بعضها الى بعض، الوصية).

نسخ حده بشيء آخر، ولا أن هذا الحد اجري على أحد من اللاتي يأتينه وقوله: أربعة منكم، يشهد بأن العدد من الرجال.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ الى آخر الآية؛ رتب الإمساك وهو الحبس المخلد على الشهادة لا على أصل تحقق الفاحشة وإن علم به اذا لم يشهد عليه الشهود وهو من منن الله سبحانه على الامة من حيث السماحة والإغماض.

والحكم هو الحبس الدائم بقرينة الغاية المذكورة في الكلام أعني قوله: حتى يتوفاهن الموت، غير أنه لم يعبر عنه بالحبس والسجن بل بالإمساك لهن في البيوت، وهذا أيضاً من واضح التسهيل والسماحة بالإغماض، وقوله: حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً، أي طريقاً الى التخلص من الإمساك الدائم والنجاة منه.

وفي الترديد إشعار بأن من المرجو أن ينسخ هذا الحكم، وهذا كان فإن حكم الجلد نسخه فإن من الضروري أن الحكم الجاري على الزانيات في أواخر عهد النبي ﷺ والمعمول به بعده بين المسلمين هو الجلد دون الإمساك في البيوت فالآية على تقدير دلالتها على حكم الزانيات منسوخة بآية الجلد والسبيل المذكور فيها هو الجلد بلا ريب.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾، الآيتان متناسبتان مضموناً والضمير في قوله: يأتيانها، راجع الى الفاحشة قطعاً، وهذا يؤيد كون الآيتين جميعاً مسوقتين لبيان حكم الزنا، وعلى ذلك فالآية الثانية متممة الحكم في الاولى فإن الاولى لم تتعرض إلا للنساء من الحكم، والثانية تبين الحكم فيهما معاً وهو الإيذاء فيتحصل من مجموع الآيتين حكم الزاني والزانية معاً وهو إيذاؤهما وإمساك النساء في البيوت.

لكن لا يلائم ذلك قوله تعالى بعد: فإن تابا واصلحا فاعرضوا عنهما، فإنه لا يلائم الحبس المخلد فلابد أن يقال: إن المراد بالإعراض الإعراض عن الإيذاء دون الحبس فهو بحاله.

ولهذا ربما قيل تبعاً لما ورد في بعض الروايات (وسننقلها) إن الآية الاولى لبيان حكم الزنا

في الثيب، والثانية مسوقة لحكم الأبكار وإن المراد بالإيذاء هو الحبس في الأبكار ثم تخلية سبيلهن مع التوبة والإصلاح؛ لكن يبقى أولاً الوجه في تخصيص الاولى بالثيبات والثانية بالأبكار من غير دليل يدل عليه من جهة اللفظ. وثانياً وجه تخصيص الزانية بالذكر في الآية الاولى، وذكرهما معاً في الآية الثانية: «واللذان يأتيانها منكم».

ومن الممكن أن يقال في معنى الآيتين نظراً الى الظاهر السابق الى الذهن من الآيتين، والقرائن المحفوف بها الكلام، وما تقدم من الاشكال فيما ذكروه من المعنى ـ والله أعلم ـ: أن الآية متضمنة لبيان حكم زنا المحصنات ذوات الأزواج، ويدل عليه تخصيص الآية النساء بالذكر دون الرجال، وإطلاق النساء على الأزواج شائع في اللسان وخاصة اذا اضيفت الى الرجال كما في قوله: نسائكم؛ قال تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ (النساء / ٤) وقال تعالى: ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ (النساء / ٢٣).

وعلى هذا فقد كان الحكم الأولي المؤجل لهن الإمساك في البيوت ثم شرع لهن الرجم، وليس نسخاً للكتاب بالسنة على ما استدل به الجبائي فإن النسخ إنما هو رفع الحكم الظاهر بحسب الدليل في التأبيد، وهذا حكم مقرون بما يشعر بأنه مؤجل سينقطع بانقطاعه وهو قوله: أويجعل الله لهن سبيلاً لظهوره في أن هناك حكماً سيطلع عليهن، ولو سمي هذا نسخاً لم يكن به بأس فإنه غير متضمن لما يلزم نسخ الكتاب بالسنة من الفساد فإن القرآن نفسه مشعر بأن الحكم سيرتفع بانقطاع أمده، والنبي ﷺ مبين لمرادات القرآن الكريم.

والآية الثانية متضمنة لحكم الزنا من غير إحصان وهو الإيذاء سواء كان المراد به الحبس أو الضرب بالنعال أو التعيير بالقول أو غير ذلك، والآية على هذا منسوخة بآية الجلد من سورة النور. وأما ما ورد من الرواية في كون الآيه متضمنة لحكم الأبكار فمن الآحاد وهي مع

ذلك مرسلة ضعيفة بالإرسال، والله أعلم هذا ولا يخلو مع ذلك من وهن[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ الخ؛ تقييد التوبة بالإصلاح لتحقيق حقيقة التوبة، وتبيين أنها ليست مجرد لفظ أو حالة مندفعة.

١٧ ● إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

١٨ ● وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ التوبة هي الرجوع، وهي رجوع من العبد الى الله سبحانه بالندامة والانصراف عن الإعراض عن العبودية، ورجوع من الله الى العبد رحمة بتوفيقه للرجوع الى ربه أو بغفران ذنبه، وقد مر مراراً أن توبة واحدة من العبد محفوفة بتوبتين من الله سبحانه على ما يفيده القرآن الكريم.

وذلك أن التوبة من العبد حسنة تحتاج الى قوة والحسنات من الله، والقوة لله جميعاً فمن الله توفيق الأسباب حتى يتمكن العبد من التوبة ويتمشى له الانصراف عن التوغل في غمرات

---

١. فان اشعار المنسوخ بالنسخ لا ينافي النسخ (منه).

البعد والرجوع الى ربه اذا وفق للتوبة والرجوع احتاج في التطهر من هذه الألواث، وزوال هذه القذارات. والورود والاستقرار في ساحة القرب الى رجوع آخر من ربه اليه بالرحمة والحنان والعفو والمغفرة.

وهذان الرجوعان من الله سبحانه هما التوبتان الحافتان لتوبة العبد ورجوعه قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ (التوبة / ١١٨) وهذه هي التوبة الاولى. وقال تعالى: ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ (البقرة / ١٦٠) وهذه هي التوبة الثانية. وبين التوبتين منه تعالى توبة العبد كما سمعت.

وأما قوله: على الله للذين، لفظة على واللام تفيدان معنى النفع والضرر كما في قولنا: دارت الدائرة لزيد على عمرو، وكان السباق لفلان على فلان. ووجه إفادة على واللام معنى الضرر والنفع أن على تفيد معنى الاستعلاء، واللام معنى الملك والاستحقاق، ولازم ذلك أن المعاني المتعلقة بطرفين ينتفع بها أحدهما ويتضرر بها الآخر كالحرب والقتال والنزاع ونحوها فيكون أحدهما الغالب والآخر المغلوب ينطبق على الغالب منهما معنى الملك وعلى المغلوب معنى الاستعلاء، وكذا ما أشبه ذلك كمعنى التأثير بين المتأثر والمؤثر، ومعنى العهد والوعد بين المتعهد والمتعهد له، والواعد والموعود له وهكذا، فظهر أن كون على واللام لمعنى الضرر والنفع إنما هو أمر طار من ناحية مورد الاستعمال لا من ناحية معنى اللفظ.

ولما كان نجاح التوبة إنما هو لوعد وعده الله عباده فأوجبها بحبسة على نفسه لهم قال هيهنا: إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة فيجب عليه تعالى قبول التوبة لعباده لكن لا على أن لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلفه سواء سمي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك وتقدس بل على أنه تعالى وعد عباده أن يقبل توبة التائب منهم وهو لا يخلف الميعاد، فهذا معنى وجوب قبول التوبة على الله فيما يجب، وهو أيضاً معنى كل ما يجب على الله من الفعل.

وظاهر الآية أولاً أنها لبيان أمر التوبة التي لله أعني رجوعه تعالى بالرحمة الى عبده دون توبة العبد وإن تبين بذلك أمر توبة العبد بطريق اللزوم فإن توبة الله سبحانه اذا تمت شرائطها لم ينفك ذلك من تمام شرائط توبة العبد. وهذا أعني كون الآيه في مقام بيان توبة الله سبحانه لا يحتاج الى مزيد توضيح.

وثانياً: أنها تبين أمر التوبة أعم مما اذا تاب العبد من الشرك والكفر بالإيمان أو تاب من المعصية الى الطاعة بعد الإيمان فإن القرآن يسمي الأمرين جميعاً بالتوبة قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ (المؤمن / ٧) يريد: للذين آمنوا بقرينة أول الكلام فسمى الإيمان توبة. وقال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم﴾ (التوبة / ١١٨).

والدليل على أن المراد هي التوبة أعم من أن تكون من الشرك أو المعصية التعميم الموجود في الآية التالية: وليست التوبة. الخ: فإنها تتعرض لحال الكافر والمؤمن معاً. وعلى هذا فالمراد بقوله: يعملون السوء ما يعم حال المؤمن والكافر معاً فالكافر كالمؤمن الفاسق ممن يعمل السوء بجهالة إما لأن الكفر من عمل القلب، والعمل أعم من عمل القلب والجوارح، أو لأن الكفر لايخلو من أعمال سيئة من الجوارح فالمراد من الذين يعملون السوء بجهالة الكافر والفاسق اذا لم يكونا معاندين في الكفر والمعصية.

وأما قوله تعالى: بجهالة فالجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة، وأن الإرادة إنما تكون عن حب ما وشوق ما سواء كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو مما لا ينبغي أن يفعل لكن من له عقل مميز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيئة المذمومة عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقترف هذه السيئات المذمومة لهوى نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي

عليه وجه العلم، وغاب عنه عقله المميز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم، وظهر عليه الهوى وعندئذ يسمى حاله في علمه وإرادته «جهالة» في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق نوعاً من العلم لكن لما لم يؤثر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل وذمه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة الحق بالعدم فكان هو جاهلاً عندهم حتى أنهم يسمون الإنسان الشاب الحدث السن قليل التجربة جاهلاً لغلبة الهوى وظهور العواطف والإحساسات النيئة على نفسه، ولذلك أيضاً تراهم لا يسمون حال مقترف السيئات اذا لم ينفعل في اقتراف السيئة عن الهوى والعاطفة جهالة بل يسمونها عناداً وعمداً وغير ذلك.

فتبين بذلك أن الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحق، ومن خواص هذا الفعل الصادر عن جهالة أن اذا سكنت ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف للسيئة أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج عاد الإنسان الى العلم وزالت الجهالة، وبانت الندامة بخلاف الفعل الصادر عن عناد وتعمد ونحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شيء من القوى والعواطف والأميال النفسانية بل أمراً يسمى عندهم بخبث الذات ورداءة الفطرة لا يزول بزوال طغيان القوى والأميال سريعاً أو بطيئاً بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلا أن يشاء الله.

نعم ربما يتفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده ولجاجه واستعلائه على الحق فيتواضع للحق ويدخل في ذل العبودية فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهالة، وفي الحقيقة كل معصية جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله الى آخر عهده بالحياة والعافية.

ومن هنا يظهر معنى قوله تعالى: ثم يتوبون من قريب أي إن عامل السوء بجهالة لا يقيم عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله الى التقوى والعمل الصالح

كما يدوم عليه المعاند اللجوج بل يرجع عن عمله من قريب فالمراد بالقريب العهد القريب أو الزمان القريب وهو قبل ظهور آيات الآخرة وقدوم الموت.

وكل معاند لجوج في عمله اذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله ووبال فعله ألزمته نفسه على الندامة والتبري من فعله لكنه بحسب الحقيقة ليس بنادم عن طبعه وهداية فطرته بل إنما هي حيلة يحتالها نفسه الشريرة للتخلص من وبال الفعل، والدليل عليه أنه اذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانياً الى ما كان عليه من سيئات الأعمال قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (الأنعام / ٢٨).

والدليل على أن المراد بالقريب في الآية هو ما قبل ظهور آية الموت قوله تعالى في الآية التالية: وليست التوبة الى قوله: قال إني تبت الآن.

وعلى هذا يكون قوله: ثم يتوبون من قريب كناية عن المساهلة المفضية الى فوت الفرصة.

وبالجملة يعود المعنى الى أن الله سبحانه إنما يقبل توبة المذنب العاصي اذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع والتذلل لله، ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدي الى فوت الفرصة بحضور الموت.

ويمكن أن يكون قوله: بجهالة قيداً توضيحياً، ويكون المعنى: للذين يعملون السوء ولا يكون ذلك إلّا عن جهل منهم فإنه مخاطرة بالنفس وتعرض لعذاب أليم، أو لا يكون ذلك إلّا عن جهل منهم بكنه المعصية وما يترتب عليها من المحذور، ولازمه كون قوله: ثم يتوبون من قريب إشارة الى ما قبل الموت لا كناية عن المساهلة في أمر التوبة فإن من يأتي بالمعصية استكباراً ولا يخضع لسلطان الربوبية يخرج على هذا الفرض بقوله: ثم يتوبون من قريب لا بقوله: بجهالة وعلى هذا لا يمكن الكنايه بقوله: ثم يتوبون عن التكاهل والتواني فافهم ذلك، ولعل الوجه الأول أوفق لظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ الإتيان باسم الإشارة الموضوع للبعيد لا يخلو من إشارة الى ترفيع قدرهم وتعظيم أمرهم كما يدل قوله: يعملون السوء بجهالة على المساهلة في إحصاء معاصيهم على خلاف ما في الآية الثانية: وليست التوبة للذين يعملون السيئات، الخ.

وقد اختير لختم الكلام قوله: وكان الله عليماً حكيماً دون أن يقال: وكان الله غفوراً رحيماً للدلالة على أن فتح باب التوبة إنما هو لعلمه تعالى بحال العباد وما يؤديهم إليه ضعفهم وجهالتهم، ولحكمته المقتضية لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام وإصلاح الامور وهو تعالى لعلمه وحكمته لا يغره ظواهر الأحوال بل يختبر القلوب، ولا يستزله مكر ولا خديعة فعلى التائب من العباد أن يتوب حق التوبة حتى يجيبه الله حق الإجابة.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الخ: في عدم إعادة قوله: على الله مع كونه مقصوداً ما لا يخفى من التلويح الى انقطاع الرحمة الخاصة والعناية الإلهية عنهم كما أن إيراد السيئات بلفظ الجمع يدل على العناية بإحصاء سيئاتهم وحفظها عليهم كما تقدمت الإشارة إليه.

وتقييد قوله: يعملون السيئات بقوله: حتى اذا جاء أحدهم الموت المفيد لاستمرار الفعل إما لأن المساهلة في المبادرة الى التوبة وتسويفها في نفسه معصية مستمرة متكررة، أو لأنه بمنزلة المداومة على الفعل، أو لأن المساهلة في أمر التوبة لا تخلو غالباً عن تكرر معاص مجانسة للمعصية الصادرة أو مشابهة لها.

وفي قوله: حتى اذا جاء أحدهم الموت دون أن يقال: حتى اذا جاءهم الموت دلالة على الاستهانة بالأمر والاستحقار له أي حتى يكون أمر التوبة هيناً هذا الهوان سهلاً هذه السهولة حتى يعمل الناس ما يهوونه ويختاروا ما يشاؤونه ولا يبالون وكلما عرض لأحدهم عارض الموت قال: إني تبت الآن فتندفع مخاطر الذنوب ومهلكة مخالفة الأمر الإلهي بمجرد لفظ يردده

ألسنتهم أو خطور يخطر ببالهم في آخر الأمر.

ومن هنا يظهر معنى قوله: قال إني تبت بقوله: الآن فإن يفيد أن حضور الموت ومشاهدة هذا القائل سلطان الآخرة هما الموجبان له أن يقول تبت سواء ذكره أو لم يذكره فالمعنى: إني تائب لما شاهدت الموت الحق والجزاء الحق، وقد قال تعالى في نظيره حاكياً عن المجرمين يوم القيامة: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ (السجدة / ١٢).

فهذه توبة لا تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياة الدنيا وهول المطلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله ويعزم على الرجوع الى ربه ولات حين رجوع حيث لا حياة دنيوية ولا خيرة عملية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ هذا مصداق آخر لعدم قبول التوبة وهو الإنسان يتمادى في الكفر ثم يموت وهو كافر فإن الله لا يتوب عليه فان إيمانه وهو توبته لا ينفعه يومئذ، وقد تتكرر في القرآن الكريم أن الكفر لا نجاة معه بعد الموت؛ وأنهم لا يجابون وإن سألوا، قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ (البقرة / ١٦٢)، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملؤ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ (آل عمران / ٩١)، ونفي الناصرين نفي للشفاعة في حقهم كما تقدم في الكلام على الآية في الجزء الثالث من الكتاب.

وتقييد الجملة بقوله: وهم كفار يدل على التوبة للعاصي المؤمن اذا مات على المعصية من غير استكبار ولا تساهل فإن التوبة من العبد بمعنى رجوعه الى عبودية اختيارية وإن ارتفع موضوعها بالموت كما تقدم لكن التوبة منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفرة والرحمة يمكن أن

يتحقق بعد الموت لشفاعة الشافعين، وهذا في نفسه من الشواهد على أن المراد بالآيتين بيان حال توبة الله سبحانه لعباده لا بيان حال توبة العبد الى الله إلا بالتبع.

قوله تعالى: ﴿أُولٰئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ اسم الاشارة يدل على بعدهم من ساحة القرب والتشريف، والاعتاد: والإعداد أو الوعد[1].

١٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّٰهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

٢٠ ● وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدىٰهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً.

٢١ ● وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً.

٢٢ ● وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ ـ الى قوله ـ كَرْهاً﴾ كان أهل

---

١. النساء ١٧ ـ ١٨: كلام في التوبة.

الجاهلية ـ على ما في التاريخ والرواية ـ يعدون نساء الموتى من التركة ـ اذا لم تكن المرأة أما للوارث ـ فيرثونهن مع التركة فكان أحد الوراث يلقي ثوباً على زوجة الميت ويرثها فإن شاء تزوج بها من غير مهر بل بالوراثة وإن كره نكاحها حبسها عنده فإن شاء زوجها من غيره فانتفع بمهرها، وإن شاء عضلها ومنها انكاح وحبسها حتى تموت فيرثها إن كان لها مال.

والآية وإن كان ظاهرها أنها تنهى عن سنة دائرة بينهم، وهي التي ذكرناها من إرث النساء فتكون مسوقة للردع عن هذه السنة السيئة على ما ذكره بعض المفسرين إلّا أن قوله في ذيل الجملة: «كرهاً» لا يلائم ذلك سواء أخذ قيداً توضيحياً أو احترازيا.

فإنه لو كان قيداً توضيحياً أفاد أن هذه الوراثة تقع دائماً على كره من النساء وليس كذلك، وهو ظاهر. ولو كان قيداً احترازياً أفاد أن النهي إنما هو اذا كانت الوراثة على كره من النساء دون ما اذا كان على رضى منهن، وليس كذلك.

نعم الكره أمر متحقق في العضل عن الازدواج طمعاً في ميراثهن دائماً أو غالباً بعد القبض عليهن بالإرث فالظاهر أن الآية في مقام الردع عن هذا الإرث على كره وأما نكاحهن بالإرث فالمتعرض للنهي عنه قوله تعالى فيما سيأتي: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء. الآية؛ وأما تزويجهن من الغير والذهاب بهرهن فينهى عنه مثل قوله تعالى: ﴿وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ (النساء / ٣٢)، ويدل على الجميع قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ (البقرة / ٢٣٤).

وأما قوله بعد: ولا تعضلوهن لتذهبوا، الخ؛ فهو غير هذا العضل عن الازدواج للذهاب بالمال إرثاً لما في تذييله بقوله: لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من الدلالة على أن المراد به الذهاب ببعض المهر الذي آتاه الزوج العاضل دون المال الذي امتلكته من غير طريق هذا المهر. وبالجملة الآية تنهى عن وراثة أموال النساء كرهاً منهن دون وراثة أنفسهن فإضافة الإرث الى النساء إنما هي بتقدير الأموال أو يكون مجازاً عقلياً.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا ـ الى قوله ـ مُبَيِّنَةٍ﴾ إما معطوف على قوله: ترثوا والتقدير: ولا أن تعضلوهن وإما نهي معطوف على قوله: لا يحل لكم لكونه في معنى النهي. والعضل هو المنع والتضييق والتشديد. والفاحشة الطريقة الشنيعة كثر استعمالها في الزنا. والمبينة المتبينة، وقد نقل عن سيبويه أن أبان واستبان وبين وتبين بمعنى واحد، تتعدى ولا تتعدى يقال: أبان الشيء واستبان وبين وتبين ويقال: أبنت الشيء واستبنته وبينته وتبينته.

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الى آخر الآية: المعروف هو الأمر الذي يعرفه الناس في مجتمعهم من غير أن ينكروه ويجهلوه، وحيث قيد به الأمر بالمعاشرة كان المعنى الأمر بمعاشرتهن المعاشرة المعروفة بين هؤلاء المأمورين.

والمعاشرة التي يعرفها الرجال ويتعارفونه بينهم أن الواحد منهم جزء مقوم للمجتمع يساوي سائر الأجزاء في تكوينه المجتمع الإنساني لغرض التعاون والتعاضد العمومي النوعي فيتوجه على كل منهم من التكليف أن يسعى بما في وسعه من السعي فيما يحتاج إليه المجتمع فيقتني ما ينتفع به فيعطي ما يستغني عنه ويأخذ ما يحتاج اليه فلو عومل مع واحد من أجزاء المجتمع غير هذه المعاملة، وليس إلّا أن يضطهد بإبطال استقلاله في الجزئية فيؤخذ تابعاً ينتفع به ولا ينتفع هو بشيء يجاذيه، وهذا هو الاستثناء.

وقد بين الله تعالى في كتابه أن الناس جميعاً ـ رجالاً ونساءاً ـ فروع أصل واحد إنساني، وأجزاء وأبعاض لطبيعة واحدة بشرية، والمجتمع في تكونه محتاج الى هؤلاء كما هو محتاج الى أولئك على حد سواء كما قال تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ (النساء / ٢٥).

ولا ينافي ذلك اختصاص كل من الطائفتين بخصلة تختص به كاختصاص الرجال بالشدة والقوة نوعاً، واختصاص النساء بالرقة والعاطفة فإن الطبيعة الإنسانية في حياتها التكوينية والاجتماعية جميعاً تحتاج الى بروز الشدة وظهور القوة كما تحتاج الى سريان المودة والرحمة،

والخصلتان جميعاً مظهرا الجذب والدفع العامين في المجتمع الإنساني.

فالطائفتان متعادلتان وزناً وأثراً كما أن أفراد طائفة الرجال متساوية في الوزن والتأثير في هذه البنية المكونة مع اختلافهم في شؤونهم الطبيعية والاجتماعية من قوة وضعف، وعلم وجهل، وكياسة وبلادة، وصغر وكبر، ورئاسة ومرؤسية، ومخدومية وخادمية، وشرف وخسة وغير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّٰهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ فهو من قبيل إظهار الأمر المعلوم في صورة المشكوك المحتمل انتقاء من تيقظ غريزة التعصب في المخاطب نظير قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ (سبأ / ٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ مَكٰانَ زَوْجٍ﴾ الى آخر الآية؛ الاستبدال استفعال بمعنى طلب البدل، وكأنه بمعنى إقامة زوج مقام زوج أو هو من قبيل التضمين بمعنى إقامة امرأة مقام أخرى بالاستبدال، ولذلك جمع بين قوله، أردتم وبين قوله: استبدال، الخ؛ مع كون الاستبدال مشتملا على معنى الإرادة والطلب، وعلى هذا فالمعنى: وإن أردتم أن تقيموا زوجاً مقام اخرى بالاستبدال.

والبهتان ما بهت الإنسان أي جعله متحيراً، ويغلب استعماله في الكذب من القول وهو في الأصل مصدر، وقد استعمل في الآية في الفعل الذي هو الأخذ من المهر، وهو في الآية حال من الأخذ وكذا قوله: إثماً، والاستفهام إنكاري.

والمعنى: إن أردتم أن تطلقوا بعض أزواجكم وتتزوجوا باخرى مكانها فلا تأخذوا من الصداق الذي آتيتموها شيئاً وإن كان ما آتيتموها مالاً كثيراً، وما تأخذونه قليلا جداً.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ﴾ الى آخر الآية؛

الاستفهام للتعجب، والإفضاء هو الاتصال بالمباشرة، وأصله الفضاء بمعنى السعة.

ولما كان هذا الأخذ إنما هو بالبغي والظلم، ومورده مورد الاتصال والاتحاد أوجب ذلك صحة التعجب حيث إن الزوجين يصيران بسبب ما أوجبه الازدواج من الإفضاء والاقتراب كشخص واحد، ومن العجيب أن يظلم شخص واحد نفسه ويؤذيها أو يؤذي بعض أجزائه بعضاً.

وأما قوله ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ فالظاهر أن المراد بالميثاق الغليظ هو العلقه التي أبرمها الرجل بالعقد ونحوه، ومن لوازمها الصداق الذي يسمى عند النكاح وتستحقه المرأة من الرجل[1].

٢٣ ● حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً.

٢٤ ● وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ

---

١. النساء ١٩ ـ ٢٢: بحث روائي حول: التقاليد الجاهلية في المرأة التي يموت زوجها، الامر بحسن معاملة النساء.

مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً.

٢٥ ● وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٢٦ ● يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٢٧ ● وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً.

٢٨ ● يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ هؤلاء هن المحرمات بحسب النسب وهي

سبعة أصناف ، والام من اتصل اليها نسب الإنسان بالولادة كمن ولدته من غير واسطة أو بواسطة ، كوالدة الأب أو الام فصاعدة ، والبنت من اتصل نسبها بالإنسان بسبب ولادتها منه كالمولودة من صلبه بلا واسطة ، وكبنت الابن والبنت فنازلة ، والاخت من اتصل نسبها بالإنسان من جهة ولادتها معهاً من الأب أو الام أو منهما جميعاً بلا واسطة ، والعمة اخت الأب وكذا اخت الجد من جهة الأب أو الام ، والخالة اخت الام ، وكذا اخت الجدة من جهة الأب أو الام .

والمراد بتحريم الامهات وما يتلوها من الأصناف حرمة نكاحهن على ما يفيده الإطلاق من مناسبة الحكم والموضوع ، كما في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ (المائدة / ٣) أي أكلها ، وقوله تعالى : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ (المائدة / ٢٦) أي سكنى الأرض ، وهذا مجاز عقلي شائع ، هذا .

ولكنه لا يلائم ما سيأتي من قوله تعالى : « إلا ما ملكت أيمانكم » فإنه استثناء من الوطء دون علقة النكاح على ما سيجيء ، وكذا قوله تعالى : أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين على ما سيجيء ، فالحق أن المقدر هو ما يفيد معنى الوطء دون علقة النكاح ، وإنما لم يصرح تأدباً وصوناً للسان على ما هو دأب كلامه تعالى .

واختصاص الخطاب بالرجال دون أن يقال : حرم عليهن أبنائهن ، الخ ؛ أو يقال مثلاً : لا نكاح بين المرأة وولدها ، الخ ؛ لما أن المطلب والخطبة بحسب الطبع إنما يقع من جانب الرجال فحسب .

وتوجيه الخطاب الى الجمع مع تعليق الحرمة بالجمع كالامهات والبنات ، الخ ؛ تفيد الاستغراق في التوزيع ، أي حرمت على كل رجل منكم امه وبنته ، اذ لا معنى لتحريم المجموع على المجموع ، ولا لتحريم كل ام وبنت لكل رجل مثلاً على كل رجل لأوله الى تحريم أصل النكاح ، فمآل الآية الى أن كل رجل يحرم عليه نكاح امه وبنته واخته ، الخ .

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ شروع في بيان المحرمات بالسبب، وهي سبع ستة منها ما في هذه الآية، وسابعتها ما يتضمنه قوله: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، الآية.

والآية بسياقها تدل على جعل الامومة والبنوة بين المرأة ومن أرضعته وكذا الاخوة بين الرجل واخته من الرضاعة حيث ارسل الكلام فيها إرسال المسلم فالرضاعة تكون الروابط النسبية بحسب التشريع، وهذا مما يختص بالشريعة الإسلامية على ما ستجيء الإشارة اليه.

وقد صح عن النبي ﷺ فيما رواه الفريقان أنه قال: ان الله حرم من الرضاعة ما حرم من النسب ولازمه أن تنتشر الحرمة بالرضاع فيما يحاذي محرمات النسب من الأصناف، وهي الام والبنت والاخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الاخت، سبعة أصناف.

وأما ما به يتحقق الرضاع وما له في نشره الحرمة من الشرائط من حيث الكم والكيف والمدة وما يلحق بها من الأحكام فهو مما يتبين في الفقه، والبحث فيه خارج عن وضع هذا الكتاب، وأما قوله: وأخواتكم من الرضاعة فالمراد به الأخوات الملحقة بالرجل من جهة إرضاع امه إياها بلبن أبيه وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ سواء كانت النساء أي الأزواج مدخولاً بهن أو غير مدخول بهن فإن النساء اذا اضيفت الى الرجال دلت على مطلق الأزواج، والدليل على ذلك التقييد الآتي في قوله تعالى: من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن، الآية.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ - الى قوله - فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الربائب جمع الربيبة وهي بنت زوجة الرجل من غيره لأن تدبير أمر من مع المرأة من الولد الى زوجها فهو الذي يربيها ويربيها في العادة الغالبة وإن لم يكن كذلك دائماً.

وكذلك كون الربيبة في حجر الزوج أمر مبني على الغالب وإن لم يجر الأمر عليه دائماً،

ولذلك قيل: إن قوله: اللاتي في حجوركم قيد مبني على الغالب فالربيبة محرمة سواء كانت في حجر زوج امها أو لم يكن، فالقيد توضيحي لا احترازي.

ومن الممكن أن يقال: إن قوله: اللاتي في حجوركم، إشارة الى ما يستفاد من حكمة تشريع الحرمة في محرمات النسب والسبب على ما سيجيء البحث عنه، وهو الاختلاط الواقع المستقر بين الرجل وبين هؤلاء الأصناف من النساء والمصاحبة الغالبة بين هؤلاء في المنازل والبيوت فلولا حكم الحرمة المؤبدة لم يكن الاحتراز من وقوع الفحشاء بمجرد تحريم الزنا (على ما سيجيء بيانه).

فيكون قوله: «اللاتي في حجوركم» مشيراً الى أن الربائب لكونهن غالباً في حجوركم وفي صحابتكم تشارك سائر الأصناف في الاشتمال على ملاك التحريم وحكمته.

وكيفما كان ليس قوله: اللاتي في حجوركم قيداً احترازياً يتقيد به التحريم حتى تحل الربيبة لرابها اذا لم تكن في حجره كالبنت الكبيرة يتزوج الرجل بامها، والدليل على ذلك المفهوم المصرح به في قوله تعالى: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ حيث ذكر فيه ارتفاع قيد الدخول لكون الدخول دخيلاً في التحريم، ولو كان الكون في الحجور مثله لكان من اللازم ذكره، وهو ظاهر.

وقوله: فلا جناح عليكم أي في أن تنكحوهن حذف إيثاراً للاختصار لدلالة السياق عليه.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ الحلائل جمع حليلة قال في المجمع: والحلائل جمع الحليلة، وهي بمعنى محللة مشتقة من الحلال والذكر حليل، وجمعه أحلة كعزيز وأعزة سميا بذلك لأن كل واحدة منهما يحل له مباشرة صاحبه، وقيل هو من الحلول لأن كل واحد منهما يحال صاحبه أي يحل معه في الفراش، انتهى.

والمراد بالأبناء من اتصل بالإنسان بولادة سواء كان ذلك بلا واسطة أو بواسطة ابن أو

بنت، وتقييده بقوله «الذين من أصلابكم» احتراز عن حليلة من يدعى ابناً بالتبني دون الولادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ المراد به بيان تحريم نكاح اخت الزوجة مادامت الزوجة حية باقية تحت حبالة الزوجية فهو أوجز عبارة وأحسنها في تأدية المراد. وإطلاق الكلام ينصرف الى الجمع بينهما في النكاح في زمان واحد. فلا مانع من أن ينكح الرجل إحدى الاختين ثم يتزوج بالاخرى بعد طلاق الاولى أو موتها، ومن الدليل عليه السيرة القطعية بين المسلمين المتصلة بزمان النبي ﷺ.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فهو كنظيرة المتقدم في قوله «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سلف» ناظر الى ما كان معمولاً به بين عرب الجاهلية من الجمع بين الاختين، والمراد به بيان العفو عما سلف من عملهم بالجمع بين الاختين قبل نزول هذه الآية دون ما لو كان شيء من ذلك في زمان النزول بنكاح سابق فإن الآيه تدل على منعه لأنه جمع بين الاختين بالفعل كما يدل عليه أيضاً ما تقدم نقله من أسباب نزول قوله «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم» الآية؛ حيث فرق النبي ﷺ بعد نزول الآية بين الأبناء وبين نساء آبائهم مع كون النكاح قبل نزول الآية.

ورفع التحريم ـ وهو الجواز ـ عن نكاح سالف لا يبتلى به بالفعل، والعفو عنه من حيث نفس العمل المنقضي وإن كان لغواً لا أثر له لكنه لا يخلو عن الفائدة من حيث آثار العمل الباقية بعده كطهارة المولد واعتبار القرابة مع الاستيلاد ونحو ذلك.

وبعبارة اخرى لا معنى لتوجيه الحرمة أو الإباحة الى نكاح سابق قد جمع بين الاختين اذا ماتتا مثلاً أو ماتت إحديهما أو حل الطلاق بهما أو بإحديهما لكن يصح رفع الإلغاء والتحريم عن مثل هذا النكاح باعتبار ما استتبعه من الأولاد من حيث الحكم بطهارة مولدهم، ووجود القرابة بينهم وبين آبائهم المولدين لهم وسائر قرابات الآباء، المؤثر ذلك في الإرث والنكاح

وغير ذلك.

وعلى هذا فقوله «إلا ما قد سلف» استثناء من الحكم باعتبار آثاره الشرعية لا باعتبار أصل تعلقه بعمل قد انقضى قبل التشريع، ومن هنا يظهر أن الاستثناء متصل لا منقطع كما ذكره المفسرون.

ويمكن أن يرجع الاستثناء الى جميع الفقرات المذكورة في الآية من غير أن يختص بقوله «وأن تجمعوا بين الاختين» فإن العرب وإن كانت لا ترتكب من هذه المحرمات إلا الجمع بين الاختين، ولم تكن تقترف نكاح الامهات والبنات وسائر ما ذكرت في الآية إلا أن هناك اناساً كانت تنكح أقسام المحارم كالفرس والروم وسائر الامم المتمدنة وغير المتمدنة يوم نزول الآيات على اختلافهم فيه، والإسلام يعتبر صحة نكاح الامم غير المسلمة الدائر بينهم على مذاهبهم فيحكم بطهارة مولدهم، ويعتبر صحة قرابتهم بعد الدخول في دين الحق، هذا، لكن الوجه الأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تعليل راجع الى الاستثناء، وهو من الموارد التي تعلقت فيها المغفرة بآثار الأعمال في الخارج دون الذنوب والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ المحصنات بفتح الصاد اسم مفعول من الإحصان وهو المنع، ومنه الحصن الحصين أي المنيع يقال: أحصنت المرأة اذا عفت فحفظت نفسها وامتنعت عن الفجور، قال تعالى: ﴿التي أحصنت فرجها﴾ (التحريم / ١٢) أي عفت ويقال: أحصنت المرأة ـ بالبناء للفاعل والمفعول ـ اذا تزوجت فأحصن زوجها أو التزوج إياها من غير زوجها، ويقال: أحصنت المرأة اذا كانت حرة فمنعها ذلك من أن يمتلك الغير بضعها أو منعها ذلك من الزنا لأن ذلك كان فاشياً في الإماء.

والظاهر أن المراد بالمحصنات في الآية هو المعنى الثاني أي المتزوجات دون الأول والثالث لأن الممنوع المحرم في غير الأصناف الأربعة عشر المعدودة في الآيتين هو نكاح المزوجات

فحسب فلا منع من غيرها من النساء سواء كانت عفيفة أو غيرها، وسواء كانت حرة أو مملوكة فلا وجه لأن يراد بالمحصنات في الآية العفائف مع عدم اختصاص حكم المنع بالعفائف ثم يرتكب تقييد الآية بالتزويج. أو حمل اللفظ على إرادة الحرائر مع كون الحكم في الإماء أيضاً مثلهن ثم ارتكاب التقييد بالتزويج فإن ذلك أمر لا يرتضيه الطبع السليم.

فالمراد بالمحصنات من النساء المزوجات وهي التي تحت حبالة التزويج، وهو عطف على موضع امهاتكم، والمعنى: وحرمت عليكم كل مزوجة من النساء مادامت مزوجة ذات بعل.

وعلى هذا يكون قوله «إلا ما ملكت أيمانكم» رفعاً لحكم المنع عن محصنات الإماء على ما ورد في السنة أن لمولى الأمة المزوجة أن يحول بين مملوكته وزوجها ثم يناها عن استبراء ثم يردها الى زوجها.

قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي الزموا حكم الله المكتوب المقضي عليكم وقد ذكر المفسرون أن قوله «كتاب الله عليكم» منصوب مفعولاً مطلقاً لفعل مقدر، والتقدير: كتب الله كتاباً عليكم ثم حذف الفعل واضيف المصدر الى فاعله واقيم مقامه. ولم يأخذوا لفظ عليكم سم فعل لما ذكره النحويون أنه ضعيف العمل ما يتقدم معموله عليه؛ هذا.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ظاهر التعبير بما الظاهرة في غير اولى العقل، وكذا الإشارة بذلكم الدال على المفرد المذكر، وكذا قوله بعده: أن تبتغوا بأموالكم. أن يكون المراد بالموصول واسم الإشارة هو المقدر في قوله: حرمت عليكم امهاتكم، المتعلق به التحريم من الوطء والنيل أو ما هو من هذا القبيل، والمعنى: واحل لكم من نيلهن ما هو غير ما ذكر لكم، وهو النيل بالنكاح في غير من عد من الأصناف الخمسة عشر أو بملك اليمين، وحينئذ يستقيم بدلية قوله: أن تبتغوا بأموالكم، من قوله: واحل لكم ما وراء ذلكم كل الاستقامة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله «ما وراء ذلكم» يتبين به الطريق المشروع في نيل النساء ومباشرتهن. وذلك أن الذي يشمله قوله «واحل لكم ما وراء ذلكم» من المصداق ثلاثة: النكاح وملك اليمين والسفاح وهو الزنا فبين بقوله «أن تبتغوا بأموالكم» الخ؛ المنع عن السفاح وقصر الحل في النكاح وملك اليمين ثم اعتبر الابتغاء بالأموال وهو في النكاح المهر والاجرة ـ ركن من أركانه ـ وفي ملك اليمين الثمن ـ وهو الطريق الغالب في تملك الإماء ـ فيؤول معنى الآية الى مثل قولنا: احل لكم فيما سوى الأصناف المعدودة أن تطلبوا مباشرة النساء ونيلهن بإنفاق أموالكم في اجرة المنكوحات من النساء نكاحاً من غير سفاح أو انفاقها في ثمن الجواري والإماء.

ومن هنا يظهر أن المراد بالإحصان في قوله «محسنين غير مسافحين» إحصان العفة دون إحصان التزويج وإحصان الحرية فإن المراد بابتغاء الأموال في الآية أعم مما يتعلق بالنكاح أو بملك اليمين ولا دليل على قصرها في النكاح حتى يحمل الإحصان على إحصان التزويج، وليس المراد بإحصان العفة الاحتراز عن مباشرة النساء حتى ينافي المورد بل ما يقابل السفاح أعني التعدي الى الفحشاء بأي وجه كان بقصر النفس في ما أحل الله، وكفها عما حرم الله في الطرق العادية في التمتع المباشري الذي اودع النزوع اليه في جبلة الانسان وفطرته.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ كأن الضمير في قوله: «به» راجع الى ما يدل على قوله: واحل لكم ما وراء ذلكم «وهو النيل أو ما يؤدي معناه»، فيكون «ما» للتوقيت، وقوله «منهن» متعلقاً بقوله: «استمتعتم» والمعنى: مهما استمتعتم بالنيل منهن فآتوهن اجورهن فريضة.

ويمكن أن يكون ما موصولة، واستمتعتم صلة لها، وضمير به راجعاً الى الموصول وقوله «منهن» بياناً للموصول، والمعنى: ومن استمتعتم به من النساء، الخ.

والجملة أعني قوله: فما استمتعتم، الخ؛ تفريع لما تقدمها من الكلام ـ لمكان الفاء ـ تفريع البعض على الكل أو تفريع الجزئي على الكلي بلا شك فإن ما تقدم من الكلام أعني قوله «أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين» كما تقدم بيانه شامل لما في النكاح وملك اليمين، فتفريع قوله: فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن عليه يكون من تفريع الجزء على الكل أو تفريع بعض الأقسام الجزئية على المقسم الكلي.

وهذا النوع من التفريع كثير الورود في كلامه تعالى كقوله عز من قائل: ﴿أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ الآية (البقرة / ١٨٤) وقوله: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج﴾ الآية (البقرة / ١٩٦) وقوله: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ (البقرة / ٢٥٦) الى غير ذلك.

والمراد بالاستمتاع المذكر في الآية نكاح المتعة بلا شك فإن الآية مدنية نازلة في سورة النساء في النصف الأول من عهد النبي ﷺ بعد الهجرة على ما يشهد به معظم آياتها، وهذا النكاح أعني نكاح المتعة كانت دائرة بينهم معمولة عندهم في هذه البرهة من الزمان من غير شك ـ وقد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك ـ سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرئى من النبي ومسمع منه لا شك فيه. وكان اسمه هذا الاسم ولا يعبر عنه إلا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله «فما استمتعتم به منهن» محمولاً عليه مفهوماً منه هذا المعنى كما أن سائر السنن والعادات والرسوم الدائرة بينهم في عهد النزول بأسمائها المعروفة المعهودة كلما نزلت آية متعرضه لحكم متعلق بشيء من تلك الأسماء بإمضاء أو رد أو أوامر أو نهي لم يكن بد من حمل الأسماء الواردة فيها على معانيها المسماة بها من غير أن تحمل على معانيها اللغوية الأصلية.

وذلك كالحج والبيع والربا والربح والغنيمة وسائر ما هو من هذا القبيل فلم يمكن لأحد أن يدعي أن المراد بحج البيت قصده، وهكذا، كذلك ما أتى به النبي ﷺ من الموضوعات

الشرعية ثم شاع الاستعمال حتى عرفت بأسامیها الشرعية كالصلاة والصوم والزكاة وحج التمتع وغير ذلك لا مجال بعد تحقق التسمية لحمل ألفاظها الواقعة في القرآن الكريم على معانيها اللغوية الأصلية بعد تحقق الحقيقة الشرعية أو المتشرعية فيها.

فمن المتعين أن يحمل الاستمتاع المذكور في الآية على نكاح المتعة لدورانه بهذا الاسم عندهم يوم نزول الآية سواء قلنا بنسخ نكاح المتعة بعد ذلك بكتاب أو سنة أو لم نقل فإنما هو أمر آخر.

وجملة الأمر أن المفهوم من الآية حكم نكاح المتعة، وهو المنقول عن القدماء من مفسري الصحابة والتابعين كابن عباس وابن مسعود وابي بن كعب وقتادة ومجاهد والسدي وابن جبير والحسن وغيرهم، وهو مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، الطول الغنى والزيادة في القدرة، وكلا المعنيين يلائمان الآية، والمراد بالمحصنات الحرائر بقرينة مقابلته بالفتيات، وهذا بعينه يشهد على أن ليس المراد بها العفائف، وإلّا لم تقابل بالفتيات بل بها وبغير العفائف، وليس المراد بها ذوات الازواج اذ لا يقع عليها العقد ولا المسلمات وإلا لاستغنى عن التقييد بالمؤمنات.

والمراد بقوله «فما ملكت أيمانكم» ما ملكته أيمان المؤمنين غير من يريد الازدواج وإلا فتزوج الإنسان بملك يمين نفسه باطل غير مشروع، وقد نسب ملك اليمين الى المؤمنين وفيهم المريد للتزيج بعدّ الجميع واحداً غير مختلف لاتحادهم في الدين، واتحاد مصالحهم ومنافعهم كأنهم شخص واحد.

وفي تقييد المحصنات وكذا الفتيات بالمؤمنات إشارة الى عدم جواز تزوّج غير المؤمنات

---

١. النساء ٢٣ ـ ٢٨: بحث في متعة النساء.

من كتابية ومشركة. ولهذا الكلام تتمة ستمر بك إن شاء الله العزيز في أوائل سورة المائدة.

ومحصل معنى الآية أن من لم يقدر منكم على أن ينكح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته على تحمل أثقال المهر والنفقة فله أن ينكح من الفتيات المؤمنات من غير ان يتحرج من فقدان القدرة على الحرائر، ويعرض نفسه على خطرات الفحشاء ومعترض الشقاء.

فالمراد بهذا النكاح الدائم، والآية في سياق التنزل أي إن لم يمكنكم كذا فيمكنكم كذا، وإنما قصر الكلام في صورة التنزل على بعض أفراد المنزل عنه أعني على النكاح الدائم الذي هو بعض أفراد النكاح الجائز لكون النكاح الجائز لكون النكاح الدائم هو المتعارف المتعين بالطبع في نظر الإنسان المريد تأسيس البيت وإيجاد النسل وتخليف الولد، ونكاح المتعة تسهيل ديني خفف الله به عن عباده لمصلحة سد طريق الفحشاء، وقطع منابت الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لما كان الإيمان المأخوذ في متعلق الحكم أمراً قلبياً لا سبيل الى العلم بحقيقته بحسب الأسباب، وربما أوهم تعليقاً بالمتعذر أو المتعسر، وأوجب تحرج المكلفين منه، بين تعالى أنه هو العالم بإيمان عباده المؤمنين وهو كناية عن أنهم إنما كلفوا الجري على الأسباب الظاهرية الدالة على الإيمان كالشهادتين والدخول في جماعة المسلمين والإتيان بالوظائف العامة الدينية، فظاهر الإيمان هو الملاك دون باطنه.

وفي هداية هؤلاء المكلفين غير المستطيعين الى الازدواج بالإماء نقص وقصور آخر في الوقوع موقع التأثير والقبول، وهو أن عامة الناس يرون لطبة المملوكين من العبيد والإماء هواناً في الأمر وخسة في الشأن ونوع ذلة وانكسار فيوجب ذلك انقباضهم وجماح نفوسهم من الاختلاط بهم والمعاشرة معهم وخاصة بالازدواج الذي هو اشتراك حيوي وامتزاج باللحم والدم.

فأشار سبحانه بقوله: «بعضكم من بعض» الى حقيقة صريحة يندفع بالتأمل فيها هذا

التوهم الفاسد فالرقيق إنسان كما أن الحر إنسان لا يتميزان في ما به يصير الإنسان واجداً لشؤون الإنسانية، وإنما يفترقان بسلسلة من أحكام موضوعة يستقيم بها المجتمع الإنساني في إنتاجه سعادة الناس. ولا عبرة بهذه التميزات عند الله، والذي به العبرة هو التقوى الذي به الكرامة عند الله، فلا ينبغي للمؤمنين أن ينفعلوا عن أمثال هذه الخطرات الوهمية التي تبعدهم عن حقائق المعارف المتضمنة سعادتهم وفلاحهم، فإن الخروج عن مستوى الطريق المستقيم، وإن كان حقيراً في بادي أمره لكنه لا يزال يبعد الإنسان من صراط الهداية حتى يورده أودية الهلكة.

ومن هنا يظهر أن الترتيب الواقع في صدر الآية في صورة الاشتراط والتنزل، أعني قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم﴾، إنما هو جري في الكلام على مجرى الطبع والعادة، وليس إلزاماً للمؤمنين على الترتيب بمعنى أن يتوقف جواز نكاح الأمة على فقدان الإستطاعة على نكاح الحرة بل لكون الناس بحسب طباعهم سالكين هذا المسلك خاطبهم أن لو لم يقدروا على نكاح الحرائر فلهم أن يقدموا على نكاح الفتيات من غير انقباض، ونبه مع ذلك على أن الحر والرق من نوع واحد بعض أفراده يرجع الى بعض.

قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ إلى قوله ﴿أَخْدانٍ﴾ المراد بالمحصنات العفائف فإن ذوات البعولة لا يقع عليهن نكاح، والمراد بالمسافحات ما يقال متخذات الأخدان، والاخدان جمع خدن بكسر الخاء وهو الصديق، يستوى فيه المذكر والمؤنث المفرد والجمع، وإنما اتى به بصيغة الجمع للدلالة على الكثرة نصاً، فمن يأخذ صديقاً للفحشاء لا يقع بالواحد والاثنين فيه لأن النفس لا تقف على حد إذا اطيعت فيما تهواه.

وبالنظر إلى هذه المقابلة قال من قال: إن المراد بالسفاح الزنا جهراً وباتخاذ الخدن الزنا سراً وقد كان اتخاذ الخدن متداولاً عند العرب حتى عند الأحرار والحرائر لا يعاب به مع ذمهم

زنا العلن لغير الإماء.

فقوله: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ إرشاد إلى نكاح الفتيان مشروطاً بأن يكون بإذن مواليهن فإن زمام امرهن إنما هو بيد الموالي لا غير وانما عبر عنهم بقوله ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ جرياً على ما يقتضيه قوله قبل: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ فالفتاة واحدة من اهل بيت مولاها و مولاها أهلها.

والمراد بإتيانهن اجورهن بالمعروف توفيتهن مهور نكاحهن واتيان الأجور إياهن إعطاؤها مواليهن، وقد أرشد إلى الإعطاء بالمعروف عن غير بخس ومماطلة وإذاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قرىء احصن بضم الهمزة بالبناء للمفعول وبفتح الهمزة بالبناء للفاعل، وهو الأرجح.

الإحصان في الآية إن كان هو إحصان الازدواج كان أخذه في الشرط المجرد كون مورد لكلام في ما تقدم ازدواجهن، وذلك أن الأمة تعذب نصف عذاب الحرة اذا زنت سواء كانت محصنة بالازدواج أو لا من غير أن يؤثر الإحصان فيها شيئاً زائداً.

وأما اذا كان إحصان الإسلام كما قيل ـ ويؤيده قراءة فتح الهمزة ـ تم المعنى من غير مؤونة زائدة، وكان عليهن اذا زنين نصف عذاب الحرائر سواء كن ذوات بعولة أو لا.

والمراد بالعذاب هو الجلد دون الرجم لأن الرجم لا يقبل الانتصاف وهو الشاهد على أن المراد بالمحصنات الحرائر غير ذوات الأزواج المذكورة في صدر الآية. واللام للعهد فمعنى الآية بالجملة أن الفتيات المؤمنات اذا أتين بفاحشة وهو الزنا فعليهن نصف حد المحصنات غير ذوات الأزواج، وهو جلد خمسين سوطاً.

ومن الممكن أن يكون المراد بالإحصان إحصان العفة، وتقريره أن الجواري يومئذ لم يكن لهن الاشتغال بكل ما تهواه أنفسهن من الأعمال بما لهن من اتباع أوامر مواليهن وخاصة في

الفاحشة والفجور وكانت الفاحشة فيهن ـ لو اتفقت ـ بأمر من مواليهن في سبيل الاستغلال بهن والاستدرار من عرضهن كما يشعر به النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ (النور / ٣٣). فالتماسهن الفجور واشتغالهن بالفحشاء باتخاذها عادة ومكسباً كان فيما كان يأمر مواليهن من دون أن يسع لهن الاستنكاف والتمرد، واذا لم يكرهن الموالي على الفجور فالمؤمنات منهن على ظاهر تقوى الإسلام، وعفة الإيمان، وحينئذ إن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، وهو قوله تعالى: فاذا احصن فإن أتين بفاحشة، الخ.

ومن هنا يظهر أن لا مفهوم لهذه الشرطية على هذا المعنى وذلك أنهن اذا لم يحصن ولم يعففن كن مكرهات من قبل مواليهن مؤتمرات لأمرهم كما لا مفهوم لقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ (النور / ٣٣) حيث إنهن إن لم يردن التحصن لم يكن موضوع لإكراههن من قبل الموالي لرضاهن بذلك فافهم.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ العنت الجهد والشدة والهلاك، وكأن المراد به الزنا الذي هو نتيجة وقوع الإنسان في مشقة الشبق وجهد شهوة النكاح وفيه هلاك الإنسان. والاشارة على ما قيل: الى نكاح الجواري المذكور في الآية، وعليه فمعنى قوله «وأن تصبروا خير لكم» أن تصبروا عن نكاح الإماء أو عن الزنا خير لكم. ويمكن أن يكون ذلك إشارة الى وجوب نكاح الاماء أو وجوب مطلب النكاح لو استفيد شيء منهما من سابق سياق الآية والله أعلم.

وكيف كان فكون الصبر خيراً إن كان المراد هو الصبر عن نكاح الإماء إنما هو لما فيه من حقوق مواليهن وفي أولادهن على ما فصل في الفقه، وإن كان المراد بالصبر عن الزنا إنما هو لما فيه الصبر من تهذيب النفس وتهيئة ملكة التقوى فيها بترك اتباع هواها في الزنا من غير ازدواج أو معه، والله غفور رحيم يمحو بمغفرته آثار خطرات السوء عن نفوس المتقين من

عباده ويرحمهم برحمته.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ بيان وإشارة الى غاية تشريع ما سبق من الأحكام في الآيات الثلاث والمصالح التي تترتب عليها اذا عمل بها فقوله: يريد الله ليبين لكم أي أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم وعقباكم، وما في ذلك من المعارف والحكم وعلى هذا فمعمول قوله: يبين محذوف للدلالة على فخامة أمره وعظم شأنه، ويمكن أن يكون قوله: يبين لكم، وقوله: ويهديكم متنازعين في قوله؛ سنن الذين.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي طرق حياة السابقين من الأنبياء والامم الصالحة، الجارين في الحياة الدنيا على مرضاة الله، الحائزين به سعادة الدنيا والآخرة، والمراد بسننهم على هذا المعنى سننهم في الجملة لا سننهم بتفاصيلها وجميع خصوصياتها فلا يرد عليه أن من احكامهم ما تنسخه هذه الآيات بعينها كازدواج الإخوة بالاخوات في سنة آدم، والجمع بين الاختين: في سنة يعقوب عليه السلام، وقد جمع عليه السلام بين الاختين ليا ام يهودا وراحيل ام يوسف على ما في بعض الأخبار، هذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة المذكورة هو رجوعه الى عبده بالنعمة والرحمة، وتشريع الشريعة، وبيان الحقيقة، والهداية الى طريق الاستقامة كل ذلك توبة منه سبحانه كما أن قبول توبة العبد ورفع آثار المعصية توبة.

وتذييل الكلام بقوله: والله عليم حكيم ليكون راجعاً الى جميع فقرات الآية، ولو كان المراد رجوعه الى آخر الفقرات لكان الأنسب ظاهراً أن يقال: والله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ﴾ الخ؛ كأن تكرار ذكر توبته للمؤمنين للدلالة على أن قوله: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ إنما يقابل من الفقرات الثلاث في الآية السابقة الفقرة الأخيرة فقط، اذ لو ضم قوله: ويريد الذين، الخ؛ الى الآية السابقة من غير تكرار قوله: والله يريد، الخ؛ أفاد المقابلة في معنى جميع

الفقرات ولغى المعنى قطعاً.

والمراد بالميل العظيم هتك هذه الحدود الإلهية المذكورة في الآيات بإتيان المحارم، وإلغاء تأثير الأنساب والأسباب، واستباحة الزنا والمنع عن الأخذ بما سنه الله من السنة القويمة.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ كون الإنسان ضعيفاً لما ركب الله فيه القوى الشهوية التي لا تزال تنازعه في ما تتعلق به من المشتهيات، وتبعثه الى غشيانها فمن الله عليهم بتشريع حلية ما تنكسر به سورة شهوتهم بتجويز النكاح بما يرتفع به غائلة الحرج حيث قال: ﴿واحل لكم ما وراء ذلكم﴾ وهو النكاح وملك اليمين فهداهم بذلك سنن الذين من قبلهم، وزادهم تخفيفاً منه لهم لتشريع نكاح المتعة اذ ليس معه كلفة النكاح وما يستتبعه من أثقال الوظائف من صداق ونفقة وغير ذلك.

وربما قيل: إن المراد به إباحة نكاح الإماء عند الضرورة تخفيفاً. وفيه لا أن نكاح الإماء عند الضرورة كان معمولاً به بينهم قبل الإسلام على كراهة وذم، والذي ابتدعته هذه الآيات هو التسبب الى نفي هذه الكراهة والنفرة ببيان أن الامة كالحرة إنسان لا تفاوت بينهما، وأن الرقية لا توجب سقوط صاحبها عن لياقة المصاحبة والمعاشرة.

وظاهر الآيات ـ بما لا ينكر ـ أن الخطاب فيها متوجه الى المؤمنين من هذه الامة فالتخفيف المذكور في الآية تخفيف على هذه الامة، والمراد به ما ذكرناه.

وعلى هذا فتعليل التخفيف بقوله: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ مع كونه وصفاً مشتركاً بين جميع الامم ـ هذه الامة والذين من قبلهم ـ وكون التخفيف مخصوصاً بهذه الامة إنما هو من قبيل ذكر المقتضى العام والسكوت عما يتم به في تأثيره فكأنه قيل: إنا خففنا عنكم لكون الضعف العام في نوع الإنسان سبباً مقتضياً للتخفيف لولا المانع لكن لم تزل الموانع تمنع عن فعلية التخفيف وانبساط الرحمة في سائر الامم حتى وصلت النوبة اليكم فعمتكم الرحمة، وظهرت فيكم آثاره فبرز حكم السبب المذكور وشرع فيكم حكم التخفيف وقد حرمت

الامم السابقة من ذلك كما يدل عليه قوله: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ (البقرة / ٢٨٦)، وقوله: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (الحج / ٧٨)[١][٢][٣][٤].

٢٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً.

٣٠ ● وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

بيان:

في الآية شبه اتصال بما سبقتها حيث إنها تتضمن النهي عن أكل المال بالباطل وكانت الآيات السابقة متضمنة للنهي عن أكل مهور النساء بالعضل والتعدي ففي الآيه انتقال من الخصوص الى العموم.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ - الى قوله - مِنْكُمْ﴾ الأكل معروف وهو إنفاد ما يمكن أن يتغذى به التقامه وبلعه مثلاً، ولما فيه من معنى التسلط والإنفاد يقال: أكلت النار الحطب شبه فيه إعدام النار الحطب بإحراقه بإنفاد الآكل الغذاء

---

١. النساء ٢٣ ـ ٢٨: بحث روائي في: الزواج: المحارم.

٢. ٢٣ ـ ٢٨: بحث روائي في متعة النساء.

٣. ٢٣ ـ ٢٨: بحث علمي في رابطة النسب.

٤. ٢٣ ـ ٢٨: بحث علمي في النكاح والزواج؛ قوانين الزواج في الاسلام؛ سبب تحريم الزنا.

بالتناول والبلع، ويقال أيضاً: أكل فلان المال أي تصرف فيه بالتسلط عليه، وذلك بعناية أن العمدة في تصرف الانسان في الأشياء هو التغذي بها لأنه أشد ما يحتاج إليه الإنسان في بقائه وأمسّه منه، ولذلك سمي التصرف أكلاً لكن لا كل تصرف بل التصرف عن تسلط يقطع تسلط الغير على المال بالتملك ونحوه كأنه ينفده ببسط سلطته عليه والتصرف فيه كما ينفد الآكل الغذاء بالأكل.

والباطل من الانفعال ما لا يشتمل على غرض صحيح عقلائي، والتجارة هي التصرف في رأس المال طلباً للربح على ما ذكره الراغب في مفرداته قال: وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ انتهى، فتنطبق على المعاملة بالبيع والشرى.

وفي تقييد قوله: «لا تأكلوا أموالكم» بقوله: «بينكم» الدال على نوع تجمع منهم على المال ووقوعه في وسطهم إشعار أو دلالة بكون الأكل المنهى عنه بنحو إدارته فيما بينهم ونقله من واحد الى آخر بالتعاون والتداول، فتفيد الجملة أعني قوله: لا تأكلوا أموالكم بينكم، بعد تقييدها بقوله: بالباطل النهى عن المعاملات الناقلة التي لا تسوق المجتمع الى سعادته ونجاحه بل تضرها وتجرها الى الفساد والهلاك، وهي المعاملات الباطلة في نظر الدين كالربا والقمار والبيوع الغررية كالبيع بالحصاة والنواة وما أشبه ذلك.

وعلى هذا فالاستثناء الواقع في قوله: إلّا أن تكون تجارة عن تراض منكم، استثناء منقطع جيء به لدفع الدخل فإنه لما نهي عن أكل المال بالباطل ـ ونوع المعاملات الدائرة في المجتمع الفاسد التي يتحقق بها النقل والانتقال المالي كالربويات والغرريات والقمار وأضرابها باطلة بنظر الشرع ـ كان من الجائز أن يتوهم أن ذلك يوجب انهدام أركان المجتمع وتلاشي أجزائها وفيه هلاك الناس فاجيب عن ذلك بذكر نوع معاملة في وسعها أن تنظم شتات المجتمع، وتقيم صلبه، وتحفظه على استقامته، وهي التجارة عن تراض ومعاملة صحيحة رافعة لحاجة المجتمع، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾

(الشعراء / ٨٩) فإنه لما نفى النفع عن المال والبنين يوم القيامة أمكن أن يتوهم أن لا نجاح يومئذ ولا فلاح فإن معظم ما ينتفع به الانسان إنما هو المال والبنون فاذا سقطا عن التأثير لم يبق إلا اليأس والخيبة فأجيب أن هناك أمراً آخر نافعاً كل النفع وإن لم يكن من جنس المال والبنين وهو القلب السليم.

وهذا الذي ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآية وكون قوله: بالباطل قيداً أصلياً في الكلام نظير قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس﴾ (البقرة / ١٨٨) وعلى هذا لا تخصص الآية بسائر المعاملات الصحيحة والامور المشروعة غير التجارة مما يوجب التملك ويبيح التصرف في المال كالهبة والصلح والجعالة وكالإمهار والإرث ونحوها.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهر الجملة أنها نهي عن قتل الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: لا تأكلوا أموالكم بينكم، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحدة لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلت على أن المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الديني المأخوذ كنفس واحدة نفس كل بعض هي نفس الآخر فيكون في مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه ونفس غيره أيضاً نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، وبهذه العناية تكون الجملة أعني قوله: و لا تقتلوا أنفسكم مطلقة تشمل الانتحار ـ الذي هو قتل الإنسان نفسه ـ وقتل الإنسان غيره من المؤمنين.

وربما أمكن أن يستفاد من ديل الآية أعني قوله: إن الله كان بكم رحيماً أن المراد من قتل النفس المنهي عنه ما يشمل إلقاء الإنسان نفسه في مخاطرة القتل والتسبيب الى هلاك نفسه المؤدي الى قتله. وذلك أن تعليل النهي عن قتل النفس بالرحمة لهذا المعنى أوفق وأنسب كما لا يخفى، ويزيد على هذا معنى الآية عموماً واتساعاً، وهذه الملائمة بعينها تؤيد كون قوله: إن الله كان بكم رحيماً تعليلاً لقوله: ولا تقتلوا أنفسكم فقط.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوٰاناً وَظُلْماً﴾ الآية: العدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزاً ممدوحاً أو محظوراً مذموماً قال تعالى: ﴿فلا عدوان إلّا على الظالمين﴾ (البقرة / ١٩٣)، وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة / ٢)، فهو أعم مورداً من الظلم، ومعناه في الآية تعدي الحدود التي حدها الله تعالى، والاصلاء بالنار: الاحراق بها.

وفي الآية من حيث اشتمالها على قوله: «ذلك» التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله ﷺ تلويحاً الى أن من فعل ذلك منهم ـ وهم نفس واحدة والنفس الواحدة لا ينبغي لها أن تريد هلاك نفسها ـ فليس من المؤمنين، فلا يخاطب في مجازاته المؤمنون، وإنما يخاطب فيها الرسول المخاطب في شأن المؤمنين وغيرهم، ولذلك بني الكلام على العموم فقيل: ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه، ولم يقل: ومن يفعل ذلك منكم.

وذيل الآية أعني قوله. وكان ذلك على الله يسيراً يؤيد أن يكون المشار إليه بقوله: ذلك هو النهي عن قتل الأنفس بناء على كون قوله: إن الله بكم رحيماً ناظراً الى تعليل النهي عن القتل فقط لما من المناسبة التامة بين الذيلين، فإن الظاهر أن المعنى هو أن الله تعالى إنما ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمة بكم ورأفة، وإلّا فمجازاته لمن قتل النفس بإصلائه النار عليه يسير غير عسير، ومع ذلك فعود التعليل وكذا التهديد الى مجموع الفقرتين في الآية الاولى أعني النهي عن أكل المال بالباطل والنهي عن قتل النفس لا ضير فيه.

٣١ ● ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ - الى قوله - سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الاجتناب أصله من الجنب وهو الجارحة بني منها الفعل على الاستعارة، فإن الإنسان اذا أراد شيئاً استقبله بوجهه ومقاديم بدنه، واذا أعرض عنه وتركه وليه بجنبه فاجتنبه، فالاجتناب هو الترك. قال الراغب: وهو أبلغ من الترك. انتهى؛ وليس إلّا لأنه مبني على الاستعارة، ومن هذا الباب الجانب والجنبية والأجنبي.

والتكفير من الكفر وهو الستر وقد شاع استعماله في القرآن في العفو عن السيئات والكبائر جمع كبيرة وصف وضع موضع الموصوف كالمعاصي ونحوها، والكبر معنى إضافي لا يتحقق إلّا بالقياس الى صغر، ومن هنا كان المستفاد من قوله: كبائر ما تنهون عنه أن هناك من المعاصي المنهي عنها ما هي صغيرة، فيتبين من الآية: اولاً: أن المعاصي قسمان: صغيرة وكبيرة، وثانياً: أن السيئات هي الصغائر لما فيها من دلالة المقابلة على ذلك.

نعم العصيان والتمرد كيفما كان كبير وأمر عظيم بالنظر الى ضعف المخلوق المربوب في جنب الله عظم سلطانه غير أن القياس في هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان وربه لا بين معصية ومعصية فلا منافاة بين كون معصية كبيرة باعتبار وبين كون بعض المعاصي صغيرة باعتبار آخر.

وكبر المعصية إنما يتحقق بأهمية النهي عنها اذا قيس الى النهي المتعلق بغيرها ولا يخلو قوله تعالى: ما تنهون عنه، من إشعار أو دلالة على ذلك، والدليل على أهمية النهي تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ المدخل بضم الميم وفتح الخاء اسم مكان

والمراد منه الجنة أو مقام القرب من الله سبحانه وإن كان مرجعها واحداً[1].

٣٢ ● وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً.

٣٣ ● وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً.

٣٤ ● اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّٰهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً.

٣٥ ● وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّٰهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

---

١. النساء ٣١: كلام في الكبائر والصغائر وتكفير السيئات.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ التمني قول الانسان: ليت كذا كان كذا، والظاهر أن تسمية القول بذلك من باب توصيف اللفظ بصفة المعنى، وإنما التمني إنشاء نحو تعلق من النفس نظير تعلق الحب بما تراه متعذراً أو كالمتعذر سواء أظهر ذلك بلفظ أو لم يظهر.

وظاهر الآية أنه مسوقة للنهي عن تمني فضل وزيادة موجوده ثابتة بين الناس، وأنه ناش عن تلبس بعض طائفتي الرجال والنساء بهذا الفضل، وأنه ينبغي الإعراض عن التعلق بمن له الفضل، والتعلق بالله بالسؤال من الفضل الذي عنده تعالى، وبهذا يتعين أن المراد بالفضل هو المزية التي رزقها الله تعالى كلاً من طائفتي الرجال والنساء بتشريع الأحكام التي شرعت في خصوص ما يتعلق بالطائفتين كلتيهما كمزية الرجال على النساء في عدد الزوجات، وزيادة السهم في الميراث، ومزية النساء على الرجال في وجوب جعل المهر لهن، ووجوب نفقتهن على الرجال.

فالنهي عن تمني هذه المزية التي اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجرة الشر والفساد من أصلها فإن هذه المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانية لما أودعه الله في النفوس من حبها والسعي لها لعمارة هذه الدار، فيظهر الأمر أولاً في صورة التمني فاذا تكرر تبدل حسداً مستبطناً فاذا أُديم عليه فاستقر في القلب سرى الى مقام العمل والفعل الخارجي ثم اذا انضمن بعض هذه النفوس الى بعض كان ذلك بلوى يفسد الأرض، ويهلك الحرث والنسل.

ومن هنا يظهر أن النهي عن التمني نهي إرشادي يعود مصلحته الى مصلحة حفظ الأحكام المشرعة المذكورة، وليس بنهي مولوي.

وفي نسبة الفضل الى فعل الله سبحانه، والتعبير بقوله: بعضكم على بعض إيقاظ لصفة

الخضوع لأمر الله بإيمانهم به، وغريزة الحب المثارة بالتنبه حتى يتنبه المفضل عليه أن المفضل بعض منه غير مبان.

قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ذكر الراغب: أن الاكتساب إنما يستعمل فيما استفاده الإنسان لنفسه، والكسب أعم مما كان لنفسه أو لغيره، والبيان المتقدم ينتج أن يكون هذه الجملة مبنية للنهي السابق عن التمني وبمنزلة التعليل له أي لا تتمنوا ذلك فإن هذه المزية إنما وجدت عند من يختص بها لأنه اكتسبها بالنفسية التي له أو بعمل بدنه فإن الرجال إنما اختصوا بجواز اتخاذ أربع نسوة مثلاً وحرم ذلك على النساء لأن موقعهم في المجتمع الإنساني موقع يستدعي ذلك دون موقع النساء، وخصوا في الميراث بمثل حظ الانثيين لذلك أيضاً، وكذلك النساء خصصن بنصف سهم الرجل وجعل نفقتهن على الرجال وخصص بالمهر لاستدعاء موقعهن ذلك، وكذلك ما اكتسبته إحدى الطائفتين من المال بتجارة أو طريق آخر هو الموجب للاختصاص، وما الله يريد ظلماً للعباد.

ومن هنا يظهر أن المراد بالاكتساب هو نوع من الحيازة والاختصاص أعم من أن يكون بعمل اختياري كالاكتساب بصنعة أو حرفه أو لا يكون بذلك لكنه ينتهي الى تلبس صاحب الفضل بصفة توجب له ذلك كتلبس الإنسان بذكورية أو أنوثية توجب له سهماً ونصيباً كذا.

وأئمة اللغة وإن ذكروا في الكسب والاكتساب أنهما يختصان بما يحوزه الإنسان بعمل اختياري كالطلب ونحوه لكنهم ذكروا أن الأصل في معنى الكسب هو الجمع، وربما جاز أن يقال: اكتسب فلان بجهاله الشهرة ونحو ذلك، وفسر الاكتساب في الآية بذلك بعض المفسرين، وليس من البعيد أن يكون الاكتساب في الآية مستعملاً فيما ذكر من المعنى على سبيل التشبيه والاستعارة.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، الإنعام على الغير بشيء مما عند المنعم لما

كان غالباً بما هو زائد لا حاجة للمنعم إليه سمي فضلاً، ولما صرف الله تعالى وجوه الناس عن العناية بما أُوتي أرباب الفضل من الفضل والرغبة فيه، وكان حب المزايا الحيوية بل التفرد بها والتقدم فيها والاستعلاء من فطريات الإنسان لا يسلب عنه حيناً صرفهم تعالى الى نفسه، ووجه وجوههم نحو فضله، وأمره أن يعرضوا عما في أيدي الناس، ويقبلوا الى جنابه، ويسألوا من فضله فإن الفضل بيد الله، وهو الذي أعطى كل ذي فضل فضله فله أن يعطيكم ما تزيدون به وتفضلون بذلك على غيركم ممن ترغبون فيما عنده، وتتمنون ما أُعطيه.

وقد أُبهم هذا الفضل الذي يجب أن يسأل منه بدخول لفظة «من» عليه، وفيه من الفائدة أولاً: التعليم بأدب الدعاء والمسألة من جنابه تعالى فإن الأليق بالانسان المبني على الجهل بما ينفعه ويضره بحسب الواقع اذا سأل ربه العالم بحقيقة ما ينفع خلقه وما يضرهم، القادر على كل شيء أن يسأله الخير فيما تتوق نفسه إليه، ولا يطنب في تشخيص ما يسأله منه وتعيين الطريق الى وصوله، فكثيراً ما رأينا من كانت تتوق نفسه الى حاجة من الحوائج الخاصة كمال أو ولد أو جاه ومنزلة أو صحة وعافية وكان يلح في الدعاء والمسألة لأجلها لا يريد سواها ثم لما استجيب دعاؤه، وأُعطي مسألته كان في ذلك هلاكه وخيبة سعيه في الحياة.

وثانياً: الإشارة الى أن يكون المسؤول ما لا يبطل به الحكمة الإلهية في هذا الفضل الذي قرره الله تعالى بتشريع أو تكوين، فمن الواجب أن يسألوا شيئاً من فضل الله الذي اختص به غيرهم فلو سأل الرجال ما للنساء من الفضل أو بالعكس ثم أعطاهم الله ذلك بطلت الحكمة وفسدت الأحكام والقوانين المشرعة فافهم.

فينبغي للإنسان اذا دعا الله سبحانه عندما ضاقت نفسه لحاجة أن لا يسأله ما في أيدي الناس مما يرفع حاجته بل يسأله مما عنده واذا سأله مما عنده أن لا يعلم لربه الخبير بحاله طريق الوصول الى حاجته بل يسأله أن يرفع حاجته بما يعلمه خيراً من عنده.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فتعليل للنهي في صدر الآية أي

لا تتمنوا ما أعطاه الله من فضله من أعطاء إن الله بكل شيء عليم لا يجهل طريق المصلحة ولا يخطىء في حكمه[1].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية؛ الموالي جمع مولى، وهو الولي وإن كثر استعماله في بعض المصاديق من الولاية كالمولى لسيد العبد لولايته عليه، والمولى للناصر لولايته على أمر المنصور، والمولى لابن العم لولايته على نكاح بنت عمه، ولا يبعد أن يكون في الأصل مصدراً ميمياً أو اسم مكان اريد به الشخص المتلبس به بوجه كما نطلق اليوم الحكومة والمحكمة ونريد بها الحاكم.

والعقد مقابل الحل، واليمين مقابل اليسار، واليمين اليد اليمنى، واليمين الحلف وله غير ذلك من المعاني.

ووقوع الآية مع قوله قبل: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، في سياق واحد، واشتمالها على التوصية بإعطاء كل ذي نصيب نصيبه، وأن الله جعل لكل موالي مما ترك الوالدان والأقربون يؤيد أن تكون الآية أعني قوله: ولكل جعلنا، الخ؛ بضميمة الآية السابقة تلخيصاً للأحكام والأوامر التي في آيات الإرث، ووصية إجمالية لما فيها من الشرائع التفصيلية كما كان قوله قبل آيات الإرث: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، الآية؛ تشريعاً إجمالياً كضرب القاعدة في باب الإرث تعود إليه تفاصيل أحكام الإرث.

ولازم ذلك أن ينطبق من اجمل ذكره من الوراث والمورثين على من ذكر منهم تفصيلاً في آيات الإرث، فالمراد بالموالي جميع من ذكر وارثاً فيها من الأولاد والأبوين والإخوة والأخوات وغيرهم.

والمراد بالأصناف الثلاث المذكورين في الآية بقوله: الوالدات والأقربون والذين عقدت

---

١. النساء ٣٢ـ٣٥: كلام في حقيقة قرآنية.

أيمانكم الأصناف المذكورة في آيات الإرث، وهم ثلاثة: الوالدان والأقربون والزوجان فينطبق قوله: الذين عقدت أيمانكم على الزوج والزوجة.

فقوله: «ولكل» أي ولكل واحد منكم ذكراً أو انثى، جعلنا موالي أي أولياء في الوراثة يرثون ما تركتم من المال، وقوله مما ترك، من فيه للابتداء متعلق بالموالي كأن الولاية نشأت من المال، أو متعلق بمحذوف أي يرثون أو يؤتون مما ترك، وما ترك هو المال الذي تركه الميت المورث الذي هو الوالدان والأقربون نسباً والزوج والزوجة.

وإطلاق «الذين عقدت أيمانكم» على الزوج والزوجة إطلاق كنائي فقد كان دأبهم في المعاقدات والمعاهدات أن يصافحوا فكأن أيمانهم التي يصافحون بها هي التي عقدت العقود، وأبرمت العهود فالمراد: الذين أوجدتم بالعقد سببية الازدواج بينكم وبينهم.

وقوله: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الضمير للموالي، والمراد بالنصيب ما بين في آيات الإرث، والفاء للتفريع، والجملة متفرعة على قوله تعالى: ولكل جعلنا موالي، ثم أكد حكمه بإيتاء نصيبهم بقوله: إن الله كان على كل شيء شهيداً.

وهذا الذي ذكرناه من معنى الآيه أقرب المعاني التي ذكروها في تفسيرها، وربما ذكروا أن المراد بالموالي العصبة دون الورثة الذين هم أولى بالميراث، ولا دليل عليه من جهة اللفظ بخلاف الورثة.

قوله تعالى: ﴿أَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ القيم هو الذي يقوم بأمر غيره، والقوام والقيام مبالغة منه.

والمراد بما فضل الله بعضهم على بعض هو ما يفضل ويزيد فيه الرجال بحسب الطبع على النساء، وهو زيادة قوة التعقل فيهم، وما يتفرع عليه من شدة البأس والقوة والطاقة على الشدائد من الأعمال ونحوها فإن حياة النساء حياة إحساسية عاطفية مبنية على الرقة

واللطافة، والمراد بما أنفقوا من أموالهم ما أنفقوه في مهورهن ونفقاتهن.

وعموم هذه العلة يعطي أن الحكم المبني عليها أعني قوله: «الرجال قوامون على النساء» غير مقصور على الأزواج بأن يختص القوامية بالرجل على زوجته بل الحكم مجعول لقبيل الرجال على قبيل النساء في الجهات العامة التي ترتبط بها حياة القبيلين جميعاً فالجهات العامة الاجتماعية التي ترتبط بفضل الرجال كجهتي الحكومة والقضاء مثلا الذين يتوقف عليهما حياة المجتمع، وإنما يقومان بالتعقل الذي هو في الرجال بالطبع أزيد منه في النساء، وكذا الدفاع الحربي الذي يرتبط بالشدة وقوة التعقل كل ذلك مما يقوم به الرجال على النساء.

وعلى هذا فقوله: الرجال قوامون على النساء ذو إطلاق تام، وأما قوله بعد: فالصالحات قانتات، الخ؛ الظاهر في الاختصاص بما بين الرجل وزوجته على ما سيأتي فهو فرع من فروع هذا الحكم المطلق وجزئي من جزئياته مستخرج منه من غير أن يتقيد به إطلاقه.

قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ المراد بالصلاح معناه اللغوي، وهو ما يعبر عنه بلياقة النفس. والقنوت هو دوام الطاعة والخضوع.

ومقابلتها لقوله: واللاتي تخافون نشوزهن، الخ؛ تفيد أن المراد بالصالحات الزوجات الصالحات، وأن هذا الحكم مضروب على النساء في حال الازدواج لا مطلقاً، وأن قوله: قانتات حافظات ـ الذي هو إعطاء للأمر في صورة التوصيف أي ليقنتن وليحفظن ـ حكم مربوط بشؤون الزوجية والمعاشرة المنزلية، وهذا مع ذلك حكم ينبع في سعته وضيقه علته أعني قيمومة الرجل على المرأة قيمومة زوجية فعليها أن تقنت له وتحفظه فيما يرجع الى ما بينهما من شؤون الزوجية.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾، النشوز العصيان والاستكبار عن الطاعة، والمراد بخوف النشوز ظهور آياته وعلائمه، ولعل التفريع على خوف

النشوز دون نفسه لمراعاة حال العظة من بين العلاجات الثلاث المذكورة فإن الوعظ كما أن له محلاً مع تحقق العصيان كذلك له محل مع بدو آثار العصيان وعلائمه.

والامور الثلاثة أعني ما يدل عليه قوله: «فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن» وان ذكرت معاً وعطف بعضها على بعض بالواو فهي امور مترتبة تدريجية: فالموعظة، فإن لم تنجح فالهجرة، فإن لم تنفع فالضرب؛ ويدل على كون المراد بها التدريج فيها أنها بحسب الطبع وسائر للزجر مختلفة آخذة من الضعف الى الشدة بحسب الترتيب المأخوذ في الكلام، فالترتيب مفهوم من السياق دون الواو.

وظاهر قوله: واهجروهن في المضاجع أن تكون الهجرة مع حفظ المضاجعة كالاستدبار وترك الملاعبة ونحوها، وإن أمكن أن يراد بمثل الكلام ترك المضاجعة لكنه بعيد، وربما تأيد المعنى الأول بإتيان المضاجع بلفظ الجمع فإن المعنى الثاني لا حاجة فيه الى إفادة كثرة المضجع ظاهراً.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ الخ؛ أي لا تتخذوا عليهن علة تعتلون بها في إيذائهن من إطاعتهن لكم، ثم علل هذا النهي بقوله: إن الله كان علياً كبيراً، وهو إيذان لهم أن مقام ربهم على كبير فلا يغرنهم ما يجدونه من القوة والشدة في أنفسهم فيظلموهن بالاستعلاء والاستكبار عليهن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا﴾، الشقاق البينونة والعداوة، وقد قرر الله سبحانه بعث الحكمين ليكون أبعد من الجور والتحكم، وقوله: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ أي إن يرد الزوجان نوعاً من الإصلاح من غير عناد ولجاج في الاختلاف، فإن سلب الاختيار من أنفسهما وإلقاء زمام الأمر الى الحكمين المرضيين يوجب وفاق البين[1].

---

١. النساء ٣٢ ـ ٣٥: كلام في معنى قيمومة الرجال على النساء.

٣٦ • وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبىٰ وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتالاً فَخُوراً.

٣٧ • أَلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً.

٣٨ • وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً.

٣٩ • وَماذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً.

٤٠ • إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً.

٤١ • فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاءِ شَهِيداً.

٤٢ • يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ هذا هو التوحيد غير أن المراد به التوحيد العملي، وهو إتيان الأعمال الحسنة ـ ومنها الإحسان الذي هو مورد الكلام ـ طلباً لمرضاة الله وابتغاء لثواب الآخرة دون اتباع الهوى والشرك به.

والدليل على ذلك أنه تعالى عقب هذا الكلام أعني قوله: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وعلله بقوله: إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، وذكر أنه البخيل بماله والمنفق لرئاء الناس، فهم الذين يشركون بالله ولا يعبدونه وحده، ثم قال: وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا، وظهر بذلك أن شركهم عدم إيمانهم باليوم الآخر. وقال تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦)، فبين أن الضلال باتباع الهوى ـ وكل شرك ضلال ـ إنما هو بنسيان يوم الحساب، ثم قال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ (الجاثية / ٢٣) فبين أن اتباع الهوى عبادة له وشرك به.

فتبين بذلك كله أن التوحيد العملي أن يعمل الإنسان ابتغاء مثوبة الله وهو على ذكر من يوم الحساب الذي فيه ظهور المثوبات والعقوبات، وأن الشرك في العمل أن ينسى اليوم الآخر ـ ولو آمن به لم ينسه ـ وأن يعمل عمله لا لطلب مثوبة بل لما يزينه له هواه من التعلق بالمال أو حمد الناس ونحو ذلك، فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربه، وأشرك به.

فالمراد بعبادة الله والإخلاص له أن يكون طلباً لمرضاته، وابتغاء لمثوبته لا لاتباع الهوى.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ـ إلى قوله ـ أَيْمَانُكُمْ﴾ الظاهر أن قوله: إحساناً مفعول مطلق لفعل مقدر، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، والإحسان يتعدى بالباء والى

معاً يقال: أحسنت به وأحسنت إليه، وقوله: وبذي القربى، هو وما بعده معطوف على الوالدين، وذو القربى القرابة، وقوله: والجار ذي القربى والجار الجنب قرينة المقابلة في الوصف تعطي أن يكون المراد بالجار ذي القربى الجار القريب داراً، وبالجار الجنب ـ وهو الأجنبي ـ الجار البعيد داراً، وقد روي عن النبي ﷺ: تحديد الجوار بأربعين ذراعاً، وفي رواية: أربعون داراً، ولعل الروايتين ناظرتان الى الجار ذي القربى والجار الجنب.

وقوله: والصاحب بالجنب هو الذي يصاحبك ملازماً لجنبك، وهو بمفهومه يعم مصاحب السفر من رفقة الطريق ومصاحب الحضر والمنزل وغيرهم، وقوله: وابن السبيل هو الذي لا يعرف من حاله إلّا أنه سالك سبيل كأنه ليس له من ينتسب اليه إلّا السبيل فهو ابنه، وأما كونه فقيراً ذا مسكنة عادماً لزاد أو راحلة فكأنه خارج من مفهوم اللفظ، وقوله: وما ملكت أيمانكم المراد به العبيد والإماء بقرينة عده في عداد من يحسن إليهم، وقد كثر التعبير عنهم بما ملكته الأيمان دون من ملكته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ المختار الناته المتبختر المسخر لخياله، ومنه الخيل للفرس لأنه يتبختر في مشيته، والفخور كثير الفخر، والوصفان أعني الاختيال وكثرة الفخر من لوازم التعلق بالمال والجاه، والإفراط في حبهما، ولذلك لم يكن الله ليحب المختال الفخور لتعلق قلبه بغيره تعالى، وما ذكره تعالى في تفسيره بقوله: الذين يبخلون، الخ؛ وقوله: والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، الخ؛ يبين كون الطائفتين معروضتين للخيلاء والفخر: فالطائفة الاولى متعلقة القلب بالمال، والثانية بالجاه وإن كان بين الجاه والمال تلازم في الجملة.

وكان من طبع الكلام أن يشتغل بذكر أعمالهما من البخل والكتمان وغيرهما لكن بدأ بالوصفين ليدل على السبب في عدم الحب كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الآية؛ أمرهم الناس

بالبخل إنما هو بسيرتهم الفاسدة وعملهم به سواء أمروا به لفظاً أو سكتوا فإن هذه الطائفة لكونهم اولى ثروة ومال يتقرب إليهم الناس ويخضعون لهم لما في طباع الناس من الطبع ففعلهم آمر وزاجر كقولهم، وأما كتمانهم ما آتاهم الله من فضله فهو تظاهرهم الفاقد المعدم للسؤال لتأذيهم من سؤال الناس ما في أيديهم، وخوفهم على أنفسهم لو منعوا وخشيتهم من توجه النفوس الى أموالهم، والمراد بالكافرين الساترون لنعمة الله التي أنعم بها، ومنه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ الخ؛ أي لمراءآتهم، وفي الآية دلالة على أن الرئاء في الإنفاق ـ أو هو مطلقاً ـ شرك بالله كاشف عن عدم الإيمان به لاعتماد المرائي على نفوس الناس واستحسانهم فعله، وشرك من جهة العمل لأن المرائي لا يريد بعمله ثواب الآخرة، وإنما يريده ما يرجوه من نتائج إنفاقه في الدنيا، وعلى أن المرائي قرين الشيطان وساء قريناً.

قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا﴾ الآية؛ استفهام للتأسف أو التعجب، وفي الآية دلالة على أن الاستنكاف عن الإنفاق في سبيل الله ناش من فقدان التلبس بالإيمان بالله وباليوم الآخر حقيقة وإن تلبس به ظاهراً.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ تمهيد لما في الآية التالية من البيان، والأمس لهذه الجملة بحسب المعنى أن تكون حالاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية؛ المثقال هو الزنة، والذرة هو الصغير من النمل الأحمر، أو هو الواحد من البهات المبثوث في الهواء الذي لا يكاد يرى صغراً. وقوله: مثقال ذرة نائب مناب المفعول المطلق أي لا يظلم ظلماً يعدل مثقال ذرة وزناً.

وقوله: وإن تك حسنة، قرىء برفع حسنة وبنصبها فعلى تقدير الرفع كان تامة، وعلى تقدير النصب تقديره: وإن تكن المثقال المذكور حسنة يضاعفها، وتأنيث الضمير في قوله: إن

تك إما من جهة تأنيث الخبر أو لكسب المثقال التأنيث بالإضافة الى ذرة.

والسياق يفيد أن تكون الآية بمنزلة التعليل للاستفهام السابق، والتقدير: ومن الأسف عليهم ان لم يؤمنوا ولم ينفقوا فإنهم لو آمنوا وأنفقوا والله عليهم بهم لم يكن الله ليظلمهم في مثقال ذرة أنفقوها بالإهمال وترك الجزاء، وإن تك حسنة يضاعفها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية؛ قد تقدم بعض الكلام في معنى الشهادة على الأعمال في تفسير قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة / ١٤٣) من الجزء الأول من هذا الكتاب، وسيجيء بعض آخر في محله المناسب له.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ الآية؛ نسبة المعصية الى الرسول يشهد أن المراد بها معصية أوامره ﷺ الصادرة عن مقام ولايته لا معصية الله تعالى في أحكام الشريعة، وقوله: لو تسوى بهم الأرض كناية عن الموت بمعنى بطلان الوجود نظير قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ (النبأ / ٤٠).

وقوله: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ ظاهر السياق أنه معطوف على موضع قوله: يود الذين كفروا وفائدته الدلالة بوجه على ما يعلل به تمنيهم الموت، وهو أنهم بارزون يومئذ لله لا يخفى عليه منهم شيء لظهور حالهم عليه تعالى بحضور أعمالهم، وشهادة أعضائهم وشهادة الأنبياء والملائكة وغيرهم عليهم، والله من ورائهم محيط فيودون عند ذلك أن لو لم يكونوا وليس لهم أن يكتموه تعالى حديثاً مع ما يشاهدون من ظهور مساوي أعمالهم وقبائح أفعالهم.

وأما قوله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ (المجادلة / ١٨) فسيجيء إن شاء الله تعالى أن ذلك إنما هو لإيجاب ملكة الكذب التي حصلوها في الدنيا لا للإخفاء وكتمان الحديث يوم لا يخفى على الله منهم شيء.

٤٣ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلوٰةَ وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ـ الى قوله ـ مَا تَقُولُونَ﴾ المراد بالصلاة المسجد، والدليل عليه قوله: ولا جنباً إلّا عابري سبيل، والمقتضي لهذا التجويز قوله حتى تعلموا ما تقولون اذ لو قيل: لا تقربوا المسجد وأنتم سكارى لم يستقم تعليله بقوله: «حتى تعلموا ماتقولون» أو أفاد التعليل معنى آخر غير مقصود مع أن المقصود إفادة أنكم في حال الصلاة تواجهون مقام العظمة والكبرياء وتخاطبون رب العالمين فلا يصلح لكم أن تسكروا وتبطلوا عقولكم برجس الخمر فلا تعلموا ما تقولون، وهذا المعنى كما ترى ـ يناسب النهي عن اقتراب الصلاة لكن الصلاة لما كانت أكثر ما تقع تقع في المسجد جماعة ـ على السنة ـ وكان من القصد أن تذكر أحكام الجنب في دخوله المسجد أوجز في المقال وسبك الكلام على ما ترى.

وعلى هذا فقوله: حتى تعلموا ما تقولون في مقام التعليل للنهي عن شرب الخمر بحيث يبقى سكرها الى حال دخول الصلاة أي نهيناكم عنه لغاية أن تعلموا ما تقولون وليس غاية للحكم بمعنى أن لا تقربوا الى أن تعلموا ما تقولون فاذا علمتم ما تقولون فلا بأس.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ الى آخر الآية؛ سيأتي الكلام في الآية في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ (المائدة / ٦).

٤٤ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ.

٤٥ ● وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً.

٤٦ ● مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً.

٤٧ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً.

٤٨ ● إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً.

٤٩ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً.

٥٠ ● أُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً.

٥١ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً.

٥٢ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً.

٥٣ ● أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً.

٥٤ ● أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلىٰ ما آتاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.

٥٥ ● فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً.

٥٦ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً.

٥٧ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً.

٥٨ ● إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلىٰ أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّٰهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية؛ قد تقدم في الكلام على الآيات (٣٦ـ٤٢) أنها مرتبطة بعض الارتباط بهذه الآيات، وقد سمعت القول في نزول تلك الآيات في حق اليهود.

وبالجملة يلوح من هذه الآيات أن اليهود كانوا يلقون الى المؤمنين المودة ويظهرون لهم النصح فيفتنونهم بذلك، ويأمرونهم بالبخل والإمساك عن الإنفاق ليمنعوا بذلك سعيهم عن النجاح، وجدهم في التقدم والتعالي، وهذا لازم كون تلك الآيات نازلة في حق اليهود أو في حق من كان يسار اليهود ويصادقهم ثم تنحرف عن الحق بتحريفهم، ويميل الى حيث يميلونه فيبخل ثم يأمر بالبخل.

وهذا هو الذي يستفاد من قوله: ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم، الى آخر الآية.

فمعنى الآيتين ـ والله أعلم ـ أن ما نبينه لكم تصديق ما بيناه لكم من حال الممسك عن الإنفاق في سبيل الله بالاختيال والفخر والبخل والرئاء أنك ترى اليهود الذين اوتوا نصيباً من الكتاب أي حظاً منه لا جميعه كما يدعون لأنفسهم يشترون الضلالة ويختارونه على الهدى، ويريدون أن تضلوا السبيل فإنهم وإن لقوكم ببشر الوجه، وظهروا لكم في زي الصلاح، واتصلوا بكم اتصال الأولياء الناصرين فذكروا لكم ما ربما استحسنته طباعكم، واستصوبته قلوبكم لكنهم ما يريدون إلّا ضلالكم عن السبيل كما اختاروا لأنفسهم الضلالة، والله أعلم منكم بأعدائكم، وهم أعداؤكم فلا يغرنكم ظاهر ما تشاهدون من حالهم فإياكم أن تطيعوا أمرهم أو تصغوا الى أقوالهم المزوقة وإلقاءآتهم المزخرفة وأنتم تقدرون أنهم أولياءكم وأنصاركم، فأنتم لا تحتاجون الى ولايتهم الكاذبة، ونصرتهم المرجوة وكفى بالله ولياً، وكفى

بالله نصيراً؛ فأي حاجة مع ولايته ونصرته الى ولايتهم ونصرتهم.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ـ الى قوله ـ فِي الدِّينِ﴾ «من» في قوله: من الذين، بيانية، وهو بيان لقوله في الآية السابقة: الذين اوتوا نصيباً من الكتاب، أو لقوله: بأعدائكم، وربما قيل: إن قوله: من الذين هادوا خبر لمبتدء محذوف وهو الموصوف المحذوف لقوله يحرفون الكلم، والتقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، أو من الذين هادوا من يحرفون؛ قالوا: وحذف الموصوف شائع كقول ذي الرمة:

فظلوا ومنهم دمعه سابق له وآخر يثني دمعه العين بالمهل

يريد: ومنهم قوم دمعه، أو ومنهم من دمعه.

وقد وصف الله تعالى هذه الطائفة بتحريف الكلم عن مواضعه، وذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم والتأخير والإسقاط والزيادة كما ينسب الى التوراة والموجودة، وإما بتفسير ما ورد عن موسى عليه السلام في التوراة وعن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق كما أولوا ما ورد في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بشارات التوراة، ومن قبل أولوا ما رود في المسيح عليه السلام من البشارة، وقالوا: إن الموعود لم يجيء بعد، وهم ينتظرون قدومه الى اليوم.

ومن الممكن أن يكون المراد بتحريف الكلم عن مواضعه ما سيذكره تعالى بقوله: ويقولون سمعنا وعصينا، فتكون هذه الجملة معطوفة على قوله: يحرفون، ويكون المراد حينئذ من تحريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه في غير المحل الذي ينبغي أن يوضع فيه، فقول القائل: سمعنا من حقه أن يوضع في موضع الطاعة فيقال: سمعنا وأطعنا لا أن يقال: سمعنا وعصينا، أو يوضع: سمعنا موضع التهكم والاستهزاء، وكذا قول القائل: اسمع ينبغي أن يقال فيه: اسمع أسمعك الله لا أن يقال: اسمع غير مسمع أي لا أسمعك الله وراعنا، وهو يفيد في لغة اليهود معنى اسم غير مسمع.

وقوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾ أصل اللي الفتل أي يميلون بألسنتهم

فيظهرون الباطل من كلامهم في صورة الحق، والإزراء والإهانة في صور التأدب والاحترام فإن المؤمنين كانوا يخاطبون رسول الله ﷺ حين ما كانوا يكلمونه بقولهم: راعنا يا رسول الله، ومعناه: انظرنا واسمع منا حتى نوفي غرضنا من كلامنا، فاغتنمت اليهود ذلك فكانوا يخاطبون رسول الله ﷺ بقولهم: راعنا وهم يريدون به ما عندهم من المعنى المستهجن غير الحري بمقامه ﷺ فذموا به في هذه الآية، وهو قوله تعالى: «ويحرفون الكلم عن مواضعه» ثم فسره بقوله: «ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع» ثم عطف عليه كعطف التفسير قوله: «وراعنا» ثم ذكر أن هذا الفعال المذموم منهم لي بالألسن، وطعن في الدين فقال: «ليا بألسنتهم وطعناً في الدين» والمصدران في موضع الحال والتقدير: لاوين بألسنتهم، وطاعنين في الدين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا لَكَانَ لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ كون هذا القول منهم وهو مشتمل على أدب الدين، والخضوع للحق خيراً وأقوم مما قالوه (مع اشتماله على اللي والطعن المذمومين ولا خير فيه ولا قوام) مبني على مقايسة الأثر الحق الذي في هذا الكلام الحق على ما يظنونه من الأثر في كلامهم وإن لم يكن له ذلك بحسب الحقيقة، فالمقايسة بين الأثر الحق وبين الأثر المظنون حقاً، والمعنى: أنهم لو قالوا: سمعنا وأطعنا، لكان فيه من الخير والقوام أكثر مما يقدرون في أنفسهم لهذا اللي والطعن فالكلام يجري مجرى قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ (الجمعة / ١١).

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تأييس السامعين من أن تقول اليهود سمعنا وأطعنا فإنه كلمة إيمان وهؤلاء ملعونون لا يوفقون للإيمان، ولذلك قيل: لو أنهم قالوا، الدال على التمني المشعر بالاستحالة.

والظاهر أن الباء في قوله: «بكفرهم» للسببية دون الآية، فإن الكفر يكون أن يزاح

بالإيمان فهو لا يوجب بما هو كفر لعنة تمنع عن الإيمان منعاً قاطعاً لكنهم لما كفروا (وسيشرح الله تعالى في آخر السورة حال كفرهم) لعنهم الله بسبب ذلك لعناً ألزم الكفر عليهم إلزاماً لا يؤمنون بذلك إلّا قليلاً فافهم ذلك.

وأما قوله: فلا يؤمنون إلّا قليلاً فقد قيل: إن «قليلاً» حال، والتقدير: إلّا وهم قليل أي لا يؤمنون إلّا في حال هم قليل، وربما قيل: إن «قليلاً» صفة لموصوف محذوف، والتقدير: فلا يؤمنون إلّا إيماناً قليلاً، وهذا الوجه كسابقه لا بأس به لكن يجب أن يزاد فيه أن اتصاف الإيمان بالقلة إنما هو من قبيل الوصف بحال المتعلق أي إيماناً المؤمن به قليل.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا﴾ الخ: الطمس محو أثر الشيء، والوجه ما يستقبلك من الشيء ويظهر منه، وهو من الانسان الجانب المقدم الظاهر من الرأس وما يستقبلك منه، ويستعمل في الامور المعنوية كما في الامور الحسية، والأدبار جمع دبر بضمتين وهو القفا، والمراد بأصحاب السبت قوم من اليهود كانوا يعدون في السبت فلعنهم الله ومسخهم، قال تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ (الأعراف / ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها﴾ (البقرة / ٦٦).

وقد كانت الآيات السابقة ـ كما عرفت ـ متعرضة لحال اليهود أو لحال طائفة من اليهود، وانجر القول الى أنهم بإزاء ما خانوا الله ورسوله، وأفسدوا صالح دينهم ابتلوا بلعنة من الله لحق جمعهم، وسلبهم التوفيق للإيمان إلا قليلاً فعم الخطاب لجميع أهل الكتاب ـ على ما يفيده قوله: يا أيها الذين اوتوا الكتاب ـ ودعاهم الى الإيمان بالكتاب الذي نزله مصدقاً لما معهم، وأوعدهم بالسخط الذي يلحقهم لو تمردوا واستكبروا من غير عذر من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعاً لا ريب فيه.

وذلك ما ذكره بقوله: من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها، فطمس الوجوه محو هذه الوجوه التي يتوجه بها البشر نحو مقاصدها الحيوية مما فيه سعادة الإنسان المرتقبة والمرجوة لكن لا المحو يوجب فناء الوجوه وزوالها وبطلان آثارها بل محواً يوجب ارتداد تلك الوجوه على أدبارها فهي تقصد مقاصدها على الفطرة التي فطر عليها لكن لما كانت منصوبة الى الاقفية ومردودة على الأدبار لا تقصد إلّا ما خلفته وراءها، ولا تمشي إليه إلّا القهقرى.

وهذا الإنسان ـ وهو بالطبع والفطرة متوجه نحو ما يراه خيراً وسعادة لنفسه ـ كلما توجه الى ما يراه خيراً لنفسه، وصلاحاً لدينه أو لدنياه لم ينل إلّا شراً وفساداً، وكلما بالغ في التقدم زاد في التأخر، وليس يفلح أبداً.

وأما لعنهم كلعن أصحاب السبت فظاهره المسخ على ما تقدم من آيات أصحاب السبت التي تخبر عن مسخهم قردة.

وعلى هذا فلفظة «أو» في قوله: أو نلعنهم، على ظاهرها من إفادة الترديد، والفرق بين الوعيدين أن الأول أعني الطمس يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقة إلا في بعض كيفياتها، والثاني أعني اللعن كلعن أصحاب السبت يوجب تغيير المقصد بتغيير الخلقة الإنسانية الى خلقة حيوانية كالقردة.

فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال ـ وسوف يتمردون على ما تفيده خاتمة الآية ـ كان لهم إحدى سخطتين: إما طمس الوجوه، وإما اللعن كلعن أصحاب السبت لكن الآية تدل على أن هذه السخطة لا تعمهم جميعهم حيث قال. «وجوهاً» فأتى بالجمع المنكر، ولو كان هو الجميع لم ينكر، ولتنكير الوجوه وعدم تعيينه نكتة اخرى هي أن المقام لما كان مقام الإيعاد والتهديد، وهو إيعاد للجماعة بشر لا يلحق إلّا ببعضهم كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار والتخويف لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل

واحد واحد من القوم فلا يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب البئيس، وهذه الصناعة شائعة في اللسان في مقام التهديد والتخويف.

وفي قوله تعالى: أو نلعنهم، حيث أرجع فيه ضمير «هم» الموضوع لاولي العقل الى قوله: «وجوهاً» كما هو الظاهر تلويحاً أو تصريحاً بأن المراد بالوجوه الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم، وبذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه وردها على أدبارها تحويل وجوه الأبدان الى الأقفية كما قال به بعضهم، ويقوى بذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه الى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامة الفكر، وإدراك الواقعيات على واقعياتها الى حال الاعوجاج والانحطاط الفكري بحيث لا يشاهد حقاً إلّا أعرض عنه واشمأز منه، ولا باطلاً إلّا مال إليه وتولع به.

وهذا نوع من التصرف الإلهي مقتاً ونقمة نظير ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ (الأنعام / ١١٠).

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه في الآية نوع تصرف إلهي في النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعة الحق وتجنب الباطل الى اتباع الباطل والاحتراز عن الحق في باب الإيمان بالله وآياته كما يؤيده صدر الآية: آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس، الخ؛ وكذا تبين أن المراد باللعن المذكور فيها المسخ.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ إشارة الى أن الأمر لا محالة واقع، وقد وقع على ما ذكره الله في كتابه من لعنهم وإنزال السخط عليهم، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة، وغير ذلك من آيات كثيرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ظاهر السياق أن الآية في مقام التعليل للحكم المذكور في الآية السابقة أعني قوله: آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس، الخ؛ فيعود المعنى الى مثل قولنا: فإنكم إن لم تؤمنوا

به كنتم بذلك مشركين، والله لا يغفر أن يشرك به فيحل عليكم غضبه وعقوبته فيطمس وجوهكم بردها على أدبارها أو يلعنكم فنتيجة عدم المغفرة هذه ترتب آثار الشرك الدنيوية من طمس أو لعن عليه.

وهذا هو الفرق بين مضمون هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً﴾ (النساء / ١١٦)، فإن هذه الآية (آية ٤٨)، تهدد بآثار الشرك الدينوية، وتلك (آية ١١٦)، تهدد بآثاره الاخروية، وذلك بحسب الانطباق على المورد وإن كانتا بحسب الإطلاق كلتاهما شاملتين لجميع الآثار.

ومغفرته سبحانه وعدم مغفرته لا يقع شيء منهما وقوعاً جزافياً بل على وفق الحكمة، وهو العزيز الحكيم؛ فأما عدم مغفرته للشرك فإن الخلقة إنما تثبت على ما فيها من الرحمة على أساس العبودية والربوبية، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾ (الذاريات / ٥٦)، ولا عبودية مع شرك؛ وأما مغفرته لسائر المعاصي والذنوب التي دون الشرك فشفاعة من جعل له الشفاعة من الأنبياء والأولياء والملائكة والأعمال الصالحة على ما مر تفصيله في بحث الشفاعة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وأما التوبة فالآية غير متعرضة لشأنها من حيث خصوص مورد الآية لأن موردها عدم الإيمان ولا توبة معه، على أن التوبة يغفر معها جميع الذنوب حتى الشرك، قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم﴾ (الزمر / ٥٤).

والمراد بالشرك في الآية ما يعم الكفر لا محالة فإن الكافر أيضاً لا يغفر له البتة وإن لم يصدق عليه المشرك بعنوان التسمية بناء على أن أهل الكتاب لا يسمون في القرآن مشركين وإن كان كفرهم بالقرآن وبما جاء به النبي شركاً منهم أشركوا به (راجع تفسير آية ٢٢١ من البقرة)، واذا لم يؤمن أهل الكتاب بما نزل الله مصدقاً لما معهم فقد كفروا به، وأشركوا ما في

أيديهم بالله سبحانه فإنه شيء لا يريده الله على الصفة التي أخذوه بها فالمؤمن بموسى عليه السلام اذا كفر بالمسيح عليه السلام فقد كفر بالله وأشرك به موسى؛ ولعل ما ذكرناه هو النكتة لقوله تعالى: أن يشرك به دون أن يقول: المشرك أو المشركين.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تقييد للكلام لدفع توهم أن لأحد من الناس تأثيراً فيه تعالى يوجب به عليه المغفرة فيحكم عليه تعالى حاكم أو يقهره قاهر، وتعليق الامور الثابتة في القرآن على المشيئة كثير والوجه في كلها أو جلها دفع ما ذكرناه من التوهم كقوله تعالى: ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ (هود / ١٠٨).

على أن من الحكمة أن لا يغفر لكل مذنب ذنبه وإلّا لغى الأمر والنهي، وبطل التشريع، وفسد أمر التربية الإلهية، وإليه الإشارة بقوله: لمن يشاء، ومن هنا يظهر أن كل واحد من المعاصي لابد أن لا يغفر بعض أفراده وإلّا لغى النهي عنه، وهذا لا ينافي عموم لسان آيات أسباب المغفرة فإن الكلام في الوقوع دون الوعد على وجه الإطلاق، ومن المعاصي ما يصدر عمن لا يغفر له بشرك ونحوه.

فمعنى الآية أنه تعالى لا يغفر الشرك من كافر ولا مشرك، ويغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعة شافع من عباده أو عمل صالح، وليس هو تعالى مقهوراً أن يغفر كل ذنب من هذه الذنوب لكل مذنب بل له أن يغفر وله أن لا يغفر؛ كل ذلك لحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ قال الراغب: أصل الزكاة النمو الحاصل من بركة الله تعالى ـ إلى أن قال ـ: وتزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما: بالفعل وهو محمود، وإليه قصد بقوله: قد أفلح من تزكى، والثاني بالقول كتزكيته لعدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه،، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: لا تزكوا أنفسكم، ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلاً وشرعاً. ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن

كان حقاً؟ فقال: مدح الرجل نفسه، انتهى كلامه.

ولما كانت الآية في ضمن الآيات المسرودة للتعرض لحال أهل الكتاب الظاهر أن هؤلاء المزكين لأنفسهم هم أهل الكتاب أو بعضهم، ولم يوصفوا بأهل الكتاب لأن العلماء بالله وآياته لا ينبغي لهم أن يتلبسوا بأمثال هذه الرذائل فالإصرار عليها انسلاخ عن الكتاب وعلمه.

ويؤيده ما حكاه الله تعالى عن اليهود من قوله: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ (المائدة / ١٨) وقولهم: ﴿لن تمسنا النار إلّا أياماً معدودة﴾ (البقرة / ٨٠) وزعمهم الولاية كما في قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس﴾ (الجمعة / ٦)، فالآية تكني عن اليهود، وفيها استشهاد لما تقدم ذكره في الآيات السابقة من استكبارهم عن الخضوع للحق واتباعه، والإيمان بآيات الله سبحانه، واستقرار اللعن الإلهي فيهم، وأن ذلك من لوازم إعجابهم بأنفسهم وتزكيتهم لها.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ إضراب عن تزكيتهم لأنفسهم، ورد لهم فيما زكوه، وبيان أن ذلك من شؤون الربوبية يختص به تعالى فإن الإنسان وإن أمكن أن يتصف بفضائل، ويتلبس بأنواع الشرف والسودد المعنوي غير أن اعتناءه بذلك واعتماده عليه لا يتم إلّا بإعطائه لنفسه استغناء واستقلالاً وهو في معنى دعوى الالوهية والشركة مع رب العالمين، وأين الانسان الفقير الذي لا يملك لنفسه ضراً أو نفعاً ولا موتاً ولا حياة والاستغناء عن الله سبحانه في خير أو فضيلة؟ والإنسان في نفسه وفي جميع شؤون نفسه، والخير الذي يزعم أنه يملكه، وجميع أسباب ذلك الخير، مملوك لله سبحانه محضاً من غير استثناء، فماذا يبقى للإنسان؟

وهذا الغرور والإعجاب الذي يبعث الإنسان الى تزكية نفسه هو العجب الذي هو من أمهات الرذائل، ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره فيتولد

من رذيلته هذه رذيله اخرى، وهي رذيلة التكبر ويتم تكبره في صورة الاستعلاء على غيره من عباد الله فيستعبد به عباد الله سبحانه، ويجري به كل ظلم وبغي بغير حق وهتك محارم الله وبسط السلطة على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم.

وهذا كله اذا كان الوصف وصفاً فردياً وأما اذا تعدى الفرد وصار خلقاً اجتماعياً وسيرة قومية فهو الخطر الذي في هلاك النوع وفساد الأرض، وهو الذي يحكيه تعالى عن اليهود اذ قالوا: ﴿ليس علينا في الاميين سبيل﴾ (آل عمران / ٧٥).

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيلة ما يمدحها به سواء كان صادقاً فيما يقول أو كاذباً لأنه لا يملك ذلك لنفسه لكن الله سبحانه لما كان هو المالك لما ملكه، والمعطي الفضل لمن يشاء وكيف يشاء كان له أن يزكي من شاء تزكية عملية بإعطاء الفضل وإفاضة النعمة، وأن يزكي من يشاء تزكية قولية يذكره بما يمتدح به، ويشرفه بصفات الكمال كقوله في آدم ونوح: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ (آل عمران / ٢٣)، وقوله في إبراهيم وإدريس: ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ (مريم / ٤١، ٥٦)، وقوله في يعقوب: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ (يوسف / ٦٨)، وقوله في يوسف: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ (يوسف / ٢٤)، وقوله في حق موسى: ﴿إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم / ٥١)، وقوله في حق عيسى: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ (آل عمران / ٤٥)، وقوله في سليمان وأيوب: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ (ص / ٣٠، ٤٤)، وقوله في محمد ﷺ: ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ (الأعراف / ١٩٦)، وقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم / ٤)، وكذا قوله تعالى في حق عدة من الأنبياء ذكرهم في سور الأنعام ومريم والأنبياء والصافات وص وغيرها.

وبالجملة فالتزكية لله سبحانه حق لا يشاركه فيه غيره اذ لا يصدر عن غيره إلّا من ظلم والى ظلم، ولا يصدر عنه تعالى إلّا حقاً وعدلاً يقدر بقدره لا يفرط ولا يفرّط. ولذا ذيل

قوله: بل الله يزكي من يشاء بقوله ـ وهو في معنى التعليل ـ: ولا يظلمون فتيلاً.

وقد تبين مما مر أن تزكيته تعالى وإن كانت مطلقة تشمل التزكية العملية والتزكية القولية لكنها تنطبق بحسب مورد الكلام على التزكية القولية.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ الفتيل فعيل بمعنى المفعول من الفتل وهو اللي قيل: المراد به ما يكون في شق النواة، وقيل: هو ما في بطن النواة، وقد ورد في روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: أنه النقطة التي على النواة. والنقير ما في ظهرها. والقطمير قشرها، وقيل: هو ما فتلته بين إصبعيك من الوسخ، وكيف كان هو كناية عن الشيء الحقير الذي لا يعتد به.

وقد بان بالآية الشريفة أمران: أحدهما: أن ليس لصاحب الفضل أن يعجبه فضله ويمدح نفسه بل هو مما يختص به تعالى فإن ظاهر الآية أن الله يختص به أن يزكي كل من جاز أن يتلبس بالتزكية فليس لغير صاحب الفضل أيضاً أن يزكيه إلّا بما زكاه الله به، وينتج ذلك أن الفضائل هي التي مدحها الله وزكاها فلا قدر لفضل لا يعرفه الدين ولا يسميه فضلا، ولا يستلزم ذلك أن تبطل آثار الفضائل عند الناس فلا يعرفوا لصاحب الفضل فضله، ولا يعظموا قدره بل هي شعائر الله وعلائمه، وقد قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ (الحج / ٣٢)، فعلى الجاهل أن يخضع للعالم ويعرف له قدره فإنه من اتباع الحق وقد قال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر / ٩)، وإن لم يكن للعالم أن يتبجح بعلمه ويمدح نفسه، والأمر في جميع الفضائل الحقيقية الإنسانية على هذا الحال.

وثانيهما: أن ما ذكره بعض باحثينا، واتبعوا في ذلك ما ذكره المغاربة أن من الفضائل الإنسانية الاعتماد بالنفس أمر لا يعرفه الدين، ولا يوافق مذاق القرآن، والذي يراه القرآن في ذلك هو الاعتماد بالله والتعزز بالله قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم

فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران / ١٧٣)، وقال: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقال: ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ (يونس / ٦٥)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أُنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ الخ؛ فتزكيتهم أنفسهم ببنوة الله وحبه وولايته ونحو ذلك افتراء على الله اذ لم يجعل الله لهم ذلك، على أن أصل التزكية افتراء وإن كانت عن صدق فإنه ـ كما تقدم بيانه ـ إسناد شريك الى الله وليس له في ملكه شريك قال تعالى: ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ (الإسراء / ١١١).

وقوله: وكفى به إثماً مبيناً أي لو لم يكن في التزكية إلّا أنه افتراء على الله لكفى في كونه إثماً مبيناً، والتعبير بالإثم ـ وهو الفعل المذموم الذي يمنع الإنسان من نيل الخيرات ويبطئها ـ هو المناسب لهذه المعصيه لكونه من اشراك الشرك وفروعه، يمنع نزول الرحمة، وكذا في شرك الكفر الذي يمنع المغفرة كما وقع في الآية السابقة: ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً بعد قوله: إن الله لا يغفر أن يشرك به.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الجبت والجبس كل ما لا خير فيه، وقيل: وكل ما يعبد من دون الله سبحانه، والطاغوت مصدر في الأصل كالطغيان يستعمل كثيراً بمعنى الفاعل، وقيل: هو كل معبود من دون الله، والآية تكشف عن وقوع واقعة قضى فيها بعض أهل الكتاب للذين كفروا على الذين آمنوا بأن سبيل المشركين أهدى من سبيل المؤمنين، وليس عند المؤمنين إلّا دين التوحيد المنزل في القرآن المصدق لما عندهم، ولا عند المشركين إلّا الإيمان بالجبت والطاغوت فهذا القضاء اعتراف منهم بأن للمشركين نصيباً من الحق، وهو الإيمان بالجبت والطاغوت الذي نسبه الله تعالى إليهم ثم لعنهم الله بقوله: أولئك الذين لعنهم الله، الآية.

وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول أن مشركي مكة طلبوا من أهل الكتاب أن يحكموا

بينهم وبين المؤمنين فيما ينتحلونه من الدين فقضوا لهم على المؤمنين، وسيأتي الرواية في ذلك في البحث الروائي الآتي.

وقد ذكر كونهم ذوي نصيب من الكتاب ليكون أوقع في وقوع الذم واللوم عليهم فإن إيمان علماء الكتاب والطاغوت وقد بين لهم الكتاب أمرهما أشنع وأفظع.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ـ الى قوله ـ نَقِيراً﴾ النقر فعيل بمعنى المفعول وهو المقدار اليسير الذي يأخذه الطير من الأرض بنقر منقاره، وقد مر له معنى آخر في قوله: ولا يظلمون فتيلاً، الآية.

وقد ذكروا أن «أم» في قوله: أم لهم نصيب من الملك، منقطعة والمعنى: بل ألهم نصيب من الملك، والاستفهام إنكاري أي ليس لهم ذلك.

وقد جوز بعضهم أن تكون «أم» متصله، وقال: إن التقدير: أهم أولى بالنبوة أم لهم نصيب من الملك؟ ورد بأن حذف الهمزة إنما يجوز في ضرورة الشعر، ولا ضرورة في القرآن، والظاهر أن أم متصلة وأن الشق المحذوف ما يدل عليه الآية السابقة، ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب، الآية؛ والتقدير: ألهم كل ما حكوا به من حكم أم لهم نصيب من الملك أم يحسدون الناس؟ وعلى هذا تستقيم الشقوق وتترتب، ويتصل الكلام في سوقه.

والمراد بالملك هو السلطنة على الامور المادية والمعنوية فيشمل ملك النبوة والولاية والهداية وملك الرقاب والثروة. وذلك أنه هو الظاهر من سياق الجمل السابقة واللاحقة فإن الآية السابقة تومىء الى دعواهم أنهم يملكون القضاء والحكم على المؤمنين، وهو سائغ للملك على الفضائل المعنوية وذيل الآية «فإذن لا يؤتون الناس نقيراً» يدل على ملك الماديات أو ما يشمل ذلك فالمراد به الأعم من ملك الماديات والمعنويات.

فيؤول معنى الآية الى نحو قولنا: أم لهم نصيب من الملك الذي أنعم الله به على نبيه بالنبوة والولاية والهداية ونحوه، ولو كان لهم ذلك لم يؤتوا الناس أقل القليل الذي لا يعتد به لبخلهم

وسوء سريرتهم، فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ (الإسراء / ١٠٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذا آخر الشقوق الثلاثة المذكورة. ووجه الكلام الى اليهود جواباً عن قضائهم على المؤمنين بأن دين المشركين اهدى من دينهم.

والمراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا، وبما آتاهم الله من فضله هو النبوة والكتاب والمعارف الدينية. غير أن ذيل الآية: فقد آتينا آل إبراهيم، الخ؛ يدل على أن هذا الذي اطلق عليه الناس من آل إبراهيم، فالمراد بالناس حينئذ هو النبي ﷺ، وما انبسط على غيره من هذا الفضل المذكور في الآية فهو من طريقه وببركاته العالية، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم﴾ الآية (آل عمران / ٣٣)، أن آل إبراهيم هو النبي وآله.

وإطلاق الناس على المفرد لا ضير فيه فإنه على نحو الكناية كقولك لمن يتعرض لك ويؤذيك: لا تتعرض للناس. ومالك وللناس؟ تريد نفسك أي لا تتعرض لي.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجملة إيناس لهم في حسدهم، وقطع لرجائهم زوال هذه النعمة، وانقطاع هذا الفضل بأن الله قد أعطى آل إبراهيم من فضله ما أعطى، وآتاهم من رحمته ما آتى فليموتوا بغيظهم فلن ينفعهم الحسد شيئاً.

ومن هنا يظهر أن المراد بآل إبراهيم إما النبي وآله من أولاد إسماعيل أو مطلق آل إبراهيم من أولاد إسماعيل وإسحاق حتى يشمل النبي ﷺ الذي هو المحسود عند اليهود بالحقيقة، وليس المراد بآل إبراهيم بني إسرائيل من نسل إبراهيم فإن الكلام على هذا التقدير يعود تقريراً لليهود في حسدهم النبي أو المؤمنين لمكان النبي ﷺ فيهم فيفسد معنى الجملة كما لا يخفى.

وقد ظهر أيضاً كما تقدمت الإشارة اليه أن هذه الجملة: فقد آتينا آل إبراهيم، الخ؛ تدل على أن الناس المحسودين هم من آل إبراهيم، فيتأيد به أن المراد بالناس النبي ﷺ وأما المؤمنون به فليسوا جميعاً من ذرية إبراهيم، ولا كرامة لذريته من المؤمنين على غيرهم حتى يحمل الكلام عليهم، ولا يوجب مجرد الإيمان واتباع ملة إبراهيم تسمية المتبعين بأنهم آل إبراهيم، وكذا قوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾ الآية (آل عمران / ٦٨) لا يوجب تسمية الذين آمنوا بآل إبراهيم لمكان الأولوية فإن في الآية ذكراً من الذين اتبعوا إبراهيم، وليسوا يسمون آل إبراهيم قطعاً، فالمراد بآل إبراهيم النبي أو هو وآله ﷺ وإسماعيل جده ومن في حذوه.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ قد تقدم أن مقتضى السياق أن يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوي الذي منه النبوة والولاية الحقيقية على هداية الناس وإرشادهم ويؤيده أن الله سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوي لو لم ينته الى فضيلة معنوية ومنقبة دينية، ويؤيد ذلك أيضاً أن الله سبحانه لم يعد فيما عده من الفضل في حق آل إبراهيم النبوة والولاية اذ قال: فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، فيقوى أن يكون النبوة والولاية مندرجتين في إطلاق قوله: وآتيناهم ملكاً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ الصد الصرف وقد قوبل الإيمان بالصد لأن اليهود ما كانوا ليقنعوا على مجرد عدم الإيمان بما أُنزل على النبي ﷺ دون أن يبذلوا مبلغ جهدهم في صد الناس عن سبيل الله والإيمان بما نزله من الكتاب، وربما كان الصد بمعنى الإعراض وحينئذ يتم التقابل من غير عناية زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ تهديد لهم بسعير جهنم في مقابل ما صدوا عن الإيمان بالكتاب وسعروا نار الفتنة على النبي ﷺ والذين آمنوا معه.

ثم بين تعالى كفاية جهنم في أمره بقوله: إن الذين كفروا بآياتنا، الى آخر الآية: وهو بيان

في صورة التعليل، ثم عقبه بقوله: والذين آمنوا وعملوا الصالحات، الى آخر الآية؛ ليتبين الفرق بين الطائفتين: من آمن به، ومن صد عنه، ومن يظهر أنهما في قطبين متخالفين من سعادة الحياة الاخرى وشقائها: دخول الجنات وظلها الظليل، وإحاطة سعر جهنم والاصطلاء بالنار ـ أعاذنا الله ـ ومعنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ﴾ الخ؛ الفقرة الثانية من الآية «واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» ظاهرة الارتباط بالآيات السابقة عليها فإن البيان الإلهي فيها يدور حول حكم اليهود للمشركين بأنهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى في أول بيانه بأنهم اوتوا نصيباً من الكتاب والذي في الكتاب هو تبيين آيات الله والمعارف الإلهية، وهي أمانات مأخوذة عليها الميثاق أن تبين للناس، ولا تكتم عن أهله.

وهذا الذي ذكر من القرائن يؤيد أن يكون المراد بالأمانات ما يعم الأمانات المالية وغيرها من المعنويات كالعلوم والمعارف الحقة التي من حقها أن يبلغها حاملوها أهلها من الناس.

وبالجملة لما خانت اليهود الأمانات الإلهية المودعة عندهم من العلم بمعارف التوحيد وآيات نبوة محمد ﷺ فكتموها ولم يظهروها في واجب وقتها، ثم لم يقنعوا بذلك حتى جاروا في الحكم بين المؤمنين والمشركين فحكموا للوثنية على التوحيد فآل أمرهم فيه الى اللعن الإلهي وجر ذلك إياهم الى عذاب السعير فلما كان من أمرهم ما كان، غير سبحانه سياق الكلام من التكلم الى الغيبة فأمر الناس بتأدية الأمانات الى أهلها، وبالعدل في الحكم فقال: إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس، الخ[1].

---

١. النساء ٤٤ ـ ٥٨: بحث روائي في: اليهود؛ السفياني.

وفي الفقيه بإسناده عن ثوير عن أبيه: أن علياً عليه السلام قال: ما في القرآن آية أحب إلى من قوله عزوجل: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

أقول: ورواه في الدر المنثور عن الفريابي والترمذي وحسنه عن علي.

وفي الدر المنثور أخرج ابن جوير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال لما نزلت: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فقام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي صلى الله عليه وآله فقال: إن الله لا يغفر أن يشرك به الآية.

وفيه أخرج ابن المنذر عن أبي مجاز قال: لما نزلت هذه الآية، يا عبادي الذين أسرفوا الآية قام النبي صلى الله عليه وآله على المنبر فتلاها على الناس فقام إليه رجل فقال: والشرك بالله؟ فسكت ـ مرتين أو ثلاثاً ـ فنزلت هذه الآية: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فاثبتت هذه في الزمر، واثبتت هذه في النساء.

أقول: وقد عرفت فيما تقدم أن آية الزمر ظاهرة بحسب ما تتعقبه من الآيات في المغفرة بالتوبة، ولا ريب أن التوبة يغفر معها كل ذنب حتى الشرك، وأن آية النساء موردها غير مورد التوبة فلا تنافي بين الآيتين مضموناً حتى تكون إحداهما ناسخة أو مخصصة للاخرى.

وفي المجمع عن الكلبي في الآية: نزلت في المشركين وحشي وأصحابه، وذلك أنه لما قتل حمزة، وكان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا قد ندمنا على الذي صنعناه، وليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآيتان، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر، وقتلنا النفس التي حرم الله، وزنينا، فلولا هذه لاتبعناك فنزلت الآية: إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وآله إلى وحشي وأصحابه، فلما قرأها كتبوا إليه: أن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: إن الله لا يغفر الآية فبعث بها

إليهم فقرؤوها فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً فبعث بها إليهم فلما قرؤوها دخل هو وأصحابه في الإسلام، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب شخصك عني فلحق وحشي: بعد ذلك بالشام. وكان بها إلى أن مات.

اقول: وقد ذكر هذه الرواية الرازي في تفسيره عن ابن عباس والتأمل في موارد هذه الآيات التي تذكر الرواية أن رسول الله ﷺ كان يراجع بها وحشياً لا يدع للمتأمل شكاً في أن الرواية موضوعة قد أراد واضعها أن يقدر أن وحشياً وأصحابه مغفور لهم وإن ارتكبوا من المعاصي كل كبيرة وصغيرة فقد التقط آيات كثيرة من مواضع مختلفة من القرآن فالاستثناء من موضع، والمستثنى من موضع من أن كلاً منها واقعة في محل محفوفة بأطراف لها معها ارتباط واتصال، وللمجموع سياق لا يحتمل التقطيع والتفصيل فقطعها ثم رتبها ونضدها نضداً يناسب هذه المراجعة العجيبة بين النبي ﷺ وبين وحشي.

ولقد أجاد بعض المفسرين حيث قال بعد الإشارة إلى الرواية: كأنهم يثبتون أن الله سبحانه كان يداعب وحشياً!

فواضع الرواية لم يرد إلا أن يشرف وحشياً بمغفرة محتومة مختومة لا يضره معها أي ذنب أذنب وأي فظيعة أتى بها، وعقب ذلك ارتفاع المجازاة على المعاصي، ولازمه ارتفاع التكاليف عن البشر على ما يراه النصرانية بل أشنع فإنهم إنما رفعوا التكاليف بتفدية مثل عيسى المسيح، وهذا يرفعه اتباعاً لهوى وحشي.

ووحشي هذا هو عبد لابن مطعم قتل حمزة باحد ثم لحق مكة ثم أسلم بعد أخذ الطائف، وقال له النبي ﷺ: غيب شخصك عني فلحق بالشام وسكن حمصاً واشتغل في عهد عمر بالكتابة في الديوان، ثم اخرج منه لكونه يدمن الخمر، وقد جلد لذلك غير مرة، ثم مات في

خلافة عثمان، قتله الخمر على ما روي.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب بإسناده عن ابن اسحاق عن عبدالله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن امية الضمري قال: خرجت أنا وعبدالله ابن عدي بن الخيار فررنا بحمص وبها وحشي، فقلنا: لو أتيناه وسألناه عن قتله حمزة كيف قتله، فلقينا رجلاً ونحن نسأله عنه فقال: إنه رجل قد غلبت عليه الخمر فإن تجداه صاحياً تجداه رجلاً عربياً يحدثكما ما شئتما من حديث، وإن تجداه على غير ذلك فانصرفا عنه؛ قال: فأقبلنا حتى انتهينا إليه، الحديث، وفيه ذكر كيفية قتله حمزة يوم احد.

وفي المجمع روى مطرف بن شخير عن عمر بن الخطاب قال: كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منا على كبيرة شهدنا بأنه من أهل النار حتى نزلت الآية فأمسكنا عن الشهادات.

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر من طريق المعتمر بن سليمان عن سليمان بن عتبة البارقي قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت في المسجد قبل الداء الأعظم فسمعتهم يقولون: من قتل مؤمنا إلى آخر الآية فقال المهاجرون والأنصار: قد أوجب له النار فلما نزلت: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء قالوا: ما شاء الله، يصنع الله ما يشاء.

أقول: وروي ما يقرب من الروايتين عن ابن عمر بغير واحد من الطرق، وهذه الروايات لا تخلو من شيء فلا نظن بعامة أصحاب رسول الله ﷺ أن يجهلوا أن هذه الآية: إن الله لا يغفر أن يشرك به لا تزيد في مضمونها على آيات الشفاعة شيئا كما تقدم بيانه، أو أن يغفلوا عن أن معظم آيات الشفاعة مكية كقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦)، ومثلها آيات الشفاعة الواقعة في سورة يونس، والأنبياء، وطه، والسبأ، والنجم، والمدثر كلها آيات مكية تثبت

الشفاعة على ما مر بيانه، وهي عامة لجميع الذنوب ومقيدة في جانب المشفوع له بالدين المرضي وهو التوحيد ونفي الشريك وفي جانب الله تعالى بالمشيئة، فحصل مفادها شمول المغفرة لجميع الذنوب إلا الشرك على مشيئة من الله، وهذا بعينه مفاد هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وأما الآيات التي توعد قاتل النفس المحترمة بغير حق. وآكل الربا، وقاطع الرحم بجزاء النار الخالد كقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ الآية؛ (النساء / ٩٣)، وقوله في الربا: ﴿ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٢٧٥)، وقوله في قاطع الرحم: ﴿اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ (الرعد / ٢٥)، وغير ذلك من الآيات فهذه الآيات إنما توعد بالشر وتنبيء عن جزاء النار، وأما كونه جزاءا محتوما لا يقبل التغيير والارتفاع فلا صراحة لها فيه.

وبالجملة لا يترجح آية ﴿إن الله لا يغفر﴾ على آيات الشفاعة بأمر زائد في مضمونها يعهد لهم ما ذكروه.

فليس يسعهم أن يفهموا من آيات الكبائر تحتم النار حتى يجوز لهم الشهادة على مرتكبها بالنار، ولا يسعهم أن يفهموا من آية المغفرة ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الخ؛ أمراً ليس يفتهم من آيات الشفاعة حتى يوجب لهم القول بنسخها أو تخصيصها أو تقييدها آيات الكبائر.

ويومىء إلى ذلك ما ورد في بعض هذه الروايات، وهو ما رواه في الدر المنثور عن ابن الضريس وأبي يعلى وابن المنذر وابن عدي بسند صحيح عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ وقال: إني ادخرت دعوتي شفاعتي لأهل الكبائر من امتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا بعد ورجونا.

فظاهر الرواية أن الذي فهموه من آية المغفرة فهموا مثل من حديث الشفاعة لكن يبقى عليه سؤال آخر، وهو أنه ما بالهم فهموا جواز مغفرة الكبائر من حديث الشفاعة، ولم يكونوا يفهمونه من آيات الشفاعة المكية على كثرتها ودلالتها وطول العهد؟ ما أدري!

وفي الدر المنثور في قوله: ألم تر إلى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب إلى قوله: سبيلاً أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبدالله قال: لما كان من أمر النبي ﷺ ما كان اعتزل كعب بن الأشرف ولحق بمكة وكان بها، وقال: لا اعين عليه ولا اقاتله؛ فقيل له بمكة لا يا كعب أديننا خير أم دين محمد وأصحابه؟ قال: دينكم خير وأقدم، وديـن محـمد حديث؛ فنزلت فيه: ﴿ألم ترى إلى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الآية.

أقول: وفي سبب نزول الآية روايات على وجوه مختلفة أسلمها ما أوردناه غير أن الجميع تشترك في أصل القصة وهو أن بعضاً من اليهود حكموا لقريش على النبي ﷺ بأن دينهم خير من دينه.

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الآية عن الشيخ في أماليه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله قال: نحن الناس.

وفي الكافي بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السلام في حديث: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» نحن الناس المحسودون. الحديث.

أقول: وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضاً بطرق كثيرة مودعة في جوامع الشيعة كالكافي والتهذيب والمعاني والبصائر وتفسيري القمي والعياشي وغيرها.

وفي معناها من طرق أهل السنة ما عن ابن المغازي يرفعه إلى محمد بن علي الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ قال: نحن الناس والله.

وما في الدر المنثور عن ابن المنذر والطبراني من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله: «أم

يحسدون الناس» قال: نحن الناس دون الناس، وقد روى فيه أيضاً تفسير الناس برسول الله ﷺ عن عكرمة ومجاهد ومقاتل وأبي مالك؛ وقد مر فيما قدمناه من البيان: أن الظاهر كون المراد بالناس رسول الله ﷺ وأهل بيته ملحقون به.

وفي تفسير العياشي عن حمران عن الباقر عليه السلام «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب» قال: النبوة، «والحكمة» قال: الفهم والقضاء، «وملكاً عظيماً» قال: الطاعة.

أقول: المراد بالطاعة الطاعة المفترضة على ما ورد في سائر الأحاديث، والأخبار في هذه المعاني أيضاً كثيرة، وفي بعضها تفسير الطاعة المفترضة بالإمامة والخلافة كما في الكافي بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السلام.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: إن الذين كفروا بآياتنا الآية قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام.

أقول: وهو من الجري.

وفي مجالس الشيخ بإسناده عن حفص بن غياث القاضي قال: كنت عند سعيد الجعافرة جعفر بن محمد عليه السلام لما قدمه المنصور فأتاه ابن أبي العوجاء وكان ملحداً فقال: ما تقول في هذه الآية: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾؟ هب هذه الجلود عصت فعدبت فما بال الغير؟ قال أبو عبدالله عليه السلام: ويحك هي هي وهي غيرها. قال: أعقلني هذا القول، فقال له: أرأيت لو أن رجلاً عمد إلى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء وجبلها ثم ردها إلى هيئتها الاولى ألم تكن هي هي وهي غيرها؟ فقال: بلى أمتع الله بك.

أقول: ورواه في الاحتجاج أيضاً عن حفص بن غياث عنه عليه السلام، والقمي في تفسيره مرسلاً؛ ويعود حقيقة الجواب إلى أن وحدة المادة محفوظة بوحدة الصورة فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باق على وحدته مادام الإنسان هو الانسان وإن تغير البدن بأي تغير حدث فيه.

وفي الفقيه قال: سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل لهم فيها أزواج مطهرة قال: الأزواج المطهرة اللاتي لا يحضن ولا يحدثن.

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات﴾ الآية؛ عن محمد بن إبراهيم النعماني بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل فقال: أمر الله الإمام أن يؤدي الأمانة إلى الإمام الذي بعده، ليس له أن يزويها عنه، ألا تسمع قوله: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به﴾ هم الحكام يا زرارة، إنه خاطب بها الحكام.

أقول: وصدر الحديث مروي بطرق كثيرة عنهم عليهم السلام، وذيله يدل على أنه من باب الجري، وأن الآية نازلة في مطلق الحكم وإعطاء ذي الحق حقه فينطبق على مثل ما تقدم سابقاً.

٥٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً.

٦٠ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً.

٦١ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً.

٦٢ ● فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً.

٦٣ ● أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً.

٦٤ ● وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً.

٦٥ ● فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً.

٦٦ ● وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً.

٦٧ ● وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً.

٦٨ ● وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.

٦٩ ● وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً.

٧٠ ● ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ لما فرغ من الندب الى عبادة الله وحده لا شريك له وبث الإحسان بين طبقات المؤمنين وذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صد عنه صدوداً عاد الى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع اخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامي وهو التحضيض والترغيب في أخذهم بالائتلاف والاتفاق، ورفع كل تنازع واقع بالرد الى الله ورسوله.

ولا ينبغي أن يرتاب في أن قوله: أطيعوا وأطيعوا الرسول، جملة سيقت تمهيداً وتوطئة للأمر برد الأمر الى الله ورسوله عند ظهور التنازع، وإن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع والأحكام الإلهية.

فإن ذلك ظاهر تفريع قوله: فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول، ثم العود بعد العود الى هذا المعنى بقوله: ألم تر الى الذين يزعمون، الخ؛ وقوله: وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله، الخ؛ وقوله: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، الخ.

ولا ينبغي أن يرتاب في أن الله سبحانه لا يريد بإطاعته إلّا اطاعته في ما يوحيه الينا من طريق رسوله من المعارف والشرائع، وأما رسوله ﷺ فله حيثيتان: **إحداهما**: حيثية التشريع بما يوحيه اليه ربه من غير كتاب، وهو ما يبينه للناس من تفاصيل ما يشتمل على إجماله الكتاب وما يتعلق ويرتبط بها كما قال تعالى: ﴿**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**﴾ (النحل / ٤٤)، **والثانية**: ما يراه من صواب الرأي وهو الذي يرتبط بولايته الحكومة والقضاء قال تعالى: ﴿**لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾ (النساء / ١٠٥)، وهذا هو الرأي الذي كان يحكم به على ظواهر قوانين القضاء بين الناس، وهو الذي كان ﷺ يحكم به في عزائم الامور، وكان الله سبحانه أمره في اتخاذ الرأي بالمشاورة فقال: ﴿**وشاورهم في الأمر**

فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ (آل عمران / ١٥٩)، فـاشركهم بـه في المشـاورة ووحّـده في العزم.

اذا عرفت هذا علمت أن لإطاعة الرسول معنى ولإطاعة الله سبحانه معنى آخر وإن كان إطاعة الرسول إطاعة الله بالحقيقة لأن الله هو المشرع لوجوب إطاعته كما قال: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله** ﴾ فعلى الناس أن يطيعوا الرسول فيما يبينه بالوحي، وفيما يراه من الرأي.

وهذا المعنى (والله أعلم) هو الموجب لتكرار الأمر بالطاعة في قوله: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، لا ما ذكره المفسرون: أن التكرار للتأكيد فإن القصد لو كان متعلقاً بالتأكيد كان ترك التكرار كما لو قيل: وأطيعوا الله والرسول أدل عليه وأقرب منه فإنه كـان يـفيد أن إطـاعة الرسول عين إطاعة الله سبحانه وأن الإطاعتين واحدة، وما كل تكرار يفيد التأكيد.

وأما اولوا الأمر فهم ـ كائنين من كانوا ـ لا نصيب لهم من الوحي، وإنما شأنهم الرأي الذي يستصوبونه فلهم افتراض الطاعة نظير ما للرسول في رأيهم وقولهم، ولذلك لما ذكر وجوب الرد والتسليم عند المشاجرة لم يذكرهم بل خص الله والرسول فقال: فإن تـنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك أن المخاطبين بهذا الرد هم المؤمنون المخاطبون بقوله في صدر الآية: يا أيها الذين آمنوا، والتنازع بلا ريب، ولا يجوز أن يفرض تنازعهم مع اولي الأمر مع افتراض طاعتهم بل هذا التنازع هو ما يقع بين المـؤمنين أنفسهم، وليس في أمر الرأي بل من حيث حكم الله في القضية المتنازع فيها بقرينة الآيـات التالية الذامة لمن يرجع الى حكم الطـاغوت دون حكـم الله ورسـوله، وهـذا الحكـم يجب الرجوع فيه الى أحكام الدين المبينة المقررة في الكتاب والسنة، والكتاب والسـنة حـجتان قاطعتان في الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، وقول اولي الأمر في أن الكتاب والسنة يحكمان بكذا أيضاً حجة قاطعة فإن الآية تقرر افتراض الطاعة من غير أي قيد أو شرط، والجميع

راجع بالأخرة الى الكتاب والسنة.

ومن هنا يظهر أن ليس لاولي الامر هؤلاء ـ كائنين من كانوا ـ أن يضعوا حكماً جديداً، ولا أن ينسخوا حكماً ثابتاً في الكتاب والسنة، وإلّا لم يكن لوجوب ارجاع موارد التنازع الى الكتاب والسنة والرد الى الله والرسول معنى على ما يدل عليه قوله: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ (الأحزاب / ٣٦)، ففضاء الله هو التشريع وقضاء رسوله إما ذلك وإما الأعم، وإنما الذي لهم أن يروا رأيهم في موارد نفوذ الولاية، وأن يكشفوا عن حكم الله ورسوله في القضايا والموضوعات العامة[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الى آخر الآية: تفريع على الحصر المستفاد من المورد فإن قوله: أطيعوا الله، الخ؛ حيث أوجب طاعة الله ورسوله، وهذه الطاعة إنما هي في المواد الدينية التي تتكفل رفع كل اختلاف مفروض، وكل حاجة ممكنة لم يبق مورد تمس الحاجة الرجوع الى غير الله ورسوله، وكان معنى الكلام: أطيعوا الله، ولا تطيعوا الطاغوت، وهو ما ذكرناه من الحصر.

وتوجه الخطاب الى المؤمنين كاشف عن أن المراد بالتنازع هو تنازعهم بينهم لا تنازع مفروض بينهم وبين اولي الأمر، ولا تنازع مفروض بين اولي الأمر فإن الأول أعني التنازع بينهم وبين اولي الأمر لا يلائم افتراض طاعة اولي الأمر عليهم، وكذا الثاني أعني التنازع بين اولي الأمر فإن افتراض الطاعة لا يلائم التنازع الذي أحد طرفيه على الباطل، على أنه لا يناسب كون الخطاب متوجهاً الى المؤمنين في قوله: فإن تنازعتم في شيء فردوه.

ولفظ الشيء وإن كان يعم كل حكم وأمر من الله ورسوله واولي الأمر كائناً ما كان لكن

---

١. النساء ٥٩ ـ ٧٠: بحث في: اولي الأمر؛ عصمة الرسول الكريم ﷺ؛ وجوب اطاعة اولي الأمر.

قوله بعد ذلك: فردوه الى الله والرسول يدل على أن المفروض هو النزاع في شيء ليس لأولي الأمر الاستقلال والاستبداد فيه من أوامرهم في دائرة ولايتهم كأمرهم بنفر أو حرب أو صلح أو غير ذلك، اذ لا معنى لإيجاب الرد الى الله والرسول في هذه الموارد مع فرض طاعتهم فيها.

فالآية تدل على وجوب الرد في نفس الأحكام الدينية التي ليس لأحد أن يحكم فيها بإنفاذ أو نسخ إلّا الله ورسوله. والآية كالصريح في أنه ليس لأحد أن يتصرف في حكم ديني شرعه الله ورسوله، واولوا الأمر ومن دونهم في ذلك سواء.

وقوله: إن كنتم آمنتم بالله، تشديد في الحكم وإشارة الى أن مخالفته إنما تنتشئ من فساد في مرحلة الإيمان فالحكم يرتبط به ارتباطاً فالمخالفة تكشف عن التظاهر بصفه الإيمان بالله ورسوله، واستبطان الكفر، وهو النفاق كما تدل على الآيات التالية.

وقوله: ذلك خير وأحسن تأويلاً أي الرد عند التنازع أو إطاعة الله ورسوله واولي الأمر، والتأويل هو المصلحة الواقعية التي تنشأ منها الحكم ثم تترتب على العمل وقد تقدم البحث عن معناه في ذيل قوله تعالى: ﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله﴾ (آل عمران / ٧) في الجزء الثالث من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية: الزعم هو الاعتقاد بكذا سواء طابق الواقع أم لا، بخلاف العلم فإنه الاعتقاد المطابق للواقع، ولكون الزعم يستعمل في الاعتقاد في موارد لا يطابق الواقع ربما يظن أن عدم مطابة الواقع مأخوذ في مفهومه وليس كذلك، والطاغوت مصدر بمعنى الطغيان كالرهبوت والجبروت والملكوت غير أنه ربما يطلق ويراد به اسم الفاعل مبالغة يقال: طغى الماء اذا تعدى ظرفه لوفوره وكثرته، وكان استعماله في الإنسان أولاً على نحو الاستعارة ثم ابتذل فلحق بالحقيقة وهو خروج الإنسان عن طوره الذي حده له العقل أو الشرع، فالطاغوت هو الظالم الجبار، والمتمرد عن وظائف عبودية الله استعلاء عليه تعالى وهكذا، وإليه يعود ما

قيل: إن الطاغوت كل معبود من دون الله.

وقوله: بما أُنزل إليك وما أُزل من قبلك، بمنزلة أن يقال: بما أنزل الله على رسله، ولم يقل: آمنوا بك وبالذين من قبلك لأن الكلام في وجوب الرد الى كتاب الله وحكمه وبذلك يظهر أن المراد بقوله «وقد أُمروا أن يكفروا به» الأمر في الكتب السماوية والوحي النازل على الأنبياء: محمد ومن قبله صلى الله عليه وآله وعليهم.

وقوله: ألم تر، الخ؛ الكلام بمنزلة دفع الدخل كأنه قيل: ما وجه ذكر قوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، الخ؟ فقيل: ألم تر الى تخلفهم من الطاعة حيث يريدون التحاكم الى الطاغوت؟ والاستفهام للتأسف والمعنى: من الأسف ما رأيته أن بعض الناس، وهم معتقدون أنهم مؤمنون بما أُنزل إليك من الكتاب والى سائر الأنبياء والكتب السماوية إنما انزلت لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وقد بينه الله تعالى لهم بقوله: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣) يتحاكمون عند التنازع الى الطاغوت وهم أهل الطغيان والمتمردون عن دين الله المتعدون على الحق، وقد امروا في هذه الكتب أن يكفروا بالطاغوت، وكفى في منع التحاكم إليهم أنه إلغاء لكتب الله وإبطال لشرائعه.

وفي قوله ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ دلالة على أن تحاكمهم إنما هو بإلقاء الشيطان وإغوائه، والوجهة فيه الضلال البعيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ الى خر الآية؛ تعالوا بحسب الأصل أمر من التعالي وهو الارتفاع، وصد عنه يصد صدوداً أي أعرض، وقوله: الى ما أنزل الله والى الرسول، بمنزلة أن يقال: الى حكم الله ومن يحكم به، وفي قوله: يصدون عنك، إنما خص الرسول بالإعراض مع أن الذي دعوا اليه هو الكتاب والرسول معاً لا الرسول وحده لأن الأسف إنما هو من فعل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله فهم ليسوا بكافرين حتى

يتجاهروا بالإعراض عن كتاب الله بل منافقون بالحقيقة يتظاهرون بالإيمان بما أنزل الله لكنهم يعرضون عن رسوله.

ومن هنا يظهر أن الفرق بين الله ورسوله بتسليم حكم الله والتوقف في حكم الرسول نفاق البتة.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الخ: إيذان بأن هذا الإعراض والانصراف عن حكم الله ورسوله، والإقبال الى غيره وهو حكم الطاغوت سيعقب مصيبة تصيبهم لا سبب لها إلّا هذا الإعراض عن حكم الله ورسوله، والتحاكم الى الطاغوت، وقوله: ثم جاؤوك يحلفون بالله اه، حكاية لمعذرتهم أنهم ما كانوا يريدون بركونهم الى حكم الطاغوت سوء، والمعنى ـ والله أعلم ـ: فاذا كان حالهم هذا الحال كيف صنيعهم اذا أصابهم بفعالهم هذا وباله السيىء ثم جاؤوك يحلفون بالله قائلين ما أردنا بالتحاكم الى غير الكتاب والرسول إلّا الإحسان والتوفيق وقطع المشاجرة بين الخصوم؟

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الخ: تكذيب لقولهم فيما اعتذروا به، ولم يذكر حال ما في قلوبهم، وأنه ضمير فاسد لدلالة قوله «فأعرض عنهم وعظهم» على ذلك اذ لو كان ما في قلوبهم غير فاسد كان قولهم صدقاً وحقاً ولا يؤمر بالإعراض عمن يقول الحق ويصدق في قوله.

وقوله: وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً أي قولاً يبلغ في أنفسهم ما تريد أن يقفوا عليه ويفقهوا من مفاسد هذا الصنيع، وأنه نفاق لو ظهر نزل بهم الويل من سخط الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، رد مطلق لجميع ما تقدمت حكايته من هؤلاء المنافقين من التحاكم الى الطاغوت، والإعراض عن الرسول، والحلف والاعتذار بالإحسان والتوفيق. فكل ذلك مخالفة للرسول بوجه سواء كانت مصاحبة لعذر يعتذر به أم لا، وقد أوجب الله طاعته من غير قيد وشرط فإنه لم يرسله إلّا

ليطاع بإذن الله. وليس لأحد أن يتخيل أن المتبع من الطاعة طاعة الله. وإنما الرسول بشر ممن خلق إنما يطاع لحيازة الصلاح فاذا احرز صلاح من دون طاعته فلا بأس بالاستبداد في إحرازه، وترك الرسول في جانب. وإلّا كان إشراكاً بالله. وعبادة لرسوله معه. وربما كان يلوح ذلك في امور يكلمون فيها رسول الله ﷺ يقول قائلهم له اذا عزم عليهم في مهمة: أبأمر من الله أم منك؟

فذكر الله سبحانه أن وجوب طاعة النبي ﷺ وجوب مطلق. وليست إلّا طاعة الله فإنها بإذنه نظير ما يفيده قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ الآية (النساء / ٨٠).

ثم ذكر أنهم لو رجعوا الى الله ورسوله بالتوبة حين ما خالفوا الرسول بالإعراض لكان خيراً لهم من أن يحلفوا بالله. ويلفقوا أعذاراً غير موجهة لا تنفع ولا ترضي رسول الله ﷺ لأن الله سبحانه يخبره بحقيقة الأمر. وذلك قوله: ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك الى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ الخ: الشجر ـ بسكون الجيم ـ والشجور: الاختلاط يقال: شجر شجراً وشجوراً أي اختلط. ومنه التشاجر والمشاجرة كأن الدعاوي أو الأقوال اختلط بعضها مع بعض. ومنه قيل للشجر: شجر لاختلاط غصونها بعضها مع بعض، والحرج الضيق.

وظاهر السياق في بدء النظر أنه رد لزعم المنافقين أنهم آمنوا بالنبي ﷺ مع تحاكمهم الى الطاغوت فالمعنى: فليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع تحاكمهم الى الطاغوت بل لا يؤمنون حتى يحكموك. الخ.

لكن شمول حكم الغاية أعني قوله: حتى يحكموك. الخ: لغير المنافقين. وكذا قوله بعد ذلك «ولو أنا كتبنا عليهم» الى قوله «ما فعلوه إلّا قليل منهم» يؤيد أن الرد لا يختص بالمنافقين بل يعمهم وغيرهم من جهة أن ظاهر حالهم أنهم يزعمون أن مجرد تصديق ما انزل

من عند الله بما يتضمنه من المعارف والأحكام إيمان بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه حقيقة، وليس كذلك بل الإيمان تسليم تام باطناً وظاهراً فكيف يتأتى لمؤمن حقاً أن لا يسلم للرسول حكماً في الظاهر بأن يعرض عنه ويخالفه، أو في باطن نفسه بأن يتحرج عن حكم الرسول اذا خالف هوى نفسه، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ (النساء / ١٠٥).

فلو تحرج متحرج بما قضى به النبي ﷺ فمن حكم الله تحرج لأنه الذي شرفه بافتراض الطاعة ونفوذ الحكم.

واذا كانوا سلموا حكم الرسول، ولم يتحرج قلوبهم منه كانوا مسلمين لحكم الله قطعاً سواء في ذلك حكمه التشريعي والتكويني، وهذا موقف من مواقف الإيمان يتلبس فيه المؤمن بعدة من صفات الفضيلة أوضحها: التسليم لأمر الله. ويسقط فيه التحرج والاعتراض والرد من لسان المؤمن وقلبه، وقد أُطلق في الآية التسليم إطلاقاً.

ومن هنا يظهر أن قوله: فلا وربك، الى آخر الآية، وإن كان مقصوراً على التسليم لحكم النبي ﷺ بحسب اللفظ لأن مورد الآيات هو تحاكمهم الى غير رسول الله ﷺ مع وجوب رجوعهم إليه إلّا أن المعنى عام لحكم الله ورسوله جميعاً، ولحكم التشريع والتكوين جميعاً كما عرفت.

بل المعنى يعم الحكم بمعنى قضاء رسول الله ﷺ وكل سيرة سار بها أو عمل عمل به لأن الأثر مشترك فكل ما ينسب بوجه الى الله ورسوله بأي نحو كان لا يتأتى لمؤمن بالله حق إيمانه أن يرده أو يعترض عليه أو يمله أو يسوأه بوجه من وجوه المساءة فكل ذلك شرك على مراتبه، وقد قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ـ الى قوله ـ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ قد تقدم في قوله: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً﴾ (آية ٤٦ من السورة)، ان

هذا التركيب يدلى على أن الحكم للهيئة الاجتماعية من الأفراد وهو المجتمع، وأن الاستثناء لدفع توهم استغراق الحكم واستيعابه لجميع الأفراد، ولذلك كان هذا الاستثناء أشبه بالمنفصل منه بالمتصل أو هو برزخ بين الاستثنائين: المتصل والمنفصل لكونه ذا جنبتين.

على هذا فقوله «ما فعلوه إلّا قليل منهم» وارد مورد الإخبار عن حال الجملة المجتمعة أنهم لا يمتثلون الأحكام والتكاليف الحرجية الشاقة التي تماس ما يتعلق به قلوبهم تعلق الحب الشديد كنفوسهم وديارهم، واستثناء القليل لدفع التوهم.

فالمعنى: ولو أنا كتبنا أي فرضنا عليهم قتل أنفسهم والخروج من ديارهم وأوطانهم المألوفة لهم ما فعلوه أي لم يمتثلوا أمرنا، ثم لما استشعر أن قوله: ما فعلوه يوهم أن ليس فيهم من هو مؤمن حقاً مسلم لحكم الله حقيقة دفع ذلك باستثناء القليل منهم، ولم يكن يشمله الحكم حقيقة لأن الإخبار عن حال المجتمع من حيث إنه مجتمع ولم تكن الأفراد داخلة فيه إلّا بتبع الجملة.

ومن هنا يظهر أن المراد قتل الجملة الجملة وخروج الجملة وجلاؤهم من جملة ديارهم كالبلدة والقرية دون قتل كل واحد نفسه، وخروجه من داره كما في قوله تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ (البقرة / ٥٤)، فإن المقصود بالخطاب هو الجماعة دون الأفراد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ في تبديل الكتابة في قوله: ولو أنا كتبنا عليهم، بالوعظ في قوله: ما يوعظون به إشارة الى أن هذه الأحكام الظاهرة في صورة الأمر والفرض ليست إلّا إشارات الى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فهي في الحقيقة مواعظ ونصائح يراد بها خيرهم وصلاحهم.

وقوله: لكان خيراً لهم أي في جميع ما يتعلق بهم من اولاهم واخراهم، وذلك أن خير الآخرة لا ينفك من خير الدنيا بل يستتبعه، وقوله «وأشد تثبيتاً» أي لنفوسهم وقلوبهم بالإيمان لأن الكلام فيه، قال تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية

(إبراهيم / ٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً﴾ أي حين تثبتوا بالإيمان الثابت؛ والكلام في إبهام قوله «أجراً عظيماً» كالكلام في إطلاق قوله «لكان خيراً لهم».

قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ قد مضى الكلام في معنى الصراط المستقيم في ذيل قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الحمد / ٦)، في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ - الى قوله - وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ جمع بين الله والرسول في هذا الوعد الحسن مع كون الآيات السابقة متعرضة لإطاعة الرسول والتسليم لحكمه وقضائه، لتخلل ذكره تعالى بينهما في قوله: ولو أنا كتبنا عليهم، الخ؛ فالطاعة المفترضة طاعته تعالى وطاعة رسوله، وقد بدأ الكلام على هذا النحو في قوله: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، الآية.

وقوله: فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم، يدل على اللحوق دون الصيرورة فهؤلاء ملحقون بجماعة المنعم عليهم، وهم أصحاب المستقيم الذي لم ينسب في كلامه تعالى الى غيره إلّا الى هذه الجماعة في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾ (الحمد / ٧)، وبالجملة فهم ملحقون بهم غير صائرين منهم كما لا يخلو قوله «وحسن أولئك رفيقاً» من تلويح إليه، وقد تقدم أن المراد بهذه النعمة هي الولاية.

وأما هؤلاء الطوائف الأربع أعني النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فالنبيون هم أصحاب الوحي الذين عندهم نبأ الغيب، ولا خبرة لنا من حالهم بأزيد من ذلك إلّا من حيث الآثار. وقد تقدم أن المراد بالشهداء شهداء الأعمال فيما يطلق من لفظ الشهيد في القرآن دون المستشهدين في معركة القتال، وأن المراد بالصالحين هم أهل اللياقة بنعم الله.

وأما الصديقون فالذي يدل عليه لفظه هو أنه مبالغة من الصدق، ومن الصدق ما هو في القول، ومنه ما هو في الفعل، وصدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاك عن الاعتقاد فاذا صدق في حكايته كان حاكياً لما في الضمير من غير تخلف، وصدق القول طابقته لما في الواقع، وحيث كان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق في فعله لا يخبر إلّا عما يعلم صدقه وأنه حق، ففي قوله الصدق الخبري والمخبري جميعاً.

فالصديق الذي لا يكذب أصلاً هو الذي لا يفعل إلّا ما يراه حقاً من غير اتباع لهوى النفس، ولا يقول إلّا ما يرى أنه حق، ولا يرى شيئاً إلّا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء، ويقول الحق، ويفعل الحق.

وعلى ذلك فيترتب المراتب فالنبيون وهم السادة، ثم الصديقون وهم شهداء الحقائق والأعمال، والشهداء وهم شهداء الأعمال، والصالحون وهم المتهيؤون للكرامة الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾ أي من حيث الرفاقة فهو تمييز، قيل: ولذلك لم يجمع، وقيل: المعنى: حسن كل واحد منهم رفيقاً، وهو حال نظير قوله: ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ (الحج / ٥).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ «ذلك» وإتيانه بصيغة الإشارة الدالة على البعيد ودخول اللام في الخبر يدل على تفخيم أمر هذا الفضل كأنه كل الفضل، وختم الآيه بالعلم لكون الكلام في درجات الإيمان التي لا سبيل الى تشخيصها إلّا العلم الإلهي.

واعلم أن في هذه الآيات الشريفة موارد عديدة من الالتفات الكلامي متشابك بعضها مع بعض فقد أُخذ المؤمنون في صدر الآيات مخاطبين ثم في قوله «ولو أنا كتبنا عليهم» كما مر غائبين، وكذلك أخذ تعالى نفسه في مقام الغيبة في صدر الآيات في قوله: أطيعوا الله، الآية؛ ثم

في مقام المتكلم مع الغير في قوله: وما أرسلنا من رسول، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: بإذن الله، الآية؛ ثم المتكلم مع الغير في قوله: ولو أنا كتبنا، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: ومن يطع الله والرسول، الآية.

وكذلك الرسول اخذ غائباً في صدر الآيات في قوله: وأطيعوا الرسول، الآية، ثم مخاطباً في قوله: ذلك خير، الآية؛ ثم غائباً في قوله: واستغفر لهم الرسول، الآية؛ ثم مخاطباً في قوله: فلا وربك، الآية؛ ثم غائباً في قوله: ومن يطع الله والرسول، الآية، ثم مخاطباً في قوله: وحسن أولئك، الآية، فهذه عشر موارد من الالتفات الكلامي والنكات المختصة بكل مورد مورد ظاهرة للمتدبر[1].

٧١ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً.

٧٢ ● وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً.

٧٣ ● وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً.

٧٤ ● فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

---

١. النساء ٥٩ ـ ٧٠: بحث روائي في: اولي الامر: اولوا الأمر هم علي عليه السلام والائمة المعصومون عليهم السلام مرافقة المؤمنين مع النبيين في الجنة.

٧٥ ● وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً.

٧٦ ● أَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً﴾ الحذر بالكسر فالسكون ما يحذر به وهو آلة الحذر كالسلاح، وربما قيل: إنه مصدر كالحذر بفتحتين، والنفر هو السير الى جهة مقصودة، وأصله الفزع، فالنفر من محل السير فزع عنه والى محل السير فزع إليه، والثبات جمع ثبة، وهي الجماعة على تفرقة، فالثبات الجماعة بعد الجماعة بحيث تنفصل ثانية عن اولى، وثالثة عن ثانية، ويؤيد ذلك مقابلة قوله «فانفروا ثبات» قوله «أو انفروا جميعاً».

والتفريع في قوله: فانفروا ثبات، على قوله: خذوا حذركم، بظاهره يؤيد كون المراد بالحذر ما به الحذر على أن يكون كناية عن التهيؤ التام للخروج الى الجهاد ويكون المعنى: خذوا أسلحتكم أي أعدوا للخروج واخرجوا الى عدوكم فرقة فرقة (سرايا) أو اخرجوا إليهم جميعاً (عسكراً).

ومن المعلوم أن التهيؤ والإعداد يختلف باختلاف عدة العدو وقوته فالترديد في قوله: أو

انفروا، ليس تخييراً في كيفية الخروج وإنما الترديد بحسب تردد العدو من حيث العدة والقوة أي اذا كان عددهم قليلاً فثبة، وإن كان كثيراً فجميعاً.

فيؤول المعنى ـ وخاصه ملاحظة الآية التالية: وإن منكم ليبطئن، ـ الى نهيهم عن أن يضعوا أسلحتهم، وينسلخوا عن الجد وبذل الجهد في أمر الجهاد فيموت عزمهم ويفتقد نشاطهم في إقامة أعلام الحق، ويتكاسلوا أو يتبطؤوا أو يتثبطوا في قتال أعداء الله، وتطهير الأرض من قذارتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾، قيل: إن اللام الاولى لام الابتداء لدخولها على اسم إن، واللام الثانية لام القسم لدخولها على الخبر وهي جملة فعلية مؤكدة بنون التأكيد الثقيلة، والتبطئة والإبطاء بمعنى، وهو التأخير في العمل.

وقوله «وإن منكم» يدل على أن هؤلاء من المؤمنين المخاطبين في صدر الآية بقوله: يا أيها الذين آمنوا، على ما هو ظاهر كلمة «منكم» كما يدل عليه ما سيأتي من قوله: ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم، فإن الظاهر أن هؤلاء أيضاً كانوا من المؤمنين، مع قوله تعالى بعد ذلك: فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس. وقوله: وإن تصبهم حسنة. الخ؛ وكذا قوله: فليقاتل في سبيل الله الذين، وقوله: ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله، وقوله: الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، كل ذلك تحريص واستنهاض للمؤمنين وفيهم هؤلاء المبطؤون على ما يلوح إليه اتصال الآيات.

على أنه ليس في الآيات ما يدل بظاهره على أن هؤلاء المبطئين من المنافقين الذين لم يؤمنوا إلّا بظاهر من القول، مع أن في بعض ما حكى الله عنهم دلالة ما على إيمانهم في الجملة كقوله تعالى: فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي، وقوله تعالى: ربنا لم كتبت علينا القتال، الخ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي من قتل أو جرح «قال قد أنعم الله علي اذا

لم أكن معهم شهيداً» حتى ابتلي بمثل ما ابتلى به المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من قبيل غنيمة الحرب ونحوها، والفضل هو المال وما يماثله، وقوله: ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم، تشبيه وتمثيل لحالهم فإنهم مؤمنون، والمسلمون يد واحدة يربط بعضهم ببعض أقوى الروابط، وهو الإيمان بالله وآياته الذي يحكم على جميع الروابط الاخر من نسب أو ولاية أو بيعة أو مودة لكنهم لضعف إيمانهم لا يرون لأنفسهم أدنى ربط يربطهم بالمؤمنين فيتمنون الكون معهم والحضور في جهادهم كما يتمنى الأجنبي فضلاً ناله أجنبي فيقول أحدهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، ومن علائم ضعف إيمانهم إكبارهم أمر هذه الغنائم، وعدهم حيازة الفضل والمال فوزاً عظيماً، وكل مصيبة أصابت المؤمنين في سبيل الله من قتل أو جرح أو تعب نقمة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ قال في المجمع: يقال شريت أي بعت، واشتريت أي ابتعت، فالمراد بقوله يشرون الحياة الدنيا بالآخرة أي يبيعون حياتهم الدنيا ويبدلونها الآخرة.

والآية تفريع على ما تقدم من الحث على الجهاد، وذم من يبطىء في الخروج إليه ففيها تجديد للحث على القتال في سبيل الله بتذكير أن هؤلاء جميعاً مؤمنون، قد شروا بإسلامهم لله تعالى الحياة الدنيا بالآخرة كما قال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة / ١١١)، ثم صرح على فائدة القتال الحسنة وأنها الأجر العظيم على أي حال بقوله: ومن يقاتل في سبيل الله، الخ.

فبين أن أمر المقاتل في سبيل الله ينتهي الى إحدى عاقبتين محمودتين: أن يقتل في سبيل الله، أو يغلب عدو الله، وله على أي حال أجر عظيم، ولم يذكر ثالث الاحتمالين ـ وهو الانهزام ـ تلويحاً الى أن المقاتل في سبيل الله لا ينهزم.

وقدم القتل على الغلبة لأن ثوابه أجزل وأثبت فإن المقاتل الغالب على عدو الله وإن كان يكتب له الأجر العظيم إلّا أنه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبة لحبط الأعمال الصالحة، واستتباع السيئة بعد الحسنة بخلاف القتل اذ لا حياة بعده إلّا حياة الآخرة فالمقتول في سبيل الله يستوفي أجره العظيم حتماً، وأما الغالب في سبيل الله فأمره مراعى في استيفاء أجره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الخ: عطف على موضع لفظ الجلالة، والآية تشتمل على حث وتحريض آخر على القتال في لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال في سبيل الله سبحانه، وهو الذي لا بغية لكم في حياتكم السعيدة إلّا رضوانه، ولا سعادة أسعد من قربه، وفي سبيل المستضعفين من رجالكم ونسائكم وولدانكم.

وهؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم وأفلاذهم مؤمنون بالله سبحانه بدليل قوله: الذين يقولون ربنا، الخ؛ وهم مع ذلك مذللون معذبون يستصرخون ويستغيثون بقولهم: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، وقد أطلق الظلم، ولم يقل: الظالم أهلها على أنفسهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب والإيذاء وكذلك كان الأمر.

وقد عبر عن استغاثتهم واستنصارهم بأجمل لفظ وأحسن عبارة فلم يحك عنهم أنهم يقولون: يا للرجال، يا للسراة، يا قوماه، يا عشيرتاه بل حكى أنهم يدعون ربهم ويستغيثون بمولاهم الحق فيقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ثم يشيرون الى النبي ﷺ والى من معه من المؤمنين المجاهدين بقولهم: واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً، فهم يتمنون ولياً، ويتمنون نصيراً لكن لا يرضون دون أن يسألوا ربهم الولي والنصير[1].

---

١. النساء ٧١ ـ ٧٦: كلام في الغيرة والعصبية.

قوله تعالى: ﴿أَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ الى قوله ـ الطَّاغُوتِ﴾ مقايسة بين الذين آمنوا والذين كفروا من جهة وصف قتالهم، وبعبارة اخرى من جهة نية كل من الطائفتين في قتالهم ليعلم بذلك شرف المؤمنين على الكفار في طريقتهم وأن سبيل المؤمنين ينتهي الى الله سبحانه ويعتمد عليه بخلاف سبيل الكفار ليكون ذلك محرضاً آخر للمؤمنين على قتالهم.

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ الذين كفروا لوقوعهم في سبيل الطاغوت خارجون عن ولاية الله فلا مولى لهم إلّا ولي الشرك وعبادة غير الله تعالى، وهو الشيطان فهو وليهم، وهم أولياؤه.

وإنما استضعف كيد الشيطان لأنه سبيل الطاغوت الذي يقابل سبيل الله، والقوة لله جميعاً فلا يبقى لسبيل الطاغوت الذي هو مكيدة الشيطان إلّا الضعف، ولذلك حرض المؤمنين عليهم ببيان ضعف سبيلهم، وشجعهم على قتالهم، ولا ينافي ضعف كيد الشيطان بالنسبة الى سبيل الله قوته بالنسبة الى من اتبع هواه، وهو ظاهر.

٧٧ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً.

٧٨ ● أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ فَمَا لِهٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لاٰ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً.

٧٩ • مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَمَا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنٰاكَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً.

٨٠ • مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ وَمَنْ تَوَلّىٰ فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ـ الى قوله ـ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ كفّ الأيدي كناية عن الإمساك عن القتال لكون القتل الذي يقع فيه من عمل الأيدي، وهذا الكلام يدل على أن المؤمنين كانوا في ابتداء أمرهم يشقّ عليهم ما يشاهدونه من تعدّي الكفّار وبغيهم عليهم فيصعب عليهم أن يصبروا على ذلك ولا يقابلوه بسلّ السيوف فأمرهم الله بالكفّ عن ذلك، وإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة ليشتد عظم الدين ويقوم صلبه فيأذن الله لهم في جهاد أعدائه، ولولا ذلك لانفسخ هيكل الدين، وانهدمت أركانه، وتلاشت أجزاؤه.

ففي الآيات لومهم على أنهم هم الذين كانوا يستعجلون في قتال الكفار، ولا يصبرون على الإمساك وتحمّل الأذى حين لم يكن لهم من العدّة والقوة ما يكفيهم للقاء عدوّهم فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون العدو وهم ناس مثلهم كخشية الله أو أشد خشية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ﴾ الخ؛ ظاهره أنه عطف على قوله «اذا فريق منهم» الخ؛ وخاصة بالنظر الى تغيير السياق من الفعل المضارع (يخشون الناس) الى الماضي (قالوا) فالقائل بهذا القول هم الذين كانوا يتوقون للقتال، ويستصعبون الصبر

فامروا بكفّ أيديهم.

ومن الجائز أن يكون قولهم «ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرّتنا الى أجل قريب» محكيّاً عن لسان حالهم كما أن من الجائز أن يكونوا قائلين ذلك بلسانهم الظاهر فان القرآن يستعمل من هذا العنايات كل نوع.

وتوصيف الأجل الذي هو أجل الموت حتف الأنف بالقريب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل، والعيش زماناً يسيراً بل ذلك تلويح منهم بأنهم لو عاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفهم لم يكن ذلك إلّا عيشاً يسيراً وأجلاً قريباً فما لله ـ سبحانه ـ لا يرضى لهم أن يعيشوا هذه العيشة اليسيرة حتى يبتليهم بالقتل، ويعجّل لهم الموت؟ وهذا الكلام صادر منهم لتعلّق نفوسهم بهذه الحياة الدنيا التي هي في تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضي سريعاً ويعفى أثره، ودونه الحياة الآخرة التي هي الحياة الباقية الحقيقية فهي خير، ولذلك أُجيب عنهم بقوله «قل»: الخ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ الخ: أمر للنبي ﷺ أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم في ترجيح العيش الدنيوي اليسير على كرامة الجهاد والقتل في سبيل الله تعالى، ومحصّلة أنهم ينبغي أن يكونوا متّقين في إيمانهم، والحياة الدنيا هي متاع يتمتع به قليل اذا قيس الى الآخرة، والآخرة خير لمن اتّقى فينبغي لهم أن يختاروا الآخرة التي هي خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون وعلى صراط التقوى، ولا يبقى لهم إلا أن يخافوا أن يحيف الله عليهم ويظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير، وليس لهم ذلك فإن الله لا يظلمهم فتيلاً.

وقد ظهر بهذا البيان أن قوله «لمن اتقى» من قبيل وضع الصفة موضع الموصوف للدلالة على سبب الحكم، ودعوى انطباقه على المورد، والتقدير ـ والله أعلم ـ: والآخرة خير لكم لأنكم ينبغي أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى، والتقوى سبب للفوز بخير الآخرة فقوله «لمن

اتقى» كالكناية التي فيها تعريض.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ البروج جمع برج وهو البناء المعمول على الحصون، ويستحكم بنيانه ما قدر عليه لدفع العدو به وعنه، وأصل معناه الظهور، ومنه التبرّج بالزينة ونحوها، والتشييد الرفع، وأصله من الشيد وهو الجص لأنه يحكم البناء ويرفعه ويزيّنه فالبروج المشيّدة الأبنية المحكمة المرتفعة التي على الحصون يأوي إليها الإنسان من كل عدوّ قادم.

والكلام موضوع على التمثيل بذكر بعض ما يتقى به المكروه، وجعله مثلاً لكل ركن شديد تتقي به المكاره، ومحصّل المعنى: أن الموت أمر لا يفوتكم إدراكه، ولو لجأتم منه الى أي ملجأ محكم متين فلا ينبغي لكم أن تتوهموا أنكم لو لم تشهدوا القتال، ولم يكتب لكم كنتم في مأمن من الموت، وفاته إدراككم فإن أجل الله لآت.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ (الى آخر الآية): جملتان أُخريان من هفواتهم حكاهما الله تعالى عنهم، وأمر نبيه ﷺ أن يجيبهم عنهما ببيان حقيقة الأمر فيما يصيب الإنسان من حسنة وسيئة.

واتصال السياق يقضي بكون الضعفاء المتقدم ذكرهم من المؤمنين هم القائلين ذلك قالوا ذلك بلسان حالهم أو مقالهم، ولا بدع في ذلك فإن موسى أيضاً جبّه بمثل هذا المقال كما حكى الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ (الأعراف / ١٣١) وهو مأثور عن سائر الامم في خصوص أنبيائهم، وهذه الامة في معاملتهم نبيهم لا يقصرون عن سائر الامم، وقد قال تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ (البقرة / ١١٨) وهم مع ذلك أشبه الامم ببني إسرائيل، وقد قال رسول الله ﷺ «إنهم لا يدخلون جحر ضبّ إلا دخلتموه» وقد تقدم نقل الروايات في ذلك من طرق الفريقين.

وقد تمحّل في الآيات أكثر المفسرين بجعلها نازلة في خصوص اليهود أو المنافقين أو الجميع من اليهود والمنافقين، وأنت ترى أن السياق يدفعه.

وكيف كان فالآية تشهد بسياقها على أن المراد بالحسنة والسيئة ما يمكن أن يسند الى الله سبحانه، وقد أسندوا قسماً منه الى الله تعالى وهو الحسنة، وقسماً الى النبي ﷺ وهو السيئة فهذه الحسنات والسيئات هي الحوادث التي كانت تستقبلهم بعد ما أتاهم النبي ﷺ وأخذ في ترفيع مباني الدين ونشر دعوته وصيته بالجهاد، فهي الفتح والظفر والغنيمة فيما غلبوا فيه من الحروب والمغازي، والقتل والجرح والبلوى في غير ذلك، وإسنادهم السيئات الى النبي ﷺ في معنى التطيّر به أو نسبة ضعف الرأي ورداءة التدبير إليه.

فأمر تعالى نبيه ﷺ بأن يجيبهم بقوله «قل كل من عند الله» فانها حوادث ونوازل ينظمها ناظم النظام الكوني، وهو الله وحده لا شريك له اذ الأشياء إنما تنقاد في وجودها وبقائها وجميع ما يستقبلها من الحوادث له تعالى لا غير. على ما يعطيه تعليم القرآن.

ثم استفهم استفهام متعجّب من جمود فهمهم وخمود فطنتهم من فقه هذه الحقيقة وفهمها فقال: «فما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثا».

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، لمّا ذكر أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً ثم أراد بيان حقيقة الأمر، صرف الخطاب عنهم لسقوط فهمهم، ووجّه وجه الكلام الى النبي ﷺ، وبيّن حقيقة ما يصيبه من حسنة أو سيئة لذاك الشأن، وليس للنبي ﷺ في نفسه خصوصية في هذه الحقيقة التي هي من الأحكام الوجودية الدائرة بين جميع الموجودات، ولا أقل بين جميع الأفراد من الإنسان من مؤمن أو كافر، أو صالح أو طالح، ونبي أو من دونه.

فالحسنات وهي الامور التي يستحسنها الإنسان بالطبع كالعافية والنعمة والأمن والرفاهية كل ذلك من الله سبحانه، والسيئات وهي الامور التي تسوء الإنسان كالمرض

والذلة والمسكنة والفتنة كل ذلك يعود الى الإنسان لا إليه سبحانه فالآية قريبة مضموناً من قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ (الأنفال / ٥٣)، ولا ينافي ذلك رجوع جميع الحسنات والسيئات بنظر كلي آخر إليه تعالى كما سيجيء بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ أي لا سمة لك من عندنا إلا أنك رسول وظيفتك البلاغ، وشأنك الرسالة لا شأن لك سواها وليس لك من الأمر شيء حتى تؤثر في ميمنة أو مشأمة، أو تجر الى الناس السيئات، وتدفع عنهم الحسنات، وفيه رد تعريضي لقوله أولئك المتطيّرين في السيئات «هذه من عندك» تشأماً به ﷺ ثم أيد ذلك بقوله «وكفى بالله شهيداً».

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، استئناف فيه تأكيد وتشبيت لقوله في الآية السابقة «وأرسلناك للناس رسولاً»، وبمنزلة التعليل لكلمه أي ما أنت إلا رسولاً منا من يطعك بما أنت رسول فقد أطاع الله، ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً.

ومن هنا يظهر أن قوله «من يطع الرسول»، من قبيل وضع الصفة موضع الموصوف للإشعار بعلّة الحكم نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ وعلى هذا فالسياق جار على استقامة من غير التفات من الخطاب في قوله «وأرسلناك»، الى الغيبة في قوله «من يطع الرسول»، ثم الى الخطاب في قوله «فما أرسلناك»[1][2].

---

١. النساء: ٧٧ ـ ٨٠. كلام في استناد الحسنات والسيئات اليه تعالى.

٢. النساء: ٧٧ ـ ٨٠ بحث روائي في: في جماعة من المنافقين لم يحضروا الجهاد؛ ابتلاء المؤمن في الدنيا ومكافأته في الآخرة؛ حبّ علي عليه السلام.

٨١ ● وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً.

٨٢ ● أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً.

٨٣ ● وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً.

٨٤ ● فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ الخ: «طاعة» مرفوع على الخبرية على ما قيل، والتقدير: أمرنا طاعة أي نطيعك طاعة، والبروز الظهور والخروج، والتبييت من البيتوتة، ومعناه إحكام الأمر وتدبيره ليلاً، والضمير في «تقول» راجع الى «طائفة» أو الى النبي ﷺ.

والمعنى ـ والله أعلم ـ: ويقول هؤلاء مجيبين لك فيما تدعوهم إليه من الجهاد: أمرنا طاعة،

فاذا أخرجوا من عندك دبروا ليلاً أمراً غير ما أجابوك به وقالوا لك، أو غيرما قلته أنت لهم، وهو كناية عن عقدهم النية على مخالفة رسول الله ﷺ.

ثم أمر الله رسوله بالاعراض عنهم والتوكل في الامر والعزيمة فقال «فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» ولا دليل في الآية على كون المحكي عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر الى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية: تحضيض في صورة الاستفهام. التدبر هو أخذ الشيء بعد الشيء، وهو في مورد الآية التأمل في الآية عقيب الآية أو التأمل بعد التأمل في الآية لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه، وذلك إنما يكون بين أزيد من آية واحدة كان المعنى الاول أعني التأمل في الآية هو العمدة وإن كان ذلك لا ينفي المعنى الثاني أيضاً.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا في الآيات القرآنية، ويراجعوا في كل حكم نازل أو حكمة مبينة أو قصة أو عظة أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطة به مما نزلت مكيتها ومدنيتها، ومحكمها ومتشابهها، ويضموا البعض الى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها، فالآيات يصدق قديمها حديثها، ويشهد بعضها على بعض من غير أن يكون بينها أي اختلاف مفروض: لا اختلاف التناقض بأن ينفي بعضها بعضا أو يتدافعا، ولا اختلاف التفاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانة المعاني والمقاصد بكون البعض أحكم بنياناً وأشد ركناً من بعض كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه الجلود. فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم الى أنه كتاب منزل من الله، وليس من عند غيره اذ لو كان من عند غيره لم يسلم من كثرة الاختلاف، وذلك أن غيره تعالى من هذه الموجودات الكونية ـ ولاسيما الإنسان الذي يرتاب أهل الريب أنه من كلامه ـ كلها موضوعة بحسب الكينونة الوجودية وطبيعة الكون على التحرك والتغير والتكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف

الأطراف، متفاوت الحالات.

ما من إنسان إلا وهو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس، وأن ما ينشئه من عمل أو صنعة أو ما أشبه ذلك أو يدبره من راي أو نظر أو نحوهما أخيراً أحكم وأمتن مما أتى به أولاً حتى العمل الواحد الذي فيه شيء من الامتداد الوجودي كالكتاب يكتبه الكاتب، والشعر يقوله الشاعر، والخطبة يخطبها الخطيب، وهكذا يوجد عند الإمعان آخره خيراً من أوله، وبعضه أفضل من بعض.

فالواحد من الإنسان لا يسلم في نفسه وما يأتي به من العمل من الاختلاف، وليس هو بالواحد والاثنين من التفاوت والتناقض بل الاختلاف الكثير، وهذا ناموس كلي جار في الانسان وما دونه من الكائنات الواقعة تحت سيطرة التحول والتكامل العاميّن لا ترى واحداً من هذه الموجودات يبقى آنين متواليين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته وأحواله.

ومن هنا يظهر وجه التقييد بالكثير في قوله «اختلافاً كثيراً» فالوصف وصف توضيحي لا احترازي، والمعنى: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً، وكان ذلك الاختلاف كثيراً على حد الاختلاف الكثير الذي في كل ما هو من عند غير الله، وليس المعنى أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

وبالجملة لا يلبث المتدبرون أن يشاهد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشؤون المرتبطة بالانسانية من معارف المبدأ والمعاد والخلق والإيجاد، ثم الفضائل العامة الإنسانية، ثم القوانين الاجتماعية والفردية الحاكمة في النوع حكومة لا يشذ منها دقيق ولا جليل، ثم القصص والعبر والمواعظ ببيان دعا الى مثلها أهل الدنيا، وبآيات نازلة نجوماً في مدة تعدّل ثلاثاً وعشرين سنة على اختلاف الأحوال من ليل ونهار، ومن حضر وسفر، ومن حرب وسلم، ومن ضراء وسراء، ومن شدة ورخاء، فلم يختلف حاله في بلاغته الخارقة المعجزة، ولا في معارفه العالية وحكمه السامية، ولا في قوانينه الاجتماعية والفردية، بل ينعطف آخره الى ما قر عليه أوله،

وترجع تفاصيله وفروعه الى ما ثبت فيه أعراقه وأصوله، يعود تفاصيل شرائعه وحكمه بالتحليل إلى حاق التوحيد الخالص وينقلب توحيده الخالص بالتركيب الى أعيان ما أفاده من التفاصيل، هذا شأن القرآن.

والإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضي بشعوره الحي، وقضائه الجبلي أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام والتحوّل والتكامل العاملان في الأكوان بل هو الله الواحد القهار.

وقد تبين من الآية (أولاً): أن القرآن مما يناله الفهم العادي. و(ثانياً): أن الآيات القرآنية يفسر بعضها بعضاً. و(ثالثاً): أن القرآن كتاب لا يقبل نسخاً ولا إبطالاً ولا تكميلاً ولا تهذيباً، ولا أي حاكم يحكم عليه أبداً، وذلك أن ما يقبل شيئاً منها لا مناص من كونه يقبل نوعاً من التحوّل والتغير بالضرورة، واذ كان القرآن لا يقبل الاختلاف فليس يقبل التحول والتغير فليس يقبل نسخاً ولا إبطالاً ولا غير ذلك، ولازم ذلك أن الشريعة الإسلامية مستمرة الى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ الإذاعة هي النشر والإشاعة، وفي الآية نوع ذمّ وتعيير لهم في شأن هذه الاذاعة، وفي قوله في ذيل الآية «ولولا فضل الله» الخ؛ دلالة على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهة هذه الإذاعة، وليس إلا خطر مخالفة الرسول فإن الكلام في هذه الآيات موضوع في ذلك، ويؤيد ذلك ما في الآية التالية من أمر الرسول بالقتال ولو بقي وحده بلا ناصر.

ويظهر به أن الأمر الذي جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التي كانت تأتي بها أيدي الكفار ورسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق والخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر وتبصّر فيوجب ذلك وهناً في عزيمة المؤمنين، غير أن الله سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لاخزاء المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لم يذكر هيهنا الردّ الى الله كما ذكر في قوله: ﴿فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول﴾ الآية (النساء / ٥٩)؛ لأن الرد المذكور هناك هو رد الحكم الشرعي المتنازع فيه، ولا صنع فيه لغير الله ورسوله.

وأما الرد المذكور هيهنا فهو رد الخبر الشائع بين الناس من أمن أو خوف، ولا معني لرده الى الله وكتابه، بل الصنع فيه للرسول ولأولي الأمر منهم، لو رُدّ إليهم أمكنهم أن يستنبطوه ويذكروا للرادّين صحته أو سقمه، وصدقه أو كذبه.

فالمراد بالعلم التمييز تمييز الحق من الباطل، والصدق من الكذب على حدّ قوله تعالى: ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ (المائدة / ٩٤)، وقوله: ﴿وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾ (العنكبوت / ١١).

والاستنباط استخراج القول من حال الإبهام الى مرحلة التمييز والمعرفة، وأصله من النبط (محركة)، وهو أول ما يخرج من ماء البئر، وعلى هذا يمكن أن يكون الاستنباط وصفاً للرسول وأُولى الأمر بمعني أنهم يحقّقون الأمر فيحصلون على الحق والصدق وأن يكون وصفاً لهؤلاء الرادين لو ردوا فإنهم يعملون حق الامر وصدقه بإنباء الرسول وأُولى الامر لهم.

فيعود معني الآية إن كان المراد بالذين يستنبطونه منهم الرسول وأُولى الامر كما هو الظاهر من الآية: لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول وأولى الامر أي اذا استصوبه المسؤلون ورأوه موافقاً للصلاح، وإن كان المراد بهم الرادّين: لعلمه الذين يستفسرونه ويبالغون في الحصول على أصل الخبر من هؤلاء الرادين.

وأما أُولوا الامر في قوله: واولوا الأمر منهم «فالمراد بهم هو المراد بأُولى الامر في قوله ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولى الامر منكم﴾ (النساء / ٥٩) على ما تقدم من اختلاف

المفسرين في تفسيره وقد تقدم أن اصول الاقوال في ذلك ترجع الى خمسة، غير أن الذي استفدناه من المعنى أظهر في هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قد تقدم أن الأظهر كون الآيات مشيرة الى قصة بدر الصغرى، وبعث أبي سفيان نعيم بن مسعود الاشجعي الى المدينة لبسط الخوف والوحشة بين الناس واخزائهم في الخروج الى بدر فالمراد باتباع الشيطان التصديق بما جاء به من النبأ، واتباعه في التخلف عن الخروج الى بدر.

وبذلك يظهر استقامة معنى الاستثناء من غير حاجة الى تكلف أو تمحل فإن نعيماً كان يخبرهم أن أبا سفيان جمع الجموع وجهز الجيوش فاخشوهم ولا تلقوا بأنفسكم الى حياض القتل الذريع، وقد أثر ذلك في قلوب الناس فتعلّلوا عن الخروج الى موعدهم ببدر، ولم يسلم من ذلك إلا النبي ﷺ وبعض خاصّته وهو المراد بقوله تعالى: «إلا قليلاً»، فقد كان الناس تزلزلوا إلا القليل منهم ثم لحقوا بذلك القليل وساروا.

وهذا الذي استظهرناه من معنى الاستثناء هو الذي يؤيده ما مر ذكره من القرائن، على ما فيه من الاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التكليف من الكلفة بمعنى المشقة لما فيه من تحميل المشقة على المكلَّف، والتنكيل من النكال، وهو على ما في المجمع: ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا يعود الى مثله وليعتبر به غيره من المكلَّفين.

والفاء في قوله «فقاتل في سبيل الله»، للتفريع والامر بالقتال متفرّع على المستحصل من

---

١. النساء: ٨١ ـ ٨٤، بحث في اولي الامر.

مضامين الآيات السابقة. وهو تثاقل القوم في الخروج الى العدو وتبطئتهم في ذلك، ويدل عليه ما يتلوه من الجمل أعني قوله «لا تكلّف إلا نفسك» الخ؛ فإن المعني: فاذا كانوا يتثاقلون في أمر الجهاد ويكرهون القتال فقاتل أنت يا رسول الله بنفسك، ولا يشق عليك تثاقلهم ومخالفتهم لأمر الله سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك، وإنما يتوجه اليك تكليف نفسك لا تكليفهم، وإنما عليك في غيرك أن تحرضهم فقاتل وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا. وقوله «لا تكلف إلا نفسك» أي لا تكلف أنت شيئاً إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ﴾ الخ؛ قد تقدم أن «عسى» تدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائماً بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجة الى ما ذكروه من أن «عسى» من الله حتم.

وفي الآية دلالة على زيادة تعيير من الله سبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم الى أن أمر الله نبيَّه بالقيام بالقتال بنفسه، وأن يعرض عن المتثاقلين ولا يلحَّ عليهم بالإجابة ويخليهم وشأنهم، ولا يضيق بذلك صدره فليس عليه إلا تكليف نفسه وتحريض المؤمنين أطاع من أطاع، وعصى من عصى.

٨٥ ● مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً.

٨٦ ● وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً.

٨٧ ● اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً.

٨٨ ● فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً.

٨٩ ● وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً.

٩٠ ● إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً.

٩١ ● سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾، النصيب والكفل بمعنى واحد، ولما كانت الشفاعة نوع توسط لترميم نقيصة أو لحيازة مزية ونحو ذلك كانت لها نوع سببية لإصلاح شأن فلها شيء من التبعة والمثوبة المتعلقتين بما لأجله الشفاعة، وهو مقصد الشفيع والمشفوع له فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعة، وهو قوله تعالى: «من يشفع شفاعة» الخ؛.

وفي ذكر هذه الحقيقة تذكرة للمؤمنين، وتنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشفاعة لما يشفعون له، ويجتنبوها إن كان المشفوع لأجله مما فيه شر وفساد كالشفاعة للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا، فإن في ترك الفساد القليل على حاله، وإمهاله في أن ينمو ويعظم فساداً معقباً لا يقوم له شيء، ويهلك به الحرث والنسل فالآية في معنى النهي عن الشفاعة السيئة وهي شفاعة أهل الظلم والطغيان والنفاق والشرك المفسدين في الارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ (الآية)؛ أمر بالتحية قبال التحية بما يزيد عليها أو يماثلها، وهو حكم عام لكل تحية حيّي بها، غير أن مورد الآيات هو تحية السلم والصلح التي تلقي المسلمين على ما يظهر من الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ الخ؛ معنى الآية ظاهر، وهي بمنزلة التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل: خذوا بما كلفكم الله في أمر الشفاعة الحسنة والسيئة، ولا تبطلوا تحية من يحييكم بالإعراض والرّد فإن أمامكم يوماً يجمعكم الله فيه ويجازيكم على إجابة ما دعاكم إليه وردّه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ (الآية)؛ الفئة الطائفة، والإركاس الردّ.

والآية بما لها من المضمون كأنها متفرعة على ما تقدم من التوطئة والتمهيد أعني قوله «من يشفع شفاعة» (الآية)؛ والمعني: فاذا كانت الشفاعة السيئة تعطى لصاحبها كفلا من مساءتها فما لكم أيها المؤمنون تفرقتم في أمر المنافقين فئتين، وتحزّبتم حزبين: فئة ترى قتالهم، وفئة تشفع لهم وتحرّض على ترك قتالهم، والإغماض عن شجرة الفساد التي تنمو بنائهم، وتثمر برشدهم، والله ردهم الى الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما كسبوا من سيئات الأعمال، أتريدون بشفاعتكم أن تهدوا هؤلاء الذين أضلهم الله؟ ومن يضلل الله فما له من سبيل الى الهدى.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ التفات من خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله ﷺ إشارة الى أن من يشفع لهم من المؤمنين لا يتفهم حقيقة هذا الكلام حق التفهم، ولو فقه لم يشفع في حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به وألقى الى من هو بين واضح عنده وهو النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ الخ: هو بمنزلة البيان لقوله «والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله»، والمعني: أنهم كفروا وزادوا عليه أنهم ودوا وأحبوا أن تكفروا مثلهم فتستووا.

ثم نهاهم عن ولايتهم إلا أن يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فليس عليكم فيهم إلا أخذهم وقتلهم حيث وجدتموهم، والاجتناب عن ولايتهم ونصرتهم، وفي قوله «فإن تولّوا»، دلالة على أن على المؤمنين أن يكلفوهم بالمهاجرة فإن أجابوا فليوالوهم، وإن تولوا فيقتلوهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ استثني الله سبحانه من قوله «فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم»، طائفتين: (إحداهما) الذين يصلون، الخ؛ أي بينهم وبين بعض أهل الميثاق ما يوصلهم بهم من حلف ونحوه، و(الثانية) الذين يتحرجون من مقاتلة المسلمين ومقاتلة قومهم لقتلهم أو

لعوامل أُخر، فيعتزلون المؤمنين ويلقون إليهم السلم لا للمؤمنين ولا عليهم بوجه، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور، وقوله «حصرت صدورهم»، أي ضاقت.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾، إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفة الثانية من الطائفتين المستثناتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم غير أن الله سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين في مواعدتهم وموادعتهم، ولذا بدّل الشرطين المثبتين في حق غيرهم أعني قوله: «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم» وبالشرط المنفي أعني قوله «فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم» الخ؛ وهذا في معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم، ومعنى الآية ظاهر[1][2].

٩٢ ● وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

٩٣ ● وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً.

---

١. النساء ٨٥ ـ ٩١: في معنى التحية.

٢. النساء ٨٥ ـ ٩١: بحث روائي في: السلام والتحية، العطسة.

٩٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً ـ الى قوله ـ يَصَّدَّقُوا﴾ التحرير جعل المملوك حراً، والرقبة هي العنق شاع إستعمالها في النفس المملوكة مجازاً، والدية ما يعطي من المال عوضاً عن النفس أو العضو أو غيرهما، والمعنى: ومن قتل مؤمناً بقتل الخطأ وجب عليه تحرير نفس مملوكة مؤمنة، وإعطاء دية يسلمها الى أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتيل الدية على معطيها ويعفوا عنها فلا تجب الدية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾، الضمير يرجع الى المؤمن المقتول، والقوم العدو هم الكفار المحاربون، والمعنى: إن كان المقتول خطأ مؤمناً وأهله كفّار محاربون لا يرثون وجب التحرير ولا دية اذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ﴾، الضمير في «كان» يعود الى المؤمن المقتول أيضاً على ما يفيده السياق، والميثاق مطلق العهد أعم من الذمة وكل عهد، والمعنى: وإن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم وبينهم عهد وجبت الدية وتحرير الرقبة، وقد قدّم ذكر الدية تأكيداً في مراعاة جانب الميثاق.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ﴾، أي من لم يستطع التحرير ـ لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ ـ وجب عليه صيام شهرين متتابعين.

قوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ الخ: أي هذا الحكم وهو إيجاب الصيام توبة وعطف رحمة من الله لفاقد الرقبة. وينطبق على التخفيف فالحكم تخفيف من الله في حق غير المستطيع، ويمكن أن يكون قوله «توبة» قيداً راجعاً الى جميع ما ذكر في الآية من الكفارة أعني قوله «فتحرير رقبة» الخ؛ والمعنى: أن جعل الكفارة للقاتل خطأ توبة وعناية من الله للقاتل فيما لحقه من درن هذا الفعل قطعاً. وليتحفّظ على نفسه في عدم المحاباة في المبادرة الى القتل نظير قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة» (البقرة / ١٧٩).

وكذا هو توبة من الله للمجتمع وعناية لهم حيث يزيد به في أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحداً، ويرمّم ما ورد على أهل المقتول من الضرر المالي بالدية المسلّمة.

ومن هنا يظهر أن الاسلام يرى الحرية حياة والاسترقاق نوعاً من القتل، ويرى المتوسط من منافع وجود الفرد هو الدية الكاملة. وسنوضح هذا المعنى في ما سيأتي من المباحث.

وأما تشخيص معنى الخطأ والعمد والتحرير والدية وأهل القتيل والميثاق وغيره المذكورات في الآية فعلى السنّة. من أراد الوقوف عليها فليراجع الفقه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾. التعمّد هو القصد الى الفعل بعنوانه الذي له، وحيث ان الفعل الاختياري لا يخلو من قصد العنوان وكان من الجائز أن يكون لفعل أكثر من عنوان واحد أمكن ان يكون فعل واحد عمدياً من جهة خطائياً من أُخرى فالرامي الى شبح وهو يزعم انه من الصيد وهو في الواقع انسان اذا قتله كان متعمداً الى الصيد خاطئاً في قتل الانسان، وكذا اذا ضرب إنساناً بالعصى قاصداً تأديبه فقتلته الضربة كان القتل قتل خطأ، وعلى هذا فمن يقتل مؤمناً متعمداً هو الذي يقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل وان المقتول مؤمن.

وقد أغلظ الله سبحانه وتعالى في وعيد قاتل المؤمن متعمداً بالنار الخالدة غير أنك عرفت في الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر ان يشرك به﴾ (النساء / ٤٨) ان تلك

الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ (الزمر / ٥٣) تصلحان لتقييد هذه الآية فهذه الآية توعد بالنار الخالدة لكنّها ليست بصريحة في الحتم فيمكن العفو بتوبة أو شفاعة.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الضرب هو السير في الأرض والمسافرة، وتقييده بسبيل الله يدل على أن المراد به هو الخروج للجهاد، والتبيّن هو التميز والمراد به التميز بين المؤمن والكافر بقرينة قوله «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» والمراد بإلقاء السلام إلقاء التحية تحية أهل الايمان. وقرء «لمن ألقى اليكم السلم» بفتح اللام وهو الاستسلام.

والمراد بابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال والغنيمة، وقوله «فعند الله مغانم كثيرة» جمع مغنم وهو الغنيمة أي ما عند الله من المغانم أفضل من مغنم الدنيا الذي يريدونه لكثرتها وبقائها فهي التي يجب عليكم أن تؤثروها.

قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ الخ؛ أي على هذا الوصف. وهو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ـ كنتم من قبل ان تؤمنوا فمن الله عليكم بالايمان الصارف لكم عن ابتغاء عرض الحياة الدنيا الى ما عند الله من المغانم الكثيرة فاذا كان كذلك فيجب عليكم ان تتبيّنوا، وفي تكرار الأمر بالتبيّن تأكيد في الحكم.

والآية مع اشتمالها على العظة ونوع من التوبيخ لا تصرّح بكون هذا القتل الذي ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمّداً، فالظاهر انه كان قتل خطأ من بعض المؤمنين لبعض من ألقى السلم من المشركين لعدم وثوق القاتل بكونه مؤمناً حقيقة بزعم أنه انما يظهر الايمان خوفاً على نفسه، والآية توبخه بأن الاسلام انما يعتبر بالظاهر، ويحل أمر القلوب الى اللطيف الخبير.

وعلى هذا فقوله «تبتغون عرض الحياة الدنيا» موضوع في الكلام على اقتضاء الحال، أي

حالكم في قتل من يظهر لكم الايمان من غير اعتناء بأمره وتبيّن في شأنه حال من يريد المال والغنيمة فيقتل المؤمن المتظاهر بالايمان بأدنى ما يعتذر به من غير أن يكون من موجه العذر، وهذا هو الحال الذي كان عليه المؤمنون قبل ايمانهم لا يبتغون الا الدنيا فاذ أنعم الله عليهم بالايمان، ومنّ عليهم بالاسلام كان الواجب عليهم ان يتبيّنوا فيما يصنعون ولا ينقادوا لأخلاق الجاهلية وما بقي فيهم من اثارتها[1].

٩٥ ● لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً.

٩٦ ● دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

٩٧ ● إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً.

٩٨ ● إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً.

٩٩ ● فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً.

---

١. النساء ٩٢ ـ ٩٤: بحث رواني في القتل.

١٠٠ ● وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ - الى قوله - وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الضرر هو النقصان في الوجود المانع من القيام بأمر الجهاد والقتال كالعمى والعرج والمرض، والمراد بالجهاد بالأموال إنفاقها في سبيل الله للظفر على أعداء الدين، وبالأنفس القتال.

وقوله «وكلاً وعد الله الحسنى»، يدل على أن المراد بهؤلاء القاعدين هم التاركون للخروج الى القتال عند ما لا حاجة الى خروجهم لخروج غيرهم على حدّ الكفاية فالكلام مسوق لترغيب الناس وتحريضهم على القيام بأمر الجهاد والتسابق فيه والمسارعة إليه.

ومن الدليل على ذلك أن الله سبحانه استثنى أُولى الضرر ثم حكم بعدم الاستواء مع أن أُولى الضرر كالقاعدين في عدم مساواتهم المجاهدين في سبيل الله وإن قلنا: إن الله سبحانه يتدارك ضررهم بنيّاتهم الصالحة فلاشك أن الجهاد والشهادة أو الغلبة على عدوّ الله من الفضائل التي فضل بها المجاهدون في سبيل الله على غيرهم، وبالجملة ففي الكلام تحضيض للمؤمنين وتهييج لهم، وإيقاظ لروح إيمانهم لاستباق الخير والفضيلة.

قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ الجملة في مقام التعليل لقوله «لا يستوى»، ولذا لم توصل بعطف ونحوه، والدرجة هي المنزلة، والدرجات المنزلة بعد المنزلة، وقوله «وكلاً وعد الله الحسنى» أي وعد الله كلاً

من القاعدين والمجاهدين، أو كلاً من القاعدين غير أُولى الضرر والقاعدين أولى الضرر والمجاهدين الحسنى، والحسنى وصف محذوف الموصوف أي العاقبة الحسنى أو المثوبة الحسنى أو ما يشابه ذلك، والجملة مسوقة لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنين ربما أمكنه أن يتوهم من قوله «لا يستوي ـ الى قوله ـ درجة» أنه صفر الكفّ لا فائدة تعود إليه من ايمانه وسائر أعماله فدفع ذلك بقوله «وكلاً وعد الله الحسنى».

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ هذا التفضيل بمنزلة البيان والشرح لإجمال التفضيل المذكور أولاً. ويفيد مع ذلك فائدة أُخرى، وهي الإشارة الى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يقنعوا بالوعد الحسن الذي يتضمّنه قوله «وكلاً وعد الله الحسنى» فيتكاسلوا في الجهاد في سبيل الله والواجب من السعي في إعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل فإن فضل المجاهدين على القاعدين بما لا يستهان به من درجات المغفرة والرحمة.

وأمر الآية في سياقها عجيب، أما أولاً: فلأنها قيدت المجاهدين (أولاً) بقوله «في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» و(ثانياً» بقوله «بأموالهم وأنفسهم» و(ثالثاً» أوردته من غير تقييد. وأما ثانياً: فلأنها ذكرت في التفضيل (أولاً) أنها درجة، و(ثانياً) انها درجات منه.

والضمير في قوله «منه» لعله راجع الى الله سبحانه، ويؤيده قوله «ومغفرة ورحمة» بناء على كونه بياناً للدرجات. والمغفرة والرحمة من الله، ويمكن رجوع الضمير الى الأجر المذكور قبلاً.

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ ظاهره كونه بياناً للدرجات فإن الدرجات وهي المنازل من الله سبحانه أياماً كانت فهي مصداق المغفرة والرحمة، وقد علمت في بعض المباحث السابقة أن الرحمة ـ وهي الإفاضة الإلهية للنعمة ـ تتوقف على إزالة الحاجب ورفع المانع من التلبس بها، وهي المغفرة، ولازمه أن كل مرتبة من مراتب النعم، وكل درجة ومنزلة رفيعة

مغفرة بالنسبة الى المرتبة التي بعدها، والدرجة التي فوقها، فصح بذلك أن الدرجات الاخروية كائنة ماكانت مغفرة ورحمة من الله سبحانه، وغالب ما تذكر الرحمة وما يشابهها في القرآن تذكر معها المغفرة كقوله: ﴿مغفرة وأجر عظيم﴾ (المائدة / ٩) وقوله: ﴿ومغفرة ورزق كريم﴾ (الأنفال / ٤)، وقوله: ﴿مغفرة وأجر كبير﴾ (هود / ١١)، وقوله: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ (الحديد / ٢٠)، وقوله: ﴿واغفر لنا وارحمنا﴾ (البقرة / ٢٨٦) الى غير ذلك من الآيات.

ثم ختم الآية قبقوله «وكان الله غفوراً رحيماً» ومناسبة الاسمين مع مضمون الآية ظاهرة لاسيما بعد قوله في ذيلها (ومغفرة ورحمة).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّٰيهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ لفظ «توفاهم» صيغة ماض أو صيغة مستقبل ـ والأصل تتوفاهم حذفت إحدى التائين من اللفظ تخفيفاً ـ نظير قوله تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء﴾ (النحل / ٢٨).

والمراد بالظلم كما تؤيده الآية النظيرة هو ظلمهم لأنفسهم بالاعراض عن دين الله وترك إقامة شعائره من جهة الوقوع في بلاد الشرك والتوسط بين الكافرين حيث لا وسيلة يتوسل بها الى تعلم معارف الدين، والقيام بما تندب إليه من وظائف العبودية، وهذا هو الذي يدل عليه السياق في قوله «قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض» الى آخر الآيات الثلاث.

وقد فسّر الله سبحانه الظالمين (اذا أُطلق) في قوله: ﴿لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ (الأعراف / ٤٥، هود / ١٩)، ومحصّل الآيتين تفسير الظلم بالاعراض عن دين الله وطلبه عوجا ومحرّفاً، وينطبق على ما يظهر من الآية التي نحن فيها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي فيماذا كنتم من الدين، وكلمة «مَ» هي ما الاستفهامية حذفت عنها الألف تخفيفاً.

وفي الآية دلالة في الجملة على ما تسمّيه الأخبار بسؤال القبر، وهو سؤال الملائكة عن دين الميّت بعد حلول الموت كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ الآيات (النحل / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ كان سؤال الملائكة (فيم كنتم) سؤالاً عن الحال الذي كانوا يعيشون فيه من الدين، ولم يكن هؤلاء المسؤولون على حال يعتد به من جهة الدين فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب وهو أنهم كانوا يعيشون في ارض لا يتمكنون فيها من التلبُّس بالدين لكون أهل الأرض مشركين أقوياء فاستضعفوهم فحالوا بينهم وبين الأخذ بشرائع الدين والعمل بها.

ولمّا كان هذا الذي ذكروه من الاستضعاف ـ لو كانوا صادقين فيه ـ إنما حل بهم من حيث إخلادهم الى أرض الشرك، وكان استضعافهم من جهة تسلط المشركين على الأرض التي ذكروها، ولم تكن لهم سلطة على غيرها من الأرض فلم يكونوا مستضعفين على أي حال بل في حال لهم أن يغيروه بالخروج والمهاجرة كذبتهم الملائكة في دعوى الاستضعاف بأن الأرض أرض الله كانت أوسع مما وقعوا فيه ولزموه، وكان يمكنهم أن يخرجوا من حومة الاستضعاف بالمهاجرة، فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقة لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف، وإنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ كما

في قوله «فيم كنتم» ويمكن أن يكون أول الاستفهامين للتقرير كما هو ظاهر ما مر نقله من آيات سورة النحل لكون السؤال فيها عن الظالمين والمتقين جميعاً، وثاني الاستفهامين للتوبيخ على أي حال.

وقد أضافت الملائكة الى الله، ولا يخلو من إيماء الى أن الله سبحانه هيّأ في أرضه سعة أولاً ثم دعاهم الى الايمان والعمل كما يشعر به أيضاً قوله بعد آيتين «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة» (الآية).

ووصف الأرض بالسعة هو الموجب للتعبير عن الهجرة بقوله «فتهاجروا فيها» أي تهاجروا من بعضها الى بعضها، ولولا فرض السعة لكان يقال: فتهاجروا منها. ثم حكم الله في حقهم بعد إيراد المساءلة بقوله «فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾. الاستثناء منقطع، وفي إطلاق المستضعفين على هؤلاء بالتفسير الذي فسره به دلالة على أن الظالمين المذكورين لم يكونوا مستضعفين لتمكنهم من رفع قيد الاستضعاف عن أنفسهم وإنما الاستضعاف وصف هؤلاء المذكورين في هذه الآية، وفي تفصيل بيانهم بالرجال والنساء والولدان إيضاح للحكم الإلهي ورفع للبس. وقوله «لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً» الحيلة كأنها بناء نوع من الحيلولة ثم استعملت استعمال الآلة فهي ما يتوسل به الى الحيلولة بين شيء وشيء أو حال للحصول على شيء أو حال آخر، وغلب استعماله في ما يكون على خفية، وفي الامور المذمومة، وفي مادتها على أي حال معنى التغيّر على ما ذكره الراغب في مفرداته.

والمعنى: لا يستطيعون ولا يتمكنون أن يحتالوا لصرف ما يتوجه إليهم من استضعاف المشركين عن أنفسهم، ولا يهتدون سبيلاً يتخلصون بها عنهم فالمراد من السبيل على ما يفيده السياق أعم من السبيل الحسّي كطريق المدينة لمن يريد المهاجرة إليها من مسلمي مكة،

والسبيل المعنوي وهو كل ما يخلصهم من أيدي المشركين، واستضعافهم لهم بالعذاب والفتنة[1].

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، هؤلاء وان لم يكسبوا سيّئة لمعذوريّتهم في جهلهم لكنّا بيّنا سابقاً أن أمر الانسان يدور بين السعادة والشقاوة وكفى في شقائه أن لا يجوز لنفسه سعادة، فالانسان لا غنى له في نفسه عن العفو الالهي الذي يعني به أثر الشقاء سواء كان صالحاً أو طالحاً أو لم يكن، ولذلك ذكر الله سبحانه رجاء عفوهم.

وإنما اختير ذكر رجاء عفوهم ثم عقب ذلك بقوله «وكان الله عفواً غفوراً» اللائح منه شمول العفو لهم لكونهم مذكورين في صورة الاستثناء من الظالمين الذين أوعدوا بأن مأواهم جهنم وساءت مصيراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ قال الراغب: الرغام (بفتح الراء) التراب الرقيق، ورغم أنف فلان رغماً وقع في الرغام، وارغمه غيره، ويعبّر بذلك عن السخط كقول الشاعر:

اذا رغمت تلك الانوف لم أُرضها ولم أطلب العتبى ولكن أزيدها

فقابلة بالإرضاء مما ينبه على دلالته على الإسخاط، وعلى هذا قيل: أرغم الله أنفه، وأرغمه أسخطه، وراغمه ساخطه، وتجاهدا على ان يرغم أحدهما الآخر ثم يستعار المراغمة للمنازعة قال الله تعالى «يجد في الارض مراغماً كثيراً» أي مذهباً يذهب إليه اذا رأى منكراً يلزمه ان يغضب منه كقولك: غضبت الى فلان من كذا ورغمت إليه (انتهى).

فالمعنى: ومن يهاجر في سبيل الله، أي طلباً لمرضاته في التلبّس بالدين علماً يجد في الارض مواضع كثيرة كلما منعه مانع في بعضها من اقامة دين الله استراح الى بعض آخر

---

١. النساء ٩٥ـ ١٠٠: كلام في المستضعف.

بالهجرة إليه لإرغام المانع واسخاطه أو لمنازعته المانع ومساخطته، ويجد سعة في الارض.

وقد قال تعالى في سابق الآيات «ألم تكن أرض الله واسعة»، ولازم التفريع عليه أن يقال: ومن يهاجر يجد في الارض سعة الا أنه لما زيد قوله «مراغماً كثيراً» وهو من لوازم سعة الارض لمن يريد سلوك سبيل الله قيدت المهاجرة أيضاً بكونها في سبيل الله ليتطبق على الغرض من الكلام، وهو موعظة المؤمنين القاطنين في دار الشرك وتهييجهم وتشجيعهم على المهاجرة وتطييب نفوسهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخ: المهاجرة الى الله ورسوله كناية عن المهاجرة الى أرض الإسلام التي يتمكن فيها من العلم بكتاب الله وسنّة رسوله، والعمل به.

وادراك الموت استعارة بالكناية عن وقوعه أو مفاجأته فان الإدراك هو سعي اللاحق بالسير الى السابق ثم وصوله اليه، وكذا وقوع الأجر على الله استعارة بالكناية عن لزوم الأجر والثواب له تعالى واخذه ذلك في عهدته، فهناك اجر جميل وثواب جزيل سيوافى به العبد لا محالة، والله سبحانه يوافيه بألوهيته التي لا يعزها شيء ولا يعجزها شيء ولا يمتنع عليها ما أرادته، ولا تخلف الميعاد. وختم الكلام بقوله «وكان الله غفوراً رحيماً» تأكيداً للوعد الجميل بلزوم توفية الأجر والثواب[1][2].

١٠١ ● وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً

---

١. بحث في: اقامة المؤمنين في دار الايمان ودار الشرك، الهجرة الى دار الايمان.

٢. النساء ٩٥ ـ ١٠٠: بحث روائي في: المنافقين: الهجرة الى دار الايمان: المستضعفين.

١٠٢ ● وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلٰوةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا.

١٠٣ ● فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلٰوةَ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا.

١٠٤ ● وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلٰوةِ﴾ الجناح الاثم والحرج والعدول، والقصر النقص من الصلاة، قال في المجمع: في قصر الصلاة ثلاث لغات: قصرت الصلاة أقصرها وهي لغة القرآن، وقصّرتها تقصيراً، أقصرتها اقصاراً.

والمعنى: اذا سافرتم فلا مانع من حرج واثم ان تنقصوا شيئاً من الصلاة، ونفي الجناح الظاهر وحده في الجواز لا ينافي وروده في السياق للوجوب كما في قوله تعالى: ﴿أن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو عتمر فلا جناح عيه أن يطوّف بهما﴾ (البقرة / ١٥٨) مع كون الطواف واجباً. وذلك ان المقام مقام التشريع، ويكفي فيه مجرد الكشف عن جعل الحكم من غير حاجة الى استيفاء جميع جهات الحكم وخصوصيّاته، ونظير الآية بوجه قوله تعالى: ﴿وان تصوموا خير لكم﴾ الآية (البقرة / ١٨٤).

قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. الفتنة وان كانت ذات معان كثيرة مختلفة لكن المعهود من اطلاقها في القرآن في خصوص الكفار والمشركين التعذيب من قتل أو ضرب ونحوهما، وقرائن الكلام أيضاً تؤيد ذلك فالمعنى: ان خفتم ان يعذبوكم بالحملة والقتل.

والجملة قيد لقوله «فلا جناح عليكم»، وتفيد ان بدء تشريع القصر في الصلاة انما كان عند خوف الفتنة، ولا ينافي ذلك ان يعم التشريع ثانياً جميع صور السفر الشرعي وان لم يجامع الخوف فإنما الكتاب بين قسماً منه، والسنة بينت شموله لجميع الصور كما سيأتي في الروايات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ـ الى قوله ـ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ الآية؛ تذكر كيفية صلاة الخوف، وتوجه الخطاب الى النبي ﷺ بفرضه اماماً في صلاة الخوف، وهذا من قبيل البيان بإيراد المثال ليكون أوضح في عين أنه اوجز واجمل.

فالمراد بقوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ هو الصلاة جماعة، والمراد بقوله «فلتقم طائفة منهم معك» قيامهم في الصلاة مع النبي ﷺ بنحو الايتمام، وهم المأمورون بأخذ الأسلحة. والمراد بقوله «فاذا سجدوا» الخ؛ اذا سجدوا واتموا الصلاة ليكون هؤلاء بعد اتمام سجدتهم من وراء القوم، وكذا المراد بقوله «وليأخذوا حذرهم واسلحتهم» ان تأخذ الطائفة الثانية

المصلية مع النبي ﷺ حذرهم واسلحتهم.

والمعنى ـ الله اعلم ـ: واذا كنت انت يا رسول الله فيهم والحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاة اي صليتهم جماعة فأممتهم فيها، فلا يدخلوا في الصلاة جميعاً بل لتقم طائفة منهم معك بالاقتداء بك وليأخذوا معهم اسلحتهم، ومن المعلوم ان الطائفة الاخرى يحرسونهم وامتعتهم فاذا سجد المصلون معك وفرغوا من الصلاة فليكونوا وراءكم يحرسونكم والأمتعة ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذ هؤلاء المصلون ايضاً كالطائفة الاولى المصلية حذرهم واسلحتهم.

وتوصيف الطائفة بالأخرى، وارجاع ضمير الجمع المذكر اليها رعاية تارة لجانب اللفظ واخرى لجانب المعنى، كما قيل. وفي قوله تعالى: «وليأخذوا حذرهم واسلحتهم» نوع من الاستعارة لطيف، وهو جعل الحذر آلة للدفاع نظير السلاح حيث نسب اليه الأخذ الذي نسب الى الأسلحة، كما قيل.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ ـ الى قوله ـ وَاحِدَةً﴾ في مقام التعليل للحكم المشرع، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الى آخر الاية. تخفيف آخر وهو انهم ان كانوا يتأذون من مطر ينزل عليهم أو كان بعضهم مرضى فلا مانع من ان يضعوا اسلحتهم لكن يجب عليهم مع ذلك ان يأخذوا حذرهم، ولا يغفلوا عن الذين كفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلٰوةَ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ القيام والقعود جمعان أو مصدران، وهما حالان وكذا قوله «وعلى جنوبكم» وهو كناية عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ﴾ الخ: المراد بالاطمينان الاستقرار، وحيث قوبل به قوله «واذا ضربتم في الارض»، على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به

الرجع الى الأوطان، على هذا فالمراد بإقامة الصلاة إتمامها فإن التعبير عن صلاة الخوف بالقصر من الصلاة يلوح الى ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلٰوةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتٰباً مَوْقُوتاً﴾ الكتابة كناية عن الفرض والايجاب كقوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ (البقرة / ١٨٣) والموقوت من وقت كذا أي جعلت له وقتاً فظاهر اللفظ ان الصلاة فريضة موقتة منجمة تؤدي في أوقاتها ونجومها.

والظاهر ان الوقت في الصلاة كناية عن الثبات وعدم التغير باطلاق الملزوم على لازمه فالمراد بكونها كتاباً موقوتاً أنها مفروضة ثابتة غير متغيرة أصلاً فالصلاة لا تسقط بحال، وذلك ان إبقاء لفظ الموقوت على بادى ظهوره لا يلائم ما سبقه من المضمون اذ لا حاجة تمس الى التعرض لكون الصلاة عبادة ذات أوقات معينة مع أن قوله «ان الصلاة»، في مقام التعليل لقوله «فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة» فالظاهر أن المراد بكونها موقوتة كونها ثابتة لا تسقط بحال، ولا تتغير ولا تتبدل الى شيء آخر كالصوم الى الفدية مثلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾، الوهن الضعف، والابتغاء الطلب، والألم مقابل اللذة، وقوله «وترجون من الله مالا يرجون» حال من ضمير الجمع الغائب، والمعنى: أن حال الفريقين في ان كلا منهما يألم واحد، فلستم اسوء حالاً من اعدائكم، بل انتم أرفه منهم وأسعد حيث ان لكم رجاء الفتح والظفر والمغفرة من ربكم الذي هو وليكم، واما اعدائكم فلا مولى لهم ولا رجاء الفتح والظفر والمغفرة من ربكم الذي هو وليكم، واما اعدائكم فلا مولى لهم ولا رجاء لهم من جانب يطيب نفوسهم، وينشطهم في عملهم. ويسوقهم الى مبتغاهم، وكان الله عليماً بالمصالح، حكيماً متقناً في امره ونهيه[1].

---

١. النساء ١٠٥ ـ ١٢٦: بحث روائي في: صلاة الخوف: صلاة السفر.

١٠٥ ● إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَرٰيكَ اللّٰهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً.

١٠٦ ● وَاسْتَغْفِرِ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً.

١٠٧ ● وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً.

١٠٨ ● يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّٰهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكانَ اللّٰهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً.

١٠٩ ● هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللّٰهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً.

١١٠ ● وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّٰهَ يَجِدِ اللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً.

١١١ ● وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَكانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً.

١١٢ ● وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً.

١١٣ ● وَلَوْلا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً.

١١٤ ● لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰيهُمْ إِلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

١١٥ ● وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً.

١١٦ ● إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً.

١١٧ ● إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلّا إِناثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلّا شَيْطاناً مَرِيداً.

١١٨ ● لَعَنَهُ اللهُ وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً.

١١٩ ● وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً.

١٢٠ ● يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلّا غُرُوراً.

١٢١ ● أُولٰئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً.

١٢٢ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً.

١٢٣ ● لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ

بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً.

١٢٤ ● وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً.

١٢٥ ● وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً.

١٢٦ ● وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَيٰكَ اللهُ﴾ ظاهر الحكم بين الناس هو القضاء بينهم في مخاصماتهم ومنازعاتهم مما يرجع الى الامور القضائية ورفع الاختلافات بالحكم، وقد جعل الله تعالى الحكم بين الناس غاية لإنزال الكتاب فينطبق مضمون الآية على ما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿كان الناس أُمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية (البقرة / ٢١٣) وقد مرّ تفصيل القول فيه.

فهذه الآية (إنّا أنزلنا اليك الكتاب) الخ؛ في خصوص موردها نظيرة تلك الآية (كان الناس أُمة واحدة)، في عمومها، وتزيد عليها في أنها تدلّ على جعل حق الحكم لرسول الله ﷺ والحجية لرأيه ونظره فإن الحكم وهو القطع في القضاء وفصل الخصومة لا ينفكّ عن اعمال نظر من القاضي الحاكم واظهار عقيدة منه مضافاً الى ما عنده من العلم بالأحكام العامّة والقوانين الكلية في موارد الخصومة فإنّ العلم بكليات الأحكام وحقوق الناس أمر، والقطع

والحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءة في قوله «لتحكم بين الناس بما أراك الله» إيجاد الرأي وتعريف الحكم لا تعليم الأحكام والشرائع كما احتمله بعضهم.

ومضمون الآية على ما يعطيه السياق أن الله أنزل إليك الكتاب وعلمك أحكامه وشرائعه وحكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأي وعرَّفك من الحكم فتحكم بين الناس، وترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ عطف على ما تقدّمه من الجملة الخبريّة لكونها في معنى الإنشاء كأنه قيل: فاحكم بينهم ولا تكن للخائنين خصياً. والخصيم هو الذي يدافع عن الدعوى وما في حكمها، وفيه نهيه ﷺ عن أن يكون خصياً للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين ويبطل حقوق المحقّين من أهل الدعوى.

وربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «ولا تكن للخائنين»، على ما تقدمه وهو أمره ﷺ أمراً مطلقاً بالحكم أنّ المراد بالخيانة مطلق التعدّي على حقوق الغير ممن لا ينبغي منه ذلك لا خصوص الخيانة للودائع وإن كان ربما عطف الخاص على العام لعناية مّا بشأنه لكن المورد كالخالي عن العناية، وسيجيء لهذا الكلام تتمة.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما في طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق والميل الى الهوى ومغفرة ذلك، وقد مر مراراً أن العفو والمغفرة يستعملان في كلامه تعالى في شؤون مختلفة يجمعها جامع الذنب، وهو التباعد من الحق بوجه. فالمعنى ـ والله أعلم ـ: ولا تكن للخائنين خصياً ولا تمل إليهم، واطلب من الله سبحانه أن يوفّقك لذلك ويستر على نفسك أن تميل الى الدفاع عن خيانتهم ويتسلط عليك هوى النفس. والدليل على إرادة ذلك ما في ذيل الآيات الكريمة «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما

يضلون إلا أنفسهم وما يضرّونك من شيء» فإن الآية تنص على أنهم لا يضرّون النبي ﷺ وإن بذلوا غاية جهدهم في تحريك عواطفه الى إيثار الباطل وإظهاره على الحق فالنبي ﷺ في أمن إلهي من الضرر، والله يعصمه فهو لا يجور في حكمه ولا يميل الى الجور. ولا يتبع الهوى. ومن الجور والميل الى الهوى المذموم أن يفرق في حكمه بين قوي وضعيف، أو صديق وعدو، أو مؤمن وكافر ذمي. أو قريب وبعيد، فامره بأن يستغفر ليس لصدور ذنب ذي بال وتبعة منه، ولا لإشرافه على ما لا يحمد منه بل ليسأل من الله أن يظهره على هوى النفس. ولا ريب في حاجته في ذلك الى ربه وعدم استغنائه عنه وإن كان على عصمته، فإن لله سبحانه أن يفعل ما يشاء.

وهذه العصمة مدار عملها ما يعد طاعة ومعصية، وما يحمد أو يذمّ عليه من الأعمال لا ما هو الواقع الخارجي. وبعبارة اخرى الآيات تدل على أنه ﷺ في أمن من اتّباع الهوى، والميل الى الباطل، وأما أن الذي يحكم ويقضي به بما شرّعه من القواعد وقوانين القضاء الظاهرية كقوله «البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر» ونحو ذلك يصادف دائماً ما هو الحق في الواقع فينتج دائماً غلبة المحق، ومغلوبية المبطل في دعواه. فالآيات لا تدل على ذلك أصلاً. ولا أن القوانين الظاهرية في استطاعتها أن تهدي الى ذلك قطعاً فإنها امارات مميِّزة بين الحق والباطل غالباً لا دائماً، ولا معنى لاستلزام الغالب الدائم وهو ظاهر.

ومما تقدم يظهر ما في كلام بعض المفسّرين حيث ذكر في قوله تعالى «واستغفر الله»، أنه أمر بالاستغفار عما همّ به النبي ﷺ من الدفاع والذبّ عن هذا الخائن المذكور في الآية، وقد سأله قومه أن يدفع عنه ويكون خصماً له على يهودي. وذلك أن هذا القدر أيضاً تأثير منهم بأثر مذموم، وقد نفى الله سبحانه عنه ﷺ كل ضرر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، قيل: إن نسبة الخيانة الى النفس لكون وبالها راجعاً اليها، أو بعدّ كل معصية خيانة للنفس كما عد ظلماً لها. وقد قال

تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ (البقرة / ١٨٧).

ويمكن أن يستفاد من الآية بمعونة ما يدل عليه القرآن من أن المؤمنين كنفس واحدة، وأن مال الواحد منهم مال لجميعهم يجب على الجميع حفظه وصونه عن الضيعة والتلف، كون تعدّي بعضهم على بعض بسرقة ونحوها اختياناً لأنفسهم.

وفي قوله تعالى «إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً» دلالة على استمرار هؤلاء الخائنين في خيانتهم، ويؤكده قوله «أثيماً» فإن الأثيم آكد في المعنى من الآثم وهو صفة مشبّهة تدل على الثبوت. على أن قوله «يختانون أنفسهم» لا تخلو عن دلالة على الاستمرار، وكذا قوله «للخائنين» حيث عبر بالوصف ولم يعبر بمثل قولنا: للذين خانوا، كما عبّر بذلك في قوله: ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ (الأنفال / ٧١).

فمن هذه القرائن وأمثاله يظهر أن معنى الآية ـ بالنظر الى مورد النزول ـ: ولا تكن خصيماً لهؤلاء، ولا تجادل عنهم فإنهم مصرون على الخيانة مبالغون فيها ثابتون على الإثم، والله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً. وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول من نزول الآيات في أبي طعمة بن الابيرق. كما سيجيء.

ومعنى الآية ـ مع قطع النظر عن المورد ـ: ولا تدافع في قضائك عن المصرّين على الخيانة المستمرّين عليها، فإن الله لا يحب الخوان الأثيم، وكما انه تعالى لا يحب كثير الخيانة لا يحب قليلها، ولو أمكن أن يحب قليلها أمكن أن يحب كثيرها، واذا كان كذلك فالله ينهى أن يدافع عن قليل الخيانة كما ينهى عن أن يدافع عن كثيرها. وأما من خان في أمر ثم نازع في أمر آخر وهو محق في نزاعه، فالدفاع عنه دفاع غير محظور ولا ممنوع منه، ولا ينهى عنه قوله: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ (الآية).

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ﴾، وهذا ايضاً من الشواهد على ما قدمناه من الآيات (١٠٥ ـ ١٢٦) جميعاً ذات سياق واحد، نازلة في قصة

واحدة، وهي التي يشير اليها قوله «ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً» (الآية)؛ وذلك ان الاستخفاء انما يناسب الأعمال التي يمكن ان يرمى بها الغير كالسرقة وامثال ذلك فيتأيد به ان الذي تشير اليه هذه الاية وما تقدمها من الآيات هو الذي يشير اليه قوله «ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به» (الآية).

والاستخفاء من الله أمر غير مقدور اذ لا يخف على الله شيء في الأرض ولا في السماء فطرفه المقابل له أعني عدم الاستخفاء أيضاً أمر اضطراري غير مقدور، واذا كان غير مقدور لم يتعلق به لوم ولا تعيير كما هو ظاهر الآية. لكن الظاهر أن الاستخفاء كناية عن الاستحياء ولذلك قيّد قوله «ولا يستخفون من الله» (أولاً) بقوله «وهو معهم اذ يبيّتون ما لا يرضى من القول» فدلّ على أنهم كانوا يدبرون الحيلة ليلاً للتبرّي من هذه الخيانة المذمومة، ويبيّتون في ذلك قولاً لا يرضى به الله سبحانه، ثم قيّده (ثانياً) بقوله «وكان الله بما يعملون محيطاً» ودلّ على إحاطته تعالى بهم في جميع الأحوال ومنها حال الجرم الذي أجرموه، والتقييد بهذين القيدين أعني قوله «وهو معهم»، وقوله «وكان الله»، تقييد بالعام بعد الخاص، وهو في الحقيقة تعليل لعدم استخفائهم من الله بعلة خاصة ثم باخرى عامة.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ (الآية)؛ بيان لعدم الجدوى في الجدال عنهم، وأنهم لا ينتفعون بذلك في صورة الاستفهام والمراد أن الجدال عنهم لو نفعهم فانما ينفعهم في الحياة الدنيا، ولا قدر لها عند الله، وأما الحياة الأخرويّة التي لها عظيم القدر عند الله أو ظرف الدفاع فيها يوم القيامة فلا مدافع هناك عن الخائنين ولا مجادل عنهم بل لا وكيل لهم يومئذ يتكفّل تدبير امورهم وإصلاح شؤونهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ (الآية)؛ في ترغيب وحث لأولئك الخائنين أن يرجعوا الى ربهم بالاستغفار، والظاهر أن الترديد بين السوء وظلم النفس، والتدرّج من السوء الى الظلم لكون المراد بالسوء التعدّي على الغير، وبالظلم

التعدي على النفس، أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصية الصغيرة بالنسبة الى الكبيرة، والله أعلم.

وهذه الآية والآيتان بعدها جميعاً كلام مسوق لغرض واحد، وهو بيان أمر الإثم الذي يكسبه الإنسان بعمله، يتكفل كل واحدة من الآيات الثلاث بيان جهة من جهاته، فالآية الاولى تبيّن أن المعصية التي يقترفها الانسان فيتأثّر بتبعتها نفسه، وتكتب في كتاب أعماله، للعبد أن يتوب الى الله منها ويستغفره فلو فعل ذلك وجد الله غفوراً رحيماً.

والآية الثانية تذكر الانسان أن الإثم الذي يكسبه إنما يكسبه على نفسه وليس بالذي يمكن أن يتخطّاه ويلحق غيره برمي أو افتراء ونحو ذلك.

والآية الثالثة توضح أن الخطيئة أو الاثم الذي يكسبه الانسان لو رمى به بريئاً غيره كان الرمي به إثماً آخر وراء أصل الخطيئة أو الاثم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ قد تقدّم أن الآية مرتبطة مضموناً بالآية التالية المتعرضة للرمي بالخطيئة والاثم فهذه كالمقدّمة لتلك، وعلى هذا فقوله «فإنما يكسبه على نفسه» مسوق لقصر التعيين، وفي الآية عظة لمن يكسب الإثم ثم يرمي به بريئاً غيره. والمعنى ـ والله أعلم ـ: أنه يجب على من يكسب إثماً أن يتذكر أن ما يكسبه من الإثم فإنما يكسبه على نفسه لا على غيره، وأنه هو الذي فعله لا غيره وإن رماه به أو تعهد له من أن يحمل إثمه وكان الله عليماً يعلم أنه فعل هذا الكاسب، وأنه الذي فعله لا غيره المرمي به، حكيماً لا يؤاخذ بالإثم إلا آثمه، وبالوزر غير وازرتها كما قال تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (البقرة / ٢٨٦)، وقال ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ (الأنعام / ١٦٤)، وقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾ (العنكبوت / ١٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾، قال الراغب في المفردات: إن من أراد شيئاً فاتّفق منه غيره يقال: أخطأ وإن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، وقد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد إرادة لا تجمُل: إنه أخطأ. ولهذا يقال: أصاب الخطأ، وأخطأ الصواب، وأصاب الصواب، وأخطأ الخطأ. وهذه اللفظة مشتركة كما ترى، متردّدة بين معان يجب لمن يتحرّى الحقائق أن يتأملها.

قال: والخطيئة والسيئة تتقاربان لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمي صيداً فأصاب إنساناً، أو شرب مسكراً فجنى جناية في سكره، والسبب سببان: سبب محظور فعله كشرب المسكر وما يتولد عنه من الخطأ غير متجاف عنه، وسبب غير محذور كرمي الصيد، قال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم﴾ وقال تعالى «ومن يكسب خطيئة أو إثماً» فالخطيئة هاهنا هي التي لا تكون عن قصد الى فعلها (انتهى).

وأظن أن الخطيئة من الأوصاف التي استغني عن موصوفاتها بكثرة الاستعمال كالمصيبة والرزية والسليقة ونحوها، ووزن فعيل يدلّ على اختزان الحدث واستقراره، فالخطيئة هي العمل الذي اختزن واستقر فيه الخطأ، والخطأ الفعل الواقع الذي لا يقصده الإنسان كقتل الخطأ، هذا في الأصل، ثم وسّع الى ما لا ينبغي للإنسان أن يقصده لو كانت نفسه على سلامتها الفطرية، فكل معصية وأثر معصية من مصاديق الخطأ على هذا التوسع، والخطيئة هي العمل أو أثر العمل الذي لم يقصده الإنسان (ولا يعدّ حينئذ معصية) أو لم يكن ينبغي أن يقصده (ويعد حينئذ معصية أو وبال معصية).

ولكن الله سبحانه لما نسبها في قوله «ومن يكسب خطيئة» الى الكسب كان المراد بها الخطيئة التي هي المعصية، فالمراد بالخطيئة في الآية هي التي تكون عن قصد الى فعلها وإن كان

من شأنها أن لا يقصد إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ﴾ (الى آخر الآية)؛ السياق يدلّ على أن المراد بهمّهم بإضلال النبي ﷺ هو همهم أن يرضوه بالدفاع عن الذين سماهم الله تعالى في صدر الآيات بالخائنين والجدال عنهم وعلى هذا فالمراد بهذه الطائفة أيضاً هم الذين عدل الله سبحانه الى خطابهم بقوله «هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا» (الآية)؛ وينطبق على قوم أبي طعمة على ما سيجيء.

وأما قوله «وما يضلون إلا أنفسهم» فالمراد به بقرينة قوله بعده «وما يضرونك من شيء»، أن إضلال هؤلاء لا يتعدّى أنفسهم ولا يتجاوزهم إليك، فهم الضالون بما همّوا لأنه معصية وكل معصية ضلال.

ولهذا الكلام معنى آخر تقدّمت الإشارة إليه في الكلام على قوله: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (آل عمران / ٦٩) في الجزء الثالث من هذا الكتاب. لكنه لا يناسب هذا المقام.

وأما قوله «وما يضرّونك من شيء وأنزل الله عليك»، ففيه نفي إضرارهم النبي ﷺ نفياً مطلقاً غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله «وأنزل الله عليك الكتاب»، على ان يكون جملة حالية عن الضمير في قوله «يضرّونك» وإن كان الأغلب مقارنة الجملة الفعلية المصدرة بالماضي بقد على ما ذكره النحاة، وعلى هذا فالكلام مسوق لنفي إضرار الناس مطلقاً بالنبي ﷺ في علم أو عمل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، ظاهر الكلام كما أشرنا إليه انه في مقام التعليل لقوله «وما يضرونك من شيء» أو لمجموع قوله «وما يضلون إلا انفسهم وما يضرونك من شيء» وكيف كان فهذا الإنزال

والتعليم هو المانع من تأثيرهم في إضلاله ﷺ، فهو الملاك في عصمته[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ امتنان على النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰيهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال الراغب: وناجيته أي سررته وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض (انتهى) فالنجوى المسارة في الحديث، وربما أُطلق على نفس المتناجين قال تعالى: ﴿وإذ هم نجوى﴾ (الاسراء / ٤٧) أي متناجون.

وفي الكلام أعني قوله «لا خير في كثير من نجواهم» عود الى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ (الآية)؛ بناء على اتصال الآيات وقد عمَّم البيان لمطلق المسارة في القول سواء كان ذلك بطريق التبييت أو بغيره لأن الحكم المذكور وهو انتفاء الخير فيه إنما هو لمطلق المسارة وإن لم تكن على نحو التبييت. ونظيره قوله «ومن يشاقق»، دون أن يقول: ومن يناج للمشاقة، لأن الحكم المذكور لمطلق المشاقّة أعم من أن يكون نجوى أولاً.

وظاهر الاستثناء أنه منقطع، والمعنى: لكن من أمر بكذا وكذا فيه ففيما أمر به شيء من الخير، وقد سمّي دعوة النجوى الى الخير أمراً وذلك من قبيل الاستعارة، وقد عد تعالى هذا الخير الذي يأمر به النجوى ثلاثة: الصدقة، والمعروف، والاصلاح بين الناس. ولعل إفراد الصدقة عن المعروف مع كونها من أفراده لكونها الفرد الكامل في الاحتياج الى النجوى بالطبع، وهو كذلك غالباً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾، تفصيل لحال النجوى ببيان آخر من حيث التبعة من المثوبة والعقوبة ليتبيَّن به وجه الخير فيما هو خير من النجوى، وعدم

---

١. النساء ١٠٥ـ١٢٦: كلام في معنى العصمة.

الخير فيما ليس بخير منه.

ومحصّله أن فاعل النجوى على قسمين: (أحدهما) من يفعل ذلك ابتغاء مراضاة الله، ولا محالة ينطبق على ما يدعو الى معروف أو إصلاح بين الناس تقرّباً الى الله، وسوف يثيبه الله سبحانه بعظيم الأجر، و(ثانيهما) أن يفعل ذلك لمشاقّة الرسول واتخاذ طريق غير طريق المؤمنين وسبيلهم، وجزاؤه الإملاء والاستدراج الإلهي ثم إصلاء جهنم وساءت مصيراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، المشاقّة من الشق وهو القطعة المبانة من الشيء فالمشاقّة والشقاق كونك في شق غير شق صاحبك، وهو كناية عن المخالفة، فالمراد بمشاقة الرسول بعد تبين الهدى مخالفته وعدم إطاعته، وعلى هذا فقوله «ويتّبع غير سبيل المؤمنين» بيان آخر لمشاقّة الرسول، والمراد بسبيل المؤمنين إطاعة الرسول فإن طاعته طاعة الله، قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء / ٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعة الله ورسوله ـ وإن شئت فقل على طاعة رسوله ـ فإن ذلك هو الحافظ لوحدة سبيلهم كما قال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾ (آل عمران / ١٠٣) وقد تقدّم الكلام في الآية في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذالكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام / ١٥٣) واذا كان سبيله سبيل التقوى، والمؤمنون هم المدعوّون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ (المائدة / ٢) والآية ـ كما ترى ـ تنهى عن معصية الله وشق عصا الاجتماع الاسلامي، وهو ما ذكرناه من معنى سبيل

المؤمنين.

فمعنى الآية أعني قوله «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين»، يعود الى معنى قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى﴾ الآية (المجادلة / ٩).

وقوله «نوله ما تولى»، أي نجره على ما جرى عليه، ونساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محذوراً﴾ (الإسراء / ٢٠).

وقوله «ونصله جهنم وساءت مصيرا» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أي توليته ما تولى وإصلاءه جهنم أمر واحد إلهي بعض أجزائه دنيوي وهو توليته ما تولى، وبعضها أُخروي وهو إصلاؤه جهنم وساءت مصيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (الى آخر الآية)؛ ظاهر الآية أنها في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة «نولّه ما تولى ونصله جهنم»، بناء على اتصال الآيات فالآية تدل على أن مشاقة الرسول شرك بالله العظيم، وإن الله لا يغفر أن يشرك به، وربما استفيد ذلك من قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعدما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ (محمد / ٣٤) فإن ظاهر الآية الثالثة أنها تعليل لما في الآية الثانية من الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فيكون الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله كفراً لا يغفر أبداً، وهو الشرك.

والمقام يعطي أن إلحاق قوله «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» بقوله «إن الله لا يغفر أن يشرك به» إنما هو لتتميم البيان، وإفادة عظمة هذه المعصية المشؤومة أعني مشاقة الرسول،

وقد تقدم بعض الكلام في الآية في آخر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً﴾ الاناث جمع أُنثى يقال: أنث الحديد أنثاً أي انفعل ولان، وأنث المكان أسرع في الانبات وجاد، ففيه معنى الانفعال والتأثر، وبذلك سميت الانثى من الحيوان أُنثى وقد سمِّيت الأصنام وكل معبود من دون الله إناثاً لكونها قابلات منفعلات ليس في وسعها أن تفعل شيئا مما يتوقعه عبّادها منها ـ كم قيل ـ قال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ (الحج / ٧٤) وقال: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ (الفرقان / ٣).

فالظاهر أن المراد بالانوثة الانفعال المحض الذي هو شأن المخلوق اذا قيس الى الخالق عز اسمه. وهذا الوجه أولى مما قيل: إن المراد هو اللات والعزى ومنات الثالثة ونحوها، وقد كان لكل حي صنم يسمونه أُنثى بني فلان إما لتأنيث أسمائها أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث في اللفظ.

ووجه الأولوية أن ذلك لا يلائم الحصر الواقع في قوله «إن يدعون من دونه إلا إناثاً» كثير ملاءمة. وبين من يدعى من دون الله من هو ذكر غير أُنثى كعيسى المسيح وبرهما وبوذا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً﴾ المريد هو العاري من كل خير أو مطلق العاري، قال البيضاوي: المارد والمريد الذي لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملامسة، ومنه صرح ممرَّد، وغلام أمرد، وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها (انتهى).

والظاهر أن الجملة بيان للجملة السابقة فإن الدعوة كناية عن العبادة لكون العبادة إنما نشأت بين الناس للدعوة على الحاجة. وقد سمّى الله تعالى الطاعة عبادة قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني﴾ (يس /

٦١) فيؤول معنى الجملة الى أن عبادتهم لكل معبود من دون الله عبادة ودعوة منهم للشيطان المريد لكونها طاعة له.

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ اللعن هو الابعاد عن الرحمة، وهو وصف ثان لشيطان وبمنزلة التعليل للوصف الأول.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾ كأنه إشارة الى ما حكاه الله تعالى عنه من قوله: ﴿فبعزتك لاغوينّهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص / ٨٣) وفي قوله «من عبادك» تقرير أنهم مع ذلك عباده لا ينسلخون عن هذا الشأن، وهو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ (الى آخر الآية)؛ التبتيل هو الشق، وينطبق على ما نقل: أن عرب الجاهلية كانت تشق آذان البحائر والسوائب لتحريم لحومها.

وهذه الامور المعدودة جميعها ضلال فذكر الاضلال معها من قبيل ذكر العام ثم ذكر بعض أفراده لعناية خاصة به، يقول: لأضلنهم بالاشتغال بعبادة غير الله واقتراف المعاصي، ولأغرنهم بالاشتغال بالآمال والأماني التي تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم، ولآمرنهم بشق آذان الأنعام وتحريم ما أحل الله سبحانه، ولآمرنهم بتغيير خلق الله وينطبق على مثل الاخصاء وأنواع المثلة واللواط والسحق.

وليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطرة وترك الدين الحنيف، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (الروم / ٣٠).

ثم عد تعالى دعوة الشيطان وهي طاعته فيما يأمر به اتخاذاً له ولياً فقال «ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خساناً مبيناً» ولم يقل: ومن يكن الشيطان له ولياً اشعاراً بما تشعر به الآيات السابقة أن الولي هو الله، ولا ولاية لغيره على شيء وان اتخذه ولياً.

قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ ظاهر السياق أنه تعليل لقوله في الآية السابقة «فقد خسر خساناً مبيناً» وأي خسران أبين من خسران من يبدل السعادة الحقيقة وكمال الخلقة بالمواعيد الكاذبة والأماني الموهومة، قال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (النور / ٣٩).

أما المواعيد فهي الوساوس الشيطانية بلا واسطة، وأما الأماني فهي المستفرعة على وساوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات، ولذلك قال «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً» فعد الوعد غروراً دون التمنية على ما لا يخفى.

ثم بيّن عاقبة حالهم بقوله «أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً» أي معدلاً ومفرّ من «حاص» اذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم وهو حال المؤمنين تتميماً للبيان فقال تعالى «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات» (الى آخر الآية) وفي الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبة، والوجه العام فيه الإيماء الى جلالة المقام وعظمته بوضع لفظ الجلالة موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج الى هذا الاشعار حتى اذا استوفى الغرض رجع الى سابق السياق الذي كان هو الاصل، وذلك في قوله «سندخلهم جنات»، وفي ذلك نكتة أُخرى، وهي الإيماء الى قرب الحضور وعدم احتجابه تعالى عن عبادة المؤمنين وهو وليهم.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ فيه مقابلة لما ذكر في وعد الشيطان أنه ليس إلا غروراً فكان وعد الله حقاً، وقوله صدقاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ عود الى بدء الكلام وبمنزلة النتيجة المحصلة الملخصة من تفصيل الكلام، وذلك أنه يتحصل من المحكي من أعمال بعض المؤمنين وأقوالهم، وإلحاحهم على النبي ﷺ أن يراعي جانبهم، ويعاضدهم

ويساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع والمشاجرة أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامة على الله سبحانه وحقاً على النبي ﷺ يجب به على الله ورسوله مراعاة جانبهم، وتغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل، عدلاً كان الحكم أو ظلماً على حد ما يراه أتباع أئمة الضلال، وحواشي رؤساء الجور وبطانتهم وأذنابهم، فالواحد منهم يمتن على متبوعه ورئيسه في عين أنه يخضع له ويطيعه، ويرى أن له عليه كرامة تلتزمه على مراعاة جانبه وتقديمه على غيره تحكماً.

وكذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه الله تعالى في كتابه عنهم قال تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ (المائدة / ١٨)، وقال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ (البقرة / ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿قالوا ليس علينا في الاميين سبيل﴾ (آل عمران / ٧٥).

فرد الله على هذه الطائفة من المؤمنين في مزعمتهم، وأتبعهم بأهل الكتاب وسمّى هذه المزاعم بالأماني استعارة لأنها كالأماني ليست إلا صوراً خيالية ملذة لا أثر لها في الأعيان فقال: ليس بأمانيكم معاشر المسلمين أو معشر طائفة من المسلمين ولا بأماني أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقدّم ذكر السيئة على الحسنة لان عمدة خطاياهم كانت فيها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ جيء في الكلام بالفصل من غير وصل لانه في موضع الجواب عن سؤال مقدر، تقديره: اذا لم يكن الدخول في حمى الاسلام والايمان يجر للانسان كل خير، ويحفظ منافعه في الحياة، وكذا اليهودية والنصرانية فما هو السبيل؟ والى ماذا ينجر حال الانسان؟ فقيل «من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ومن يعمل من الصالحات» الخ.

وقوله «من يعمل سوء يجز به» مطلق يشمل الجزاء الدنيوي الذي تقرره الشريعة الاسلامية كالقصاص للجاني، والقطع للسارق، والجلد أو الرجم للزاني الى غير ذلك من أحكام السياسات وغيرها ويشمل الجزاء الاخروي الذي أوعده الله تعالى في كتابه، وبلسان نبيه.

وهذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمة والمنطبق عليه، وقد ورد في سبب النزول أن الآيات نزلت في سرقة ارتكبها بعض، ورمى بها يهودياً أو مسلماً ثم ألحموا على النبي ﷺ أن يقضي على المتهم.

وقوله «ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» يشمل الولي والنصير في صرف الجزاء السيء عنه في الدنيا كالنبي ﷺ أو ولي الامر وكالتقرب منها وكرامة الاسلام والدين، فالجزاء المشرَّع من عند الله لا يصرفه عن عامل السوء صارف، ويشمل الولي والنصير الصارف عنه سوء الجزاء في الآخرة إلا ما تشمله الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ هذا هو الشق الثاني المتضمن لجزاء عامل العمل الصالح وهو الجنة، غير أن الله سبحانه شرط فيه شرطاً يوجب تضييقاً في فعلية الجزاء وعمم فيه من جهة أُخرى توجب السعة.

فشرط في المجازاة بالجنة أن يكون الآتي بالعمل الصالح مؤمنا اذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح ولا عمل للكافر، قال تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام / ٨٨)، وقال تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ (الكهف / ١٠٥).

قال تعالى: «ومن يعمل من الصالحات» فأتى بمن التبعيضية، وهو توسعة في الوعد بالجنة، ولو قيل: ومن يعمل الصالحات ـ والمقام مقام الدقة في الجزاء ـ أفاد أن الجنة لمن آمن

وعمل كل عمل صالح، لكن الفضل الإلهي عمّم الجزاء الحسن لمن آمن وأتى ببعض الصالحات فهو يتداركه فيما بقي من الصالحات أو اقترف من المعاصي بتوبة أو شفاعة كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ١١٦) وقد تقدم تفصيل الكلام في التوبة وفي قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ (النساء / ١٧) في الجزء الرابع، وفي الشفاعة في قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ (البقرة / ٤٨) في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وقال تعالى «من ذكر أو أُنثى» فعمَّم الحكم للذكر والانثى من غير فرق أصلاً خلافاً لما كانت تزعمه القدماء من أهل الملل والنحل كالهند ومصر وسائر الوثنيّين أن النساء لا عمل لهن ولا ثواب لحسناتهن، وما كان يظهر من اليهودية والنصرانية أن الكرامة والعزة للرجال، وأن النساء أذلّاء عند الله نواقص في الخلقة خاسرات في الأجر والمثوبة، والعرب لا تعدو فيهن هذه العقائد فسوَّى الله تعالى بين القبيلين بقوله «من ذكر أو أُنثى».

ولعل هذا هو السر في تعقيب قوله «فأولئك يدخلون الجنة» بقوله «ولا يظلمون نقيراً» لتدل الجملة الأولى على أن النساء ذوات نصيب في المثوبة كالرجال. والجملة الثانية على أن لا فرق بينهما فيها من حيث الزيادة والنقيصة كما قال تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثى بعضكم من بعض﴾ (آل عمران / ١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (الى آخر الآية) كأنه دفع لدخل مقدّر. تقديره: أنه اذا لم يكن لإسلام المسلم أو لإيمان أهل الكتاب تأثير في جلب الخير إليه وحفظ منافعه وبالجملة اذا كان الإيمان بالله وآياته لا يعدل شيئاً ويستوي وجوده وعدمه فما هو كرامة الاسلام؟ وما هي مزيّة الإيمان؟

فأُجيب بأن كرامة الدين أمر لا يشوبه ريب. ولا يداخله شك ولا يخفى حسنه على ذي لبّ وهو قوله «ومن أحسن ديناً»، حيث قرر بالاستفهام على طريق إرسال المسلّم فإن

الانسان لا مناص له عن الدين، وأحسن الدين إسلام الوجه لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، والخضوع له خضوع العبودية، والعمل بما يقتضيه ملّة إبراهيم حنيفاً وهو الملة الفطرية، وقد اتخذ الله سبحانه إبراهيم الذي هو أول من أسلم وجهه لله محسناً، واتبع الملة الحنيفية خليلاً.

لكن لا ينبغي أن يتوهّم أن الخلّة الإلهية كالخلّة الدائرة بين الناس الحاكمة بينهم على كل حق وباطل التي يفتح لهم باب المجازفة والتحكم فالله سبحانه مالك غير مملوك ومحيط غير محاط بخلاف الموالي والرؤساء والملوك من الناس فإنهم لا يملكون من عبيدهم ورعاياهم شيئاً إلا ويملّكونهم من أنفسهم شيئاً بإزائه، ويقهرون البعض بالبعض، ويحكمون على طائفة بالأعضاد من طائفة أُخرى ولذلك لا يثبتون في مقامهم اذا خالفت إرادتهم إرادة الكل بل سقطوا عن مقامهم وبان ضعفهم.

ومن هنا يظهر الوجه في تعقيب قوله «ومن أحسن قولاً» الخ: بقوله «ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً»[1].

١٢٧ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً.

---

١. النساء ١٠٥ ـ ١٢٦: بحث روائي في عدد من المنافقين الذين سرقوا؛ التهمة التي توجهت الى احد المسلمين؛ التوبة بعد الذنب؛ ذمّ كثرة الكلام ومدح الصمت والسكوت.

١٢٨ ● وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

١٢٩ ● وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً.

١٣٠ ● وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

١٣١ ● وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً.

١٣٢ ● وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً.

١٣٣ ● إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيراً.

١٣٤ ● مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قال الراغب: الفُتيا والفتوى الجواب عمّا يشكل من الأحكام، ويقال: استفتيته فأفتاني بكذا (انتهى).

والمحصّل من موارد استعماله أنه جواب الانسان عن الامور المشكلة بما يراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما يراه فيما يشكل بحسب النظر البدائيّ الساذج كما يفيده نسبة الفتوى إليه تعالى.

والآية وان احتملت معاني شتى مختلفة بالنظر الى ما ذكروه من مختلف الوجوه في تركيب ما يتولها من قوله «وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء» الخ؛ الا أن ضم الآية الى الآيات الناظرة في أمر النساء في أول السورة يشهد بأن هذه الآية انما انزلت بعد تلك.

ولازم ذلك أن يكون استفتاؤهم في النساء في عامّة ما أحدثه الاسلام وأبدعه من أحكامهنّ مما لم يكن معهوداً معروفاً عندهم في الجاهلية، وليس الا ما يتعلق بحقوق النساء في الارث والازدواج دون أحكام يتاماهن وغير ذلك مما يختص بطائفة منهن دون جميعهن فان هذا المعنى انما يتكفّله قوله «وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء» الخ؛ فالاستفتاء إنما كان في ما يعم النساء بما هن نساء من أحكام الارث.

وعلى هذا فالمراد بما أفتاه الله فيهن في قوله «قل الله يفتيكم فيهن» ما بيّنه تعالى في آيات أول السورة، ويفيد الكلام حينئذ ارجاع أمر الفتوى الى الله سبحانه وصرفه عن النبي ﷺ، والمعنى: يسألونك ان تفتيهم في امرهن قل: الفتوى الى الله وقد أفتاكم فيهن بما افتى فيما انزل من آيات اول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ - الى قوله - وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ تقدّم أن ظاهر السياق أن حكم يتامى النساء

والمستضعفين من الولدان إنما تعرض له لاتصاله بحكم النساء كما وقع في آيات صدر السورة لا لكونه داخلاً فيما استفتوا عنهن، وأنهم إنما استفتوا في النساء فحسب.

ولازمه أن يكون قوله «وما يتلى عليكم»، معطوفاً على الضمير المجرور في قوله «فيهنّ» على ما جوّزه الفراء وإن منع عنه جمهور النحاة، وعلى هذا يكون المراد من قوله «ما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء» الخ: الاحكام والمعاني التي تتضمنّها الآيات النازلة في يتامى النساء والولدان، المودعة في أول السورة. والتلاوة كما يطلق على اللفظ يطلق على المعنى اذا كان تحت اللفظ، والمعنى: قل الله يفتيكم في الأحكام التي تتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء.

وأما قوله: ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فوصف ليتامى النساء، وفيه إشارة الى نوع حرمانهنّ، الذي هو السبب لتشريع ما شرّع الله تعالى لهن من الأحكام فألغى السنّة الجائرة الجارية عليهن، ورفع الحرج بذلك عنهن، وذلك انهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء وأموالهن فإن كانت ذات جمال وحسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها ومالها، وإن كانت شوهاء دميمة لم يتزوجوا بها وعضلوها عن التزوّج بالغير طمعاً في مالها.

ومن هنا يظهر (أولاً): أن المراد بقوله «ما كتب لهن» هو الكتابة التكوينيّة وهو التقدير الإلهي فإن الصنع والإيجاد هو الذي يخدّ للإنسان سبيل الحياة فيعين له أن يتزوج اذا بلغ مبلغه، وأن يتصرّف حراً في ماله من المال والقنية، فمنعه من الازدواج والتصرف في مال نفسه منع له مما كتب الله له في خلقه هذه الخلقة.

و(ثانياً): أن الجارّ المحذوف في قوله «أن تنكحوهنّ» هو لفظة «عن» والمراد الرغبة عن نكاحهن، والإعراض عنهن لا الرغبة في نكاحهن فإن التعرّض لذكر الرغبة عنهن هو الأنسب للإشارة الى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لا تؤتونهن ما كتب لهن»، وقوله

بعده « والمستضعفين من الولدان ».

وأما قوله: ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ فمعطوف على قوله « يتامى النساء » وقد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى، ويحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل، ولا يدفعون عن الحريم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾ معطوف على محل قوله « فيهن » والمعنى: قل الله يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، وهذا بمنزلة الإضراب عن الحكم الخاص الى ما هو أعم منه أعني الانتقال من حكم بعض يتامى النساء والولدان الى حكم مطلق اليتيم في ماله وغير ماله.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾ تذكرة لهم بأن ما عزم الله عليهم في النساء وفي اليتامى من الأحكام فيه خيرهم، وأن الله عليم به لتكون ترغيباً لهم في العمل به لأن خيرهم فيه، وتحذيراً عن مخالفة لأن الله عليم بما يعملون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً ﴾، حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متّصل به بالمناسبة نظير الحكم المذكور في الآية التالية « ولن تستطيعوا أن تعدلوا ».

وإنما اعتبر خوف النشوز والإعراض دون نفس تحققها لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم والآثار المعقبة للخوف، والسياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأة عن بعض حقوقها في الزوجية أو جميعها لجلب الانس والألفة والموافقة، والتحفظ عن وقوع المفارقة، والصلح خير.

وقوله: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ الشح هو البخل، معناه: أن الشح من الغرائز النفسانية التي جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها، وتصونها عن الضيعة، فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها، فالمرأة تبخل بمالها من الحقوق في الزوجية كالكسوة والنفقة

والفراش والوقاع، والرجل يبخل بالموافقة والميل اذا احب المفارقة، وكره المعاشرة، ولا جناح عليهما حينئذ ان يصلحا ما بينهما بإغماض احدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قال تعالى «وان تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» وهو موعظة للرجال ان لا يتعدوا طريق الاحسان والتقوى ولتيذكروا ان الله خبير بما يعملونه، ولا يحيفوا في المعاشرة، ولا يكرهوهنّ على الغاء حقوقهن الحقة وان كان لهن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بيان الحكم العدل بين النساء الذي شرّع لهن على الرجال في قوله تعالى في اول السورة: ﴿وان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة﴾ (النساء / ٣) وكذا يومي اليه قوله في الآية السابقة «وان تحسنوا وتتقوا» الخ؛ فإنه لا يخلو من شوب تهديد، وهو يوجب الحيرة في تشخيص حقيقة العدل بينهن، والعدل هو الوسط بين الافراط والتفريط، ومن الصعب المستصعب تشخيصه، وخاصة من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبي مما لا يتطرق اليه الاختيار دائماً.

فبيَّن تعالى أن العدل بين النساء بحقيقة معناه، وهو اتخاذ حاق الوسط حقيقة مما لا يستطاع للإنسان ولو حرص عليه، وانما الذي يجب على الرجل ان لا يميل كل الميل الى احد الطرفين وخاصة طرف التفريط فيذر المرأة كالمعلّقة لا هي ذات زوج فتستفيد من زوجها، ولا هي أرملة فتتزوج أو تذهب لشأنها.

فالواجب على الرجل من العدل بين النساء أن يسوي بينهن عملاً بإيتائهن حقوقهن من غير تطرف، والمندوب عليه أن يحسن إليهن ولا يظهر الكراهة لمعاشرتهن ولا يسيء إليهن خُلقاً، وكذا كانت سيرة رسول الله ﷺ.

وهذا الذيل أعني قوله «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» هو الدليل على ان ليس المراد بقوله «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» نفي مطلق العدل حتى ينتج

بانضمامه الى قوله تعالى «وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (الآية) إلغاء تعدد الأزواج في الاسلام كما قيل.

وذلك أن الذيل يدل على أن المنفي هو العدل الحقيقي الواقعي من غير تطرّف أصلاً بلزوم حاق الوسط حقيقة، وأن المشرَّع هو العدل التقريبي عملاً من غير تحرج.

على أن السنّة النبوية ورواج الأمر بمرأى ومسمع من النبي ﷺ والسيرة المتصلة بين المسلمين يدفع هذا التوهم.

على أن صرف قوله تعالى في أول آية تعدد الأزواج: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ (النساء / ٣) الى مجرد الفرض العقلي الخالي عن المصداق ليس إلا تعمية يجل عنها كلامه سبحانه.

ثم قوله: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تأكيد وترغيب للرجال في الإصلاح عند بروز امارات الكراهة والخلاف ببيان أنه من التقوى، والتقوى يستتبع المغفرة والرحمة، وهذا بعد قوله «والصلح خير»، وقوله «وإن تحسنوا وتتقوا»، تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾، أي وإن تفرق الرجل والمرأة بطلاق يغن الله كلاً منهما بسعته، والإغناء بقرينة المقام إغناء في جميع ما يتعلق بالازدواج من الايتلاف والاستيناس والمس وكسوة الزوجة ونفقتها فإن الله لم يخلق أحد هذين الزوجين للآخر حتى لو تفرقا لم يوجد للواحد منهما زوج مدى حياته بل هذه السنّة سنّة فطرية فاشية بين أفراد هذا النوع يميل إليها كل فرد بحسب فطرته.

وقوله: ﴿وكان الله واسعاً حكيماً ولله ما في السماوات وما في الارض﴾ تعليل للحكم المذكور في قوله «يغن الله كلاً من سعته».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا

اللَّهَ ﴾، تأكيد في دعوتهم الى مراعاة صفة التقوى في جميع مراحل المعاشرة الزوجية، وفي كل حال، وأن في تركه كفراً بنعمة الله بناء على أن التقوى الذي يحصل بطاعة الله ليس إلا شكراً لأنعمه، أو أن ترك تقوى الله تعالى لا منشأ له إلا الكفر إما كفر ظاهر كما في الكفار والمشركين، أو كفر مستكن مستبطن كما في الفساق من المؤمنين.

وبهذا الذي بيناه يظهر معنى قوله «وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض»، أي إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم والذين من قبلكم وأضعتم هذه الوصية ولم تتقوا وهو كفر بالله، أو عن كفر بالله فإن ذلك لا يضر الله سبحانه اذ لا حاجة له إليكم والى تقواكم، وله ما في السماوات والارض، وكان الله غنياً حميداً.

فإن قلت: ما وجه تكرار قوله «لله ما في السماوات وما في الأرض»؟ فقد أُورد ثلاث مرات.

قلت: أما الأول فإنه تعليل لقوله «وكان الله واسعاً حكيماً»، وأما الثاني فإنه واقع موقع جواب الشرط في قوله «فإن تكفروا»، والتقدير: وإن تكفروا فإنه غني عنكم، وتعليل للجواب وقد ظهر في قوله «وكان الله غنياً حميداً».

وأما الثالث فإنه استيناف وتعليل بوجه لقوله «إن يشأ».

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ قد مر بيان معنى ملكه تعالى مكرراً، وهو تعالى وكيل يقوم بامور عباده وشؤنهم وكفى به وكيلاً لا يحتاج فيه الى اعتضاد واسعاد، فلو لم يرتض أعمال قوم وأسخطه جريان الأمر بأيديهم أمكنه أن يذهب بهم ويأتي بآخرين، أو يؤخرهم ويقدم آخرين، وبهذا المعنى الذي يؤيده بل يدل عليه السياق يرتبط بما في هذه الآية قوله في الآية التالية «ان يشأ يذهبكم أيها الناس».

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، السياق وهو

الدعوة الى ملازمة التقوى الذي أوصى الله به هذه الامة ومن قبلهم من أهل الكتاب يدل على أن اظهار الاستغناء وعدم الحاجة المدلول عليه بقوله «إن يشأ»، إنما هو في أمر التقوى.

والمعنى أن الله وصاكم جميعاً بملازمة التقوى فاتقوه، وان كفرتم فإنه غني عنكم، وهو المالك لكل شيء المتصرف فيه كيفما شاء ولما شاء ان يشأ أن يعبد ويتقى ولم تقوموا بذلك حق القيام فهو قادر أن يؤخركم ويقدم آخرين يقومون لما يحبه ويرتضيه، وكان الله على ذلك قديراً.

وعلى هذا فالآية ناظرة الى تبديل الناس ان كانوا غير متقين بآخرين من الناس يتقون الله، وقد روي[1] أن الآية لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: انهم قوم هذا. وهو يؤيد هذا المعنى، وعليك بالتدبر فيه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ بيان آخر يوضح خطأ من يترك تقوى الله ويضيع وصيته بأنه ان فعل ذلك ابتغاء ثواب الدنيا ومغنمها فقد اشتبه عليه الأمر فإن ثواب الدنيا والآخرة معاً عند الله وبيده، فماله يقصر نظره باخس الأمرين ولا يطلب اشرفهما أو اياهما جميعاً؟ كذا قيل.

والأظهر أن يكون المراد ـ والله أعلم ـ أن ثواب الدنيا والآخرة وسعادتهما معاً إنما هو عند الله سبحانه فليتقرب إليه حتى من أراد ثواب الدنيا وسعادتها فإن السعادة لا توجد للإنسان في غير تقوى الله الحاصل بدينه الذي شرعه له فليس الدين إلا طريق السعادة الحقيقية، فكيف ينال نائل ثواباً من غير إيتائه تعالى وإفاضته من عنده وكان الله سميعاً بصيراً[2].

---

١. أوردها البيضاوي في تفسيره.

٢. النساء ١٢٧ ـ ١٣٤: بحث روائي في: تقاليد الجاهلية حول حرمان النساء والاطفال من الارث؛ نشوز الرجال؛ مراعاة العدالة بين النساء.

١٣٥ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ القسط هو العدل، والقيام بالقسط العمل به والتحفظ له، فالمراد بالقوّامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمله، من غير انحطاف وعدول عنه الى خلافه لعامل من هوى وعاطفة أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

وهذه الصفة اقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة. ومن فروعها ملازمة الصدق في أداء الشهادة والقيام بها.

ومن هنا يظهر ان الابتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرّج من الوصف العام الى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل: كونوا شهداء لله، ولا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا قوّامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله.

وقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ اللام فيه للغاية أي كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ (الطلاق / ٢) ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعاً للحق ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله «فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها، فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ما تحمّله من الشهادة لو أدّى مضرّاً بحاله أو بحال والديه وأقربيه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا واسطة كما اذا تخاصم أبوه وإنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون التضرر مع الواسطة كما اذا تخاصم اثنان وكان الشاهد متحمّلاً لاحدهما ما لو أداه لتضرّر به نفس الشاهد أيضاً ـ كالمتخاصم الآخر ـ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ إرجاع ضمير التثنية الى الغني والفقير مع وجود «أو» الترديدية لكون المراد بالغني والفقير هو المفروض المجهول الذي يتكرر بحسب وقوع الوقائع وتكررها فيكون غنيّاً في واقعة، وفقيراً في اخرى، فالترديد بحسب فرض البيان وما في الخارج تعدد، كذا ذكره بعضهم، فالمعنى أن الله أولى بالغني في غناه، وبالفقير في فقره: والمراد ـ والله أعلم ـ: لا يحملنكم غنى الغنيّ أن تميلوا عن الحق إليه، ولا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهادة لله سبحانه ثم خلوا بينه وبين الغني والفقير فهو أولى بهما وأرحم بحالهما، ومن رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع، والقسط هو المندوب الى إقامته، وفي قيام القسط وظهور الحق سعادة النوع التي يقوم بها صلب الغني، ويصلح بها حال الفقير.

والواحد منهما وإن انتفع بشهادة محرّفة أو متروكة في شخص واقعة أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق ويميت العدل، وفي ذلك قوة الباطل وحياة الجور والظلم، وفي ذلك الداء العضال وهلاك الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾، أي مخافة أن تعدلوا عن الحقّ والقسط باتباع الهوى وترك الشهادة لله فقوله «أن تعدلوا» مفعول لاجله ويمكن أن يكون مجروراً

بتقدير اللام متعلقاً بالاتباع أي لأن تعدلوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ اللي بالشهادة كناية عن تحريفها من ليّ اللسان. والإعراض ترك الشهادة من رأس.

وقرىء «وإن تلوا» بضم اللام وإسكان الواو من ولي يلي ولاية، والمعنى: وإن وليتم أمر الشهادة وأتيتم بها أو أعرضتم فإن الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها.

١٣٦ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً.

١٣٧ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً.

١٣٨ ● بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.

١٣٩ ● الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً.

١٤٠ ● وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً.

١٤١ ● الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ

نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً.

١٤٢ ● إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً.

١٤٣ ● مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً.

١٤٤ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً.

١٤٥ ● إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً.

١٤٦ ● إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً.

١٤٧ ● مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أمر المؤمنين بالايمان ثانياً بقرينة التفصيل في متعلق الايمان الثاني اعني قوله «بالله ورسوله والكتاب» الخ؛ وايضاً بقرينة الإبعاد والتهديد على ترك الايمان بكل واحد من هذا التفاصيل إنما هو امر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطة بعضها ببعض، مستلزمة بعضها لبعض، فالله سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي الموجبة لأن يخلق خلقاً ويهديهم الى ما يرشدهم ويسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء، ولا يتم ذلك الا بإرسال رسل مبشرين ومنذرين، وإنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وتبين لهم معارف المبدء والمعاد، واصول الشرائع والأحكام.

فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم الا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء، والرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو اظهر، ونفاق لو كتم واخفى، ومن النفاق ان يتخذ المؤمن مسيراً ينتهي به الى رد بعض ذلك، كأن يفارق مجتمع المؤمنين ويتقرب الى مجتمع الكفار ويواليهم، ويصدقهم في بعض ما يرمون به الإيمان وأهله، أو يعترضوا أو يستهزؤن به الحق وخاصته، ولذلك عقب تعالى هذه الآية بالتعرض لحال المنافقين ووعيدهم بالعذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ لما كان الشطر الأول من الآية اعني قوله «يا ايها الذين آمنوا آمنوا ـ الى قوله ـ من قبل» دعوة الى الجمع بين جميع ما ذكر فيه بدعوى ان اجزاء هذا المجموع مرتبطة غير مفارق بعضها بعضاً كان هذا التفضيل ثانياً في معنى الترديد والمعنى: ومن يكفر بالله أو

ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر اي من يكفر بشيء من اجزاء الايمان فقد ضل ضلالاً بعيداً.

وليس المراد بالعطف بالواو الجمع في الحكم ليتم الجميع موضوعاً واحداً له حكم واحد بمعنى ان الكفر بالمجموع من حيث انه مجموع ضلال بعيد دون الكفر بالبعض دون البعض. على ان الآيات القرآنيّة ناطقة بكفر من كفر بكل واحد مما ذكر في الآية على وجه التفصيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ الآية لو اخذت وحدها منقطعة عما قبلها وما بعدها كانت دالة على ما يجازي به الله تعالى اهل الردة اذا تكررت منهم الردة بأن آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً فالله سبحانه يوعّدهم ـ وحالهم هذا الحال ـ بأنه لا يغفر لهم، ولا يهديهم سبيلاً، وليس من المرجو منه المتوقع من رحمته ذلك لعدم استقرارهم على ايمان، وجعلهم امر الله ملعبة يلعبون بها، ومن كان هذا حاله لم يثبت بالطبع على ايمان جدي يقبل منه، وان كانوا لو آمنوا ايماناً جدياً شملتهم المغفرة والهداية فإن التوبة بالايمان بالله حقيقة مما لا يردّه الله في حال على ما وعد الله تعالى عباده. وقد تقدم الكلام فيه في قوله تعالى: ﴿انما التوبة على الله﴾ الآية (النساء / ١٧)، في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

فالآية تحكم بحرمانهم على ما يجري على الطبع والعادة، ولا تأبى الاستثناء لو اتفق إيمان واستقامة عليه من هذه الطائفة نادراً كما يستفاد من نظير الآية. قال تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ـ الى أن قال ـ إلا الذين تابو من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم إن الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ (آل عمران / ٩٠).

والآيات ـ كما ترى ـ تستثني ممن كفر بعد ايمانه، وقوبل بنفي المغفرة والهداية، وهي مع ذلك تنفي قبول توبة من ازداد كفراً بعد الايمان. صدر الآيات فيمن كفر بعد الإيمان والشهادة بحقّيّة

الرسول وظهور الآيات البينات، فهو ردة عناداً ولجاجاً، والازدياد فيه لا يكون إلا مع استقرار العناد والعتوّ في قلوبهم، وتمكن الطغيان والاستكبار في نفوسهم، ولا يتحقق الرجوع والتوبة ممن هذا حاله عادة.

هذا ما يقتضيه سياق الآية لو أُخذت وحدها كما تقدم، لكن الآيات جميعاً لا تخلو عن ظهور مّا أو دلالة على كونها ذات سياق واحد متصلاً بعضها ببعض، وعلى هذا التقدير يكون قوله «إن الذين آمنوا ثم كفروا»، في مقام التعليل لقوله «ومن يكفر بالله ـ الى قوله ـ فقد ضل ضلالاً بعيداً» ويكون الآيتان ذواتي مصداق واحد أي إن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو الذي آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً. ويكون أيضاً هو من المنافقين الذين تعرّض تعالى لهم في قوله بعد «بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً» الى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ الخ؛ تهديد للمنافقين، وقد وصفهم بموالاة الكافرين دون المؤمنين، وهذا وصف اعمّ مصداقاً من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم، وانما يتظاهرون بالايمان فإن طائفة من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاة الكفار، والانقطاع عن جماعة المؤمنين، والاتصال بهم باطناً واتخاذ الوليجة منهم حتى في زمن الرسول ﷺ.

وهذا يؤيد بعض التأييدان يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفة من المؤمنين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين، ويؤيده ظاهر قوله في الآية اللاحقة «وقد نزّل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم ـ الى قوله ـ انكم اذاً مثلهم» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين، والخطاب فيه للمؤمنين، ويؤيده ايضاً ما سيصف تعالى حالهم في نفاقهم بقوله «ولا يذكرون الله الا قليلاً» فأثبت لهم شيئاً من ذكر الله تعالى، وهو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ استفهام انكاري ثم جواب بما يقرر الانكار فإن العزة من فروع الملك، والملك له وحده، قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك يؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ (آل عمران / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ـ الى قوله ـ مِثْلُهُمْ﴾ يريد ما نزّله في سورة الانعام: ﴿واذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ (الأنعام / ٦٨) فإن سورة الأنعام مكية، وسوره النساء مدنية.

ويستفاد من اشارة الآية الى آية الأنعام ان بعض الخطابات القرآنية وجّه الى النبي ﷺ خاصة، والمراد بها ما يعم الامة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ تعليل للنهي اي بما نهيناكم لأنكم اذا قعدتم معهم ـ والحال هذه ـ تكونون مثلهم، وقوله «ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم».

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ التربّص: الانتظار. والاستحواذ: الغلبة والتسلط، وهذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم انما حفظوا رابطة الاتصال بالفريقين جميعاً: المؤمنين والكافرين، يستدرُّون الطائفتين ويستفيدون ممن حسن حاله منهما، فإن كان للمؤمنين فتح قالوا: انّا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أُوتيتموه من غنيمة ونحوها، وان كانَ للكافرين نصيب قالوا: الم نغلبكم ونمنعكم من المؤمنين؟ اي من الايمان بما آمنوا به والاتصال بهم فلنا سهم مما أُوتيتموه من النصيب أو منّة عليكم حيث جررنا إليكم النصيب.

قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ الخطاب للمؤمنين وإن كان سارياً الى المنافقين والكافرين جميعاً. وأما

قوله «ولن يجعل الله»، فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين، ولن ينعكس الأمر أبداً، وفيه إياس للمنافقين، أي ليئس هؤلاء المنافقون فالغلبة للمؤمنين على الكافرين بالآخرة.

ويمكن أن يكون نفي السبيل أعم من النشأتين: الدنيا والآخرة، فإن المؤمنين غالبون بإذن الله دائماً ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم، قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران / ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ المخادعة هي الإكثار أو التشديد في الخدعة بناء على أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

وقوله «وهو خادعهم» في موضع الحال أي يخادعون الله في حال هو يخدعهم ويؤول المعنى الى أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الصادرة عن النفاق من إظهار الإيمان، والاقتراب من المؤمنين، والحضور في محاضرهم ومشاهدهم أن يخادعوا الله أي النبي ﷺ والمؤمنين فيستدرُّوا منهم بظاهر ايمانهم وأعمالهم من غير حقيقة، ولا يدرون أن هذا الذي خلى بينهم وبين هذه الأعمال ولم يمنعهم منها هو الله سبحانه، وهو خدعة منه لهم ومجازاة لهم بسوء نياتهم وخباثة أعمالهم، فخدعتهم له بعينها خدعته لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا وصف آخر من أوصافهم وهو القيام الى الصلاة ـ اذا قاموا إليها ـ كسالى يراؤون الناس، والصلاة أفضل عبادة يذكر فيها الله، ولو كانت قلوبهم متعلقة بربهم مؤمنة به لم يأخذهم الكسل والتواني في التوجه إليه وذكره، ولم يعملوا عملهم لمراءاة الناس، ولذكروا الله تعالى كثيراً على ما هو شأن تعلق القلب واشتغال البال.

قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، قال في المجمع: يقال: ذبذبته فذبذب اي حركته فتحرك فهو كتحريك شيء معلق (انتهى). فكون

الشيء مذبذباً ان يتردد بين جانبين من غير تعلق بشيء منهما، وهذا نعت المنافقين، يتذبذبون بين ذلك ـ اي الذي ذكر من الايمان والكفر ـ لا الى هؤلاء اي لا الى المؤمنين فقط كالمؤمنين بالحقيقة، ولا الى الكفار فقط كالكافرين محضاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ في مقام التعليل لما سبقه من حديث الذبذبة، فسبب ترددهم بين الجانبين من غير تعلق بأحدهما ان الله اضلهم عن السبيل فلا سبيل لهم يردونه.

ولهذه العلة بعينها قيل «مذبذبين بين ذلك» ولم يقل: متذبذبين اي القهر الالهي هو الذي يجر لهم هذا النوع من التحريك الذي لا ينتهي الى غاية ثابتة مطمئنة.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ﴾ (الى آخر الآيتين) السلطان هو الحجة. والدرك بفتحتين ـ وقد يسكن الراء ـ قال الرغب: الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، والدرك اعتباراً بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنّة ودركات النار، ولتصور الحدور في النار سمّيت هاوية (انتهى).

والآية ـ كما ترى ـ تنهى المؤمنين عن الاتصال بولاية الكفار وترك ولاية المؤمنين، ثم الآية الثانية تعلل ذلك بالوعيد الشديد المتوجه الى المنافقين، وليس الا ان الله سبحانه يعد هذا الصنيع نفاقاً يحذر المؤمنين من الوقوع فيه.

والسياق يدل على ان قوله «يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا»، كالنتيجة المستنتجة مما تقدم أو الفرع المتفرع عليه، وهذا كالصريح في ان الآيات السابقة انما تتعرض لحال مرضى القلوب وضعفاء الايمان من المؤمنين ويسميهم المنافقين، ولا أقل من شمولها لهم، ثم يعظ المؤمنين ان لا يقربوا هذا الحمى ولا يتعرضوا لسخط الله، ولا يجعلوا الله تعالى على انفسهم حجة واضحة فيضلهم ويخدعهم ويذبذبهم في الحياة الدنيا، ثم يجمع بينهم وبين الكافرين في جهنم جميعاً، ثم يسكنهم في اسفل درك من النار، ويقطع بينهم وبين كل نصير ينصرهم،

وشفيع يشفع لهم.

ويظهر من الآيتين اولاً: الاضلال والخدعة وكل سخط الهي من هذا القبيل إنما عن حجة واضحة تعطيها أعمال العباد، فهي إخزاء على طريق المقابلة والمجازاة. وحاشا الجناب الإلهي أن يبدءهم بالشر والشقوة من غير تقدّم ما يوجب ذلك من قبلهم، فقوله «أتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً»؟ يجري مجرى قوله: ﴿وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾ (البقرة/ ٢٦).

وثانياً: أن في النار لأهلها مراتب تختلف في السفالة، ولا محالة يشتدّ بحسبها عذابهم يسميها الله تعالى بالدركات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ استثناء من الوعيد الذي ذكر في المنافقين بقوله «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (الآية)؛ ولازم ذلك خروجهم من جماعة المنافقين، ولحوقهم بصف المؤمنين، ولذلك ذيّل الاستثناء بذكر كونهم مع المؤمنين، وذكر ثواب المؤمنين جميعاً فقال تعالى «فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً».

وقد وصف الله هؤلاء الذين استثناهم من المنافقين بأوصاف عديدة ثقيلة، وليست تنبت اصول النفاق وأعراقه إلا بها، فذكر التوبة وهي الرجوع الى الله تعالى، ولا ينفع الرجوع والتوب وحده حتى يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس وعمل، ولا ينفع الإصلاح إلا أن يعتصموا بالله أي يتبعوا كتابه وسنة نبيه ﷺ اذ لا سبيل الى الله إلا ما عينه وما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

ولا ينفع الاعتصام المذكور إلا اذا أخلصوا دينهم ـ وهو الذي فيه الاعتصام ـ لله، فإن الشرك ظلم لا يعفى عنه ولا يغفر، فاذا تابوا الى الله وأصلحوا كل فاسد منهم واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك، فأمنوا النفاق واهتدوا قال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾

(الأنعام / ٨٢).

ويظهر من سياق الآية أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضاً المخلصون للإيمان، وقد عرّفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، وهذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى في كتابه من صفاتهم ونعوتهم كقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون﴾ الى آخر الآيات (المؤمنون / ٣)؛ وقوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ الآيات (الفرقان / ٦٤)؛ وقوله: ﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء / ٦٥).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين اذا أطلق اللفظ إطلاقاً من غير قرينة تدل على خلافه.

وقد قال تعالى «فأولئك مع المؤمنين» ولم يقل: فأولئك من المؤمنين لانهم يتحقق هذه الأوصاف فيهم أول تحقّقها يلحقون بهم، ولن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، ظاهره أنه خطاب للمؤمنين، لأن الكلام جار على خطابهم وإنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم وفرضهم كالعاري عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

وهو كناية عن عدم حاجته تعالى الى عذابهم، وأنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر والإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم، لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، ولا يستضر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم، فالمعنى: لا موجب لعذابكم إن شكرتم نعمة الله بأداء واجب حقه وآمنتم به وكان الله شاكراً لمن شكره وآمن به، عليماً لا يجهل مورده.

وفي الآية دلالة على أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله، وكذا كل ما يستوجب العذاب من ضلال أو شرك أو معصية، ولو كان شيء من ذلك من قبله تعالى لكان العذاب الذي يستتبعه أيضاً من قبله لأن المسبّب يستند الى من استند اليه السبب[1].

١٤٨ ● لَا يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً.

١٤٩ ● إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾. قال الراغب في مادة «جهر» يقال لظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر أو حاسّة السمع، أما البصر فنحو رأيته جهاراً، قال الله تعالى «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» «أرنا الله جهرة» ـ الى أن قال ـ وأما السمع فمنه قوله تعالى «سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به».

والسوء من القول كل كلام يسوء من قيل فيه كالدعاء عليه، وشتمه بما فيه من المساوىء والعيوب وبما ليس فيه، فكل ذلك لا يحب الله الجهر به وإظهاره، ومن المعلوم أنه تعالى منزّه من الحب والبغض على حد ما يوجد فينا معشر الإنسان وما يجانسنا من الحيوان، إلا أنه لما كان الأمر والنهي عندنا بحسب الطبع صادرين عن حب وبغض كنّي بهما عن الإرادة والكراهة وعن الأمر والنهي.

---

١. النساء ١٣٦ ـ ١٤٧: بحث روائي في: الايمان والكفر؛ النهي عن المخدعة؛ المنافقين؛ الاخلاص لله تعالى ونتائجه.

فقوله «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول» كناية عن الكراهة التشريعية أعم من التحريم والإعانة.

وقوله «إلا من ظلم» استثناء منقطع أي لكن من ظلم لا بأس بأن يجهر بالسوء من القول فيمن ظلمه من حيث ظلم، وهذه هي القرينة على أنه إنما يجوز له الجهر بالسوء من القول يبين فيه ما ظلمه، ويظهر مساوئه التي فيه مما ظلمه به. وأما التعدّي الى غيره مما ليس فيه. أو ما لا يرتبط بظلمه فلا دليل على جواز الجهر به من الآية.

والمفسرون وإن اختلفوا في تفسير السوء من القول فمن قائل أنه الدعاء عليه، ومن قائل أنه ذكر ظلمه وما تعدى به عليه وغير ذلك إلا أن الجميع مشمول لإطلاق الآية، فلا موجب لتخصيص الكلام ببعضها.

وقوله «وكان الله سميعاً عليماً» في مقام التأكيد للنهي المستفاد من قوله «لا يحب الله الجهر» أي لا ينبغي الجهر بالسوء من القول من غير المظلوم فإن الله سميع يسمع القول عليم يعلم به.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ الآية لا تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تشمل إظهار الخير من القول شكراً لنعمة أنعمها منعم على الإنسان. وتشمل العفو عن السوء والظلم فلا يجهر على الظالم بالسوء من القول.

فإبداء الخير إظهاره سواء كان فعلاً كإظهار الإنفاق على مستحقه وكذا كل معروف لما فيه من إعلاء كلمة الدين وتشويق الناس الى المعروف. أو كان قولاً كإظهار الشكر على المنعم وذكره بجميل القول لما فيه من حسن التقدير وتشويق أهل النعمة.

وإخفاء الخير منصرفه إخفاء فعل المعروف ليكون أبعد من الرئاء وأقرب الى الخلوص كما قال: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ (البقرة / ٢٧١).

والعفو عن السوء هو الستر عليه قولاً بأن لا يذكر ظالمه بظلمه، ولا يذهب بماء وجهه عند الناس، ولا يجهر عليه بالسوء من القول، وفعلاً بأن لا يواجهه بما يقابل ما أساء به، ولا ينتقم عنه فيما يجوز له ذلك كما قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ (البقرة / ١٩٤).

وقوله «فإن الله كان عفوّاً قديراً» سبب أُقيم مقام المسبَّب والتقدير: إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتم بصفة من صفات الله الكمالية ـ وهو العفو على قدرة ـ فإن الله ذو عفو على قدرته، فالجزاء جزاء بالنسبة الى بعض الشروط، وأما إبداء الخير وإخفاؤه أي إيتاؤه على أي حال فهو أيضاً من صفاته تعالى بما أنه الله تعالى، ويمكن أن يلوّح إليه الكلام.

١٥٠ ● إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً.

١٥١ ● أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً.

١٥٢ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، هؤلاء أهل الكتاب من اليهود والنصارى فاليهود تؤمن بموسى وتكفر بعيسى ومحمد، والنصارى تؤمن بموسى وعيسى وتكفر بمحمد صلى الله عليهم اجمعين، وهؤلاء على زعمهم لا يكفرون بالله وببعض رسله،

وإنما يكفرون ببعض الرسل، وقد أطلق الله عليهم أنهم كافرون بالله ورسله جميعاً، ولذلك احتيج الى بيان المراد من إطلاق قوله «إن الذين يكفرون بالله ورسله».

ولذلك عطف على قوله «إن الذين يكفرون»، قوله «ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض» بعطف التفسير ونفس المعطوف أيضاً بعضه يفسّر بعضه، فهم كافرون بالله ورسله لأنهم بقولهم «نؤمن ببعض ونكفر ببعض» يريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله فيؤمنون بالله وبعض رسله، ويكفروا ببعض رسله مع كونه رسولاً من الله، والرد عليه رد على الله تعالى.

ثم بيّن ذلك ببيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال: «ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً» أي سبيلاً متوسطاً بين الإيمان بالله ورسله جميعاً والكفر بالله ورسله جميعاً، وهو الايمان ببعض والكفر ببعض، ولا سبيل الى الله إلا الايمان به وبرسله جميعاً فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء ولا له من الأمر شيء، فالإيمان به إيمان بالله والكفر به كفر بالله محضاً.

فالكفر بالبعض والإيمان بالبعض وبالله ليس إلا تفرقة بين الله وبين رسله، وإعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان بالله، والكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفاً لا وسطاً، وكيف يصح فرض الرسالة ممن لا يرتبط الإيمان به والكفر به بالايمان بالله والكفر به؟

فمن البيّن الذي لا مرية فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه والخضوع له شرك بالله العظيم، ولذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض أن يفرّقوا بين الله ورسله ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ذكر أنهم كافرون بذلك حقاً فقال «أولئك هم الكافرون حقاً» ثم أوعدهم فقال «وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، لما كفر

أولئك المفرّقين بين الله ورسله، وذكر أنهم كافرون بالله ورسله ذكر من يقابلهم بالإيمان بالله ورسله على سبيل عدم التفرقة تتميماً للأقسام.

١٥٣ ● يَسْئَلُكَ أَهْلُ الكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذٰلِكَ وَآتَيْنا مُوسىٰ سُلْطاناً مُبِيناً.

١٥٤ ● وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً.

١٥٥ ● فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللّٰهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلّا قَلِيلاً.

١٥٦ ● وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتٰاناً عَظِيماً.

١٥٧ ● وَقَوْلِهِمْ إِنّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَمٰا قَتَلُوهُ وَمٰا صَلَبُوهُ وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَمٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً.

١٥٨ ● بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَكٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

١٥٩ ● وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً.

١٦٠ ● فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ كَثِيراً.

١٦١ ● وَأَخْذِهِمُ الرِّبوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

١٦٢ ● لٰكِنِ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً.

١٦٣ ● إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلىٰ إِبْراهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ وَعِيسىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهٰرُونَ وَسُلَيْمٰنَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً.

١٦٤ ● وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً.

١٦٥ ● رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

١٦٦ ● لٰكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً.

١٦٧ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً

بَعِيداً.

١٦٨ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً.

١٦٩ ● إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾، أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما هو المعهود في عرف القرآن في أمثال هذه الموارد، وعليه فالسائل هو الطائفتان جميعاً دون اليهود فحسب.

ولا ينافيه كون المظالم والجرائم المعدودة في ضمن الآيات مختصة باليهود كسؤال الرؤية، واتخاذ العجل، ونقض الميثاق عند رفع الطور والأمر بالسجدة والنهي عن العدو في السبت وغير ذلك.

فإن الطائفتين ترجعان الى أصل واحد وهو شعب إسرائيل بعث إليهم موسى وعيسى عليهما السلام وإن انتشرت دعوة عيسى بعد رفعه في غير بني إسرائيل كالروم والعرب والحبشة ومصر وغيرهم، وما قوم عيسى بأقل ظلماً لعيسى من اليهود لموسى عليهما السلام.

ولعد الطائفتين جميعاً ذا أصل واحد يخص اليهود بالذكر فيما يخصهم من الجزاء حيث قال «فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم» ولذلك أيضاً عد عيسى بين الرسل المذكورين بعد كما عد موسى عليه السلام بينهم ولو كان وجه الكلام الى اليهود فقط لم يصح ذلك، ولذلك أيضاً قيل بعد هذه الآيات «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا

الحق إنما المسيح» الخ.

وبالجملة السائل هم أهل الكتاب جميعاً ووجه الكلام معهم لاشتراكهم في الخصيصة القومية وهو التحكم والقول بغير الحق والمجازفة وعدم التقيد بالعهود والمواثيق، والكلام جار معهم فيما اشتركوا فاذا اختص منهم طائفة بشيء خص الكلام به.

والذي سألوه رسول الله ﷺ هو أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء، ولم يسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن وتلاوة عليهم كيف والقصة إنما وقعت في المدينة وقد بلغهم من القرآن ما نزل بمكة وشطر مما نزل بالمدينة؟ بل هم ما كانوا يقنعون به دليلاً للنبوة، ولا يعدّونه كتاباً سماوياً مع أن القرآن نزل فيما نزل مشفّعاً بالتحدي ودعوى الإعجاز كما في سور: أسرى، ويونس، وهود، والبقرة النازلة جميعاً قبل سورة النساء.

فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن لم يكن إلا سؤالاً جزافياً لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة وإنما يلغو ويهذو بما قدمته له أيدي الأهواء من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس، نظير ما كانت تتحكم به قريش مع نزول القرآن، وظهور دعوته فتقول على ما حكاه الله سبحانه عنهم: ﴿لولا أُنزل عليه آية من ربه﴾ (يونس / ٢٠) ﴿أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه﴾ (الإسراء / ٩٣).

ولهذا الذي ذكرناه أجاب الله سبحانه عن مسألتهم (أولاً) بأنهم قوم متمادون في الجهالة والضلالة لا يأبون عن أنواع الظلم وإن عظمت، والكفر والجحود وإن جاء البيّنة، وعن نقض المواثيق وإن غلظت وغير ذلك من الكذب والبهتان وأي ظلم، ومن هذا شأنه لا يصلح لإجابة ما سأله والإقبال على ما اقترحه.

و(ثانياً) أن الكتاب الذي أنزله الله وهو القرآن مقارن لشهادة الله سبحانه وملائكته وهو الذي يفصح عن التحدي بعد التحدي بآياته الكريمة.

فقال تعالى في جوابهم أولاً «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك» أي مما سألوك من تنزيل كتاب من السماء إليهم «فقالوا أرنا الله جهرة» أي إراءة عيان نعاينه بأبصارنا، وهذه غاية ما يبلغه البشر من الجهالة والهذر والطغيان «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم» والقصة مذكورة في سورة البقرة (آية / ٥٥ ـ ٥٦) وسورة الأعراف (آية / ١٥٥).

ثم قال تعالى: «ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات» وهذه عبادة الصنم بعد ظهور بطلانه أو بيان أن الله سبحانه منزه عن شائبة الجسمية والحدوث، وهو من أفظع الجهالات البشرية «فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً» وقد أمرهم موسى في ذلك أن يتوبوا الى بارئهم فيقتلوا أنفسهم فأخذوا فيه فعفا الله عنهم ولما يتم التقتيل ولما يقتل الجميع، وهو المراد بالعفو، وآتى موسى عليه السلام سلطاناً مبيناً حيث سلطه عليهم وعلى السامري وعجله، والقصة مذكورة في سورة البقرة (آية / ٥٤).

ثم قال تعالى: «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم» وهو الميثاق الذي أخذه الله منهم ثم رفع فوقهم الطور، والقصة مذكورة مرتين في سورة البقرة (آية / ٦٣ ـ ٩٣).

ثم قال تعالى: «وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً» والقصتان مذكورتان في سورة البقرة (آية: ٥٨ ـ ٦٥) وسورة الأعراف (١٦١ ـ ١٦٣) وليس من البعيد أن يكون الميثاق المذكور راجعاً الى القصتين والى غيرهما فإن القرآن يذكر أخذ الميثاق منهم متكرّراً كقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ الآية (البقرة / ٨٣)؛ وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ (البقرة / ٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، الفاء للتفريع والمجرور متعلق بما سيأتي بعد عدة آيات ـ يذكر فيها جرائمهم ـ من قوله «حرّمنا عليهم» والآيات مسوقة لبيان ما جازاهم الله به وخيم الجزاء الدنيوي والاخروي، وفيها ذكر بعض ما لم يذكر من سننهم السيّئة أولاً.

وقوله «فبما نقضهم ميثاقهم» تلخيص لما ذكر منهم من نقض المواثيق ولما لم يذكر من المواثيق المذخوذة منهم.

وقوله «وكفرهم بآيات الله» تلخص لأنواع من الكفر كفروا بها في زمن موسى عليه السلام وبعده قص القرآن كثيراً منها، ومن جملتها الموردان المذكوران في صدر الآيات أعني قوله «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة». وقوله «ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات» وإنما قدما في الصدر، وأخّرا في هذه الآية لأن المقامين مختلفان فيختلف مقتضاهما فإن صدر الآيات متعرض لسؤالهم تنزيل كتاب من السماء، وذكر سؤالهم أكبر من ذلك وعبادتهم العجل أنسب به وألصق، وهذه الآية وما بعدها متعرضة لمجازاتهم في قبال أعمالهم بعد ما كانوا أجابوا دعوة الحق وذكر أسباب ذلك، والابتداء بذكر نقض الميثاق أنسب في هذا المقام وأقرب.

وقوله «وقتلهم الأنبياء بغير حق» بعني بهم زكريا ويحيى وغيرهما ممن ذكر القرآن قتلهم إجمالاً من غير تسمية.

وقوله «وقولهم قلوبنا غلف» جمع أغلف أي في أغشية تمنعها عن استماع الدعوة النبويّة، وقبول الحق لو دعيت إليه، وهذه كلمة ذكروها يريدون بها ردّ الدعوة، وإسناد عدم إجابتهم للدعوة الى الله سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب، أو أنهم جعلوا بالنسبة الى دعوة غير موسى كذلك من غير استناد ذلك الى اختيارهم وصنعهم.

ولذلك ردّ الله سبحانه عليهم بقوله «بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً» فبيّن أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوة الحقة مستند الى صنع الله لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم في ذلك بل إنما فعل ذلك بهم في مقابل كفرهم وجحودهم للحق، وكان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

وقد تقدم الكلام في هذا الاستثناء، وأن هذه النقمة الإلهية إنما نزلت بهم بقوميتهم

ومجتمعهم، فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمة، ومطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم، ولا ينافي ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ وهو قذفها عليها السلام في ولادة عيسى بالزنا، وهو كفر وبهتان معاً وقد كلمهم عيسى في أول ولادته وقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ (مريم / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ قد تقدم في قصص عيسى عليه السلام في سورة آل عمران أنهم اختلفوا في كيفية قتله صلباً وغير صلب فلعل حكايته تعالى عنهم دعوى قتله أولاً ثم ذكر القتل والصلب معاً في مقام الرد والنفي لبيان النفي التام بحيث لا يشوبه ريب فإن الصلب لكونه نوعاً خاصاً في تعذيب المجرمين لا يلازم القتل دائماً، ولا يتبادر الى الذهن عند إطلاق القتل، وقد اختلف في كيفية قتله فمجرد نفي القتل ربما أمكن أن يتأول فيه بأنهم ما قتلوه قتلاً عادياً، ولا ينافي ذلك أن يكونوا قتلوه صلباً فلذلك ذكر تعالى بعد قوله «وما قتلوه» قوله «وما صلبوه» ليؤدي الكلام حقه من الصراحة، وينص على أنه عليه السلام لم يتوف بأيديهم لا صلباً ولا غير مصلوب، بل شبه لهم أمره فأخذوا غير المسيح عليه السلام مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه، وليس من البعيد عادة، فإن القتل في أمثال تلك الاجتماعات الهمجية والهجمة والغوغاء ربما أخطأ المجرم الحقيقي الى غيره وقد قتله الجنديّون من الروميين، وليس لهم معرفة بحاله على نحو الكمال فمن الممكن أن يأخذوا مكانه غيره، ومع ذلك فقد وردت روايات أن الله تعالى ألقى شبهه على غيره فأخذ وقتل مكانه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي اختلفوا في عيسى أو في قتله ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي في جهل بالنسبة الى أمره ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ وهو التخمين أو رجحان ما بحسب ما أخذه بعضهم من أفواه بعض.

وقوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ أي ما قتلوه قتل يقين أو ما قتلوه أُخبرك خبر يقين، وربما قيل: إن الضمير في قوله «وما قتلوه» راجع الى العلم أي ما قتلوا العلم يقيناً. وقتل العلم لغة تمحيصه وتخليصه من الشك والريب، وربما قيل: إن الضمير يعود الى الظن أي ما محّضوا ظنهم وما تشبثوا فيه، وهذا المعنى على تقدير ثبوته معنى غريب لا يحمل عليه لفظ القرآن.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ وقد قص الله سبحانه هذه القصة في سورة آل عمران فقال: ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ (آل عمران / ٥٥) فذكر التوفي ثم الرفع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾. «إن» نافية والمبتدء محذوف يدل عليه الكلام في سياق النفي، والتقدير: وإن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن، والضمير في قوله «به» وقوله «يكون» راجع الى عيسى، وأما الضمير في قوله «قبل موته» ففيه خلاف.

والذي ينبغي التدبر والإمعان فيه هو أن وقوع قوله «ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً» في سياق قوله «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً» ظاهر في أن عيسى شهيد على جميعهم يوم القيامة كما أن جميعهم يؤمنون به قبل الموت، وقد حكى سبحانه قول عيسى في خصوص هذه الشهادة على وجه خاص، فقال عنه: ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ (المائدة / ١١٧).

فقصّر عليه السلام شهادته في أيام حياته فيهم قبل توفّيه، وهذه الآية أعني قوله «وإن من أهل الكتاب» الخ؛ تدل على شهادته على جميع من يؤمن به فلو كان المؤمن به هو الجميع كان لازمه أن لا يتوفّى إلا بعد الجميع، وهذا ينتج المعنى الثاني، وهو كونه عليه السلام حياً بعد، ويعود إليهم ثانياً حتى يؤمنوا به. نهاية الأمر أن يقال: إن من لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانياً يؤمن به عند

موته، ومن أدرك ذلك آمن به إيماناً اضطراراً أو اختياراً.

على أن الأنسب بوقوع هذه الآية «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به»، فيما وقع فيه من السياق أعني بعد قوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ـ الى أن قال ـ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً» أن تكون الآية في مقام بيان أنه لم يمت وأنه حي بعد اذ لا يتعلق ببيان إيمانهم الاضطراري وشهادته عليهم في غير هذه الصورة غرض ظاهر.

فهذا الذي ذكرناه يؤيد كون المراد بإيمانهم به قبل الموت إيمانهم جميعاً به قبل موته عليه السلام.

وبالجملة، الذي يفيده التدبير في سياق الآيات وما ينضم إليها من الآيات المربوطة بها هو أن عيسى عليه السلام لم يتوفَّ بقتل أو صلب ولا بالموت حتف الأنف على نحو ما نعرفه من مصداقه ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ وقد تكلمنا بما تيسر لنا من الكلام في قوله تعالى: ﴿يا عيسى إني متوفِّيك ورافعك إلي﴾ (آل عمران / ٥٥) في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الفاء للتفريع، وقد نكّر لفظ الظلم وكأنه للدلالة على تفخيم أمره أو للإبهام، اذ لا يتعلق على تشخيصه غرض مهم وهو بدل مما تقدم ذكره من فجائعهم غير أنه ليس بدل الكل من الكل كما ربما قيل، بل بدل البعض من الكل، فإنه تعالى جعل هذا الظلم منهم سبباً لتحريم الطيبات عليهم، ولم تحرَّم عليهم إلا في شريعة موسى المنزلة في التوراة، وبها تختتم شريعة موسى، وقد ذكر فيما ذكر من فجائعهم ومظالمهم أُمور جرت ووقعت بعد ذلك كالبهتان على مريم وغير ذلك.

فالمراد بالظلم بعض ما ذكر من مظالمهم الفجيعة فهو السبب لتحريم ما حرِّم عليهم من الطيبات بعد إحلالها.

ثم ضم الى ذلك قوله «وبصدهم عن سبيل الله كثيراً» وهو إعراضهم المتكرر عن سبيل الله «وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل».

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ معطوف على قوله «حرّمنا عليهم طيّبات» فقد استوجبوا بظالمهم من الله جزاءين: جزاء دنيوي عام وهو تحريم الطيّبات، وجزاء أُخروي خاص بالكافرين منهم وهو العذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿لٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ استثناء واستدراك من أهل الكتاب، «والراسخون» وما عطف عليه مبتدء و«يومنون» خبره، وقوله «منهم» متعلق بالراسخون و«من» فيه تبعيضيّة.

والظاهر أن «المؤمنون» يشارك «الراسخون» في تعلق قوله «منهم» به معنى والمعنى: لكن الراسخون في العلم والمؤمنون بالحقيقة من أهل الكتاب يؤمنون بك وبما أُنزل من قبلك، ويؤيده التعليل الآتي في قوله «إنّا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيّين من بعده» الخ؛ فإن ظاهر الآية كما سيأتي بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك والوحي الذي أكرمناك به يماثل الوحي الذي جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء الله: نوح والنبيون من بعده، والأنبياء من آل إبراهيم، وآل يعقوب، وآخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

وهذا المعنى ـ كما ترى ـ أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿لتنذر قوماً ما أُنذر آبائهم فهم غافلون﴾ (يس / ٦).

وقوله «والمقيمين الصلاة» معطوف على «الراسخون» ومنصوب على المدح، ومثله في العطف قوله «والموتون الزكاة» وقوله «والمؤمنون بالله واليوم الآخر» مبتدء خبره قوله «أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً» ولو كان قوله «والمقيمين الصلاة» مرفوعاً كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو ما عطف عليه مبتدء خبره قوله «أولئك».

وبالجملة قوله «لكن الراسخون في العلم» استثناء من أهل الكتاب من حيث لازم سؤالهم

النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما تقدم أن لازم سؤالهم ذلك أن لا يكفي ما جاءهم النبي ﷺ من الكتاب والحكمة المصدقين لما أُنزل من قبله من آيات الله على أنبيائه ورسله، في دعوتهم الى الحق وإثباته، مع أنه ﷺ لم يأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبياء، ولم يعش فيهم ولم يعاشرهم إلا بما عاشوا به وعاشروا به كما قال تعالى: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ (الأحقاف / ٩) وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ـ الى أن قال ـ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ (الأنبياء / ١٠).

فذكر الله سبحانه في فصل من القول: إن هؤلاء السائلين وهم أهل الكتاب ليست عندهم سجية اتباع الحق ولا ثبات ولا عزم ولا رأي، وكم من آية بينة ظلموها، ودعوة حق صدوا عنها، إلا أن الراسخين في العلم منهم لما كان عندهم ثبات على علمهم وما وضح من الحق لديهم، وكذا المؤمنون حقيقة منهم لما كان عندهم سجية اتباع الحق يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك لما وجدوا أن الذي نزّل إليك من الوحي يماثل ما نزّل من قبلك على سائر النبيين: نوح ومن بعده.

ومن هنا يظهر (أولاً) وجه توصيف من اتبع النبي ﷺ من أهل الكتاب بالراسخين في العلم والمؤمنين، فإن الآيات السابقة تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شيء من الحق وإن استوثق منهم بأغلظ المواثيق، وأنهم غير مؤمنين بآيات الله صادون عنها وإن جاءتهم البينات، فهؤلاء الذين استثناهم الله راسخون في العلم أو مؤمنون حقيقة.

و(ثانياً) وجه ذكر ما أُنزل قبلاً مع القرآن في قوله «يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك» لأن المقام مقام نفي الفرق بين القبيلين.

و(ثالثاً) أن قوله في الآية التالية «إنّا أوحينا إليك كما أوحينا» الخ؛ في مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ في مقام التعليل لقوله «يؤمنون بما أُنزل إليك» كما عرفت آنفاً. ومحصَّل المعنى ـ والله أعلم ـ أنهم آمنوا بما أُنزل إليك لأنَّا لم نؤتك أمراً مبتدعاً يختص من الدعاوي والجهات بما لا يوجد عنك غيرك من الأنبياء السابقين، بل الأمر على نهج واحد لا اختلاف فيه، فإنّا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده، ونوح أول نبي جاء بكتاب وشريعة، وكما أوحينا الى إبراهيم ومن بعده من آله، وهم يعرفونهم ويعرفون كيفية بعثتهم ودعوتهم، فنهم من أُوتي بكتاب كداود أُوتي زبوراً وهو وحي نبوي، وموسى اوتي التكليم وهو وحي نبوي، وغيرهما كإسماعيل وإسحاق ويعقوب أُرسلوا بغير كتاب، وذلك أيضاً عن وحي نبوي.

ويجمع الجميع أنهم رسل مبشّرون بثواب الله منذرون بعذابهن، أرسلهم الله لإتمام الحجة على الناس ببيان ما ينفعهم وما يضرهم في أُخراهم ودنياهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ تقدَّم في قوله تعالى: ﴿ويعقوب والأسباط﴾ (آل عمران / ٨٤) أنهم أنبياء من ذرية يعقوب أو من أسباط بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ قيل إنه بمعنى المكتوب من قولهم: زبره أي كتبه فالزبور بمعنى المزبور.

قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أحوال ثلاثة أو الأول حال والأخير ان وصفان له. وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى إرسال الرسل وتمام الحجة من الله على الناس، وأن العقل لا يغني وحده عن بعثة الأنبياء بالشرائع الإلهية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة﴾ (البقرة / ٢١٣) في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ واذا كانت له العزة المطلقة والحكمة المطلقة استحال أن يغلبه أحد بحجة بل له الحجة البالغة، قال تعالى: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾

(الأنعام / ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، استدراك آخر في معنى الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبي ﷺ تنزيل كتاب إليهم من السماء، فإن الذي ذكر الله تعالى في رد سؤالهم بقوله «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك» (الى آخر الآيات)؛ لازم معناه أن سؤالهم مردود إليهم، لأن ما جاء به النبي ﷺ بوحي من ربه لا يغاير نوعاً ما جاء به سائر النبيين من الوحي، فمن ادعى أنه مؤمن بما جاؤا به فعليه أن يؤمن بما جاء به من غير فرق.

ثم استدرك عنه بأن الله مع ذلك يشهد بما أنزل على نبيه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً.

ومتن شهادته قوله «أنزله بعلمه» فإن مجرد النزول لا يكفي في المدعى، لأن من أقسام النزول النزول بوحي من الشياطين، بأن يفسد الشيطان أمر الهداية الإلهية فيضع سبيلاً باطلاً مكان سبيل الله الحق، أو يخلط فيدخل شيئاً من الباطل في الوحي الإلهي الحق فيختلط الأمر، كما يشير الى نفيه بقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ (الجن / ٢٨) وقال تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ (الأنعام / ١٢١).

وبالجملة فالشهادة على مجرد النزول أو الإنزال لا يخرج الدعوى عن حال الإبهام، لكن تقييده بقوله «بعلمه» يوضح المراد كل الوضوح، ويفيد أن الله سبحانه أنزله الى رسوله وهو يعلم ماذا ينزل، ويحيط به ويحفظه من كيد الشياطين.

واذا كانت الشهادة على الإنزال، والإنزال إنما هو بواسطة الملائكة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ (البقرة / ٩٧) وقال تعالى في وصف هذا

الملك المكرَّم: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ (التكوير / ٢١) فدل على تحت أمره ملائكة اخرى وهم الذين ذكره اذ قال: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام برررة﴾ (عبس / ١٦).

وبالجملة لكون الملائكة وسائط في الإنزال فهم أيضاً شهداء كما أنه تعالى شهيد وكفى بالله شهيداً.

والدليل على شهادته تعالى ما أنزله في كتابه من آيات التحدي كقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء / ٨٨) وقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء / ٨٢)، وقوله: ﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ (يونس / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً﴾ لمّا ذكر تعالى الحجة البالغة في رسالة نبيه ونزول كتابه من عند الله، وأنه من سنخ الوحي الذي اوحى الى النبيين من قبله وأنه مقرون بشهادته وشهادة ملائكته وكفى به شهيداً حقق ضلال من كفر به وأعرض عنه كائناً من كان من أهل الكتاب.

وفي الآية تبديل الكتاب الذي كان الكلام في نزوله من عند الله بسبيل الله حيث قال «وصدوا عن سبيل الله» وفيه إيجاز لطيف كأنه قيل: إن الذين كفروا وصدوا عن هذا الكتاب والوحي الذي يتضمنه فقد كفروا وصدوا عن سبيل الله، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، الخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ الخ؛ تحقيق وتثبيت آخر مقامه التأكيد من الآية السابقة، وعلى هذا يكون المراد بالظلم هو الصد عن سبيل الله كما هو ظاهر.

ويمكن أن يكون الآية في مقام التعليل بالنسبة الى الآية السابقة، يبين فيها وجه ضلالهم البعيد، والمعنى ظاهر[1].

١٧٠ ● يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً.

١٧١ ● يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ إِلٰهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً.

١٧٢ ● لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلاَ الْمَلٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.

١٧٣ ● فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً.

١٧٤ ● يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً.

---

١. النساء ١٥٣ ـ ١٦٩: بحث روائي في: نزول عيسى عليه السلام عند ظهور المهدي عليه السلام.

١٧٥ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ﴾، خطاب عام لأهل الكتاب وغيرهم من الناس كافة، متفرّع على ما مر من البيان لأهل الكتاب، وإنما عمم الخطاب لصلاحية المدعو إليه وهو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرسالة.

وقوله «خيراً لكم» حال من الإيمان وهي حال لازمة أي حال كون الإيمان من صفته اللازمة أنه خير لكم.

وقوله «وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والارض»، أي إن تكفروا لم يزد كفركم عليكم شيئاً، ولا ينقص من الله سبحانه شيئاً، فإن كل شيء مما في السماوات والارض لله فمن المحال ان يسلب منه تعالى شيء من ملكه فإن في طباع كل شيء مما في السماوات والأرض أنه لله لا شريك له فكونه موجوداً وكونه مملوكاً شيء واحد بعينه، فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شيء وهو شيء؟

والآية من الكلمات الجامعة التي كلما أمعنت في تدبرها أفادت زيادة لطف في معناها، وسعة عجيبة في تبيانها، فإحاطة ملكه تعالى على الاشياء وآثارها تعطي في الكفر والإيمان والطاعة والمعصية معاني لطيفة، فعليك بزيادة التدبر فيها.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾، ظاهر الخطاب بقرينة ما يذكر فيه من أمر المسيح عليه السلام أنه خطاب للنصارى، وانما خوطبوا بأهل الكتاب ـ وهو وصف مشترك ـ اشعاراً بأن تسميهم بأهل الكتاب يقتضي أن

لا يتجاوزوا حدود ما أنزله الله وبيّنه في كتبه، ومما بيّنه أن لا يقولوا عليه الا الحق.

وربما أمكن أن يكون خطاباً لليهود والنصارى جميعاً، فإن اليهود أيضاً كالنصارى في غلوهم في الدين، وقولهم على الله غير الحق، كما قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ (التوبة / ٣٠)، وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة / ٣١)، وقال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ـ الى أن قال ـ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران / ٦٤).

وعلى هذا فقوله «انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله» الخ؛ تخصيص في الخطاب بعد التعميم أخذاً بتكليف طائفة من المخاطبين بما يخص بهم.

هذا، لكن يبعده أن ظاهر السياق كون قوله «انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله»، تعليلاً لقوله «لا تغلوا في دينكم»، ولازمه اختصاص الخطاب بالنصارى وقوله «انما المسيح» أي المبارك «عيسى بن مريم» تصريح بالاسم واسم الام ليكون أبعد من التفسير والتأويل بأي معنى مغاير، وليكون دليلاً على كونه انساناً مخلوقاً كأي انسان ذي ام. «كلمته ألقاها الى مريم» تفسير لمعنى الكلمة، فإنه كلمة «كن» التي ألقيت الى مريم البتول، لم يعمل في تكونه الاسباب العادية كالنكاح والاب، قال تعالى: ﴿اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٤٧) فكل شيء كلمة له تعالى غير أن سائر الاشياء مختلطة بالاسباب العادية، والذي اختص لاجله عيسى عليه السلام بوقوع اسم الكلمة هو فقدانه بعض الاسباب العادية في تولده «وروح منه» والروح من الامر، قال تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥) ولما كان عيسى عليه السلام كلمة «كن» التكوينية وهي أمر فهو روح.

وقد تقدم البحث عن الآية في الكلام على خلقة المسيح في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ تفريع على صدر الكلام بما أنه معلل بقوله: «انما المسيح» الخ؛ أي فاذا كان كذلك

وجب عليكم الإيمان على هذا النحو، وهو أن يكون ايماناً بالله بالربوبية ولرسله ـ ومنهم عيسى ـ بالرسالة، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا حال كون الانتهاء أو حال كون الإيمان بالله ورسله ونفي الثلاثة خيراً لكم.

والثلاثة هم الاقانيم الثلاثة: الاب والابن وروح القدس، وقد تقدم البحث عن ذلك في الآيات النازلة في أمر المسيح عليه السلام من سورة آل عمران.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل، يتعلق به قوله «أن يكون»، وهو منصوب بنزع الخافض، والتقدير: اسبحه تسبيحاً وانزهه تنزيهاً من أن يكون له ولد، والجملة اعتراض مأتي به للتعظيم.

وقوله «له ما في السماوات وما في الأرض» حال أو جملة استيناف، وهو على أي حال احتجاج على نفي الولد عنه سبحانه، فإن الولد كيفما فرض هو الذي يماثل المولد في سنخ ذاته متكوناً منه، واذا كان كل ما في السماوات والارض مملوكاً في أصل ذاته وآثاره لله تعالى وهو القيوم لكل شيء وحده فلا يماثله شيء من هذه الاشياء فلا ولد له.

والمقام مقام التعميم لكل ما في الوجود غير الله عز اسمه ولازم هذا أن يكون قوله «ما في السماوات وما في الارض» تعبيراً كنائياً عن جميع ما سوى الله سبحانه اذ نفس السماوات والارض مشمولة لهذه الحجة، وليست مما في السموات والارض بل هي نفسها.

ثم لما كان ما في الآية من امر ونهي هداية عامة لهم الى ما هو خير لهم في دنياهم واخراهم ذيّل الكلام بقوله «وكفى بالله وكيلاً» اي ولياً لشؤنكم، مدبراً لاموركم، يهديكم الى ما هو خير لكم ويدعوكم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلاَ الْمَلٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ احتجاج آخر على نفي الوهيّة المسيح عليه السلام مطلقاً سواء فرض كونه ولداً أو أنه

ثالث ثلاثة. فإن المسيح عبد الله لن يستنكف أبداً عن عبادته. وهذا مما لا ينكره النصارى، والأناجيل الدائرة عندهم صريحة في أنه كان يعبد الله تعالى، ولا معنى لعبادة الولد الذي هو سنخ إله ولا لعبادة الشيء لنفسه ولا لعبادة أحد الثلاثة لثالثها الذي ينطبق وجوده على كل منها. وقد تقدم الكلام على هذا البرهان في مباحث المسيح عليه السلام.

وقوله «ولا الملائكة المقربون» تعميم للكلام على الملائكة لجريان الحجة بعينها فيهم، وقد قال جماعة من المشركين ـ كمشركي العرب ـ: بكونهم بنات الله. فالجملة استطرادية.

والتعبير في الآية أعني قوله «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» عن عيسى عليه السلام بالمسيح، وكذا توصيف الملائكة بالمقربين مشعر بالعلية لما فيهما من معنى الوصف، أي إن عيسى لن يستنكف عن عبادته وكيف يستنكف وهو مسيح مبارك؟ ولا الملائكة وهم مقربون؟ ولو رجي فيهم أن يستنكفوا لم يبارك الله في هذا ولا قرّب هؤلاء. وقد وصف الله المسيح أيضاً بأن مقرب في قوله: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ (آل عمران / ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ حال من المسيح والملائكة وهو في موضع التعليل أي وكيف يستنكف المسيح والملائكة المقربون عن عبادته والحال أن الذين يستنكفون عن عبادته ويستكبرون من عباده من الانس والجن والملائكة يحشرون إليه جميعاً، فيجزون حسب أعمالهم، والمسيح والملائكة يعلمون ذلك ويؤمنون به ويتقونه.

ومن الدليل على أن قوله «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر» الخ؛ في معنى أن المسيح والملائكة المقربين عالمون بأن المستنكفين يحشرون اليه قوله «ويستكبر» إنما قيد به قوله «ومن يستنكف» لأن مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهي اذا لم يكن عن استكبار كما في الجهلاء والمستضعفين، وأما المسيح والملائكة فان استنكافهم لا يكون إلا عن استكبار

لكونهم عالمين بمقام ربهم، ولذلك اكتفى بذكر الاستنكاف فحسب فيهم، فيكون معنى تعليل هذا بقوله «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر»، أنهم عالمون بأن من يستنكف عن عبادته، الخ.

وقوله «جميعاً» أي صالحاً وطالحاً وهذا هو المصحح للتفضيل الذي يتلوه من قوله «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ التعرض لنفي الولي والنصير مقابلة لما قيل به من الوهية المسيح والملائكة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ قال الراغب: البرهان بيان للحجة، وهو فعلان مثل الرجحان والثنيان. وقال بعضهم: هو مصدر بره يبره اذا ابيض. انتهى، فهو على أي حال مصدر. وربما استعمل بمعنى الفاعل كما اذا اطلق على نفس الدليل والحجة.

والمراد بالنور هو القرآن لا محالة بقرينة قوله «وأنزلنا إليكم» ويمكن أن يراد بالبرهان أيضاً ذلك، والجملتان اذا تؤكد إحداهما الاخرى.

ويمكن أن يراد به النبي ﷺ، ويؤيده وقوع الآية في ذيل الآيات المبينة لصدق النبي في رسالته، ونزول القرآن من عند الله تعالى، وكون الآية تفريعاً لذلك ويؤيده أيضاً قوله تعالى في الآية التالية «واعتصموا به» لما تقدم في الكلام على قوله: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ (آل عمران / ١٠١) أن المراد بالاعتصام الأخذ بكتاب الله والاتباع لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾، بيان لثواب من اتّبع برهان ربه والنور النازل من عنده.

والآية كأنها منتزعة من الآية السابقة المبينة لثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات أعني

قوله «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله». ولعله لذلك لم يذكر هيهنا جزاء المتخلف من تبعية البرهان والنور، لأنه بعينه ما ذكر في الآية السابقة. فلا حاجه الى تكراره ثانياً بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين هيهنا جزاء المتبعين هنالك، وليس هناك إلا فريقان: المتبعون والمتخلفون.

وعلى هذا فقوله في هذه الآية «فسيدخلهم في رحمة منه» يحاذي قوله في تلك الآية «فيوفيهم اجورهم» وهو الجنة. وأيضاً قوله في هذه الآية «وفضل» يحاذي قوله في تلك الآية «ويزيدهم من فضله» وأما قوله «ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً» فهو من آثار ما ذكر فيها من الاعتصام بالله كما في قوله: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ (آل عمران / ١٠١).

١٧٦ ● يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، قد تقدم الكلام في معنى الاستفتاء والإفتاء ومعنى الكلالة في الآيات السابقة من السورة.

وقوله «ليس له ولد» ظاهره الأعم من الذكر والانثى على ما يفيده إطلاق الولد وحده. وقال في المجمع: فمعناه: ليس له ولد ولا والد، وإنما أضمرنا فيه الوالد للإجماع، انتهى. ولو كان لأحد الأبوين وجود لم تخل الآية من ذكر سهمه فالمفروض عدمهما.

وقوله «وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد» سهم الاخت من أخيها، والأخ من اخته، ومنه يظهر سهم الاخت من اختها والأخ من أخيه. ولو كان للفرضين الأخيرين فريضة اخرى لذكرت.

على أن قوله «وهو يرثها» في معنى قولنا: لو انعكس الامر ـ أي كان الأخ مكان الاخت ـ لذهب بالجميع، وعلى أن قوله «فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين» وهو سهم الاختين، وسهم الإخوة لم يفيد فيهما الميّت بكونه رجلاً أو امرأة فلا دخل لذكور الميت وانوثته في السهام.

والذي صرحت به الآية من السهام سهم الاخت الواحدة، والأخ الواحد، والاختين، والإخوة المختلطة من الرجال والنساء، ومن ذلك يعلم سهام باقي الفروض: منها: الاخوان، يذهبان بجميع المال ويقتسمان بالسوية يعلم ذلك من ذهاب الاخ الواحد بالجميع، ومنها الاخ الواحد مع اخت واحدة، ويصدق عليهما الإخوة كما تقدم في أول السورة فيشمله «وإن كانوا إخوة» على أن السنّة مبينة لجميع ذلك.

والسهام المذكورة تختص بما اذا كان هناك كلالة الاب وحده، أو كلالة الابوين وحده، وأما اذا اجتمعا كالاخت لابوين مع الاخت لاب ترث الاخت لاب. وقد تقدم ذكره في الكلام على آيات أول السورة.

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، أي حذر أن تضلوا أو لئلا تضلوا، وهو شائع في الكلام، قال عمرو بن كلثوم:

فعجّلنا القرى أن تشتمونا